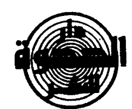


المجلد الثانى

تأليف
أنور الجندى



١٤١١ هـ
١٩٩١م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
٧ شارع السراى - المنيل - القاهرة ت : ٩٨٧٩٢٤
حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين - القاهرة ت : ٣٧٤٠٠٧١

(٥١)

السنّة النبوية

في مواجهة شبهات الإستشراق

لقد جاءت الحملة الضارية على السنّة النبوية كجزء من خطة واسعة من مخطط التغريب والغزو الفكري الواسع المركز الذي يستهدف سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والشريعة الإسلامية والقرآن الكريم والذي كشفت عنه مخططات التبشير والاستشراق منذ أكثر من قرن من الزمان وقد جنّد له عدد ضخم من خصوم الإسلام من المستشرقين ومن دعاة التغريب وأتباع الإرساليات في المشرق في محاولة يائسة لتدمير هذه المنابع الأصيلة من الفكر الإسلامي وخاصة في مجال العقائد والقيم الأساسية التي قام عليها المجتمع الإسلامي.

«لقد جنّد الاستعمار بعض المستشرقين - كما يقول الدكتور مصطفى السباعي - لتسميم هذا المنبع الروحي فنصبوا الفخ باسم البحث العلمي والتفكير الحر، وجاء نفر فوقعوا في الفخ وراحوا يروجون بضاعة الغزاة، إما عن جهل بحقيقة التراث الإسلامي أو عن انخداع بالأسلوب العلمي المزعوم وإما عن رغبة في الظهور بمظهر التحرر العقلي وشجاعة الرأي وإما عن انحراف فكري ووجداني بتأثير الاستهواء».

ويشير الباحثون في هذا المجال إلى أن الحملة على السنّة كانت قديمة، وأن الذين جددوها من المستشرقين ودعاة التغريب لم يزيدوا عن أن أعادوا ترديد الشبهات القديمة التي رددتها المجوسية والشعوبية ودعاة التأويل والتشبيه والمتاجرون بالشبهات والمفتريات من قديم.

إن هدف الغزو الفكري وحركة التغريب هي هدم مفهوم الإسلام الصحيح الجامع المترابط بين القرآن والسنّة: بين النص القرآني المنزّل، وبين السنّة التي

يتمثل فيها التطبيق العملي من حيث عمل الرسول وبيانه وتفصيل لما أجمل وتوضيح ما بلغ تقييد المطلق أو تخصيص لعام: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

ولقد تعددت جوانب الشبهات المثارة حول الشريعة وحول سيرة الرسول، وحول القرآن، وقد تولى علماء كثيرون دحض هذه الشبهات وكشف زيفها.

ثم جاءت في السنوات الأخيرة: تلك الدعوى الزائفة التي تحاول أن تقول: «إن القرآن وحده يكفي».

وقد دأب قوم في السنوات الأخيرة إلى توجيه الاتهامات إلى مصادر السنّة ورجالها.

وقد كتب هذه الأشياء مستشرقون لهم ولاء سياسي وولاء ديني معارض ومخالف للإسلام والمسلمين واعتمدوا في ذلك على خيوط جمعوها من فكر المعتزلة وغلاة الشيعة وحكايات الأدب التي كان مؤلفوها موضع الشبهة في أمرهم وتخريجهم للحقائق.

فكانت أبرز مقالتهم هي الاعتماد على كتب النوادر والمحاضرات والحكايات التي لم تؤلف لتاريخ الرجال ولم تصنف للتحقيق العلمي والتي جمعت من المجالس وكانت مادة التفكه والتسلية. وهذه لا يمكن أن تؤخذ منها الأدلة والشواهد.

وقد صدق من قال: إن علم الحديث لا يؤخذ من كتب الفقه وعلم التفسير لا يؤخذ من كتب اللغة لأن لكل علم مصادره التي تعرف منها حقائقه وقضاياه.

أما الاعتماد على حياة الحيوان للدميري، أو ثمار القلوب للثعالبي أو مقامات بديع الزمان للفصل في قضايا السنة فذلك هو التزييف الشديد.

ولقد كانت ظاهرة تسجيل أحاديث القصاص ونوادر المجالس من السموم الناقعات التي أفسدت العلم الصحيح واعتمد عليها أهل الباطن حتى قال ابن

الجوزي: إنه ما أمات العلم إلا القصاص . والسيوطي كتابه: «تحذير الخواص من أكاذيب القصاص».

وقد أورد فيه فصلاً في إنكار العلماء على القصاص ما أوردوه من أباطيل.

وحين تراجع تلك الشبهات المثارة حول «السنّة» فيما أورده محمود أبو رية أو حول الشريعة الإسلامية فيما أورده علي عبد الرازق يتضح لك أن النصوص المعتمد عليها كلها مستمدة من كتب الروايات ونوادر المجالس لا من كتب السنّة أو الفقه.

وذلك هو المنهج العلمي الذي قدّمه المستشرقون وأتباعهم لتزييف المفاهيم الأساسية والأصيلة بالاعتماد على كتب ألف ليلة والأغاني وغيرها من كتب الشعوبيين واعتبارها مراجع لمضاهاة العلم الصحيح وإثارة الشبهات في وجه الحقائق العلمية الأصيلة.

ونحن نجد أن كل الذين حملوا لواء الشبهات حول السنّة النبوية قد اعتمدوا على مصدر أساسي هو كتاب جولد سيهر: (العقيدة والشريعة في الإسلام) الذي ترجم وطبع بتوجيه الدكتور طه حسين إبان إشرافه على دار الكاتب المصري اليهودية.

وقد نقل عنه أحمد أمين كثيراً من شبهاته عن الحديث النبوي في كتابيه فجر الإسلاموضحاه.

كما نقل عنه الدكتور علي حسن عبد القادر في كتابه نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي.

وقد رددت هذه الشبهات كتب عدة: منها جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الإسلامي، وإبراهيم اليازجي في كتابه: «حضارة الإسلام في دار السلام» وفيليب حتى في كتابه: «تاريخ العرب» المطول.

وردد هذه الأفكار: كتّاب دائرة المعارف الإسلامية، وكارل بروكلمان في كتابه

تاريخ الشعوب الإسلامية ورددها مؤلف كتاب السيادة العربية وكريمير في كتابه الحضارة الإسلامية.

ولا ريب أن هذه المؤلفات كلها تحمل أهواء الاستشراق والغزو الفكري في محاولة انتقاص السنّة النبوية، إلى جانب الشريعة والقرآن وتاريخ الرسول والفكر الإسلامي كله.

ولا ريب أن دعوتها إلى إثارة الشبهات حول الحديث النبوي والدعوة إلى الاكتفاء بالنص القرآني عمل خطير، هو محاولة للفصل بين النص والتطبيق.

والتطبيق في الإسلام هو أخطر الجوانب وأهمها: هذا التطبيق المتمثل في «الأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ في تنفيذ النص القرني.

ومن هنا فإن النص القرآن وحده لا يكفي المسلمين اليوم، ولا يحقق لهم إسلاماً حقيقياً.

هذا فضلاً عن أن السنّة جزء من القرآن بنص القرآن: ﴿ وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

فهذا البيان الذي يفسر للناس ويطبق هو بإقرار القرآن نفسه جزء أساسي.

وحين يراجع الباحث كتابات المستشرقين يجد أن موقفهم من السنّة هو جزء من موقفهم من القرآن وسيرة الرسول تماماً.

فإن السنّة هي جزء من حياة الرسول وهي تفسير القرآن فلابد أن تنالها الشبهات وتصل إليها السموم وعوامل التزييف.

ويقول العالم الفرنسي المسلم: اتيان دينيه: إنه من العسير أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول أو يدرسون سنّته.

وقد صرح في مقدمة كتابه (تاريخ حياة سيدنا محمد): إنه من المتعذر بل من

المستحيل أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم ونزعاتهم المختلفة.

وأنه من أجل ذلك قد بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد ﷺ مبلغاً غطّى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية وذلك بالرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي المحايد.

وقد عرض «اتيان دينيه» للكثير من اتهاماتهم للنبي ورد عليها واتخذ من (لامنس) مثالاً واضحاً على صحة ما ذهب إليه وحكم به.

تتركز شكوك المستشرقين في السنة حول تأخر تدوين الحديث فهم يرون أن تأخر تدوين الحديث الذي بدأ في المائة الثانية للهجرة قد أعطي فرصة للمسلمين ليزيدوا وينقصوا في الحديث وفي وضع أحاديث لخدمة أغراضهم.

يردد هذا جولد زيهر و دوزي وسبرنجر.

وقد شك جولد زيهر في صحة وجود صحف كثيرة في عهد الرسول، راميا من وراء ذلك إلى إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور.

وهو يرمي أيضا إلى وصم السنة (أو أغلبها) بالاختلاف والوضع على ألسنة المدونين وهو يزعم أن هؤلاء المدونين لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق هواهم.

ويرى «سبرنجر» في كتابه (الحديث عند العرب) أن الشروع في التدوين وقع في القرن الهجري الثاني وأن السنة انتقلت بطريق المشافهة.

أما «دوزي» فهو ينكر نسبة هذه (التركة المجهولة) كما يسميها من الأحاديث إلى الرسول.

وقد رد عليهم كثير من الباحثين المسلمين داحضين هذه الأهواء الموغلة في الحقد والخصومة، ورد عليهم مصطفى السباعي وابو الحسن الندوي وصبحي الصالحوعشرات.

أولاً: ما أورده الدكتور مصطفى السباعي حين قال:

حرص الصحابة على حفظ حديث رسول الله ونقله وحرص رجال التابعين وتابعي التابعين من بعدهم على نقل هذا الحديث وجمعه وتنقيته من شوائب التحريف والتزيد وما قام به علماء السنة من جهود جبارة في تتبع الكذابين والوضاعين وفضح نواياهم ودخائلهم وبيان ما زادوه في السنة من أحاديث مكذوبة حتى جمعت السنة في كتب صحيحة وأشبعها النقاد بحثاً وتمحيصاً ثم خرجوا من ذلك إلى الاعتراف بصحتها والتسليم بها.

وإذا أمعنت النظر في ذلك كله أيقنت أن هؤلاء المستشرقين يتخبطون في أودية الأوهام وأنهم متأثرون بأوهامهم وعبثهم بكثير من الحقائق خضوعا إلى الهوى والبغض.

ثانياً: ما أشار إليه السيد أبو الحسن الندوي من أن الصحابة بدأوا في تدوين الحديث في عهد النبي ﷺ وكانت هناك مجموعات من الأحاديث لعدد من الصحابة منها صحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص.

وكان لعلي بن أبي طالب صحيفة وكان لأنس ولعبد الله بن عباس وعبد الله بن منصور وجابر بن عبد الله لكل منهم صحيفة، وهناك صحيفة همام بن منبه.

فإذا جمعت هذه الصحف والمجاميع كونت العدد الأكبر من الأحاديث التي جمعت في الجوامع والمسانيد والسنن في القرن الثالث.

وقد تحقق أن المجموع الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه ونسخه من غير نظام وترتيب في عصر الرسول وفي عصر الصحابة.

وقد شاع بين الناس حتى بين المثقفين والمؤلفين أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا في القرن الثالث الهجري وأحسنهم حالاً من يرى أنه كتب في القرن الثاني. وما نشأ هذا الغلط إلا عن طريقين :

الأول . أن عامة المؤرخين يضطرون إلى ذكر مدوني الحديث في القرن الثاني

ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التي كتبت في القرن الأول لأن عامتها فقدت أو ضاعت مع أنها اندمجت وذابت في المؤلفات المتأخرة.

الثاني : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذي لا يتصور أن يكون في هذه المجاميع الصغيرة التي كتبت في القرن الأول مع أن عدد الأحاديث الصحاح غير المتكررة المتحررة من المتابعات لا يزال قليلا فحديث (إنما الأعمال بالنيات) مثلا يروى من سبعين طريقاً فلو جردنا مجاميع الأحاديث من هذه المتابعات والشواهد لبقي عدد قليل من الأحاديث.

فالجامع الصحيح للبخاري لا تزيد الأحاديث التي رويت بالسند الصحيح فيه عن ألفين وستمائة وحديثين.

وأحاديث مسلم يبلغ عددها أربعة آلاف حديث ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب ودون بأقلام رواة العصر الأول.

وقد يزيد ما حفظ في الكتب والدفاتر كتابة وتحريراً في العصر النبوي وفي عصر الصحابة على عشرة آلاف حديث إذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وعلي وابن عباس.

وبذلك يمكن أن يقال إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح وما احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون في عصر الصحابة قبل أن يدون (الموطأ) و (الصحاح) بكثير.

وكانت الخطوة التالية أن قام المحدثون فنقبوا في البلاد بحثاً عن الرويات المختلفة والأسانيد الصحيحة وكان لهم في ذلك هيام وغرام لم يعرف عن أمة من الأمم في التاريخ،يدل على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدثين من التجول في البلاد والسفر في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ولم يقتصروا على جمع الحديث وتدوينه بل تعدت عنايتهم إلى الوسائط في رواية الحديث وهم الرواة الذي

رووا هذه الأحاديث فعنوا بمعرفتهم ومعرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حياتهم وأخلاقهم ومكانتهم في الأمانة والصدق والحفظ.

وهكذا ظهر علم أسماء الرجال إلى الوجود وكان من مفاخر هذه الأمة التي لا تشاركها فيها أمة من الأمم.

كما قال محقق كتاب الاصابة :

وكان هؤلاء المحدثون أقوياء وعلى جانب عظيم من الصبر والجلد واحتمال المشاق وقوة الذاكرة.

وهكذا نجد أن الشبهة التي اعتمدوا عليها في مهاجمة السنة كانت فاسدة ومضللة ولم يكن لها أي أساس علمي أو تاريخي.

ولعل من الخرافات التي جرى وراءها المستشرقون وأتباعهم فرحين بأنهم التقطوا شيئاً ما، هو ما أطلقوا عليه (معراج ابن عباس) والكتاب مكذوب. لايتداوله إلا عامة الناس وليس له سند يربطه به ولا رواية ترقى إليه وقد احتفل به المستشرقون ثم تبين لهم زيفه.

ولقد عرف عن هؤلاء المستشرقون طابع التحامل الواضح وتزييف النصوص في محاولة دعم شبهاتهم.

ومن أقوى الأمثلة على ذلك : أن جولد زيهر حرف عبارة الإمام الزهري «إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث» إلى لفظ (على كتابة أحاديث).

فضلا عن اتهامه الامام الزهري بأنه واضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك بن مروان ضد ابن الزبير، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير.

أما القول الذي يتردد على ألسنة أصحاب الشبهات مثل قولهم :

«لنرجع إلى القرآن الكريم ولكن يجب ألا نجعل من أنفسنا مستعيدين للسنة

فإن هذا القول كما يقول – العلامة محمد أسد (ليوبولد فايس) – يكشف بكل بساطة عن جهل بالإسلام.

أن الذين يقولون هذا القول يشبهون رجلاً يريد أن يدخل قصراً ولكنه لا يريد أن يستعمل المفتاح الأصلي الذي يستطيع به وحده أن يفتح الباب.

ويتساءل : هل هناك مبرر علمي لرفض الحديث على أنه مصدر يستند إليه الشرع الإسلامي ثم يجيب إنه على الرغم من جميع الجهود التي بذلت في سبيل تحدي الحديث على أنه نظام ما، فإنه أولئك النقاد العصريين من الشرقيين والغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفي الخالص بنتائج من البحث العلمي، لأن الجامعين لكتب الحديث الأول، خصوصاً الإمامين البخاري ومسلما قد قاموا بكل ما في طاقة البشر عند عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد كثيراً من الذي يلجأ إليه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظرفي مصادر التاريخ القديم.

ويكفي أن نقول: إنه نشأ من ذلك «علم تام الفروع» غايته الوحيدة البحث في معاني أحاديث الرسول وشكلها وطريقة روايتها.

وإن رفض الأحاديث الصحيحة جملة واحدة أو أقساماً ليس حتى اليوم إلا قضية ذوق.

وإن السبب الذي يحمل على مثل هذا الموقف من المعارضة بين كثيرين من المسلمين المعاصرين يمكن تتبعه إلى مصدره.

إن السبب يرجع إلى استحالة الجمع بين طريقة حياتنا وتفكيرنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الإسلام الصحيح.

ولكي يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم وقصور بيئتهم فإنهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنّة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بإمكانهم

حينئذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الكريم كما يشاؤون على أوجه من التفكير السطحي أي حسب ميول كل واحد منهم وطريقة تفكيره.

ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام على أنه نظام خلقي وعملي ونظام شخصي واجتماعي تنتهي بهذه الطريقة إلى التهافت والاندثار، وإن الذين خلبتهم المدنية الغربية لا يجدون مخرجاً من مأزقهم إلا برفض السنّة على أنها غير واجبة الاتباع بين المسلمين.

ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها، وبذلك يصح تحريف تعاليم القرآن الكريم لكي تظهر موافقته لروح المدنية الغربية أكثر وضوحاً.

وهذا هو الخطر الكامن وراء مهاجمة السنّة وإثارة الشبهة حول الحديث النبوي.

إن السنّة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن باعتباره عقيدة وباعتباره تشريعاً وباعتباره أخلاقاً وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله الشريف:

«ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه».

«ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرّم الله».

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله بالسنّة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن.

قال الإمام الشافعي: «وسنن رسول الله مع كتابه وجهان:

أحدهما نص كتاب ما تبعه رسول الله كما أنزل القرآن.

والآخر جملة ما بيّن رسول الله فيها عن الله معنى ما أراده بالجملة وأوضح

كيف أقر منها عاماً أو خاصاً وكيف أراد أن يأتي به العباد.

وكلاهما اتبع فيه كتاب الله.

ولقد كان الرسول ﷺ يبيّن للناس القرآن عقيدة وشريعة وأخلاقاً على وجوه شتّى وعلى أنحاء مختلفة وعلى أساليب متعددة.

بيّن لهم ذلك بسلوكه وبقوله وبإقراراته يقول: ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه.

وقد علم النبي الناس بثلاث طرق:

تعليماته الشفوية التي هي أقواله وسلوكه الشخصي الذي هو أعماله وسكوته الذي يعني موافقته الحكيمة على أفعال غيره من الناس.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: إن الأحاديث النبوية مرتبطة في الإسلام بالقرآن كما ترتبط قوانين الدولة بدستورها.

فالقرآن يأمرنا بالرجوع مباشرة للحديث النبوي لأخذ التعليمات المفصلة منه فيما يتعلق بأكبر فرضين أساسيين:

الصلاة والزكاة (والصلاة واجبنا تجاه الله والزكاة تجاه مجتمعنا).

والقرآن يقر السنّة ويمنحها حق إيضاح فرائض القرآن العامة والتعريف بها ولولا السنّة لظلّت النصوص القرآنية غير مفهومة ولبقيت مجملة.

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: كان بيان رسول الله يشتمل على بيان ما أجمل في كتاب الله: أجمل القرآن الصلاة والزكاة والحج وفصلها رسول الله.

بيّن ما فرض من الصلوات ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها، والزكاة ومواقيتها وكيف عمل الحج والعمرة.

كان يبيّن كيفية الصلاة بقوله وعمله: «صلّوا كما رأيتموني أصلي». وفي الحج:

«خذوا عني مناسككم». وفرض الله سبحانه الزكاة ولم يبيّن مقاديرها ولم يذكر بالتفصيل الزروع والثمار والأموال التي تجب فيها وقد بيّنت السنّة أن القاتل لا يرث وأن الوصية لا تكون في أكثر من الثلث وأن الديْن يقدم على الوصية

ومما يروى أن عمران بن حصين قال لرجل يريد أن يقتصر على القرآن دون السنّة: إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا تجهر فيها بالقراءة، ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا.

وقد أشار القرآن إلى مكانة السنّة وإلى مهمة رسول الله ﷺ في تفصيل ما أجمل القرآن وذلك في آيات بيّنات:

﴿ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُـوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ويقول الدكتور عبد الجليل شلبي: إن الآية الكريمة: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم ﴾ :

تدل على أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يوضح للناس الأحكام التي

نزلت إليهم في القرآن الكريم وكان لابد أن يفعل رسول الله وإلا لم يكن مبلّغاً من عند الله.

وقد كان هذا البيان بالقول والعمل معاً؛ فالسنّة إذن مرجع الشريعة الكامل وبيانها الموضح كما أن السنّة شقيقة القرآن وهي من عند الله تبارك وتعالى كما أن القرآن من عنده.

وقد أشار الأئمة الأعلام إلى أنه لا يرى قول لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلا وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي.

وإن مكانة السنّة النبوية والحديث من الشريعة الإسلامية لا تخفي وأثرها في الفقه الإسلامي منذ عصر النبي والصحابة حتى عصور الاجتهاد واستقرار المذاهب.

وإن من يطلّع على القرآن والسنّة يجد أن للسنّة الأثر الأكبر في اتساع دائرة التشريع الإسلامي وعظمته وخلوده، هذا التشريع العظيم الذي بهر أنظار علماء القانون في جميع أنحاء العالم هو ما حمل ويحمل أعداء الإسلام في الماضي والحاضر على مهاجمة السنّة والتشكيك في صحتها ورواتها من أعلام الصحابة.

* * *

(٥٢)

التربية الإسلامية
في الإطار الحقيقي للتعليم

إن قضية التربية في العصر الحديث هي واحدة من أكبر القضايا، وإنها بالنسبة للمسلمين من أكبر التحديات التي تواجه مجتمعهم اليوم بأشد الأخطار بل لعله ليس من المبالغة أو التزيد أن يقال إن أغلب التحديات التي تواجه المجتمع المسلم اليوم نتيجة تلك التبعية لمناهج التربية الغربية ، وانحسار منهج التربية الإسلامي إلى عدد قليل من الأقطار. وقد كشف أسلوب النقل أو الاقتباس من البرامج الغربية عن نتائج خطيرة أخرت سير حركة اليقظة الإسلامية وحالت دون قدرة المسلمين على امتلاك إرادتهم، وإقامة مجتمعهم الرباني سنوات طويلة، حتى جاءت النتائج الخطيرة كاشفة عن هذا السر الخفي، عندما وقعت أحداث النكبة والنكسة والسيطرة المثلثة: الاستعمار والصهيونية والماركسية على أجزاء من العالم الإسلامي كرأس جسر لتغريب هذه الأمة وحجبها عن منهجها القرآني الأصيل والحيلولة بينها وبين اقتعادها مكانها الصحيح الذي تؤهلها له مقدراتها وحجمها ومكانها الاستراتيجي، وتفوقها البشري وامتلاكها للثروة فضلاً عن تاريخها الحافل، وتراثها الضخم، ودورها الواضح في بناء الحضارة البشرية حين قدمت (المنهج العلمي التجريبي) الذي يقوم عليه التقدم المعاصر كله.

ولقد ظنت الأجيال السابقة التي واجهت الاستعمار أن التماسها أساليب الغرب في التربية والتعليم ربما حقق لها القدرة على الوصول إلى ما وصل إليه من ثقافة وعلم وقوة وتمكين، ولكن ذلك لم يكن إلا وهماً وخطأ سرعان ما كشفت الوقائع عن فساده، ذلك أن أمة من الأمم لن تستطيع أن تبني نفسها أو تجدد كيانها إلا إذا استمدت ذلك من جذورها وأصولها ومصادرها الأولى ومنابعها الحقة التي شكلتها أول الأمر، ومنذ جاء الإسلام وبنى هذه الأمة فكرياً وروحياً واجتماعياً وأخلاقياً، فإن هذه الأمة لن تستطيع أن تجد في أي منهج آخر سبيلها إلى اليقظة

والنهضة إذا كرثتها الأحداث، بل إن عدوها الذي انتهز فرصة غفلتها فسيطر عليها لا يمكن بحال أن يقدم لها ما يمكنها من التحرر من قبضته.

ولذلك فقد عمد أول ما عمد إلى هدم ثلاث دعائم من كيانها تلك هي: تعطيل الشريعة الإسلامية في نظام الحدود، وتغيير نظام الاقتصاد بفرض الربا ثم كانت خطته الماكرة في تغيير مناهج التربية والتعليم. وإخراج القرآن والإسلام من هذا البناء الثقافي وتفريغه من روح الإيمان بالله ومنهج التكامل والترابط بين القيم وأخلاقية أسلوب الحياة، وحشوه بروح المادية والتمرد على الله والثورة على القيم الروحية والخلقية وعبادة الجسد والمادة.

كان هذا هو الخطر الخطير والتحدي الشديد الذي بدأ به النفوذ الغربي تعامله مع المسلمين حين أقام مدارسه ومعاهده وإرسالياته، ثم فرض هذه المناهج على التعليم القومي الذي كان يشرف على إعداده بواسطة رجاله أمثال دنلوب في مصر ونظرائه في سوريا والمغرب والعراق من أجل إنشاء ما أسماه كرومر تلك الأجيال المؤمنة بالغرب المستسلمة له، أولئك المتفرنجين الذين أعدهم ليمتلكوا إرادة النفوذ في مختلف دوائر السياسة والثقافة والتربية والتعليم.

ولقد كان لتلك الإرساليات (على اختلاف مذاهبها) دورها الخطير في تنشئة أجيال متتالية في العالم الإسلامي تابعت منهج الغرب، وحجبت منهج الإسلام حتى جاءت النتائج بعد أكثر من سبعين عاماً لتدق الأبواب كاشفة عن أثر ذلك الخطر في ذلك التمكن الذي أتيح للصهيونية والماركسية والنفوذ الاستعماري على حواشي هذا الوطن وفي قلبه الحي: فلسطين والقدس.

يقول «هاملتون جب» المستشرق الانجليزي في تصوير أثر منهج التربية الغربية في العالم الإسلامي:

«لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين – ولو من غير وعي منهم – أثراً يجعلهم في

مظهرهم العام (لا دينيين) إلى حد بعيد». ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار.

هذه هي ثمرة خطة الاستعمار عن طريق التبشير بالمدرسة والاستشراق بالفكرة المسمومة، هذه الخطة التي ركزت تركيزاً شديداً على التعليم: ذلك أن التعليم كان هو المنطلق الحقيقي لخطة الغزو الثقافي ومازال، وسيظل إلى وقت طويل ما لم يتدارك المسئولون المسلمون، هذا الخطر ويعملوا على إيقاف السيطرة الأجنبية الواضحة الأثر على التعليم في مختلف مجالاته ومختلف بيئاته، ذلك أن القول اليوم بتوحيد مناهج التعليم العربية - على ما بها من تبعية وأخطار ومزالق وسموم ما تزال مسيطرة على جوانب كثيرة من أساليب الدراسات والتعليم -وهو أخطر كثيراً من الأثر الذي تحقق فعلاً في الأجيال الماضية. ذلك أن الاستعمار كان يتخذ في كل قطر من الأقطار التي يستعمرها أسلوباً معيناً من التعليم يستهدف به:

أولاً: عزل هذا القطر عن أمته العربية، ثم عزله عن العالم الإسلامي كله.

ثانياً: الحيلولة بينه وبين الارتباط بالجذور التاريخية والأدبية واللغوية بادعاء أن العصر الحديث بدأ بحملة نابليون، وأن هذا العصر منفصل تماماً عما قبله مما أطلق عليه زيفاً (عصر الانحطاط) محاولة في إيجاد شعور نفسي بالكراهية والانسلاخ من الماضي كله.

ثالثاً: بعد عزل القطر (إقليمياً) عن أمته العربية الصغرى، وأمته الإسلامية الكبرى، وعن أصول فكره الإسلامي القرآني الممتد وراء أربعة عشر قرناً تقوم الدعوة إلى إحياء التاريخ الإقليمي الفرعوني والفينيقي والأشوري والبابلي وغيره، ثم الارتباط بالغرب وحضارة الغرب وعظمة الغرب وبطولاته وأمجاده، هذا الغرب صاحب الحضارة التي لا تقهر وممدن الشعوب المتأخرة إلى آخر هذه الزيوف والأضاليل.

رابعاً: إعلاء العامية على اللغة الفصحى والاهتمام باللهجة الإقليمية وما يتصل بها من حكايات وفلكلور وأزجال وموال وغيره إغراقاً في العمق الإقليمي وحيلولة دون الامتداد الطبيعي للأمة.

خامساً: إعلاء اللغة الأجنبية الإنجليزية أو الفرنسية على اللغة العربية والدعوة إلى تعلمها بحجة أنها لغة الحضارة، ثم السيطرة عن طريقها فكرياً على المثقفين الذين يوجهون بعد ذلك إلى الاعتماد على فلسفات ومفاهيم الغرب.

هذه كانت خطة التعليم العامة مع تغييرات يسيرة اختلف بها المنهج من قطر إلى قطر، ولكن الهدف في الجملة واحد. هو ازدراء الوطن والأمة، والفكر العربي الإسلامي كله، والالتفاف نحو الغرب صاحب الحضارة وبطولاته وأمجاده.

وقد امتدت هذه الخطة بعد انتهاء الاحتلال. وكانت قد أنتجت ثمارها في تلك التشكيلات الفكرية المختلفة التي فرّقت الأمة شيعاً والتي ارتبطت بولاءات مختلفة مع هذا المعسكر أو ذاك. ومع هذه الثقافة أو تلك.

وقد ركّزت المناهج في المرحلة الاستقلالية على الوطنية والإقليمية، وامتدادها السابق على الإسلام وبقى جوهر الخطة التعليمية كما هو وظلت هذه المناهج توحي بشبهات وأخطاء واضحة: من هذه الأخطاء:

* القول بأن الإسلام دين عبادة لا صلة له بالمجتمع ولا بالدولة.

* القول بأن مخططات الاستعمار والتبشير الأولى في إفريقيا هي كشوف علمية.

* التاريخ الإسلامي لا يزيد عن أن يكون خلافات بين الحكام: وصراعاً على الملك، بين الأمويين والعباسيين والعلويين.

* تغليب مفاهيم الفلسفة الغربية المادية بما فيها من شكوك ومادية ومفاهيم

متعارضة مع الفكر الإسلامي بما يؤجج في النفس الشبهات والتمزق وبوادر الإلحاد.

* نسبة كل مناهج العلوم إلى الغرب وإنكار دور المسلمين الواضح فيها بما يصور للطالب المسلم أن المسلمين عالة على الأمم وأنه لم يكن لهم دور في بناء هذه العلوم.

* سيطرة نظريات المدرسة الاجتماعية والتحليل النفسي والوجودية على علوم النفس والأخلاق والاجتماع والتربية، وكلها تقوم على الفكر المادي.

* دراسة العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية دون بيان وجهة نظر الإسلام فيها. هذه بعض مناقص ومحاذير المناهج التعليمية القائمة في المدارس والجامعات في مختلف بلاد العالم الإسلامي والتي لم تتغير مطلقاً.

فإذا جاءت اليوم الدعوة إلى (توحيد مناهج التعليم) فإنها ستجعل مثل هذه المحاذير أخطاراً عامة تشمل البلاد العربية كلها. وكذا الأقطار التي لم تتصل من قبل بمناهج الإرساليات التبشيرية أو تسيطر عليها مناهج التعليم الغربية الدنلوبية وغيرها.

ومن هنا فإننا نواجه فعلا ما يمكن أن يسمى (أزمة التربية والتعليم) وهي جديرة بالبحث والعمل الجاد في سبيل تحرير مناهج التعليم من أخطار المفاهيم التي بثها الاستعمار وأراد بها السيطرة على العرب والمسلمين بإكراههم على انتقاص تراثهم وتاريخهم ودينهم وقيمهم. والإعجاب والتقدير والإعلاء المغرض لتاريخ الغربي وحضارة الغرب وفكره، واعتبار المناهج التي تدرس في كليات لعلوم والطب وغيرها وكأنها من نتاج الفكر الغربي وحده، مع أن أصولها الأولى هي من نتاج الحضارة الإسلامية مع الإضافات التي قدمها العصر الحديث.

كذلك فإن النظريات الخاصة بعلوم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد إنما تدرس على أنها (علوم) وهي في الحقيقة (نظريات) قامت على

أساس فروض فرضها الباحثون والفلاسفة في بيئات معينة، واستجابات لتحديات معينة وفي عصر معين.

ومن هنا فليست لها (أولاً) صفة الحقيقة العلمية التي لا تنقض .. (ثانياً) ليس لها صفة العالمية؛ ذلك لأن لكل أمة قيمها وعقائدها ومفاهيمها في مجال العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية.

وإذا نظرنا إلى ما قاله (هاملتون جب) قدرنا تماماً مدى الخطر الذي أحاط بالمسلمين خلال القرن الماضي. فقد سيطرت قوى الاستعمار ومن ورائها قوى الاستشراق والتغريب، والغزو الثقافي وأداتها معاهد التبشير وجامعات الإرساليات بمختلف صورها: أوروبية وأمريكية وكاثوليكية وبروتستانتية، ومن ورائها الفكر التلمودي والاستشراق اليهودي الذي يستهدف غايات أخرى تختلف عن الغايات التي يطمع فيها الاستعمار، والتي تقوم أساساً على غرض واحد هو حرمان هذه الأمة الإسلامية من تطبيق شريعتها الإسلامية كمنهج حياة، والحيلولة دون استمداد ثقافتها وتربيتها وتعليمها من مناهج القرآن الكريم.

ويمكن القول اليوم: إن التعليم بهذه الصورة مصدر كبير للغزو الفكري وسبب بارز من أسباب تخلف المسلمين، وقد انتقلنا في السنوات الأخيرة إلى الاعتراف بهذه الحقيقة وخفت رياح التهافت على التعليم الغربي، وبقي أن ندخل في المرحلة الحاسمة وهي النظر إلى هذه المناهج نظرة علمية وواقعية تضع علوم الغرب ونظرياته موضع الفحص والدراسة. وتكشف عن الفروق العميقة بين وجهة نظره وبين وجهة نظر الفكر الإسلامي. وكيف نجد أن معطيات الإسلام أكثر إيجابية وسلامة وقوة، ليس للمسلمين وحدهم، ولكن للبشرية كلها. هذا على حد تعبير العلامة السيد أبو الحسن الندوي في مهرجانه القريب الذي دعا فيه إلى إقامة التعليم في إطار التربية الإسلامية. والعمل على تغيير نظام التعليم تغييراً جوهرياً يلائم طبيعة الأمة الإسلامية انطلاقاً من مبدأ واضح صريح. هو أن عملية التربية في أي

أمة وبلاد ليست بضاعة تصدر أو تستورد كالمواد الخام. وإنما هي لباس يفصل على قامة الشعوب وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة، وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها وتموت في سبيلها. وإن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز، وتسليمها بالدلائل العلمية إذا احتيج إليها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة.أ.هـ ..

وإذا كنا نرى أن نتائج نظام التربية الغربي الوافد قد ظهر واضحاً في تكوين هذه الأجيال الممزقة المضطربة القلقة نفسياً المأزومة فكرياً في بلادنا فإننا نجد أن الغرب نفسه قد أخذ يعلن فساد هذا النظام الذي حمل لواءه الفيلسوف (ديوي) والذي وجد بالتآمر والتمويه أثراً عميقاً في البيئات الإسلامية والعربية، فقد نشرت مجلة تايم نيو مجازين في ١٩٤٨/٣/٣١م بحثاً ضافياً أشارت فيه إلى فشل نظرية (ديوي) القائلة بأن الله والفضيلة كلها غايات قابلة للنقاش والجدل. ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها وفي مكانها يجب أن تحل غاية أخرى هي: (الانسجام مع الحياة) وقال الكاتب:إن الطلبة قد انقطعت صلاتهم بتقاليدهم. وإن هناك حاجة كبرى إلى التفكير في الأهداف السليمة للتربية وإنه لابد أن يكون هدف التربية الأول هو تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك تاريخاً وأهدافاً وراء هذه التربية.

ولا ريب أن الفصل بين التربية والعقيدة والأخلاق إذا صلح كمنهج في الغرب فإنه لا يصلح في العالم الإسلامي والأمة العربية لأنه يتعارض مع (تكامل) منهجها في الحياة، ونظامها الرباني الجامع.

ومعنى عزل الدين أو الأخلاق عن التربية هو بناء شخصية هشة طرية لا تمتلك القدرة على حمل أمانة المجتمع ومسئولية الأمة. ولا تكون قادرة على مقاومة

العدوان أو مواجهة وسائل الإغراء، أو مؤامرات القضاء على كيان العالم الإسلامي.

وعندما نستقصى مناهج التربية في العالم كله فلن نجد منهجاً واحداً منها يحظي بما يحظي به برنامج التربية الإسلامية من التكامل الجامع، ومن الاستعلاء علي أهواء البشرية، وتمثل هذا التكامل في خصائص خمسة:-

أولاً: الجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل.

ثانياً: الجمع بين الروح والجسم والعقل.

ثالثاً: الجمع بين التربية للفرد والتربية للمجتمع.

رابعاً: الجمع بين الغايات الوطنية والغايات الإنسانية.

خامساً: الجمع بين التربية دينية وخلقية وعقلية.

ويقوم هذا المنهج على التوازن والموائمة فلا تطغى فيه ناحية من النواحي على ناحية أخرى. ويكون به الفرد فردياً واجتماعياً، لا تطغى فرديته على جماعيته يقوي استقلاله الذاتي وتفتحه الروحي والعقلي معاً. وينتقل من الأنانية إلى الغيرية، ومن الاهتمام الشخصي إلى التضحية للمجموع، إنه إعداد الفرد لذاته ولمجاوزة ذاته في نفس الوقت. وبذلك ينتقل الإنسان من أهوائه إلى الحق، ومن الحيوانية إلى الإنسانية، ومن البشرية إلى الربانية، فيكون قابلاً للارتفاع فوق المطامع والشهوات متجهاً إلى الارتفاع (ولو شئنا لرفعناه بها) ..

إن التربية الإسلامية تحقق للإنسان مفهوم الحرية الصحيح: التحرر من الأهواء والغرائز والنزوات. وذلك عكس ما ترمي إليه الغربية التي تقصر الإنسان على الاستجابة للأهواء.

والتربية الإسلامية تهدف إلى بناء الشخصية بالقرآن والتاريخ والقدوة الطيبة

وبناء الشخصية بناء أخلاقياً دينياً عقلياً. هو أساس بناء المجتمع ومصدر القوة في مواجهة كل تحديات الغزو الخارجي.

وأبلغ مظاهر التربية الإسلامية: التزكية: «تزكية النفس» والتزكية تعني تنمية الروح الأخلاقية ونزعات الخير وفق القاعدة القرآنية.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ وأبلغ ما تصل إليه التزكية: تربية الوازع النفسي القائم في أعماقها كالديدبان اليقظ يدعوها إلى الخير، ويردها عن الشر، ويشكل الإرادة الحية القادرة على الامتناع عن الشر والاندفاع إلى الخير وفق قاعدة الرسول الرائعة:

«طوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر» ..

وليس أصدق من حاجة الأمة الإسلامية إلى بناء مناهج التعليم في إطار التربية الإسلامية. ذلك أن التعليم هو تزويد الفرد بمجموعة من المعارف والخبرات والمهارات، وما لم تكن هذه العلوم حية ومتحركة في إطار تربوي أخلاقي ديني عقلي سليم فإنها تفقد وجهتها، ولا تكون عاملاً من عوامل البناء والتقدم في الطريق الصحيح.

لقد أعدت التربية الإسلامية المسلم بأمرين جهلتهما التربية الحديثة وعجزت عنهما نتيجة لمصادرها المادية، وهي قوام الحياة الحقّة على هذه الأرض وأساس بناء الإنسان الرباني وهما:

أولاً: الإرادة والمسئولية الفردية حتى يعرف الإنسان أنه قادر على أن يختار بين الخير والشر، والحق والباطل، وأن يمضي مع موكب الحياة ويضع لبنات جديدة في ذلك الصرح الحضاري الإنساني وبدون هذه الإرادة والمسئولية الفردية لا يكون الجزاء الدنيوي والأخروي بعد البعث والنشور، هذه المسئولية قائمة على غاية (هي الجزاء: ثواباً وعقاباً) وبدون هذا لا يستقيم عمل الإنسان ولا يعتصم في دائرة التقوى من شر الأهواء والمطامع.

ثانياً: الالتزام الأخلاقي: الذي يحيط بالإنسان وعمله إحاطة السوار بالمعصم فيدفعه دائماً إلى الطريق الصحيح والشريف ويحميه من أخطار المعصية والخطيئة والفساد والانحلال والإباحية، ويجعله إنساناً قوياً قادراً على مواجهة كل خطر، والوقوف في وجه كل عاصفة.

ومن خلال هذين السلاحين الماضيين رسمت التربية الإسلامية طريقها الحق في بناء الإنسان لنفسه ليصير رجلاً معتصماً بالإيمان بالله عن الخطأ والفساد وعاملاً لأسرته وجماعته دون أن تجرفه الأنانية الطاغية. فهو بذلك يكون قادراً على حماية عقيدته ووطنه وأمته من كل ما تتعرض له من تحديات وأخطار سواء كانت في مجال الأرض أم في مجال الفكر، أما حين تخلو التربية الحديثة الوافدة في العالم الإسلامي من قيم العقيدة والأخلاق فإنها لن تكون إلا تبعية شائنة لأهواء الحياة وأخطاء المجتمعات. وذلك هو ما قصدت إليه القوى المتربصة بالإنسانية الشر الراغبة في تدمير المجتمعات قبل السيطرة عليها.

وبعد فإن الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة الإسلامية إنما بدأ من التعليم وإن اليقظة الحقيقية إنما تبدأ منه، ولذا حجبت القوة الاستعمارية منهج الإسلام في التربية وأقامت نظاماً ازدواجياً خطيراً مزق الأمة ودمر فكرها، وأنشأ تلك التحديات الخطيرة، فالأسلوب الصحيح اليوم هو: أن تعود الأمة الإسلامية كلها إلى إسلوب التربية الإسلامية أساساً في السنوات الأولى، ثم يتفرع منها التعليم المدني زراعياً أو تجارياً أو صناعياً أو ثقافياً عاماً، وهذا هو ما يسمى بالتعليم الأصيل. ثم ينبثق منه التعليم المتخصص، وأن يقوم منهج التعليم كله في إطار التربية الإسلامية الجامعة المتكاملة.

وبعد؛ فإن تلك المحاولات التي ترمي إلى «ترقيع» التعليم المدني الوافد القائم الآن بإدخال ما يسمى مادة الدين، إنما هو عمل ناقص، ومحاولة باطلة لإطالة أمد المنهج الوضعي الاستعماري. إن الإسلام ليس مادة الدين التي تدرس منها بعض

آيات وأحاديث وصلوات. إن الإسلام هو مادة كل المناهج والعلوم والدراسات: اللغة العربية وعلم النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون وهو روح كل الدراسات في المدرسة الأولية والوسطى والإعدادية والثانوية والجامعة جميعاً.

ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمفهوم الدين الغربي، ولكنه منهج حياة ونظام – مجتمع والدين جزء منه. ولن تستطيع هذه الأمة أن تحقق وجودها وتمتلك إرادتها ما لم تتحرر من النفوذ الغربي ومن مناهج التربية والتعليم التي صنعت أجيال الهزيمة والنكسة والانهيار والتدمير، ولابد مع التماس منابع الإسلام في الاقتصاد الإسلامي والشريعة الإسلامية أن يكون هناك تربية إسلامية أصيلة.

نحن نعرف أن التربية والتعليم والثقافة هي وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة.

وإن ازدواجية التعليم وازدواجية الثقافة هي أخطر الرياح الصفراء العاتية التي تهب الآن في وجه الإسلام الحق. المدرسة والبيت والصحيفة والكتاب والجامعة كل هؤلاء مدعوون لبناء منهج تربوي جديد قوامه تكامل التربية الإسلامية روحاً وعقلاً وجسماً، وقومية وإنسانية، وفردية وجماعية، وخلقية وعقلية، وربط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

إن هذا هو المصدر الوحيد للحصانة من خطر التيارات الوافدة والدعوات الهدّامة، هذه الأخطار التي تتمثل في الفكر الاستعماري والماركسي والصهيوني،هذا الخطر ليست هناك أمة معرضة له بقدر ما تتعرض الأمة الإسلامية؛ لأنها هي وحدها التي تمتلك ثقافة وفكراً مستقلاً ومتميزاً له ذاتيته الخاصة وطابعه المفرد من وحي السماء يستمد مفهومه من التوحيد والحق

والعدل والرحمة جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ومازال المسلمون مسئولين عن تبليغ هذا المنهج وحمايته وتطبيقه على مجتمعاتهم.

* * *

* *

*

التـاريـخ
في مفهوم الإسلام

يقارن الأستاذ ولفرد كانتول سميث في كتابه (الإسلام في التاريخ الحديث) بين إحساس الهندي والمسيحي والماركسي تجاه التاريخ وإحساس المسلم تجاه التاريخ فيقول: «إن الرجل الهندي لا يأبه للتاريخ ولا يحس بوجوده، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس، والهندي مشغول دائماً بعالم الروح، عالم اللانهائية، ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب. أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشري المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود، ويسير هذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال، والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر، وهبوطه وانحرافه، أما التاريخ في نظر الماركسي فهو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده، وكل شيء عداه باطل، والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها، أما المسلم فإنه يحس بالتاريخ إحساساً جاداً، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ويؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي أو جماعي، وكل شعور فردي أو جماعي، بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق. والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية لتحقيق ملكوت الله في الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور، فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل

متوقف على الحاضر، فالمفهوم الإسلامي واضح الإيجابية، فبينما غير المسلم يضحي بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حي ويسامح لها بالمرور، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله. فإن المسلم حين يضحي بنفسه، ففي حسه أن هناك نظاماً إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض، وفي حسه وهو يضحي أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام».

هذه العبارات للكاتب الغربي تقرب من الحقيقة وتكشف عن الفارق العميق بين فهم المسلم للتاريخ وبين فهم الطوائف الأخرى، ويتابع (اليان وايدغراي) هذا المعنى حين يقول: «إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ هي نظرة بناءة، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحي (القرآن) فإن إرادتها حينئذ تتطابق وإرادة الله، ولا يعود يوجد من يعصي أوامره، ويعم الإخاء بين البشر، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن الأمر لإرادة الله، وقد قدموا أفضل فيلسوف للتاريخ، وهو ابن خلدون وكان أول فيلسوف حلل درجات تأثير المحيط والدوافع النفسية التي تعمل عملها في الحياة الإنسانية، وتسبب نشوء الحضارات وانقراضها، ونشاهد بوجه عام تيارين يتنازعان السيطرة على أقطار فلاسفة التاريخ المسلمين: المفهوم الحركي، والمفهوم القدري وكلها تظهر بوضوح في تقلبات القوى الاجتماعية وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بما هو وقتي وفوري وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية، والتاريخ بالنسبة للبوذية والهنود ليس إلا وهماً».

ويؤكد الأستاذ (تريتون) في كتابه «الإسلام: عقيدته وعبادته» أن التفسير المادي لا يصلح لفهم تاريخ الإسلام، يقول: إذا صح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تعطيل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم، وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة

لهذه الظاهرة الفريدة فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد: ألا وهو الإسلام».

وهذا ما نريد أن نصل إليه: في أن أي محاولة لتفسير تاريخ الإسلام بغير التفسير الإسلامي للتاريخ محاولة باطلة وأن جميع مذاهب التفهير التاريخي: المادية والاقتصادية والجغرافية والمناخية .. الخ لا تستطيع أن تستوعب مفهوم التاريخ الإسلامي ولكل أمة وعقيدة مقاييسها التي تشكل قانون تفسيرها.

وإننا لنجد الآن محاولات لتفسير تاريخ الإسلام تنبعث من النظرية الغربية الليبرالية، وهذه قاصرة، ومن النظرية الماركسية وهذه قاصرة أيضاً.

ومن النظرية المادية وهذه قاصرة أيضاً، ذلك أن الإسلام الذي يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة والحياة والموت، والدنيا والآخرة والنفس والجسد، والثوابت والمتغيرات والكلي والجزئي، لا يمكن أن يفسر بمنهج جزئي سواء أكان مادياً أم روحياً خالصاً، ولذلك فإن هذه المحاولات كلها التي تحاول أن تضع الإسلام في صف الديمقراطية مرة، أو الاشتراكية مرة، أو الحرية مرة، كلها قاصرة،فالإسلام له ذاتيته الخاصة وتكوينه الجامع المنفرد الذي قد يلتقي ثمة مع جانب من هذا أو ذاك ولكنه لن يكون إلا هو وحده الذي تعجز المناهج المادية ونظريات التفسير الجزئية عن استيعابه وفهمه ولعل هؤلاء الثلاثة: كانتول وجراي وتريتون قد ردوا على هذه المحاولات وهم كتاب غربيون عرفوا حقيقة ذاتية الإسلام وطابعه المميز.

واجه التاريخ (الإسلامي) حملة ضخمة من حملات التغريب والغزو الثقافي تستهدف إثارة الشبهات والشكوك حوله، بقصد وضعه موضع الازدراء والانتقاص في نظر أهله، وحتى يفقد أهميته من حيث إنه قوة انبعاث ويقظة، وكان هدف التغريب ينصب على (اختلاق تاريخ إسلامي منفر) عسى أن ينتزع من المسلمين ثقتهم في ماضيهم الإسلامي وفي أنفسهم كمسلمين، يسلخهم من تراثهم الفكري وتاريخهم الإسلامي فيصبحون بلا ماض، فتضعف معنوياتهم، وبذا تسهل السيطرة عليهم فكرياً وثقافياً، مقدمة للسيطرة عليهم عسكرياً واقتصادياً، وقد

جرت المحاولات لإحلال مناهج الغرب في تفسير التاريخ الإسلامي بديلاً للدراسات الإسلامية، وفرضت كتب الغرب في المدارس والجامعات، وجعلت مناهج الغرب في دراسة التاريخ هي الجواز إلى تخريج المؤرخين العرب وإلى صدارتهم.

وقد امتلأت هذه الدراسات بالتطاول على أعلام الإسلام وقادته وتوابعه والتشهير بهؤلاء العظماء في كل عصر، عن طريق تزييف طائفة من الأخبار المشكوك فيها والقصص والاعتماد على مصادر غير أصيلة أو مطعون في صحتها لالتماس هذه الشبهات حول بطولات رجال التاريخ الإسلامي وأباح بعض المتصدرين في الجامعات «للخيال أن يذهب مذهبه في ابتكار الصور التي تقرب للناس حقائق التاريخ» وبذلك جرى تصيد الروايات من هنا وهناك لمحاولة دعم آراء محرّفة معدة أساساً لإثارة الشبهات وما تزال هذه المحاولة تتخذ للتآمر على التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً.

فقد أشار الشيخ أبو بكر بن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) إلى هذه المراجع المشبوهة حين قال: لتحذروا من المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب فهم أهل جهالة بحرمات الدين وعلى بدعة مصرون فلا تبالوا بما رووا، ولا تنقلوا رواية إلا عن أئمة الحديث».

ولقد رسم مؤرخو المسلمين منهج البحث التاريخي على نحو علمي صحيح، وحذروا من خطر ذوي الأغراض وقال الإمام تاج الدين السبكي: لابد أن يكون المؤرخ عالماً عدلاً عارفاً بحال من يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما يحمله على الضغن منه وربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة واعتقاد أنهم على ضلال فيقع فيهم أو يقصر في الثناء عليهم (طبقات الشافعية).

وثمة خطر آخر خطير واجه التاريخ الإسلامي في العصر الحديث: ذلك هو مفهوم التاريخ في الفكر الغربي فقد ظهرت عدة تفسيرات تحاول أن تفرض

نفسها على فهم التاريخ منها: التفسير الجغرافي، والتفسير البيولوجي والتفسير الاقتصادي والتفسير الاجتماعي والتفسير النفسي وقد حاول كل من الباحثين أن يؤكد تفسيره ويعليه على كل العوامل ويرى البعض أن العامل الجغرافي هو العامل الأول اعتماداً على التضاريس الأرضية ومصادر الثروة وتوزيع الحياة والأحوال الجوية، ويرى غيرهم أن أثر الوراثة هو العامل الأوحد أو الأهم.

ويرى آخرون أن عامل البيئة هو القوة المؤثرة في حياة الناس.

ويرى ماركس: أن العامل الاقتصادي هو العامل الأساسي في حركة التاريخ.

ويرى توينبي (التفسير الاجتماعي والحضاري) أن موضوعات التاريخ الصحيحة هي المجتمعات الإنسانية ومدنياتها لا الشعوب والأقطار. ويرى فرويد: أن العامل الأساسي ليس سوى أزمات نفوس الأفراد التي أدت إلى الانقلابات الهائلة في التاريخ ويرى أصحاب نظرية التفسير البيولوجي للتاريخ: أن التاريخ يتناول حياة الإنسان من حيث هو إنسان ويبحث في أثر الزمن فيما هو إنساني بحت، والبيولوجيا هي البحث عن أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو والانحلال والتطور.

وهناك تفسير (هيجل) السياسي، وكل هذه النظريات مجرد احتمالات وفروض، ونظرات محدودة قاصرة، ومركزة على جانب واحد ولعلها جميعاً تمثل مجموع العوامل المؤثرة في التاريخ على أقدار معينة وأدوار متفاوتة، ولقد عجزت كل نظرية من هذه النظريات في أن تحقق الفرض أو أن تثبت سيطرتها بمفردها على تفسير التاريخ.

أما مفهوم الإسلام لتفسير التاريخ فهو لا يأخذ بعامل واحد من هذه العوامل، ولكنه مفهوم جامع يستمد طابعه الأساسي من الفهم لإرادة الله العليا المحيطة بالكون والأشياء، وبالترابط الوثيق بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وبين إرادة الإنسان ذات الأثر الجوهري في التغيير، وبين العوامل المادية والروحية والنفسية

جميعاً، فليس لعامل واحد مهما كان قدره الانفراد بالتأثير، وترى النظرة الإسلامية أن العوامل المعنوية: روحية وأدبية ونفسية لها آثارها البعيدة التي تزيد كثيراً عن العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي يركز عليها الفكر الغربي في مرحلته المادية التي يعيشها في هذه القرون الأخيرة.

يقول ولفرد كانتول سميث: إن الإسلام يرى لكل حادث دنيوي تفسيرين، ويقيسه بمعيارين: أحدهما وقتي والآخر أبدي، ومع أن الإسلام والماركسية يعطيان أهمية بالغة لتطور التاريخ وحتميته فإن الإسلام رغم اعترافه بمغزى التاريخ الحاسم إلا أنه يرى أن هذا المغزى لا يذوب في خضم التاريخ نفسه بل يوجد من القيم والأنماط ما يعلو على مجريات التاريخ والحكم على هذه المجريات يمكن بل يجب أن يكون في ضوء هذه القيم – والمقصود بذلك هي (القيم الروحية) التي لا وزن لها في الماركسية.

وتختلف وجهات النظر كثيراً بين التفسير الغربي (بألوانه المختلفة) للتاريخ وصراعاته المتعددة وبين التفسير الإسلامي.

أولاً: ومن وجوه الاختلاف: أن النظرة الغربية المنبثة في مختلف نظريات تفسير التاريخ (وخاصة النظرية الماركسية) يعتبر أن «تاريخ أوروبا» وحده هو تاريخ العالم، أما بقية أجزاء العالم وحضاراته وتاريخه فهي ليست موضع أي تقدير، كذلك فهي تنظر إلى (الدين) بعامة نظرة مظلمة، موقف غربي خاص بالغرب وحده لا تشترك معه أمم الشرق أو أي أمة أخرى ويرجع ذلك إلى الصراع الذي وقع بين الكنيسة وبين النهضة الأوروبية الحديثة، وقد تأثر فلاسفة التاريخ جميعاً بهذين العاملين: كما تأثر ماركس وانجلز بالنظرة المادية إلى التاريخ، لارتباطهما بداروين وفورنباخ، فقلبا فلسفة هيجل رأساً على عقب، كما كانا لا يعتدان بالنظرة الإسلامية، وكانا يصدران عن المعركة الأوروبية في رأيهم في الدين بأنه أفيون

الشعوب، هذا الرأي محدود بحدود التجربة التي عاشوها، والتفسيرات التي وجدوها في بيئتهم.

ولعل من أسوأ الظلمات التي تحول دون فهم الحقيقة البشرية هو الرأي الذي يحمله التفسير المادي للتاريخ بأن الأفكار والمشاعر الإنسانية والبشرية ليست سوى مظهر من مظاهر العوامل المادية في المجتمع.

ثانياً: عجز التفسير التاريخي الغربي (وهو المادي المصدر) عن استيعاب حقائق التاريخ الإسلامي التي تعلو على التصور المادي فسرعة انتشار الإسلام على هذا النحو المذهل واستطاعته في خلال فترة تقل عن قرن من الزمان أن يبسط جناحيه من حدود الصين إلى حدود فرنسا، هذا في تقدير التفسير الغربي مشكوك فيه، ذلك لأن الفكر الغربي لا يؤمن بأثر: الإيمان العميق القادر عن طريق الإرادة الإنسانية إلى التغيير الواسع، كذلك فالتفسير الغربي يعجز عن فهم استيعاب قاعدة إسلامية أساسية هي «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» لك أن التقدير المادي يرى أن الكثرة هي الغالبة أبداً، بينما يضع الإسلام قوة جديدة مضاعفة إلى قوة العدد والعدة هي قوة الإيمان، وقد أكدت الفتوح الإسلامية هذه الظاهرة بما لا يدع مجالاً للشك، فقد ثبت في مختلف الغزوات والمعارك التي دخلها المسلمون أن عددهم فيها كان أقل من عدد خصومهم بمراحل، وأن عدد عدوهم كان مضاعفاً أكثر من مرة بل مرات، فالنصر هنا يرجع إلى عنصر الإيمان ذي لا يعتد به في الحساب عند التفسير الغربي للتاريخ.

ثالثاً: ظاهرة التعصب الواضحة في التفسير الغربي للتاريخ الإسلامي.

وهذه الظاهرة طبيعية فهي مستمدة من الاختلاف بين الأديان ومن اختلاف وجهات النظر، ومن الصراع القائم بين الشرق والغرب، ومن وجهة نظر الاستعمار الذي يرى أن الغرب هو الجنس الأبيض ممدن البشرية وأن بلاد الإسلام هي العناصر الملونة التي يرى أنها أقل في الدرجة والقدرة والكفاية.

ومن خلال نظرة التعصب الغربي تجري تفسيرات خاطئة، في مقدمتها الادعاء بأن «انتشار الإسلام جاء بالسيف» وهي مبطلة، والحق أن الإسلام لم يرفع السيف إلا دفاعاً عن كيانه حين يتعرض وجوده للخطر، وذلك في مقاومة محاولات المتآمرين عليه.

* * *

وهكذا نجد أن الإسلام في عقيدته وحركته له ذاتية خاصة تعجز عنها النظريات التي تحاول أن تطبق مفاهيمها لتفسيره.

ومن هنا فلابد أن يكون للتاريخ الإسلامي تفسيره الأصيل.

وإن كل ما يشوب النظرة الغربية من شبهات حول حركة الإسلام يسقط حين يوضع الإسلام موضع التقدير الصحيح: وهو معرفة طبيعة الإسلام. وطبيعة الإسلام أنها عقيدة تجمع بين الواقع والمثال والدنيا والآخرة والقلب والعقل، ولها مرونة واضحة وأفق منطلق وإطارات واسعة تجعله قادراً على مواجهة الحضارات والثقافات المختلفة على قاعدته الأساسية، مع سماحته الواضحة في إتاحة الفرصة لأهل البلاد في حكم أنفسهم، حرية العبادة دون فرض عقيدته بالقوة، وكون الإسلام ليس ديناً فحسب، بل نظام مجتمع ومنهج حياة، الدين بمعنى أن العبادة جزء منه وأنه استطاع أن يستوعب حضارات الأمم وثقافاتها وأن يهضم الصالح منها ويسيغه وينميه في إطار مفهومه الأصيل: «التوحيد» وأنه وفق بين العلم والدين، وبين الخلق والسياسة، ومن هنا فقد كان التوحيد أبرز عوامل اندفاع التاريخ الإسلامي بأجنحته: العدل والإخاء والرحمة والكرامة والاعتزاز بالله، وقد بدا الطابع الإنساني والنزعة العالمية واضحة في حركته منذ اليوم الأول.

هذا فضلاً عن بقاء القرآن وهو الوثيقة الكبرى له سليمة من الزيف، ومع وضوح شخصية الرسول ﷺ وحياته وتصرفاته وأقواله وأعماله على نحو يكاد

يكون كاملاً، وكذلك وضوح شخصيات أبطال الإسلام ومواقفهم وتفاصيل هذا التاريخ كله ودقائقه على نحو علمي دقيق.

ولقد كان الإسلام هو الدافع الأول والباعث الأساسي إلى توحيد العرب وإخراجهم من شبه جزيرتهم، وانتشارهم في الأرض، ولم تستطع الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام أن تغير الطابع الأصيل للنظم الأساسية ولكنها جددت البناء الخارجي وأعادت تشكيل الفروع وصياغتها في إطار الإسلام لم يصاحبها روح التعصب والخضوع الأعمى وإنما صاحبها اقتناع مستنير وإيمان عميق.

ولما كان الإسلام نفسه يقوم على أساس النظرة الجامعة فإنه لا يمكن أن يفسر تاريخه إلا من خلال مفهوم جامع مترابط.

ولقد ظل التاريخ الإسلامي خلال طريقه الطويل مرتبطاً بالتاريخ الإنساني، أخذاً وعطاء، وكان له آثاره البعيدة في التغيرات الواسعة التي عرفتها البشرية، ومن حيث تحررها من عبودية الوثن وعبودية القيصر والإمبراطور والفرعون ومن حيث إهداء الإسلام لها المنهج التجريبي الذي نقل البشرية إلى عصر العلم، وتاريخ الإسلام وحدة كاملة متصلة الحلقات، وهو مراحل متسلسلة يسلم بعضها إلى بعض ذلك لأنه يصدر عن قوة واحدة مؤثرة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة، ولقد أشار الباحثون إلى أن الإسلام لا تخبو له نهضة حتى تبدأ نهضة أخرى، وأن الإسلام أثر في كل الأحداث العالمية منذ وجوده إلى اليوم وأن تأثيره سيظل مستمراً لا يتوقف فمازال الإسلام ينمو ويزداد اتساعاً حتى شمل القارات الخمس الآن، ولن يتأتى لقوة مهما عظمت أن تقضي على الإسلام، وإن كانت تستطيع أن تديل منه وأن تؤثر في وجوده بالأزمة أو بالغزو أو بالتغريب، ولكنه قادر على استعادة قوته ودفع الضرر عنه بالتجدد من الداخل، ولن يستطيع أي مؤرخ منصف أن يكتب تاريخ البشرية متجاهلاً تاريخ الإسلام وأثره البعيد في مجريات الأحداث.

رابعاً: كانت أخطر محاولات «التغريب» تتركز في المنهج الذي فرضته الإرساليات التبشرية التي استوعبت الشباب المسلم في العالم العربي في العصر الحديث والذي يقول: إنها تلقن التاريخ وتعلم طلبتها أن يبحثوا في التاريخ كأنه علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء أي تطبيقه على نواميس الاجتماع الجديدة.

ولا ريب أن هذا منهج في النقد التاريخي قد انبثق من الفلسفة المادية التي ترى أن هناك قوانين جبرية تحكم تطور التاريخ الإنساني. وهي فكرة قد انكشف على مدى الزمن فسادها وتبين أن من قالوا بها قد انحازوا إلى (عينات) من الوقائع التاريخية وجّهوها حسب أهوائهم، ولكن الإرساليات تجد في هذا المنهج أهمية خاصة وسلاحاً هاماً لأنها تستطيع به أن تضرب تاريخ الإسلام وتزيف وقائعه وتشكك في بطولاته وهذا هو هدفها الأساسي.

ولا ريب أن النظرة الصحيحة للتاريخ يجب أن تنتفي معها الحتمية والجبرية جميعاً: ذلك لأن الإنسان صانع التاريخ له حريته واختياره وأثره الخاص في كل ما يقدم عليه من فكر وعمل، فلو كان وليد الأسباب والعوامل الطبيعية فحسب، ليس له يد في تحويلها أو توجيهها، لو كان كله نتيجة حتمية وليس بشكل من الأشكال فاعلاً مسبباً لما كان ثمة موجب لأي حكم يصدر منه بل لم يكن ثمة مصدر هذا الحكم كذلك لو كان مسيراً في حياته كل التسيير، مجبراً على كل عمل من أعماله لضاع معنى الحكم وما يتضمنه من ثواب وعقاب».

إن حكم التاريخ، بل أي حكم يتنافى مع الحتمية والجبرية المطلقة ولا يقوم إلا إذا اعترف الإنسان بحريته واختياره وعقيدته على تحقيق هذا أو ذاك من الإمكانات الكامنة في ذاته والمنفسحة أمامه.

فحكم التاريخ مرتبط ارتباطاً محكماً بهذا المعنى الإنساني: معنى الحرية، فهذا المعنى بمقدار انكشافه وتجليه وتحقيقه يتلخص جوهر الجهد الإنساني

المتمثل في التاريخ وبهذا المعنى أيضاً يستطيع الإنسان أن يحكم في التاريخ، ويفصل بين التراث الإيجابي الباقي الحافز، والتراث السلبي الزائل.

ومعنى هذا أن الاتجاه الذي ركّزت عليه الإرساليات التبشرية فاسد علمياً وهو محاولة من محاولات هدم التاريخ الإسلامي وبطولاته وعبرته في نفوس الشباب المسلم والحيلولة دون أن يؤدي هذا التاريخ دوره في الأجيال الجديدة ليقدم لها قدرته على مواجهة الأحداث المتطورة ويكشف لها الأخطار المحيطة ويدفعها إلى الطريق الصحيح لمواجهة الغزو الذي يتجمع له قوى الاستعمار والصهيونية والماركسية.

ولقد تلقفت الصهيونية العالمية محاولة تزييف التاريخ وتفسيره على نحو مسموم كما فعلت الماركسية حين أجرت عليه منهج التفسير المادي.

أما الصهيونية فقد عمدت إلى الاستيلاء على عدد كبير من كراسي الجامعات الغربية، والعمل على تبرير الغزو الصهيوني للبلاد الإسلامية والسيطرة على فلسطين، وإثارة الشبهات حول الأمة العربية وتاريخها ومكانتها، وحول دينها وعقيدتها، باعتبارها القوة المواجهة لها في الصراع، وإثارة الغرب على الشعوب العربية والإسلامية وذلك بإعادة عرض صور من أحداث الحروب الصليبية وغيرها على نحو مضلل، وهم الذين يحاولون الآن إثارة مخاوف أوروبا والغرب نحو العرب ازدهارهم ونهضتهم كوسيلة لتعبئة الرأي العام الغربي ضدهم وهم الذين يقفون لأن من وراء تجديد الكتابة عن الفرق الإسلامية وعن الثورات التي قام بها الزنج القرامطة والباطنية ودفعهم بعض أذنابهم من التغريبيين لتصويرها بصورة أنها ورات إسلامية، وقد ركز مؤتمر بليتمور الصهيوني الذي عقد عام ١٩٤٢ حول هذا الاتجاه وكل ما يتردد الآن وينشر عن الحركات الباطنة كالقرامطة والاسماعيلية والحلاج هو من صنع هذا الاتجاه في محاولة تصوير هذه الفرق والشخصيات على

أنها من دعاة العدل بينما هي من صميم دعاة الانتقاض على الدولة الإسلامية والعمل على هدمها.

ويتصل هذا التأثير بما نراه في كتب التاريخ المدرسية من محاولة تصوير رجال التبشير والإرساليات الذين وفدوا على العالم الإسلامي في أوائل حركة الاستعمار البرتغالي والأسباني على أنهم أبطال الكشوف الجغرافية، أو ما نجده من تمكين في كتب التاريخ الإسلامي على مسائل الخلاف بين معاوية وعلي وإبراز الزوايا الحادة في المواقف والأحداث حتى يبدو التاريخ الإسلامي كله وكأنه صراع سياسيين محترفين على مغانم الحكم أو أنه تضارب بين الدماء والعروق، بينما لا ترى مثل هذه الصور في الصفحات الخاصة بتاريخ الفراعنة.

ويتصل بهذا ما تغص به دائرة المعارف الإسلامية (التي كتبها مجموعة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المتعصبين) وكأنها مجموعة افتراءات واتهامات حاقدة على الإسلام ونبي الإسلام والقرآن وهي تحاول أن تصور الإسلام وكأنه من صنع محمد وإيماءاته وتصوراته، وما كتبه بروكلمان وغيره وكلها تحاول أن تصيب رجال الإسلام وحكوماته بالاتهام والشبهة والهوى، وفي هذا المعنى يقول الأستاذ يوسف العشي: لقد حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات وليس هنا مجال الرد عليهم، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامله العديدة تعطي البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح، وأن كل ما في الأمر أن هناك «تفاعلات» في المجتمع الإسلامي العربي كانت تأخذ طريقها ولابد أن تأخذ طريقها في ذلك المجتمع، وأن هذه التفاعلات سنّة من سنن الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، وهي تفاعلات تحدث في كل أمة، بل إن الأمم الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب، وتاريخ الأمم دائماً ممزوج بالحروب والفتن، والاضطرابات أكثر من التاريخ العربي.

ولقد كان لهذه المحاولة الخطيرة التي ما تزال مستمرة أثرها البعيد في نفس الشباب المسلم الذي ينظر إلى تاريخه وزعمائه من خلال وجهة نظر تغريبية ذات هدف واضح في هدم المقومات الحقيقية للإسلام وتاريخه وعقائده.

وهناك اتجاه العنصرية في كتابة التاريخ الإسلامي وهو أيضاً من عوامل الاستشراق وهي المحاولة التي ترمي إلى تصور نزاع حاد بين العرب الحاكمين والشعوب المحكومة.

وقد حاول « فان فلوتن » تصوير القرن الأول الهجري وكأنه صراع دموي بين العرب كسادة العالم وحكامه وبين سكان البلاد المفتوحة .

وقد تأثر بهذا الاتجاه مؤرخون عرب كثيرون فحاولوا أن يصوروا انتقاضات بعض الفرق كالبابكية والقرامطة على أنها حركات متحررة وتلك نظرة مستمدة من الفكر السياسي الحديث ولم تكن من طابع ذلك العصر.

كذلك فإن هناك محاولات ترمي إلى الانتقاص من جوهر الإسلام نفسه على أساس القول بأن تاريخ الإسلام هو تطبيق لهذه الأصول الإسلامية، والواقع أنه لابد من التفرقة الواسعة بين مبادئ الإسلام الربانية الثابتة الممثلة في القرآن الكريم والسنّة النبوية الصحيحة وبين التجربة التي قام بها الحكم الإسلامي والتي تلتقي مع مبادئ الإسلام وقد تفترق في بعض المراحل. ولا ريب أن هناك نفراً ممن تولوا زمام الحكم في الدولة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة بعدوا عن «منهج الإسلام» فمن غير الحق أن يصور سلوك هؤلاء الحكام بأنه من مبادئ الشريعة. وأهم ما في ذلك الفهم الخاطئ من محاذير هو محاولة نسبة الاستبداد إلى الإسلام ومحاولة الاستشراق تبرير الاستبداد بالإسلام نفسه حيث يقول بعضهم وهو كاذب: إن نظام الحكم في الإسلام نظام استبدادي. ونسى هؤلاء أن للإسلام مبادءه الواضحة التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم لمصلحة المحكوم نفسه.

وقد وقع في هذا الخطأ «توماس أرنولد» في كتابه: (الخلافة) ومرجليوث،

وماكدونالد وموير، وكلهم حاول أن يتخذ من واقع التاريخ الإسلامي ومن أخطاء بعض الولاة المسلمين مبرراً لأن ينسب الاستبداد إلى الإسلام.

والإنصاف يقتضي أن يقال: إن للقرآن تعاليمه الواضحة التي توجب تساوي الناس في جميع الحقوق، فإذا ما قامت رئاسة تتفق مع هذه التعاليم التي جاء بها القرآن فهي التي تنطبق عليها الصفة الإسلامية ولا يستطيع أي طاعن أن يطعنها حينئذ في سموها وكفالتها لجميع الناس فإذا لم تتفق هذه الرئاسة مع تعاليم القرآن فإنه لا يصح القول بأن هذه الخلافة خلافة إسلامية، لأنه إذا كانت قد صادمت تعاليم كتاب الله الذي هو دستور الدعوة الإسلامية، فهل يصح أن ينسب إلى الإسلام ما هو متصادم مع دستوره؟ (دكتور محمد رأفت عثمان).

والخلافة في سماتها الصحيحة ينظر إليها أيام صفائها ونقائها ولا يصح أن يتخذ الباحث أي عصر يروقه فيحكم عليها بالسمات التي يجدها في هذا العصر، وهذه الحكومة المنحرفة ليست خلافة على المسلمين بل رئاسة ليست ملتزمة في سياستها لهم بقانون الإسلام.

إن التفسير الإسلامي للتاريخ، وهو المنهج الوحيد الصالح لتطبيقه على التاريخ الإسلامي يتميز بسمات هامة: تتغاير مع مفاهيم الفكر الغربي في الأساس ومن ثم يختلف معه في التفسيرات: الليبرالية أو الماركسية على السواء.

أولاً: الإنسان:

فالإنسان في الإسلام له إرادة حرة قادرة على العمل وهي موضع مسئوليته وهو بذلك ليس خلية في جسم المجتمع، وليس محكوماً عليه بالحتمية أو الجبرية.

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربي الذي يرى فناء الفرد في المجموع، وأن وجود الفرد كشيء منفصل قائم بذاته خداع، ويرى الفكر الغربي أن الجنس البشري عبارة عن حشد من مخلوقات آلية لا إرادة لها. وأن الحياة البشرية ظاهرة محدودة يحيط بها الزمن إحاطة تامة. ولذا فإن وجود الفرد غير ذي أهمية قط.

والإسلام يعتبر الإنسان في موضع الخلافة في الأرض.

ثانياً: يرتبط في الإسلام الأزلي بالأبدي، والثابت بالمتغير، والروحي بالمادي، والدنيوي بالأخروي، فنظرة الإنسان إلى الحياة وعمله فيه تمتد إلى ما بعد الموت وإلى البعث والجزاء وإلى حياة أخرى هي الخلود بعينه.

وهذا الفهم يختلف مع الفكر الغربي الذي يرى أن الحياة لها نهاية ليس بعدها شيء وأن النظرة قاصرة عند هذا الكون المحدود والزمن المحدود.

ثالثاً: يؤمن المسلم بأن العالم يتحرك بإرادة الله المطلقة الفعالة، التي خلقت نواميس الكون والوجود والمجتمعات وقوانينها وأن هذه الإرادة الربانية قادرة على تغيير هذه النواميس وإيقافها وأن للإنسان إرادة محدودة داخل إرادة الله ومنها وهي موضع مسئوليته، ومنها يجيئ أثره في تحريك المجتمع وتغيير التاريخ.

فالحق تبارك وتعالى قادر على التغيير بغير سبب واضح من الأسباب التي يعرفها الإنسان أو يقيسها من تلك القوانين، وأحداث التاريخ شاهدة على ذلك في عديد من التغيرات الكبرى التي حدثت ولم يستطع الماديون تفسيرها إلا بأن أطلقوا عليها اسم الصدفة أو الفجاءة.

رابعاً: ينطلق التفسير الإسلامي للتاريخ من أن الله هو الفاعل الحقيقي لكل أحداث التاريخ عن طريق خلقه وجنوده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ والإنسان واحد من هؤلاء الجنود وقد قدّم القرآن أسباب قيام الأمم وتطورها وانهيارها، وكشف عن المصدر الحقيقي للنصر والهزيمة والبقاء والزوال.

والقرآن يرد هذه العوامل أساساً إلى الأخلاق والإيمان بالله والتقوى، فإذا حافظت الحضارة على هذه العوامل استطاعت أن تستمر وإن خالفت سقطت.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ

وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ .

ومعنى هذا أن الأمم إذا انحرفت إلى الترف والفساد والانحلال وعزفت عن العمل الجاد القائم على الأخلاق والرحمة والتقوى، سقطت.

هذا هو القانون الثابت الذي لا يتغير والذي يصيب الأمم إذا خرجت عن جادة الحق وانحرفت عن الطريق الصحيح، طريق بناء المجتمع الرباني، وقد أصاب هذا القانون المسلمين أنفسهم عندما انحرفوا عنه، فإذا عادوا إليه عاد إليهم مجدهم، ولقد كان المسلمون دوماً إذا ما خرجوا عن جادة الحق والخلق أصابتهم سنّة الله التي لاتتخلف فإذا عادوا إلى الاستمساك بالحق والمنابع واعتصموا بالله وكتابه أعيدوا إلى القوة والنماء والتمكين في الأرض، ويدعو القرآن المسلمين إلى أن يسيروا في الأرض فينظروا عاقبة الأمم التي سبقت، والتي يمشون في مساكنهم، كالفراعنة والرومان، وغيرهم، ليكون لهم عبرة من ذلك.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرضِ ﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ .

ولعل هذا هو القانون الحتمي الذي لا سبيل إلى تجاوزه، إذا فسدت الأمم انهارت مجتمعاتها وحضارتها، وإذا عادت إلى الحق أعيدت إلى مكانتها ورسالتها وللمسلمين رسالة وأمانة عالمية عليهم أن يبلغوها للبشرية كلها ولذلك فهم أحق أن يلتمسوا أسباب الحياة والقوة من مصدرها الأصيل:القرآن ..

* * *

الحضارة
في مفهوم الإسلام

يقول المسلم النمسوي محمد أسد (ليوبولدفايس): «إن الحضارات المختلفة قامت ونشأت رويداً رويداً من تراث الماضي بما حوى من ضروب الرأي وتيارات الفكر التي استغرقت في تبلورها إلى شكلها الخاص وكيانها المحدد آماداً طويلة من الزمن، وانفردت (حضارة الإسلام) وحدها بانبجاثها إلى الحياة دون سابق عهد أو انتظار. وقد جمعت في فجر نشأتها كل المقومات الأساسية لحضارة مكتملة شاملة، فقامت في مجتمع واضح المعالم، له نظرته الخاصة إلى الحياة وله نظامه التشريعي الكامل، وله نهجه المحدد لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع. ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد ذخر بها الماضي ولا وليد تيارات فكرية متوارثة، ولكن هذه الحضارة كانت وليدة حدث تاريخي فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها إلى رجل فذ في التاريخ هو محمد رسول الله. فلقد أدرك الذين آمنوا بالإسلام واتبعوا محمداً وصدّقوا بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم – أن الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن يتطلب منهم هجرة بائنة إلى ما جاءهم به عما توارثوه من عقائد في الحياة وما ألفوه من مناهج السير فيها، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم، إذ أنهم أدركوا أن الإسلام وقد جاء نظاماً شاملاً للحياة قد افتتح حقاً حضارة حديثة وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات أو الإرهاص بها فتبيّنوا كما تبيّن من جاء بعدهم أن مبعث رسول الله كان إيذاناً ببدء عهد جديد بكل ما ينطوي عليه هذا البدء من حقائق ومعان، ولن نفهم من هذا أن الإسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي فذلك فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه، لأن كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون أسلاف وآباء، فلن ندهش إذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله – على

ما هو عليه من جدة في النظر إلى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعي كامل - يتضمن كثيراً مما جاءت به الأديان، ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف من قبله ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الإسلام، بل لقد كان القرآن الكريم ذاته أصرح ما يكون اعترافاً بها وتسليماً.

وعندنا أن الإسلام قدم للبشرية مفهوم التحضر الأصيل وهو الانتقال من:

اولاً: عبادة الأوثان والتماثيل والسحر والشعوذة والأساطير والخرافات ومن عبادات التثنية والتعدد إلى عبادة الله الواحد الحق لا شريك له وأنه قضى على آخر صور الانحراف وهي الشرك فأعلن أن الله غني عن الشركاء وأنه صاحب الأمر كله وأنه لا وسيط بينه وبين خلقه.

ثانياً: عبادة القيصر والإمبراطور وعبادة الآلهة وأنصاف الآلهة من البشر، والتحرر من نظام العبودية كله الذي كان قائماً إذ ذاك في فارس والروم ومصر والهند.

ثالثاً: أنه دفع البشرية إلى مرحلة الفكر والذكر والنظر في ملكوت السموات والأرض لمعرفة الصانع، والنظر في آثار الأقدمين لمعرفة كيف قامت الأمم والحضارات ولماذا انهارت ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

واعتبر الذكر والفكر فريضة واعتبر الغفلة ذنباً يستوجب العقاب.

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ .

وبذلك انتقلت البشرية إلى مرحلة الإيمان الخالص والنظر في خلق السموات والأرض لمعرفة الخالق، ولاستكناه سر الحياة والبحث عن مصادر الثروة وبذلك كان الإسلام مصدراً لنشوء (المنهج العلمي التجريبي) الذي اهتدى إليه علماء المسلمين بعد أن عاشت البشرية في ظل منهج التأمل والنظر العقلي الخالص ومفهوم المقايسات المنطقية والعقلية وحدها، وبذلك نقل الإسلام البشرية إلى حضارة التجريب وصحح آراء العلماء القدامى في الفلك والطب وإنشاء علوم الجبر واللوغريتمات والأزياج وعلم الضوء ودفع البشرية إلى آفاق عالية في مجالات العلوم الرياضية والطبيعية كانت هي المقدمات الأساسية والأصول العامة التي قامت عليها الحضارة الحديثة.

ولقد عمد الإسلام إلى إقامة مفهوم كامل للحضارة: قوامه الحركة المادية والمعنوية في نفس الوقت وحياطة التقدم المادي بالأخلاق والتقوى وتوجهه إلى صالح الإنسانية وحماية المجتمعات من الفساد والانحراف. فالحضارة التي أنشأها الإسلام جماع الروحية والمادية، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، وقد رسمت حضارة الإسلام منهجاً ثابتاً قوامه النظرة الإنسانية وطابع التوحيد والعدل والإخاء واستصفت كل ما كان في تراث الأمم والحضارات القديمة فصهرت الجوانب الصالحة منه في بوتقتها، وظلت تقود العالم كله بسلاح الخلق والتقوى والرحمة والإخاء، ولم تستطع المؤثرات الطارئة أن تغير من خصائص الإسلام وقيمه الإسلامية، وهذا الترابط بين التقدم وبين المعنويات والماديات والمحاذير القائمة كالحدود والأخلاق والضوابط دون أن يفقد التقدم أخلاقيته أو تقواه، هو وحده نقطة الخلاف بين الحضارة في مفهوم الإسلام والحضارة في مفهوم الغرب، وهذه هي نقطة الانفصال بين الحضارة الغربية التي قامت أساساً على بواعث

اليقظة التي بعثها الإسلام في عالم الغرب فأخرجه من الوثنية ومن الرهبانية ودفعه إلى العمل والحركة، وصحح جانباً من مفاهيمه على أيدي لوثر وكالفن، ثم كانت «التجريبية» التي حملها «بيكون» عن مدارس الأندلس وجامعاتها الإسلامية.

غير أن الحضارة الغربية وريثة الأصول الإسلامية لم تلبث أن ارتدت إلى أصولها اليونانية الوثنية والرومانية العبودية، ووصلت بين الروح والمادة، والعقل والقلب والدنيا والآخرة، وأعلت الجانب المادي وحده إعلاءاً كاملاً واعتبرته الأساس الوحيد لبناء الفكر والمجتمع، وانتقصت كل ما يتصل بالدين والأخلاق والمعنويات والقيم الروحية وحررت الحضارة من ضوابطها وحدودها وهدفها الأصيل الذي يرمي إلى إسعاد البشرية عامة وليس إسعاد فئة خاصة أو أمة خاصة أو عنصر خاص.

وتتمثل مقومات الحضارة الإسلامية في عناصر أساسية أهمها:

أولاً: قامت الحضارة الإسلامية على أساس مفهوم الإسلام، وقد أمدها القرآن بالروح والهدف ومؤشرات الحركة وضوابط العمل وأعطاها القوة والتماسك، والموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد والترف معاً والتحرر من الجمود والتحلل معاً، وقد اتسمت الحضارة الإسلامية بالسماحة والإنسانية والعالمية، فقد حرصت على حماية حرية غير المسلمين واحترمت شعائرهم وفتحت أمامهم أبواب العمل، وقد تمثلت مفهوماً أساسياً هو طابعها الأصيل: الجمع بين الدنيا والآخرة وبناء الحياة والعمل فيها على أساس من الأخلاق والتقوى والإخاء الإنساني والرحمة.

وقد ربطت العلم بالدين والسياسة بالأخلاق، كما اتسمت بالبساطة والبعد عن

التعقيد والصراع فالصلة بين الله والإنسان مفتوحة دائماً، وقائمة أبداً دون وساطة لكهنة أو لمعبد، والإسلام عبادة ومعاملة، وهو نظام مجتمع ومنهج حياة، فيه رحابة التقبل لكل جديد متى كان صالحاً، والتفتح على آفاق الأمم والحضارات يأخذ منها ويدع ويعطيها أيضاً.

ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة جامعة وحضارة وسطية ولها أساس ثابت مستقبل للمتغيرات، ولقد عرفت للمرأة حقها وحريتها ونظمت علاقة اليتامى والفقراء والأرامل والخدم في سماحة ورحمة، ولقد كرمت العلم وشرفت العقل ولم تنس تكامل القلب والعقل، واتسمت بطابعها المميز الذي لا ينصهر في الحضارات أو العقائد، وحافظت على مقوماتها.

كل هذا هو الذي أعطاها طابعها الخاص ومن هنا فقد اختلفت مع الحضارة الغربية حين التقت بها في العصور الحديثة اختلافاً شديداً وامتد الصراع عندما فرض على المجتمع الإسلامي أن يواجه الغزو الاستعماري الحديث الذي حاول أن يفرض حضارته وقيمه.

لقد قامت حضارة الغرب على مفاهيم متناقضة تجمعت في إطار واحد: هي الوثنية اليونانية والقانون الروماني. وخرجت من مفهوم الرحمة والرهبانية المسيحية إلى مفهوم الاستعمار بالقتل والارهاب وهو مفهوم روماني وثني يقوم على نظرية (السادة روما وما حولها عبيد) وخرجت من مفهوم الاعتقاد قبل الاقتناع إلى مفهوم إعلاء العقل وحده، وسيطرة الطابع المادي، وخرجت من مفهوم الدين إلى التحرر من القيم الأخلاقية والمعنوية وإطلاق الغرائز والحسيات، كل هذا مع نزعة الاستعلاء العنصري بالدم والعرق والجنس الأبيض تاج الخليقة كما يقولون، وماله من حق استعباد الملونين، وقد ارتبطت هذه النزعة بالحضارة الغربية ارتباطاً عضوياً ومباشراً مما أفقدها مقومات الحضارة ولما كانت الحضارة لا تنفصل عن الدين فإن انفصال الحضارة الغربية عن قاعدتها هو نذير انهيارها واندحارها.

ومن هذا التحول في الهدف والغاية والأسلوب، فإن الحضارة الغربية اليوم تحلق بجناح واحد وتقف على شق واحد، وتتعرض في كل خطواتها للأزمات الصاعقة، وقد فرض ذلك عليها ما أطلق عليه الباحثون «أزمة العصر» وعندهم أن السبب في أزمة الحضارة أخلاقي محض، وأن الحضارة إنما تبدأ في الانهيار إذا أعوزها العامل الأخلاقي حتى ولو كانت العناصر الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة «والعامل الأخلاقي هنا يعني الضوابط والحدود التي تقوم بين الفضيلة والرذيلة والحلال والحرام والمعروف والمنكر، والحق والهوى، والإيمان والإلحاد» وفي مجموعة رأى الباحثين أن هذه التحديات هي:

أولاً: انفصال العلم عن الوازع الديني والرقيب النفسي.

ثانياً: انهيار القاعدة الأخلاقية للحضارة.

ثالثاً: ازدياد نمو الجوانب المادية للمجتمع وبطء نمو الجوانب الروحية مما يؤدي إلى الاختلال بين القوى الفاعلة والقوى المنفعلة وهو ما يعبر عنه اختلال التوازن بين العقل والقلب.

وقد شهد للحضارة الغربية بالفساد والاضطراب عدد من أعلام فكرها.

يقول أرنولد توينبي: إن أزمة الحضارة الغربية الحديثة هي: «الدين»، وإن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين، ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الإنساني ويعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب مما يصيبه بأمراض السأم الروتينية، وفقدان الهدف في كل ما يأتي به، ويحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي، خواء روحي يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان، دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء كما يضطر المدركون أحياناً إلى إعلان انشقاقهم عليه».

ويقول توينبي : « إن الحضارة الغربية اليوم تعاني أخطر الأزمات فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا متخلفة من المبادئ المسيحية المشوهة وهي فوق كل ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد كفكرة الإنسان الجماعي، مجسدة في أنظمة الدول الفاشستية والنازية والشيوعية والقومية والإقليمية».

ويقول: لم تعن الحضارة مطلقاً بالإنسان من حيث تكامل وجوده بشقيه الروحي والمادي.

ويرى مالك بن نبي أن انحراف الحضارة يرجع إلى فقدان التوازن بين العقل والروح، على أساس أن كل حضارة لها أساس مزدوج: مادي وروحي وهو أساس لازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود.

ويقول مسخ خوري: لقد حسب هيجل أن أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق الدولة المثلى، واعتقد ماركس أنها اقتصادية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق النظام الاشتراكي أما توينبي فأيقن أن حقيقة الأزمة ليست سياسية ولا اقتصادية وأن هيجل وماركس يخلطان بين الأعراض والجوهر، وبين الوسائل والغايات وأن الأزمة في نظر توينبي أزمة روحية.

ويقول البرت اشفتر: إن التقدم المادي في هذه الحضارة أكبر بكثير من التقدم الروحي، ولقد اختل توازن الحضارة فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم البعض، وبين الجماعات والدول، لقد أثرت معارفنا وزادت قوتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله ونحن نغالي في تقدير إنجازات الحضارة المادية دون تقدير لأهمية العنصر الروحي في الحياة. إن الحضارة الحديثة لا تنمو فيها إلا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، وهي في ذلك أشبه بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي

عليها، والطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسانية وتحسن الأحوال المادية والسياسية للشعوب والإنسانية في مجموعها. والحق أن العنصر الحاسم في تقويم الحضارة ليس فيما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر، إن الحضارة الأوروبية المعاصرة تعاني أعراض التحلل والانهيار، والسبب في أزمة الحضارة سبب أخلاقي لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي، حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة نشطة.

وازدهار الحضارة تصحبه دائماً آداب توقير الحضارة ونظرة شاملة إلى الكون تبرر هذا الاتجاه الأخلاقي فإذا سادت هذه النظرة ازدهرت الحضارة ونمت، أما اليوم فقد أصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مسلوبة القوة، ولذلك أخذ العالم يتخبط في الظلام الدامس، والعوامل التي آزرت الانحلال وزادت من خطورته موقف الإنسان الاقتصادي، فإنسان العصر الحاضر مرهق بالعمل، وهذا الإرهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن في التفكير. وقد رافق التصور الأخلاقي للحضارة ورجحان الجانب المادي على الجانب الروحي زيادة التقدم في المعرفة التي لا تقيم وزناً للنوازع الأخلاقية.

إن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية. إن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وإذا أعوزه الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة.

ويقول الدوس هكسلي: إن فساد العالم يرجع إلى دعوة الخطباء والشعراء والممثلين للتمادي في الحياة المستهترة والإباحية، وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها وإن الشر كله يرجع إلى تمرد الناس عن حياة الروح واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات وإعراضهم عن المثل العليا، وقد بالغوا

في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذي ينقلب داء بعد أن كان دواء. وأن المثل العليا حقيقة لا شك فيها لأنها ضرورية للعالم وهي الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها، وإن النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه اللذات وتفقد الثقة بالفضائل، وقد أجمعت أرقى العقول في سائر الأزمان والأماكن على أن غاية الإنسانية هي: السلام والمحبة والعدل.

ويقول سير (جون وولف): إن الغرب الذي يتيه فخراً بطابع حضارته الوضعية الحديثة، هذا الطابع الذي يطلق عليه (المودرنزم) أو العصرية التطورية قد قامر بكل رأس ماله على مائدة هذا «المودرنزم» بل وأفنى شخصيته الإنسانية بكل طاقاتها الإبداعية والروحية، داخل دولابها الآلي الرهيب، وقد أصبحت دول الغرب برمتها شوهاء الصورة من الداخل إلى حد مخيف بعد أن سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لا هدف لها ولا ناموس إلا مجرد التطور الآلي الذاتي، هذا التطور بل هذا الاندفاع الذي يسن بنفسه لنفسه قانون حركته مستقلاً عن روح الإنسان ومعنوياته مع أنها تراث الآلاف من السنين.

ويقول هارلود لاسكي: « إن حركة الإنسانية في مسالك الزمن مصدرها الأصيل وباعثها الأول ذلك الصراع الناشب في أعماقها بين:

١- سلطات الغريزة الذي يمثل الحرص على إشباع مطالب الفرد الضرورية ومطالب الجماعة.

٢- سلطان المثل الأعلى الكامن في ضمير الإنسان ليهديه إلى الأسلوب الأمثل والأصلح ولما كان الإنسان يحيا بغريزته ووجدانه معاً، فالمعضلة الكبرى في حياته هي كيفية الوفاق بين موجبات الغريزة وإيماءات هذا الوجدان حتى لا تظل ذاته ميداناً لصراع مرير بين قوتين متعادلتين، وأول سمة من سمات هذا العصر

هو الشك والقلق وقد فقدت الحضارة ثقتها في نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الأعلى الممثل في كتابات الإنسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل بأهوائه وأطماعه وخصوماته.

إن الحضارة تمر بمحنة من الشك والخوف والإلحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير على حياة الفرد وحياة الجماعة».

وليس ما يقوله أهل هذه الحضارة إلا دليلاً أكيداً على إنحراف الحضارة الغربية الحديثة عن قانون المجتمعات وسنن الوجود في بناء الأمم والحضارات، ذلك لأن مجموعة العناصر المتناقضة التي تحتويها قد أحدثت هذا التضارب الشديد مع القوانين الإنسانية فهي قد أخذت من الإسلام المنهج التجريبي وشيئاً من العلوم الإنسانية ولكنها عجزت عن أن تأخذ الوجهة الربانية الخالصة وأخذت من المسيحية المثابرة والإصرار ولكنها عجزت عن أن تأخذ منها الرحمة والإخاء وعادت تستقي مرة أخرى من ذلك النبع المسموم الذي جاءت المسيحية لتخرجها منه وهو نبع (المادية الإباحية الوثنية) اليونانية فأفسدت ما أخذت وعجزت أن ترى الوجهة الربانية، أو الرحمة الإنسانية، أو تجمع بين الأخلاق ومعطيات العلم، أو تربط بين النفس والجسد والروح والمادة والدنيا والآخرة.

ولقد دق المسيو بيتان آخر مسمار في نعش الحضارة الغربية حين قال عام ١٩٤٠:

لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية، وإنما أدعوكم قبل كل شيء أن تهتموا بأخلاقكم » بهذه العبارة خاطب بيتان شعبه موضحاً له أسباب الهزيمة ولكنه في الحقيقة كان يصدر حكماً على الحضارة الغربية كلها.

ولقد تعالت الأصوات في كل مكان تقول: إن العلم قادر على أن ينقذ الحضارة: ويقول الكسي كاريل إنه لا يستطيع .. ذلك إن معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية، فنحن نعرف كثيراً عن الحياة ولكنا لا نعرف كثيراً عن أنفسنا، عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكي الذي خلقناه، والباعث على ذلك خطأ قديم، عندما فرّقوا بين الكم والنوع، وعني بالأول فارتقى العلم المبني عليه وكان ازدهاره باهراً، حصروا همتهم في الكم وأهملوا الكيف فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء.

إن الصفات التي لا تقاس في الإنسان أهم من التي تقاس. هناك خطأ «جاليليو» في التفرقة بين خواص الكم وخواص الكيف، وهناك خطأ «ديكارت» في الفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية، والاهتمام بالجسم دون العقل.

هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق التي أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان وعلى منقذي العالم أن يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحية الكم والنوع معاً، وعليهم دراسة العقل الإنساني وهو المجهول العظيم أن يقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب النمو العقلي والمعنوي. والعقل لا ينحصر في أساليب التفكير بل يمتد إلى الدين والتصوف والجمالوالروحانيات».

ويقول الكس كاريل: إن الأمم التي بلغت منها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها. ويتحدثون عن أثر الحضارة في المجتمع الغربي: ذلك الأثر العميق حيث ازدادت الجرائم وانحطت الأخلاق وانحلت الروابط وتفاقم القلق والمرض والانهيار العصبي وإدمان المخدرات، ويبحثون الآن عن الدوافع الحضارية التي

تدفع أكثر من ألف شخص للانتحار في اليوم الواحد كما يبحثون عن أسباب استفحال الجريمة في المجتمع المتقدم. ويبحثون عن ما أطلق عليه «طاعون المخدرات».

وتشير الظواهر إلى انتشار الأمراض الزهرية وخاصة في أوساط الشباب فهناك ثلاثة ملايين إصابة جديدة بالأمراض الزهرية وقالت الأبحاث إن ذلك يعود إلى التدهور الأخلاقي والانحلال الشديد الذي تشهده المجتمعات الغربية وأبرز مظاهر الفساد في المجتمعات الغربية: العنف والجنس.

ويشير إلى هذا المعنى توفيق الحكيم حين يقول: «سر المحنة الفكرية في أوروبا اليوم، أن الناس قد اطرحوا (العالم الآخر) الذي تصوره الأديان ولم يعرفوا لهم غير عالم واحد هو الأرض، ولم يعرفوا لهم إلا أسلوباً واحداً هو المنطق العقلي والتجريب العلمي، فأوروبا الآن قلقة حائرة في أزمتها الراهنة ولا شيء في داخلها يستطيع إنقاذها، فإن التكالب على هذا العالم الواحد: عالم الواقع والدنيا قد أزاغ الأبصار وإن وسائلها المادية لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية».

والحق أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة، بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء، فهي تقفز من حل إلى حل، ومن منهج إلى منهج، محاولة الخروج من الأزمة التي تعتصرها وتحيطها من جميع الأطراف وتسد عليها منافذ الهواء والنور، دون جدوى. منذ أن تركت رسالة السماء، ومنذ عجزت تفسيرات الدين عن إعطائها عطاء النفس والروح، مرتبطاً بمنجزات العلم، لم يكن هو الدين ولكن هي تفسيرات الدين، ولو أنها التمست الدين الحق لوجدت فيه مطمح الأمن وسلام النفس. فشلت الفردية لأنها اندفعت تستعلي على الناس بالدم الأبيض وقهر الشعوب الملونة واحتقارها، وفشلت الجماعية لأنها دفعت المجتمعات إلى الصراع الطبقي وأهدرت كرامة الإنسان وأذلّت الفرد واحتقرته فهو في نظرها

ليس إلا ترساً في آلة، ودمرت الأخوة الإنسانية بإثارة روح البغضاء والحقد بين مختلف الطبقات، وكانت الدعوة إلى القومية عنصرية لأنها عادت جيرانها، وفشلت الدعوة العالمية لأنها كانت تستهدف سحق الأمم والقضاء على ذاتيتها وكيانها، وحملت رياح المادية الفكر البشري إلى كل أفق فليس في الكون شيء ثابت والدين نبع من الأرض ولم ينزل من السماء، والأخلاق نسبية وغاية الحياة الجنس واللقمة وحاولت الفلسفات المادية الغربية أن تقول بأن الدين مرحلة في حياة الأمم.

وإن الأمم المتحضرة قد تجاوزت هذه المرحلة، وإن الدور الذي احتاجت البشرية فيه إلى الدين قد انتهى، وهي بذلك هدمت نفسها، وحطمت كيانها بيدها، فالدين ليس مرحلة في حياة الأمم ولكنه عماد حياة البشرية نفسها وقاعدة الحضارة، فهو عنصر أصيل وكيان عضوي في تركيب الإنسان: عقله وروحه وحياته، لا سبيل إلى انفصاله عنه أو انتزاعه منه، ومنذ أخذ الغرب يتجاهل الدين (بمعناه الحق) ويتجاوزه فإنه يواجه الآن أخطر أزماته.

إن تجربة أوروبا في هذا الصدد لا تفيد البشرية بل تسيء إليها، ونحن نرى أن الغرب بعد أن ترك الدين قد فقد كيانه الحقيقي، لقول كرلس موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، لسوف تنتهي الحضارة بدون العقيدة والدين، ولسوف يتحول النظام إلى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماسك وسوف يتفشى الشر في كل مكان. وإنها لحاجة ملحة أن تقوى صلتنا وعلاقتنا بالله إذا أردنا الحياة.

ويتحدثون عن الوصول إلى القمر ويرونه قمة انتصارات الحضارة، ويقول الباحثون: «إن الحضارات حين تبلغ الذروة في الكشف والاختراع والعلم ومظاهر التقدم المادي كثيرا ما تصاب بتفكك في المجتمع وانصراف إلى لذة الجسد والإغراق في الماديات، والقول بأن الوصول إلى القمر دليل على أن الحضارة

الغربية لا تزال في أوجها قول ينقصه الدليل وينقصه التفكك المشاهد في مجتمعاتها والانسياق وراء الترف وإهدار القيم الإنسانية وينقصه ما هو معروف عن دورة الحضارات وانتقالها من مكان إلى مكان».

وحينما تعطي الحضارات الغربية كل شيء تفقد كل شيء، حين تعطي الحريات المطلقة بين الرجل والمرأة في العلاقات وتيسر الرزق الوفير والمال الكثير، وحين يستطيع كل إنسان أن يعمل ما يريد، وأن يرفل في الترف والرخاوة والتحلل ما يشاء عندئذ يتصدع المجتمع والإنسان معاً، فيتفشى الانتحار والإقدام على الجرائم وانهيار الأسرة وذيوع المخدرات والشذوذ، والأمراض النفسية ويقتل الغنى روح الكفاح والعزيمة والإرادة ومعنى هذا أن مفهوم الغرب في الحضارة فاسد، لأن الحضارة في الحقيقة ليست تقدماً مادياً مقطوع الصلة بالأخلاق والضوابط والحدود التي تحفظ الكيان الإنسان والكيان الاجتماعي، وهذه الضوابط والحدود التي انفصلت من التقدم هي الدين الذي يرفضه الغرب والذي هو مصدر أزمته، فإن التفوق العلمي يعلي شأن الإنسان من ناحية المادية ولكنه يترك ناحيته المعنوية خلاء وظلاماً ومن ثم تقع الأزمة والقلق والتمزق والغربة فلابد من أن توازن الحضارة بين معطيات المادة وآفاق الروح.

وهذا هو الفارق العميق بين مفهوم الإسلام للحضارة ومفهوم الغرب.

إن الحضارة الغربية مصدرها فكر مادي تلمودي إباحي يضع أهداف اليهودية العالمية في إطار نظريات تبرر الانحلال والتدمير فلسفياً وهي فلسفة تخرج عن نطاق العلم التجريبي ولا تخضع له وهي في أسوأ صورها تتمثل في الشيوعية ولكنها في المجتمعات الأخرى تنطلق من خلال نظريات التحليل النفسي لفرويد العلوم الاجتماعية ومفاهيم الأخلاق والتطور والفن وهي كلها مفاهيم زائفة تحاول

أن تبرر الجريمة والإباحية والإلحاد وتهدف إلى تدمير الأسرة الإنسانية ونقل الناس إلى الوثنية من جديد.

ويعرف الغربيون أن (أزمة العصر) هي: في الانفصال بين المادي والروحي، وبين العقل والقلب ولكنهم عاجزون عن إيجاد حل للتكامل والمواءمة ذلك لأن تركيب فكرهم ومجتمعهم وعقائدهم قام على أساس الانشطارية وهناك قوى ضخمة عاتية تحول بينهم وبين التماس طريق التكامل الجامع: طريق الإسلام، تلك هي القوى التي ما تزال تأمل أن تسيطر على العالم وتحوله إلى امبراطورية صهيونية تلمودية فهي التي ما تزال تدمر هذا العالم بالمسرح والفن والإباحية وتحارب الدين وتطارد الأخلاق والقيم.

ولقد فهم المسلمون هذا ووعوه وعرفوا أن الحضارة الغربية تمر اليوم في دور الدمار فمن العبث أن يطلب إليهم الانضمام إليها أو اعتناق فكرها الذي وصل إلى أقصى درجات التحلل والانحراف، وهم لا يرون لأنفسهم ولا للعالم طريقاً إلا طريق الإسلام، فهو الذي يقدّم للبشرية حضارة الإنسانية: لا حضارة جنس معين، ولا أيدلوجية معينة، إنها حضارة تستمد وجودها من الترابط الأزلي والبشري، بين الثوابت والمتغيرات، بين الدنيا والآخرة: حضارة التوحيد التي تقوم على أساس الإيمان بالله الواحد الأحد خالق كل شيء، والتي تعمل على إقامة المجتمع الرباني في الأرض إيماناً بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وقوامها الإخاء البشري والعدل والرحمة وإقرار وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه وأوطانه وهي حضارة تقوم على النظرة الشاملة الجامعة للإنسان والحياة والمتوازنة بين المادية والروحية التي تجعل من الضوابط والحدود والأخلاق إطاراً لحركتها مع الحفاظ على شخصية الإنسان الذاتية ودفعاً حثيثاً من الأنانية إلى الغَيْرية ومن الفردية إلى الاجتماعية في ظل الخير والعدل والرحمة.

إن معركتنا الحضارية في مواجهة التحدي الاستعماري والصهيوني والماركسي تدفعنا إلى أن نبدأ من النقطة التي بدأ منها المسلمون في العهد الأول، لنبني كياناً إنسانياً رباني الطابع فوق ووسط صراعات العصر، بأخذ العلم الحديث وصهره في بوتقة التقوى الإسلامية، ليكون زاداً للبشرية كلها، وليس لأمة منها دون أمة أخرى، إنه في الإمكان أن تتخذ الأمة الإسلامية التكنولوجيا الحديثة وقد أعطيت المال والتفوق البشري لتصهره في إطار التوحيد الخالص وتقدم للبشرية نموذجاً جديداً من الحضارة يقوم على العدل والرحمة والإخاء البشري ويجعل معطيات الأرض كلها للناس جميعاً بالعدل والمرحمة.

ولن يذل المسلمون أبداً من أجل الحصول على التكنولوجيا ولن يخلعوا قيمهم وذاتيتهم، فهي مقدمة عندهم على كل شيء، ولكنهم سيقدمون للبشرية شيئاً جديداً عجزت عنه الحضارة الغربية الحديثة، سيقدمون لها شفاء الصدور وسكينة القلوب وهدى الأفئدة مع أعظم معطيات المادة في جماع واحد، عندما تسلم الأمم أنفسها لله خالصة، وتعرف أن ربها الرحمن هو صاحب العطاء الأول والأخير فيما بين يديها من حظوظ العلم والتقدم والحضارة وتعرف أن مصادر العلوم كلها من الله، وأن معطيات الحضارة كلها يجب أن توجه في سبيل بناء المجتمع الرباني القائم على أداء حق الله وتطبيق شريعته والتماس حدوده وضوابطه التي هي لحماية الإنسان والأسرة والمجتمع والحضارة من دواعي الانحراف والانهيار:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والأرض ﴾

وسوف يذكر المسلمون أن «الغرب» قد حال دون أن يمتلك المسلمون أداة العلم والتكنولوجيا وحجبها عنهم، وأعطاها بديلاً منها مفهوماً فلسفياً يستهدف به إخراجهم من قيمهم وتاريخهم وتراثهم وذاتيتهم حين دعاهم إلى أن وسيلة النهضة الوحيدة هي في «علمنة الذات» وإخراجها من دينها وأخلاقها، وتغريبها وانتقالها إلى العالمية والأممية في أشد مراحل فساد هذه العالمية وتحللها واضطرابها. هذه

الدعوة المسمومة إلى إخراج المسلمين من ضوابطهم الأخلاقية وقيمهم المعنوية وتاريخهم وتراثهم بوصف أنها من القديم البالي المعوق عن التقدم الحائل دون النهضة.

ولقد استطاع المسلمون أن يكسروا هذا القيد: وأثبتوا أنهم قادرون على امتلاك أحدث أدوات العلم الحديث واستعمالها، على الرغم من احتجاز الغرب لها وإسرافه في معطيات الترف والمتع الزائفة والفنون المنحرفة والتحلل الخلقي، والملابس والأزياء والمودات والعطور وتصفيف الشعر، والأغاني والمراقص، وهذه التي يصدرها إلى عالم الإسلام بغير حساب.

إن كلمة الحضارة لها في الإسلام معنى مختلف تمام الاختلاف عن المعنى الغربي الوافد الذي يراد فرضه اليوم على المسلمين، وأبرز ما هنالك النظرة الجامعة الإسلامية والنظرة الانشطارية الغربية فالمسلمون يفهمون الحضارة بمعناها الجامع بين تحضير المجتمعات وتحضير النفس الإنسانية، لا يضحون في سبيل التقدم المادي بالنفس الإنسانية لتصبح مدمرة ممزقة تعيش في كهوف الخوف والشك والتشاؤم على النحو الذي نراه في مجتمع الغرب اليوم، نحن نعرف أن الحضارة الحديثة التي نُدْعَى إليها ويطلب إلينا أن نأخذها هي سلوك وتقاليد وأسلوب عيش وحياة ينسجم مع الذاتية الغربية ويتعارض معنا، أما العلم فهو وحده الذي هو حق كل الأمم أن تأخذه لأنه عالمي، أما نظريات الاجتماع والأخلاق والنفس والتربية فلكل أمة مناهجها التي تتفق مع طبيعتها وعصرها وبيئتها ومواريثها الثقافية وعقائدها. ونحن لا نقر مفاهيم الغرب في هذا المجال ولنا قيمنا التي لا نستطيع أن نبني حضارتنا إلا بها وعلى أساسها: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، وشرعة الهدى والحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الغربيين يخدعوننا حين يعطوننا أسلوب عيشهم بديلاً للعلم والتكنولوجيا

لأنهم لا يريدون لنا أن نحقق وجودنا وأن نظل تابعين لهم؛ معبراً ومصدراً للخامات وسوقاً للتجارة، ولا بأس من ذلك في حدود ذاتيتنا الكاملة وأسلوبنا الرباني في الأسرة والمجتمع والعلاقة بين الأبوة والبنوة وبين الرجل والمرأة، على أساس الأخلاق وضوابط المجتمع وحدود الله ولن يضحي المسلمون بزخرف الغرب في سبيل التنازل عن قيمهم ومقوماتهم، مهما وصفت بأنها بدوية أو متأخرة، فهي مصادر الصمود الحقة التي أعانتنا على الانتصار في كل معارك الغزو وستظل عدتنا في مواجهة كل عدوان.

إن هذه الدعوة إلى الانصهار في حضارة الغرب إنما تستهدف القضاء على قوى الصمود والحياة والبقاء التي علمنا إياها الإسلام والتي لا تزال باقية في أعماق الأمة في أحشائها وهي عدتنا في النزلات ولقد سقطت تلك الدعوات المسمومة التي دعت المسلمين إلى قبول الحضارة الغربية حلوها ومرها، وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب وعرف المسلمون أنهم كانوا مخدوعين حين قبلوا الاحتواء الغربي الذي أنزل بهم الهزائم والنكبات في السنوات الثلاثين الأخيرة، وعرفوا أن كلا المنهجين الليبرالي والماركسي قد وضعا المسلمين في طريق الفناء وأن الأسلوب الوحيد لبناء حضارة إسلامية إنما هو التماس المنابع الأساسية من القرآن على نفس الطريق الذي سار فيه محمد بن عبد الله وصحبه.

*　　*　　*

(٥٥)

الصهيونية

« دعوة يهودية تستمد أداتها من مفهوم عنصري قديم وضعه اليهود أبان النفي في بابل محرفين به نصاً من نصوص الكتب المقدسة ومستهدفين به الادعاء بأن ميراث إبراهيم عليه السلام منحصر في فرعه من إسحق وحجب فرعه من إسماعيل الذي هو أكبر أبنائه والذي هو أبو العرب وبذرة أرض المسجد الحرام وبانيه مع أبيه».

هذه الدعوى أوردتها التوراة (التي كتبت أيام سبي بابل) التي حرص اليهود على طبعها في العصر الحديث سابقة للإنجيل تحت اسم الكتاب المقدس ومرتبطة به والتي وجدت صدى كبيراً عند الكنيسة البروتستانتية التي أوت الصهيونية الحديثة وآزرتها.

وقد سجل هذا المعنى جميع المؤرخين والباحثين الذين تصدوا لهذه القضية كاشفين عن الغاية التي استهدفها اليهود بعد سبي بابل وإحساسهم بالضياع والمهانة مما دفعهم إلى الادعاء بأن لهم حقاً في الأرض المقدسة بناء على وعد الله لإبراهيم عليه السلام بينما ينكر التاريخ الصحيح انحسار الوعد على اليهود وحدهم واتساعه لكل آل إبراهيم من ولديه إسماعيل وإسحق، ولما كان العرب المسلمون منهم فإن ذلك من شأنه أن يزيف دعوى حقهم في فلسطين. يقول المؤرخ البريطاني «أرنولد توينبي» في كتابه «مشكلة اليهودية العالمية» إن ثمة واقعتين تجابهان الباحث في أمر اليهودية عامة والصهيونية خاصة:

الأولى: هي سرد اليهود تاريخهم من وجهة نظرهم البحتة وحدها.

الثانية: سيطرة فكرة (شعب الله المختار) على أذهان اليهود طوال السنين والأحقاب.

ولما ترك اليهود لأنفسهم العنان لتستهويهم الحقيقة الناقصة لكونهم (شعب الله المختار) وقعوا في خطأ مميت وانحرف بهم احتضانهم لهذه الحقيقة إلى العقم الفكري.

فاليهود يعتبرون – خطأ وضلالاً – غيرهم من شعوب العالم أقل منهم منزلة فإنهم هم الشعب المختار، أما شعوب العالم فهي في مركز منحط يطلقون على أفرادها كلمة (الأميين) وقد أوهم اليهود مئات الملايين من البشر بما فيهم الكنيسة المسيحية وباستثناء المسلمين – على مدى العصور والأحقاب بأن تاريخهم مقدس.

ولا ريب أن أهم حدثين في التاريخ هما المسيحية والإسلام ولولا ظهورهما لعاشت اليهودية في ظل وثنية هلينية مثلما يعيش اليوم أتباع ذردشت في الهند، واليهودية تعتبر بقية حضارة بائدة يعتبرها المؤرخون المدققون الآن. مجرد جماعة متحجرة. ولقد كان للصدمات العنيفة التي أصابت النفسية اليهودية القديمة أثرها فيما أصبحت عليه الآن من تحجر ومن كراهية العالم لليهود بالتالي وفي طليعة هذه الصدمات ما كابدته اليهودية على أيدي (بنو خدنصر) وانطيوخس ثم الرومان أثناء حروبهم مع اليهود.

ولهذه الحروب تأثير على تاريخ اليهودية أقوى من تأثير ظهور المسيحية.

فقد دفع اليهود للعمل الجدي للحفاظ على ذاتيتهم وفي أثناء هذه الفترة أتم اليهود صياغة شريعة التوراة المكتوبة وتفننوا في التعليق عليها بتأليفهم كتاب (التلمود) وأن فكرة الوطن القومي نبتت في أذهان اليهود منذ تولية بنو خدنصر البابلي في العقد الثاني ومن القرن السادس قبل الميلاد حيث قرر اليهود المرحلين إلى بابل أن يظلوا يهوداً في جميع الظروف وأن يقاوموا مغريات الحضارات

خشية أن تضيع مقوماتهم الذاتية إلى أن تسنح لهم الفرصة بتكوين مملكة يهوذا وضم جميع الأراضي التي كانت تكون دولة سليمان وداود إليها.

إن اليهود بعد أن دمر بختنصر مملكتهم أخذوا يعقدون الآمال على إقامة دولة يهودية جديدة لهم، وحين يقول اليهود إن إسرائيل قامت تحقيقاً لنبوءات الكتاب المقدس نجد عشرات الأدلة وعشرات الكتاب الذين يدحضون فريتهم وكلهم يجمعون على أن اليهود كتبوا هذه النبوءة بأيديهم أيام السبي البابلي، ويقول الدكتور وليام شاينسبرج أستاذ العهد القديم في جامعة ديوك: إننا لا يمكن أن نتصور تشويهاً للكتاب المقدس أقبح من استخدام نصوصه في تبرير طرد الفلسطينين من ديارهم وأراضيهم، أما الوعد الذي ورد في إصحاح ١٥/١٨ والذي يقول: «إنني أهب لكم ولذريتكم إلى الأبد جميع الأرضين التي تقع عليها عيونكم» فهو إنما كان موجهاً إلى العرب سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ممن هم من سلالة إبراهيم من ابنه الأول إسماعيل».

وحين وعد الله إبراهيم بأرض كنعان (فلسطين) ملكاً له إلى الأبد كان ولده إسماعيل هو الذي قد ظهر بينما ولده إسحق لم يكن قد ولد بعد.

ويقول دكتور عبد العزيز عبد الغني في كتابه (أصول الحضارات) لقد قرر المؤرخون وعلماء الآثار الباحثون عن أصول الحضارات القديمة: أن لكل الشعوب أرض واضحة ثابتة حدودها، أما العبرانيون فليست لهم أرض واضحة ثابتة يمكّن الأثريين من إجراء حفريات عليها لذلك اعتمد المؤرخون في الكتابة عن التاريخ العبراني على المصادر اليهودية التي خطها اليهود أنفسهم كما يروق لهم، إلا أن هذه المصادر مضطربة متضادة، ذلك لأن اليهود كتبوا تاريخهم كما يريدون أن يكون وما تلبث الحاجة أن تدعوهم إلى تغييره فيغيروه، ومن ثم كان التضارب والاضطراب.

كما نجد أن التاريخ الذي كتبه العبرانيون عن أنفسهم كان دائماً يعتمد على الأساطير والخرافات والكهانة ولم تكن هذه الثلاثة في يوم من الأيام مصدراً للتاريخ.

ويقول: لقد نشأت فكرة العنصرية عند اليهود في عصور ما بعد السبي ٥٨٦ق.م ولم يكونوا قبل ذلك عنصراً صافياً إذ تضم اليهودية عرباً وروماً وحيثيين وفرساً وغيرهم من أجناس العرب كما يشهد بذلك كتابهم المقدس وهم خليط من أمم الأرض شرقية وغربية ولم يكن لهم نسب صريح قبل أن يدعوه لأنفسهم.

وأشار الدكتور الفاروقي إلى هذا المعنى حين قال: إن التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد «العنصرية» أما القرآن فقد أوردها في قالب يؤكد «الحنيفية» لقد غيرت التوراة نفسها مع مرور الزمن. والعنصرية تتجسد في محاولة اليهود أن يصفوا أنفسهم بأفضل المخلوقات، واتباع نظام يقضي بالحفاظ على سلامة عنصرهم وعدم الانصهار في أي قبيلة أو شعب أو أمة أخرى.

أما الحنيفية فهي أهل رسالة يحملونها إلى البشر أجمع ويخضعونها بالانصهار في جسم البشرية أيما كانوا وبإهداء الذين ينصهرون معهم في طريق المصاهرة والمؤاخاة لغتهم وثقافتهم ورسالتهم.

ويعني هذا ما أورده القرآن الكريم من أن اليهود وقد أعطوا في فترة ما سيادة العالم فقد عجزوا عن أن يحققوا رسالة الله في بناء المجتمع الرباني المصدر الإنساني الطابع، ودفعتهم مطامعهم وأنانيتهم وغرورهم إلى أن يتبنوا ما أسموه الجنس المختار المستعلي على الأمم والشعوب، ومن ثم فقد كان هذا علامة على هزيمتهم وانهيارهم وتفكك قوتهم وانتقال الرسالة إلى الفرع الآخر من بني إبراهيم وهو فرع إسماعيل (العرب) في الجزيرة العربية الذين حملوا الرسالة وأدوا الأمانة حتى وصفهم الحق تبارك وتعالى بأنهم خير أمة أخرجت للناس.

وقد أشار الباحثون المنصفون إلى أن التوراة في صلبها إنما تشكلت من واقع تدوينات متعاقبة لأصول من مأثورات قديمة، وأن المأثور بوصفه أصلاً قصة محكية تناقلتها ذاكرة الإنسان جيلاً إثر جيل لتخضع لقوانين غير تلك التي تهيمن على الكلمة أو تكتب تسجيلاً للتاريخ، وإذا كانت قد استقرت آخر الأمر وثيقة مكتوبة فإنها أصلاً مجموعة من قصص محكي لم يتهيأ طرف منها أن يدون فيسجل إلا بعد أحقاب طوال، وهي على الجملة أساطير شائعة في متناول الأقوام جميعاً ينتحلها هذا أو ذاك فيصوغها الرواة كل على هواه تمجيداً لذكرى أسلاف، فإذا بعناصر القصة الواحدة منسوبة إلى عدة أشخاص، هذا الذي أورده كثير من الباحثين وسجله حسين ذو الفقار صبري إنما يصدق مع ما جاء في القرآن من أن اليهود زيفوا التوراة وغيروها حتى تحداهم القرآن أن يأتوا بها: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

ولقد كشفت الدراسات الغربية الحديثة عن أن التوراة كتاب بشري ومنذ القرن السادس عشر خضعت التوراة للنقد كأي كتاب وخرج العلماء من دراستها بأنها لم تكن من عمل موسى وإنما كتبت بعده بقرون طويلة. ووصف عزرا بأنه أبو العقيدة اليهودية وأنه هو الذي تصدى لإعادة كتابة التوراة بعد ضياعها خلال تدمير المملكة اليهودية قد كتبها في فترة السبي واتخذ من التحدي الواقع على اليهود منطلقاً لما أسماه العهد بين الإله وشعبه المختار.

ولقد ظلت التوراة ومازالت تغذي الذات اليهودية بأساطير وخرافات تنمي الغرور والأنانية والحقد في الوجدان اليهودي، ليس ضد العرب والمسلمين وحدهم بل ضد الأسرة البشرية.

وقد اعتمد اليهود على هذه النصوص في خداع الغربيين زعماء وشعوباً واكتسابهم إلى جانبهم وزيّنوا لهم أن التوراة هي أم الإنجيل ومصدر إلهامه

فأطلقوا على التوراة العهد القديم وعلى الإنجيل العهد الجديد وأوهموا مسيحيي الغرب أن إيمانهم يظل أبتر ما لم يؤمنوا بكل ما جاء في العهد القديم (بالرغم من وجود عشرات الخلافات والمعارضات بين العهدين) ثم أدرجوا التوراة في المناهج الدراسية في المدرسة الغربية (أوروبا وأمريكا) على أنها مادة تاريخية تدرس كما تدرس آثار هيردون وغيره من المؤرخين، ولم يصبح عسيراً بعد أن يكسبوا الرأي العام الغربي إلى جانبهم في أن لهم حقوقاً تاريخية وأدبية مادام كل مواطن قد درس في طفولته في مدارس حكومية التوراة بكل ما فيها.

ولقد سيطر اليهود منذ ما قبل أول القرن الحالي على دوائر المعارف الغربية فغيروها في هذا الصدد وبخاصة مادة العرب وفلسطين واليهود وإبراهيم، ولقد كان للتوراة أثرها الواسع على البروتستانت (انجلترا وأمريكا وغيرهم) وقد عمد اليهود إلى ترجمة التوراة إلى مئات اللغات في العصر الحديث من أجل نشر فكرتهم. (وزعت جمعية نشر التوراة البريطانية من ١٨٠٤ إلى ١٨٩٩ - ١٦٠ مليون نسخة بـ ٣٦٤ لغة وبلغت ٢١ مليون جنيه).

يقول الأستاذ عبد الحميد السحار: لما جاء بختنصر بني إسرائيل وهزمهم شر هزيمة حرق التوراة وحمل اليهود إلى بابل ليقضوا فترة الأسر البابلي.

هناك عكف أحبار اليهود على تأليف توراة جديدة وقد ظهرت فيها بوضوح أساطير بابل وآداب مصر الفرعونية.

ولذلك فإن الفكرة عن الإله في التوراة لا تختلف عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون في الأرض ويخشون من منافسة البشر في سلطانهم» أ.هـ.

ولقد دمر وجود اليهود في فلسطين مرتين: مرة عام ٥٨٦ قبل الميلاد حيث هدم بنو خدنصر هيكل سليمان وأخذ اليهود أساري إلى بابل ثم سمح لهم (كورش) بالعودة إلى فلسطين فعادوا، واقتصر حالهم في الوضع الديني على

تنازع دائم بين أطرافهم المختلفة ثم استولى الرومان على فلسطين عام ٧٠ ميلادية فهدموا القدس وشردوا اليهود الذين ذهبوا إلى غرب أوروبا وخاصة إلى أسبانيا المسلمة فاستعصموا بها حتى إذا أخرج العرب عادوا إلى أوروبا فوقعوا في أسر الاضطهاد، فعادوا إلى الاحتماء بالمسلمين في الدولة العثمانية، واستقروا في (سلانيك)، وكانت مؤامرتهم المعروفة في الدخول في الإسلام تقية وأطلق عليهم اسمهم (الدونمة) وفي القرن التاسع عشر بدأوا مخططهم في داخل الدولة العثمانية من أجل السيطرة على أجزاء من فلسطين وكانت بين هرتزل وبين السلطان عبد الحميد محادثات مطولة انتهت برفض السلطان لمشروعاتهم وخطتهم، فكانوا هم الأداة التي استطاع اليهود بها إسقاط السلطان عبد الحميد، حيث اندمجت محافلهم في حزب الاتحاد والترقي ورسمت خطة الانقضاض على الدولة وعلى السلطان على النحو الذي حقق لهم عن طريق أعوانهم الاتحاديين الوصول إلى فلسطين، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى محققة لهم وعد بلفور الذي أعطي منْ‌ما لا يملك إلى من لا يستحق.

وهكذا فإن خطة الصهيونية في السيطرة على فلسطين لم تكن في حقيقتها إلا مؤامرة ماكرة دبرت عن طرق كثيرة، عن طريق تزييف الوعد الإلهي لإبراهيم وذريته، وعن طريق السيطرة على الفكر الغربي وتزييف دوائر المعارف وكتب التاريخ في هذا الشأن، وعن طريق المؤامرة على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وتزييف تاريخه.

ولقد كان قبول دول الغرب لإنشاء اليهودية دولة في فلسطين إنما يعني أن الغرب أراد التخلص من يهود أوروبا وتصدير مشكلتهم إلى الشرق الإسلامي، ومن ذلك أن بريطانيا أعلنت الوطن القومي لليهود في فلسطين قبل استيلائها عليه. وقد كان الأمر بمثابة خدعة متعددة الأطراف فالانجليز يعلنون أن اليهود سيعيشون في داخل فلسطين كجماعة، ويعلن اليهود في نفس الوقت: أن كلمة الوطن القومي

تعني أن نبني في فلسطين قومية هي لليهود بمقام الأمة الفرنسية للفرنسيين.

ولا ريب أن الحركة الصهيونية واحتلالها لفلسطين قد وجدت تقبلاً من الاستعمار الانجليزي الذي كان يبحث عن جسم غريب يقيم في المنطقة العازلة بين أفريقيا وآسيا حتى يحول دون قيام وحدة عربية إسلامية تواجه الغرب بالخصومة، وقد اتخذت قضية اضطهاد ألمانيا النازية لليهود تكأة لتوسيع نطاق الاستيطان، وتحويله من وطن قومي إلى كيان يطرد منه أصحابه الحقيقيون،ذلك أن هذا الاضطهاد بصورته التي صور بها كان أكذوبة كبرى، ولقد وجدت هذه الحركة تقبلاً من النفوذ الاستعماري من حيث اصطناعه إياها لتكون أداة في ضرب الحركات التحررية في المنطقة وحماية مصالحه، فضلاً عن التخلص من النفوذ اليهودي بإخراجه من أوروبا.

وكان الاستعمار الإنجليزي قد فكر وقدر في محاولة تدعيم وجوده في العالم الإسلامي حين قرر عام ١٩٠٧ إلى أن إيجاد حاجز بشري بين أفريقيا وآسيا من شأنه أن يحول دون وحدة هذا العالم وتجمعه، وقد تلقفت الصهيونية هذا القرار وطمعت في أن تحقق وجودها بالحصول على أرض فلسطين مع إثارة هذا المعنى الديني الذي اتخذ تكأة للغزو، على النحو الذي فعله الصليبيون الأوربيون عندما غزو فلسطين من قبل تحت اسم إنقاذ قبر المسيح بينما كان قبر المسيح في حماية أكيدة وكان غزوهم هو الذي عرضه للأخطار.

وقد عمدت بريطانيا في تبني مخطط وطن قومي في فلسطين تمهيداً لإقامة دولة صهيونية إلى تحقيق عدة مزايا كان أهمها:

تغطية قناة السويس من الناحية الشرقية وحمايتها ضد حركات التحرر العربية فضلاً عن كسب النفوذ اليهودي في العالم كله.

وقد عمدت الصهيونية إلى وضع مخطط واسع في سبيل إكساب وجودها في فلسطين حقاً تاريخياً بالتزوير في كتابات التاريخ ووضع الموسوعات والكتب باللغات المختلفة وكذلك القصص المسرحية والسينمائية التي تحاول فرض نظريات جديدة قوامها القول بأن إسرائيل: هي الشعب المختار الذي واجه الاضطهاد على مزى التاريخ، وأن عظماء الفكر في العالم وكبار المكتشفين والباحثين في مختلف العلوم كانوا من اليهود وإعلاء شأن الجنس اليهودي والدعوة إلى السامية واعتبار كل من يقف في وجه حركتهم من أعداء الساميه ، وقد استطاعت الصهيونية بوسائلها المختلفة وأساليبها المتعددة، وسيطرتها على الأسواق المالية والتجارية وأجهزة الإعلام في مختلف أنحاء العالم من ترديد هذه الدعاوي وفرضها على الفكر الغربي وتزييف جذور هذا الفكر نفسه بالهجوم على المسيحية.

وكانت الحركة الصهيونية قد مهدت لنفسها منذ سنوات طويلة بالحركة الماسونية في سبيل تحقيق هدف عريض تسعى له اليهودية العالمية وهو حكم العالم والسيطرة عليه، وإقامة الأمبراطورية الصهيونية كوريثة للحضارة الغربية والأنظمة الرأسمالية، بالإضافة إلى دورها في إنشاء الماركسية الشيوعية لالتهام القسم الآخر من العالم.

وقد تكشفت هذه المخططات من خلال ما تسرب إلى العالم من نصوص التلمود وما كشفت عنه (بروتوكولات حكماء صهيون) ويوميات هرتزل وعديد من الكتابات التي سمحت الصهيونية بإذاعتها بعد الحرب العالمية الثانية وحاولت بها أن تكشف عن مخططاتها الخفية التي كانت سرية ومحاطة بقدر كبير من الكتمان. ومن يراجع تطور التاريخ يجد أنه في عام ١٨٩٧ اجتمع المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا برئاسة دكتور تيودور هرتزل مؤلف كتاب (الدولة اليهودية) والذي ضبطت فيه تجارب (بروتوكولات صهيون) وقد تقرر فيه العمل الفوري من أجل تحقيق الهدف، ومن ثم ركزت على الدولة العثمانية عن طريق المحافل

الماسونية التي كانت بؤرتها مدينة (سالونيك) حيث توجد جالية «الدونمة» المعروفة من اليهود الذين هاجروا من الأندلس وأعلنوا إسلامهم وأقاموا في هذا الموقع الخطير، ومن خلال المحافل الماسونية ترعرع حزب الاتحاد والترقي الذي سيطر عليه اليهود وحولوه إلى هدفهم الرامي إلى تنكيس الدولة العثمانية وتمزيقها وإيقاع الخلاف الدموي بين عنصريها المسلمين: العرب والترك.

ومن ناحية أخرى فقد توجه الصهيونيون مرتين إلى السلطان عبد الحميد بمشروع قوامه السماح لهم بالإقامة في فلسطين في مقابل دعم الدولة مالياً بقرض قدره خمسون مليوناً من الجنيهات وقد رفض السلطان هذا العرض صراحة حين قال: أنصح للدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، إنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي، ولقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزقت إمبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ولكن يجب ألا يبدأ هذا التمزيق على جثثنا، فإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة.

وكانت هذه الإجابة الحاسمة عام ١٩٠٢ هي التي وضعت الصهيونية العالمية أمام قرار التخلص من السلطان وتمزيق الامبراطورية وقد جرت محاولات كثيرة لاغتيال السلطان ثم جرى التآمر عليه عام ١٩٠٩ لإسقاطه بعد انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨ هذا الانقلاب الذي هلل له السذج من العرب والمسلمين ظناً منهم أنه فاتحة التحرر بالدستور الذي أعلن في أوائل حكم الاتحاديين.

في هذه المرحلة تحالفت الصهيونية مع الاستعمار بفلسفة واضحة مخططة قوامها استعادة بناء هيكل سليمان، ووجد الاستعمار في المخطط الصهيوني عاملاً هاماً في طريق دعم وجوده بعد حركات التحرر التي قلصت نفوذه وسلطانه،

وبدعمه النفوذ الصهيوني يستطيع أن يعود إلى الضغط من جديد على العالم الإسلامي عن طريق احتلال استيطاني أخطر أثراً من الاحتلال السياسي والعسكري في بقعة من أدق بقاع العالم الإسلامي وفي قلب الأمة العربية: فلسطين وعلى مرمى القذائف من حمى الإسلام الأعظم في الجزيرة العربية، ولذلك فقد بدأ تحرك النفوذ الأجنبي وقوامه (فرنسا وانجلترا وروسيا) مع الحركة الصهيونية في سبيل تمزيق الوحدة الإسلامية الكبرى (العربية التركية) الممثلة في واجهة المقاومة (الدولة العثمانية).

وكان الاتحاديون ثمرة المحافل الماسونية في سالونيك أخطر قوة في سبيل تحقيق هذه الغاية في الفترة منذ إسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ إلى نهاية الحرب العالمية الأولى حين أمكن التمهيد الكامل لصدور وعد بلفور ١٩١٧ وبدء إقامة كيان صهيوني يهودي في قلب فلسطين العربية.

والواقع أن الصهيونية كانت تحدياً جديداً للعالم الإسلامي أصبح مع مرور الأيام أشد خطراً من الاستعمار نفسه، بعد أن قطع المسلمون مراحل طويلة في مقاومة الاستعمار والإدالة منه وتحقيق جانب من الانتصار عليه وهو إنهاء الاحتلال العسكري في أغلب أجزاء العالم الإسلامي، وإن بقي الاستعمار الاقتصادي والثقافي مسيطراً، وإن كان في طريق المواجهة والمقاومة.

أما الاحتلال الصهيوني فقد أخذ صورة أكثر عنفاً من الاستعمار نفسه فهو استعمار استيطاني من نوع أشد خطورة، خاصة وقد أعلنت الصهيونية عن مخطط واسع لبناء امبراطورية كبرى يجري تنفيذها من النيل إلى الفرات، مرت في مراحل مختلفة، كان أقساها ما وقع عام ١٩٤٨ من احتلال فلسطين وما وقع عام ١٩٦٧ بضم القدس والضفة الغربية وصحراء سيناء وهضبة الجولان.

هذا هو الخطر الذي واجه العالم الإسلامي منذ خمسين عاماً وإن لم تؤثر

تحدياته في هذا الوطن كله إلا في السنوات الأخيرة بعد أن سيطر اليهود على القدس وانتزاعها من المسلمين والعرب بعد أكثر من ألف عام عندما انتزعها الصليبيون واستردها صلاح الدين .

ويبدو أن الخطر الصهيوني الذي كان يمثل تحدياً للأمة العربية وحدها إلى ما قبل ١٩٦٧ قد أصبح اليوم خطراً أشد ضراوة بالنسبة للعالم الإسلامي كله.

إذا ما وضعنا في اعتبارنا التوسع الاقتصادي الذي تقوم به إسرائيل في قلب إفريقيا وسيطرتها على أجزاء كثيرة من الدول الإسلامية عن طريق النفوذ الاستعماري الذي يفسح لها المجال في كل مكان. ولقد تراخى المسلمون في مواجهة الصهيونية نتيجة المخطط الغربي الذي احتوى الفكر السياسي العربي وأوهمهم أن فلسطين قضية عربية فحسب، وأن حلها إنما يكون بالأساليب السياسية الغربية الميكافيلية المصدر، ولكن المسلمين تنبهوا أخيراً وتنبه العرب أيضاً إلى الحل الإسلامي القائم على «الجهاد» والذي يشترك فيه المسلمون جميعاً، ذلك لأن خطر إسرائيل هو خطر على العالم الإسلامي كله ويستهدف الانقضاض على مقدرات البلاد الإسلامية جميعاً.

ولقد صاحب النفوذ الصهيوني مخطط فكري خطير أخذ يسيطر بدوره على الفكر الإسلامي والثقافة العربية من خلال دعوات ونظريات ومفاهيم ومناهج وأيدلوجيات أخطرها الماركسية، ومنها الوجودية، والمدرسة الاجتماعية، وعلم النفس، ومناهج الأخلاق والاجتماع والمادية وغيرها. فقد سيطر المفكرون والفلاسفة اليهود في العصر الحديث على الفكر الغربي كله وحولوا مفاهيم التلمود واليهودية الهدّامة إلى نظريات علمية براقة، وكان في مقدمتهم دوركايم وماركس وسارتر وفرويد وهم الذين يمثلون الآن أبرز مقدرات الفكر العالمي الذي يحاول أن يلقي بثقله في أجواء الفكر الإسلامي لاحتوائه والسيطرة عليه.

من خلال الحركات الهدّامة التي تتحرك اليوم في آفاق الفكر البشري وتعلن حربها للدين إنما تستهدف الإسلام أساساً: الماسونية والدهرية والإلحاد والإباحية والشعوبية والمادية والبهائية والإقليمية الضيقة، والعنصرية، والقديانية،كل هذه الدعوات إنما تمثل هجوماً شرساً على الإسلام تحت لواء الفكر التلمودي الذي هو جماع الركام البشري الفلسفي الهدام.

والصهيونية هي التي حملت لواء ما أسمي بعلوم مقارنات الأديان والانثربولوجيا والإقليمية والدعوات الوطنية الضيقة، والماركسية والماسونية هي التي عملت على تحقيق بعض القرارات الأخيرة في مجال الكنيسة الكاثوليكية ومن أبرزها ما أطلق عليه وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، وقرار إباحة انتساب المسيحيين إلى الماسونية.

ولعل نظرة إلى ما تشير إليه البروتوكولات في هذا الصدد تكشف أبعاد هذا المخطط بالنسبة للبشرية كلها:

«ليس هناك ما نخشاه في الواقع سوى القوة الروحية، فهي وحدها الكفيلة بالقضاء علينا وسحق كل مخططاتنا قبل الأوان وضياع كل ما عملنا من أجله من ثلاثين قرناً طويلة سحيقة من عمر هذا الزمان، وهذا سبب يكثف جهودنا للتشكيك في الأديان وعلى الأخص الدين الإسلامي، ولا يجوز أن أخفي عليكم قلقنا البالغ من اهتمام المسلمين بأمور دينهم، ولهذا يجب أن نركز على زعزعة ثقتهم بشعائر دينهم وخلق موجة من التشكيك والسفسطة والجدل بين صغار المفكرين منهم وبين كبار المفكرين ذوي العقائد الصاعقة حتى يكتفي هؤلاء بالشعائر السطحية الكلية».

هذه النصوص تكشف في وضوح أهداف المخطط الصهيوني وما يجري تحقيقه حالياً.

ومن هذا النص نفهم سر تلك المذاهب الهدّامة المتعددة التي تتحرك الآن في

أفق الفكر البشري: الشيوعية والسريالية ومذهب التطور والتحليل النفسي وأخطر من ذلك مذاهب التحلل الاجتماعي كالوجودية والهيبية، التي تجتاح صفوف الشباب في العالم كله، والتي تستهدف تدمير أخلاق الأمم وأديانها وإيصال الأجيال الجديدة من الشباب إلى حالة الضياع الفكري والاجتماعي التام كوسيلة لسيطرتهم على العالم. وإذا نظرنا إلى مخطط تدمير الأديان والقيم في العصر الحديث نجده بين الصهيونية في الصحافة والسينما والقصة والمسرح والأغاني والحوار، وفي تحويل خطط السياسة إلى مفهوم السلب والمراوغة والمزايدة، واستخدام الأسلوب الميكافيلي في أسوأ صوره، وإيقاع الصراع بين الأمم وبعضها، وبين الأمم وحكامها، ولا أدل على ذلك من أن الماركسية تقوم على الدعوة إلى صراع الطبقات لهدم وحدة المجتمعات والحيلولة دون تقدمها وتكاملها، وهم الذين دفعوا المرأة إلى الطريق المخوف باسم الحرية وزينوا لها التحرر من سلطان الأسرة، والأطفال والزوج، وحرضوها على الفجور وخلقوا لها تلك الأجواء من الرذيلة باسم حبوب منع الحمل واستغلالها الذاتي الخاص من حيث إنها لها مورد.

ولقد عمدوا إلى تزيين هذه الخطوات في المجتمع بتبريرها فلسفياً عن طريق نظريات ومذاهب، ومفاهيم فاميل لدوفيج اليهودي وهو الذي حمل لواء تعرية البطولة ومهاجمتها ومحاولة القول بأن كل الأبطال العالميين كانوا منحرفين وأنهم في حياتهم الداخلية إباحيون أو فاسدون وفرويد ودوركايم هما اللذان حملا لواء العمل على تدمير الشخصية الإنسانية فعمد فرويد إلى علم النفس محاولاً إثبات أن الجنس واللذة والغريزة هي مصدر كل تصرفات الفرد، وأعلن دوركايم أن نظام الأسرة ليس من الأنظمة الطبيعية وأن الأديان خرجت من الأرض ولم تنزل من السماء وتولى كثيرون ممن تابعوا مخططات التغريب والتلمودية إذاعة هذه الآراء والإعلان بها في أفق الفكر الإسلامي أمثال محمود عزمي وطه حسين وسلامة موسى ولويس عوض.

والهدف من هذه المخططات تبرير الفساد والتحلل للشباب وخلق جو من الاستهانة في نفوس المسلمين بمقومات الدين والأخلاق والمثل العليا تحقيقاً للمخطط الذي كشفت عنه بروتوكولات صهيون بالسيطرة على العالم بعد تدمير مقوماته. وتتصل بهذا حملات نيتشة وكيركجاردوريتان على الدين عامة والمسيحية خاصة ورميها بأبشع الاتهامات وإعلاء دعوات الوجودية والانحلال والعبث واللامعقول وغيرها من الدعوات التي تغمر أفق الفكر البشري كله وتدفعه إلى أن يقع فريسة سائغة في أيدي القوى الصهيونية العالمية وقد كشفت كتابات كثيرة عن أبعاد المخطط الصهيوني في محاربة الأديان والإسلام بالذات، وتكشفت في السنوات الأخيرة الحلقات التي كانت مفقودة بين النظريات التي حملت الطابع العلمي سنوات طويلة وبين التراث اليهودي الصهيوني مما يؤكد أن هذه النظريات وخاصة (التحليل النفسي) قد استقت من نفس المنبع الذي استقت منه الحركة الصهيونية طاقتها وتوجيهها وأن الحركتين سارتا معاً لكي تصلا آخر الأمر إلى غاية واحدة هي الالتقاء بشعب الله المختار في أرض الميعاد على حد تعبير الدكتور صبري جرجس ومن المؤكد أن الكشف سيؤدي إلى مثل هذه الصلة بالنسبة للوجودية والبهائية وكل هذه الدعوات الهدامة.

ويقول الدكتور صبري جرجس: «إن التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين سنة لم يكن علماً كما زعم ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معاً بالتفكير اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها، وإنه من أجل ذلك سخّرت الصهيونية اليهودية أجهزتها الإعلامية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة له في أوسع نطاق مستطاع حتى أصبحت الفرويدية من أقوى العوامل أثراً في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب، وقد ثبت أن فرويد كان يهودياً حقاً وعضواً عاملاً في بعض المنظمات وصديقاً شخصياً لهرتزل، وأن العلاقة العضوية والمصلحية والمصيرية بين اليهودية

والصهيونية والاستعمار من ناحية، وبينها وبين التحليل النفسي الفرويدي من ناحية أخرى قد جعلت من الحركات الثلاث ثالوثاً قوامه «العنصرية» وروح الاستعلاء ووسيلة الإفساد وهدم الاستقلال ويشكل تحدياً يواجه البشرية ومستقبلها».

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة كتب كثيرة ووثائق متعددة تكشف هذه الصلة بين الصهيونية وبين مخطط تدمير العالم منها كتاب «الدنيا بعد إسرائيل» للكومندور وليم كار حتى ليقول صاحب الكتاب «إن الصهيونية وراء كل ثورة قامت، ووراء كل حرب اندلعت، ووراء كل فساد، ووراء كل المذاهب الهدامة: الشيوعية، النازية، الفاشية، الماسونية، والهدف هو القضاء على الأديان والسيطرة على العالم لإقامة مملكة الشيطان، ويكشف المؤلف بما لا يدع مجالاً للشك الصلة العضوية بين الصهيونية والشيوعية. وأن الشيوعية ومحتوياتها ليست إلا جزءاً من مؤامرة دولية كبرى، دعاتها الصهيونية، وهدفها القضاء على الأديان والمثل العليا.

ويشير المؤلف إلى أن الصهيونية تستهدف من وراء إقامة دولة إسرائيل في فلسطين أن تكون منطلقها إلى حرب مدمرة لا تبقي ولا تذر، يكون مجالها العالم الإسلامي، حيث تحاول القضاء على الإسلام باعتباره القوة الأخيرة التي تجابهها قوى الشر، وأن هذا الصراع والمؤامرة مع العالم الإسلامي قد بدأ فعلاً وهو ما يجري الآن من العمل على تدمير عقيدته الإسلامية ببث المذاهب الهدامة في أفقه ومحاولة ضربه واحتوائه عن طريق الأيدلوجيات المختلفة.

* * *

(٥٦)

الاســتعمار

إن الاستعمار ظاهرة حديثة في تاريخ الأمم ارتبطت بالحضارة الغربية الحديثة التي ظهرت في القرن الخامس عشر الميلادي في أوروبا واستطاع العلم التجريبي أن ينقلها إلى ثورة الصناعة، فكان الاستعمار هو محور هذه الثورة، حيث لم تكن تملك أوروبا من المواد الخام إلا قليلاً من الفحم، ومن هنا ارتبطت الصناعة الحديثة بالاستعمار، حيث زحفت البلاد الأوروبية على الشرق، واحتلت مناطق متعددة استطاعت أن تحصل منها على الخامات التي ازدهرت بها الصناعة، ثم عادت هذه المصنعات إلى تلك البلاد مرة أخرى لبيعها، فأصبح العالم الإسلامي بالنسبة لها مصدراً للخامات، وسوقاً للتجارة في نفس الوقت. وقد استطاع الاستعمار - في خلال هذه الفترة الطويلة - أن يسيطر على مقدرات البلاد الإسلامية من أندونيسيا وبلاد الملايو إلى المغرب في مرحلتين، إحداهما (البرتغال وأسبانيا) وهي مرحلة تمهيدية قصيرة ثم مرحلة الاستعمار الطويل (فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا) وهي الفترة التي امتدت خلال أكثر من قرنين والتي انتهت في السنوات التالية للحرب العالمية الثانية على نوع من الاستعمار الاقتصادي والسيطرة الثقافية، بعد أن جلت قوات الاستعمار العسكري والسياسي وهذه هي المرحلة التي يمر بها العالم الإسلامي اليوم.

ولقد كان «الاستعمار» الغربي الحديث ظاهرة مفردة مختلفة - تمام الاختلاف - عن الاستعمار الروماني والفارسي وعن الوحدة الإسلامية العثمانية العربية التي وصفت بالاستعمار بينما هي لم تكن أكثر من تضام لأجزاء من الأمة الإسلامية في كيان سياسي واحد.

وقد جاء الاستعمار موجة تالية لزحف سابق أطلق عليه اسم الحروب الصليبية

التي امتدت على جبهة المشرق (الشام ومصر) كما امتدت على جبهة المغرب (الجزائر وتونس) وقد فشلت الحملات الصليبية واندحرت مهزومة، ثم جاء بعدها المد العثماني الإسلامي الذى حمى عالم الإسلام أكثر من ثلاثمائة سنة من الغزو الغربي، فلما وهنت القوة العثمانية عاود الغرب محاولته للسيطرة على عالم الإسلام وكانت هذه المرة حملة متعددة المطامع فيها مطامع الصهيونية ومنها مطامع الاستعمار الغربي ومنها مطامع روسيا القيصرية، وقد استمر الصراع طويلاً بين القوى الثلاث حتى استطاعت أن تفرض نفوذها على أجزاء العالم الإسلامي على النحو الذي تشكلت به القوى الاستعمارية في نهاية الحرب العالمية الأولى.

وكانت من نتيجة ذلك: سقوط الدولة العثمانية وتمزق ميراثها بين فرنسا وانجلترا، وقيام الكيان الصهيوني في فلسطين واستيلاء روسيا على الأجزاء الإسلامية في آسيا: القرم وتركستان وغيرها.

ولقد ارتبط الاستعمار منذ اليوم الأول بقوتين أساسيتين هما: التبشير والاستشراق وكان الهدف هو دعم الوجود الاستعماري، وذلك بخلق عقلية موالية للغرب، منحرفة عن أصالة الإسلام الذي يعطيها دائمًا القدرة على المقاومة والجهاد والمواجهة.

ولقد عملت هذه القوى الفكرية على السيطرة على التعليم والثقافة والصحافة من أجل تزييف المفهوم الإسلامي وحجب أبعاده الحقيقية وتصور أن الإسلام دين عبادة – فقط –، ومن ثم فرض الاستعمار النظم السياسية والاقتصادية والقانونية الغربية على البلاد الإسلامية ونحّى منهجها الأصيل المستمد من القرآن الكريم. وفرض عليها القانون الوضعي بدلاً من الشريعة الإسلامية، وفرض عليها المصرف الربوي بدلاً من نظام الاقتصاد الإسلامي، وفرض عليها النظام الديمقراطي الليبرالي بديلاً عن نظامها القائم على الشورى.

ولقد كان حرص الاستعمار على أن يوقف نمو الإسلام ونمو اللغة العربية، ويعارض القوة القادرة على مقاومته، والحيلولة دون وحدة أجزاء هذه الأمة باعتبارها خطراً عليه، والعمل الدائب على تمزيق الجبهات، بالانقسام السياسي والعنصري والطائفي والقبلي وإدامة هذه الفرقة حتى لا يلتقي المسلمون على وحدة جامعة.

وكان أخطر ما حرص الاستعمار على تقليص نفوذ الإسلام فيه: إفريقيا وجنوب شرق آسيا وكانت للاستعمار الفرنسي والإنجليزي (في العالم العربي) والإنجليزي في الهند والهولندي في بلاد الملايو خطط أساسية عامة وأساليب مختلفة متنوعة.

وكان الاستعمار البريطاني من أشد أنواع الاستعمار قسوة على الإسلام وقد ركّز الاستعمار - بعامة - على البلاد العربية أساساً بوصفها بلاد العروبة والإسلام وعلى مصر خاصة بوصفها قلب العالم العربي، وقد بدأت خطط الاستعمار بالتجارة والاستيلاء على الموانىء والبواغيز،ثم التغلغل في داخل البلاد والاستعانة بالأقليات في سبيل ضرب التجمعات الإسلامية والسيطرة على مراكز الحكم والتوجيه برجال لهم ولاء للاستعمار عن طريق الدين أو عن طريق الفكر.

ولقد كانت دعوى الاستعمار الغربي في احتلال العالم الإسلامي، هي دعوى التمدين ونقل الشعوب المتنافرة إلى مجال الحرية، والواقع أن الدول الاستعمارية لم تفد إلى العالم الإسلامي لتمدنه بل لتستنزفه ولتستعبد أهله. ولقد كانت نظرة الاستعمار إلى العالم الإسلامي هي نظرتهم إلى عناصر أقل درجة من الجنس الأبيض حامل الحضارة، وكانت ترى أن الشعوب الملونة ليست أهلاً للحرية ولا للرفاهية.

ولقد استطاعت الدول الاستعمارية بعد سيطرتها العسكرية على البلاد

الإسلامية أن تسيطر على مقدراتها الاقتصادية وكيانها السياسي، وأن تستدرجها في مجال القروض والمعونات وإقامة القواعد العسكرية وإثارة الاضطرابات الداخلية لإضعافها واستدامة سيطرتها عليها ونقلت بعض الدول الاستعمارية أفواجاً من أهلها إلى البلاد المستعمرة حيث طردوا الوطني صاحب الأرض وسيطروا عليها وجعلوا ذلك وسيلة لزعزعة المجتمعات وتغليب الأقليات الأجنبية على أصحاب الأرض الأصليين. وأنشأ الاستعمار أجيالاً جديدة تدين له بالولاء وتؤمن بعظمته وسلطانه وتدعو قومها إلى التبعية واعتبار الاتجاه نحو الغرب ونحو اللون الغربي المعين (فرنسياً كان أم انجليزياً) هو الأسلوب الوحيد للتقدم.

يقول ألفريد كانتول سميث: إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع، ولقد جرت محاولات استعمارية متصلة على مدى التاريخ لدعم النفوذ الأجنبي في العالم الإسلامي منها تلك الخطة التي أعدها كامبل لبرمان الزعيم البريطاني الذي قام بتشكيل مجموعة من بعض علماء التاريخ ورجال القانون والسياسة وطرح عليها القضية التالية:

هل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوروبي وانهياره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة وبعد أن أصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معاملها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتقدم

ولقد كانت خلاصة رأي العلماء هي: إيجاد عنصر غريب في المنطقة القائمة بين افريقيا واسيا من شأنه أن يحول دون وحدة هذه المنطقة .ذلك أن أخوف ما يخافه الاستعمار هو انبعاث هذه الأمة عن الطريق الطبيعي لها وهو الوحدة الإسلامية.

ولذلك شجعت الدول الاستعمارية القوى الغازية على السيطرة وفتحت الطريق أمام الصهيونية العالمية للسيطرة على فلسطين وأتاحت لها الفرصة بإعلان وعد بلفور.

لذلك فإنها أفسحت المجال للغزو الثقافي الماركسي والغربي والصهيوني على السواء حتى تقع البلاد الإسلامية في بلبلة فكرية وصراع اجتماعي يحول بينها وبين القدرة على مقاومة الاستعمار أو التحرر من نفوذه.

كذلك طرحت في أفق العالم الإسلامي قضايا القومية والإقليمية والديمقراطية والماركسية والوجودية والمادية وكلها محاولات لتمزيق جبهة المجتمع الإسلامي وفكره والحيلولة دون التقائه على وحدة الفكر الإسلامي.

كيف واجه العالم الإسلامي الاحتلال الغربي والاستعمار الفرنسي الانجليزي والقوات الطامعة يهودية وروسية وأوروبية؟

لقد وقف العالم الإسلامي كله في وحدة متراصة منذ اليوم الأول لمقاومة الغزو الاستعماري وجرد كل ما ملك في سبيل الدفاع عن كيانه وحماية وجوده ودحر الغزاة، وقد برز عدد من المعلمين المصلحين الذين حملوا لواء المقاومة وجندوا كتائب المؤمنين للمقاومة، ولم يتمكن الاستعمار من الانتصار عليهم بقوة السلاح في معركة واحدة وإنما تغلب عليهم بالخديعة والمكر، ولقد فوجئ الاستعمار بهذه القوة المذخورة التي لم يكن يتوقعها فعمد إلى تغيير أساليبه وخططه مرة بعد مرة، من الاستعمار إلى الانتداب ومن الاحتلال إلى الوصاية، وظهر له كذب ادعائه بأن هذه الشعوب متأخرة تعجز عن أن تدير شئونها بنفسها ولقد كانت تفعل ذلك قبل حلوله بمئات السنين.

وكشف القادة المسلمون خدعة بريطانيا القائلة بأنها دولة صديقة للإسلام وبيّنوا أنها كانت العامل الأول في القضاء على الدولة العثمانية، وأنهم هم الذين

رتبوا جيوش الرهبان من المبشرين ونشروهم في أنحاء بلاد المسلمين في الهند والصين ومصر والسودان والصومال وفلسطين ولبنان والعراق وسائر أرجاء آسيا وإفريقيا الإسلامية وإمدادهم بالمال، وساعدتهم الدولة البريطانية كل المساعدة على تكفير المسلمين صغاراً وكباراً وإخراجهم من دين الإسلام، وقد بذل الإنجليز كل ما يستطيعون من قوة ومن مكر ودهاء وحيلة ورياء في هذا السبيل، والانجليز هم الذين منعوا علماء المسلمين من الدخول إلى جنوب السودان المصري وحالوا بينهم وبين تعليم المسلمين مع سكان تلك الجهات أحكام الدين وآداب المسلمين فأوصدوا في وجه الهداة سبل الدعوة إلى الدين الحق في حين أنهم غزوا تلك الجهات بجيوش رهبانهم ونشروهم في تلك الأقاليم، كذلك كشف المفكرون المصلحون عن الدور الذي قام به الاستعمار عامة والبريطاني خاصة في القضاء على الدول الإسلامية واستئصالها دولة بعد دولة وهم الذين هدموا دولة الإسلام في الهند وأذلوا أهلها، وهم الذين أزالوا الدولة العثمانية دولة الخلافة،واستعمروا بلادها ومزقوها كل ممزق وبذلك تمكنوا من هدم الخلافة الإسلامية وإبقاء المسلمين بدون خليفة وهم الذين مهدوا للصهيونية بالسيطرة على فلسطين واحتلال القدس.

وهم الذين مكنوا لهم في هذه الأراضي العربية الإسلامية وجعلوا منهم قوة عسكرية ذات بأس تهدد الحجاز ومصر وسوريا ولبنان والعراق وسائر بلاد العرب.

وهكذا كشف الدعاة المسلمون خطر الاستعمار البريطاني، وكذلك فعل الدعاة المسلمون في المغرب حين كشفوا خطر الاستعمار الفرنسي، وكانت الحركات الوطنية كلها حركات إسلامية المصدر والطابع، حملت لواء الجهاد بالمقاومة الشعبية وبالكلمة لكشف دخائل المستعمر وأهدافه، والعمل في نفس الوقت لتحرير الفكر الإسلامي من زيف البدع والأضاليل والخرافات والتماس منابعه الأصيلة ليكون قوة – في المقاومة – لا تغلب.

وقد عمدت القوى الوطنية المقاومة للاستعمار إلى كل أسلوب، فأنشأت المدارس الأهلية لتتحرر من برامج الإرساليات الأجنبية، وأنشأت المستشفيات ودور الملاجئ وغيرها، حتى لا يقع أبناء المسلمين فريسة التبشير الغربي.

وكانت حركات السنوسي والمهدي وجمال الدين ومحمد عبده وغيرها، حركات مقاومة، ويؤكد الباحثون أن حركة المقاومة لم تتوقف منذ احتل الغرب عالم الإسلام، وأن كل الحركات التي قام بها المسلمون سواء كانت حربية عسكرية أم فكرية، وسواء أكانت باسم الجامعة الإسلامية أو الوحدة العربية أو الوطنية، إنما كانت – أساساً – إسلامية المصدر تنبع من أساس مفهوم الجهاد الإسلامي.

ولقد اهتز الاستعمار اهتزازاً شديداً لحركة الجامعة الإسلامية التي قام بها السلطان عبد الحميد ، ولذلك عجل بالقضاء عليه وفرق العالم الإسلامي إلى صراع بين القوميات والوطنيات، ومع ذلك فإن مفهوم (العروبة والإسلام) ما يزال يقلق الاستعمار الذي حاول أن يحل بدلاً منه مفهوم القوميات الغربية.

ولقد استطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تدحض مختلف الشبهات والسموم التي حاولت حركة الغزو الثقافي والتغريب عن طريق التبشير والاستشراق أن توجه سهامها إلى الفكر الإسلامي، وعملت على كشف جوهر الإسلام ومفهومه الأصيل الجامع التمرابط باعتباره منهج حياة ونظام مجتمع.

لقد قاوم المسلمون الاستعمار في كل مكان: «شامل» في القوقاز و«عرابي» في مصر و«المهدي» في السودان و«يعقوب» في التركستان و«عبد القادر» في الجزائر و«عبد الكريم» في المغرب، و«السنوسي» في ليبيا و«أحمد عرفان» في الهند و«عمر المختار» في ليبيا، وظهر المصلحون المجاهدون الدهلوي وإقبال والقاسمي والألوسي العربي وابن باديس وخيرالدين التونسي وجمال الدين ومحمد عبده

وكان الأزهر والزيتونة والقرويين ومعاهد دمشق وبغداد كلها معاقل للمقاومة والجهاد الإسلامي، ولقد كان الاستعمار يهدف إلى أن يحول دون نهوض عالم الإسلام، كان يرى في هذا النهوض خطراً عليه، قال «جاردنير»: إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا. ويقول «لورانس براون»: إذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً على الغرب، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير. إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي.

ومن هنا كانت خطة التبشير التي يصورها زعيمهم «زويمر» بأنها لا تهدف إلى إدخال المسلمين في المسيحية بل إلى إخراجهم من الإسلام، وزعزعة عقائدهم وتشكيكهم في مقومات فكرهم وتاريخهم وخلق طابع غربي في أسلوب الحياة أقرب إلى الترف والانحلال.

ومهما حاول الغربيون أن يدعوا أنهم يحاولون تمدين الأقطار المحتلة، فإنهم لن يعطوها إلا ما يدمرها، ذلك الفتات من المستهلكات والخمور والسموم والمراقص، التي تدمر قوتهم وحيوية شخصياتهم وتجعلهم منهارين عاجزين عن المقاومة. ولكنهم بشهادة مؤرخهم «تويمبي» لا يفكرون قط في إعطائهم العلوم. يقول المؤرخ الإنجليزي: «لا يستطيع الباحث المنصف أن يسلم بأن الأوروبيين في القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمي هدية خالصة، وما كان الشرقي العثماني يستطيع الإفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته هذا هو ثمن التقدم، الذي دفعته إحدى الدول الإسلامية حين خرجت عن اللغة العربية والإسلام ثم غيرها الغرب بعد ذلك بانضمامها إليه وقال إنها عالة لم تستطع أن تضيف شيئاً إلى العلم أو الحضارة.

ولقد ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية نظرية جديدة في الاستعمار : هي الاستعمار الاقتصادي الذي حل محل الاستعمار السياسي والعسكري بعد أن انسحبت قوات الاحتلال من أغلب بلاد الإسلام، ولكنها تركت وراءها قوى ذات ولاء ثقافي وفكري ما تزال تسيطر على كثير من المقدرات والمراكز الهامة. ويهدف الاستعمار الجديد إلى فرض السيطرة الأجنبية من سياسية واقتصادية على الدول مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها وبدون الاعتماد في تحقيق ذلك على أساليب الاستعمار التقليدية وأهمها الاحتلال العسكري.

ولا شك أن تحول الاستعمار إلى هذا الأسلوب الجديد بالإضافة إلى الاستعمار الاستيطاني الذي تقوم به الصهيونية في فلسطين، ويمتد منها إلى ما حولها، بالإضافة إلى الاستعمار الثقافي،كل هذا يؤكد أن الاستعمار إنما يغير جلده ويتحول عن أساليبه التي كرهتها الشعوب إلى أساليب أشد خفاء وأكثر دهاء وأبعد عن مواجهة الشعوب في نفس الوقت الذي يحتفظ فيه بخططه وأهدافه الأساسية ويجري التحول الاستعماري اليوم إلى التركيز الصهيوني في قلب العالم الإسلامي بتمزيق وحدة الأمة العربية والحيلولة دون وحدة العالم الإسلامي، وذلك باعتبار أن الحركة الصهيونية تطمع في أن ترث النظام الرأسمالي وتمهد لإقامة حكومة عالمية.

وكان الاستعمار الغربي حين وجه كل أسلحته إلى العالم الإسلامي لتمزيقه إنما يمهد لنفوذ آخر أشد عنفاً وشراسة، ويفسح الطريق لقوى أشد شراً من قوى الإلحاد والإباحة التي تعمل على سحق المقومات الإنسانية للمجتمعات والحضارة والأديان كوسيلة لإسقاط الشعوب والأمم الإسلامية في براثن نفوذ استعماري أشد خطراً يتطلع إلى السيطرة على العالم كله.

ومن هنا يبرز أثر مخططات الغزو الثقافي الذي يواجه الفكر الإسلامي

للتشكيك في القيم والمقومات الإسلامية وإثارة الشبهات حولها.

وتهدف محاربة الإسلام إلى القضاء على الطاقة الفكرية والروحية التي بثها في مجتمعه وأهله، والقادرة على مقاومة الاستعمار وكشفه، ومواجهته والمرابطة في وجهه.

ولذلك فإن مخططات الاستعمار في مجال الثقافة تقوم على محاولة إبطال مفعول الوجدان الروحي والديني والنفسي والخلقي وإعلاء شأن المفاهيم المادية وإطفاء مفاهيم الفكر والروح والهجوم على القرآن والإسلام وسيرة الرسول وتاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية واللغة العربية بوصفها القوى التي تقاوم النفوذ الغربي الفكري الزاحف من وراء نظريات وأيدلوجيات ومذاهب وشبهات مختلفة.

وقد درس الإسلام وقدر ورأى أن خير وسيلة لإخضاع المسلمين هو تغير عقليتهم والقضاء على ثقافتهم وتراثهم، ولما كانت عقلية العالم الرسلامي وثقافته مرتبطة بالإسلام واللغة العربية فقد ركّز عليهما ولما كانت وسيلة التغير إنما تكمن في التعليم فقد حرص على غزو تعليمي وثقافي ضخم واسع النطاق وذلك عن طريق إرسالياته ومعاهده الأجنبية. فاستطاع تخريج أجيال جديدة وفق مفاهيمه، وأتاح لهذه الأجيال السيطرة والقيادة والزعامة والحكم في أغلب أنحاء العالم الإسلامي، كما أطلق حركة التبشير لتحكم تنفيذ هذه الخطة، وفرض على الدولة المحتلة أنظمة تعليمية قوامها تحقيق هذا الهدف، وقد مضت حرب الاستعمار للإسلام لا هوادة فيها باعتبارها العامل الدافع إلى القوة والجهاد والمقاومة، وكانت هذه الحرب بأساليب مختلفة:

أولاً: نقض مفاهيم الإسلام وتحريفها وخلق دعوات تحمل لواء الإسلام وتتنكر لأهم مقوماته وهو «الجهاد» الذي هو ذروة سنام الإسلام حيث ألغته إلغاءً، أو قلّلت من أهميته، أو عملت على تفسيره تفسيراً خاطئاً.

ثانياً: الطعن على الإسلام، والحملة على مقوماته، واتهامه بأنه مصدر تأخر المسلمين وضعفهم.

ثالثاً: الحملة على اللغة العربية بقصد إيقاف نموها الذي يجري بنمو الإسلام نفسه، والعمل على تغليب اللغات الأجنبية عليها، والدعوة إلى العامية لإحلالها محل العربية، والتنادي بإحلال الحروف اللاتينية بديلة للحروف العربية، فقد كانت اللغة ولا تزال هي ضمير الفكر نفسه، وما تزال اللغة الفصحى هي مدخل الفهم إلى القرآن الكريم، وفي القضاء عليها محاولة للبعد بمستوى الفهم عن القرآن والحيلولة دون الارتباط به.

ولقد كانت حركة التبشير هي أكبر الأعمال الأساسية لتحقيق هذه الغاية، فهي القوة المتحركة في جيش الاستعمار لغزو العقول والقلوب في مختلف الجبهات وإثارة الشبهات في مجال المدرسة والجامعة والصحافة والثقافة.

وكانت حركة الاستشراق هي المصنع الذي يعد «أدوات العمل»: الشبهات والطعون والشكوك والاتهامات التي يقدمها العلماء الذين يعملون تابعين لوزارات الاستعمار في الدول الغربية، يقدمونها إلى حقل التبشير لنشرها والإذاعة بها، فلما كشفت مخططات التبشير تخفي التبشير وراء التعليم والصحافة والثقافة وإن كان لا يزال ظاهراً ومتحركاً على جهات كثيرة من العالم الإسلامي وخاصة في قلب إفريقيا وأرخبيل الملايو.

وقد كشف التبشير عن هدفه الذي لم يكن أساساً تحويل المسلمين إلى أديان أخرى بعد أن تأكدت استحالة ذلك للدعاة الذين اقتحموا الأزهر ووزعوا نشراتهم بداخله، وعقدوا مؤتمراتهم في قلاع الإسلام والوطنية، ولكن الهدف هو إخراج

المسلمين من قيم دينهم ومفاهيمه أساساً، وبذلك يصبحون عجينة طيعة لتشكل وفق مفاهيمهم. وكذلك فإن حركة التبشير هي حركة استعمارية تهدف إلى خدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده ودعم بقائه.

ولم يقف مخطط الاستعمار عند الغزو الفكري والثقافي عن طريق حركة التبشير التي ركّزت على المدارس والجامعات والتعليم، بل أنه دفع قوى أخرى خطيرة لتكون ركيزة له في قلب الوطن الإسلامي، من أهم هذه القوى حركة «الماسونية» مقدمة «الصهيونية» وربيبتها التي مهدت لها الطريق والبهائية التي حملت لواء الدعوة إلى هدم الأديان وكذلك استغل الاستعمار أوجه الخلاف الفرعية بين المسلمين، فحاول تعميقها، وحرص على الإبقاء عليها خلال فترة حكمه الطويل، كما أبقى على الأقليات وأغرى بعضها بالآخر، وحرص على تجميد الطوائف والقبائل حتى لا تنصهر في المجتمعات الواسعة، وأوجد بينها وبين الأكثريات خصومات وأحقاداً، مستغلاً ذلك كله لتأكيد بقائه، فالاستعمار هو الذي عمق الصراع بين تركيا وفارس، وغذّى الخلاف بين السنّة والشيعة وبين النصارى والمسلمين في بلاد العرب، وبين الهندوك والمسلمين في الهند، ولم تنفصل المشكلة الطائفية في أي من المراحل عن الاستعمار الذي خلقها وغذاها، واتخذ منها أداة سياسية يدعم بها وجوده، فقد احتضن الاستعمار الأقليات وعمل فيهم على خلق الشعور بكيان خاص، له انفصال وتميز بحيث يحول بين التقاء العناصر كلها في وحدة كبرى كما فتح الباب للتبشير والإرساليات.

كما أكد الاستعمار في مختلف أنحاء العالم الإسلامي عوامل التفرقة العنصرية والجنسية، واستغل في تثبيت ركائزه كل الوسائل، وفي مقدمتها الامتيازات الأجنبية التي منحت الأجانب في الأقطار الإسلامية مراكز خاصة ونفوذاً متميزاً، بحيث لا يخضعون لقوانين البلاد.

وتظل توسعاتهم في حصانة كاملة دون التفتيش أو الرقابة، أو التحقيق معها بما يتيح لهما أن تتصرف على النحو الذي تراه، دون أن تستطيع الحكومات إيقافها أو محاكمتها. وقاوم الاستعمار كلمة الإسلام والجامعة الإسلامية، والوحدة الإسلامية، وشن عليها جميعاً حرباً عنيفة، ووصفها بغير ما كانت على الحقيقة، وركّز حملته على السلطان عبد الحميد الذي قاد حركة المقاومة ضد زحف النفوذ الاستعمار، حين دعا المسلمين خارج الدولة العثمانية إلى الالتفاف حول راية الخلافة الإسلامية في حركة جامعة لمواجهة الغزو الزاحف، ومن هنا كانت تلك الصورة السيئة التي رسمها عملاء الاستعمار للسلطان عبد الحميد، وما وصف به وما نشر عنه من أعمال وأقوال كشفت الأيام من بعد أن ليس لها نصيب من الحقيقة. ولقد تضافرت قوى النفوذ الاستعماري، وقوى الصهيونية على تدمير هذه الحركة، وإسقاط السلطان عبد الحميد الذي حال بموقفه الصامد دون تمزيق العالم الإسلامي واستيلاء الدول الغربية عليه واحتلاله، فضلاً عن موقفه المشرف إزاء محاولة الصهيونية في الاستيلاء على فلسطين، وكان موقفاً بالغ القوة والصمود. مما حمل المحافل الماسونية في سالونيك وجلها من الدونمة (اليهود الذين أسلموا تقية) السيطرة على جمعية الاتحاد والترقي، ودفعها إلى إسقاط النظام الذي يحمل لواء الجامعة الإسلامية، وإيقاع الخلاف الدموي بين عنصري الدولة العثمانية: الأتراك والعرب.

وهناك حقيقة هامة لا سبيل إلى تجاهلها هي أن الاستعمار ركّز على الأمة العربية أكثر مما ركّز على أي جزء من العالم الإسلامي وجعل لمصر في مخطط الاستعمار التبشيري والتخريبي قدحاً معلى، باعتبارها قلب العالم الإسلامي ومركز القيادة، وقد صور «لوثروب ستوارد» في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» هذا الخطر حين قال: إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث الفظاعة والخطورة والمدى والمجال.

حرص الاستعمار على أمرين خطيرين في البلاد الإسلامية، ليحول بينها وبين حقها في النمو والحياة الكريمة:

١- إلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية وإحلال القانون الوضعي.

٢- السيطرة على التعليم وتحويله عن أهدافه الطبيعية في بناء الإنسان المسلم.

وكان الاستعمار حين اقتحم عالم الإسلام في هذه المرحلة الجديدة قد أعد مخططه على النحو الذي يكفل له تغيير العقيدة الإسلامية والقضاء على مقوماتها الأساسية عن طريق التعليم والثقافة، واعتبر هذه الحركة القائمة على الغزو الثقافي والتغريب الفكري هي كبرى معاركه، وأعظم عوامل تثبيت قواعده، وتنبه المسلمون إلى هذا الخطر، فحاولوا من ناحيتهم مواجهة هذا الموقف ببناء مدارس وجامعات لها طابع الحفاظ على الكيان الخاص والمقومات، ولكنهم لم يكونوا ليبلغوا في هذا المجال المدى الذي يحقق لهم ما يريدون فقد كان وراء الإرساليات والمدارس والجامعات الأجنبية التي انبثت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي قوى مادية، وأجهزة قوية قادرة على العمل، يهيئ لها الطريق ويوسده نفوذ دولها في العالم الإسلامي، فهي محمية بالامتيازات الأجنبية مفتوح أمامها الطريق بالإعفاء الجمركي.

وهنا نشأ تيار جديد دخيل على التيار الأصيل وسارت المدارس الجديدة القائمة في ظل الاستعمار على مناهج قريبة من مناهج الإرساليات والمدارس الأجنبية، ووجدت تلك الثنائية التي فرقت وحدة الفكر في العالم الإسلامي، وخلقت صراعاً فكرياً بعيد المدى استحال معه التقاء المسلمين على رأي موحد.

وقد كان من نتيجة ذلك أن ضعف نفوذ اللغة العربية ومفاهيم الإسلام، وتشبعت الناشئة بالفكرة الغربية وأعجبت بالبطولات الأجنبية وصار لها ولاء للغرب

قوامه انتقاص للأوطان والعقائد والتاريخ الإسلامي، وكان من شأن هذا أن دعم الاستعمار قواه بأجيال جديدة نشأت على الموالاة والإعجاب والحرص على بقاء نفوذه.

وفي مجال الثقافة حرصت المحاولات الاستشراقية على أن تصور الإسلام بأنه دين لاهوتي عبادي لا صلة له بالمجتمع، وأن من شأن الأمم الحديثة أن تأخذ بأنظمة الدولة الديمقراطية الغربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم.

كذلك رفعت حركة التغريب وليدة الاستعمار شعار العلمانية في التربية بحذف الدين أساساً من مناهج التعليم، وبإقصاء الشريعة من مجال القضاء والقانون، ورفع شعار الأممية والفكر العالمي للقضاء على «ذاتية» الفكر الإسلامي.

واستهدف الاستعمار من هذه المخططات قيام تقارب والتقاء بين البلاد المستعمرة والقوى الاستعمارية فيها تقبُّل لوجوده الاستعماري، وذلك بإزاحة القيم الكبرى الإسلامية التي تحفظ للمسلمين قدرتهم على المقاومة، والمواجهة، والجهاد، وحرب الغاصب، والإدالة منه والمحافظه على البيضة، والاعتصام بالاستعداد الحربي الدائم لإرهاب الغزاة.

وكان الهجوم على الشريعة الإسلامية عاصفاً شديداً استهدف استبعاد تطبيق الحدود الإسلامية، أو نظام الإسلام في الاقتصاد، وإباحة التحلل الاجتماعي، والنظام الربوي، وذلك بإقرار القانون الفرنسي في العقوبات. ودعا التغريبيون إلى ما يسمى بمدنية القوانين التي تهدف إلى نبذ الشريعة الإسلامية، وقيام الأنظمة السياسية في البلاد الإسلامية على غير أساس الشورى، أو القواعد الإسلامية في الاجتماع والاقتصاد والحرية، ومتابعة الغرب في المعاملات المالية والعقوبات، وكان في مقدمة هذا التحول الفصل بين الدين والدولة، وحجب الإسلام عن حقيقة جوهره كنظام مجتمع ومنهج حياة.

وكان الهدف القضاء على الطوابع الإسلامية في المجتمعات واحتوائها وسيطرة الأنظمة الاجتماعية والقانونية والاقتصادية عليها بما يؤدي إلى زوال السلطة والسيادة الإسلامية.

غير أن حركة اليقظة الإسلامية لم تتوقف عن مجابهة كل هذه المؤامرات وكشفت عن فساد هذه التبعية القانونية والسياسية والاقتصادية للديمقراطية والنظام الربوي للقانون الوضعي.

وكان لمؤتمر لاهاي الذي عقد ١٩٣٧ أهمية كبرى في أنه كشف عن عظمة الشريعة الإسلامية وعن أنها نظام مستقل غير مأخوذ من التشريع الروماني، وعلت الصيحة إلى تعديل القانون الجنائي، وقدمت عشرات الأبحاث عن ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية وخاصة في جرائم الحدود، فإن المشرع الوضعي اعتبر الزنا عملاً مباحاً بينما هو أساس حاسم في نظر الشريعة الإسلامية لحماية المجتمع الإسلامي.

كذلك فقد حفلت أبحاث العلماء بالكشف عن أخطاء المستشرقين والمبشرين في تاريخ الإسلام، وحياة الرسول، وشبهاتهم حول القرآن والإسلام، والتحذير من أخطار كتاباتهم. ولم تتوقف مقاومة الاستعمار في مجال السياسة وحده، بل تعدته إلى مجال الاستعمار الثقافي والآثار التي خلفها في مجال الصحافة والتعليم.

وعملت حركة اليقظة على تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجبرية والجمود، وإعلان أن باب الاجتهاد مفتوح، وإزالة ما تجمع خلال فترة الضعف مما نسب إلى الإسلام، أو وصل به وهو ليس منه وفي مقدمتها الوثنيات وطوابع الفلسفات المادية والقديمة. كذلك تضامت قوى المسلمين: شيعة وسنّة في كل مكان للالتقاء على الأصول العامة الكبرى وذلك لتفويت محاولات الاستعمار في تمزيق وحدة المسلمين. ومقاومة ما حرص الاستعمار على إذاعته من المذاهب القديمة كالفينيقية

في الشام، والفرعونية في مصر، والبربرية في المغرب، وكشفت عن أن تلك القوى كلها مصدرها الجزيرة العربية، وأن الإسلام منذ جاء فقد أقام حاجزاً تاريخياً بين ما بعده وما قبله، وأن الأمم التي دخلت الإسلام قد أنهت مواقعها كلها مع ما قبل الإسلام من لغة وتاريخ وعقيدة، ولم يعد في الإمكان رد التاريخ القهقري لإحياء هذه الدعوات القديمة التي قضت عليها دعوة التوحيد.

وجملة القول أن العالم الإسلامي بالرغم من ضعفه وتخلفه في مرحلة الغزو الاستعماري، فإنه واجه هذه الحملة بالرفض والمقاومة، وتتابعت منذ اليوم الأول حركة اليقظة وحركة المقاومة بحيث لم تسقط الراية أبداً من أيدي قادة النضال الذين تتابعوا على مختلف جبهات العالم الإسلامي، لقد رفض العالم الإسلامي ذو الأصالة الإسلامية العميقة هذا الجسم الغريب، وقاومه مقاومة شديدة، ولم يفن فيه أو ينصهر وبالرغم من كل ما أثاره الاستعمار من وجوه الخلاف فقد كانت هناك أرضاً واسعة عريضة للالتقاء والاتحاد، بين المسلمين عرباً وتركاً وفرساً، وسنّة وشيعة، هذه الأرضية تتمثل في وحدة الفكر التي يفرضها الإسلام، وتدعمها القيم الأساسية المشتركة بين المسلمين جميعاً النابعة من ثقافتهم وتراثهم وجذورهم الممتدة إلى أربعة عشر قرناً.

وفي السنوات الأخيرة زادت حركة اليقظة وعمقت وكشفت عن زيوف كثيرة، وشبهات كثيرة، وباتت تعرف طريقها إلى المقاومة للاستعمار والقوى التي توالدت منهم وبخاصة الصهيونية والماركسية، والغزو الثقافي في مجال التعليم والنظم الاقتصادية والقانونية والاجتماعية والسياسية، وما تزال حركة المقاومة عاملة لا تتوقف إلى تلاقي الأجزاء وترابط القوى، للقضاء على آخر معاقل الاستعمار.

* *
*

(٥٧)

التغريب

هناك محاولة خطيرة تستهدف دائماً معارضة القول بأن هناك: ظاهرة تغريب، وغزو ثقافي، أو محاولة احتواء للفكر الإسلامي، أو سيطرة فكر وافد.

وتحاول هذه المحاولة أن تعتمد على أمرين:

الأمر الأول: هو القول: «أين هذه المؤسسة التي تسمى التغريب» ذلك لأن هذه المؤسسة ليست بناء مجسماً له دار ولافتة مكتوب عليها مدرسة التغريب، أو مؤسسته، وذلك هو تساؤل السذج الأغرار قصيري النظر البسطاء الذين يعدهم التغريب أحسن أدواته وأكثرهم نفعاً، لأنهم يقومون بخدمته دون أجر، وعلى حساب النوايا الطيبة.

والأمر الثاني: هو مداورة التابعين العملاء الذين هم كالحية الرقطاء يخادعون الناس ويخفون حقيقة ولائهم.

ومع الأسف فإن الذين يشككون في التغريب هم من النوع الأول: أولئك الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم.

ذلك أن التغريب لم يعد بعد هذا الوقت الطويل موضع تساؤل أو تشكيك. وربما كان كذلك في الثلاثينيات حيث كان يغطي العالم الإسلامي والأمة العربية ظلام كثيف، وكانت هناك حقائق كثيرة لا تزال محجوبة، ولعل أهمها: بروتوكولات صهيون التي ظهرت في العالم كله عام ١٩٠٢، وظلت ممنوعة من دخول حمى الشرق والعالم الإسلامي حتى عام ١٩٥٢ تقريباً وإلى ما بعد أن قامت إسرائيل في قلب الأمة العربية.

ولقد كشف هذه الحقيقة دعاة التغريب أنفسهم، ولعل أول وثيقة في هذا المجال هي كتاب «وجهة الإسلام» الذي ألفه «هاملتون جب» مع جماعة من المستشرقين وأعلن فيه صراحة أن هدف البحث هو معرفة:

«إلى أي حد وصلت حركة تغريب الشرق وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب». وذلك للقضاء عليها .

ويمكن لقارئ الكتاب أن يستكشف مناهج التغريب واضحة، كالسهام تندفع في أعماق العيون الضالة والمضللة لتسقط عنها غشاوات الغباء والجهل. وجاء بعد ذلك كثيرون فأشاروا إلى ذلك وأوردوا المصادر والوثائق:

من العرب: الدكتوران «عمر فروخ» و«الخالدي» في كتابهما: «التبشير والاستعمار» ومن الغرب: المؤرخ العالمي «توينبي» في كتابه: «العالم والغرب».

وهناك عشرات الأدلة والوثائق التي تضع الحقيقة ناصعة أمام من يريدها لوجه الحق. ولا يمالئ فيها خدمة لأقطاب التغريب ودعاة الجنس وعمالقة الغزو الثقافي.

ومن يتابع كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» وهو سابق سبقاً بعيداً لكتاب «هاملتون جب» وقد ترجمه العلامة «محب الدين الخطيب» في جريدة المؤيد قبل أن يبدأ هذا القرن بسنوات وكان اسمه الحقيقي واضح الدلالة علي الهدف هو: فتح العالم الإسلامي – يجد أن القضية أكيدة واضحة وأن مخططاتها منسقة وموزعة على المؤسسات: مؤسسة المدرسة والجامعة عن طريق الإرساليات، ومؤسسة الصحافة والثقافة عن طريق الصحيفة والمجلة والكتاب، ثم هناك مؤسسة أخرى أشد خطراً ظهرت من بعد هي مؤسسة القصة والمسرحية والشاشة والإذاعة المسموعة والمرئية.

وليس بعد ذلك دليل على وجود هذه الحقيقة: حقيقة التغريب ولها دعاتها وكتابها المنبثون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولعل من يطالع بعض الاجتماعات التي عقدت في إحدى دور الصحف الكبرى يجد أن الأمر واضح وجلي وليس في حاجة إلى دليل جديد أمام الأغرار الحمقى، الذين أعماهم حرصهم على أن يكونوا أتباعاً أذلة للأسماء اللامعة من كتاب الجنس والقصة. وأن يكونوا ثماراً فجة في هذه الشجرة الملعونة التي شاخت وتحطمت.

ولاريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق وما يصدران من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالاً للشك بوجود هذه الظاهرة وحركتها الدائبة.

إن مفهوم مصطلح التغريب في عشرات من تعاريفه إنما يعني: خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه لتحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الأمم ولا سيما الحضارة الإسلامية.

ولقد ذكر المبشرون المستشرقون أن هدفهم هو خلق أجيال تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية بل الشرقية، وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه. ولقد عملت حركة التغريب في موالاة عجيبة ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الإسلامية الباهرة، وفي مقدمتها الرسول الكريم وصحابته وأبطال الإسلام ومفكروه، كما ركزت على إحياء النماذج الشاذة، والإذاعة بها أمثال الحلاج والسهروردي وبشار وابن الراوندي.

ولقد جرت هذه المحاولات من منطق براق هو الصحف الضخمة والمطبوعات الأنيقة، مع هالة الأسماء وبريق الألقاب وضجيج الشهرة.

واستخدمت أسلوب الأحكام المسبقة، وخلق الافتراضات ثم بناء نظريات على أساسها.

ولقد كان دعاة التغريب هم أكثر الناس إفساداً للمنهج العلمي الذي يدعو إلى التحذير من الحماسة والتقريرية والعاطفة والتعميم فسقطوا في هذه الأخطار وقارفوا هذه المحاذير، وإن واحداً منهم لم يستطع أن يصدع بكلمة الحق والإنصاف، وكانت كتاباتهم جميعاً مشوبة بذلك الاستعلاء والعدوان وعبارات الحقد وأسلوب التعصب.

ولعل من أخطر محاولات التغريب هي محاولة وضع البديل في مواجهة الأصيل، والعمل على تقديم بدائل سريعة ذات مظهر لامع، وتحوطها هالة من الضجيج لكل فكرة أصيلة في محاولة لتحويل الرأي عنها في ظل طوابع من الإغراء والتزييف. وتحت اسم البحث العلمي والعبارات البراقة الخداعة.

وليست هذه الطريقة جديدة على الفكر الإسلامي، ولكنها سنّة كل العصور، ولعل أبرز ملامح تاريخ الفكر الإسلامي هو ذلك الكفاح الدائب دون هيمنة الفكر الوافد أو العقلية الخارجية التي سلطها عليهم اليونان والهنود والمجوس واليهود، ولقد بدت هذه المقاومة في صورة ملحمة رائعة كان أعلام المسلمين ومفكروهم ونوابغهم جيلاً بعد جيل يقاومون دون السماح لشخصية الإسلام الحضارية والفكرية ذات الطابع المتميز تحت اسم التوحيد أن تذوب أو تتلاشى في شخصية حضارية أخرى.

ولقد ظل المسلمون قادرين على ذلك في مجال الفكر في العصر الحديث بل لعلهم كانوا أقدر عليه في مجال الحرب والسلاح. وإن هذا الرفض ليتجلى في أروع صوره في صمود الجزائريين ومقاومتهم فناء شخصيتهم العربية الإسلامية.

ولقد ظل أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث يوالون الدق على الطبول في مواجهة أخطر المحاولات الدائبة المستمرة لتحريف الفكر الإسلامي (أصوله وتعاليمه وأحكامه) تارة بالنقص منها، وأخرى بالزيادة فيها، وثالثة بتأويلها على غير وجهها.

ولقد كان من أكبر الأخطار التي واجهتنا دون إرادة حرة، هو محاولتنا فهم كثير من الأمور من خلال مناهج الغرب ومقاييسه، هذه المناهج والمقاييس التي كونها الغرب من خلال ظروفه الاجتماعية وتحدياته التاريخية وتركيبه النفسي والاجتماعي.

إن هناك حقيقة لا سبيل إلى تجاوزها أو إنكارها هي أن في العالم ثقافتين: إسلامية وغير إسلامية، ولا يمكن أن يلتقيا في إطار واحد، يخطئ البعض حين يظن أن «التغريب» هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب، وإنما الحقيقة أن التغريب هو محاولة خلق (دائرة فكر) تهدم إرادة المسلمين والعرب، وتنتقص فكرهم وتشيع فيه الشبهات والمثالب، ثم لا تدفعهم إلى أي جانب من جوانب البناء أو النهضة مستمدة من أي فكر آخر.

ومن شأن دائرة هذا الفكر اللقيط، أن تحول بين المسلمين وبين أي حركة أو نهضة، وإنما تمسكهم ليدوروا في هذه الدائرة المغلقة، حتى ينتهوا، وتجعلهم يفكرون من داخل دائرة مادية خالصة، معزولة تماماً عن العقيدة الإيجابية المتكاملة التي علمهم إياها الإسلام وهداهم إليها منهاجاً للحياة قادراً على التقدم من ناحية وعلى مقاومة الغزو من ناحية أخرى.

وهم منذ ركنوا إلى هذه الدائرة الصماء فقدوا كل قدرة على الحركة الأصيلة، ذلك أن تركيب الفكر التغريبي الوافد، إنما استخدم أكثر ما استخدم تضارب

المذاهب الغربية وصراعها، وأحيا في نفس الوقت كل ما أنشأته الشعوبية والزندقة والباطنية في الفكر العربي الإسلامي من مفاهيم وشخصيات، لتقيم من هذا كله تلك الدائرة التي تقتل النفس العربية قتلاً وتحول بينها وبين الحياة والحركة والبناء والتقدم جميعاً وتضعها في الذل والظلام والدوار حول وهم معلق وشبح كاذب.

ونحن نعرف أن شخصيتنا تستمد قوتها من قيمنا، فإذا انحرفنا عن هذه القيم فقدنا الطريق، وتهنا في البيداء وذلك هو ما قصد إليه التغريب واستطاع أن يحققه إلى حد كبير، ولعل أبرز محاولات التغريب هي الحيلولة دون قيام خط التقاء بين العناصر والشعوب التي يجمعها فكر واحد في الأصل مصدره القرآن واللغة العربية ومنهج محمد بن عبد الله، وذلك عن طريق استهلاكها في الإقليميات والأمميات والمفاهيم التي تفصل القيم، وتمزق العناصر التي وحدها الإسلام في كل متكامل جامع.

فإذا أضفنا إلى هذا محاولة هدم المجتمع وتقويضه بنشر الإباحية عن طريق القصة، وفلسفات الوجودية وغيرهما عرفنا إلى أي مدى تجري المحاولة الخطيرة.

بل إن ما ألقي إلى العرب والمسلمين من مفاهيم الحرية والتقدم والديمقراطية والعدل الاجتماعي وغيره، إنما كان في الأصل هو «عطاء» الإسلام للبشرية كلها وللحضارة أساساً، قد أعيد إليها وقد شابه اضطراب كبير وإن غلف بأغلفة براقة لامعة.

ولعل أخطر محاولات التغريب إنما ركزت على تفريغ العقل والقلب العربي الإسلامي من القيم الأساسية المستمدة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالله، ودفع هذه القلوب والعقول عارية أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم والجراثيم عن طريق التعليم والصحافة والكتاب والمسرحية والفيلم والأزياء والملابس.

ومن ثم خرجت هذه المؤسسات جميعاً ذلك الجيل الذي حمل دعوة الهدم، وسار بها تحت اسم التقدم والحضارة، وعمد إلى متابعة المستشرقين والمبشرين في تحريف التاريخ الإسلامي، وتشويه مبادئ الإسلام وثقافته، وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ العالم، مع خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين.

وفي عشرات المجالات والقضايا عمل «التغريب»: في مجالات التفرقة بين الإسلام والعروبة، وفي النظرة الجزئية، والفصل بين الدين والمجتمع، واللغة والتاريخ، وعن طريق إحياء الروابط القديمة التي أبادها الإسلام وقضى عليها نهائياً.

ثم عمد إلى خلق شبح كريه أسماه القديم والماضي والتاريخ مع أن أمة واحدة من أمم الشرق والغرب لا تستطيع أن تدعي أنها انفصلت في أي نهضة عن ماضيها وتاريخها.

وأكبر الدعاوي الباطلة التي يثيرها التغريب هي عالمية الثقافة، والحضارة البشرية، ووحدة الفكر البشري وكلها دعوات لها دواخلها وغاياتها المريبة، التي تتمثل في مفهوم واضح هو «تذويب» الفكر العربي الإسلامي و«احتواؤه» وصهره في بوتقة الأقوياء المسيطرين أصحاب النفوذ العالمي السياسي المسيطر.

ونحن نعلم أن لكل أمة ثقافتها وقيمها وذاتيتها ومفاهيمها وتراثها ومزاجها النفسي الذي شكلته القرون المتطاولة والعقائد والقيم وأنه لا تنصهر إلا الأمم الضعيفة الذليلة، أما الأمة الإسلامية والفكر الإسلامي فإنه من المستحيل أن ينصهر أو يذوب في أي معدة مهما كانت، ذلك لأنه أعمق جذوراً وأقوى قوة من كل قوى الأرض.

يمكن أن توصف حركة الغزو الثقافي الحديثة التي بدأت تعمل في العالم

الإسلامي منذ سيطرة الاستعمار الغربي، أنها امتداد متطور لهذه الحركة التي يحمل لواءها خصوم الإسلام وأعداؤه في كل عصر لإخراجه من قيمه، ولإتاحة الفرص للغزو الأجنبي في السيطرة والاستعمار.

وقد ارتبطت حركة الغزو الفكري «التغريب» بالاستعمار ارتباطاً عضوياً وليس شكلياً، ذلك أن حركة «تغريب الشرق» هي دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها، ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها. وهي حلقة من مخطط واسع في تأكيد الاستعمار، ودعمه قوامها عمل استعماري فكري بعيد المدى، قصد به القضاء على معالم شخصية هذه الأمة، وتحويلها إلى صورة غريبة الملامح لتخليصها من القيم والمثل والتراث الذي يتصل بها والذي كان عاملاً على تكوينها خلال الأجيال الطويلة، فقد كان الاستعمار يفهم أنه بعد أن سيطر على العالم الإسلامي بجيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسي لابد يوماً أن ينسحب فكان لابد من وضع مخطط دقيق لإبقاء نفوذه في المناطق التي احتلها، وكان لابد له أن يبقى حتى تتكون له طلائع تخلفه من أهل الأقطار نفسها، يؤمنون بفكره، ويسيرون في اتجاهه، ويخدمون مصالحه يكونهم عن طريق التعليم في مدارسه، ووفق أهدافه، وتكون أمانتهم له أكثر من أمانتهم لأوطانهم.

وليس كل من تثقف بالغرب، أو اتصل بالمستشرقين ودوائر الفكر الغربي كذلك. وليس كل من اتصل بالغرب وآمن به استمر على إيمانه، فإن الحقائق لا تلبث أن تتكشف عن زيف الاستعمار ومغالطته، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعاً قوامه كلمات براقة، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتمدينها وتدعو إلى الحرية أو الإخاء أو المساواة أو ما شابه ذلك، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه، وائتماره بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار، هناك تتحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد خدع يوماً.

ولسنا في هذا الرأي نذهب إلى الغض من خطر الفكر الغربي أو نصرف وجوهنا عنه بل على العكس من ذلك، نحن لا نراه فكراً غريباً وإنما نراه فكراً إنسانياً في الأساس وإن انحرف في بعض مفاهيمه ونحن لا نقفل أبوابنا أمام الثقافات العالمية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها، وكان لنا دورنا الكبير في بناء هذه الحضارة، دورنا غير المنكور عند المنصفين من كتّاب الغرب ومفكريه.

ولكننا قبل أن نفتح الأبواب لكل الثقافات لابد أن نكون من متانة الاستعداد النفسي الذهني والروحي بحيث لا تبتلعنا ثقافات الأمم ولا تحولنا إلى غير طريقنا، ولا تفسد معالم شخصيتنا الأساسية الواضحة.

فلقد نقلت أوروبا ثقافتنا العربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم يتحول وجهها عربياً أو إسلامياً أو شرقياً.

كذلك نحن. أمة لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذو الملامح الواضحة، فلابد أن يبقى هذا «الأساس» ثم لنأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافاتها، وما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام في ركب الحضارة.

ولعل «حركة التغريب» لم تكن قاسية إلا بالنسبة لهذا الأمر فقد كانت صيحتها على لسان دعاتها وأتباعهم من كتابنا: إن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وإنه لابد من أخذها جميعها أو تركها جميعاً وهذا رأي مدخول، فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه. فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى، ولقد عاشت الأمم تتبادل الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تتحول عن طوابعها الأساسية.

ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبي يعرفان أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل، فإن لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة، ومن

أسس فكرها العربي الإسلامي القرآني، ما يحول دونها ودون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأية قوة خارجية أجنبية، فكان لابد من الحملة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسليم للقوى الخارجية في أن تسود وتمتد وتتوسع، وبذلك يبقى الاستعمار حياً في صورة أخرى من صور النفوذ الفكري.

إذن فالتغريب هو محاولة «تغيير المفاهيم» في العالم العربي والإسلامي والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعاً.

ولقد صور «لورد كرومر» منهج هذا العمل الذي اصطنعته فرنسا وانجلترا وهولندا في العالم الإسلامي حين قال: «إن الشبان الذين يتلقون علومهم في انجلترا وأوروبا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم، ولا يستطيعون الانتماء في نفس الوقت إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ممزقين».

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الإرساليات المختلفة التي غزت بلادنا في صورة مدارس وجامعات وفي البعثات الموجهة إلى أوروبا وإلى عواصم الدول المختلفة بالذات.

وفي هذا ، قال جبران:إن الشباب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة امريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي ، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً لفرنسا ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا ، وكان هذا هو الحق إلى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق ، بجحافل من العلماء والمبشرين والمستشرقين والأثريين والصحفيين ، وشيدت

مؤسسات ضخمة في مختلف عواصم العالم الإسلامي لفتح أبوابها لثقافة بلادها. وبدأ هذا النفوذ الفكري يعمل ويسيطر في مجالات المدرسة والجامعة والصحافة، والثقافة والتربية والطب والسينما والإذاعة.

وهكذا كان «التغريب» عملاً خطيراً دقيقاً قوامه الحرب المنظمة للقيم التي عاشت عليها أمتنا، في أسلوب مغلف بالضباب، يحاول أن يثير غمامة كثيفة من التشكيك والتحقير والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم «القديم» البالي الموروث، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على «الصحافة» في العالم العربي والإسلامي من هؤلاء المنكرين لقيمنا الذاهبين مع التغريب، فقد كانت الصحف التي تعمل للمبادئ تسقط واحدة بعد أخرى، بينما ظلت الصحف التي تخدم التغريب تقوى وتتوسع.

وفي مجال «الترجمة» كان الهدف هو إذاعة القصة المكشوفة والآراء المسمومة، وفي الأدب بث فكر جديد قوامه القصص، وفي مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التي تنتقص من قدرنا وتصم تاريخنا بالضعف وماضينا بالذلة، وسيطر على الجو الفكري كله تيار جديد هدّام قوامه الاستهانة بكل القيم وفي مقدمتها الدين والمعنويات، كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها، لم ترسل لنا إلا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بغية تحطيم كيان المجتمع، وبدت في جو مجتمعنا ريح تدعو إلى الرخاء والمتعة واللذة والتخلص من كل القيود.

ولم تكن هذه الدعوة تهدف إلا إلى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة، قيم المقاومة والصلابة والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء في سبيل الحرية.

كان هدف التغريب واضحاً: هو محاولة قتل شخصيتنا، ومحو مقوماتها وتدمير فكرها، وتسميم ينابيع الثقافة فيها.

وفي هذا المجال برزت الدعوة إلى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين، وجرت الشعارات الجديدة في الارتباط بحضارات البحر الأبيض، وبأن مصر جزء من أوروبا، وبرزت دعوات الفرعونية في مصر، والفينيقية في الشام، والأشورية في العراق، وبرزت النعرات القديمة باسم مسيحي ومسلم، وعربي وبربري، وعربي وكردي، وكان الاستعمار هو الذي يحمل لواء هذه الدعوات ويثيرها ويقلب جمرها، ويخرجها من كهوف الماضي ليمنحها الحياة، ويجمع حولها بعض أعوانه عن طريق الفكر والكتابة بغية تقسيم الأمة.

ولم يمض وقت طويل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب، وجاءوا يبحثون مدى ما وصلت إليه وما حققته من هدف. وقال «جب» في كتاب «وجهة الإسلام» :إن حركة التغريب كانت بعيدة المدى بإنزال الإسلام عن عرشه في الحياة الاجتماعية.

وقد عملت «حركة التغريب» في جملة ميادين، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة ثمة، ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والمسلمين، حتى يبعثوا الثقة في نفوس المواطنين إلى الصوت الأليف الذي يجد الصدى، وفي كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبي يجد من يعاونه من أبناء الأوطان، وإذا كان هجومه على الدين قاسياً، فإن من المؤسف أن نجد كثيراً ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين ثقفوا أول الأمر ثقافة إسلامية وكانت اللغة والدين في الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى، وإن كان التغريب لم يترك ميداناً دون أن يوغل فيه ويسممه ويبعث فيه الشك.

وكانت كلمة «حرية الفكر» والتقدمية، ومقاومة الرجعية، والتطور من الكلمات البراقة التي لعبت دوراً كبيراً في خداع الجماهير.

واستطاع التغريب أن يجد المنافذ المرنة الماكرة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد أو يواجه المواقف الحرجة.

وإن كان المبشرون قد هاجموا المقومات صراحة، وقاموا بعملهم في عنف أول الأمر، فإنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة، واختفوا من المسرح، واستبطنوا أهدافهم، وحولوها إلى صورة أخرى أكثر دقة ومكراً. فبرزت أحاديث صورية فيها تمجيد للدين واللغة والمقومات الأمة فإذا تخدرت أفكار القراء، ووثقوا بالكاتب وكتاباته، بدأت عملية التشكيك الخفي، المدخول الدقيق، بل إن بعض الكتاب الذين عملوا مع التغريب وهاجموا المقومات الأساسية في أول الأمر ولم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظهرياً، وخاضوا الحديث في أقدس مقدسات الأمة، عاملين على كسب الثقة الشعبية العامة في هذا المجال، حتى يتأتى لهم من بعد أن يحققوا في الخفاء ما يهدف إليه دعاة التغريب، لقد اختفت المعركة من على المسرح ودخلت إلى الكواليس، وأصبح مجال العمل، هو مناهج التعليم نفسها، أو مقالات الصحف أو فرض المذاهب الفكرية الغربية، وتأكيدها والاختفاء وراءها. وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الإسلامية، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التي تدمر قيم الإنسان وتعريه وتكشفه على نحو يقلل من كرامته، وفي هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة الذاهبة إلى كل مجال، وكان من شأن إذاعة هذه المذاهب والنظريات إحداث بلبلة فكرية من شأنها أن تقضي على الإيمان بالمقومات الأصيلة. وتدفع الفكر العربي الإسلامي في متاهات وتخبطات.

بل إن الخطط التي قدرها الغربيون إزاء موقف المسيحية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة، فقد حاولوا نقلها إلينا مع الفارق البعيد بين موقف الإسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية، فلقد كان الإسلام

قادراً دائماً على مواجهة كل تطور، وفيه من السماحة والتفتح والاستجابة ما جعله صالحاً لكل زمان ومكان، فكان هذا الاتجاه في نقل موقف الغرب من جمود الكنيسة ليس إلا لوناً من هذه البلبلة الفكرية التي هي قوام دعوة التغريب.

ولم تكن حملات التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة والدين في الشرق قائمة على أساس علمي على نحو ما يذهب إليه أسلوب البحث العلمي، وإنما كانت حملات يغلب عليها الهوى والتعصب، وتسيطر عليها ريح الحقد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التي كان لها دورها من قبل في حمل الحضارة، حين كانت أوروبا تعيش في الوحل والظلام، فإذا أضيف إلى هذا ذلك الإصرار العجيب على إنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وإنكار لوقائع التاريخ نفسه، تبين إلى أي مدى يذهب دعاة التغريب، فآسيا هي المتبربرة، وأوروبا هي المتحضرة وليس أكذب ولا أبعد عن الحقيقة مما يحاول الغربيون أن يقولوه في هذا المجال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما .. ثم اختفت ألف سنة لتظهر من جديد في حركة النهضة، أما ما قبل النهضة فلا شيء، وفي هذا الرأي ما فيه من الخطأ ومجافاة الحقيقة والواقع.

فإن قبل أثينا كانت حضارات النيل والفرات، وقبل النهضة كان المسلمون والعرب في دورهم الضخم البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفكر، وترجموا آثار اليونان، وزادوا فيها وأضافوا إليها، وحققوا الأسس الكبرى التي قامت عليها الحضارة فيما بعد.

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطة والتضليل، ومحاولة مسخ القيم والمقومات العربية والإسلامية، وإدخال قيم ومقومات جديدة تهدم شخصيتنا

وتصيرنا مسخاً لا هو من الشرق ولا هو من الغرب، ثم هي بعد ذلك تنكر دورنا، وتحاول أن تغض من شأن لغتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمي الصحيح، وهو ما تكشف بتوسع في مختلف مجالاته وجوانبه.

استهدف التغريب والغزو الثقافي الغربي للإسلام والعالم الإسلامي والأمة العربية هدفاً واضحاً مقصوداً لذاته هو الاستسلام للسيطرة الاستعمارية عن طريق تحلل القيم، وتحريف المفاهيم وإفساد الجذور، والأسس التي تقوم عليها الذاتية العربية الإسلامية. وبذلك ينصهر المسلمون والعرب في الغرب وحضارته وثقافته انصهار الذليل التابع، الذي يعجب بها ويواليها ويتابعها ويتطلع إلى مصادقتها والتبعية لها تبعية كاملة.

ولا شك أن تحقيق هذا الهدف هو أمر بعيد المنال، بالنسبة لأصالة الإسلام وفكرة ومقوماتة وجذوره العميقة الضاربة في التربة الإسلامية خلال خمسة عشر قرنا كاملة ومع ذلك فقد عمد الاستعمار إلى تنفيذ مخطط ضخم في سبيل التغريب والغزو الثقافي، قام أساساً على مؤسسات ضخمة تحمل لواء العمل في مجال التبشير والتعليم والصحافة والاستشراق وكلها تناسق بين خططها وأهدافها لتحقيق غاية واحدة، هذه الغاية هي السيطرة الكاملة على العالم الإسلامي التي عجزت عنها الحروب الصليبية والحيلولة بين الإسلام وأهله وبين القوة والسيطرة والقدرة على الحياة والحركة تخوفاً من خطر مفزع متوهم يتمثل في انقضاض الإسلام على الحضارة الغربية وإسقاطها.

قد سار الغزو الثقافي متقدماً حملة الغزو العسكري والسياسي ومرافقاً لحملات الغزو التجاري والاقتصادي، عامداً إلى مهاجمة الإسلام واللغة العربية

والقرآن والرسول والتاريخ الإسلامي والقيم الأساسية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية.

كما حرص الاستعمار من ناحية أخرى على أن ينقل إلى العالم الإسلامي والأمة العربية الجوانب المضطربة من حضارته وفكره، وأغرق الفكر العربي الإسلامي بعشرات من التحديات من خلال الفلسفات المتضاربة الإلحادية والإباحية وإذاعتها.

واتصل ذلك بالنظريات ذات المظهر العلمي البراق التي أوجدها الاستعمار ليحاول إقناع الشعوب الملونة بأنهم أقل من الشعوب البيضاء قدرة عقلية، وأن الرجل الأبيض هو الإنسان الذي خصته العناية الإلهية بتحضير الشعوب المتخلفة، وهي نظريات تبين من بعد أنها قد سقطت في بلادها، ولم تجد من يقبلها أو يعتنقها ولكنها نقلت إلى بلادنا لإثارة البلبلة والاضطراب ضمن مخطط التغريب المتعدد الأضلاع.

والواقع أن هذه الفلسفات والمذاهب الغربية التي قُذِفَ بها الفكر الإسلامي لم تكن قائمة في الغرب على هذا النحو من التعدد في وقت واحد، وإنما جرت خلال فترة طويلة تمتد إلى أكثر من أربعمائة عام منذ عصر النهضة إلى اليوم، ولكن التغريب أراد أن يدفع بها مرة واحدة إلى الشرق رغبة في إثارة الاضطرابات والشكوك، وزلزلة العقائد، ومع ذلك فقد استطاع الفكر الإسلامي وهو في مطالع اليقظة أن يواجه هذا الإعصار في قوة، وأن يدحضه ويرده، وكاد أن يقضي عليه لولا بقاء النفوذ الأجنبي المؤيد لحركة التغريب المسيطر عن طريق أعوانه وأتباعه، وقد تمثلت هذه الحملات في تيارات متعددة أهمها:

١- إشاعة قضية الأجناس السامية والآرية التي تستهدف الانتقاص من شأن العرب.

٢- مهاجمة الدين بعامة والإسلام بخاصة واتهامه بأنه سبب التخلف.

٣- انتقاد العرب والمصريين واتهامهم بأنهم ظلوا مستعبدين لليونان والرومان.

٤- إنكار فضل العرب على الحضارة الحديثة.

٥- الحملة على العقائد والقيم.

٦- الدعوة إلى التجزئة والإقليمية وإحياء الدعوات القديمة: الفينيقة والفرعونية.

٧- الدعوة إلى ما يسمى ثقافة البحر الأبيض.

٨- إذاعة الفرقة والخصومة بين الأديان والأجناس: البربر والعرب، الدروز والموارنة، المسلمون والمسيحيون، السنّة والشيعة.

وقد اصطنع التغريب في سبيل تحقيق أهدافه مؤسسات عدة أهمها «التبشير» وهي مؤسسة ضخمة عمل بها عدد كبير من المسلمين في بلاد الشرق، بإنشاء المدارس والمستشفيات والمعاهد التي اجتذبت أبناء البلاد وفق منهج مرسوم لإخراجهم من الإسلام، وكانت مؤسسة الاستشراق هي المصنع الذي يمد حركة التبشير بالمادة الخام التي تذيعها عن طريق الكتب والصحافة ومعاهد التعليم.

وقد عمد التبشير إلى استغلال الطلاب والمرضى، وتحويل عقائدهم والتأثير في مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة أجيال ممسوخة مبلبلة العقائد، مضطربة الثقافة، منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها ويمكن القول بأن المستشرقين هم طلائع المبشرين، فقد غلب على معظمهم الهوى والتعصب، فلم يطبقوا المذهب

العلمي الذي نادوا به في أبحاثهم، وكان جلة المستشرقين على اتصال دائم بوزارات المستعمرات.

وقد استهدف الاستشراق خدمة الاستعمار عن طريق العلم، وأسس جميع النظريات الاستعمارية التي قامت على التهوين من شأن الشرق والعرب والإسلام، وكلها نظريات انخدع بها باحثون أو خدعونا بها ورددوها في مؤلفاتهم، ولعل أهم ما ركز عليه الاستشراق والتبشير هو «الإسلام والنبي محمد»، فقد أضافوا إلى مفاهيم الإسلام وتاريخ الرسول كثيراً من الافتراءات والادعاءات الباطلة، وكان مرجليوث، وفنسنك، ولويس شيخو، وهنري لامنس من أشد المستشرقين تعصباً ضد الإسلام ورسوله.

وقد كشف الباحثون المنصفون أخطاء المستشرقين وسوء نواياهم، من أمثال: حسين الهراوي، وعمر فروخ، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ورشيد رضا، وقد استهدف مخطط التبشير أهدافاً أساسية واضحة.

أولاً: تشويه الثقافة الإسلامية والتراث العربي والإسلامي.

ثانياً: إفساد الخصائص المعنوية في البلاد العربية والإسلامية.

ثالثاً: خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص.

رابعاً: توسيع شقة الخلاف بين الطوائف والمذاهب وإثارة النزاع بين الأديان.

خامساً: إخضاع العالم الإسلامي والأمة العربية للاستعمار الغربي.

سادساً: إعداد شخصيات عربية تستسلم ولا تقاوم النفوذ الأجنبي.

وقد استطاع التبشير عن طريق التعليم تزييف التاريخ الوطني الإسلامي والعربي والطعن على العرب والإسلام.

وبدفع المبشرون أعوانهم وتلاميذهم الذين خرجتهم معاهد الإرساليات إلى الصدارة في مجال الكتابة والصحافة وإثارة الشكوك والاتهامات وإذاعة الإلحاد والإباحة، ورمي اللغة العربية والإسلام بكل نقيصة.

وكان أبرز ما ركز عليه التبشير هو محاولة إخضاع الإسلام لمذاهب الفكر الغربي، وذلك بانتقاص حقيقة الإسلام التي تقوم على أنه عقيدة ونظام اجتماعي في آن واحد.

* * *

(٥٨)

تحديد النسل

تكشف الأبحاث والإحصائيات العالمية أن العالم الآن يضم ٥ر٣ مليار من السكان، ترتفع إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن الحالي، وقد زاد الجنس البشري سبعمائة مليون نسمة في السنوات العشر الأخيرة، وفي كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل ويصل إلى سن التعليم منهم ٩٥ مليون طفل، وأن الدول النامية في آسيا وأمريكا اللاتينية هي أكثر الدول تأثراً بهذه الزيادة إذ إن ثلثي سكان العالم يعيش في هذه المناطق وأن خمسة أسداس الزيادة المنتظرة في عدد السكان تكون أيضاً في هذه المناطق، وقد أصبح الوافدون يزيدون عن الراحلين في الشهر الواحد، بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس فالعالم الآن يستقبل كل يوم ٣٠ ألف نسمة زيادة صافية بعد الخسائر.

العبرة لمن يؤمن:

وقد استغرق العالم ثلاثة آلاف عام بأكملها قبل أن يتضاعف تعداده، ولكنه الآن يتضاعف تلقائياً كل خمسة وأربعين عاماً. ولا ريب أن لنا نحن المسلمين عبرة في دراسة هذه الأرقام. فنحن نؤمن بأن الكون كله لله تبارك وتعالى وأنه هو الخالق، وأن ظاهرة التفوق البشري هذه ظاهرة طبيعية، في طريق اكتمال صورة الكون والأرض على النحو الذي أشار إليه القرآن الكريم، لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها، ولتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة، من قاع البحار، ومن قلب صخور الجبال، ومن جوف الأرض. وأن للمسلمين في هذه الثلاثمائة ألف طفل يومياً أكثر من ٢١٩ ألف طفل يومياً، وهذا يدل على أن ظاهرة «التفوق البشري»

تمثل جيشاناً ضخماً في عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله، بينما نجد أن الانحسار السكاني واضح الدلالة في عالم الغرب.

ظاهرة غريبة:

وفي إحصائيات أخرى نجد أن عدد سكان العالم الان هو ٣٧٠٠ مليون نسمة، وأنه إذا سار معدل المواليد على حالته الآن فإن العدد سيتضاعف خلال ٢٦ سنة - أي في نهاية القرن الميلادي - ويكون الرقم قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون نسمة، وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية في آسيا وأفريقيا، أي أنه من بين ٢٢٤ طفل يولدون في الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل في الدول النامية «العالم الإسلامي» و٢٢ طفلاً في الدول المتحضرة «الغرب».

وهذه الإحصائيات تعطينا مؤشراً واضحاً للأحداث:

ذلك أن ظاهرة تقلص حجم المواليد في عالم الغرب، وزيادة هذا الحجم في عالم الإسلام، من الظواهر التي تزعج الرأسمالية الغربية والنفوذ الغربي المسيطر اليوم في بلاد المسلمين والعرب إزعاجاً شديداً، ذلك لأنهم يحسون بمدى الخطر الذي ينتظرهم في السنوات القادمة، ويترصد بهم نتيجة نضوب المواليد وتنازل نسبتها في البلاد الغربية، بينما تزداد هذه النسبة وتتضاعف في بلاد إفريقيا وآسيا.

محاولة خداعة تحت اسم مثير:

ولما كانت هذه الظاهرة ستصبح بعيدة المدى في متغيرات موازين السيطرة والنفوذ وتملك الموارد الطبيعية والطاقة وغيرها في السنوات القادمة فإن الغرب يشن حملة شديدة وعاصفة عنيفة على هذه الزيادة المضطردة بوصفها بعيدة الأثر

في عالم الإسلام تحت اسم مثير هو ما يطلق عليه اسم «الانفجار السكاني» ويجند له عشرات من الأقلام والمفكرين والساسة دون أن يشير إلى حقيقة الموقف وطبيعة التحول الاجتماعي والحضاري الذي يوحي بأن فساد المجتمعات الغربية، قد أدى إلى نضوب منابع «الوالدية» بها، نتيجة لشيوع الخمر والماريجوانا والترف، وانصراف المرأة الغربية عن رسالتها كلية وكراهيتها الشديدة للولادة وتربية الأولاد، والإسراف في عمليات الزواج غير الشرعي وظاهرة اللقطاء واستعمال حبوب منع الحمل.

انهيار الحضارة الغربية:

هذا الاضطراب الاجتماعي في عالم الغرب المرتبط بمرحلة الانهيار في الحضارة الغربية، هو مصدر انخفاض نسبة المواليد مما أدى إلى انزعاج الغرب لهذا السبب، وما يحاوله الآن من إغراء وتشجيع للزواج والولادة بإغراءات خطيرة دون جدوى، بينما يشن في الناحية الأخرى حملة شديدة على الولادة المتزايدة في البلاد النامية والمتخلفة، وينفق ملايين كثيرة في بلاد العرب والإسلام من أجل «تحديد النسل» وتعقيم الرجال، والإغراء بإعطاء الحبوب واللوالب وغيرها مجاناً من أجل تقليل نسبة المواليد.

ولا شك أن الغرب يرى في ظاهرة التقلص في مواليده وزيادة نسبة مواليد المناطق التي تسمى «البلاد النامية» خطراً شديداً على نفوذه وعلى المقدرات التي يحصل عليها من الخامات والثروات والمواد الأولية وعلى كل ما يعنيه على التفوق المتصل على عوالم أفريقيا وآسيا المتخلفة.

أبعاد المؤامرة:

من أجل هذا نجد المجتمع الغربي لا يتبنى فكرة تحديد النسل فحسب، بل يفرضه فرضاً على عالم الإسلام، بينما يعلن البابا بيوس الثاني عشر رأيه صراحة في تأييد المسيحية لكثرة النسل، ويواجه المسلمون – مع حملة تحديد النسل – ذلك التحدي الخطير: تحدي الهجرة والنمو المتزايد لليهود في فلسطين ونمو المسيحية في أوروبا وفي أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، بينما يجبر المسلمون بوسائل شتى فيها الإغراء أو التعقيم الإجباري «كما حدث لمسلمي الهند على يد أنديرا غاندي» على خفض تعدادهم، وهنا تتكشف المؤامرة، ويتبين أن هناك خطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ذلك أن غير المسلمين يخشون تكاثر المسلمين، ويحالون إيقاف هذا النمو والتزايد بكل وسيلة ومن هنا جاءت الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات.

وبينما يطلب إلى المسلمين تحديد نسلهم، تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليوناً كل سنة.

الأكذوبــة:

ولا ريب أن تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات هو أكذوبة كبرى، فإن الخطر الحقيقي كله كامن في سوء استخدام الثروات والكنوز التي تفيض بها الأراضي البكر. وسوء التخطيط لتطوير إنتاجي أفضل. وبينما تنقل هذه الخامات إلى بلاد الغرب وتنهب، ثم تعيد تصديرها للأمم المستعمرة ولا يحصل أصحاب هذه الثروات إلا على الفتات.

الانحسار السكاني في الغرب:

وتتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب، وتصفها بأنها ظاهرة مخيفة وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال، فأمريكا تتجه نحو حالة الصفر في النمو السكاني. فهي تقف الآن في النقطة التي يكون فيها عدد المواليد مساوياً لعدد الوفيات، وتتحدث الأبحاث عن هذا الخطر الهائل الذي يتهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال، مما يؤدي إلى انخفاض القوة العاملة وما يؤدي إلى ركود الإنتاج، في حين أن الدول الفقيرة تنمو نمواً متزايداً.

وتقول الأبحاث إن عدد سكان أمريكا (٢١٢ مليون نسمة) وأن النمو السكاني في أمريكا يصل إلى درجة الصفر (٢/٢) عندما يبلغ السكان ٢٦٠ مليون نسمة. ويشارك الولايات المتحدة في هذه الظاهرة: «السويد وألمانيا الغربية، واليابان، هنغاريا، رومانيا» وأن نسبة المواليد في هذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة، وأن الهبوط كان هائلاً في السنوات الأربع الماضية، في السويد وفنلندا والنمسا وبلجيكا وألمانيا. أما هنغاريا وبريطانيا فقد بلغت درجة الصفر. والقلق ناجم من أن القوة العاملة سوف تتضاءل في المستقبل بما يؤدي إلى ركود الإنتاج، ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوروبا في قضايا الإجهاض وفرضت عقوبات على من يفعله، ومنع السوفيات من تداول الحبوب المانعة للحمل. وأعطوا إجازات أطول للزوجة الحامل.

ويتوقع الخبراء أن تصل أكثر دول أوروبا إلى درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين، كما يرى بعض الخبراء أن الانحسار السكاني إلى درجة الصفر سيؤدي إلى ركود اقتصادي واجتماعي خطير.

التعقير أو التحديث:

ويرجع الخبراء هبوط الخصب في المدى البعيد في الدول المتطورة إلى مجموعة عوامل يطلقون عليها «التعقير أو التحديث» ويقول الخبراء إن موانع الحمل والإجهاض قد خفضت المعارضة الأخلاقية لضبط النسل، وأن ثلث السكان من النساء الكاثوليكيات يمارسن موانع الحمل. بالرغم من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، التي تقول إن موانع الحمل أمر خاطئ غير مستحب، كذلك فإن الموجة الجديدة للأنوثة قد ساعدت على جعل نسبة المواليد منخفضة حيث شجعت المرأة على تحدي دورها كربة بيت وأم.

وقال الدكتور «جو يلدز»: إن المرأة لم تشعر بأن عليها إنجاب الأطفال لتصبح إنساناً بشرياً، ويرى كثير من النساء أن مساهمتهن في المجتمع أو تحقيق اكتفاء ذاتي أكبر، يكون ببقائهن في أعمالهن، بدلاً من البقاء في البيوت مع الأطفال وأن المرأة تصبح شيئاً مهملاً إذا كانت أماً أو ربة بيت (٦ر٥ مليون امرأة عاملة تؤلف ٤٦٪ من القوة العاملة في الولايات المتحدة).

صيحات الخبراء:

ويشير التقرير إلى خطورة امتناع الشباب المتزوج عن إنجاب الأطفال يقول «بول إيرليس» في كتابه «القنبلة البشرية» عام ١٩٦٨ وكتاب آخر «حدود النمو» إن العالم يواجه كارثة إذا تقلص النمو السكاني. وقال «ولفريد نيكرمان»: إن الإنسان قد استخف بحجم الموارد الطبيعية الهائلة في العالم. وهناك إشارة إلى أن التضخم الاقتصادي يعد عائقاً في إنجاب الأطفال وأنه بوجود دخلين في الأسرة، غدا في مقدور الكثير من الأزواج التمتع بالأمور الترفيهية.

هنا يكمن السبب:

وهكذا نجد الخلفية الواضحة لموقف الغرب إزاء التفوق البشري في عالم الإسلام، وتجنيده أتباع المحافل الماسونية وأندية الروتاري والليونز للكتابة عن الانفجار السكاني والأخطار المتوهمة للكوارث التي ستصيب البلاد من زيادة السكان. وهذه الحشود من العلماء الذين تجمعهم مؤتمرات الوالدية في تحديد النسل ومؤتمر الغذاء العالمي، وقد أكدت عشرات المصادر والدراسات أن الخوف من نمو السكان في البلاد النامية والمتخلفة، هو الذي يقلق سادة الغرب، فإن هؤلاء سيصبحون قوة عددية متزايدة على غير هوى المتصدرين للنفوذ الاقتصادي العالمي.

وسوء النية:

ويشير البرفسور «خورشيد أحمد» الأستاذ بجامعة كراتشي في بحثه الضافي عن سوء نية الأوروبيين، والتخطيط الاقتصادي لإدامة سيطرة الدول المتقدمة على الشعوب النامية، ويقول: «إن آسيا والعالم الإسلامي هي أكبر مناطق الأرض اليوم ازدحاماً بالسكان. وما عدد السكان في البلاد الغربية بالقياس إليها إلا قليل، وأن هذا التفوق السكاني سوف يقضي على الأسس التي أقامها الغرب لسيادته السياسية للعالم منذ القرون الخمسة الماضية، وعلى ذلك التفوق الفني والعلمي الذي كان له على الشرق، والذي به استطاع أن يقيم احتكاره السياسي على العالم». لقد آمن الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسي على العالم إلى أبعد الأبعاد، على الرغم من قلة سكانه، ولكن الأوضاع الحالية

والحقائق الجديدة في العالم، قد فندت هذا الخيال الخاطئ وماطت اللثام عن وجه الحقيقة، وأنه لأجل التناقض المضطرد في عدد سكان البلاد الغربية.

حصاد النتائج:

فقد ظهرت بوادر الانحطاط والأفول في السياسة، رغم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصة، بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهتين السياسية والاجتماعية، كان من نتائج ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً وأعلن المارشال «بيتان» عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الأساسية الرئيسية التي عملت على توهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية: قلة عدد الأطفال والسكان. وقد بدأت آثارها السيئة في حياة انجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد وألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا، وشعرت بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في خطتها بشأن عدد السكان، ولذا فهي تبذل الآن جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلاً من تقليله.

إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقي متربعاً على كرسي السيادة العالمية، بل الذي لا شك فيه أنه سيعود عاجزاً في المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الإسلامي مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان في أقطاره، وأشار الدكتور «خورشيد» إلى أن عدد السكان في بلاد الشرق أكبر بدرجات من عدد السكان في الغرب، وأن هذا معناه أنه ليس في الإمكان بقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتصنيعها في العلوم الفنية، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة كسابق الفطرة، أن يفقد سادة

الغرب على العرب أزهى أيام حياتها، وأن تبرز القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في نفس الوقت خبرة فنية وتكتيكية حربية، فكل ما يصنعه الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية في مثل هذه الأوضاع خطير للغاية، وأن أي محاولة للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل مسألة فاشلة تماماً.

الخوف الرأسمالي:

وهكذا يتبين لنا ارتباط أبعاد هذه المحاولة الخطيرة التي يقوم بها الغرب لإيقاف النمو السكاني والتفوق البشري في عالم الإسلام، وكذلك لإيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها، وتحويل إرادة المسلمين والعرب لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم؛ مقدراتهم الاقتصادية المالية إلى طريق الاستهلاك والترف، يقول الدكتور خورشيد: «إن هذيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والمواعظ عن مشكلة السكان إنما هو نتيجة إلى حد كبير لشعورها بخطر تلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية».

يقول: «أرثر كرومول»: إنه لما يعجب الناس في البلاد المتقدمة إعجاباً فطرياً أن يزداد عدد سكان الناس في البلاد غير المتقدمة، وذلك أنهم يرون في زيادتهم المضطردة خطراً داهماً على مستواهم الرفيع في المعيشة وعلى سلامتهم السياسية».

كيف أعلنوا نواياهم؟

وقد أشار «ميك كارل» إلى هذه المؤامرة الخطيرة لإنقاص سكان العالم

الإسلامي فقال: «إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب، لأنه استعمار من نوع جديد، يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولا سيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف، حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها وأن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا للبلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتتحلى في نفس الوقت بالعلوم الفنية. وأن محاولة أمم الغرب للاحتفاظ بسيادتها وقيادتها للعمل، هي التي تدعوها إلى العمل على نشر حركة تحديد النسل ومنع الحمل في بلاد آسيا وأفريقيا، في نفس الوقت الذي تعمل البلاد الأوروبية الآن ما في وسعها لزيادة سكانها، وفي نفس الوقت تستعين بأحسن ما عندها من أساليب الدعاية لتقيم حركة تحديد النسل في البلاد الأسيوية والإفريقية. وللأسف فإن كثيراً من المسلمين يتقدمون ليقعوا في شرك دجلها».

محمد إقبـال:

وقد تنبه لهذا المعنى الفيلسوف الإسلامي «محمد إقبال» فقال:

كل ما هو واقع اليوم أو على وشك الوقوع في الغد القريب في بلادنا إن هو إلا من آثار دعاية أوروبا، هنالك سيل عرم من الكتب والرسائل الأخرى قد انحرف في بلادنا لدعوة الناس إلى اتباع خطة منع الحمل وتشويقهم إلى قبول حركتها على حين أن أهل الغرب في بلادهم يتابعون الجهود الفنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان.

ومن أهم أسباب هذه الحركة تدهور عدد السكان في أوروبا وتناقصه تناقصاً مضطرداً، بناء على الظروف التي ما خلقتها أوربا إلا بنفسها، وقد استعصى

عليها اليوم أن توجد لها حلاً مرضياً، وأن عدد السكان في الشرق على العكس من ذلك في زيادة مضطردة فهذا ما ترى فيه أوروبا خطراً مخيفاً على كيانها السياسي».

ويقول العلامة «علال الفاسي»: إن أكبر الخطر أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقها السياسي والتاريخي فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها، ولا أن نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة إلا داخل نطاق التحدي، فإذا أضفنا إلى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط، وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليه، وخلق حركات داخل كل بلد إسلامي وعربي من الأقليات، التي يصل بها التعصب أحياناً إلى الانفصال عن الوطن الوالد، عرفنا أن التنقيص في عدد المواليد لا يخدم إلا مصلحة الاستعمار والصهيونية، كذلك فإن عدداً من علماء الطب والاجتماع والدين من جهة وعلماء الاقتصاد من جهة أخرى، يرون أن تحديد النسل خطر على قوة الدولة العددية وعلى زيادة إنتاجها، ويقاومون الدعوات التي سبقت في بلادهم والحركة التي نشأت عنها، فكيف يمكننا نحن الذين مازلنا في طور التخلف، ومازلنا نأمل أن يكون من شعبنا قوة مادية وإنسانية، أن نتجه إلى معالجة ضعف الإنتاج الاقتصادي بإضعاف الإخصاب الإنساني؟

موقف الإسلام:

يقول علماء الإسلام: إنه لا يجوز للإنسان أن ينظم تخطيطاً جماعياً على الشكل الذي تدعو إليه هذه المنظمات، لأن ذلك يتنافى مع مقاصد الشريعة الإسلامية التي جعلت من غايات الأسرة «تكثير النسل» وقد قال ﷺ : «تناكحوا

تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة».

وقد نص الإمام الشاطبي في الموافقات على أن مما أجمعت عليه الملل والنحل وجوب حفظ المال والنفس والعرض والنسل فمحاولة المساس بواحدة من هذه الأربعة بغير حق مناف للشرائع كلها ولا يقع إلا من الظالمين الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة:٢٠٥).

وقد التبس على بعض المتملقين ما قاله بعض الفقهاء في مسألة إباحة العزل، مع أن قضية العزل هي غير قضية التخطيط العائلي لأنها مسألة تتعلق بحالات فردية اختيارية، لا تتدخل فيها الدولة ولا تنظمها ولا تدعو إليها وتجعلها جزءاً من برنامجها .

يقول العلامة علال الفاسي: أما ادعاء أن التنقيص من عدد السكان ضروري لتنفيذ التخطيطات الاقتصادية وتحقيق النمو فهو خطأ من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاجتماعية، لأن المواليد لا يولدون بأفواههم فقط بل يولدون بعقولهم وسواعدهم، فهم مادة وعامل قوي في النمو الاقتصادي وتقوية الإنتاج، وليسوا مجرد طفيليين في المجتمع وإنما عجز التدبير من الحاكمين وسوء توزيع الثروة على المواطنين.، والتخلي عن الأقاليم الوطنية للمستعمرين هو الذي يدفع إلى هذا التفكير الكسول، الذي يرضى بهذه التدابير غير الإنسانية، ولا يعلم أن مقتضيات التطور الحديث يقضي بتحمل الدولة لتكاليف العائلة.

حكم التعقيم:

ومن جهة أخرى فقد نص الفقهاء على أن خصي المواطن ممنوع شرعاً بالإجماع لكونه يعوق عن الغاية المقصودة من الشارع كما نصوا على أن أخذ الأدوية لمنع الحمل ممنوع، كما في النوازل الموجودة في كتاب الجامع من المعيار «للونشريشي».

وأحسن من هذا كله قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء: ٣١). وفي الآية الأخرى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

وقد أوضحت الشريعة الإسلامية سفه الذين يقتلون أولادهم مخافة الفقر: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٠).

من فعل الناس بأنفسهم:

أما الرزق فإن الله تبارك وتعالى قد يسّر طريقه وجعله مستطاعاً وأعطى الإنسان أدواته من صيد ونار وغيره ولكن صعوبة الرزق بدأت بعد أن تدخلت أهواء الناس ومطامعهم وظهرت عمليات الاحتكار والاحتجاز، وظهرت عوامل التفرقة والاستغلال، والقوي الذي يسيطر على الكثير فلا يترك للضعفاء والفقراء ما يطعمهم أو يقوتهم، هذه هي الأزمة وهي ليست أزمة الرزق نفسه وإنما هي أزمة الجشع والتسلط.

وتقدير الله بالخير:

وهناك قانون الوفرة الذي يؤكد وجود ثمرات طيبات لكل من يعيش على ظهر الأرض مهما بلغ عدد هؤلاء السكان وذلك بتقدير اللّٰه تبارك وتعالى وما تزال هناك مذخورات كثيرة في البحار والجبال، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى عهده وميثاقه إلى البشر بضمان الطعام وضمان الرزق لكل مخلوق ودابة وحشرة، بحيث تطمئن النفس الإنسانية إلى عهد اللّٰه تبارك وتعالى الصادق الأكيد، فلا تكون مثل هذه الصيحات الضالة مصدراً لزعزعة الإيمان، فلقد حفظ اللّٰه تبارك وتعالى للإنسان هذه الموارد التي لا تنضب في نفس الوقت الذي دعاه إلى السعي في الأرض والأكل من رزق اللّٰه.

ولو وضعت الموازين الحقيقية لقضية الطعام ولو روعي في توزيعه ما أمر اللّٰه تبارك وتعالى به، لأمكن للإنسانية أن تتجنب الكثير من عمليات البخل والشح، حيث ينفق بعض الأفراد في بعض البلاد ما يوازي عشرات أضعاف ما ينفقه الآخرون. وهناك في بعض البلاد المنتجة تغرق المحاصيل في البحر أو تحرقها للمحافظة على مستوى أسعار التصدير بينما يقتل الجوع الملايين وذلك من أساليب الاستعمار الرأسمالي والماركسي للسيطرة على القوى البشرية بإجاعتها.

كذلك فإن حاجة المسلمين في الدرجة الأولى إلى التوالد والتناسل لأن الإسلام مهدد في معاقله الأولى ويواجه حرباً صهيونية استعمارية لا قبل له بها وأن هذه الحرب ستطول، ويسقط فيها كثير من المسلمين وأن تعبئة الأمم في ميادين النمو الاقتصادي بوسائل العمل المنظم تغني عن كل تدبير مناف لطبائع الأشياء وأن هذه المبالغ الضخمة التي تصرف في مجال تحديد النسل وإنشاء مستشفيات

التعقيم وإنتاج حبوب منع الحمل وهي تزيد على ١٠٠ مليار من الدولارات لو أنفقت في مجال النمو الاقتصادي لجاءت بنتائج إيجابية وعلينا أن نذكر أن من مقاصد الشريعة الرغبة في تكثير سواد الأمة الإسلامية وقد امتن بالتكثير في القرآن إذ قال: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٦).

الإطار الصحيح:

ولا ريب أن كل مشاكل الأمم يمكن التغلب عليها بالتفوق البشري شريطة أن يتحرك هؤلاء البشر من خلال عقيدة صحيحة كتلك التي حركت المسلمين الأوائل، والإسلام وحده هو العقيدة القادرة على إطلاق الطاقات المفطورة في أعماق هذه الأمة، وما استطاع مجتمع متخلف أو نام أن يحقق التقدم ويصل إلى القوة من خلال اعتناقه عقيدة المجتمعات الأخرى.

ومن هنا يتبين أن قصة الانفجار السكاني ليست إلا أسطورة يراد بها تقليل عدد المسلمين ونسلهم في سبيل التمكين للنفوذ الأجنبي والوافد وعمليات التهجير بما يزيد غيرهم بالاستيطان وامتلاك الثروة.

* * *

(٥٩)

الغزو الفكــري

هناك مجموعة من الحقائق التي تكشفت أخيراً بعد أن انهارت مخططات التغريب والغزو الثقافي في العالم الإسلامي وبعد أن أوشكت جولة هذا الباطل الذي تسربل بالعلم والبراعة واللمعان الخاطف أن تنطفئ وتنهار.

وكان حقاً علينا أن نتعرف على هذه الأمور حتى لا تخدعنا مرة أخرى حين يحاول النفوذ الأجنبي أن يغير جلده أو يعاود خداعه أو يحاول تجديد أساليب مكره.

ونحن نعرف أن هذا النفوذ الأجنبي الذي يحاول أن يحتوي أمتنا وفكرنا هو مجموعة من المؤامرات التي يحيكها النفوذ الأجنبي والصهيوني والماركسي، وأنه بدأ بصيحات متعددة ..

هي صيحة «لويس التاسع» وصيحة «غلادستون»، وصيحة «كرومر» وصيحة «اللورد اللنبي» وصيحة «كامبل» وهي صيحات خمس، يجب أن نعيها، ونتعرف على هدفها.

أما «لويس التاسع» فإنه بعد أن هزم في الحملة الصليبية السابعة التي تحطمت أمام المنصورة، واقتيد وهو قائدها أسيراً، حتى يفتدي نفسه وسجن في بيت«لقمان».

هذا الرجل المهزوم الأسير كتب في مذكراته يقول: «لقد تبين لنا بعد هذه الجولة الطويلة أن هزيمة المسلمين عن طريق الحرب مسألة مستحيلة، لأنهم يملكون منهجاً محكماً يقوم على الجهاد في سبيل الله، ومن شأن هذا المنهج أن يحول دون هزيمتهم عسكرياً، ولذلك فإن على الغرب أن يسلك طريقاً آخر، هو طريق الكلمة،

الذي يقوم على نزع الفتيل من هذا المنهج وتفريغه من القوة والصمود والبسالة، وذلك عن طريق تحطيم مجموعة من المفاهيم بتأويلها أو التشكيك فيها».

هذه الوصية كانت أساس الخطة التي قام بها الغرب من بعد عن طريق إنشاء مؤسستي التبشير والاستشراق، وإثارة الشبهات حول مفهوم الإسلام الأصيل الجامع دينا ودولة، وعقيدة وشريعة وأخلاقاً، ومن ثم كانت محاولات الاستشراق تدور كلها حول تحويل الإسلام إلى دين لاهوتي عبادي منفصل عن الحياة، منتزع من ميادين الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية.

ولما كان القرآن هو مصدر هذا المنهج الرباني الأصيل الذي ما هزم المسلمون إلا عندما تغافلوا عنه أو حاولوا التماس غيره، فإن صيحة «غلادستون» في مجلس العموم البريطاني كانت تمثل حقيقة الفهم الاستعماري الإنجليزي – وانجلترا إذ ذاك إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس – حين وقف وهو ممسك بالمصحف يقول: «إنه لا أمل في إخضاع المسلمين مادام هذا الكتاب باقياً في الأرض».

وكان هذا إشارة مضاعفة للعمل على إثارة الشبهات حول القرآن وعقيدته وشريعته على النحو الذي عرفناه من قراءة تاريخ التبشير والغزو الثقافي.

ثم جاء كرومر الذي أمضى ربع قرن كامل وهو الحاكم الفعلي لمصر ليبني – كما قال في تقاريره الرسمية ومذكراته – جيلاً جديداً من المتفرنجين الذين يوالون الحضارة الغربية، والحاكم الأجنبي، ويقبلون التعامل معه، ويؤمنون بأن هذه البلاد لا تنجح إلا إذا سارت في طريق الحضارة الغربية .

وكان من ثمرة عمل «كرومر»: «لطفي السيد» الذي أعلن عداءه للعروبة وللإسلام وللعالم الإسلامي ودعا إلى الإقليمية المصرية الفرعونية. و«طه حسين» الذي قال:

إننا يجب أن نأخذ الحضارة الغربية حلوها ومرها وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب.

ثم جاءت صيحة أشد نكراً هي صيحة اللورد اللنبي: الذي كانت دولة بريطانيا قد خدعت العرب بوعود إنشاء دولة عربية إذا هم عاونوها في الحرب العالمين الأولى فلما فعلوا كان جزاءهم احتلال بلادهم.

فاحتل الفرنسيون سوريا ولبنان، واحتل الإنجليز الأردن والعراق وفلسطين، وظهر وعد بلفور الذي أعطى اليهود وطناً قومياً في فلسطين.

ثم جاء اللورد اللنبي ليقف ويقول: اليوم انتهت الحروب الصليبية، وهو يعني أن الجيوش التي هزمت وأخرها بقيادة لويس قد عادت بعد ثمانمائة سنة مرة أخرى إلى هذه البلاد منتصرة ومنهية للحروب الصليبية على نحو آخر.

وإذا كانت هذه الخيوط يمكن أن تعطي المثقف المسلم صورة حقيقية للخلفيات الصحيحة لواقعنا في مواجهة النفوذ الأجنبي، فإن هناك قصة أخرى وصيحة أخرى للوزير «كامبل» وزير خارجة بريطانيا ١٩٠٧.

فقد توصل هذا الرجل إلى أن الحضارة الغربية وهذا النفوذ الاستعماري الضخم للدول الغربية قد دخل في مرحلة الأفول ولكنه أراد أن يجمع علماء العالم ومفكريه ومؤرخيه لوضع خطة تقول:

إذا كانت هذه هي نهاية الحضارة الغربية فمن الذي سيخلف بريطانيا والغرب، فأعلن المؤتمرون: أن المسلمين هم المستخلفون لأنهم أهل المنطقة أولاً، ولأن لهم من عقيدتهم منهجاً محكماً يمكنهم من استعادة بناء الحضارة الإسلامية، هناك جرى التفكير حول خطة للحيلولة دون تمكين المسلمين والعرب من امتلاك هذه الإرادة، وتأخير هذه الجولة ما أمكن، وجرى البحث حول السبيل الذي يمكن الغرب

المنهار بحكم انتهاء جولته من استبقاء نفوذه وتأخير قيام النهضة الإسلامية في بلادها، قال دهاة السياسة ودهاقين الاستبداد والاستعمار: عليكم أن تغرسوا جنساً غريباً عن هذه الأمة في المنطقة الواقعة بين أفريقيا وآسيا حتى يحول دون امتدادها ويفصل بينها، هنالك تقدم اليهود وقالوا: نحن العنصر الغريب العازل.

ومن هنا بدأت مؤامرة الصهيونية في فلسطين وإلى يوم آخر بعيد.

هذا هو منطلق اليقظة الإسلامية إلى معرفة التحديات التي تواجه الأمة، فإذا أضفنا إليها مثلاً تقرير اللورد كرزون الذي كتبه في أول الاحتلال، حيث يقول: «إن أمل التقدم ضعيف مادام العامة يتعلمون اللغة العربية الفصيحة لغة القرآن كما في الوقت الحاضر ولا يتعلمون اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة إلى لغة القرآن كنسبة الإيطالي إلى اللاتيني، واليوناني الحديث إلى اليوناني القديم، وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها، وقواعدها خاصة بها، فإذا لم تؤخذ هذه الاحتياطات يستمر الجيل الجديد مثل سابقه غير أهل لخدمة وطنه وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسماً بلا مسمى».

هذا هو الاتجاه الواضح للنفوذ الأجنبي نحو القرآن واللغة العربية، والهدف هو قطع اللغة الحية عن القرآن، ومن ثم يصبح مجهولاً، ويقرأ بقاموس وتموت العربية ويموت القرآن ويذهب الإسلام.

هذا القرآن هو الذي أزعجهم، رمى به «غلادستون» وقال عنه «كرومر» إنه يؤخر التقدم ودعا «كرزون» إلى العامية وجاء بعد ذلك «ماسينون» ليدعو إلى الكتابة بالحروف اللاتينية.

وتوالت نذر التغريب وتجمعت سحبه في أفق الفكر الإسلامي لاحتوائه، والقضاء على ذاتيته وخصائصه، فقالوا: نابليون أيقظ الشرق، وكذبوا فإن الذي

أيقظ الشرق هو محمد بن عبد الوهاب وصالح المؤمنين الذين ارتفعت صيحتهم بالعودة إلى المنابع.

وعمل الغزو الفكري في ميدان الثقافة والتعليم حتى إن ٥٠ ألفاً من أبناء المحظوظين يتعلمون بمدارس الإرساليات كل عام، ويملأون عقولهم وقلوبهم بمفاهيم مسمومة مغلوطة صاغتها قوى متآمرة من المستشرقين والمبشرين والماسونيين والعلمانيين والوثنيين لهدم هذه القوة التي تقف في وجه الفكر البشري الضال كله وهي الإسلام.

وقد صنع النفوذ الأجنبي تلك المحاولة الخطيرة التي أسموها التغريب، والتي استهدفت تحطيم مقومات الإسلام الأساسية، وإثارة الشبهات حول مقومات الفكر الإسلامي التي تتمثل في الأصول الأساسية:

(١) القرآن والسنّة، وهما منهج الإسلام في بناء المجتمع، وقد اتُّهِمَ الدين بالجمود والعجز عن متابعة الحضارات وهو مصدر التقدم في العالم.

(٢) اللغة العربية بإعلاء شأن العاميات والحروف الأعجمية واتهامها بأنها لغة عاجزة عن الاستجابة للتطور إذ إنها لغة دينية.

(٣) سيرة الرسول وتاريخ الإسلام بإثارة الشبهات حول وقائعه.

(٤) الحضارة الإسلامية وإنكار فضلها على الحضارة المعاصرة واتهامها بأنها حضارة غير أصيلة وإسقاطها في مجال تطور الحضارة الإنسانية.

(٥) الأدب العربي وإخضاعه لمقاييس جديدة واحدة تجرده من أصالته الإسلامية.

(٦) التراث الإسلامي والغض من قدره ومحاولة إحياء الجوانب المتصلة بالفكر الشعوبي والوثني والفكر الصوفي والفلسفي.

(٧) التاريخ الإسلامي ومحاولة تزييفه وإثارة الشبهات حوله واتهامه بأنه مليء بالثغرات.

كذلك جرى العمل على الحيلولة دون استئناف المسلمين حياتهم أو بناء مجتمعهم على أساس إسلامي وذلك بإثارة النعرة القومية والإقليمية والتشكيك في العقيدة وإيجاد الفرق والنحل الهدامة، وتركيز المفاهيم العلمانية والمادية وصرف الأمة عن وجهتها التي سارت عليها أربعة عشر قرناً والقضاء على خصائصها ومحو مآثرها وتحقير ماضيها وإفساد حاضرها، وخلق جيل جديد منهزم مفتون بالغرب وأباطيله ومفاهيمه .

ولا ريب أن أولى مطالبنا هي الأصالة الفكرية؛ هذه الأصالة القادرة على فرز كل ما لا يتلاءم مع روح التراث، وترك كل ما هو دخيل، ثم القدرة على الانفتاح على الفكر الإنساني، والتطور العلمي في يقظة ووعي كاملين بحيث نأخذ الوسائل والأساليب، ونحافظ على القيم والأصول، ذلك أن الحداثة وحدها، لا تستطيع أن تقدم شيئاً ذا بال، أو تعطي إضافة بناءة صحيحة، إذا لم تكن مرتبطة بالأصالة وبوجود الأمة وحقيقة رسالتها وهدفها، وإن التطلع إلى التقدم العلمي والتكنولوجي لن تكون له فائدة إيجابية إذا لم يصدر عن إيمان أكيد بجذور الأمة الأولى الحقيقية، وأن يتحرك في داخل إطار فكرها وقيمها. كذلك فإن الحوار مع الفكر العالمي يجب أن يتم في داخل إطار «الأمانة» التي تحمل لواءها الأمة الإسلامية للبشرية كلها دفعاً إياها إلى الحق وحجزاً لها عن الشر.

إن أبرز معالم الإسلام هو التكامل بين أعماق القلب ومجرى الفكر، وإقامة مبدأ التعاون بديلاً لمبدأ الصراع، وتقدير لقاء الأجيال بوصفه أصدق من صراع

الأجيال والاعتقاد بأنه ليس بين الإنسان والطبيعة صراع ولكنها محاولة سيطرة واهتداء إلى النفع بها.

ولا ريب أن السنة الجامعة هي البوتقة الناصعة التي انصهرت فيها كل الثقافات والنحل والدعوات التي طُرحت في فلك الفكر الإسلامي فاستصفتها السنّة وحررتها من شبهاتها، وأخذت عصارتها الطيبة فضمتها إلى كيانها.

فالسنّة هي النهر الكبير، والمذاهب روافد منه، وقد صهرت السنّة خير ما في الكلام والاعتزال والتصوف والتشيع في مضمونها الجامع الذي يستمد حقيقته ووجوده من المفهوم القرآني الأصيل.

وقد وقف الإسلام أمام الفكر اليوناني الوافد كما وقف أمام «غنوص» الشرق، موقف العداوة والبغضاء كاشفاً عن وجوه الخلاف بين ذلك كله وبين مفهوم التوحيد الخالص.

كذلك فقد رفض الإسلام التطور على حساب الأصالة.

ورفض التقدم على حساب التضحية بالجذور والقيم الإسلامية.

كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدم المادي ولم يخضع الإسلام مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم، وليس في المناهج والأيدلوجيات شيء لامع إلا وعند المسلمين ما هو مثله، أو خير منه، وهو في الغرب مقطوع الصلة بالله، ولكنه في الإسلام متصل الحلقات، وهو في الفكر البشري انشطاري ولكنه في الإسلام جامع متكامل.

ثم ان العودة إلى المنابع هي صيحة المسلمين في كل أزمة وكلما ادلهمت الأحداث وأحاطت الأزمات، كانت دعوة «الغزالي» و«ابن حنبل» و«ابن حزم»، و«ابن

القيم» و«ابن عبد الوهاب».

وفي ضوء هذا كله نجدنا في حاجة إلى استيعاب الحقائق الآتية:

أولاً: إن انطلاق المسلمين والعرب على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن أن يتم بدون الارتكاز على قاعدة أساسية تكون هي المصدر والمنطلق ونقطة البدء ونقطة النهاية؛ هذه القاعدة ليست سوى المنهج الأصيل الذي قدمه الإسلام لبناء المجتمع.

وعلى المسلمين اليوم أن يفهموا الإسلام فهم الصدر الأول له وهو أصح فهم: قوة خالقة من وراء الإنسان، والإنسان مستخلف في الأرض عن الله الخالق عليه مسئولية، وجزاء وتعاليم أخلاقية تطبع الحياة والحركة والمجتمع. الإنسان فرد ولكنه جزء من المجتمع.

ولا يزال الجسم الإسلامي يرفض العضو الغريب ولا يزال الكيان الإنساني يرفض الجسم الغريب.

العقيدة وليست اللغة هي علامة بقاء الجماعة، فإذا زالت العقيدة زالت الجماعة، وانحلت وانقرض وجودها.

كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يخرجها من مدلولاتها الأصلية إلى مدلولات منحرفة ولقد حذر القرآن من هذا الخطر.

ثانياً: نحن ندرس الفلسفة، ولكن نعتقد أن الفكر الفلسفي ليس هو الفكر الإسلامي، ونؤمن بأن الفكر الإسلامي قرآني المصدر.

ونحن نكبر العقل ونراه أساس التكليف ولكننا لا نؤمن بأنه قادر وحده على أن

يفصل في كل الأمور، وإنما هو مصباح زيته الوحي فالوحي ضوء كاشف أمام العقل.

نحن لا تهزنا صور البريق وخاصة براعة البيان إلا إذا كان صاحبه يصدر عن منطلق القرآن، وهدي الإيمان، ويخشى الله ويتقيه.

وقد يكون هناك نظريات لامعة تخدع العقل أو تعجب البسطاء وهذه نحذرها لأنها ليست إلا من هوى النفس ومطامع الذات.

ثالثاً: قطع الإسلام الامتداد الفكري والثقافي بين ما قبل الإسلام وبعده؛ قطعه عن العرب أولاً، ثم عن كل مكان ذهب إليه، وقد ذهب إلى قلب آسيا وأفريقيا فنزعها تماماً من عبودية ألف سنة لليونان والرومان، ثم قطع امتداد العبودية الفرعونية والفارسية والقيصرية للإنسان، وقطع امتداد الوثنية في العالم كله، وأطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد، ورفعه إلى اعتقاد بحياة أخرى وراء هذه الحياة.

إن الثقافة التي قدمها اليونان والرومان والتي استمرت ألف سنة قبل أن يجيء الإسلام قد تلاشت تماماً بعد أقل من قرن من دخول الإسلام، وقام على مر الزمن حقيقة واقعة هي الانقطاع الحضاري.

عندما تشتد المحن والأزمات على المسلمين عليهم أن يعودوا إلى المنابع الأولى وأن يلتمسوا أصول الإسلام قبل ظهور الخلاف من أصوله القرآنية، وأن يؤمنوا بأن كل ما انحدر إليهم من الماضي ليس إسلاماً كله فكثير منه وضعه شعوبيون وفلاسفة وملاحدة، وأن بين الحق والباطل هوى النفس والظن، فإذا تغلب الهوى استخدم العقل فبرر الفاسد من الأمر، والتمس الرخص، وفارق العزائم، وآثر السلامة على المعاناة.

رابعاً: ليس الإسلام ديناً روحياً ولا مذهباً مادياً، ولكنه يجمع بين المعنويات والماديات في تناسق عجيب. وهو حين يرفض روح النسك بمفهوم الرهبانية واعتزال الحياة يرفض في نفس الوقت روح التحلل والإباحية والانطلاق بغير قيود، ويقيم نظام الحياة في المجتمع في إطار من الضوابط والحدود يحول بينها وبين الارتطام والانهيار ..

خامساً: طبع الإسلام حياة العرب والمسلمين في الماضي ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى مئات السنين، ولذلك فإن كل حركة فكرية أو اجتماعية في التاريخ الحديث تتجاهل هذا الواقع البديهي فهي تتجاهل الإطار الطبيعي الذي يجب أن ينشأ ضمنه، والأساس العملي الذي يجب أن تستند إليه، إنه يجب أن يكون في داخل الإسلام لا خارجه.

سادسة: جاء الإسلام ظاهرة مستقلة عن فعل البيئة. وكذلك جاءت النبوات، فهي لم تخضع للتفسير المادي للتاريخ ولم تكن ذات علاقة بردود فعل لظروف الحضارات أو أحوال الأمم (ويخطئ من يقول: إن الإسلام جاء بعد أن ضعفت الروم والفرس) أو إنه جاء نتيجة انقلاب في نظم الإنتاج أو انبثاقاً من واقع اقتصادي.

ولا يمكن تفسير حروب الإسلام وفتوحه تفسيراً اقتصادياً، أو القول بأنها كانت من أجل الفقر أو رغبة في الحصول على المغانم.

لقد أسقط الإسلام منطق التفسير المادي للتاريخ الذي يحتم انبثاق كل انقلاب سياسي من انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته.

لقد جاء الإسلام من البداية مقرراً المساواة في الفرص، وضمان حد الكفاية للفرد وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والمجتمع.

سابعاً: ليست هناك صلة بين المذاهب الاجتماعية والحقائق العلمية: الحقائق العلمية لا تثبت إلا في المعامل، أما المذاهب الاجتماعية فهي نظريات من صنع عقول تخطئ وتصيب.

ثامناً: لقد كان الإسلام عاملاً أساسياً في كل حركات التحرر التي قامت بها الشعوب المستعبدة في عصرنا، وقد انطلقت النضالات الوطنية من تحت راية الجهاد في سبيل الوطن، وكان الإسلام في هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستعباد.

تاسعاً: لقد انحسرت تلك الموجة الضالة التي حاولت أن تلتقط النصوص من السنّة أو التراث لدعم وجهة نظر الغزو الثقافي ، وتبين أن كثيراً من النصوص التي أريد بها تأييد الديمقراطية أو الاشتراكية أو تحديد النسل ليست صحيحة.

عاشراً: فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق لامتلاك أدوات الحضارة المادية وتراثها التكنولوجي والعلمي والميكانيكي أن تستوعبهم هذه الحضارة أو تحتويهم في إطار الفكر الغربي الانشطاري للعناصر، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد والإيمان بالإخاء الإنساني والعدل والرحمة.

حادي عشر: إن بدايات النصر ومطالع الفجر يجب ألا تخدع المثقفين المسلمين وتخلق فيهم طمأنينة زائفة مستسلمة، أو تصرفهم عن المثابرة والإصرار على تأكيد الخط الرباني الصحيح، وإتباع الطريق القرآني الأصيل وتثبيت الخطا على الطريق المستقيم إلى الغاية الكبرى.

ثاني عشر: بالرغم من كل الضربات التي وجهت للمسلمين خلال القرن الرابع عشر فإن عددهم قد تضاعف إلى أن بلغ المليار على امتداد الكرة الأرضية كلها.

لقد تأخرت التجربة الإسلامية لتستعلي بعد أن فشلت كل التجارب ويئس المصلحون العلمانيون.

ثالث عشر: لقد أصبح المسلمون يملكون الطاقة والثروة والتفوق البشري، وهم على أبواب استيعاب تكنولوجيا العلم بحيث يستطيعون استغلال مساحات واسعة من الأراضي وقدرات هائلة لم تستغل بعد، لقد جاء دور عالم الإسلام بعد أن نضبت آبار الغرب وثرواته ومصانعه التي عملت بخامات المسلمين أربعة قرون أو يزيد، وسوف تكون حضارة الإسلام متميزة بطابع العدل والرحمة والإخاء الإنساني، إن المسلمين اليوم ينتقلون من عصر اليقظة إلى عصر النهضة مروراً بمرحلة الرشد والأصالة والحفاظ على الشخصية والتماس المنابع.

رابع عشر: لا نقول قدمت أفغانستان «الفارابي» و«ابن سينا» أو قدمت فارس «الغزالي» و«أبو حنيفة»؛ فالحقيقة أن الإسلام هو الذي قدمهما. وعندما يتحدث الكتاب عن الفوارق بين العقليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية بينما هي مسيحية الأصل ، نجد أن للمسلمين عقلية واحدة موحدة في بلاد المسلمين جميعاً تشهد أصولها في التوحيد وجماع الروح والمادة.

خامس عشر: في مجال الدعوة إلى الحوار يجب الحذر فإن المسألة مرحلية والرأسمالية هي المسيحية. وإنهم يأخذون المسلمين ليكونوا (ردءاً) للمسيحية في محاربة الشيوعية. والمعروف أن عداء المسلمين عداء قديم. ولكنها محاولة للاستفادة من الإسلام لخدمة الرأسمالية.

سادس عشر: أربع شخصيات ليست هي شخصيتنا الحقيقية:

المصرية الفرعونية، العربية قبل الإسلام، اليونانية، الأوروبية الحديثة.

سابع عشر: من الخطأ وصف الإسلام بأنه ثورة ، ذلك أن الإسلام ليس

إصلاحاً لبيئة أو لعصر، ولا جاء رداً على ظروف اجتماعية في القرن السابع الميلادي، وليس مذهباً ولا نظرية ولكنه رسالة السماء الخالدة التي تختلف عن الأيدلوجيات والفكر البشري.

ثامن عشر: المفهوم النقي للإسلام، القرآني المصدر .. استقامة الفكر مع استقامة الخلق، وطهارة الباطن مع طهارة الظاهر، ونقاء الوجه مع نقاء السريرة.

تاسع عشر: فهم الغربيون الإسلام منذ وقت مبكر، فهما أشد عمقاً من فهمنا، فهموه على أنه منهج حياة ونظام مجتمع، ومن ذلك قول «جوردون تشايلد» في كتابه «ماذا حدث في التاريخ» :

كثير من الناس يعرفون الإسلام كدين من الأديان، ولكن قلما يفهمه كحركة من الحركات، ولذلك يمكننا أن نختصر هذه الحقيقة في العبارة الآتية: الإسلام دين عجيب بين أديان العالم فهو يجمع بين الدنيا والدين.

* * *

(٦٠)

الفلكلــــور
إحياء التراث الجاهلي والوثني
تحت اسم « التراث الشعبي »

تعد الدعوة إلى إحياء التراث الشعبي «الفلكلور» من أخطر دعوات التغريب، والشعوبية، والغزو الثقافي في العصر الحديث، فقد جندت لها قوى الاستعمار والصهيونية أقلاماً كثيرة واعتمدت لها مبالغ ضخمة. وعقدت لها مؤتمرات ومجامع، وصدرت عنها كتب ومؤلفات ونشرات، واتسع نطاق الدعوة حتى شمل مجال الفنون كلها «الرقص والقصة والأغنية» من منطلق الكلمة العامية والفكرة الساذجة والعادات الوثنية والبائدة. التي تتعارض مع سموق التراث الإسلامي العربي، القائم على الفكرة البليغة والبيان الموضح والقيم الأساسية.

أهداف خداع الجماهير:

لقد استشرت هذه الدعوة في السنوات الأخيرة، وشملت أقطاراً عربية وإسلامية عديدة، وخدعت كثيراً من البسطاء والسذج والأغرار في مجال اللهو، وكان للأسماء اللامعة التي حملت لواءها أثرها في انخداع الجماهير بها دون تفحص خطرها، وتبين مدى السموم التي تحملها، والتي هي في كلمة واحدة: إحياء التراث الجاهلي والوثني، الذي قضى عليه الإسلام قضاء تاماً، واعتبره من سقط المتاع، وحطمه تحطيماً، لأنه يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص.

لقد استمدت الدعوة إلى إحياء التراث الشعبي وجودها، من بعض أهداف

خطيرة ترمي إلى تغليب العامية والأزجال والأساطير والقصص الشعبي، والأغاني الساذجة والأمثال العامية على الأدب البليغ والفن الرفيع والفكرة الإنسانية. ارتداداً بالعقول والنفوس إلى سذاجة الخرافة، وفساد طفولة البشرية، وإذابة الذوق العربي الإسلامي المتسامي بالقرآن الكريم والحديث النبوي والأدب العربي في بلاغته، والحكمة الإسلامية في فصاحتها وارتفاعها عن التدني والحيوانية والفساد، نعم، إن القصد هو إذابة الذوق الإسلامي العالمي في ألوان ضعيفة ساذجة وثنية، تقلل من قدر البيان القرآني العربي الذي يتصل أساساً بالعمل على إيجاد مستوى ثقافي رفيع، للاقتراب من مستوى بلاغة القرآن والاطمئنان إلى منهجه ومقوماته.

ولو كانت الدعوة إلى الفلكلور محاولة لابتعاث التراث القديم المتسامي البليغ لكان لها مكانها، ولكن الغرض الخفي المتمكن من ورائها هو الذي يقودها إلى أن تتنكر للأدب الرفيع والفنون الممتازة، وتتوغل في الصور الدخيلة والخرافية والساذجة. هذه هي الأهداف التي تجري المحاولات لإعلائها ودفعها حتى تكتسح مجال الأدب البليغ والأساليب العالية. وهذا هو الانحراف الذي يُخشى أثره.

أصوات التحذير:

من هنا ارتفعت أصوات كثيرة تحذر من جناية (الفلكلور) أو ما يسمى التراث الشعبي على الأدب العالمي والرفيع من خلال مفاهيم منحرفة مضللة تدعي أن الفلكلور يمثل روح الشعب، وأنه وسيلة إلى التفاهم مع الطبقات العامة، وربما رد بعضهم هذا اللون إلى المذهب الواقعي، وكل النماذج المقدمة تكذب ادعاءهم وتدلل على أنهم يتطلعون في (ردة) خطيرة إلى سذاجة الوثنية وتفاهات العادات والتقاليد

التي حطمها الإسلام، وأبادها وحرمها على المسلمين في مجال التطير والسحر والحسد وغيرها من صور مظلمة.

ومن الحق أن الدعوة إلى مخاطبة الطبقات الشعبية هي مغالطة واضحة يراد بها النزول بأسلوب الكتابة، ومستوى الفكر ومنهج العقلية الإسلامية إلى المستويات البسيطة الساذجة التي لا تستطيع أن تمثل حقيقة ذوق الأمة ولا مزاجها، هذه الأمة التي كان «البيان» من أكبر مظاهر رقيها ومعجزة دينها هذه الأمة التي كانت تفهم النص القرآني – وهو أعلى درجات البيان العربي – دون حاجة كبيرة إلى مراجع، والتي تتحدث وتفكر في مستواه وفي مستوى الحكمة النبوية العالية، فكيف يراد بها أن تتكفئ راجعة إلى أساليب عامية ساذجة من تراث طفولة البشرية قبل أن تعرف التوحيد والدين الحق، الذي كشف لها كل حقائق ما وراء الطبيعة ومقومات المجتمع فلم تعد في حاجة إلى أساطير أو خرافات تستكمل بها مفاهيمها.

العدوان والتحامل:

والواقع أن هناك لوناً شعبياً في الأدب له حدوده وله طابعه، ولكنه لا يستطيع أن يرقى إلى مستوى الأدب العريق البليغ الذي يستمد وجوده من المفهوم الإسلامي الأصيل، فلماذا هذا الاهتمام به وحده والتركيز عليه. في نفس الوقت الذي تتوالى الحملات على التراث الإسلامي الأصيل وتصوره على أنه متخلف وبعيد عن التقدم والمعاصرة، لا ريب أن الهدف واضح: هو تدمير التراث الأصيل، وإحياء التراث الشعبي الفاسد، وهل إذا وضع التراث الأصيل موضع النقد والاتهام بالتخلف.

والاتهام بالتخلف. أيمكن أن يكون تراث الحواري والأزقة وعبارات السذاجة والجهل والحماقة هو الجدير بالإحياء والإذاعة ؟

الحقيقة أن هدف الحملة واضح وهو هدم التراث الإسلامي الأصيل وحجبه.

لقد كانت الدعوة إلى الفلكلور واحدة من دعوات متعددة إلى إحياء الوثنيات الجاهلية، منها الدعوة إلى إحياء مضمون (الميثولوجيا) الأساطير.

ولقد سبقت الدعوة إلى الفلكلور خلفيات كشفت أهدافها وغاياتها. وأبانت هدفها، فقد اتخذت وسيلة لإذاعة العاميات. وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العامية على نحو يراد به خلق تراث عام للعامية يمكن من خلاله الادعاء بالقول بأن (العامية) لغة خاصة مستقلة عن اللغة العربية – وهذا ما جرت محاولات القول به وجمعه منذ أكثر من سبعين عاماً – حين بدأ هذه المحاولة: القاضي ويلمور والمبشر والكوكس وغيرهما.

بين التبشير والأساطير:

لقد بدأت حركة الأساطير على أيدي المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب، الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية واللغة المحلية وألفوا فيها رسائل عديدة واستقطبوا لها بعض الكتاب أمثال: لطفي السيد وقاسم أمين وسلامة موسى ولويس عوض.

ومن هنا فهي محاولة خطيرة تنطوي على مؤامرة يجب أن نتبين أبعادها وخلفياتها التي تهدف إلى إقصاء اللغة الفصحى والبلاغة والبيان العربي عن الأسلوب العام، وخلق أسلوب عامي ساذج، والغاية الكبرى البعيدة هي إقصاء لغة القرآن عن مكان الصدارة، وتعزيز العاميات في كل مصر وبلد، مما يؤدي إلى

تفكيك وحدة الأمة الإسلامية وإبعادها عن جوهر فكرها، بإنزالها عن مستوى بلاغة القرآن وبيانه وحجبها عن أسلوب الحياة والعيش بمفاهيمه الاجتماعية والأخلاقية التي رسمها الدين الحق.

وكما عمدت دعوة الفلكلور إلى استيحاء الماضي الوثني القديم البائد، من وراء عصر الإسلام، فهي قد ارتبطت بالفينيقية في لبنان والفرعونية في مصر، والرومانية في شمال أفريقيا. وكانت تحاول بذلك إحياء قيم ماتت وانتهت، وتقاليد ومظاهر وأعياد جرفتها القيم الإسلامية وأنهت وجودها ولم تعد مرة أخرى إليها، بعد أن جاءها الإسلام بالتوحيد الخالص.

واليوم نرى اهتمام بعض الهيئات الدولية بالفلكلور وإرسال بعثات لها تطوف بالبلاد العربية لجمع هذه الحكايات والخرافات والأغاني الشعبية والألغاز والمأثورات الشفاهية، بالإضافة إلى الأزياء والحلي والأدوات.

ولا ريب أن الهدف من ذلك هو خدمة النفوذ الأجنبي بالتعرف على المجتمعات المتخلفة والمستعمرات، وبقصد التعمق في تحليل نفوس أصحابها وإدراك أذواقها ونوازعها، وفهم ما ينتظم عواطفها وتفكيرها بقصد الوصول إلى أمثل الطرق وأحذق الخطط للتمكن منهم واستغلالهم وإدامة عبوديتهم، - كما صور ذلك بعض الباحثين الأجانب في تقرير له - كذلك فإن هناك الهدف الآخر، وهو إحياء هذا التراث من جديد بالدعوة إلى تلك الأزياء والحلي والأدوات، وعرض مسرحيات واستعراضات غنائية وراقصة، تجري على ألسنتها تلك الكلمات الفاسدة التي عفا عليها الزمن حتى تتردد من جديد في أوساط الناس وتحجب الكلمات الأصيلة والمفاهيم الصحيحة، وإحياء أساليب السحر والتقديس والخرافة وغيرها.

الأعراف البائدة:

لقد عقد مؤتمر التراث الشعبي في بيروت (يونيو ١٩٧٤) وتبين منه بوضوح الهدف الخفي من وراء هذه الدعوة الخطيرة وهو تغيير أعراف المسلمين من حيث تبني أفكار وقيم واتجاهات فكرية وسلوكية، مستمدة من ذلك الماضي الوثني البعيد، كذلك الاستفادة منها في خطط الدعوة إلى تحديد النسل وتسميم العقول بأفكار معارضة لمفهوم الإسلام، كتحرير المرأة وإعادة تقاليد الأفراح والمآتم، إلى خرافات كثيرة يحفل بها التراث الشعبي وتتعارض تماماً مع مفاهيم الإسلام.

فالهدف واضح وهو العودة إلى بث الفكر الوثني والخرافي البدائي، الذي نما في غفلة من الدين الحق، الذي كان يرسل الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله للقضاء عليه، ثم تعيده القوى الضالة المضلّة مرة أخرى، ولقد حمل التلموديون من الصهيونية ويهود العصر الحديث أمانة إذاعة هذا الفكر وتزويقه وإغراء الأمم والشعوب به، وهو تراثهم الذي عرفوا به، منذ حملوا لواء الدعوة إلى السحر والخرافة وصد البشرية عن التوحيد. ولذلك عنوا بإحياء الأساطير، ولم تكن الحكايات الشعبية إلا بقايا من الأساطير.

ويتسع نطاق الفلكلور وتتصل سمومه بميادين مختلفة، وأهمها الأزياء (الملابس) والأغاني (الموال) والرقص الشعبي والإيقاعي والباليه، ومن الفلكلور ما يسمى «رقصة العجين» واللعب التمثيلي بالعرائس والدمى، حتى رأينا ندوة جمعت عشرة أو أكثر من الأدباء والعلماء والدكاترة لبحث مسألة «رقصة العجين» ومصادرها.

وقد أمضوا ساعات طويلة في المناقشة ونشرت في صفحات عديدة من إحدى المجلات الكبرى.

ويتصل هذا بإحياء ما يسمونه مسرح الأراجوز (القره قوز) والدمى والعرائس، واستحضار خبراء من الخارج مع تقديم المادة الشعبية لهم. وإحياء تجربة «محمد بن دنيال» التي اندثرت «مسرح خيال الظل».

ولا ريب أن الأغنية الشعبية إنما تمثل دور الطفولة في الأمم، وشعور السذاجة في الجماعات الريفية والبدوية والقروية، وهذه المشاعر التي تحملها الأغنية ليست إلا تصوراً بدائياً قاصراً يحكمه الهوى ولا يمثل الفطرة الأصيلة ولا الثقافة الصحيحة ولا الحكم الصائب.

وهي في تصورها للعادات والتقاليد المطروحة في المجتمع في مرحلة الضعف والتخلف إنما تمثل معارضة شديدة لأصول العقائد وهديها، وللأخلاق الثابتة الأصيلة التي جاء بها الدين الحق، فهي ركام من التقاليد القديمة السابقة على الإسلام، والتي انبعثت من المفاهيم الجاهلية والوثنية، ومجتمعات كانت خاضعة لعبادة الفرد، وهي حين تتصل بعادات جديدة وافدة من الخارج لا تمثل الأصالة أيضاً، فهي فاسدة، لأنها قديمة وثنية أو أجنبية غربية.

وقد حرص دعاة الفلكلور إلى إقصاء كل ما ينتقد منهجهم حتى أنهم في مؤتمر (أكتوبر ١٩٧١) استبعدوا كلمة مندوب الجزائر (عبد السميع الشيخ) لأنه عارض مفاهيمهم ونقد هذا الاتجاه. وخاصة فيما يتعلق بهدفه في إثارة الخلافات المذهبية والإقليمية والعنصرية، أو كما قالت الكاتبة الفرنسية: بأنه اقترن بقيام الأنظمة الرجعية التي تعمل على إحيائه، لتعويض الشعب بوهم الماضي عن الحياة في الحاضر، وما يتصل بإثارة النعرة القومية المتطرفة الداعية إلى سيادة جنس على جنس، ولغة على لغة، وثقافة على ثقافة، وإنه يدعو إلى إحياء جملة من البدع الفاضحة، وإنه ليس إلا عامل تفريق وهدم، بدل أن يكون عامل تجميع وبناء.

اتجاه الريح:

ونحن حين نستعرض الدعاة إلى الفلكلور، ونجد من بينهم عبد العزيز السيد ولويس عوض، نعرف اتجاه الريح.

وإذا كانوا يدعون أن التراث الشعبي هو ممثل الأصالة والخصوصية. وأنه يحمي من أخطار المجتمع الصناعي المادي؛ فإننا نؤكد أن هذا هو شأن التراث الأصيل، ومهمة الميراث الإنساني الإسلامي. وليس هذه الترهات الباطلة الزائفة التي يحاولون أن يسموها تراثاً شعبياً؛ فليس هو في الحقيقة إلا ركاماً ورواسب وبقايا حطام العصر الوثني الجاهلي الذي غيبه ظهور الإسلام، وأقام بينه وبين المجتمع الإسلامي الجديد في أربعة عشر قرناً فاصلاً ثقافياً واضحاً، وانقطاعاً حضارياً عميقاً لا سبيل إلى استعادته مرة أخرى مهما جرت المحاولات في ميادين إحياء الحضارات القديمة أو محاربة اللغة العربية الفصحى، أو إحياء الفلكلور، وأن كل ما أسقط الإسلام لن يعود إلى الحياة، وما استبقاه الإسلام من تراث الحنيفية الإبراهيمية، فقد أصبح اليوم ديناً وخلقاً قائماً لأنه أصبح من أصول العقيدة والأخلاق الإسلامية.

روعة النماذج الأصيلة:

وإذا كان في الفلكلور إيجابيات، فإن في التراث الإسلامي نماذج منها أشد روعة، لأنها مكتوبة بأسلوب عربي بليغ وبيان ناضج.

أما سلبياته فهي لا تصلح للأحياء، لأنها تعارض التوحيد وقيم الأخلاق الإسلامية.

ومن هنا فإن سيرة بني هلال وسيرة عنترة وسيرة الزير سالم هي عبارة عن

معارك حربية تخضع لمفهوم الإسلام في الحرب والبطولة وكل ما فيها من جوانب صدق وبطولة، فمردها إلى مصدرها الأول وهو دين إبراهيم الذي هو مصدر كل الجوانب الحية والخلقية والإيجابية في تراث الجاهلية سواء في الشعر أو في القصة أو الأمثال الشعبية وكل ما يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص فهو باطل وزائف.

وقد أشار الدكتور محمد محمد حسين إلى قضية الفلكلور فقال: «إن أصحاب الدعوة إليه من غلاة الشعوبيين الموكلين بالتفريق والتشتيت، فهم يدعون إلى اتخاذ اللهجات السوقية – التي يطلق عليها العامية – لأنها بزعمهم أصدق تعبيراً عن روح الشعب، وكأن الشعبية عندهم مرادفة للجهل، ولأن تراث الأدب العربي كما يقول أحدهم: ليس بالقواعد النحوية المصطلح عليها، وأن الإعراب ليس شرطاً أساسياً لازماً للتفنن الأدبي.

ولا ريب أن الفن في صورته الكاملة وسيلة من وسائل السمو فوق الواقع المسف، وأن الفن الذي يستحق أن يجهد النقاد أنفسهم في تذوقه ونقده، هو الأثر الذي أجهد الفنان نفسه في إنتاجه.

والجانب الأشد خطورة في هذه الدعوة: هو أن ضررها لا يقف عند تمييز كل جماعة بطابع خاص يتعصب له مما لا يعين على تدعيم الوحدة الجامعة المرجوة، ولكنه يتجاوز ذلك إلى أن يقطع ما بينهم من الوشائج تقطيعاً، فيصبحون ولا يفهم بعضهم البعض الآخر، وأن هذه الدعوة إلى إحياء التقاليد والعادات القديمة – في شم النسيم وغيره – لا تخدم إلا مطامع الغرب بتقطيع أوصال العالم الإسلامي، وبث روح التفاخر والتدابر والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها.

ولا ريب أن الهدف هو إحياء الشخصية الفرعونية والبابلية والفينيقية والوثنية القديمة، وإزالة الشخصية الإسلامية الجامعة بملامحها وأخلاقها.

سموم ألف ليلة:

ويجيء في هذا المجال هدف التغريب في القول: بأن كتاب (ألف ليلة وليلة) يمثل حياة المجتمع الإسلامي وهو قول كاذب مسموم، والواقع أن هذا الكتاب يمثل مجموعة من الخرافات ترجع إلى أصول هندية وفارسية وإسرائيلية سابقة للإسلام. فهو يمثل المجتمع الوثني الجاهلي، ولا عبرة بما أضيف إليه من قصص عربي أو مصري أو شامي. فإن ذلك يرجع إلى مصادر إسرائيلية قديمة استهدفت رسم صورة «كاذبة» مضللة للمجتمع حاول المستشرقون بعد ذلك استغلالها.

ويقول الدكتور أحمد ضيف: إن كتاب ألف ليلة - كان في نظر أدباء العرب - معدوداً كتاباً غثاً بارداً. كما يروي ذلك المسعودي في مروج الذهب وابن النديم في الفهرست، وعلى الرغم من انتشار هذا النوع من القصص فقد بقي غريباً عن اللغة العربية والبلاغة العربية ولم يتمكن أسلوبه من نفوس الكتاب، ولا يتمشى مع عصور الأدب كما تمشت أنواع الرسائل الأدبية الأخرى.

انكشف الستار:

وبالجملة فإن مؤامرة الفلكلور قد وضحت في السنوات الأخيرة وانكشفت أهدافها وخلفياتها كواحدة من أعمال التغريب والغزو الثقافي، وبعد أن تبين أنها ظاهرة واحدة تفرق ولا تجمع. وتتدنى ولا ترتفع، وتلقى الدعم من القوى الأجنبية ولها ميزانياتها ومراكزها الثقافية، وأنها جزء من خطة هدم التاريخ والتراث الإسلامي واللغة الفصحى بإحياء حكايات الأطفال ومواويل السذج من الفلاحين والأزياء الشعبية، وهي كما وصفها الأستاذ تركي علي الربيعي: متعة للأثرياء ومخدر للضعفاء.

وأنها كما أشار، جاءت لتحقق هدفاً استعمارياً، ولتحل محل ثقافتنا الأصيلة وأنها ظاهرة مستوردة تنقب على أسوأ ما في الماضي وأسخف ما فيه، لأنها جاءت من بيئة الطفولة والسذاجة والنقص، وهي لا تستطيع أن تقف إزاء عبقرية التراث البليغ في الشعر والأدب.

وأنها تمثل استخفافاً واضحاً بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، وأن نظرية الفلكلور جاءت مع الزحف الاستعماري على الوطن العربي بقصد إبعاده عن ثقافته الأصيلة وطرح ثقافة بديلة، وهي نظرية مبنية على أساس إحياء الوثنيات القديمة، وأن الاستعماريين هم الذين بدأوا البحث في اللهجات والفنون الشعبية والتقاليد المحلية. وكان الهدف من ذلك هو مواجهة الأصالة.

وقد جاءت النظرية لتلغي دور المثقفين ودور الثقافة في حياة الأمة، ولتعطي الفلكلور بعداً جديداً جاعلة منه أساس الثقافات، والواقع أن الفلكلور لا يعكس أدنى مستوى تعبيري عن واقع الأمة.

ويقول الأستاذ تركي علي الربيعي: «على ثقافتنا أن تدير ظهرها للفلكلور وكل ثقافة محلية ومستوردة، تقوم في إطار العامية والجهل والتفاهة».

أين هذا من معطيات الثقافة الحقيقية وجوهر الأدب البليغ؟

ولا شك أن هذه التفاهات لا تعطي إلا صورة ساذجة ضعيفة متدنية إلى أقل القيم وأسوأها بعيداً عن نزعة التسامي التي خلقتها القيم الدينية والفكر العالمي الذي قدّمه القرآن والحديث.

* * *

(٦١)
الاستشراق

لقد تبين من الدراسات الواعية المتعددة مدى خطر الاستشراق على الفكر الإسلامي، ولم تبق إلا دعوى «الدور الذي قاموا به في تحقيق التراث الإسلامي» ومنها تبويب بعض كتب السنّة وغيرها. ولا ريب أن الاستشراق يعمل على إيجاد حصيلة واسعة من مفاهيم الإسلام بدأها بترجمة القرآن والحديث النبوي وبعض الكتب المعروفة، والهدف هو إحكام الرد على ما في هذه من قضايا معارضة للمسيحية من ناحية أو معارضة للنفوذ الأجنبي من ناحية أخرى، والحقيقة أن هذه الأعمال لم تكن خاصة لوجه العلم، وهي بالرغم من ضآلتها بالنسبة لعمل الاستشراق الواسع في ابتعاث كتب التراث المتصلة بالفلسفة والتصوف الفلسفي والفرق المتصارعة والباطنية وغيرها، فإنها عمل مشكور لهم، ولكنه لا يشكل ظاهرة يمكن أن تحول دون الغرض الحقيقي للاستشراق بما يخدع به دعاة التغريب ذوي النيات الحسنة من قومنا.

وهذه مجموعة من الحقائق:

أولاً: المستشرقون يدرسون قضايا الإسلام (لغته وتاريخه وشريعته وتراثه) بروح غير علمية، تقوم إما على سوء الفهم أو سوء النية، وهم لا يتصورون أي شيء إلا في حدود مفاهيم المسيحية اليونانية وعقليتهم الغربية التي تعودت على ربط الظواهر الإنسانية بالجنس واللغة والقومية والبيئة في حدود المفهوم المادي القائم على المحسوس، ومن هنا كان الإنسان عندهم ظاهرة قومية نشأت عن ظروف اقتصادية ومن شأن هذا التصور أن يجعل كل أحكامهم على تاريخ الإسلام وشريعته وقيمه خاطئة ومنحرفة، لأن الإسلام يقوم على تصور جامع بين الروح والمادة والعقل والقلب.

ثانيا: قدم المستشرقون كتابات أعطوها صفة العلم في مختلف المسائل الإسلامية تدرس في بعض الجامعات على أنها صورة صحيحة لما جاء في الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد، جاء بعضها محرّفاً وبعضها لا يقيد حكمه الشارع ثم بولغ في تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح.

ثالثا: أخضع المستشرقون تاريخ الإسلام لمفهوم المسيحية وتفسيراتها، ثم أخضعوها لتفسيرات المادية الغربية ثم التفسيرت الماركسية.

رابعة: دخل المستشرقون إلى مجامع اللغة، وحولوا أهدافهم إلى مناهج برّاقة سواء في إحياء العاميات أو الدعوة إلى تعديل النحو أو اللغة الوسطى أو الكتابة العربية المعاصرة، وكلها محاولات ترمي إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة.

ومن قبل ذلك تسللوا للبحث عن العاميات، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العامية والمواويل بهدف مسموم هو القول بأن العامية لغة لها تراث.

وقد أولوا اهتماماً شديداً لدراسة اللهجات في البلاد العربية وعقدوا مؤتمراً خاصاً لذلك في مدينة ميونخ بألمانيا ١٩٥٧، وكتب المستشرقون في ذلك كتباً منها: كتاب في لغة الغجر في البلاد العربية، ودراسات في اللهجات الأمهرية. السحرية والقطرية وغيرها من اللهجات المستعملة في جنوب الجزيرة العربية وعلى أطرافها.

والهدف في التركيز على اللهجات العامية واضح، فهم الذين قدموا تلك الفلسفة الضالة التي تقول: إن العامية أقدر على تصوير المشاعر، مع أن هذه المشاعر التي تصورها العامية هي المشاعر الساذجة ومشاعر طفولة البشرية، أين

منها ذلك الشعر الرصين والبيان العربي الذي يحمل صور المجتمع الإسلامي والنفس الإسلامية في مراحل الرشد الفكري، والهدف هو إضعاف لغة القرآن وتمييعها بالتحريض على استعمال اللهجات وتحطيم قواعد اللغة باسم التيسير.

خامساً: أثار الاستشراق دعوات مسمومة للتشكيك في الإسلام والطعن في مبادئه وتشويه الحضارة الإسلامية. ومن ذلك دعوتهم إلى رفع لواء الانسلاخ من الماضي والتراث وأمثالها والغض من شأن الشعوب الملونة في العالم الإسلامي، ووصفهم بأنهم أقل قدرة من الجنس الأبيض (الأوروبي) في مجال السياسة والمدنية والعلم والفن. والعمل على فصل الدين عن الدولة، وإبطال فريضة الجهاد وإثارة الشبهات حول القرآن بطرح سموم على أيدي مسلمين توحي ببشرية القرآن للتشكيك في أنه من الله تبارك وتعالى والقول بتأثر الثقافة الإسلامية بالعقلية الإغريقية والفارسية، وهم في سبيل ذلك يعملون على انتزاع نصوص معينة من سياق المصادر لتأييد وجهة نظرهم ويعملون على إثارة التناقضات بين النصوص والمصادر.

سادساً: المبالغة في تمجيد الحضارات الشرقية القديمة السابقة للإسلام، والادعاء بأن الإسلام أخذ منها، والبحث عن الأثر الغربي والأوروبي في الفكر الإسلامي، والمبالغة في تحديده وإكباره، وجعله شيئاً أساسياً بالرغم من أنه أقل من ذلك، ومحاولة إرجاع العلوم العربية إلى أصول يونانية.

سابعاً: دراسة الحركات المضادة للإسلام والتوسع فيها كالفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر التفسخ والانقسام والادعاء بأنها أبرز ظواهر تاريخ الإسلام مع أن تاريخ الإسلام حافل بالإيجابيات ومراحل القوة والتمكن، وأن هذه الصور قليلة جداً وموجودة في تاريخ جميع الأمم والحضارات.

ثامنا: يدرس الاستشراق خصائص الفكر الإسلامي بروح خصومه، وبفكرة مسبقة قائمة على أحكام قوامها سوء نية وعجز عن الإنصاف، ويعجز الاستشراق عن أن يتخلص من عواطفه الخاصة وهو يدرس مجتمعا مختلفا ومنهجا متباينا مع فكره ومنهجه.

تاسعا: توسعة شقة الخلاف المذهبية بين المسلمين، بينما أن هذه الخلافات تصل إلى ما وصلت إليه بين فرق الأديان الأخرى وخاصة المسيحية لا في طبيعتها ولا في مداها، فلا يوجد خلاف بين المسلمين على المبادئ الأساسية للإسلام مثل وحدانية الله، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والاعتقاد في أن القرآن هو كلام الله، والإيمان باليوم الآخر. وإنما وجد الخلاف في الأمور التفصيلية فيما يعد أمرا طبيعيا في مجتمع إنساني يضم اناسا من مختلف المناطق والأجناس والثقافات، وإنه لمن الخطأ أن تسمى هذه الخلافات خلافات مذهبية لأنها ليست إلا خلافات فقهية محصورة في إطار ديني وقانوني عريض.

عاشرا: حاول الاستشراق الغض من عظمة الدعوة الإسلامية بإثارة شبهات متعددة منها محاولة الادعاء بوجود صلة بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني (وقد كشفت البحوث عكس دعوى الاستشراق فإن القانون الروماني الحديث مأخوذ من مذهب مالك نقله نابليون معه إلى أوربا، كذلك التشكيك في عالمية الرسالة الإسلامية بالقول بأن الآيات جاءت بعد استقرار الرسالة، والحقيقة أن آيات عالمية الرسالة كلها مكية، كذلك أثار الاستشراق الشكوك حول الكتب التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك، وزعموا أنها وضعت في صورتها الأولى بعد قرن من حياة النبي، وقد كذبتهم البحوث العلمية الحديثة التي أثبتت صحة هذه الرسائل.

حادي عشر: يذهب المستشرقون إلى أبعد حدود المغالطة حين يواجهون تاريخ الإسلام بأهوائهم، فهم معجبون ببني أمية، لأن أحدهم (أبا سفيان) كان عدو الرسول صلى الله عليه وسلم مثل: (ما كتبه هنري لامانس عن معاوية ويزيد).

أما عهد العباسيين فالدولة الإسلامية خرجت من يد العرب.

أما المغرب فيسمونها بلاد البربر وهذه التسمية دسيسة تافهة لأن أهل المغرب عرب وبربر ولكنهم مسلمون أولاً.

وهم لا يتحدثون عن الملوك الذين وطدوا الدولة بل عن الخارجين (بني رستم الخارجين أيام عبد الرحمن الداخل وبني مدرار أصحاب سلجمار) ويقولون عن المأمون: إن دولته فارسية ونهضة العلوم في عصره نهضة غير عربية، ولا يتحدثون عن الرشيد إلا عن نكبة البرامكة وينقلون رسالة «مكذوبة» عن أبي يوسف إلى ابن المقفع في معاملة أهل الذمة، لكي يؤكدوا ما يدعيه المستشرقون من سوء حالتهم في ظل الإسلام، ويهتمون بمدرسة حران الفلسفية، ويقفون طويلاً عند المعتزلة، وينقلون عنهم رأي المسعودي دون غيره، ويتحدثون عن المعتصم والأتراك، ويتخيرون فقرات من رسالة الجاحظ في فضلهم ولا يوردون فقرة واحدة عن فضل العرب. أما القرامطة فهم عندهم طلاب عدل وإصلاح، ويروون قصة مصرع الخليفة المتوكل برواية الطبري وتفاصيل فتنة الزنج في جنوب العراق برواية النويري، وقصة القرامطة برواية الطبري، ويأتي بخطاب «أحمد القرمطي» إلى الخليفة «المقتدر» وهو خطاب يصورهم في صورة طلاب عدالة وإصلاح، وعندما يتحدثون عن الدول المنشقة التي انتهت بالقضاء على وحدة الدولة العباسية: الصفاريين والسلمانيين والطاهرين والبوهيين ويطيلون الوقوف عندهم لأنهم دول فارسية، في كتابة تاريخ المغرب حاولوا الوقيعة بين البربر والعرب، وفي المشرق حاولوا الإيقاع بين العرب الفرس. ويعجبون بالفاطميين لأن مذهبهم لم يلق قبولاً

من جماعة المسلمين وعندما يتحدون عن الصليبيين يفخرون بأنهم قتلوا عندما دخلوا القدس ٦٥ (ألفاً) من المسلمين.

ثاني عشر: وضعوا أساس الشبهات ثم نسبوها إلى كتاب عرب ومسلمين، فالشعر الجاهلي والأدب الجاهلي أساسهما بحث عن انتحال الشعر لمرجليوث، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق، أساسه كتاب عن الخلافة الإسلامية «لمرجليوث». ومع المتنبي لطه حسين أساسه بحث لبلاشير، وهكذا...

ثالث عشر: غلبة التفسير المسيحي على التحليل والعرض، فدرمنجم يقول: إن تعاليم أهل الكتاب هي التي لفتت نظر سيدنا محمد إلى الكمال الروحي والمثل الأعلى وجعلته يتحنث في الغار وهذا كذب صراح، كما يحاولون تصور أن القرآن جاء من الكتب السابقة، وأن الهجرة كانت إلى الحبشة لأنها مسيحية، والحقيقة أن الدافع الحقيقي ليس لأن النجاشي مسيحي بل لأنه كاد عادلاً قال النبي: «لأن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق» ولذلك فليس للعاطفة الدينية أثر في تصرفاته وحاول «درمنجم» أن يستدل بأن الله رضي للناس الإسلام ديناً مع بقاء سائر الأديان التي سبقت وحدة مندمجة.

وهذا غير صحيح، لأن الإسلام جاء خاتماً للرسالات وداعياً أهل الكتاب للدخول فيه لأنه دين الله الحق وأن النبي ﷺ لم يكن متصلاً بأهل الكتاب.

ويدّعي مرجليوث أن النبي محمداً كان يعرف القراءة والكتابة ويتخذ من آية (اقرأ) مع أن اقرأ لا تعني قراءة المكتوب وإنما تعني قراءة ما يوحى إليه.

ومن أخطائهم ادعاؤهم بأن العرب كانوا قبل الإسلام على استعداد للملك النهضة، وأن دور النبي ﷺ لم يكن أكثر من قيادة جماعة مهيأة، وذلك باطل صراح، فإن العرب في مكة أمضوا ثلاثة عشر عاماً في محاربة الدعوة الإسلامية، والإصرار على عبادة الأصنام حتى هاجر النبي إلى مجتمع آخر هو الذي تقبل

دعوته. ولقد كانت دراستهم لأحوال العرب قبل الإسلام تحاول أن تستهدف هذه المحاولة المضللة، مع أن الإسلام هو الذي شكل للعرب وجودهم الحقيقي، وأن دعوة الإسلام إلى التوحيد كانت شيئاً جديداً بالنسبة للوثنية العربية.

وهذه محاولة مضللة في الاهتمام بالغساسنة والمناذرة وإعلاء الجاهلية واعتبار الإسلام اقتباساً منها.

ومن ذلك إنكار الوحي للوصول إلى القول بأن القرآن من عمل محمد ﷺ .

وكل محاولات الاستشراق في القول بأن الأفكار الأساسية للإسلام مستقاة من الكتاب المقدس، أو أن طابع الإنجيل موجود في القرآن، أو أن هناك أصلاً يهودياً للإسلام (بروكلمان – فون كريمر – مونتجمري وات و بروكلمان) فكل هذا باطل.

ذلك لأن مصدر الأديان السماوية واحد ولذلك فلابد أن تكون هناك علاقات مشتركة لأن الدين كله من عند الله وهو التوحيد ولكن رؤساء الأديان حرّفوه، أما الإسلام فقد حفظه الله تبارك وتعالى.

وقد عجز المستشرقون مع الأسف – كما يقول محمد أسد (ليوبولد فايس) عن استيعاب خصائص التصور الإسلامي ومقوماته الأساسية، ومن ثم فإنهم لا يستطيعون أن ينفذوا إلى أعماق الحياة الإسلامية، ويستحيل على المستشرق أن يفهم الوحي، أو الهجرة، أو ينفذ إلى أعماقها لأنه بعيد بحكم تكوينه النفسي وتفكيره عن هذا النظام.

ولهذا اعتبر (توينبي) الهجرة مبدأ التدهور في تاريخ الرسالة المحمدية، ويزعم (مونتجمري وات) حين يتحدث عن المعاهدة التي عقدها بين المسلمين واليهود بعد الهجرة أن كلمتي: إسلام ومسلم لم تكن مستعملة في الفترة المبكرة من العهد المدني، ويرجع هذا إلى أنه تجاوز في الترجمة وحرف.

ومن الشبهات التي يثيرها المستشرق «فون كريم» الإدعاء بأن الإمامين «الأوزاعي والشافعي» وقد ولدا في سوريا كانا على علم بكثير من قواعد القانون الروماني البيزنطي، وقد ثبت أن هذا القول مجرد أسطورة، فمن الثابت أن مدرسة بيروت لم تكن موجودة عند الفتح الإسلامي للشام، وأن الشافعي والأوزاعي لم يعرفا القانون البيزنطي.

رابع عشر: إن القول بأن مصادر النبي ﷺ في القرآن هي التوراة والإنجيل من المسائل التي يكاد الاستشراق يجمع عليها، ويرددها، سواء من كانوا من مستشرقي اليهود أو النصارى، والواقع أن هذا الاتهام باطل، بدليل واحد: هو أن مفهوم القرآن للتوحيد يختلف عن مفهوم التوراة المكتوبة بأيدي الأحبار، أو الأناجيل الموجودة في أيدي الناس الآن، فقد دعا النبي ﷺ وحمل القرآن لواء الدعوة إلى التوحيد المطلق، كما يقول الدكتور عبد الجليل شلبي: إله العالم كله واحد. إله مجرد من المادة وعن التركيب. كان الإله عند اليهود (يهوه) وهو إلههم وحدهم وقد ظلوا على ذلك ردحاً من الزمن حتى جاء النبي (اليجا) أول من جهر بأنه إله العالم كله، وظهر بشيء غريب أيضاً على اليهود هو أن حكم الله يجري على الملوك كما يجري على أبناء الشعب، ولهذا لم تكن الديانة اليهودية موحدة بالمعنى الحقيقي، وإنما كانت ديانة توحيد بالنسبة لجيرانها، فقد كان لدى الآخرين آلهة متعددة للزرع والمطر والخصوبة والنجوم كل له إله خاص، وإذن فالتوحيد الإسلامي نوع فريد في كل ما أعلن من صفات الله خالق الكون سبحانه.

المسألة الثانية: أن القرآن لم يذكر قط قصص الإسرائيليين، بل ذكر قصص داود وصالح والخضر وشعيب وسبأ، أما الكتاب القدس فقد اقتصر على ذكر الشعب المختار وتاريخه، وهو لم يتم بوضعه الحالي إلا بعد القرن الثاني الميلادي.

ولأنهم ينكرون الوحي السماوي فإنهم يبحثون عن مصدر معلومات القرآن ولا يزالون مختلفين. قال مونتجمري وات: إن محمداً نال معلومات ممتزجة من اليهودية والمسيحية معاً، وبذل جهداً واسعاً في سبيل الاستدلال على ذلك، كذلك فعل (درمنجم) ولكن الوقائع في المقارنة بين القرآن من ناحية وبين التوراة والإنجيل تكذبهم في هذا الادعاء العريض.

خامس عشر: في محاولة لتأييد النفوذ الأجنبي الذي فرض القانون الوضعي كانت حملة الاستشراق على الشريعة الإسلامية، «جولدزيهر» و«شاحت» وغيرهم الذين كانوا ينشرون دعايتهم الرامية إلى القول بأن الفقه الإسلامي جامد، ولم يتطور، وسيبقى جامداً إلى الأبد، وأنه لا يحتوي على قواعد عامة وإنما يتناول المسائل الخاصة.

وذهب بعضهم إلى القول بأنه لا يوجد فكر سياسي إسلامي، وإنما الذي عرفه المسلمون هو الفكر الفارسي واليوناني، وقد كذبت الحقائق الناصعة دعاوي الاستشراق، وكتب كثيرون كاشفين عن عظمة الشريعة الإسلامية وقدرتها على الاستجابة للعصور والبيئات، وكيف أن للمسلمين فكرهم السياسي الخاص، ومن أبرز هذه الدراسات كتابات الدكتور ضياء الدين الريس.

كذلك فإن مؤتمرات دولية من رجال القانون عقدت خلال القرن الرابع عشر الهجري شهدت بأصالة واستقلال وعظمة الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي، وأكدت أنها شريعة قائمة بنفسها، ليست مأخوذة من غيرها، وأنها - خلافاً لما قال خصومها - حية وقابلة لمسايرة الحياة الاجتماعية في إطار القواعد الثابتة، وأن مبادئها لها قيمة حقوقية تشريعية لا مراء فيها.

سادس عشر: كذبت الحقائق دعاوي الاستشراق في أن التصوف الإسلامي أخذ من الأفلاطونية الحديثة أو مذاهب المسيحية، أو أن البلاغة العربية

أخذت من كتاب الخطابة لأرسطو، أو أن الفقه الإسلامي أخذ من مدونة جوستنيان.

كذلك كذبت الوقائع دعاوي الاستشراق وأتباعهم عن إسقاط الرواية الإسلامية لشعر عصر البعثة النبوية، وما كان منه طعناً على الإسلام، وهجاء النبي ﷺ وأصحابه، فإن الإسلام لم يصادر هذا الأدب، والدليل ما رواه ابن اسحق في السيرة النبوية من قصائد المشركين واليهود وهي لا تقل في الإحصاء عن قصائد الشعراء في النبي وخاصة في موقعتي بدر وأحد.

سابع عشر: ليس أدل على سوء نية الاستشراق في البحث من إصرار «لويس ماسنيون» على متابعة آثار الحلاج خلال أربعين سنة، حتى نشر ذلك المجلد الضخم في ١٤٠٠ صفحة، ثم أخذ يتتبع متروكاته، فطبع ما ورد عنه في الفقرات النثرية ثم نشر ديوانه الشعري، وقد جمعها قطعاً متفرقة من نحو مائة مؤلف بين مخطوط ومطبوع.

وقد ركز اهتمامه على المقاطع التي يوضح به الحلاج اتحاده بالله بل معادلته (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، كذلك ما حرص عليه الاستشراق وأتباعه من إبراز الشخصيات المعادية للسنّة والإسلام مثل أبحاثهم عن مسيلمة الكذاب، وعن غيلان الدمشقي والإشادة بهما، أو كذاب اليمن الأسود العنسي ووصف كل منهم بالبطولة مع أنهم جميعاً خارجون عن مفهوم الإسلام الصادق.

ثامن عشر: لقد تجمع في تحرير دائرة المعارف الإسلامية أخبث وأخطر رجال الاستشراق من يهود وغيرهم ممن يكنون الكراهية للإسلام، ولذلك فقد حرصوا على صنع مواد الدائرة بمفاهيم كنسية ويهودية، وتأخذ دائرة المعارف الإسلامية القصة اليهودية للعهد القديم في خلق آدم عليه السلام فيحيلها مصدراً لقصة آدم في دائرة معارف إسلامية.

كذلك فهم يأخذون وجهة نظر اليهود في إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ويزيفون مفهوم فلسطين وعروبتها، ويحاول الاستشراق اليهودي إعطاء فكرة للعالم أن فلسطين كانت يهودية قبل الإسلام.

ويعمل «رودنسون» في كتابه عن الرأسمالية والإسلام تشويه التاريخ الإسلامي ورفع العنصر اليهودي على حساب العرب.

تاسع عشر: حرص الاستشراق على تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور وخاصة في العصر الأول على أنه مجتمع متفكك تقتل الأنانية رجاله، وهم في كل محاولاتهم المسمومة للانتقاص من الإسلام ولغته وتاريخه وتراثه يخضعون النصوص للفكرة التي يفرضونها، مع تحريف هذه النصوص تحريفاً مقصوداً، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف، وتحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصححون ما نقله الدميري في كتاب الحيوان (وهو ليس ذا قيمة علمية صحيحة)، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ كل ذلك انسياقاً مع الهوى وانحرافاً عن الحق.

وهم يستخدمون كتب التراث استخداماً خبيثاً فيبرزون كل ما يفرق، ويخفون كل ما يجمع، ويغلب عليهم سوء الظن وسوء الفهم والهوى.

العشرون: يضع كل من الاستشراق المسيحي خطة، والاستشراق الشيوعي خطة مختلفة، والاستشراق الصهيوني خطة ثالثة، وكل منها يهدف إلى تحقيق غرض خاص، ولكنها جميعاً تطبق على الإسلام بالعداوة والخصومة والحقد الدفين.

* * *

(٦٢)

القاديانية

عرض المستشرق «لويس بروان» في كتابه (طوالع الإسلام) إلى حركات التجديد والإصلاح التي ظهرت منذ القرن الماضي في أنحاء العالم الإسلامي من الهند إلى إيران إلى مصر، وقد اعتبر البهائية والقاديانية حركتين إصلاحيتين في الإسلام وقد تابعه في هذا بعض المفكرين المسلمين.

ولا ريب أن هذا المستشرق ومن تابعه كانوا مخطئين في هذا التصور، وإن كنا لا نخلي «الاستشراق» من تبعة العمل لدفع هذه الحركات الهدامة إلى الأمام واحتضانها، وإعداد مخططاتها المسمومة لخداع الشعوب الإسلامية، وإشاعة روح «التزييف» في فكرها، وإثارة الشبهات حول منهجها الأصيل، ومن يتابع هاتين الدعوتين المبطلتين يعرف أنهما استهدفتا ضرب حركة اليقظة الإسلامية التي كانت قد قطعت مرحلة كبيرة في طريق التماس المنابع الأصيلة لجوهر الإسلام بمفهوم التوحيد الخالص، وأن الحركتين قد نشأتا في أحضان النفوذ الأجنبي واستهدفتا ضرب الإسلام في أعظم قيمه الأساسية وهي «فريضة الجهاد» وقد كشفت الأبحاث التاريخية عن علاقة أكيدة بين هاتين الدعوتين وبين الاستعمار والصهيونية الهندوكية.

وأنهما حاولتا بث الفتنة وزعزعة العقائد، وإثارة الشبهات والشكوك، وإضعاف شوكة المسلمين وتثبيط عزائمهم في المكافحة ضد النفوذ الأجنبي، والكيد للإسلام، وتضليل المسلمين عن حقائق عقيدتهم، وتفريق وحدتهم، ولم يعد هناك ريب في أن هذه الطوائف الدخيلة، تلقى المعونة والتوجيه من المستعمرين والمبشرين واليهود، وهم يعدونها لما أسموه «حرب الإسلام من الداخل».

وقد شنت الصحف الغربية في الفترة الأخيرة (أواخر عام ١٩٧٨م) حملات

جديدة مكثفة لإحياء دعوة القاديانية وذلك بنشرها لإعلانات تقول: «بأن السيد المسيح عليه السلام لم يصلب حتى الموت كما يقول المسيحيون، أو يرفع إلى السماء دون أن يصلبه اليهود كما يقول المسلمون، ويمضي إعلان القاديانيين فيقول: إن السيد المسيح قد عوفي من جراحه بعد ذلك وغادر (جودية) وهو الإسم الذي يطلقه اليهود على الضفة الغربية من فلسطين ليبحث عن قبائل بني إسرائيل الضالة، حتى وصل إلى الهند وهناك عاش طويلاً جداً ثم دفن في كشمير.

ولا ريب أن هذه محاولة جديدة لإعادة توجيه الأذهان إلى هذه الطائفة، بعد أن أصيبت في السنوات الأخيرة بالهزيمة الساحقة، عندما أعلنت حكومة باكستان أنها طائفة غير إسلامية وقد أشارت هذه الأخبار إلى أن هناك مؤتمراً دعا إليه مئات من المضلين يهدف بالذات إلى اجتذاب المسيحيين إلى صفوف هذه الطائفة المارقة التي بدأت تعاني من التدهور.

القاديانية:

ظهرت القاديانية بعد أن عجزت السلطات البريطانية عن إخضاع المسلمين في الهند، عن طريق الحرب والسلطان العسكري والسجن والتشريد والنفي والقتل. فقد عمد الاستعمار البريطاني إلى محاولة إخضاع المسلمين بالتغريب والغزو الثقافي، وحاولت أن تقيم طائفة من المسلمين، تدين لها بالولاء وتضرب وحدة المسلمين وجماعتهم وتمزقهم إلى فرق، فأعدت غلام أحمد القادياني لحمل لواء هذه الدعوة التي بدأت بادعاء الخروج عن مفاهيم التوحيد الخالص وانتهت بادعاء النبوة، وقد مكنت لهم بريطانيا في الهند في إمارة خاصة تسمى «الربوة» داخل باكستان، وقدمت منهم من تسنم عليا المناصب السياسية، ومن ثم تولى كبارهم

مناصب الدولة والجيش، وأصبحوا عاملاً خطيراً في مواجهة أهل السنّة والجماعة، وضرب مفهوم التوحيد الخالص.

وقد كان أبرز ما دعا إليه القادياني: مهاجمة فريضة الجهاد، والدفاع عن النفوذ الأجنبي باعتباره الطاعة لأولي الأمر، وقد رحبت الهندوسية بالقاديانية، ودافعت عنها، وكان من أخطر دعاوي القاديانية رأيهم الزائف حين جاءوا بتفسير مبتدع لختم النبوة خالفوا به تفسير المسلمين المتفق عليه بينهم، من أنه ﷺ هو خاتم النبيين فلا نبي بعده، ففسروا خاتم النبيين، بأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء أي «طابعهم»، فكل نبي يظهر بعده تكون نبوته مطبوعاً عليها بخاتم تصديقه ﷺ ، ويكفرون من يخالفهم ويكفرون جميع المسلمين الذين لا يؤمنون بكلام القادياني.

وقد ادّعى القادياني أنه أوحي إليه بما يربو على عشرة آلاف آية، وأنه مبعوث بالرسالة بعد محمد صلوات الله عليه وأن ما ينزل عليه وحي كالقرآن والتوراة والإنجيل، وأن روح المسيح حلّت فيه، وأن الحج فريضة على المسلمين إلى قاديان، وأنها بلدة مقدسة كمكة والمدينة، وأنها المكنى عنها في القرآن بالمسجد الأقصى.

(عن كتاب براهين أحمدية ورسالة التبليغ).

وكان غلام أحمد القادياني قد بدأ دعواه ١٨٨٨م حيث أسس مدرسة في قاديان لتعليم أبناء شعبه، وأصدر مجلة لنشر مذهبه سماها مجلة: «الأديان» وقد مرّت دعوته بعدة مراحل، كانت آخرها ادعاءه النبوة وأنه المسيح المنتظر.

وقد قاوم رجال حركة اليقظة الإسلامية هذه الدعوى منذ اليوم الأول، وكشف العالمان البارزان: المودودي والندوي فساد هذه النحلة، وزيف فكرتها المسمومة وكشفا عن حقيقة موقف الإسلام حيث يعتقد المسلمون أن النبي محمداً ﷺ هو خاتم المرسلين، وأنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة، وأن القادياني قد فارق الإجماع

وخالفه، حين فسر «خاتم النبيين» بأنه طابعهم وبأن كل نبوة لا يكون مطبوعاً عليها بخاتمه وتصديقه ﷺ تكون غير صحيحة، وكشف علماء الإسلام أن هناك مخالفة تامة بين المسلمين وبين هذه النحلة في كل شيء: في الله وفي الرسول وفي القرآن وفي الصوم وفي الحج والزكاة وهو خلاف جوهري في كل شيء، وقد كانت دعوى القادياني الخطرة، التي جعل من ادعاء النبوة مقدمة لها، هي إبطال شريعة الجهاد، والدعوة الى تقبل النفوذ البريطاني المسيطر على البلاد وإعلان الولاء له، وبذلك تكشف هدف هذه النحلة المبطلة وهو خدمة الحكومة البريطانية، وكل من يراجع كتابات غلام أحمد في مؤلفاته، يجد أسلوباً سانجاً في الأداء وضلالاً في المضمون، مثل قوله: «إنني صادق كموسى وعيسى وداود ومحمد، وقد أنزل الله لتصديقي آيات سماوية تربو على عشرة آلاف، وقد شهد لي القرآن وشهد لي الرسول وأن من يخالفني فهو نصراني يهودي مشرك من أصحاب النار».

فمثل هذا الكلام لا يقنع أقل الناس ثقافة، ولا يستطيع أن يرقى لأن يكون فكراً عالياً يمتلك النفوس ويهز الأرواح بل إنه يكشف عن زيف صاحبه وفساد هدفه، بل إن غلام أحمد القادياني قد شهد على نفسه في كتاباته بأنه تابع وخادم وعميل للحكومة البريطانية.. حيث يقول في ختام كتابه (شهادة القرآن):

«قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ومؤازرتها، وألفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر من الكتب والنشرات ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة، لقد ظللت منذ حداثة سني وقد ناهزت اليوم الستين، أجاهد بلساني وقلمي لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية، ولما فيه من خيرها والعطف عليها وأنادي بإلغاء فكرة الجهاد التي يدين بها معظم جهالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة».

وقد كشف العلامة (المودودي) في كتابه ما هي القاديانية فساد دعوى

القادياني حين قال: «لقد أمدت حركة الميرزا غلام أحمد الحكومة الإنجليزية بخير جواسيسها لخدمة مصالحها الاستعمارية، وقد كانوا أصدقاء أوفياء وكانوا موضع ثقة الحكومة الإنجليزية وقد خدموها في الهند وخارج الهند، وبذلوا نفوسهم ودماءهم في سبيلها بسخاء».

وعن الأستاذ (أبو الحسن الندوي) في كتابه «القادياني والقاديانية» يقول غلام أحمد في آخر كتابه شهادة القرآن: «إن عقيدتي التي أكررها أن الإسلام جزءان: الجزء الأول إطاعة الله، والثاني إطاعة الحكومة التي بسطت الأمن وآوتنا في ظلها من الظالمين، وهي الحكومة البريطانية». وقد أمدت هذه الفئة الحكومة البريطانية بخير جواسيس لمصالحها وأصدقاء أوفياء ومتطوعين متحمسين كانوا موضع ثقة الحكومة».

الأحمدية: خدعة مضللة:

توفي غلام أحمد ١٩٠٨ ثم انقسمت الجماعة الضالة إلى فرقتين، انتخب أتباعه: حكم نور الدين، ثم أنشأ محمد علي اللاهوري جماعة منفصلة في لاهور بعد أن اتخذت جماعة قاديان ابن القادياني: محمود بشير الدين رئيساً لها.

وقد حاولت هذه الجماعة اللاهورية أن تدعي أنها ليست على ضلال القاديانية، وحاولت أن تنكر دعوى نبوة غلام أحمد، أو ادعائه النبوة، ونشروا كتبه الأولى وحجبوا كتبه الأخيرة، وهي محاولة خادعة لتحسين الظن به توطئة لاتباعه.

ويقرر باحث معاصر للأحداث هو (عبد الحميد السيد) أن دعاة القاديانيين اجتمعوا على محاولة استنقاذ الدعوى، وكان اختيار «محمد علي اللاهوري» لأنه مقرب من رجال الاستعمار البريطاني في الهند، وأريد له إصلاح الأمر بعد أن كره المسلمون ما ادعاه غلام أحمد وأنكروه، وذلك في محاولة جديدة لجمع القلوب حول

باطلهم، فادعى اللاهوري أن غلام أحمد لم يكن غير مصلح من المصلحين وأنه لم يدع النبوة، وأعادوا طبع كتبه التى كتبها فى الدور الأول.

يقول أبو الحسنات محمد محى الدين الهندى: لما رأى القاديانيون التشدد فى القضاء على فتنتهم، بعد أن حاصرهم المسلمون فى بلدتهم الصغيرة قاديان، وقاوموهم مقاومة شديدة، لجأوا إلى ظل الحكومة البريطانية، وتعهدوا بالدعاية لها والدفاع عنها، فانتهزت بريطانيا الفرصة لتفريق كلمة المسلمين عن طريق تشجيعهم، فمهدت الطرق للتبشير بالقاديانية على أساليب المبشرين، وركّزوا على الدعوة لإلغاء الجهاد الإسلامي، والادعاء بأن الإسلام لم يعد دين جهاد، بل صار الآن دين السلام، وسعوا إلى إيجاد السلام بين الإسلام والمستعمرين، وفي هذه المرحلة اتسع نطاق الدعوة تحت اسم الأحمدية، ووصل إلى بلاد كثيرة كالأفغان وغيرها في آسيا، ووصل إلى قلب أفريقيا وقد لمس الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر نشاطها الخطير في نيجيرا وألف كتاباً في دحضها.

يقول السيد أبو الحسنات: أنهم خداعاً للعامة قد اتخذوا سبيل التقية، وعمل محمد علي اللاهوري الذي يلقبه المسلمون في الهند (عبد الله بن أبي سلول) الثاني، تشبيهاً برئيس المنافقين في عهد النبي ﷺ ، وقد كان من أبرز أنصار دعوة القادياني الصريحة حتى مماته وكان من أبرزهم في الخطابة وأبرعهم في الكتابة، فهو الذي ترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية وفسّره وحرّفه وغير معانيه في مواضع شتى، وفق تفسير متبوعه (غلام أحمد) وزعم أن نحلة القاديانية هي الحقة، فكل من قال: لا إله إلا الله فهو مكلّف شرعاً باتباع القادياني وقد حوى تفسيره كثيراً من الشبهات والسموم، منها تفسيره الباطل لسورة الفاتحة، حين قال: إن الذين أنعم عليهم هم القاديانية والمغضوب عليهم هم المسلمون، وقال: إن مريم تزوجت وزوجها يوسف النجار، وإن قول «لم يمسسني بشر» محمول على العرف الخاص، وأنكر أن سيدنا إبراهيم ألقي في النار، وادعى في تفسيره

بإمكان نزول الوحي على غير الأنبياء، واعترف في مقدمة تفسيره بأنه اغترفه من فيض القادياني، وقال إنه هو المسيح وكذلك أنكر معجزة شق القمر، ولا ريب أن مراجعة ترجمة القرآن التي قدمها محمد علي اللاهوري، تكشف عن سموم كثيرة معارضة لمفهوم أهل السنّة والجماعة وأنها حاولت تقديم فلسفة القاديانية كاملة، وللاهوريين قولان: قول للمسلمين أنه مصلح، وقول لإخوانهم أنه نبي وفي السنوات الأخيرة عمدوا إلى إصدار ترجمة محرفة لمعاني القرآن، ظهرت هذه الترجمة في هولندا محشوة بكثير من التبديل والتغيير والتحريف والتشويه لمعاني كتاب الله، مع استغلال تفسير القرآن في خدمة أغراضها ونواياها وتنفيذ مؤامراتها الحاقدة على الإسلام لمحاولة تشكيك المسلمين في عقائدهم السمحة وتستهدف أساساً:

١- قطع صلة هذه الأمة بماضيها وعن خير أيامها وأفضل رجالها.

٢- فتح الباب أمام الأدعياء ومدعي النبوة.

٣- خروج على النبوة المحمدية وعلى صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام.

٤- إيئاس المسلمين من مستقبلهم.

وقد أشار إقبال إلى خطر القاديانية حين قال: «إن القاديانية مؤامرة مدروسة ترمي إلى تأسيس طائفة جديدة تدعمها نبوة جديدة منافسة لنبوة محمد ﷺ».

ولقد امتد خطر القاديانية بلونها اللاهوري، وخدع كثيراً من الناس واتسع نطاقها واستفحل خطرها، وخاصة في باكستان نفسها، ففزعت الأحزاب والهيئات تطالب الحكومة بجعلها أقلية غير إسلامية، وكان قد صدر عام ١٩٣٥ قرار محكمة مدنية بهاول ناجار، برئاسة القاضي محمد أكبر خان باعتبار أن القاديانيين غير مسلمين، وبطلان التزاوج بينهم وبين المسلمين، ثم جاء قرار (٧ سبتمبر ١٩٧٤م) من البرلمان الباكستاني حاسماً قاضياً باعتبار جميع الفئات القاديانية أقليات غير إسلامية، وقد جاء قرار البرلمان الباكستاني بعد دراسة للمسألة القاديانية

استمرت أكثر من ثلاثين يوماً واقتضت تعديل دستور جمهورية باكستان الإسلامية على النحو التالي:

أولاً: اعتبار أتباع القاديانية أقلية غير إسلامية، واعتبار أتباع الميرزا غلام أحمد سواء أكانوا من فئة القاديانية أو من فئة اللاهورية أقلية غير مسلمة بموجب الدستور.

ثانياً: أي رجل لا يؤمن بالنبوة المطلقة لمحمد ﷺ وعلى أنه آخر الرسل، أو أي شخص يدعي النبوة في أي معنى أو شكل للنبوة وبأي تفسير لكلمة النبوة ليس بمسلم، وأن من يؤمن بادعاء أي مدع للنبوة، أو يعتبره مجدداً دينياً يكون غير مسلم بموجب الدستور والقانون.

* * *

* *

*

(٦٣)

حركة الترجمة

يواجه الفكر الإسلامي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري عديداً من التحديات التي انطلقت منذ بدأت حركة الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي بهدف «تغريب» الإسلام وبلاده وفكره وذلك عن طريق طرح معطيات الفكر الغربي بواسطة الترجمة على نحو بالغ الخطورة اختلط فيه النافع بالضار، وغلبت مترجمات الفلسفة اليونانية والقصة المكشوفة، ونظريات العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق الغربية، ومترجمات النظريات الاقتصادية سواء الرأسمالية أم الماركسية، بل وطرحت من خلال هذه المترجمات نظريات مادية في ترجمة الحياة وتفسير التاريخ ونقد الأدب، وكلها تتعارض تعارضاً تاماً مع مفاهيم البلاد وقيم الفكر الإسلامي، هذه الظاهرة الخطيرة: ظاهرة الترجمات إلى اللغة العربية من الفكر اليوناني الوثني القديم، والفكر الغربي الليبرالي والماركسي، تحتاج إلى نظرة فاحصة في مطلع القرن الخامس عشر، بهدف تحديد موقف الفكر الإسلامي منها من حيث الوجهة التي يجب أن يتجه إليها في القرن الخامس عشر، وهي وجهة التحرر من الوافد والدخيل ومن التبعية والاحتواء، واحتلال ناصية الأصالة وإعلاء الذاتية الخاصة، وتميكن الوجود الأصيل المستمد من منابع الإسلام، والنظر إلى الفكر الوافد على أنه نتاج غريب لقوم لهم مفاهيمهم وقيمهم، ولا بأس من النظر فيه والاستئناس به للتعرف على أساليبه ووجهته، دون أن يكون مسيطراً أو موجهاً لفكرنا الإسلامي ودون أن يكون فكرنا الإسلامي - ذو الميراث الرباني والتراث العريق - خاضعاً أو منصهراً في بوتقة الأممية العالمية.

ولقد قامت الترجمة في العصر الإسلامي الأول بإرادة المسلمين الحرة وفي سبيل الحصول على تراث الأمم العلمي باعتبار أن الإسلام هو وارث الحضارات

القديمة جميعاً، ونظراً لأن الإسلام قد دعا إلى العلم وإلى النظر في الكون فحق على أهله أن يتعرفوا على ما سبقهم من تجارب في هذا المجال بغية تقييمها والنظر فيها، وتصحيح أخطائها، والتماس السليم الصادق منها مما لا يتعارض مع مفهوم التوحيد الخالص، للبناء عليه على النحو الذي يحقق إقامة المنهج العلمي التجريبي الإسلامي، ومنهج المعرفة الإسلامي ذي الجناحين (روحاً ومادة وديناً وعلماً ودنيا وآخرة).

ومن ثم فقد أنفق المسلمون جهدهم في الحصول على أوليات العلوم الطبية والطبيعية والفلكية التي كانت ميراثاً عاماً (من بابل وفارس ومصر والهند والصين)، والتي كانت قد تجمعت في بيئة اليونان والرومان، ثم جاءت المسيحية فرفضتها كلية، ومن ثم كان فهم المسلمين للترجمة في العصر الأول دقيقاً وسليماً، فقد كانوا يفرقون تفريقاً واسعاً بين «العلوم» و «الثقافة» وكانوا يؤمنون بأن لكل أمة ثقافتها الخاصة بها المستمدة من عقيدتها ومفهومها للحياة وميراثها الفكري، ولما كان التوحيد الخالص هو قمة معطيات الإسلام فقد حددوا موقفهم إزاء الشعر والأدب والفلسفة وأدخلوها في دائرة ثقافة الأمم الخاصة بهم، وأخذوا في ترجمة العلوم والمعارف العامة باعتبارها ملكا لجميع الأمم، ولذلك فقد سارت نهضة الترجمة في العصر العباسي على هذا الأساس، لولا أن عوامل معينة تدخلت في ترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية وخاصة ما يتصل بعلم الأصنام اليوناني المستمد من الوثنية اليونانية، وكذلك ما يتصل بالغنوصية الشرقية، وكانت قد مزجت فلسفة اليونان والفلسفة الشرقية في المدرسة الأفلوطينية.

غير أنه ما إن ترجمت فلسفات أرسطو وأفلاطون وغيرهما حتى واجهها الفكر الإسلامي في معارضة قوية، واعتبر القائمين بها أتباعاً لمدرسة اليونان، حتى أطلق عليهم اسم (المشائين المسلمين) وكشف عن فساد مفاهيمها ومعارضتها للتوحيد الخالص، ومن ثم نشأت مدرسة الأصالة التي بدأها الإمام الغزالي ووسد

قوانينها الإمام ابن تيمية الذي كشف عما أسماه «منطق القرآن» في مواجهة منطق اليونان، وكان الإمام الشافعي قد بدأ هذا الاتجاه حين فرّق بين أرجانون اللغة اليونانية وأرجانون اللغة العربية: لغة القرآن، وخاصة فيما يتعلق بأن الفلسفة اليونانية تقوم على الوثنية والعبودية، بينما يقوم مفهوم الإسلام على التوحيد والإخاء البشرى.

ولكن الترجمة فيما عدا هذا الجانب الفلسفي ظلت محكومة بهدف واضح وبإرادة قديرة. قوامها مفهوم الإسلام نفسه، وكل ما وجده علماء الإسلام ومفكروه معارضاً للإسلام نقضوه وما وجدوه مخالفاً عارضوه، وكشفوا زيفه وأعلوا شأن مفهوم الإسلام الجامع القائم على التوحيد الخالص والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي.

أما في العصر الحديث فإن الإرادة الإسلامية الحرة كانت مقيدة ومغلولة حين نشأت حركة الترجمة واتسعت في ظل النفوذ الاستعماري المسيطر على البلاد العربية فكانت حركة الترجمة جزءاً من مخطط التغريب والغزو الثقافي بالرغم من أنها بدأت في عصر محمد علي بداية صحيحة راشدة، غير أنها سرعان ما فقدت أصالتها وتغلبت جماعات من المترجمين المارون اللبنانيين (شأنهم في هذا شأن جماعة السريان في العصر الأول) الذين عكفوا على ترجمة القصص الفرنسي الجنسي المكشوف، ونقل القصص التافه السخيف، وكانت الترجمة وسيلة كسب للعيش وليست عملاً فنياً فضلاً عن جهل لقواعد اللغة، وعدم التقيد بالأصل المترجم وتشويه القصة، وكان أبرز هؤلاء «طانيوس عبده» و«نقولا رزق الله» اللذين قدما في لغة ركيكة مبتذلة عدداً بلغ ستمائة قصة، ثم ظهرت مؤامرة التمصير التي قادها عثمان جلال فكان يترجم القصص الفرنسية إلى العامية المصرية.

وظهرت مدرسة الترجمة من الأدب الإغريقي بقيادة لطفي السيد وطه حسين،

حيث ترجمت بعض آثار أرسطو وإلياذة هوميروس (سليمان البستاني) ومائدة أفلاطون للطفي جمعة وكثيرين.

ثم ظهرت بعد القصص الأدبية إباحية وكشفاً حين ترجمت آثار موليير وراسين وكورني .

ودخلت إلى الأدب العربي مفاهيم مختلفة تمام الاختلاف عن مفاهيم المسلمين في المرأة والرجل وفي العلاقات الاجتماعية على نحو يمتهن كرامة العرض والخلق، كذلك ترجم طه حسين وغيره أسوأ أشعار الأدب الفرنسي، والقصص المسرحي، أمثال بودلير وتوماس هاردي، وبورجيه، وموباسان، وبول فاليري ولم يسلم من هذا الاتجاه إلا عدد قليل جداً من أمثال فتحي زغلول وعادل زعيتر ومحمد بدران، بل لقد وقع المترجمون في ذلك الفخ الذي نصبه النفوذ الأجنبي بنسبة أشعار فارسية قديمة في الخمر إلى العالم الفلكي عمر الخيام من إمثال الزهاوي» و«الصافي، النجفي» و«أحمد رامي» وعبد الحق فاضل وأحمد حامد الصراف ووديع البستاني إلى العربية مشيدين بها وهي لم تثبت في الأصل وتبين فساد مصدرها وأنها كانت محاولة خطيرة لبث روح التحلل والفساد والتمزق النفسي في الشباب المسلم.

ويمكن القول بأنه كان وراء خطة الترجمة على هذا النحو قوى كبرى تهدف إلى غاية واضحة قوامها «تغيير أعراف هذه الأمة وتدمير مقوماتها» وقد كان لهذا القصص المكشوف أثره الواضح في تدمير أعراض كثير من البيوت.

واستمرت هذه الموجة من الترجمة الموجهة ولا تزال حتى اليوم تعمل في عدة ميادين وترمي إلى غايات بعيدة منها الغض أساساً من شأن الإسلام وقيمه ومفاهيمه وشريعته ولغته وتاريخه وطرح هذا الركام المسموم في مختلف الميادين وخاصة ما طرح في ميادين العلوم (نظرية دارون) والنفس (نظرية فرويد) والعلوم

الاجتماعية (نظرية دوركايم) والأخلاق (نظرية سارتر) وفي العلوم الاقتصادية (نظرية الرأسمالية ونظرية الماركسية).

وكلها تهدف إلى فرض مفاهيم ونظريات وافدة معارضة لمفهوم الإسلام الأصيل الجامع الواضح في مختلف مجالات النفس والأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

وإذا أحصينا هذه الأجناس والفنون المختلفة وجدنا أن أقلها ما ترجم في ميدان العلوم والتكنولوجيا التي هي المادة الوحيدة التي نحن في حاجة إلى نقلها من الفكر الغربي، وبالرغم من ذلك فلا تزال القيود تقيد خطوة الفكر الإسلامي فيها فلا يزال مفروضاً على الكليات العلمية (الهندسة والطب والعلوم والزراعة) أن تخضع للمصطلحات الغربية، وتتعامل معها مع أن أساس النهضة الحقة أن تنقل العلوم التجريبية إلى أحضان اللغة العربية أساساً، حتى يمكن أن يقوم الانبعاث على أساس مفهوم الإسلام نفسه للعلم، وليس على أساس مفهوم الغرب الذي يتمثل الآن في الاستعلاء العنصري والتهديد الذري، والصراع بين المعسكرين، والحيلولة دون تمكن المسلمين والعرب من الحصول على التكنولجيا سواء العامة أم العسكرية والحربية – وغاية ما يقال في هذا الصدد أن معركة الترجمة لم تبدأ من منهج صحيح مدروس، ينظم مدى ما نحتاجه وما لسنا في حاجة إليه، وإنما أخذ التغريب والغزو الثقافي المبادرة ومضى يقدم لنا على مدى قرن كامل نتاجاً سيئاً غاية السوء، قوامه ترجمة القصة المكشوفة الأجنبية والتراث اليوناني الوثني، والمفاهيم المادية والإباحية في مجالات النفس والاجتماع والأخلاق والتربية ومن الأسف أن هذه الآثار قد قدمت لنا على أنها «علوم أصيلة» وليست «فروضاً قابلة للخطأ والصواب» أو وجهات نظر تمثل أممها وأصحابها، ولم تسبق هذه الدراسات أو تلحق بما يكشف أمام القارئ العربي والمسلم مكانها من فكر أمتها، وموقفنا

كفكر له منهج متكامل جامع منها، وبذلك زيفت هذه الترجمات كثيراً من العقول وأفسدت كثيراً من النفوس، وخلقت أجيالاً مضطربة، لأنها استطاعت أن تقرأ الفكر الغربي القائم على عقائد ومفاهيم وقيم وأيديولوجيات، على أنه «علم غير قابل للنقض» بينما لم يكن ذلك إلا مجموعة من الفرضيات القابلة للخطأ والصواب، والتي تختلف بل ربما تتعارض مع فكرنا الإسلامي العربي، وكان القائمون على هذه الأعمال في الأغلب من خصوم هذه الأمة وفكرها ومن الراغبين إلى: اتخاذ سلاح الترجمة سبيلاً إلى هدم هذه المقومات.

وفي نفس الوقت الذي حجبت حركة الترجمة ما يحتاج إليه المسلمون في هذا العصر من مجالات العلوم التجريبية والطبيعة والرياضة وغيرها، فقد طرح في أفق الترجمات ركاماً مضطرباً عاصفاً يرمي إلى هدم ذلك الحائط النفسي المرتفع القائم في النفس المسلمة بالحق والتقوى والكرامة والفضيلة والعفاف،هذا الركام يصور الإباحيات الجنسية على أنها شرعة المجتمع المباحة، كما يصور الجريمة على أنها ظاهرة طبيعية، ويصل تأثير هذه المترجمات المسمومة إلى جميع مؤثرات العقائد والأخلاق والاجتماع، من حيث وجود تباين واضح وخلاف عميق بين مفاهيم الغرب ومفاهيم الإسلام حيث تقوم الحياة هناك على أساس عبادة الجسد وتقديس الجمال والنظر إلى العلاقات الجنسية نظرة حرة بعيدة عن القداسة والعفاف والإيمان بالعرض وكرامة المرأة حيث تختلط الصور في هذه الترجمات المطروحة في النفس العربية الإسلامية حتى تصل إلى الصميم فتحدث آثارها الخطيرة في العقيدة نفسها.

كذلك كان من أسوأ آثار الترجمة ذلك الخلط الشائن بين المذاهب المتعارضة والنظريات المتضادة، وهي نظريات ومذاهب لم تظهر في وقت واحد هنالك، وإنما ظهرت على أزمنة متفاوتة، ولكنها حين نقلت إلى فكرنا الإسلامي أريد طرحها جملة

ليكون لاضطرابها وتبيانيها واختلافها أبعد الأثر في تدمير هذا الفكر والإدالة من أصالته.

ومن العجب أن ننقل ونترجم آثار الفكر الغربي اليوم وهو يمر بمرحلة الأزمة والانهيار والهزيمة. وقد أحيط به واحتوته مقررات التلمودية وبروتوكولات صهيون، وأدى أهله إلى ذلك الإحساس الرهيب بالغربة والقلق والتمرد والغثيان، فنقل مسرح اللامعقول واللاأدب واللاأخلاق. ومثل هذه الفنون المضطربة التي لسنا في حاجة إليها والتي لا تستطيع أن تعطينا شيئاً يعيننا على بناء أنفسنا في فكرنا أو أمتنا وخاصة ما كتبه سارتر وكامي ومالرو من أحاسيس بالرعب والفزع والاضطراب نتيجة ذلك الانفصال الشائن عن العقيدة والأخلاق والمسئولية الفردية، وهي في مجموعها تضاد الفطرة التي لا تستطيع النفس الإنسانية أن تتجاهلها أو تحتويها.

كذلك فإن هذه الترجمة تصور الفرد الغربي وهو يحتقر الأخلاق ويسخر من الرحمة والصدق والعفة والشرف ويحتقر الوطنية، ويضحك من التزام الأخلاق للمجتمع ويستخف بفكرة الأسرة والعائلة.

وتجد مثل هذه الترجمات تحمل ذلك المثل الرديء بألا يحترم الإنسان أحداً ولا يحترم أي مثل أو دين أو مبدأ، ويعتبر ذلك تقييداً لحريته، وما يتصل بهذا من إنكار له تبارك وتعالى وتهجم بالعبارات الرديئة عليه -جل جلاله) على النحو الذي عرف عن نيتشه وسارتر وبيراندلو، فضلاً عن إحياء الأساطير واتخاذها أساساً لنظريات علم النفس والأخلاق والاجتماع أو مصادر لمفاهيم الأنثربولوجيا وغيرها من المفاهيم.

هذه السموم جميعها تترجم إلى لغتنا العربية وتدخل إلى دائرة أدبنا وفكرنا دون أن يقول مترجموها ما هو وجه الحق فيها وما هو الزيف. وما موقفنا منها

كاملة لها عقيدتها وفكرها ولها مفاهيمها وقيمها. وهم بذلك يطرحون في أفق مجتمعنا الإسلامي موجة زائفة من اليأس والتشاؤم والملل وازدراء الحياة بما لايتفق مع طبيعتنا المتفائلة المؤمنة بالله تبارك وتعالى والتي لا تخاف شيئاً ولا أحداً غير الله والتي تعتصم دائماً برضوان الله ورحمته.

ولعل هذه السموم التي تطرحها عملية الترجمة من أخطر ما يواجه حركة اليقظة الإسلامية اليوم، وتضع أمامها صخوراً وجنادل تحول بينها وبين إكمال المسيرة إلى الحق، وتحجب كثيراً من حقائق الإسلام وتفسد العقول والقلوب في أعماق شبابنا وأجيالنا الجديدة. ويتساءل كثير من الباحثين أمثال الدكتورة نازك الملائكة غيرها عن الغاية التي سينتهي إليها شبابنا نتيجة تبنينا لهذا الفكر الغربي المريض الزاحف .

ونحن نقول: أننا أشد ما نكون في حاجة إلى أن ننبه ونحذر من نتائج الأخطار التي تطرحها عملية «الترجمة غير الموجهة» إسلامياً وأن نقف منها موقف التحفظ والتحذير والكشف عن أخطائها لتهدي أبناءنا إلى الحق، ونقول لهم في صراحة إن هذه المفاهيم دخيلة وافدة، وإنها ليست مفاهيم المجتمع الإسلامي العربي ولن تكون إلا نتيجة للخلاف العميق في الأسس والمصادر والمقومات والقيم والعقائد بين فكرنا وبين هذا الفكر، ما بين أمتنا وبين الغرب.

ولقد حق علينا اليوم ونحن على أبواب القرن الخامس عشر أن يواجه الفكر الإسلامي هذه السموم والآثار التي طرحها الفكر المترجم الوافد، وقد بلغنا مرحلة الرشد والأصالة والقدرة على التحرر من التبعية والاحتواء والإذابة في بوتقة الفكر الأممي – علينا أن نعاود هذا الفكر بالنظر والتحليل وكشف الجوانب التي تتعارض مع الإسلام، وخاصة ما كتب عن الرسول والإسلام والقرآن واللغة العربية

وتاريخ الإسلام مما يحمل بذور الشكوك والتخرصات الضالة المضلة وهناك مجالات عديدة تحتاج إلى النظر والمراجعة:

١- ما ترجم في مجال الفكر الإغـريقي الهليـني.

٢- ما ترجم في مجال العلوم الاجتماعية والنفـس.

٣- ما ترجم في مجال الأدب والنقد الأدبي والقصة.

٤- ما ترجم من التاريخ وتفسير التـاريخ.

٥- ما ترجم في مجال الاقتصاد والسياسة.

٦- ما ترجم في مجال التراجم وحياة العظماء.

* * *

* *

*

(٦٤)

الروتاري

١- واجهة جديدة للماسونية

٢- وهدف أصيل للصهيونية والشيوعية

قال المرحوم محمد أمين الحسيني: لقد رجعنا إلى الموسوعات الغربية المشهورة (من الموسوعة الشعبية الأمريكية، واللاروس الموسوعي الكبير، وموسوعة كوليرز، والموسوعة البريطانية فوجدنا فيها معلومات عن (الروتاري) ولكن أشملها وصفاً كانت (الموسوعة البريطانية) ص٥٦٩ من الجزء التاسع عشر المطبوع ١٩٦٢ حيث تقول:

الروتاري هي منظمة من رجال الأعمال والمهنيين، أنشئت لتوسيع نطاق الخدمة من أجل الآخرين في جميع المجالات، وقد أسس أول ناد روتاري محام يدعى «بول ب. هاريس» في شباط (فبراير ١٩٠٥) في مدينة شيكاغو، وتعقد اجتماعات دورية متعاقبة فكانت سبباً في التسمية «النادي الروتاري» ثم أنشئت نواد مماثلة في مدن أخرى بالولايات المتحدة، ثم في بريطانيا وإيرلندا..»

علاقات مشبوهة:

وقال: إن هذه المنظمات لا تفلت من يد الصهيونية والاستعمار إذا لم تكن هي الداعية لها في الأصل تحت ستار إنساني أو اجتماعي، وأهداف الماسونية الإنسانية والخيرية والاجتماعية لا تختلف في الظاهر كثيراً عن نوادي الروتاري في العالم، ومع ذلك فقد فضح كثيرون حتى من المنتمين إلى الماسونية علاقة هذه المنظمة العالمية باليهود، وما مثل المنظمة العالمية لحرية الثقافة في سويسرا ببعيد،

فقد أنشأت مركزاً لها في بيروت، وأصدرت مجلة (حوار) التي ساهم فيها كبار الأدباء العرب، ثم تبين أن للمنظمة المذكورة علاقة بالصهيونية والاستخبارات الأمريكية..

إن المسئولين عن نوادي الروتاري يتطلعون دائماً إلى ضم البارزين إلى صفوفهم في المجتمع من مختلف القطاعات، وهؤلاء الأعضاء لا يلتزمون بوجه عام في مجتمعهم، ولا في المجتمعات الأخرى بحركات وطنية تحريرية معينة، وتشجيع (التفاهم الدولي والسلام العالمي) غير المشروطين بالحق والعدل يقومان اليوم على حساب الشعوب المستعمرة المغلوبة على أمرها.

والسؤال: لماذا لم تشمل مساعدات الروتاري الدولية وخدماتها ومواقفها الإنسانية شعوباً وأفراداً من شعوب أنهكها الاستعمار والتخلف الاقتصادي-كما في اريتريا ونيجيريا وكشمير ومسلمي الهند وفلسطين - إلى خدمة (التفاهم الدولي والسلام العالمي)، والكوارث الإنسانية، كالزلازل والبراكين، والمجاعات التي تحل بمناطق مختلفة من العالم كتركيا وإيطاليا والهند وغيرها. لماذا لا تقوم نوادي الروتاري الدولية نحو سكان تلك المناطق المنكوبة ببعض المساعدات الاجتماعية؟!..

البديل:

والواقع أن أندية الروتاري هي البديل للواجهة التي أصابتها ضربات كثيرة في السنوات الأخيرة وهي (الماسونية) بعد أن حققت أكبر أهدافها، وهي حشد جماعات مختلفة لتأييد باطل الصهيونية وخدماتها تحت ستار وهمي مضلل..

فلما جاءت تلك الحملات الضخمة التي وجهت إلى الماسونية وكشفت عن هدفها وحلت في معظم الأقطار الإسلامية جماعاتها كان البديل هو جماعات

أخرى تحمل أسماء مختلفة، وهوايات مختلفة، «كالروتاري»، و«الليونز» و«شهود يهوا»، و«بنات برت» و«نادي الأسود» و«المهاريشي» و«البارتي» (حلقات الرقص) وكلها تجمعات تستهدف تقديم أكبر قدر من المعلومات التي تنقل إلى الجهات المعنية لتحليلها والاستفادة منها، وهذا المعنى واضح وضوحاً شديداً في نصوص

بروتوكولات صهيون.

تقول البروتوكولات: وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب إليها كل من يصير أو يكون معروفاً بأنه ذو روح عامة، هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار، كما أنها ستكون أفضل مراكز الدعاية. وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا، وسنألف هذه القيادة من علمائنا ..

المصيدة والمغامـرون:

وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيون والمصائد لكل الاشتراكيين وطبقات المجتمع الثورية، ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية وليسوا ميالين إلى الجد والعناء، وبمثل هؤلاء الناس سيكون يسيراً علينا أن نتابع أغراضنا ونجعلهم يدفعون جهازنا إلى الحركة ..

وحينما تبدأ المؤامرات خلال العالم فإن بدءها يعني أن واحداً من أشد وكلائنا

إخلاصاً يقوم على رأس هذه المؤامرات، وطبيعي أننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية ويعرف الهدف الأخير لكل عمل على حين أن الأمميين - غير اليهود - جاهلون بمعظم الأشياء الخاصة بالماسونية ولا يستطيعون حتى رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون ..

والأمميون يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية عن فضول محض، أو على أمل نيل نصيبهم من الأشياء الطيبة التي تغرى فيها وبعضهم يغشاها أيضاً لأنه قادر على الثرثرة بأفكاره الحمقاء أمام المحافل..

النجاح والمصالح والعميـــل:

الأمميون (غير اليهود) يبحثون عن عواطف النجاح وتسهيلات الاستحسان، ونحن نوزعها جزافاً بلا تحفظ، ولذا نتركهم يظفرون بنجاحهم لكي نوجه لخدمة مصالحنا كل من تتملكهم مشاعر الغرور ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة، واثقين بصدق عصمتهم الشخصية، وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بشخصه.

وكيف يسهل - من ناحية أخرى - أن تثبط عزيمته وشجاعته بأهون خيبة ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له وبذلك ندفعه إلى خضوع ذليل ..

ومن هذا النص الواضح يتكشف لنا أن اليهودية العالمية تستخدم الماسونية كأداة من أدوات العمل، وأنها قد تعدد المحافل وتنوعها وتغاير بينها للتمويه والحيلولة دون اكتشاف أهدافها .

ولما كانت أهداف الماسونية قد اكتشفت في العقود الأخيرة فقد كان لها أن تختفي وراء واجهات أخرى.

يقول ب.هاريس: مؤسس نوادي الروتاري في كتابه: «طريقي إلى الروتاري نادراً»:

إن الروتاري قام في أكثر من ١٤٧ دولة بينها إسرائيل، وهو أسبق فرع للمنظمة في المنطقة العربية وفي الجزائر ومراكش وتم تأسيس هذه النوادي في الثلاثينيات تحت رعاية الاستعمار الفرنسي ..

ويختلف الروتاري عن النوادي الأخرى في أنه يشترط ممثلاً واحداً عن كل مهنة بينما تسمح نوادي: الكيواني والليونز والاكستشانج بعضوية ممثلين فاكثر لكل مهنة، على أنه كثيراً ما تخرق الروتاري هذه القاعدة لضم عضو آخر مرغوب فيه، ومسألة الجنسية غير ذات قيمة بالنسبة للدين، وتضم أندية الروتاري في أمريكا الكاثوليك والبروتستانت واليهود جنباً إلى جنب ..

ولخدمة من:

وبالرغم من اختلاف أسماء هذه الأندية فإن هدفها واحد، وتنظيمها واحد، وهي توجه أعضاءها إلى خدمة هدف الاقتصاد اليهودي، وكذلك كان موقفها من الحرب العالمية الثانية فقد تعاونت مع الماسون واليهود لخدمة الحركة اليهودية العالمية، ويدخل في هذا النطاق دور الحديث الأسبوعي في خلق رأي عام معين لأعضاء النادي.

ففي اللقاء الأسبوعي لأعضاء النادي يتم بالإضافة إلى الغذاء والتعارف الاستماع إلى الحديث الأسبوعي والتقليد الذي درجت عليه المنظمة هو عدم تقييد الحديث بموضوع معين، وفي هذا ذكاء بارع وبعد نظر يخدع السذج بما يوحيه من سلامة نية المنظمة وعدم حرصها على نوع معين من الفكر أو الثقافة والتصور..

ولكن الذي لا ينبغي أن ينسى هنا هو أن المنظمة هي التي تختار المتحدث وتقوم بدعوته، وهم بذلك يتحكمون بصورة فعالة في طبيعة الحديث واتجاهه باختيارهم الشخص الذي يتحدث إليهم، وقد عبّر للكثير من أعضاء هذه النوادي عن اعتقادهم في أن هـذه النوادي تمثل روح الحضارة الغربية المنبثقة عـن القيم المسيحية..

ليس للدين عندهم أهميـة:

ويتحدد موقف الروتاري من الدين في عدم اعتبار (الدين) مسألة ذات قيمة بالنسبة لاختيار العضو، أو في العلاقة بين الأعضاء، وهذا في حد ذاته موقف ذكي ملتو، يهدف إلى إيجاد تيار من الناس أصحاب التأثير في الحياة العامة يستشعرون بطريقة عملية هوان الدين وعدم تأثيره، ويخلعون عن رقابهم كل توجيه من شأن أديانهم أن تحثهم عليه تجاه الآخرين.

وهو كذلك يجعل رابطة العمل المادية أقوى وأمتن وأجدر بالحرص عليها ومراعاتها من الرابطة الدينية، بل مع تأكيد إهمال الرابطة الدينية وعدم إعطائها أية قيمة أساساً.

والنتيجة لذلك هو توفير الحماية للأقلية الدينية في مجال الأعمال والمهن. وقد استهدف هذا الأقليات الدينية في المجال الاقتصادي الأوروبي والأمريكي وهـم اليهـود .

إذا تذكرنا هذا علمنا أن المقتصد من هذا المبدأ أصلاً هو حماية اليهود في مجال النشاط الاقتصادي، فضلاً عن أن نوادي الروتاري تحرص على تلقين أعضائها قائمة بالأديان المعترف بها لديها مع إعطائها قيمة متساوية فكلها

أديان، وإليك هذه القائمة حسب الترتيب الأبجدي الذي صنفتها المنظمة على أساسه:

(البوذية، المسيحية بكنائسها المختلفة، الكونفشيوسية، الهندوكية، اليهودية، المحمدية)، وهم لا يقولون الإسلام ويحرصون على ربط اسم الدين الإسلامي بشخص النبي عليه الصلاة والسلام لوضعه كغيره مع قائمة الأديان البشرية التي تنسب لأصحابها.

وهل يمكن أن يطعن المسلم في دينه بأشد من هذا، وآخر القائمة (التاويزم) وهي عقيدة بشرية صينية وجدت (سنة ٥٠٠ ق.م.) وتؤمن بأن تحقيق السعادة يتم بالاستجابة لمطالب الغريزة البشرية وبتسهيل العلاقات الاجتماعية والسياسية بين جميع البشر.

وهكذا نجد هذه الفلسفة التي تتبناها منظمة الروتاري تحشر الإسلام باسمه الذي اتخذه له تلاميذ الحقد الصليبي، تحشره مع هذا الخليط الذي تدعوه ديانات معترف بها، ثم تعمل على التهوين من شأنها جميعاً وجعلها من سقط المتاع الذي لا يؤبه له ولا يحسب حسابه في علاقات الناس في أظهر نشاطتهم في هذه الحياة.

حقيقة نوادي الروتاري:

(عن جمعية الإصلاح الاجتماعي بالكويت) ويرى بعض الذين كشفوا حقيقة الروتاري: أن بين أهداف هذه النوادي: إزاحة دور الكنيسة في حياة المجتمع المسيحي، ومنافستها في ميدان الموعظة الأسبوعية، فضلاً عن ارتباط الحديث بالغداء ولقاء الأصدقاء.

وبينما تعد الكنيسة صندوقها لمشاريع العمل الخيري يزاحمها الروتاري

في هذه الغاية لا لوجه الخير وإنما لأهداف أخرى.

ولما كانت هذه الأندية مرتبطة بالماسونية أصلاً وواجهات جديدة لها فإن هدفها هو نفس هدف الأم، هدم كل القيم من خلال هدم المعتقدات الدينية وإبراز الأهواء الجديدة التي تتخذ مسميات الموضات والتقاليع ودعاة الفكر الحر.

وقد تبين من إحصائيات ماردن في كتابه عن الروتاري وإخوته أن من مجموع ٤٢١ عضواً في نوادي الروتاري ينتمي ١٥٩ منها إلى الماسونية مع تأكيد الولاء للمنظمة الماسونية قبل النادي.

كذلك فإن المصادر تؤكد أن المجموعة الأولى التي اشتركت مع بول هاريس في تأسيس الروتاري كانوا أعضاء في المحافل الماسونية، (نادي أدنبرة ببريطانيا، قصر الانتساب إليه على الأعضاء الماسون) .

ويؤكد تشاريس مارون أن الماسون ينقلون نشاطهم إلى هذه النوادي عندما تقوم السلطة بمحاربة حركتهم الأصلية ومنعها من الانتشار، وبذلك تحفظ الحركة الماسونية نفسها خلال نشاط أفرادها في هذه النوادي، وبذلك تبقى على روابط جماعتها حتى تزول تلك الضغوط لتعود إلى حالتها الأولى .

ارتباط عضوي بين الماسونية والصهيونية :

وتجمع الدلائل كلها على أمرين: على الارتباط العضوي بين الروتاري والماسونية، وعلى الارتباط العضوي بين الماسونية والصهيونية، وتتوزع الماسونية على فرعين: أحدهما للصهيونية والآخر للشيوعية، وتهدف الماسونية وكل ما يتصل بها من فروع إلى نفس الهدف الذي تقوم عليه اليهودية العالمية، وهي إعادة المملكة اليهودية في فلسطين، وإعادة بناء هيكل سليمان في القدس مكان المسجد

الأقصى، وقد أطلق عليها اسم البناؤون الأحرار ليرمز إلى بناء هيكل سليمان.

ويقول الدكتور عفيفي حسن إبراهيم: إن الشيوعية فرع من فروع الصهيونية العالمية فهي من أعمال الصهيونية، ويوجد ترابط وثيق بين الشيوعية العالمية والصهيونية العالمية عن طريق الماسونية الكونية الحمراء الخفية وعلى القادة الشيوعيين أن يخضعوا وينفذوا أوامر ومخططات المركز الأعلى للصهيونية العالمية، وغاية هذه الفرقة الرجوع بواسطة اليهود المنفصلين والماسونية إلى روما التي كانت مملكة أجدادهم، ونشر الإباحية المطلقة وبسط جناحي النسر الروماني على العالمين ..

ويقول الدكتور علي حسن إبراهيم: لقد اتفقت الماسونيتان (الملوكية والكونية الحمراء) على هدف واحد:

تقول الماسونية الملوكية بإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، ثم تنطلق إلى باقي البلاد العربية وشمال أفريقيا منطلقة إلى جنوبها، لإخضاعها لدولة إسرائيل لتهويدها، وتقوم الماسونية الكونية بتهويد العالم عن طريق الشيوعية، حيث إنها لا تجرؤ أن تعلن عن هدفها وهو تهويد العالم خشية محاربة العالم لهم والقضاء عليهم وإفنائهم لكل يهود العالم لتخليص البشرية عامة من شرورهم، فاستترت هذه الماسونية الكونية وراء النظم الشيوعية التي أنشأتها بأسلوبها البراق المحبب إلى النفوس الصغيرة والغير واعية، وإلى الطبقات الفقيرة وذلك «لتشويع» العالم كله..

ثم بعد أن يتم لها ذلك ، تقوم علناً وبجرأة وبدون خشية ، بإعلان حكم اليهودية العلمية علي العلم كله دون منازع أو معارض وتعلن تهويد العالم وتعيين أحد ذرية أسباط إسرائيل ملكا علي العالم كله يديره بواسطة حكومة عالية يهودية، كأمثال ماركس وهرتزل ولينين وزنجنبل ونورد، وكلهم من أقطاب الصهيونية الشيوعية

الذين عملوا على هدم الناموس الديني الطبيعي السياسي والعام لكي يبنوا أساس الاشتراكية الفوضوية.

أسرار هم تكشفهم:

يقول الجنرال جواد رفعت (في بحثه عن أسرار الماسونية) إن الماركسية وليدة الماسونية لأن مؤسسها كارل ماركس وأنجلز هما ماسوني الدرجة الحادية والثلاثين، ومن منتسبي المحفل الإنكليزي، وبفضلهما صدر البيان الشيوعي المشهور.

وقالت مجلة (لاتونيا ١٨٩٤) أن الماسونية وجدت في المبادئ الاشتراكية خير معوان لها، فلابد من معاضدتها، وقال: إن أكبر عادات الماسونية مقتبسة من معبد سليمان وإن أكثر الإشارات والرموز عبرانية. وتستهدف الماسونية أن تحل محل الأديان، وأن السيطرة على الشبيبة هي أولى غايات الماسونية وأهدافها، فهي تقول: لابد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين، والماسونية تستعين بالفرق والأندية الرياضية والجمعيات الموسيقية لإدامة نفوذها في أوساط الشبيبة. وقال إن الماسونية خطة لتمكين اليهود من الاستيلاء على العالم.

الوجه والقناع:

وإن الماسوني وإن لم يكن يهودياً بالولادة إلا أنه رجل متهود ، وقال بنيامين دزرائيلي ١٨٤٤ : إن الذين يديرون دفة السياسة في العالم ليسواهم الذين في دست الحكم ظاهرياً وإنما هم أولئك الذين يكمنون وراء الكواليس ، وأشار إلى أنه في مؤتمر للمحفل الأمريكي الملسوني ١٩١٦ قرر فيه خمسة من اليهود أصحاب

الملايين خراب روسيا القيصرية بإنفاق مليار دولار وتضحية مليون يهودي لإثارة الثورة في روسيا وهؤلاء الخمسة الذين تبرعوا بالمال (إسحاق موينمر ،شيستر وليفي وردن شيف) وقال هرتزل : إن المحافل الماسونية المنتشرة في كل أنحاء العالم تعمل في خفية كقناع لا غراضنا ، لقد أوقعناهم في محافلنا كي نذر الرماد في عيونهم .

هذا ويختلف تنظيم الروتاري عن التنظيم الماسوني في أن قيادة الحركة الماسونية ورأسها مجهولان علي عكس نادي الروتاري الذي يمكن معرفة أصوله ومؤسسيه و إن اتفقت التقاليد الخاصة بالعمل وموقفها من مسألة الدين والوطن ، وخاصة مما يسمونه العلاقات الإنسانية علي دعم أساس مصلحة مجموعة مختارة من الناس وخارج نطاق الروابط الدينية والوطنيه . كذلك فإن هذه المنظمات جميعها تتعاون فيما بينها ، وهي بمثابة مصيدة لضم أعضاء مختارين مهيئين من خلالها للحركة الماسونية .

أما الصلة بالصهيونيه وإسرائيل فقد انكشف أمرها باجتماع أنديه الروتاري الدوليه (مايو ١٩٦٤) في بلدة رامات غان في فلسطين المحتله في مظاهرة كبري لتاييد إسرائيل.

هذه هي أهداف الروتاري:

وبالجمله فإن هذه النوادي:

١- تعمل في نطاق المخططات اليهوديه .

٢- سيطرة الماسون عليها ظاهرة .

٣-اتفاقها في روحها مع الماسونيه .

ولقد تكشف للدول الاسلاميه في السنوات الاخيره مدي هذا الخطر الذي يعمل علي الوصول الي جمع معلومات تساعد اليهود في تحقيق أغراضهم : اقتصاديه وسياسية وصناعية ، وتستهدف نشر عادات معينه تعين علي التفسخ

الاجتماعي ، وتمييع العادات والتقاليد وزرع تقاليد جديدة باسم الموضة مرة وباسم الثورة علي التقاليد ، وبالجملة إذابه المسلمين في الاممية فينصهرون في أسلوب العيش الغربي وبذلك تضيع طوابعهم الذاتية وروحهم الخاصة وبذلك ينفصلون عن تراثهم الإسلامي وموروثهم الثقافي .

ولقد كان من نتائج اليقظة أن أعلنت ١٥٠ منظمة إسلامية اجتمعت في مكه المكرمه خطر النشاط الماسوني في العالم العربي والتحذير من التعامل مع المحافل الماسونية في العالم وكشفت عن أن الكثيرين من المشتغلين بالسياسة العالمية هم من أتباع المحافل الماسونية.

وقد تبين سيطرة هذه المحافل على المؤسسات السياسية العالمية الكبرى، كذلك فقد وجه تحذير شديد إلى الطلاب المسلمين الذين يدرسون في معاهد الغرب وجامعاته من أخطار الماسونية وواجهاتها الجديدة باعتبار أنها حركة صهيونية شيوعية تتستر خلف شعارات ثقافية وإنسانية.

وكذلك فإن أندية الروتاري هي شبكة عالمية مقرها نيويورك مثلها مثل المحافل الماسونية.

كذلك أصدر مؤتمر المنظمات الإسلامية العالمية صيف ١٣٩٤ هجرية بمكة المكرمة قراراً بأن تعامل كل من نوادي الروتاري والليونز وحركات التسلح الخلقي وإخوان الحرية وشهود يهود معاملة الماسونية.

والروتاري يلتزم أعضاؤها بالولاء للعضوية وأخوة الأعضاء دون تقيد بدين أو مذهب أو ولاء الدولة. وزميل العضوية – حتى ولو كان من دولة عدوه – مفضل في العون والخدمات على كل الانتماءات الأخرى. ومن هنا كان شبههم بالماسونية، التي تلغي الانتماء والولاء الدينيين: ﴿ بَعْضُهُمْ أولياءُ بَعْض، ومَنْ يَتَولَّهمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ، إنَّ اللَّهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالمينَ ﴾، فولاؤهم وانتماؤهم ولاء نفع مبرأ من القيم والمبادئ.

(٦٥)
حركة تحرير المرأة

استهدفت حركة تحرير المرأة – التي تحمل لواءها أتباع النفوذ الاستعماري في العالم الإسلامي – تحقيق مجموعة من الأهداف الخطيرة، ترمي إلى هدم الأسرة وتدمير المجتمع، ودفع المرأة إلى أن تكون أداة للأهواء والرغبات، وإخراج المرأة عن مكانتها ورسالتها، وتحطيم القيم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية في شأن العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين الأجيال المتتابعة وبين الشباب والفتيات، بل إن دراسة مستوعبة لأهداف هذه الحركة لتكشف في وضوح أن كل مقدرات النفوذ الأجنبي في هدم المجتمع الإسلامي، إنما تتركز في العمل وراء هذا المخطط الذي يأخذ اسماً لامعاً براقاً من أسماء الأضواء.

ذلك أن الهدف من تحرير المرأة في مفهوم المخططات الغازية إنما يرمي في الحقيقة إلى استعباد المرأة وتدمير وجودها الشخصي وكيانها النفسي والاجتماعي - وتحويلها إلى أمة مستعبدة بعد أن حررها الإسلام، وأعطاها السياسية والاجتماعية والمالية، على نحو لم تعرفه القوانين والشرائع القديمة والحديثة، ولما تصل إليه بعد وقد حملت رياح السموم معها مفاهيم كثيرة مغلوطة وفاسدة في شأن علاقة المرأة بالرجل والمجتمع والأسرة والنسل، أريد بها تحويل المرأة عن طبيعة فطرتها ورسالتها ودفعها إلى طريق مظلم مضلل وخاصة فيما يتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة، والقوامة والاختلاط والأمومة واللباس والعمل.

الدعاية والوسائل:

ولما كانت هذه المفاهيم الخاطئة، قد انطلقت سنوات طويلة من العبث من خلال

القصة والمسرحية، ومن خلال الإذاعة والصحافة قد خدعت الكثيرين والكثيرات حتى ظن القوم أنها مسلمات وحقائق، ومن هنا نرى تلك المحاولة الضخمة في معارضة العودة إلى الفطرة وإلى المفاهيم الأصيلة، توجهها قوى أجنبية تحاول أن تجند لها قيادات مضللة، تستمد توجيهها من خارج نطاق العالم الإسلامي، من القوى الاستعمارية والصهيونية والشيوعية التي تعول كثيراً على حركة تحرير المرأة، وترى فيها ركيزة خطيرة لتدمير المجتمع الإسلامي وأهدافه، وإنه لمن العجب أن تقود مظاهرات معارضة عودة المرأة إلى الفطرة، نساء لسن مسلمات ولا يعرفن مسئولية المجتمع الإسلامي ولا مفاهيم دينه، وهن يعرفن أن تجربتهن في الغرب قد فشلت ولكنهن مصممات على تدمير المجتمع المسلم.

الحاجز المكسور:

ولعل أخطر ما تواجهه اليوم في البلاد العربية والإسلامية: تلك المحاولة التي ترمي إلى كسر الحاجز القائم بينها وبين الرجل، حاجز العرض والعفة والخلق الذي يحمي المرأة من السقوط والانهيار، إن هناك محاولات ضخمة من خلال المسرح والسينما والقصص، والكتاب النسائيين، تهدف كلها إلى تحطيم هذا الحاجز حتى تسقط الأسرة وتتحطم الأمومة، وينتشر طابع الخيانة الزوجية – على أساس أنه عرف من أعراف المجتمع – ولا ريب أن المرأة المسلمة اليوم، التي عرفت حقها في القرآن ورسالتها في الإسلام، يجب أن تعرف أبعاد هذه المؤامرة حتى لا تخدع بمعسول الكلام.

ولعل أول ما يقدم لها في هذا الشأن هو تجربة المرأة الغربية نفسها، في مجتمعها المعاصر، وهي تجربة قاسية عنيفة، بعد أن انحرفت الحضارة الغربية بالمرأة انحرافاً طائشاً عن المسار الحضاري السليم، حتى وصفت بأنها تقوم بذلك بعملية انتحار حقيقية، وقد أكد علماء الغرب المنصفون أن أنقاذ المجتمع لا يتم إلا

بالقضاء على أسباب الانحراف، التي أدت إليها هذه الفاجعة وتبدو عوامل الانحراف في الظواهر الآتية:

١ - انتشار أقراص منع الحمل دون رقابة، أدى إلى انتشار الصلات الجنسية المحرمة (الزنا) دون تحفظ ولا خوف، فتزعزعت أركان الأسرة ولم تعد فتاة الحضارة الغربية - ومثلها الشباب - ترى أن في الزواج وتكوين الأسرة ضرورة اجتماعية.

٢ - انتشار ظاهرة الهيبية والخنفسة وانتشار الأزياء القصيرة الفاضحة والسماح دون تحفظ بالمزيد من الإباحية في السينما والمسرح والصحافة.

٣ - انتشار المخدرات بجميع أنواعها وأشكالها، أدى إلى تورط شباب الحضارة الغربية وفتياتها في الجريمة والإباحية، وأدى إلى فقدان الثقة بالمثل والأخلاق، فأصبحوا يجاهرون بل يفاخرون بمعاداة المجتمع والقانون.

الطاقة الكبرى:

وقد أعلن البروفسور «يواكيم هاتيه» بأن الأمراض الجنسية قد زادت حوالي خمسين في المائة في المجتمعات الغربية عما كانت عليه قبل عشر سنين، وإن ٧٠ مليون مصاب بالسيلان القيحي بين ذكر وأنثى في الدول الغربية المتقدمة، هذا فضلاً عن انتشار الأمراض الجنسية بين طلاب وطالبات المدارس المختلفة، كذلك أشارت الأبحاث إلى أطفال القرن العشرين البؤساء الذين هجرتهم أمهاتهم؛ وأضافت إلى الهجر عقوبة أخرى هي اليتم، وما دام الطفل محروماً من أمه فهو طفل يتيم، ولا يمكن أن يعوضه عن افتقاد الأم أية أم أخرى صناعية أو مستعارة، كذلك كان أطفال العصر الذين خرجت أمهاتهم للعمل أقرب إلى اللقطاء واليتامى. فالأم تريد بعد العمل أن تتفرغ للهوها، ولذلك فقد ألقت الأبناء في أحضان الخادمات الجاهلات القاسيات أو دور الحضانة التي أصبحت مهنة تجارية رابحة وليست دوراً للتربية.

تقرير دولي ومؤامرة خطيرة:

بل إن التجربة الغربية التي يجب أن توضع أمام المرأة المسلمة قد وصلت إلى أقسى من ذلك، فقد أشار تقرير عصبة الأمم ١٩٢٧، إلى أن هناك طائفة من الفتيات يجد سماسرة الأعراض بينهن مورداً عظيماً لا ينضب، وهذه الطائفة من الممثلات والراقصات وفتيات المسارح والحانات وأمثالهن، ومما يدعو إلى الأسف أن كثيراً من مديري تلك المسارح والحانات، يشترطون في الفتيات اللاتي يستخدمونهن. أن لا يرفضن بيع أعراضهن إذا طلب منهن ذلك، هذه هي الصورة الغربية التي يجب أن تكون أمام المرأة المسلمة، وهي تقرر موقفها من هذه الحركة الضالة التي تقودها القوى الأجنبية في بلادنا، ولقد كانت حركة تحرير المرأة في أوائل هذا القرن مؤامرة خطيرة استهدفت - كما وصفها الأستاذ محمد فريد وجدي - تدهوراً مروعاً في الآداب العامة وانتشاراً مفزعاً لمبدأ العزوبية وأصبحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض، وهرب الشابات من دور أهلهن.

مهزلة اليمة:

وقد أعلنت الدكتورة (بنت الشاطئ) ما تكشفت عنه حركة تحرير المرأة مما أسمته «مهزلة أليمة موجعة» وهي: «أن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم، وهم يوهمونا أننا نعمل ويعملون معنا لحسابنا، ذلك أن الرجال رتبوا لنا الخروج زاعمين أنهم يؤثروننا على أنفسهم، ولكنهم كذبوا في هذا الزعم فما أخرجونا إلا ليحاربوا بنا السأمة والضجر في دنياهم، إن أقسى ما نلقاه في محنتنا هو شعورنا بما انكشف من ضعف الرجال وصغارهم، ونحن شقيات بذلك، فكان منه مرارة موجعة».

وأشارت الدكتورة عائشة إلى هذا الانحراف فقالت: «إن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمناً للتطور، ويكفي أن أشير في إيجاز إلى الخطأ الأكبر الذي شوه

نهضتنا، وأعني به انحراف المرأة الجديدة عن طريقها الطبيعي، وترفعها عن التفرغ لما تسميه «خدمة البيوت وتربية الأولاد»، ذلك لأن الأمة لم تخرج فتياتها من دورهن لتسد بهن فراغاً كانت تشكوه في ميادين الأعمال، وإنما أرادت أن يجد فيهن الأمهات المستنيرات المثقفات وها هي اليوم ترى البيوت منهن مقفرة خلاء، أما الأبناء فتركوا للخدم، وبلغ من سوء ما وصل إليه الحال: أن نادت مناديات بحذف نون النسوة من اللغة، كأنما الأنوثة نقص ومذلة وعار، وأهدر الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصيلة لنا، حتى سمعنا من يسأل: كيف تعيش أمة برئة معطلة؟ يقصد بالرئة المعطلة: هؤلاء الباقيات في بيوتهن يرعين الأولاد، وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها في البيت ووظيفتها في الخارج.

مم تتحرر المرأة؟

وقد كشف الكثيرون عن أن هذه الحركة للتسوية ما هي إلا مناورات مضللة، وقال الشيخ (**محمود أبو العيون**) رحمه الله: إن المرأة فهمت الحرية فهماً معكوساً، وفي ظل الحرية الزائفة تحررت المرأة من الآداب والأخلاق، ورأت فيها قيوداً يجب تحطيمها وفي ظل هذه الحرية الزائفة داست المرأة أقدس واجباتها كزوجة وأم وربة منزل، فتهدمت تلك الأصول الثلاثة التي تبنى عليها حياة الأسرة وسعادة المجتمع.

وقالت السيدة (**لبيبة هاشم**): أو لسنا نرى عيوب المدنية الأوربية بدأت تجر أذيالها، فتكنس آثار الحشمة في طريقنا، أو لسنا نشعر بريحها السموم تهب من الغرب فتذرو في عيوننا رماداً تعمي به أبصارنا، ما أهمية الشعر مجزوزاً أو مترسلاً أو معقوصاً أو مضفوراً، إذا كانت الرأس لا تحوى عقلاً وعلماً.

بل إن قاسم أمين نفسه بعد أن كتب كتابه تحرير المرأة والمرأة الجديدة، قد غيّر رأيه إذ رأى النتائج العكسية لما دعا إليه، فقال في تصريح نشرته جريدة الظاهر (اكتوبر ١٩٠٦).

«لقد كنت أدعو إلى اقتفاء أثر الترك بل الأفرنج في تحرير نسائهم، وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهن إلى تمزيق الحجاب وإلى إشراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم، وولائمهم ولكنني أدركت الآن خطر هذه الدعوة، بما اختبرته من أخلاق الناس، فلقد تتبعت خطوات النساء في كثير من الأحياء، لأعرف درجة احترام الناس لهن، فرأيت من فساد أخلاق الرجال - بكل أسف - ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي، استنفر الناس إلى معارضتي، لهذا لا أجد الوقت مناسباً للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذي قصدته من قبل».

تعليم الفتاة المبتور والزهو المغرور

وهذا كله يعني فساد هذه الدعوة التي أشعلها الاستعمار ليكسب من ورائها تدمير المجتمع الإسلامي، والسير بها إلى الغايات التي يرجوها، وآية ذلك أن تعليم الفتاة المسلمة مازال ناقصاً ومبتوراً، ولا تجني منه الفتاة إلا غروراً وزهواً، وأنه فشل فشلاً تاماً في تخريج زوجة صالحة، تدير شئون بيتها وتربي أطفالها؛ بل إنه لم يعلمها ما هي رسالتها الحقيقية في المجتمع.

وقد استتبع الخطأ الواحد عدة أخطاء:استتبع تلك الحركة الضالة التي استهدفت المساواة والاختلاط، والاستهانة بمسئولية المرأة ومهمتها الأساسية، دفعها إلى مجال الأهواء. فقد فتحت لها بيوت الأزياء وأعدت لها وسائل الزينة

والإغراء والدعاية، وقام على ذلك كله اليهود وخصوم الإسلام، وكان وراء هذا الدور غايات خبيثة.

اليهود وخصوم الإسلام وراء استدراج المرأة لإفسادها:

وما تزال المرأة سلعة يلعب بها يهود العالم وقد جعلوها وسيلة للكسب والدعاية، واقتحمت موضات اللباس المختلفة كل البلاد؛ وفرضت نفسها على المجتمعات الإسلامية.

واخذت بقوانين الكنيسة:

بل إن بعض الأقطار الإسلامية خلطت في قوانين الطلاق مواد من قوانين كنسية لا إسلامية، حدث هذا في الوقت الذي تراجعت فيه الكنيسة عن الزواج الكاثوليكي؛ أي عن منع الطلاق تحت ضغط الحاجة؛ وفي إيطاليا قلعة الكاثوليك أقر برلمانها إباحة الطلاق، وما أن صدر القانون حتى جوبهت المحاكم بمليون طلب طلاق ومازال المسلمون يخضعون لمؤامرات الغرب في تحديد النسل، بينما رفضت الكنيسة ذلك؛ ومازال أسلوب تعليم المرأة وتربيتها خاضعاً وتابعاً للأساليب الغربية وسيظل تعليم المرأة المسلمة عبثاً ما لم يهدف إلى أمور ثلاثة:

١ - تربية أنوثتها فهي هبة الله الكبرى.

٢ - تربية أمومتها فهي جوهر ذاتيتها.

٣ - تربية ذوقها فهو مفتاح شخصيتها.

الحرية والكرامة:

لقد أعطى الإسلام المرأة المسلمة منذ بزغ فجره حرية وكرامة، ومساواة لم تمنحها لها أية حضارة أو شريعة سابقة عليه، فجعل لها حق الامتلاك والتصرف والبيع تصرفاً مستقلاً عن الرجل، وجعل لها حق العلم فريضة، وأتاح لها أن تعمل في مجال التربية والتطبيب ما تشاء، مادامت تحفظ شخصيتها ودينها وكيانها، وقد أحاط الإسلام رسالتها الأساسية، وعملها كله بقيم أساسية عامة، في مجال الأخلاق والدين، تجرى من خلالها حركة المرأة في قدر كبير من التحوط لها، والمحافظة عليها ورفعها إلى مجال الكرامة والكمال، وحماية لها من ذوي الأغراض والأهواء، وأبرز ما يوصي به الإسلام ودعا إليه المرأة، هو المحافظة على ذاتها وعرضها، وصونه عن غير من هو أحق به حلالاً وهو الزوج، والكرامة في إبداء الزينة لهذا الرجل المصاحب في الحياة بحق الشرع، فليس لغيره أن يطلع على زينة المرأة أو جمالها، أما بالنسبة للناس جميعاً فإن كرامتها تقتضيها أن تواجههم في ملابس لاتشف ولا تكشف ولا تصف، إيماناً بأنها ليست أداة من أدوات الزينة، أو المتعة لكل الناس، وليست معرضاً للأزياء أو مصدراً من مصادر الترف لكل ناظر، وهكذا حفظ لها الإسلام كرامتها في مواجهة الناس، فهي حين تلقاهم تلقاهم في سمت كريم، ولغة واضحة ﴿ فلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الذي في قَلْبِهِ مَرَض وقُلْنَ قَوْلاً مَعْروفاً ﴾ (الاحزاب) ومشاركة في العمل قوامها العقل والفهم والذوق، وليس قوامها الإغراء بالملبس المكشوف أو الكلمةالرخية.

حقوق وواجبات المرأة

ومن واجب المرأة أن تعرف حق ربها عليها، وحق زوجها وحق أهلها، فتؤدي هذه الحقوق بالصلاة والصدقة والسؤال والزيارة، ومن واجب المرأة أن تثقف

نفسها ثقافة نسوية خاصة وثقافة علمية عامة، فلها مجال في الثقافة بالإضافة إلى المجال العام، يكشف عن دورها في بناء الأسرة وتربية الطفل ورعاية الزوج، والقيام على مختلف الشئون المنزلية أداءً أو إشرافاً على من يؤديها.

ومن حيث يريد الإسلام لها من حقوق وواجبات ومجال عمل وطريق حياة، إنما يريد أن يحررها فلا تكون أمة أو عبدة أو أداة للرجل، على النحو الذي يفهم في ظل الحضارات الوثنية القديمة، أو الذي تحاول أن تصوره الحضارة الحديثة، فالرجل لا يعجب إلا بالفتاة ذات الكرامة والاستعلاء عن الأهواء، الفتاة التي تعرف واجبها وحق الله عليها، وحين تعتصم الفتاة بالإيمان والكرامة وسلامة الشخصية، إنما تدفع عنها كثيراً مما يواجهها في الحياة اليوم من أخطار وأسواء.

هدية الإسلام:

فالتعليم وحق المرأة في العمل موجودان في الإسلام، وهو الذي أهداهما إلى الحضارة الغربية أصلاً، ومن حقها أن تمارسهما في حدود قيمنا ومفاهيمنا، وعلى الفتاة أن تعرف واجبها كاملاً وأن تسترشد فيه بهدي النماذج الكريمة التي قدمها تاريخ الإسلام للمرأة المؤمنة المجاهدة في سبيل الله، بانية الشباب الكريم النافع وصانعة الحياة الطيبة، ومؤازرة الرجل في عمله ومشاقه، ومرتفعة فوق مطامع الناس وأهواء المجتمعات ومحاولات الذين يريدونها رقيقاً من حيث جعلها الله ذات سيادةوكرامة.

قسمة الوظائف الطبيعية:

ولقد شاء الله عز وجل للجنسين أن يعملاً ويعمرا الحياة، وقسم بينهما الأعمال تقسيماً يصلح من كل لشخصيته وطبيعته، وتكوين كل منهما للدور الذي يقوم به،

وجعل من حق المرأة العمل بحيث لا يتعارض مع تنشئة الأبناء والحفاظ على كيان الأسرة، فإذا تعرض بناء الأسرة للخطر، كان على المرأة أن تحفظه وأن تتنازل عن حقها في العمل الخارجي الذي يمكن أن يؤديه غيرها.

والمرأة المسلمة بعامة إنما تستمد مصادر نهضتها، من خلال القيم الأساسية التي رسمها الإسلام والقرآن وطبقها النبي الكريم ﷺ ، بما يفتح لها طريق الكرامة وحسن الخلق، وبناء شخصية المرأة على أساس من الإيمان والقدوة الحسنة والتربية العملية، بما يحررها من أقسى قيد يحاول النفوذ الأجنبي أو يوقعها فيه، وهو قيد (الاستعباد) والعودة إلى حياة الإماء والعبودية لشهوات الرجل، بأن تكون أداء للأهواء الجامحة التي تريد أن تدمر المجتمع الإسلامي، فليست المرأة أداة ولا متعة ولا صنيعة أهواء الرجال، وإنما هي شخصية كاملة عالية الكرامة، لها رسالتها ودورها ومهمتها، ولنتذكر أن المرأة على طول تاريخ الإسلام كانت تعمل وهي تحمل معها قيم الإسلام، ولم تتخل عنها وبذلك استطاعت أن ترسم صورة شريفة لدور المرأة، في بناء الحياة الإنسانية.

أمانة الفكر الإسلامي:

هذه أمانة الفكر الإسلامي إلى ذات الرداء الأبيض اليوم، ونحن نشاهد النهضة الجديدة التي تقوم على أساس التماس المرأة المسلمة لمفهوم الإسلام الحقيقي، لقد كشفت الدراسات الجادة عن مآخذ اجتماعية خطيرة في حياة المرأة العربية والمسلمة ترجع إلى الثقافة الوافدة، التي تعارض مفهوم الإسلام الأصيل فالمرأة العربية المسلمة تتأسى بصورة المرأة في كتاب ألف ليلة وليلة الدخيل والزائف، وتجعل من صورتها فيه نموذجاً لها، وهو نموذج الجارية التي لا يهمها إلا لباسها ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل، تعيش بغرائزها وعليها أن تكون جميلة وأن تسلي الرجل وأن تطهو له الطعام أشبه بدمية: مثلها الأعلى

الأناقة المسرفة، وبذلك جحدت عطاء ربها وجحدت المجتمع وجحدت ذاتها.

ولقد ساقتها المجلات - التي تسمى نفسها نسائية - إلى أن تكون أشبه بعارضة أزياء، لا هدف لها إلا ملابسها وحقائبها وأحذيتها، وهي قد أضعفت فيها الحدود والضوابط التي تفصل بين المرأة المؤمنة وبين المرأة الخليعة، فهي لا ترى بأساً في أغلب الأحيان من أن تحترف الغناء والتمثيل وأن تحطم نطاقها الشرعي الشريف، لقاء عطاء مادي لا قيمة له أمام الكرامة والعرض.

كذلك فهي مخدوعة بكل دعوة إلى العمل والسفر، حتى ولو تكشف أن هذا العمل ليس إلا في مجالات بعيدة عن العفة والكرامة تغريها على هذا أفلام لامعة، لا تجعل لها مقياساً إلا ما تحصل عليه مادياً، مهما كان نوع العمل، ومهما كان ما تتعرض له من سوء، ذلك لأننا عجزنا عن أن نربي في المرأة المسلمة الغيرة والكرامة والحفاظ على العرض، والارتفاع به فوق كل المغريات وكل المعطيات ومن ذلك مقياس الأجر في موازنة تربية الطفل، فهل يمكن أن يوزن أي أجر يعطى للمرأة، تنفق اغلبه على أزيائها وملابسها بما يفقده طفلها من رعاية، عندما تدعه في يد الخادمات القاسيات، وهناك ظاهرة الخسارة التي تتعرض لها بلادنا، بإنفاق ملايين الدنانير كل عام، على شراء الثياب والأحذية والعطور والمساحيق وهذا باب آخر من أبواب الشر يضاف إلى الخسارة المتعددة الوجوه، التي فتحت أبوابها فتنة تحرير المرأة.

ضرب الاقتصاد من خلال المرأة:

تقول الدكتورة (نازك الملائكة): إن معامل الأقمشة في الغرب المستعمر تضحك منا، وتستعملنا نحن النساء في ضرب الاقتصاد القومي في العالم العربي، ومعامل الأقمشة لا أخلاق لها وآلاتها الرهيبة بلا قيم ولا إنسانية، إنها تريد أن تبيع وتبيع، وليس يهمها في سبيل ذلك أن تقتل روح الإنسان وتذل كرامته، وهذه

المعامل الشريرة الجشعة هي التي تغير الأنماط كل عام فتصنع دفاتر لنماذج جديدة، وهو ما يسمى بالموديلات التي تغمر أسواقنا مثل مجلة «بوردة» اليهودية وسواها ، وهذه المجلات تفتك بروح المرأة فتكاً ذريعاً، يؤدي بنا إلى الخراب الاقتصادي الأكيد فهي تأتي بخبراء للملابس يخيطون الأقمشة الجديدة في أنماط معينة ثم تقيم معارض للأزياء، فتأتي بفتيات جميلات تلبسن هذه الملابس، وتعرض أجسادهن على العيون، كما كانت الجواري يعرضن في سوق النخاسين وقد أصبحت أخيراً تغري الإذاعات المرئية بتصوير حفلات الأزياء ونقلها، ليراها الملايين، وينتقل الفساد إلى داخل البيت العربي نفسه.

عوامل الانهيار:

وبالجملة فإن المرأة تنهار أمام هذا الغزو الفاضح، تحت تأثير تشجيع الصحافة والإذاعة وكتاب القصص، وكل هذا يدعو إلى التساؤل: هل خضعنا للتخطيط الوافد، الذي يدفع المرأة المسلمة إلى أن تنهار أمام الغزو الغربي المادي، وبذلك يسقط العالم الإسلامي كله من وراء ذلك لقمة سائغة في أيدي القوى المسيطرة على هذه الأعمال، إن أغلب معامل العطور والمساحيق والأقمشة، إنما يملكها اليهود في الغرب، هؤلاء الذين يسعون إلى السيطرة على العالم، ويحكمونه بعد أن يدمروا أخلاقنا، وأسلوبهم في السيطرة ذو شقين:

أولهما: الاستيلاء على المال في كل بلد ينزلونه.

الثاني: هدم الأخلاق والقيم والمثل والمعتقدات.

وقال قائلهم:

ولقد أشار هنري فورد في كتابه «اليهودي العالمي» بأن اليهود من أجل تحقيق غايتهم، قد سيطروا على ثلاثة أشياء: البنوك للربا، والسينما لتقديم مفاهيمهم

المسمومة، ومعامل الملابس والمساحيق والعطور، وسواها من مستلزمات (المودة)، فكلما غيروا الأنماط أكثرت النساء شراء وإنفاقاً، وتسربت الأموال إلى جيوب اليهود وهم يحققون أيضاً قتل الأخلاق، ويشيعون التفسخ وينشرون الشهوات، وإنما الملابس القصيرة ابتكار يهودي فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة؛ ليزول الحياء وتنتشر الرذيلة ويشيع الاختلاط غير البرئ بين الشبان والشابات، وتضيع طهارة الفتاة؛ وتتهدم الأسرة، وتنتشر الأمراض الجنسية، ويبتلي الأطفال وينشأ جيل ضائع موبوء مريض، والمرأة المسلمة تسعى إلى حتفها وحتف أمتها دون أن تدري، وقبل أن تفيق من أحلامها وأهوائها.

واجب المرأة المسلمة:

ومن هنا فإن على المرأة المسلمة أن تنفض عن نفسها تلك الأكاذيب المضللة التي خدعت بها، من مثل القول بالمساواة بين الرجل والمرأة، أو الاختلاط، وأن تعلم أن وظيفة المرأة الأساسية هي بناء الأسرة، وإنشاء الجيل الصالح، وأن تقدم تربية أبنائها على كل عطاء مادي، أو عمل لا يناسبها، ولا يحفظ كرامتها، أو ليست في حاجة إليه، وعليها أن تعتصم بالغيرة والمروءة، وأن تحمي نفسها من أهواء المفسدين الذين يتاجرون بالجنس، ويسترقون النساء باستغلالهن في دور اللهو والفساد، وأن تحرص على اللباس الكريم المحتشم، وستر ما يجب ستره كما عليها أن تمتنع عن التبرج أو الترجل وتقليد الرجل، في الكلام أو المشي أو شرب السجائر، وأن يعلمن بأن الاختلاف التكويني بين الرجل والمرأة هو خلاف بيولوجي يجعل لكل منهما وظيفة غير وظيفة الآخر.

اختلاف فسيولوجي:

وقد أشار الدكتور إليكس كاريل: إلى أن الاختلاف بينهما ليس في الأعضاء التناسلية وحدها، ولا في وجود الرحم والحمل بل هو اختلاف ثابت ومتين في

الأنسجة، وتلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة، كذلك فإن هناك خلافاً أساسياً في تكوينها العضلي، ومن هنا فقد أخطأ الجاهلون في أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً، أو يمنحا سلطات واحدة أو مسئوليات متشابهة، ولا ريب أن ما قاله كاريل، عن الفوارق بين الرجل والمرأة من حيث التكوين العضلي والعصبي والعقلي، إنما يؤكد ما سبق إليه القرآن الكريم قبل أربع عشر قرناً حين قرر ﴿ وليسَ الذَّكرُ كالأنثى ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أوَ من يُنشأُ في الحِلْيَةِ وهو في الخِصَامِ غيرُ مُبِين ﴾ (الزخرف: ١٨).

ودعوة مخلصة:

لقد دعت النساء الأوربيات اللائي أسملن «استان رابيتيش ،إنيبيزانت، إيفلين كوبلاد» المرأة المسلمة إلى الحفاظ على مهمتها ووظيفتها والحفاظ على شخصيتها، والاحتراز من أخطار الاختلاط في الوظائف والأعمال والأسواق، وإلى الامتناع عن الأزياء غير المحتشمة، ونعي هؤلاء عليها انصرافها عن مسئولياتها في تربية الأولاد ورعاية الزوج وكيف أن المرأة تتمتع في ظل الإسلام بكرامة شخصية وحقوق إنسانية لم تتحقق للنساء في أوربا وأمريكا حتى الآن، وأن العالم لن يجد له طريقاً إلا التماس مفهوم الإسلام ليخرج من أزمته.

خطة المؤامرة

ولكي نعرف خلفيات هذه القضية الخطيرة يجب أن نذكر شيئاً مهماً هو أن كتاباً ظهر في مصر عام ١٨٩٤ (أي بعد الاحتلال البريطاني بعام واحد) لمحام مصري موال لكرومر والنفوذ الأجنبي يدعى «مرقص فهمي» تحت عنوان «المرأة في الشرق» صوّر فيه خطة الاستعمار في المطالبة بتحقيق خمسة أغراض:

١ - القضاء على الحجاب الإسلامي.

٢ - إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها.

٣ - تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي.

٤ - منع الزواج بأكثر من واحدة.

٥ - إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين.

وكان هذا المخطط هو النواة للنفوذ الأجنبي الذي تدري على ضوئه «حركة قاسم أمين» و«هدى شعراوي» ذلك أنه لم تمض سنوات خمس حتى ظهر كتاب «تحرير المرأة» فكان ذلك خطوة على الطريق ظن البعض سلامتها، فما هي هذه الخلفيات لهذا الحدث الخطير؟

أولاً: كتب داود بركات رئيس تحرير الأهرام بجريدته الصادرة في ٤ يناير ١٩٢٨ مقالاً:

قال فيه: إن قاسم أمين قرأ كتاب الدوق داركور «المصريون» ورد عليه بكتاب باللغة الفرنسية وفنّد اتهاماته.. فلما ظهر هذا الكتاب وصف بأنه لم يكن في صف النهضة النسائية فقد رفع الكتاب من شأن الحجاب وعدّه دليلاً على كمال المرأة، كما ندد بالداعيات إلى السفور وقد رأت فيه الأميرة نازلي فاضل تعريضاً بها. ثم استطرد يقول: «وكانت الأميرة نازلي فاضل ولها صالون يحضره سعد زغلول ومحمد عبده وجماعة من الطامحين إلى تولي السلطة في مصر تحت قيادة النفوذ البريطاني وبرعاية اللورد كرومر».

ويقول داود بركات متابعة:

وقد أشير على جريدة المقطم - وهي لسان الإنجليز في مصر ذلك الوقت - أن تكتب ست مقالات عن الكتاب تفند أخطاء قاسم في هذا الاتجاه، ودفاعه عن الحجاب، واستنكاره اختلاط الجنسين.. ثم أوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد

عبده وسعد زغلول مع قاسم أمين على تصحيح رأيه. وقد حمل الشيخ محمد عبده الدعوة إلى تحرير المرأة في دروسه في «الرواق العباسي» بالأزهر حين أعلن أن الرجل والمرأة متساويان عند الله.. وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول الكتاب أو كان له دور في مراجعتها، ومما أورده لطفي السيد أنه اجتمع في جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول، وأن قاسم أمين أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب تحرير المرأة وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه.

ثانيا: كتب فارس نمر صاحب المقطم مقالاً في مجلة الحديث (الحلبية) عام ١٩٣٩ وأشار إلى هذا الحادث فقال:

«إنه ظهر كتاب للدوق داركور يطعن فيه على المصريين طعناً مراً، ويخص النساء بأكبر قسط منه.. إذ رماهن بالجهل وضعف مكانتهن في المجتمع، فأهاج الشباب وتطوع قاسم أمين للرد على كتابه..

ويستطرد فارس نمر يقول:

وهنا أشير لحقيقة لا يكاد يعلمها إلا ندرة في مصر.. هذه الحقيقة أن كتاب قاسم أمين الذي رد فيه على «دوق داركير» لم يكن في صف النهضة النسائية التي كانت تمثلها الأميرة نازلي.. بل كان الكتاب يتناول الرد على مطاعن المؤلف الفرنسي، ويرفع من شأن الحجاب، ويعده دليلاً على كمال المرأة، ويندد بالداعيات إلى السفور، واشتراك المرأة في الأعمال العامة.. ولما ظهر كتابه هذا ساء ما بينه وبين إخوانه من أمثال محمد المويلحي، ومحمد بيرم، وسعد زغلول. ورأوا فيه تعريضاً جارحاً بالأميرة نازلي، تشاوروا فيما بينهم في الرد، واتفقوا أخيراً أن أتولى الكتابة عن هذا الموقف، وعرض فصوله وانتقاد ما جاء به خاصاً بالمرأة، وبدأت في كتابة سلسلة مقالات عنه.. ولكن ذلك النقد لم يرق في نظر قضاة محكمة الاستئناف، ورأوا فيه مساساً بهيبتهم.. لأن قاسم أفندي كان أحدهم ورأوا أن

أفضل وسيلة يبذلونها لكي أكف عن الكتابة أن مؤلفه يرجو الأميرة نازلي فاضل لكي تطلب إليّ ذلك .. وتطوع الشيخ محمد عبده للقيام بهذه المهمة وذات مساء حضرت إلى صالون الأميرة، كما حضر الشيخ محمد عبده ومحمد بيرم والمويلحي.. وبعد قليل تحدث الشيخ محمد عبده مع الأميرة في هذا الشأن.. فالتفتت إليّ سموها وقالت لي: إنها لا تجد بأساً في أن أكف عن الكتابة في الموضوع.. وكانت هي لم تقرأ الكتاب، ولم تعرف أنه يشمل الطعن فيما تدعو إليه.. فلما رأى ذلك محمد المويلحي قال لسموها: إنه يدهش من طلب الأميرة وخاصة لأن الكتاب تعرّض لها.. فبدت الدهشة عليها وكانت إحدى نسخ الكتاب موجودة عندها.. وعبثاً حاولت أن أقفل باب الحديث في هذا الشأن وخاصة بعد أن لمحت عليها معالم الاضطراب والجد والعنف.. فلما اطلعت على ما جاء به ثارت ثورة شديدة، ووجهت القول بعنف إلى الشيخ محمد عبده؛ لأنه توسط في هذا الموضوع.. ومرت الأيام بعد ذلك واتفق محمد عبده وسعد زغلول والمويلحي وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار إلى سمو الأميرة .. فقبلت اعتذاره ثم أخذ يتردد على صالونها .. وكلما مرت الأيام ازدادت في عينه، وارتفع مقامها لديه.. وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي والذي أقام الدنيا وأقعدها بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب».

انتهى كلام فارس نمر.

ثالثاً: أشارت هدى شعراوي في محاضرة لها إلى هذا المعنى وكشفت هذا السر الذي ظل خافياً زمناً طويلاً ولم يكشف إلا بعد وفاة قاسم أمين بعشرين سنة.

غير أن الذي يلفت النظر أن قاسم أمين عدل عن رأيه هذا من بعد، وتبين له أنه أخطأ الطريق.. وقد تبين هذا حين صرح قاسم أمين في حديث له لصحيفة «الظاهر» التي كان يصدرها المحامي محمد أبو شادي حيث أعلن رجوعه، وأعلن

أنه كان مخطئاً في (توقيت) الدعوة إلى تحرير المرأة.. هذا التصريح نشرته جريدة «الظاهر» في أكتوبر ١٩٠٦.

قال قاسم أمين:

«لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى تمزيق ذلك الحجاب، وإلى إشراك النساء في كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم.. ولكني أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس.. فلقد تتبعت خطوات النساء في كثير من أحياء العاصمة والاسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن، وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ما خذل من دعوتي واستنفر الناس إلى معارضتي.. رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة إلا تطاولوا إليها بألسنة البذاء، ثم ما وجدت زحاماً في طريق فمرت به امرأة إلا تناولتها الأيدي والألسن جميعاً.. إنني أرى أن الوقت ليس مناسباً للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذي قصدته من قبل».

ومعنى كلام قاسم أمين هذا الذي نشره قبل وفاته بعام ونصف عام أن قاسم أمين قد اكتشف بعد سبع سنوات من دعوته (التي جاءت استدراجاً ومرضاة لنفوذ وليست خالصة لوجه الله تعالى) أنها لم تكن قائمة على أسسها الصحيحة وهي الدعوة إلى تربية الخلق والإيمان بالله، وأنها لم تكن على طريق الحق.. أو ربما أن قاسم رأى بعد أن تغيرت الظروف بزوال كرومر ووفاة محمد عبده وانطفاء نفوذ نازلي فاضل «ربيبة كرومر» أن يتخفف من هذه التبعة.

وربما كان لبعض التجارب أثرها في نفسه.. فها هو يروي أن صديقاً عزيزاً زاره ذات مرة فلما فتح له الباب قال: جئت هذه المرة من أجل التحدث مع زوجك!! فدهش قاسم.. كيف يطلب مقابلة زوجته. فقال له صديقه: ألست تدعو إلى ذلك إذن لماذا لا تقبل التجربة مع نفسك. فأطرق قاسم أمين صامتاً. ومما يذكر أن السيدة زوجة قاسم أمين كتبت منذ سنوات تعلن أن دعوة قاسم أمين كانت خطيرة وأنها لم تكن قائمة على أساس صحيح.

وقال محمد فريد وجدي:

«إن دعوة قاسم أمين قد أحدثت تدهوراً مريعاً في الآداب العامة، وأحدثت انتشاراً مفزعاً لمبدأ العزوبية، وأصبحت ساحات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض وهرب الشابات من دور أهلهن.

ونعت الدكتورة (بنت الشاطئ)ما تكشف من حركة تحرير المرأة ما أسمته مهزلة أليمة موجعة.. تقول بنت الشاطئ:

«إن الرجال ساقونا لنعمل لحسابهم.. وهم يوهموننا أننا نعمل ويعملون معنا لحسابنا.. ذلك أن الرجال رتبوا لنا الخروج زاعمين أنهم يؤثروننا على أنفسهم.. ولكنهم كذبوا في هذا الزعم فما أخرجونا إلا ليحاربوا بنا السآمة والضجر في دنياهم.

ثم قالت بنت الشاطئ:

«إن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمناً للتطور ويكفي أن أشير في إيجاز إلى الخطأ الأكبر الذي شوه نهضتنا. وأعني به انحراف المرأة الجديدة عن طريقها الطبيعي وترفعها عن التفرغ لما نسميه: خدمة البيوت وتربية الأولاد.

ونحن نرى البيوت أصبحت مقفرة منهن. أما الأبناء فتركوا للخدم، وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة لخطأ كبير في فهم روح النهضة..

وبلغ من سوء ما وصلت إليه أن نادت مناديات بحذف نون النسوة في اللغة كأنما الأنوثة نقص ومذلة وعار. وأهدر الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصيلة لنا حتى سمعنا من يسأل كيف تعيش أمة برئة معطلة.. يقصد بالرئة المعطلة هؤلاء الباقيات في بيوتهن يرعين الأولاد.. وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها في البيت ووظيفتها في الخارج».انتهى كلام الدكتورة بنت الشاطئ.

أما ما هي ملابسات زعامة هدى شعراوي للحركة النسوية. فالواقع أن هناك عدة ملابسات لا تفسرها إلا فهم تاريخ الحركة الوطنية في مصر لرجلين: أحدهما والدها محمد سلطان، والآخر زوجها علي باشا شعراوي.

أما والدها محمد سلطان فيقول الدكتور عبد العزيز رفاعي في كتابه «محمد سلطان أمام محكمة التاريخ»:

«إنه كان من أعلام الثورة العرابية، ولكنه تنكر لها في أحلك أوقاتها، ومشى في ركاب أعدائها: الخديوي والإنجليز.. حتى نال حظوته من الخديوي بالإحسان، ومن الإنجليز بالتقدير.. وقد أثبت ما أورده السيد محمد رشيد رضا في كتابه «الأستاذ الإمام محمد عبده» جـ١ ص ٢٥٨، ٢٥٩ عن الدور الذي لعبه محمد سلطان في خدمة مخابرات الإنجليز في سبيل الوصول إلى معسكر العرابيين في التل الكبير.

وهكذا حمل لواء الخيانة للثورة العرابية، وطاف ببور سعيد والإسماعيلية لمعاونة الجيش الإنجليزي الزاحف والإيقاع بجيش عرابي معلناً الثقة في الجيش الغازي ومطمئناً الأهالي على حياتهم.

وقد أفهمهم حسن نيات الإنجليز إزاء المصريين، وأبان لهم أنهم لا يستهدفون غزو البلاد، بل يستهدفون تأديب العصاة

وتابع سلطان باشا نشاطه فأخذ يفرق الناس عن عرابي، ويجمعهم لمعاونة الإنجليز، فأرسل إلى شيخ بدو الهنادي المقيم في الصالحية ويدعى سعود العماوي، والآخر إلى محمد صالح الحوت، ليتفق معهما على استمالة العربان ولم يكتف محمد سلطان بنشاطه في الجاسوسية وبث الدسائس في منطقة القناة وفي ميدان المعركة. بل مد نشاطه إلى داخل البلاد ليقضي على كل معاونة شعبية لحركة عرابي. ورافق «ولسلي» قائد القوات البريطانية للتفاوض مع مشايخ العربان، كما كانت الأموال التي أعدها الخديو لرشوة شيوخ البدو في عهدة

سلطان (راجع بلنت: التاريخ السري ومذكرة سلطان إلى الخديو في الإسماعيلية بدار المحفوظات التاريخية دوسيه رقم ٢).

وكان سلطان هو الذي أبلغ الخديو هزيمة عرابي. ودخل سلطان القاهرة مزهواً يتطلع لفجر جديد في حياته بعد أن سجل خيانته، وكتب تاريخها بنفسه.

وقلده الخديو النيشان المجيدي الأول رفيع الشأن ووضعه على صدره بيده وأعطاه عشرة آلاف جنيه تعويضاً للأضرار التي لحقت به ثم عينه رئيساً لمجلس شورى القوانين، ولكن ضربة القدر لم تمهله ليتيه بما اشترى من أطيان فداهمه مرض السرطان واشتد به المرض وتوفى في أوربا سنة ١٨٨٤، وقد أنعم الإنجليز عليه بنيشان سان ميشيل وسان جورج الذي يخول صاحبه لقب «سير».

هذه هي خلفية الحياة الاجتماعية لوالد قائدة النهضة النسوية والتي تزوجت وهي في الرابعة عشرة من رجل غني موسر صديق لوالدها يبلغ الخمسين من العمر، هو علي شعراوي باشا أحد الثلاثة الكبار الذين قابلوا المندوب البريطاني بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى «سعد زغلول وعبد العزيز فهمي» بوصفهم من رجال حزب الأمة الموالي للاستعمار البريطاني لعرض مطالب البلاد.

ولم يلبث شعراوي باشا أن توفى وقد كان الثلاثة هم دعاة الولاء البريطاني والتعامل مع الإنجليز والشاجبين لمفاهيم الحزب الوطني في المفاوضة قبل الجلاء.

ولقد وجدت السيدة هدى شعراوي الفرصة سانحة للتعبير خاصة وأن السيدة صفية زغلول - ابنة مصطفى فهمي الذي حكم مصر بالحديد والنار خلال أول مراحل الاستعمار البريطاني ثلاثة عشر عاماً وزوج سعد زغلول والمسماه بأسماء الأضداد «أم المصريين» تستأثر بالزعامة السياسية، فأرادت أن تفتح مجالاً جديداً تنفرد فيه بالزعامة فكان ذلك هو مجال المرأة وخاصة وأنها نزعت نقابها في ثورة ١٩١٩.

ولقد تلقفتها جماعات تحرير المرأة العالمية والمنبثة في أوربا وخاصة في باريس وبرلين وبروكسل والتابعة للمحافل الماسونية ومنظمات الصهيونية العالمية، إذ وجدت فيها طيراً سميناً فدعتها إلى حضور المؤتمرات النسوية العالمية التي تديرها من وراء ستار، والتي كانت تستهدف أحداث الضجيج حول حقوق المرأة السياسية في البرلمان والحكم لخلخة المجتمعات الإسلامية ودفعها إلى طريق الانهيار.

والمعروف أن هدى شعراوي لم تنطلق في دعوتها من أي منطلق إسلامي. بل على العكس من ذلك كانت سيدة سافرة بارزة لها صالون، ويتحلق حولها عدد من الرجال المجندين لكتابة الخطب والكلمات التي كانت تلقيها في الاحتفالات، وكانت تنفق على ذلك من أموال سلطان باشا التي دفعت ثمنها الثورة العرابية.

وكان في مقدمة هؤلاء إبراهيم الهلباوي باشا محامي دنشواي والشيخ محمد الأسمر الشاعر.

وقد استطاعت أن تجند بعض الشباب، وأن ترسل بهم في بعثات تعليمية خاصة على حسابها إلى أوربا، ومنهم من عمل في الصحافة من بعد، وحمل لواء الدعوة إلى تقديس هدى شعراوي ودعا إلى تلك الأفكار التي تحرض المرأة على التحرر من القيود الاجتماعية، والانطلاق حتى كان أحدهم يقول لواحدة سألته:

«لو كنت بغير أولاد لقلت لك اتركيه ورزقك على الله» والمعروف أن السيدة هدى شعراوي لم تكن تعبأ في دعوتها بالمفهوم الإسلامي للمرأة، أو تصدر عن فهم حقيقي لرسالة البيت والأسرة ولم تكن تتحرك في هذا الإطار. وإنما كانت تضع أمامها المرأة الغربية كمثل أعلى. ولذلك فقد شجعت أسباب الزينة والأزياء والمودات

المستحدثة، وكانت أجنحتها من المثقفات ثقافة فرنسية وذات الولاء الماركسي والصهيوني، ولم يكن للمفهوم الإسلامي لديهم أي أهمية.

ويقول الأستاذ حسين يوسف:

إنه لم يكن عجباً أن يعمل الاتحاد النسائي بزعامة هدى شعراوي للأهداف التي يحرص الاحتلال على الوصول إليها، وأن يردد في عام ١٩٢٣ نفس المبادئ التي نادى بها مرقص فهمي من قبل، والتي نادى بها قاسم أمين.

ولما كان دعاة تدمير مفاهيم المرأة المسلمة لا ينامون فإنهم يدعون اليوم إلى تجديد ذكرى هدى شعراوي بإقامة تمثال لها.

والهدف هو دعم هذه الأفكار المسمومة التي تستهدف تدمير الأسرة المسلمة وتحطيم البيت المسلم.

(٦٦)

القومية

سقوط مفهوم القومية الوافدة

كشفت الأبحاث الجادة التي قام بها باحثون محايدون، أن نظرية القومية العربية التي طرحت في أفق الفكر الإسلامي، كانت بمثابة مؤامرة استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية، السياسية والاجتماعية والفكرية، وأنها هي أخطر المحاولات لتفريق عقد الأمة الإسلامية، التي كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد. وقد جاءت هذه الأبحاث بعد ركام ضخم من الكتابات والدراسات التي قدمت منذ الثلاثينات من هذا القرن، بهدف تدمير وحدة العروبة والإسلام الجامعة، التي كان يصدر عنها رجال العمل السياسي في البلاد العربية.

كانت الدعوة إلى القومية، بمثابة دعوة إلى الإقليمية أولاً، في الأقطار التي لها تاريخ قديم سابق للإسلام، وكانت من ناحية أخرى كمحاولة لفصم عرى العروبة والإسلام، فقد استعملت كلمة القومية بمفهوم الإقليمية في مصر باسم الفرعونية، وفي سوريا باسم الفينيقية، وفي العراق باسم الأشورية والبابلية، وفي المغرب باسم البربرية.

وتركزت حول هذه الدعوى دراسات مضللة، قام بها مستشرقون يتبعون وزارات الاستعمار في فرنسا وانجلترا مستهدفين إحياء هذه النحل التي قضى عليها الإسلام، حين جاء قاطعاً لذلك الارتباط القديم الذي يفرق بين اجتماع أمة الإسلام وبين ارتباطها وتاريخها ولغاتها القديمة.

الأبعاد والتفسيرات:

وحتى نعرف أبعاد قضية القوميات وتفسيراتها الوافدة، يجب أن تراجع تصريحاً تردد على ألسنة الكثيرين من دهاقين السياسة في أوائل هذاالقرن،

يلخصه الدكتور «صمويل زوير» كبير المبشرين البروتستانت في قوله: «إن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات».

ولقد كان أول عمل بدأت به الإرساليات التبشيرية في بيروت هو الدعوة إلى العروبة بهدف تمزيق وحدة العرب والترك، القائمة تحت لواء الخلافة العثمانية.

وكان حملة هذه الدعوة هم مسيحيو لبنان، الذين كانوا يطالبون بكيان مستقل داخل الدولة العثمانية، ثم ظهرت الدعوة إلى القومية التركية، تحت اسم الطورانية عن طريق حزب الاتحاد والترقي، بهدف إخراج تركيا من طابعها الإسلامي، فلما نجح حزب الاتحاد والترقي في الوصول إلى الحكم أخذ يعمل على تتريك الشعب وتحويل المحاكم والمدارس ودور الحكم إلى اللغة التركية والقضاء على اللغة العربية، ومن هنا بدأ العرب في المملكة العثمانية في الدفاع عن أنفسهم فنشأت الدعوة إلى العروبة، فلما سقطت الدولة العثمانية اتخذ العرب من الترابط تحت اسم العروبة أسلوباً من أساليب مقاومة النفوذ الأجنبي.

تفسير غربي:

غير أن الاستعمار والنفوذ الأجنبي، عمد إلى طرح مفهوم للعروبة مستمد من مفهوم القوميات الغربية استشرى أمره وحاول أن يقضي على ترابط العروبة والإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن الفكر الوافد حاول أن يطرح عدة نظريات، ليمزق وحدة الفكر الإسلامي، ويحول به دون الالتقاء في كيان جامع موحد، فكانت هناك الدعوة إلى القومية الوطنية، وتمثلت في الدعوة إلى القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية المصرية، وكانت هناك دعوة القومية المستمدة من مفهوم النظرية الألمانية أو النظرية الفرنسية، وإحداهما تعتمد اللغة أساساً لها، وتعتمد الأخرى مفهوم المشيئة.

ولم تكن الدعوة إلى القومية الوطنية في حقيقتها إلا دعوة إلى الإقليمية في محاولة لإعطاء هذه الإقليميات طابع القوميات.

التحريف:

ثم لما برز طابع العروبة، الذي كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز في مواجهة الطورانية أولاً، ثم في وجه الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان ثانياً، كموقف مفروض لا محيد عنه هنالك رأت حركة التغريب أن فكرة العروبة بمفهومها الإسلامي التي أخذت تترعرع، بمثابة خطر جديد عليها فأخذت تتدخل فيها لتحريفها وإفسادها، وذلك بعد أن فشلت دعوة الإقليميات لذلك فقد عمدت إلى طرح نظرية القومية العربية، وحشدت لها حشوداً ضخمة، بهدف زعزعة المقومات الأصيلة، وتعرية العروبة من كل مفاهيمها المرتبطة بالإسلام سواء على صعيد السياسة كالترابط والانفتاح بين الأمم الإسلامية ذات التاريخ والثقافة والعقيدة الواحدة، والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة ورصيد ضخم.

ماذا يريدون؟؟

كانت النظرية الغربية في القومية تريد أن تحمل معها ثلاثة محاذير خطيرة:

أولاً: طابع الاستعلاء الجنسي المغلق في مواجهة الأمم الإسلامية.

ثانياً: طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الإسلامية.

ثالثاً: خلق وجود معاصر منفصل تماماً عن الإسلام وعن العالم الإسلامي متصل بالغرب، متوافق في تفسيراته وقيمه وطوابعه.

وماذا غاب عنهم:

متى بـــدأوا؟

في عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية في القوميات وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات، وتشكلت هذه الفلسفة على هيئة مؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية، وبدأت نقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال خريجي معاهد الإرساليات، والعائدين من بعثات تعليمية أجنبية، واتخذ بعضهم الأسلوب المجنح الحالم الصوفي، الذي يحاول أن يعطي كلمة القومية العربية مفهوم العقيدة الدينية، ويروج لها في إطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل، على نحو يؤثر في نفوس الشباب الطامح المتوقد حماسة إلى مثل أعلى وفكرة ومنهج حياة.

وقد شاء أصحاب الدعوة، أن يراجعوا التاريخ المكتوب الذي عاشته العروبة في كنف الإسلام، أن يرجعوه القهقري من جديد، ليدخلوا فيه كلمة القومية التي لم يكن يعرفها، والتي لم تجر على الألسنة والأقلام إلا في أوائل هذا القرن الميلادي، والتي يندر أن يوجد نص مكتوب لأديب أو مفكر أو شاعر يتخذ من كلمة « ق و م » شعاراً له أو منطلقاً في قصيدة أو مقال أو كتاب.

محاولة زائفة:

ذلك أن أصحاب هذه الدعوة لم يكفهم أن يقولوا كلمتهم اليوم، ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخاً طويلاً بعيد المدى، يسبق ظهور الإسلام ويمتد بعده، ولا شك أن تلك المحاولة كانت باطلة وزائفة، ذلك لأنه لم يكن هناك إلا تاريخ واحد، هو تاريخ الأمة الإسلامية، والعرب جزء منه، ولم يكن هناك ما يفرق بين العرب والمسلمين خلال ذلك التاريخ الطويل، الذي كان العرب والترك والفرس والهنود فيه كلا متكاملاً.

ولا ريب أن تفسير التاريخ الإسلامي تفسيراً قومياً، كان مضللاً وكاذباً، حيث لم يكن هناك انفصال بين الإسلام والعروبة إلا بعد الاحتلال الأجنبي وانفصال الدولة العثمانية عن العرب.

كذلك فقد كان هدف دعاة القومية أن يفصلوا العرب عن الفكر الإسلامي، وعن الامتداد الإسلامي، وأن يخلقوا كياناً عربياً يعود بالعرب إلى كنعان وعدنان وإرم، وإحياء هذا التراث القديم، بعد أن سيطر الفكر الإسلامي أربع عشر قرناً كاملة على هذا العالم الواسع، واستوعب في أعماقه كل فكرة صائبة ونظرة صالحة من ذلك التراث القديم.

كيف انكشف الفساد؟:

وإذا كانت بعض الظروف قد أفسحت المجال لطرح النظرية القومية الوافدة حيناً، فإنه لم تلبث أن تكشف فسادها وغرابتها على الروح الإسلامية وأنها ليست منبعثة من وجودنا، وليست تمثل فكرنا أو كياننا أو جوهر قيمنا.

إن أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعاً، أنهم صدروا عن مفهوم وافد تشكل في إطار المجتمع الغربي، وواجه المسيحية الغربية، وفاتهم اختلاف العلاقة بين العرب والمسلمين، وبين مفهوم الإسلام كعقيدة تختلف عن المسيحية، في أنها ليست نظرية لاهوتية أو علاقة بين الله تبارك وتعالى والفرد، ولا صلة لها بأنظمة المجتمع، كما فاتهم أن الإسلام عقيدة ومنهج حياة.

ولأن القائمين بالدعوة كانوا غريبي الفكر، فقد فاتهم فهم حقيقة الإسلام الجامعة بين الدين والدولة، وبين الدين والمجتمع، وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة.

وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الأصالة والفهم العميق للإسلام والعروبة، وكانت محاولتهم في فرض مفهوم غريب دخيل وافد، محاولة مهتزة،

شأنها شأن المحاولات التي فرضت على الفكر الإسلامي من قبل ومن بعد، وقد أعلنت جميعها فشلها الكامل، كالديمقراطية والاشتراكية والوجودية وغيرها.

وشهد شاهد:

ويصدق في هذا دارسان غربيان أولهما: «أرنولد توينبي» الذي يقول في كتابه «المسيحية بين أديان العالم»: أن الشيوعية والقومية هما العدوان للأديان، إذ هما شكلان مختلفان لموضوع فاسد، ألا وهو عبادة الإنسان لنفسه.

ويقول «الفريد كانتول سميث»: «إن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود، وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك».

بل إن مستشرقاً آخر ينصح قومه بالتخلي عن طرح هذه النظرية لفسادها ذلك هو «البرت حوراني» الذي يقول: «ليست القومية نظاماً فكرياً متكاملاً، ولكنها نقطة بداية تنظيم المجتمعات المتحدة، فإن الشرق العربي قد وصل إلى مرحلة ما بعد القومية».

القومية العربية وهدفها:

وهذه حقيقة فإن السنوات الأخيرة قد كشفت عن فساد منطلق القومية، وعجزها عن أن تحقق شيئاً، بل إنها قد سجلت على نفسها ذلك الأثر السيء العميق، الذي أخر نمو الوحدة الإسلامية، التي هي الطريق الأصيل للالتقاء الجامع، تحت لواء العقيدة والمنهج، وقد تبين أن القومية أيديولوجية غربية كانت في انبعاثها بالغرب تستهدف تحطيم الوحدة المسيحية الجامعة، التي كانت تشكل إطاراً عاماً في الغرب ضد اليهودية، التي كانت تعيش في أحياء الجيتو دون أن

تختلط بالحياة الاجتماعية الغربية، وقد رأت الدوائر الأجنبية التي طرحتها في أفق العالم الإسلامي أنها يمكن أن تمزق وحدة العالم الإسلامي.

ولقد كانت القوميه الطورانية ، قوميه لادينيه خمل لواءها ضياء كوك ألب وأحمد أغارف ويوسف أشفور، وكانت تدعو الي امجاد طوران ، كما ظهرت القومية الفارسية ، لتنظيم أمجاد فارس قبل الإسلام والسير علي خط كورش (قورش) أما القومية العربية فقد قادها لورنس عميل المخابرات البريطانية والصهيونية معا، وأسلمها ألي مجموعة من دعاة التغرب وتلاميذ الاتحاد والترقي العرب.

هوية دعاة القوميات:

وكان كتابها ودعاتها يحملون العداء لكل ما هو أسلامي وقد اختلفوا في كل شيء ، واتفقوا علي شيء واحد هو رفض الإسلام ،عقيدة وتاريخا وحضارة ، وأعلنوا عداوتهم للتراث والأمجاد التاريخية والفصحى ،وحين أعلنوا أن مقومات القومية هي اللغة والتاريخ فاتهم أن اللغة هي الفكر لا اللفظ ، وأن التاريخ لايفصل بين العروبة والإسلام ،وأن الإسلام جنسية ووطن بكل معنى الكلمة لها ركائزها من اللغة والمشاعر المشتركة ووحدة الهدف .

وإن الإسلام هو الذي حمي الوطن العربي من الصليبين ، بعد أن أقاموا أربع أمارات صليبية لهم علي ساحل الشام ، فجاء (**صلاح الدين المسلم الكردي**) لينشل العروبة من وهدتها ،وقد أكمل هذا الدور (**قطز وبيبرس**) ، وهما من المسلمين لا العرب. لقد جاء بعد صلاح الدين الكردي، المماليك الذين حموا الأرض العربية من التتار وقضوا علي بقية معاقل الصليبيين .

وفي الجزائر التي وصفها الفرنسيون بأنها فرنسا الجنوبية كان الإسلام، وليست اللغة العربية هي التي حمت الأمة مائة وثلاثين عاماً بعد أن تحطمت اللغه

والثقافة ، ولولا القرآن ما كانت هناك قوة في الأرض تستطيع أن تحمي اللغة العربية في الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة مدي قرن وربع قرن من الزمان . ولاريب أنه حيث يسقط الإسلام يسقط العرب ، وأن العرب بغير الإسلام لاشيء فهو الذي شكلهم وأقامهم كأمة ، وهو الذي رفع أعلامهم علي مشارف القارات الثلاث .

طبيعة التكوين الاصيل:

ولاريب أن نظام الإسلام قد كون رجالا عرباً وعجماً تكوينا نفسيا وعقليا فصدروا عن حركتهم التاريخية ، عن هداه وسنته ، لم يناقض الإسلام المقومات الجنسية ، وترك لكل أمة شخصيتها النابعة من التطورات المختلفة عبر القرون ، بل لقد حافظ علي الكيان الخاص لكل بنية.

التفسير القومي تفسير جزئي:

ولا ريب أن التفسير القومي جزئي وناقص ، ومناقض للحقيقة التاريخية الجامعة ، ومناقض في نفس الوقت لعموم الرسالة التي لاتعترف بالحركات القومية ولكن العروبة وحدها عاجزه عن إثبات وجودها ، ومعني هذا أن الإسلام قوة دافعة للعروبة وليس قطاعا منها بل هو سبب قوتها وتماسكها وبقائها كما أنه ليس حربا عليها ، وأن أي محاولة للفصل بينهما ، يسيء إلي العروبه اكثر مما يسيء إلي الإسلام .

منزل الوحي:

وقد شرف الله تبارك وتعالي أرض العروبة فجعلها منزلاً لوحيه وقرآنه ومنبتاً

لخاتم رسله، وقد امتزجت العروبة بالإسلام امتزاجاً قوياً، جعل غير العرب ينظرون إليهما على أنهما شيء واحد وقد وقف القرآن الكريم سداً منيعاً لحماية اللغة العربية من الذوبان والانصهار في اللهجات.

ولقد كانت كل مشروعات تبسيط اللغة العربية تهدف إلى القضاء على القرآن، بينما وقف القرآن سداً منيعاً مستعصياً على التحريف والتصحيف.

من المجاهدين الأول:

وفي مراجعة مع السيد «محب الدين الخطيب» رحمه الله، حول مفهوم العروبة بعد الحرب الأولى قال:

إن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين وكانت العروبة تعني ارتباطها بالإسلام ولا تنفك عنه، ومفهوم الإسلام أنه قام ويقوم بالأمة العربية الأولى التي لم تكن منفصلة عن أرضية الفكر الإسلامي، وإنما كانت حلقة من حلقاته، وإذا كان دعاة الفكر الإسلامي قد عملوا في جانب العروبة في هذه الفترة، أي بعد الحرب العالمية الأولى، فمعنى هذا أنها قد أصبحت هي القلعة التي جرى من خلالها العمل لمقاومة الاستعمار والنفوذ الغربي وحركة التغريب والغزو الثقافي.

وقد حرص الإسلاميون على الربط بين مصر العربية ومصر الإسلامية، وكانت لهم في ذلك نظرية دقيقة واضحة أما الفرعونية والفينيقية والبربرية، فقد كشفت الأبحاث من بعد عن أنها فروع من العروبة وأنه لا تضارب بينها، فهي موجات خرجت من الجزيرة العربية، واستقرت هنا وهناك على طول الأرض العربية وعرضها، وأن محاولة الاستعمار في استخدامها للتفريق كانت باطلة.

تجربة مريرة:

ويصور هذه الرحلة الأستاذ «إدريس الكناني» في بحث مطول فيقول: «إنها كانت تجربة مرة عاشها العرب منذ الحرب العالمية الأولى، وتمثلت في اتجاه كثير من الزعماء والأحزاب، لدوافع وأسباب مختلفة لخلق إطار موحد للعمل يكون أساساً للنهضة العربية، ويجمع شمل الأمة العربية، وقد قبل العرب هذا الإطار باعتبار أنه مجرد غطاء خارجي لمحتوى أساسي هو الإسلام، ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليجعل «الغطاء» يحل محل المحتوى، وبدأ الناس يبحثون عن فلسفة خاصة، وهكذا أصبحنا نحن الذين أيدنا (القومية العربية الإطار) نراها تتحول إلى المذهب، ورغم أنها لم تتمتع بالتأييد لزمن أطول، ولو أنها استطاعت أن تحقق أقل قدر من النجاح لأثبتت أصالة بنائها، وأنها قامت على أرض صلبة لا على كثبان من الرمال، ولقد عجز مذهب القومية أن يخلق في نفوس أصحابه شيئاً من هذا الإيمان أو قليلاً من التضحية.

بعد أن دفعنا الثمن:

هذه الوحدة العربية لم تتحقق حتى بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعاراً لهم، ولم تحقق شيئاً للعرب المؤمنين بها، ومعنى هذا أن تجربة هذا المذهب تكون قد استنفدت غرضها، بعد أن أدى العرب ثمن فشلها غالياً، وينفتح الباب أمام الإسلام من جديد برجال جدد من العرب أنفسهم، ويمضي العرب إلى تحقيق وحدتهم ولكن باسم العقيدة التي وحدتهم أول مرة، وباسم العقيدة سيواصلون معركتهم على واجهتين.

ضد التخلف داخل الوطن الأكبر، وضد الاستعمار والصهيونية في كل مكان في الأرض، وعندئذ يكون عصر اليقظة الإسلامية قد انتهى، ويبدأ فجر النهضة وتشرق شمس الإسلام من جديد على العالم» ..

وقال: «إن هناك مراحل قطعها الاستعمار والتغريب في تعويق الانتقال من اليقظة إلى النهضة: منها الإقليمية والقومية والماركسية والقانون الوضعي والنظام السياسي الغربي والتعليم بمناهج الغرب العلمانية، ومحاولات تخذيل الفصحى لغة القرآن» ..

سقطت المحاولة وسقط البديل:

ولقد سقطت تلك المحاولات، التي كانت تستهدف أن تجعل القومية بديلاً عن دين الله ورسوله محمد ﷺ ، لأنها أرادت أن تفرغ العروبة من محتواها الإسلامي، أمة وعقيدة وأرادت أن تقيم قومية حاقدة منفصلة مغلقة عن أرض الإسلام كما هي مغلقة عن قيم الإسلام نفسه، فيها المفهوم المادي الوثني، وفيها أحقاد الأمم، حيث إن مفهوم الإسلام لا يفصل بين الدين والدولة، ولا يعرف حكومة إلهية ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق ..

تيار غزو ثقافي:

وبالجملة فإن الفكرة القومية كانت تياراً من تيارات الغزو الثقافي، استحدث أساليبه بعد أن سقطت دعوى الوطنيات والإقليميات، وكانت مهمته تفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الإسلامي، وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته. واستبدال رابطة أخرى برابطته، لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلاً نهائياً، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأي شعب من الشعوب الأخرى التي تدين بالوثنية والماركسية وبذلك تنسف الجسور التي تصل بين الشعوب الإسلامية.

ولقد كان طرح فكرة القومية العربية عامل التمهيد لطرح فكرة القومية

الصهيونية ومجالاً لظهور دعوة إلى القومية الكردية، وغيرها من قوميات، وكان أخطر ما هنالك محاولة دعاة القومية إلى إيجاد منهج أشبه بالدين يحل محل الإسلام، وتلك دعوتهم إلى إيجاد نظام نظري شامل يستوعب الحياة الإنسانية بأكملها، فلا يخرج عن دائرته قطاع ما من قطاعات الوجود البشري، وصياغة عقيدة قومية كلية تضاهي في كليتها وشمولها الفكرة الشيوعية، أي أن الهدف الحقيقي هو إحلال القومية محل الإسلام وأن يصبح العرب بين خيارين: إما الشيوعية أو القومية المادية الوثنية، وكأنما أبعد الحق الأصيل وهو الإسلام الذي يحمل المنهج الأصيل، والذي يقاوم زيف الشيوعية والذي تعجز القومية مهما أوتيت من قوة أن تحققه وهي تركيب مفتعل معارض للفطرة الإنسانية، مجاف لطبيعة الحياة وقد سموا هذا الخليط الزائف (عقيدة قومية) ..

والسؤال الآن:

هل استطاعت الفكرة القومية الوافدة أن تحتوي مفهوم العروبة والإسلام؟ والواقع أن مضمون الفكرة القومية عند أمم الغرب كانت على الدوام مقترنة بفكر التفوق الشعبي واحتقار الأمم الأخرى، وهو معنى لا يقرّه أي مسلم أو يرضاه، كذلك فقد عارضت الفكرة القومية الوافدة مفهوم الإسلام، واعتبرته ديناً لاهوتياً - وهو ليس كذلك - بل هو منهج حياة ونظام مجتمع، ولقد كشفت الدراسات عن أن نظرية القومية الغربية هي دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات الجامعة بين المسلمين، وتفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات فضلاً عن عملهم في عزل العرب عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواقفه، وحصرها في التاريخ الإقليمي، وكذلك عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي، وفرض مناهج التفكير الغربي في السياسة والاقتصاد والقانون والتربية، وهذه كلها محاولات تستهدف تفريغ العرب من إسلامهم، ولقد سقطت هذه المحاولات سقوطاً تاماً، وتنبه العرب إلى أهداف

المؤامرة، ويكفيهم أن مفكري الغرب قد كشفوا هدفها وزيف وجهتها.

والمعروف عندما ظهرت هذه الدعوة عارضها جماعة من المفكرين الإسلاميين يومئذ، بدعوة مضادة تحت شعار الجامعة الإسلامية باركها وأيدها السلطان عبد الحميد «الْمُفْتَرَى عَلَيْهِ» رحمه الله، وكان من دعاة هذه الفكرة الإمام محمد عبده رحمه الله ..

وسقطت نظرية ساطع الحصري:

حدثني الدكتور مختار الوكيل مدير مكتب الجامعة العربية في جينيف .. وهو رجل صادق مؤمن: أنه في خلال عمله زار الأستاذ ساطع الحصري بسويسرا ورأى السيد عبد الفتاح حسن السفير المصري عند دعوته إلى طعام الغداء فلما قدم مع الدكتور الوكيل حيّاه السفير المصري فقال:

«مرحباً بالمناضل الكبير في خدمة العروبة والإسلام» وقد عجب الرجلان من ساطع الحصري الذي رد في عنف وحدة:

«عرب نعم .. إسلام لا . أنا لاييك، أنا لاييك».

وكلمة «لاييك» تعني أن صاحبها علماني أو لا ديني.

ما تزال ندوة الاعتصام تركز على تاريخ الإسلام والعرب المعاصر، وعلى الأعلام البارزين: سعد زغلول، لطفي السيد. ساطع الحصري .. الخ .. وقد أحرز ساطع الحصري شهرة وافرة في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره «فيلسوف القومية العربية» حيث روّج لنظرية خطيرة كانت بعيدة الأثر في حجب مفهوم العروبة الأصيلة المرتبطة بالإسلام .. فكراً وعقيدة، وبالعالم الإسلامي تكاملاً وإخاء .. لقد كان دعاة حركة اليقظة في البلاد العربية يرون أن الجامعة الإسلامية قائمة بين العرب والمسلمين (فرساء وتركاء) بعد زوال الدولة العثمانية ..

ولكن ساطع الحصري كان من أوائل الدعاة إلى فصل العرب من المسلمين بمفهوم القومية الغربي الوافد الذي طرحه في أفق الفكر السياسي العربي .. وهذا يرجع إلى أن ساطع الحصري كان ثمرة من أنضج ثمار المدرسة الاتحادية التركية، وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم القومية الطورانية التركية إلى أفق العروبة التي كانت ترتبط بمفهوم الإسلام في العلاقة بين الشعوب التي جمعها التوحيد والقرآن ونبوة محمد ﷺ ، والفكر الإسلامي الأصيل.. لقد كان ساطع الحصري مديراً للتعليم في الدولة الاتحادية التي حكمت تركيا بعد إسقاط السلطان عبد الحميد بمفهوم العلمانية والطورانية .. وقد تعلم في مدرسة الاتحاديين، وآمن بفلسفتهم، ونقل فكرهم ومضامينهم إلى العرب، وذلك في سبيل تمزيق الوحدة الإسلامية الجامعة عرباً وتركاً وفرساً، وخلق أسلوب القوميات والإقليميات التي تقوم على الصراع والاستعلاء بالجنس والعنصر .. وهو أول من حمل لواء العنصرية، والعرق والدم بديلاً لمفهوم الإسلام، الذي يقوم على الإخاء الإنساني، وقد كان فلاسفة الفكر القومي التركي من الاتحاديين تلاميذ للفلسفة الوضعية متشبعين بالنزعة الطورانية العدوانية، وقد استمد ساطع الحصري، مفهومه للعروبة من مفهوم القومية الغربية، والنظرية التي طبقها الاتحاديون في تركيا، وقد ركّز على اللغة والتاريخ، وعزلهما عن الفكر الإسلامي الجامع ككل، كما ركّز طه حسين على الأدب وعزله عن وحدة الفكر الإسلامي ..

ونظرية ساطع الحصري التي روّجت لها بعض الأحزاب السياسية العربية قد أثبتت خلال أكثر من ثلاثين عاماً فشلها الذريع وعجزها عن العطاء، لأنها فرغت مفهوم العروبة من قيمه وتاريخه وعناصره الأخلاقية والروحية، وجعلته مفهوماً مادياً خالصاً، وقد اعترف ساطع الحصري بأن إسرائيل قومية تقوم على الدين ورفض اعتبار الإسلام مقوماً بوصفه ديناً .. ذلك أن مفهوم ساطع الحصري للإسلام ناقص، فهو يراه ديناً لاهوتياً وليس ديناً ومنهج حياة، ونظام مجتمع على النحو الذي يؤمن به دعاة العروبة الإسلامية .. لقد فهم الإسلام على أنه «دين عبادي»

كما فهم الأوروبيون المسيحية، ولم يفرق بين الدين بعامة والإسلام بخاصة، ولم يفرق بين العصر والبيئة والجذور الثقافية التي يختلف فيها عن مفهوم القومية في أوروبا. ولقد كان مفهومه للعروبة ناقصاً، فلم يصل إلى مفهوم العروبة المترابط مع الإسلام هذا الترابط الجذري الذي لا سبيل للانفكاك عنه.

ويرى كثير من الباحثين أن ساطع الحصري لم يعايش المناخ العربي قبل أن يضع مجموعة آرائه، وأنه استهدى بمناخ البلقان والنظرية الألمانية في حركته القومية التي رفع فيها شعار اللغة في مواجهة الدولة العثمانية للتحرر منها، وأنه كان حاقداً على العثمانيين حقد المحافل الماسونية التي احتضنت الاتحاديين، ووجهتهم وجهتها، ودفعتهم إلى الدعوة إلى الذئب الأغبر كرمز لها بديلاً للقرآن. وقد كان أكبر أساتذته في مفهوم القوميات «ماكس مولر، ونوردو» وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة إلى إحياء القومية اليهودية. وقد اعتبر ساطع الحصري اللغة أساس القومية، وعارض نظرية الأرض التي دعا إليها «أنطون سعادة» دون أن يتنبه إلى أن الفكر لا اللغة هو مصدر الوحدة.

وقد أجرى ساطع الحصري الجدل حول عديد من النظريات الأوروبية في القومية دون أن يواجه جوهر المفهوم العربي الإسلامي المصدر والجذور، هذه الجذور التي تجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوماً منفصلاً، أو الاعتماد على نظرية بقاء اللغة أو ضياع اللغة، مع أن الأساس هو بقاء العقيدة والفكر الذي يحمي وجود الأمة الحقيقي، والواقع أن ساطع الحصري كان غربي الفكر أساساً، بل وغربي الذوق أعجمي النطق، وأن تركيبه الثقافي والاجتماعي كان يحول بينه وبين تبني نظرية عربية أصيلة مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها، وذاتيتها وقيمها التي لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه، وفي ذلك مغالطة، أو جهل، ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة فحسب ولكنها في نفس الوقت لغة فكر وعقيدة، فإذا كان العرب وهم مائة مليون يتحدثون بها، فإنها لغة

العقيدة والفكر لألف مليون من المسلمين مرتبطين بالقرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وذلك التراث الضخم من الفقه والعلم والتاريخ، وأن اللغة لا تنفصل عن الفكر وأن تاريخ العرب لا ينفصل عن تاريخ الإسلام، ومرجع ذلك إلى أن ساطع الحصري نشأ - كما ذكرنا - في بيئة الاتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع الفكر التلمودي، والذين نشأوا في أحضان المنظمات الماسونية، وحملوا لواء الإيمان بالفصل بين الدين والمجتمع، وفهموا الإسلام فهماً غربياً على أنه دين لاهوتي، وعلى هذا الفهم الخاطئ القاصر قامت نظرية ساطع الحصري التي لمعت سنوات تحت تأثير الخداع والأهواء، حتى أن بعض دعاة الماسونية في العالم العربي راح يفسر عن طريقها تاريخ الإسلام كله، فيرى أنه تاريخ قومي عنصري عربي، ومن ثم وجهت عبارات الحقد والخصومة إلى الأمم الإسلامية، وهذا هو الثمرة الحقيقية التي كانت تهدف إليها حركة الغزو الثقافي والتغريبي من طرح هذه النظرية القومية، الإقليمية الضيقة العدوانية الوافدة، بديلاً عن المفهوم الأصيل للعروبة في إطار الإسلام كما كان يفهمه شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وحسن البنا ومصطفى السباعي ومحمد المبارك.

هذه النظرية المضطربة التي خدع بها ساطع الحصري الكثيرين والتي سايرها كثير من المثقفين قبل أن يعرفوا سمومها العميقة..

فلما عرفوها هاجموها وكشفوا زيفها، والنظرية مضطربة من أساسها، ولو كان ساطع الحصري حسن النية لصحح موقفه من فهم الدين فهماً غربياً لاهوتيا وفهم الإسلام بمعناه الجامع بين العقيدة ونظام المجتمع. لقد اعتمد أساس نظرية مفهوم الدين اللاهوتي بمفهوم أوربا والغرب للدين، ولذلك عجزت النظرية أن تجمع في إطار الفكر الإسلامي، بل إن كل العناصر التي عالجها كانت عناصر البيئة الغربية في مواجهة الصدع بين الجامعة المسيحية الأوربية وبين القوميات الأقلية والتي كانت وراءها اليهودية الصهيونية لتمزيق هذه الوحدة والسيطرة على كل قطر)على حدة، وهو نفس ما أرادته بالنسبة للجامعة الإسلامية التركية التي وقفت

أمام دخول الصهيونيين إلى فلسطين، وموقفهم من السلطان عبد الحميد واضح معروف.

إن كل التحديات التي تعالجها نظرية القومية الوافدة لا توجد أساساً في المناخ الإسلامي، هذا فضلا عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية في الغرب فضلا عن اختلاف مفهوم الإسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة.

ومصدر خطأ ساطع الحصري أنه عجز عن فهم أبعاد الفكر الإسلامي وأعماقه، وعلاقة العرب بالإسلام، وعاش في مؤلفاته خادماً لنظرية القومية الأوربية الوافدة التي قدمها النفوذ الأجنبي من بين ما قدم، ليحطم العربية الإسلامية الجامعة بعد أن عجز عن فرض الإقليميات القائمة على التاريخ كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية، ولما رأى هذه المحاولات تتهاوى ورأى أن العرب يتجهون إلى الوحدة أراد أن يفرغ هذه الوحدة من مضمونها العقائدي الجامع بين الروح والمادة، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة إلى مفهوم إقتصادي مادي صرف، وبذلك فشلت نظرية القومية الوافدة كما فشلت مناهج التعليم الغربي والقانون الوضعي، وأسلوب التنظيمات السياسية الليبرالية وغيرها.

ولقد وقف ساطع الحصري في وضوح موقف الخصومة والحرب والتعصب على الإسلام كلما عرض له. وقد تجاهله طويلا في أبحاثه كأن العرب لم يعرفوه خلال تاريخهم الطويل، وكانت محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الإسلامي من ناحية ، وبين تاريخ العرب وتاريخ الإسلام في محاولات ساذجة ، ثم كشف نفسه وأسقط مكانته كاملة حين اعترف بالقومية اليهودية القائمة على الدين، بينما عارض عنصر الدين في فهم القومية العربية وإن كانت كلمة (دين) لا تؤدي معنى الإسلام حين يكون البحث حول العروبة.

وقد ثبت أن ساطع الحصري قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم الماسونية والنظرية القومية الوافدة التي كان النفوذ الغربي حريصاً على تلقينها للعالم

العربي، وهى ليست إلا صورة من مفهوم الاقليمية اللبنانية، والمعروف أن ساطع الحصري كان من أعمدة وزارة المعارف في تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين في تركيا العثمانية إلى أن انتهت الحرب الأولى، وأنه كان من أخطر الموجهين للبرامج التربوية والتعليمية في العراق، حيث عمد إلى فصلها عن الإسلام فصلا تاما، وكان دوره أشبه بدور الدكتور طه حسين في التعليم المصري.

لقد حاول ساطع الحصري أن يقيم (فكراً عروبيا إقليميا) منفصلا عن الإسلام في روحه ومضامينه وشريعته.. ولقد تجاهل عمق الأثر الذي تركه الإسلام في الفكر والثقافة، واللغة والتاريخ، وتجاهل أثر القرآن الكريم في اللغة العربية وفي العرب، ومدى ترابط ذلك إلى أكثر من ثلاث آلاف سنة بالأمة الوسطى الحنيفية السمحاء التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، فربطت هذا العالم الوسط (عالم العرب والإسلام) بروابط تاريخية وثقافية عميقة دعمتها الأديان السماوية التي نزلت في أرض الرافدين، وختمتها رسالة الإسلام العالمية التي نزلت في الجزيرة العربية. للعالمين كافة.

(٦٧)

الأسطورة

هناك حصيلة ضخمة من الأساطير والخرافات تتمثل في قصص وملاحم، وتتخذ من المعتقدات الوثنية موضوعات لها، وهى تفسير أحداث الحياة وظواهر الطبيعة على ضوء هذه المعتقدات، وتنسبها إلى تدخل الآلهة وأنصاف الآلهة في شئون البشر، ولقد كان لليونان أساطيرهم، وكان للعرب في الجاهلية أساطيرهم، والغالب أن الأغريق والعرب في الجاهلية اشتقوا معتقداتهم الأسطورية من الفرعونية الوثنية القديمة.

هذا التراث من الأساطير والخرافات، المتصل بطوالع النجوم وأفلاك البروج، وأسرار الأرقام ومجموع التعاويذ الخاصة بطرد الأرواح الشريرة، كان بمثابة تجارة للكهنة القدامى في الحضارات المصرية والأشورية والبابلية القديمة، ولقد كان اليهود هم حملة لواء هذه الأساطير والخرافات بالإضافة إلى فن السحر الذي تخصصوا فيه.

هذه الحصيلة يجرى تجديدها في العصر الحديث على نحو من الاهتمام الواسع، والتركيز الشديد على أفق الفكر الإسلامي بعد أن جاء الإسلام فحطم هذا التراث كله، وقضي عليه، وذلك حين قدم صحاح الأخبار والصور والعقائد فيما يتعلق بمختلف شئون الغيب وأجاب عن كل الأسئلة التي جاءت بها هذه الأساطير والخرافات بمثابة محاولات بشرية ضالة مضلة إزاء هذه الأمور.

عالم الغيب:

لقد أعطى الإسلام منهجا كاملا للميتافيزيقا أو ما يسمونه عالم الغيب، فكشف عن حقائق عالم الجن والملائكة ورسالات الأنبياء والوحي، وخلق السموات والأرض والرياح والبحار والكواكب والأقمار، وأوضح علاقة الإنسان بها، ودعا

الإنسان إلى أن يعبد خالق هذه الكواكب، وأن لا يسجد للشمس ولا للقمر. وأن يعرف أنه تبارك وتعالى هو رب (الشعرى) اليمانية التي كان يعبدها العرب في الجاهلية. كذلك فقد دعا الأنسان إلى عبادة الله الواحد الخالق، وحرره من عبادة الأصنام والأوثان والصور، وعلمه أن هذه كلها لا تملك له نفعا ولا ضرا، كما كشف الله تبارك وتعالى عن سنن الخلق وتصريف الرياح، وإنشاء السحب وسوقها إلى حيث يأمرها بأن تمطر فيصيب بهذا الغيث من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

لكل داء دواء إلا الموت:

وبذلك قضى على الأساطير العديدة التي كانت تتحدث عن الشياطين التي تسوق الرياح، كذلك دعا إلى التداوي من الأمراض، وأخبر النبي ﷺ بأن الله تبارك وتعالى خلق لكل داء دواء إلا السام (أي الموت).

وبذلك قضى على ما كان يقوم به كهنة بابل من بعض الطقوس لشفاء المرضى أو طرد الأرواح الشريرة أو ما كانوا يصفونه لالتهاب العين من انتزاع أحشاء ضفدع صفراء.

كذلك دعا الإسلام إلى دحض ما يسمى طوالع النجوم وأفلاك البروج وتأثيرها على حظوظ وأسرار الإنسان، فإن هذه كلها لا تملك لنفسها شيئا ولا تستطيع أن تقدم للإنسان أي دليل على غيب، فالغيب كله لله تبارك وتعالى.

المنهج التجريبي:

وكانت دعوة الإسلام إلى البشرية أن تنظر إلى خلق السموات والأرض، وإلى كيف بدأ الله الخلق، والتأمل في هذا الكون الذي هدى المسلمين إلى بناء المنهج العلمي التجريبي الذي نشأت عليه الحضارة الحديثة، والذي أدعاه القس روجر بيكون وفرانسيس بيكون ومن ذهب مذهبهم.

وبذلك تحرر العقل البشري من الأساطير والوثنيات والخرافات القديمة، وانسحق هذا الركام كله تحت أقدام الحقائق، وتحت أضواء نور العلم الحقيقي.

غير أننا نرى الآن أن هناك محاولة مستميتة لإحياء هذا الركام، وإعادة إذاعة هذه الخرافات التي سادت العصور القديمة من جديد بعد أن حطمها الإسلام، وأقام مفهوما أصيلا لكل ما يتصل بعالم الغيب ولما يتصل بخلق الكون والسموات والأرض.

عودة إلى الأساطير:

هذا الركام الوثني والبشري تجرى إعادة صياغته في أساليب براقة وكتب فاخرة، وتحمله إلى الناس صحف ومجلات راقية الطباعة، ويحمل لواء الدعوة إليه كُتّابٌ لهم شهرة ذائعة، حيث يجد إعجاباً وإقبالا وافتتانا من الشباب المسلم الذي لم تتشكل له خلفية أساسية من مفهوم الإسلام تحميه من تقبل هذه السموم. ولا ريب أن بعض البلاد الإسلامية قد خضعت لهذه الأفكار الزائفة، عندما ضعف مفهومها الإسلامي في مرحلة التخلف، ولكنهم وقد عادوا اليوم ينفضون عنهم غبارها، عليهم أن يتحرروا منها، وإن الصورة التي سجلها مثل «إدوارلين» في كتابه (المصريون المحدثون) لا تمثل إلا مرحلة الضعف التي سيطرت فيها مفاهيم باطلة، حيث تسربت الخرافات والأساطير مرة أخرى إلى المجتمعات تحت أسماء التمائم والتطير، وتقمص الأرواح فقد كتب (لين) ذلك فى نفس الوقت الذي كان الإمام محمد بْن عبد الوهاب يجاهد في الجزيرة العربية ويجد لتطهير الإسلام من هذه الخرافات.

بين الفلك والتنجيم:

ومن عجب أن تذيع بعض المجلات كتبا مسمومة تحت اسم «علم الأساطير»

لتخدع المسلمين عن حقائق دينهم، بالقول بأن الكواكب لها تأثير على الميول النفسية والفكرية للبشر، وفي هذا ارتداد إلى مجاهل التنجيم وشعوذة المنجمين، مما يتناقض مع مفهوم الإسلام الأصيل، ومع منهج البحث العلمي الصحيح، ولا ريب أن وراء هذه الأهواء قوي تغريبية وتلمودية خطيرة، تحاول أن تفرض هذه المفاهيم المسمومة الزائفة، بحيث تقول إن هناك صلة بين وجود الكواكب في أبراج معينة وبين الأحداث، أي أن مواليد برج معين تتميز شخصياتهم بظواهر معينة تختلف عن مواليد الأبراج الأخرى.

ولقد حرر العلماء المسلمون علم الفلك الحديث من خرافات التنجيم القديمة وفرقوا بين التنجيم وبين دراسة الأفلاك؛ ومواقع النجوم، ولكن دعاة التلمودية يحاولون إعادته مرة أخرى إلى الأساطير.

والحق أنه لا صلة مطلقا بين الكواكب وبين ميول المواليد، أو شخصياتهم ولا توجد أي إشعاعات خاصة نابعة من هذا الكوكب أو ذاك تؤثر على الناس.

خلط العلوم بالأساطير:

ولقد تبين أن معظم الباحثين في علوم النفس والأخلاق، يعتمدون على بعض الأساطير القديمة الزائفة، في إقرار أوضاع معينة على أنها حقائق - كما فعل «فرويد» في تحليل أسطورة أوديب - التي أقام عليها نظريته، وقد اختار الرموز الأصلية لنظرياته في العقل الباطن والغريزة الجنسية من واقع هذه الأساطير وكذلك فعل«سارتر».

وكلها كما قلنا محاولات لسد الفراغ النفسي لدى الإنسان إزاء الجوانب التي يخشاها ولا يعرف مصدرها، ولا ريب أن هذا كان بضاعة الوثنيين، وما زال صناعة الكارهين لدين الله الحق، ذلك أن دين الله منذ أول البشرية قد قدم لمعتنقيه الإجابات الكاملة لكل هذه التساؤلات وهدى نفوس البشر إلى الحق والهدى، وقد

قاومت الأديان كلها الكهانة والعرافة (الكهانة تعني استطلاع المستقبل بينما تعني العرافة استرجاع الماضي) والقاسم المشترك بينهما هو استطلاع الغيب والتنبؤ.

ولا ريب أن لدين الله الحق موقف مضاد للكهانة وهو يعتبرها قد انتهت بعد النبوة «لا كهانة بعد النبوة»، وقد أكد الإسلام أن الغيب ملك لله تبارك وتعالى وحده وأن من قصد عرافاً فصدقه لا تقبل صلاته أربعين يوماً.

الوسائل:

وجملة القول في هذا أن الأسطورة هي بديل الحقيقة، وعندما تختفي الحقيقة تنشأ القصة الخيالية، والحقيقة هي الوحي . ولقد جرت في السنوات الأخيرة محاولة واسعة لإعادة طرح الأساطير اليونانية والعربية القديمة، عن طريق الأدب: «الشعر والقصة» وأعيد عرض هذه الخرافات الوثنية بأساليب جديدة عن طرق فنون المسرح والشعر الملحمي، والنقد الأدبي، وحشدت أسماء كثيرة لإعادة كتابة تاريخ الأسطورة في الآداب العالمية، وكل هذا ولا شك يرمي إلى تحقيق هدف خطير، هو شغل الأذهان بأهواء البشرية وضلالاتها في مرحلة طفولتها، ودفع ذوي الأغراض إلى الأسطورة التى تمثل طفولة الإنسان فى مرحلة انحرافه عن الدين الحق، إلى أن تصبح مصدراً من مصادر المعرفة، وتوجه نحوها دراسات نفسية واجتماعية بقصد إحياء الوثنية القديمة الممثلة في بروميثوس، وجلجامش، واوزيريس، وعشتروت، وزينوس.

هذه الأساطير التي تحاول أن تعارض الإله الواحد والدين الحق، وتقدم مفهوماً زائفاً عن العلاقة بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان بما تحمل من تعدد في الآلهة، بتقديم القرابين تارة، وما تصوره من صراع دائم بين الإنسان وبين

الآلهة تارة أخرى، هذه الآلهة الظامئة إلى الشر والانتقام وما يكون دائماً من هزيمة الإنسان أمام الآلهة.

مفهوم الدين الحق:

وهذا في جملته غير صحيح في النظر العلمي الصحيح، وفي مفهوم الدين الحق، الذي يتمثل فيه الله تبارك وتعالى إلهاً واحداً رحيماً يقبل التوب ويغفر الذنب وهو بعباده غفور رحيم، وكيف أن العلاقة بين الإنسان وخالقه علاقة عبودية وإيمان وتسليم (إيمان بالبعث والجزاء وتسليم بالقضاء والقدر) وتقبل كامل لعطاء الله كله وأمره كله فليس هناك ما يومئ من قريب أو بعيد إلى هذا الذي يصورونه زيفا باسم الصراع بين الإنسان المسلم وجهه لربه وبين الخالق الرحيم، ولقد زيفا الدين الحق مفاهيم الأساطير ورجال اللاهوت حين ردوا الأمراض إلى عوامل خفية، منها حقد الشيطان وغضب الله، وما يتصل بذلك من مفاهيم زائفة في السحر والجن والخوارق، حتى ردوا الأوبئة والزوابع والقحط وكسوف الشمس وخسوف القمر إلى الشياطين.

كذلك فقد فرق الدين الحق بين الألوهية والنبوة، وبين النبوة والإنسان على نحو يحول دون هذا الخلط الذي تقع فيه الأساطير بين الآلهة وأنصاف الآلهة وبين الأبطال، وبذلك دحض فكرة أن يكون هناك آلهة لكل عالم من العوالم كآلهة الجبال والأمطار والرياح والحرب والخمر والجمال، أو أن يكون هناك أنصاف آلهة من الأبطال القادة: وسجل هذا سيدنا يوسف على قومه من وقت بعيد حيث قال:

﴿ ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهارُ ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل اللهُ بها من سلطان ، إن الحكمُ إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمون ﴾ يوسف : ٣٩، ٤٠.

وهكذ جاءت أديان السماء ، لتنسخ هذا الزيف جيلا بعد جيل ، فعلي لسان كل نبي كانت الدعوة إلى تحرير البشرية من هذه الوثنية ومن عبادة الأوثان والأصنام والتماثيل .

خرافات الالياذة والاوديسة:

والمعروف أن هذه الآلهة المدعاة لم تكن إلابشرا ، أعطي من القداسة قدرا أخرجه عن طبيعة البشر ، فوصف بمثل هذه الصفات الزائفة علي النحو الذي نراه في ملاحم الإغريق ، وكملحمة الأوديسة والإلياذه ، من ان الآلهة عند الإغريق حاقدون علي البشر ، وانها قاسية علي الكائنات الأخري يغضبون فيحولونهم إلى حيوانات أو نباتات أو أحجار أو مياه وقد وصفها الشاعر (أوفيد) بانها ينابيع النار والدمار والهوان لكل الآداب العالمية .

ويرجع وصف الآلهة بالقسوة إلى ما اوردته التوراة باقلام الأخبار من وصف الله (جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا) بالإله المنتقم القاسي .

* * *

المترجمون المسلمون أهملوا ترجمة الأساطير:

ترجمت إلى اللغة العربية في العصور الأخيرة أعداد من الملاحم والأساطير اليونانية والفارسية، وقد غفل القائمون على هذه الأعمال عن أن العرب في إبان نهضة الترجمة تنكبوا ترجمة الملاحم والقصة والشعر بقصد واضح، هو أنها تمثل «عواطف» "ومشاعر" أمم تختلف عن العرب في عقائدها وعاداتها وتقاليدها ، ولكن ترجمة هذه الأساطير في العصور الاخيرة ، جاء في مرحلة ضعف العرب والمسلمين عن مواجهة تيار الترجمة الخطير ، الذي قادته قوي التغريب والغزو الثقافي ، بهدف طرح سموم الوثنية في أفق الفكر الإسلامي .

ذلك أن الملاحم إنما تقوم علي تصور أحداث غير صحيحيه في طبيعتها ، وإنما هي موضوعة علي طريقة التهويل والإثارة وتضخيم الأحداث ، وتدافع الخيال فى أمواج من الخوارق التي تتنافى مع طبيعة النفس العربية والإسلامية ومع واقع الحياة نفسها ، وقد قصد بإنشاء هذه الملاحم والاساطير في بيئاتها تغيير وجهة الناس وتفكيرهم عن واقعهم المرير ، إلي أجواء من الوهم والخيال ، ومن هنا فقد أعرضت الطبيعة العربية الإسلامية القائمة علي الفطرة والبساطة والواقع والصدق عن هذه الملاحم ، هذه الطبيعة التي تستمد مقوماتها من خصائص مختلفة عن هذه الأحقاد والأهواء والمطامع والقتل والتدمير ، فالنفس العربية الإسلامية تستمد خصائصها من الشهامة والكرامة والفروسية بكل مقومات المروءة وحماية الأعراض ، والدفاع عن الجار وصفات الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف.

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي * حتي يواري جارتي مأواها

هذه الخصائص العربية الإسلامية بعيدة عن المباغتة والعنف وصناعة الوقائع الأسطورية ، مرتفعة عن الخوارق عازفة عن الأهواء المضلة، هذه الطبيعة في

الحقيقة استمدها العرب والمسلمون من ميراث الأديان والنبوة بدءاً بالحنيفية الإبراهيمية السمحاء ومتصلة بالنبوة المحمدية الكريمة، ولذلك فقد رفضوا هذا اللون من الملاحم والأساطير وأعرضوا عنها، خاصة وقد قدم لهم القرآن الواقعة الصحيحة والتاريخ الصحيح لكل ما حاولت الأساطير تصويره بالخداع والباطل: من أمثال الطوفان وأهل الكهف وسليمان الحكيم وذي القرنين: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ..

* * *

نزعات لا يقبلها الإسلام:

وإذا كانت الأسطورة - كما تقول مصادر البحث الأدبي العالمية - تمثل الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية، فإن هذه النزعة وثنية في طابعها، ولم يكن من الممكن أن يتقبلها الإسلام أو يقرها، ذلك - وكما قال أحد كبار الباحثين الغربيين «جوستاف فون جرنبوم» - إن مفهوم الإنسان في الإسلام يمنع وقوع أي صراع درامي. ومن هنا فإن عزوف الأدب العربي والإسلامي عن التمثيل والقصص والملاحم يرجع إلى طبيعته الأصيلة القائمة على الواقعية والوضوح، إن هذه النزعة - نزعة الصراع بين الإنسان والقوى الإلهية نزعة وثنية في طابعها لا يعرفها الإسلام، ولا تتمثل في نتاجه الأدبي أو الفكري، فلماذا هذه المحاولات الضخمة، التي يقدم بها بعض الشعراء، والقصاصون - التابعون للتغريب والغزو الثقافي - على طرح هذه الصور القائمة في أفق الفكر الإسلامي والأدب العربي الذي لا يتقبلها ويرفضها كما يرفض الجسم العنصر الغريب، فضلاً عن أن هذه الروايات والملاحم تغلب عليها روح الزندقة والإلحاد، وهي تتسم بفهم سيء لعلاقات الرجل والمرأة، فهي مكشوفة إباحية، وهي في مجموعها تصدر عن معين مسموم، وهي توصل أذى السم إلى قارئها فتفسد نفوساً زكية وأرواحاً طاهرة.

وما الهدف؟

ولا شك أن الهدف من هذا هو نفس الهدف الذي ترمي إليه دعوة التغريب: من إفساد عقليات الشباب المسلم وعواطفه فضلاً عن خلق مفهوم منحرف عن مفهوم الأصالة والفطرة التي جاء بها الإسلام.

وحين نراجع ذلك الركام الذي ترجم في السنوات الأخيرة من أمثال قصص توفيق الحكيم «بيجماليون»، «أهل الكهف»، «الملك سليمان» وما نشره على محمود

طه من شعر في ديوانه «أرواح وأشباح» نجد هذا الالتقاء بين أساطير اليونان والمسيحية والفراعنة، وتراث بابل وآشور والإسرائيليات اليهودية، في محاولة لاحتواء الفكر الإسلامي والأدب العربي اللذين هما بطبيعتهما يتعارضان مع هذا التيار الخيالي المغرق في المبالغة الوثني الاتجاه، بما أعطى الإسلام هذا الفكر وهذا الأدب من طابع الوضوح والصراحة والطبيعة المشرقة «ليلها كنهارها» وحيث لا يعرف الإسلام في باب القصة إلا القصة الواقعية الصادقة البعيدة عن الزيف، المتحررة من التفاصيل الوهمية، الهادفة إلى تقديم العبرة الخالصة ، بعيداً عن التخيل والمبالغة والتأثير الخطابي.

ولا ريب أن هذه المحاولة الجديدة التي قامت بها قوى التغريب تستهدف ما عجزت عنه هذه القوى في الماضي حين رفض المسلمون ترجمة الملاحم والأساطير، ولذلك فإنه يجب التنبه لها ودحضها ومدافعتها بكل قوة وكيف يمكن أن يقبل هذا أهل الإسلام، - وقد جاء الإسلام لينهي طفولة البشرية وليعلن دخولها في مرحلة الرشد الفكري، - هذا اللون من الأدب أو القصة، وقد أعلن الباحثون في العصر الحديث أن الأسطورة من مخلفات طرائق في السلوك والتفكير وعادات مندرسة، حافظت على تفسير ساذج للعالم الخارجي.

لا حاجة بنا إلى هذا اللون:

ولا أعتقد أنه بعد أن تحدد هذا الموقف العلمي وبعد أن أعطى المسلمون منهجاً كاملاً للميتافيزيقا (علم ما وراء المادة) لم يعودوا ، في حاجة إلى إعادة هذا اللون من مخلفات الجاهلية الوثنية القديمة، التي فصل الإسلام بين البشرية وبينها بأضوائه الساطعة، وليس أدل على تخبط الغرب من أنه في الوقت الذي يعلن فيه أن ينطلق في أبحاثه من النهج العلمي، أن يقبل هذه الأساطير لتقيم عليها نظريات وفروض ويعيد العالم من جديد إلى عصر الأسطورة والغاية ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧) ..

ولعل من أخطر الدعوات التي يروج لها التلموديون هي محاولة إجراء المقارنات بين الأساطير وبين الأديان، وقولهم إن الأديان القديمة ما هي إلا مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلا للتلهية وإمتاع الخيال، ومن وراء ذلك القول المسموم هدف مبيت ترمي به اليهودية إلى إثارة التشكيك في دين الله الحق الذي صاحب البشرية منذ نشأتها الأولى وهداها جيلاً بعد جيل إلى الحق ..

وبالجملة فإن القرآن الكريم، حين نزل وهو ما يزال وسيظل هدى للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قد ألغى تراث الأسطورة كله، وقدم بدلاً منه تقريراً صادقاً حقاً، في كل ما يتعلق بحوادث التاريخ ووقائعه القديمة التي وصفت بأنها أساطير، وزيفت في العرض في العهد القديم، وخاصة فيما يتعلق بنشأة الحياة والطوفان وغيره «سفر التكوين» وقد أعلن القرآن – صادقاً – أن ما يقدمه هو الحق الذي لا مرية فيه. كذلك فإن الأدب العربي لم يكن في حاجة إلى الأسطورة، لأنه قام على الحقيقة نفسها، ذلك أن الأسطورة لم تكن في عرف أصحابها إلا محاولة لملء فراغ الخيال بالنسبة لأمور غائبة، وقد قامت على معنى متوهم. بأن هناك فراغاً بين الإنسان وقوى الغيب وليس هذا صحيحاً وقد جاءت الأديان السماوية – ديناً بعد دين – لتنفيه وتكذبه – وقد أكد الأسلام حين طبقت تعاليمه أن ما بين الإنسان وربه هي رابطة العبودية بين المخلوق وخالقه، ورابطة التكامل بين الإنسان والكون، فهي رابطة العطاء المذلل للإنسان.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ (الملك: ١٥) ..

ولم يعرف المسلمون الأساطير في تاريخهم كله لأن الحقائق التي جاءتهم من رسالة السماء كانت كافية ومقنعة.

(٦٨)
الفكر البشري القديم

المؤامرة الخطيرة التي تواجه الفكر الإسلامي في العصر الحديث، هى محاولة قوى التغريب (الاستشراق والتبشير) إعادة طرح الفكر البشري القديم الوثني والإباحي مرة أخرى، لتزييف هذا الفكر القرآني الرباني وتمييعه واحتوائه.

ولقد كان الفكر الإسلامي دائما متفتحا لثمرات الفكر الإنساني، ولكنه كان قادرا حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف على المحافظة على ذاتيته، والحيلولة دون انصهاره في الفكر الأممي، ذلك لأن مقوماته الأصلية وقيامه أساسا على التوحيد، حال دائما دون الانصهار وهذا الاحتواء الذي فرضه الغزو الخارجي عليه.

بين جولتين:

وقد كان الفكر الإسلامي في الجولة الأولى (إبان ترجمة علوم اليونان والفرس والهنود) في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني وحتى القرن الثالث، قادرا على أن يتوقف دون ترجمة الفلسفة والقانون والشعر أول الأمر، ثم لما ترجمت الفلسفات واجهها علماء المسلمين في قوة، وكشفوا عن أن منهجها لا يتفق مع منهج التوحيد.

أما في الجولة الثانية (هذا العصر) فقد استطاع النفوذ الأجنبي أن يفرض ترجمات كل ركام الفكر البشري ووثنياته وإباحياته، من أساطير وشعر وفلسفات مادية، دون أن يكون هناك حائل لذلك، وأن تمكن إعلام حركة اليقظة الإسلامية من كشف زيف هذا الركام البشري.

ولقد كان هدف دعاة الغزو الفكري من هذه الخطة إعادة الفكر إلى الإيمان بالجبر، وعودة الإنسان إلى الوثنية، والدعوة الملحة إلى الانطلاق من القيم والتحرر من الأخلاق إلى حيوانية الطعام والجنس.

* * *

أخطر ما طرح في أفق الإسلام:

ولعل أخطر ما طرح الفكر البشري في أفق الإسلام في العصر الحديث:

١- النظريات المادية الماركسية.

٢- الأخطار الفلسفية والوجودية.

٣- الكشوف الانثروبولوجية التي دعت إلى استغلال الأسطورة في تفسير الحياة الإنسانية.

٤- المذاهب الفلسفية التي ردت الإنسان إلى الحيوانية.

٥- نظرية دارون.

٦- مقارنات الأديان التي تقوم على أكذوبة أن البشرية كانت وثنية ثم اعتنقت التوحيد مع ظهور اليهودية.

ولقد دعا الإسلام معتنقيه إلى اليقظة تجاه الفكرالوافد وحرر أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه، ودعا إلى الحرص إزاء محاولة أعداء الإسلام تغيير المعالم الأصيلة للعقيدة الإسلامية والفكر والثقافة ومحاولة تزييف مزاج المسلمين النفسي.

٧- وكان أعداء الإسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى القضاء على «وحدة الفكر الإسلامي» هو ضرب الأمة من خلال قوائم فكرها بإثارة الشبهات وإدخال مفاهيم وتفسيرات غريبة تختلف عن التفسيرات الأصيلة.

ميزة الفكر الإسلامي:

كذلك كان أكبر ميزات الفكر الإسلامي، هى قدرته الواضحة على التماس

المنابع حين يفتقد النص القرآني أو التوجيه النبوي، فهو حين ينفتح على الثقافات العالمية يأخذ منها بحذر ولا يأخذ كل شيء، ويرد الباقي من السيل المتدفق الذي يقدم إليه، فهو لا يأخذ إلا ما يتفق مع الأساليب والوسائل ولايناقض الأصول، وما يتفق مع طابعه وما يزيده قوه ، وكل ما يأخذه يصهره في بوتقته صهرا تاما ويحيله إلى طابعه.

ولقد كان الفكر الإسلامي ولا زال – وسيظل – قادرا على أن يعمل داخل الإطار الذي رسمه القرآن وحدده ، وأن يحكم المسلمون على كل ما يواجههم في ضوء القرآن والسنة لا يتعدوهما إلى مصدر آخر.

وفي هذا المجال فرق الفكر الإسلامي بين المعرفة والثقافة، فالمعرفة عامة والثقافة خاصة، ولكل أمة ثقافتها المستمدة من عقيدتها وشريعتها وأخلاقها ، كذلك فرق بين العارض والأساسي، وبين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية، ودعا إلى وحدة الفكر في قطاعاته المختلفة فلا سبيل لفهم قطاع من الفكر الإسلامي وحده منفصلا عن قطاعاته الأخرى.

كما فرق بين مقاييس العلوم التجريبية ، ومقاييس الدراسات الإنسانية التي لا يمكن أن تخضع لأساليب العلوم التجريبية والمادية، لأنها تتصل بالنفوس والأخلاق، كما رفض الفكر الإسلامي مبدأ التقليد الأعمى ومبدأ التبعية وأقر مبدأ الأصالة والتماس المنابع.

تكامل أبعاد الفكر الإسلامي:

وقد قام الفكر الإسلامي في تكامله على أبعاد ثلاثة:

أولا : عمق زمنـــــي: يربط الإنسان بالتاريخ والزمن والواقع وقضاياه الحية.

ثانيا: اتساع مكاني: يربطه بالاحداث العالمية في العالم المحيط به « وهذا هو الشطر الذي يعتبره الفكر الغربي الحديث أساسا وحيدا للفكر » أما الإسلام

فإنه يعترف بعلاقة البيئة ولكنه لا يراها العلاقة الوحيدة.

ثالثا: تكامل موضعي بمعنى وضع الجزء في مكانه من النظرة الكلية الجامعة.

وقد عارض الفكر الإسلامي: «الجمود» الذي يزدي بقيمة العقل ويحط من كرامة الإنسان.

وعارض التعصب: الذي يمنع الإنسان من تقليب وجهات النظر المختلفة.

كما عارض التقليد: الذي يجعل الإنسان تابعا للقديم أوالوافد دون فحص أو تمحيص.

ثم إن الفكر الإسلامي يعارض كل ما يصادم قوانين الكون ونواميس الوجود والحياة ويرى أن كل شئ يبدأ من نقطة ثابتة وينتهي إليها (حركة في إطار ثابت) وأن كل شئ يبدأ صغيرا ثم ينمو حتى يكتمل ثم يعود مرة أخرى (كالطفل والقمر).

وقد رفض الفكر الأسلامي المنطق اليوناني الذي يقوم على القياس والاستدلال النظري وأقام منطقا جديدا مستمدا من خصائصه وهو المنهج الحسي التجريبي، وأعلن أن القياس المنطقي ليس كافيا وحده في إقامة النظريات خاصة التي تعارضت مع واقع التاريخ، وأن الاستشهاد بوقائع غامضة من التاريخ – كما فعلت نظرية ماركس المادية – هو أيضا زيف.

بين الفكر واللغة:

وأسوأ أنواع القياس: القياس الفاسد الذي لا تؤيده حقيقة علمية وكشف الفكر الإسلامي عمق الارتباط بين الفكر واللغة وأن «منهج البحث» لأي فكر هو ما يطلق عليه لاتينيا أسم «الاورجانون» يستند أساسا إلى خصائص اللغة، ولذلك فإن منهج المعرفة الإسلامي لا يمكن أن يستند إلى خصائص لغة غير اللغة العربية،

وذلك لأن لكل لغة منهجها القائم على معانيها ومضامينها، وقد هاجم المسلمون المنهج الأرسطي، وكشفوا عن أنه قائم على خصائص اللغة اليونانية التي تخالف اللغة العربية، ولذلك فهم لا يقبلون به.

كذلك الأمر بالنسبة إلى المنهج الغربي الوافد ذلك أن الفكر الإسلامي لا يستطيع أن ينطلق إلا من خلال منهج البحث الخاص به المستمد من اللغة العربية أولا.

كما أعلن عن أن كل نظرية أو مذهب قامت أو قام في مجتمع ما إنما أقامها أهلها على مقياس مجتمعهم. وفي ظل تحدياته الواقعية والتاريخية معا. فهى ليست سوى استجابة ظرف وبيئة. وكذلك فهى سرعان ما تتحول مع مرور الزمن إلى أداة عاجزة عن تحقيق الهدف فيضاف إليها ويحذف منها. ولذلك فإن نقلها في حد ذاته إلى بيئات أخرى لا يحقق نتيجة ما، لأنها كالبذر الغريب، لا ينبت في غير تربته، ولقد كان المفكرون المسلمون على يقظة تامة إزاء هذا الملحظ الدقيق.

الديمقراطية والماركسية في أفق الإسلام

ولقد كان لطرح المذهبين: الديمقراطي والماركسي في أفق الفكر الإسلامي، أبعد الأثر في الاضطرابات التي أصابت المجتمع الإسلامي خلال القرن الماضي، فقد اقتسم المذهبان مؤامرة الهدم.

فاحتضنت الماركسية هدم الدين والعقائد والتشكيك في القيم الانسانية والنفسية والمعنوية.

واحتضنت الديمقراطية هدم الأخلاق ونشر الإباحية والتحلل وتوجيه السلوك توجيها يعلى شأن الغريزة وانطلاق العاطفة والشهوات والأهواء.

وقد تبين أن جميع أنظمة الغرب، لليهودية العالمية إصبع في وضعها، أو في احتوائها أو تعديلها وتفسيرها ونشرها، وقد خضعت إما لمصلحة أصحاب رؤس

الأموال وأما لمصلحة طائفة أخرى من أهل النفوذ والسلطان. والنظام اليهودي، قائم على تبادل المنفعة، والقانون عندهم هو الذي يتمشى مع القانون ولا تعاقب عليه المحاكم. أما النظام الإسلامي فهو قائم على مبدأ «الإيثار المتقابل».

وقد تبين للفكر الإسلامي أن المذهبين الفردي والماركسي يتقاربان في عديد من وجهات النظر، بل إنهما يقومان فعلا على مفهوم التفسير المادي للتاريخ الذي أوشك أن يكون أساسا للرأسمالية والماكسية معا، وإن كان الغرب لا يعتمدها وحدها في تفسير الوقائع ويضيف إليها التحليل النفسي الفرويدي (أي ماركس وفرويد معا).

وقد ظهرت نزعات العنصرية تحت اسم القوميات، كمقدمة لظهور العنصرية اليهودية، وكانت اليهودية العالمية تحمل لواء الرأسمالية والاشتراكية معا، وهى التي خلقت الصراعات والمعارك بين الأمم تحت هذا اللواء أو ذاك، وهى التي حملت النظرية المادية في الغرب والنظرية الاستشراقية في الشرق، ومن وراء الهيبز والبوذيين في نفس الوقت، ودعوات العلمانية والنيوصوفية جميعا.

وهى التي قامت من وراء الروحية الحديثة التي تدعو إلى ظهور إله جديد أسمه «سلفريرش» ومن وراء العقلانية التي تنكر كل ما وراء الحس، وهى التي دعت إلى أن الجنس عملية بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق، وأن الدين شخصي لا علاقة له بواقع الحياة، في محاولة لهدم الأسرة والأخلاق، أو القول بأنه لا علاقة بين اللباس والأخلاق، أو أن المجرم مريض، وليس مذنبا، أو السخرية بعفاف المرأة والبكارة في محاولة لدفع البشرية كلها إلى الوثنية والإباحية.

وهكذا يطغي الفكر البشري في هذا العصر مكتسحاً مفاهيم الخلق والدين والرحمة والكرامة الإنسانية، ولم تعد هناك قوة قادرة على مواجهته وصد موجته غير الإسلام: دين الله الحق الباقي، على حمل رسالة التوحد الخاص إلى العالمين.

ولقد حاولت قوى التغريب والغزو الفكري إثارة الشبهات حول الفكر الإسلامي وانتقاصه بدعاوى عدة: منها...

أولا: وصف الفكر الإسلامي بالذرية (أي بالتجزئة والانفصال).

وهذا خطأ محض، لأن الإسلام إنما يقوم أساسا على التكامل وعلى التقاء العناصر المختلفة في كل موحد، وهو في هذا يختلف عن الفكر الغربي القائم على الانشطارية أساسا، وعلى الفصل بين الدين والدولة، بين الدنيا والآخرة، والذي يعلي من شأن المادية.

وقد استمد شبهة الذرية من إنتاج مرحلة الضعف والتخلف، حين علت نزعة جبرية الصوفية ومن قبلها علت نزعة عقلانية الاعتزال، وكلاهما لا يمثل الإسلام، لا يحكم على الإسلام بأحدهما، وإنما يحاكم بمفهومه الأصيل في عصر قوته، وهو المفهوم الجامع الذي يقوم على أساس ترابط القيم والعناصر، وربما ارتبطت صفة الذرية بالعقل حين يعجز عن النظرة الكلية، التي تلتمس الأبعاد الكاملة ولكنها في الواقع تتعارض مع مفهوم الفكر الأسلامي المستمد من جوهر الإسلام والقائم على التكامل والوسطية.

ثانيا: القول بأن الفكر الإسلامي فكر تجريدي..

وهذا خطأ محض، وأمامنا ثمرات الفقه والتشريع والعلوم كلها تكذب هذه النظرية فإن الأصول كلها ترينا واقعية الفكر الإسلامي، وكيف أنه يتناول كل حادث يقع في حينه، ثم يتناولة بالبحث ويضع له الحلول بل إن الفكر الأسلامي أكثر أيغالا في الواقعية من الفكر الغربي حيث يتناول الفقه مفردات الحياة اليومية ولا يقتصر على مسائل العبادات كما هو في بعض الأديان.

ثالثا: وصفه بالضعف وأنه مثل التولستوية أو الغاندية ذات طابع الاستسلام

ولا ريب أن الإسلام بعيد عن طابع هذه الدعوة التي تقوم على القضاء على

مفهوم الجهاد الإسلامي، وإنما يقوم الإسلام على القوة والرحمة معا، كل في موضعه، ودعاة هذا المذهب يحاولون تصور الإسلام معهم، أو هم يريدونه هكذا، وهم بذلك ينكرون جانباً هاما من جوانبه فالإسلام يقوم على السلام والتسامح في نفس الوقت الذي يقوم فيه على المقاومة والقوة إذا انتكهت أرضه أو قيمه.

رابعا: خطأ القول بديمقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام

فالإسلام ليس منهجا خاضعا للأيدولوجيات البشرية وليس مبررا لأوضاع المجتمعات العالمية المنحرفة الفاسدة، وقد تلتقي بعض الخيوط هنا وهناك مع العدل الاجتماعي الإسلامي أو الشورى الإسلامية، ولكن يبقى للإسلام منهجه الكامل الجامع الرباني المصدر، الإنساني الوجهة، الذي يستطيع أن يعايش الأمم والحضارات والعصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، دون أن يعتوره نقص أو يحتاج إلى إضافة.

الحسم والفصل:

وبعد. فيجب أن يكون موقفنا من الفكر الغربي (والفكر البشري بعامة) حاسما فاصلا، وقد آن الأوان أن تبدأ رحلة المواجهة الفاصلة حتى يعرف كل دارس للفكر الغربي مدى صلته بالفكر الإسلامي أو بعده عنه ومدى سلامته أو عجزه، ومدى صلاحيته أو فساده، ونعجب أن نقرأ في بعض المجلات العربية الإسلامية دفاعا عن الفكر البشري الوثني المادي.

ولقد بدأ مشرق القرن الخامس عشر «عصر المواجهة» أو عصر الرشد الفكري، وأمامنا قول رسول الله ﷺ : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

ولا ريب أن الغرب يخاف نهضة العالم الإسلامي من خلال الإسلام ، ذلك أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع

ومدنية كاملة ولما كان الفكر الإسلامي الأصيل (فكر أهل السنة والجماعة) لم يستسلم طوال أربعة عشر قرناً أمام الفكر الوافد الغريب فإنه لن يستسلم في هذا العصر وقد أعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا، وكشف زيف الدعوات الهدامة والأيدلوجيات الوافدة، وقد ظل دوماً وجيلاً بعد جيل يواجه هذه النظريات ويدلي برأيه فيها، لا يتوقف عن المعارضة ولا يتقبل كل شيء كما هو بل يرفض قبول كل ما لا يتفق مع أسسه وأصوله مع سماحته المعهودة في القبول والرفض.

عزة المسلم بالله واعتزازه بإسلامه:

يقول ستوك هروجنيه: لا أعتقد أن الإسلام يسقط أمام النصرانية؛ لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبي، فهو يرى النصرانية شيء مضى ويرى تدينه بها خطوة إلى الوراء.

ويقول ولفرد كانتول سميث: ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم. إن الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه «أسلوب حياة» تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بتفكيره.

ويقول بارتملي سان هيلر: إن الإسلام قد أحدث رقياً عظيماً جداً، فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد، وبين أيدي الكهنة فارتفع إلى الأزلي واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، وأن تحريم الإسلام للصور في المساجد قد خلص الفكر الإسلامي من وثنية القرون الأولى .. والعودة إلى خالقه».

وهكذا شهد علماء الغرب بأصالة الإسلام وفساد الفكر البشري ولكن القوى التي

تستهدف السيطرة على العالم بعد تدميره أخلاقياً هي التي تعمل على طرح الفلسفات والوثنيات والمذاهب الهدامة والمادية في أفق الفكر الإسلامي باعتبار الإسلام هو العقبة الوحيدة و«الصخرة الكبرى أمام تلك المؤامرة الخطيرة. وهذا كله إجمال له تفصيل.

* * * *

* * *

*

(٦٩)
الخلافة الإسلامية

عندما أسقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤، كان ذلك مخططاً خطيراً قوامه النفوذ الأجنبي والصهيونية والشيوعية الذي كان قد بدأ في إعداد هذا العمل سراً منذ أكثر من مائة عام، من خلال جماعة الدونمة - (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢، وأقاموا في سالونيك ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار «القضاء على دولة الرجل المريض » ، خاصة بعد أن حمل «السلطان عبد الحميد» لواء الدعوة إلى «الجامعة الإسلامية» بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميعه المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك-.

ومن هنا كانت خطواته إلى القضاء على الفرقة التي عمقها الاستعمار بين الترك والفرس، وكانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية الإسلامية، أمراً بالغ الخطورة ، قوبل في الغرب من القوى الثلاث بمؤامرات ضخمة، امتدت قرناً كاملاً، على النحو الذي صوره بها وزير إيطالي منصف: تحت عنوان: «مائة مؤامرة على الدولة العثمانية».

ومن هنان يتبين أن «الخلافة الإسلامية» لم تسقط بجرة قلم عام ١٩٢٤ عندما ألغاها مصطفى كمال أتاتورك، وإنما يمكن أن يقال: إن هذه كانت آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق، إمتدت سنوات طويلة، وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة في تمزيق العالم الإسلامي، مثل انجلترا وفرنسا، ومنها ما كان يهدف إلى الوصول إلى فلسطين وقلب القدس كالصهيونية العالمية، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية في تلك المعونة الضخمة التي قدمتها لحكام تركيا بعد إسقاط الخلافة.

ولنعلم أن المحاولات التي جرت عام ١٩٠٨ لإسقاط السلطان عبد الحميد كانت

هي المقدمات الحقيقية لإلغاء الخلافة، فقد كانت فكرة عبد الحميد كما ذكرنا أن يمتد نفوذ الخلافة فيشمل عالم الإسلام كله، ولا يتوقف عند حدود الدولة العثمانية، وقد أخذ عبد الحميد بهذه الفكرة كخطة حاسمة لمواجهة محاولات الغرب.

قوة تواجه زحف الطامعين:

ومنذ تولي عبد الحميد، ورأى انتفاض البلقان على الدولة، ركز على دولة إسلامية جامعة تحمل لواء الوحدة الإسلامية، وتضم مختلف المسلمين، الذين هم خارج نطاقها السياسي إليها، باعتبارها قوة تواجه الزحف الغربي الطامع إلى تمزيق أديم عالم الإسلام والسيطرة عليه. ولما نجحت الخطة وكادت تؤتي أكلها، والتقى شيعة إيران مع سنة تركيا لأول مرة، بعد أن حفر الاستعمار بينهما خندقاً عميقاً منذ ثلاثة قرون أو تزيد، عجل الاستعمار والصهيونية بالقضاء على عبد الحميد خاصة، لموقفه الحاسم في الحيلولة دون وصول اليهود إلى فلسطين.

والمعروف أنه لما ظهرت حركة الاتحاد والترقي داعية لتغريب تركيا. احتضنتها المحافل الماسونية، وحولتها من خطة إصلاح عثمانية داخل الدولة الإسلامية الكبرى إلى خطة تغريبية عنصرية، تحمل لواء «الطورانية» وتدعو إلى تتريك العرب ودفعهم إلى التماس مفهوم الماسونية في الثورة الفرنسية والاستجابة له.

وبذلك كانوا جمعاً غربي الفكر، وكانت مفاهيم القوميات والإقليميات والطورانية والعنصرية، قد سيطرت على فكرهم واستهدفت الانفصال عن المفهوم الإسلامي والكيان الإسلامي. وقد ظلت الفكرة في حضانة «الدونمة» و«الماسونية» منذ بدأت، حتى استطاعت أن تصرع الوحدة الإسلامية الجامعة بانتزاع عبد الحميد من مكان القيادة - باعتباره صاحب مبدأ الوحدة الإسلامية -.

ثم جاء الاتحاديون، فأقاموا عهداً أسود في تركيا منذ ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ثم لبسوا ثوباً جديداً أسموه «الكمالية» وهو امتداد لهم أشد خطراً

وأعمق أثراً، جاء بعد أن كسبوا ما كسبوه من نصر باسم الإسلام، ثم استداروا عليه استدارة كاملة بعد أن كان هو الورقة التي حققوا بها النصر.

وجه كالح صريح:

وقد وردت في المواثيق التي كشف أمرها أخيراً موافقتهم على خلع الإسلام واللغة العربية والمحاكم الشرعية وملابس الإسلام وشريعته ثمناً لتخليصهم من الاحتلال البريطاني واليوناني، وكان إعلان تركيا دولة علمانية كفيلاً بأن يحقق لها رضاء الغرب وتسليمه وتحريره.

فقد انفصلت تركيا عن الأمة الإسلامية واندمجت كلياً في الغرب العلماني، وسرعان ما حَققت الأمل الذي طالما طاف بأحلام الغرب - روسية وانجليزية وفرنسية ويهودية - وهو أن يقضي مسلم بيده على خلافة الإسلام.

ولكن أتاتورك لم يكن مسلماً في حقيقته وإنما كان من الدونمة - التي تخفت تحت صورة الإسلام لتحقيق كل ما استطاعت أن تحققه في تركيا، وكان همه الأكبر «إسقاط الخلافة» وفي سنوات قليلة من ١٩١٨ - ١٩٢٤ تحولت تركيا - دولة الخلافة العثمانية وتاج العالم الإسلامي - إلى دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم - تراث الإسلام - وتقاوم رجاله ودعاته ومؤسساته.

وهكذا سقطت الخلافة بمؤامرة مشتركة بين اليهود الدونمة والاتحاديين الكماليين، والقوى الاستعمارية الغربية وروسيا.

استبداد دموي:

وما أسقطت الخلافة بأسلوب الإقناع والتغيير النفسي والفكري، ولكن بأسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم، الذي قامت به (ثلة) أعدت وخططت لذلك في

مرحلتين طويلتين منذ ١٩٠٩ إلى ١٩١٨م باسم الاتحاديين، ومن بعدها إلى عام ١٩٢٤ باسم الكماليين، وهما - في الحقيقة - شيء واحد استطاع في أول الأمر أن يفتح الباب للصهيونية العالمية إلى فلسطين، بعد أن استعصى ذلك عليها طويلاً أيام السلطان عبد الحميد، وأسلمت طرابلس الغرب للإيطاليين، ودفعت الدولة العثمانية إلى أن تكون وقوداً في الحرب العظمى دون داع، حتى تنفصل عنها الشام والعراق وحتى تسلم فلسطين لليهود.

وحاولت الصحف الموالية للتغريب تصوير المسألة بصورة كاذبة مضللة، وأن تجعل ذلك الاتجاه عنواناً على التقدم، حتى خشي شيخ الإسلام - الذي أخرجوه وأقام في مصر آنذاك - من هذا التحول المحاط بهالة كاذبة من التكريم حين قال سماحة الشيخ مصطفى صبري: إنني أخاف أن تسعد بلاد تركيا وترقي بهذه الإدارة الحديثة اللادينية رقياً دنيوياً - وإن كان ذلك في غاية البعد والاستحالة - فيفتتن بها المسلمون الذي قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهي توغل في سبيل الإفلاس والاندراس.

وإنما نقول للشيخ من وراء القبر: اطمئن فإن تركيا لم تسعد وإن التجربة لم تحقق أي نجاح، ولم تتقدم تركيا عن الدول الأخرى، بل لعلها ما زالت تقاسي من جرائرها وإن جيلاً جديداً نشأ على الإسلام ويجاهد في سبيله.

حملة ظالمة:

إن أكبر ما غذيت به حملة إسقاط الخلافة كانت تلك؛ التصورات الباطلة التي نسبت إلى السلطان عبد الحميد الظلم والاستبداد، بينما كان كل ما يحاول عبد الحميد قمعه والحيلولة دونه هو سقوط الدولة العثمانية في براثن القوى الصهيونية والاستعمارية، التي كانت تريد التهامها وتقسيمها، وتسليم فلسطين لليهود، ومن أجل ذلك استحق الخلع واستحقت الخلافة الإزالة، بأيدي من تسموا بأسماء

المسلمين، وفي مقدمتهم مصطفى كمال الذي كان يدعي أنه مسلم، ويدعو المسلمين إلى الدعاء له بالنصر، حتى إذا ما وجد فرصته ضرب ضربته وسط دهشة العالم الإسلامي كله وعجبه.

وفي الحقيقة أن الخلافة لم تكن مصدر انحطاط تركيا ولا العالم الإسلامي، ولم يكن أسلوب تعديلها هو إزالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولاً ليخدعوا الناس يومئذ، إنما كان ذلك مقدمة للقضاء النهائي عليها.

وقد كانت هناك مشرعات كثيره للإصلاح لو خلصت النيات وحسن الاتجاه إلى الإبقاء على وحدة العالم الإسلامي وقيام خلافته وإذا لما وصف به عبد الحميد من تسلط واستبداد فأين منه ما قام به الاتحاديون والكماليون.. الذين باعوا آخرتهم بدنياهم..؟؟ وهو ما لم يفعله الخلفاء قط، وبينما وقف الأعزل عبد الحميد أمام قوى الصهيونية العالمية، وهي تغريه بالملايين وهي تعرف مؤامراتها وتقودها، وقد وقف صامداً لا يلين.

تمزيق الوحدة الإسلامية:

ولقد كان من وراء إسقاط الخلافة الإسلامية أهداف كثيرة، كان أكبرها تمزيق هذا الشمل الذي جمعته الوحدة الإسلامية بين مسلمي العالم، وتفريق هذا الجمع الذي ربطته الدولة العثمانية ليسهل توزيعه واحتواؤه، وتقديم فلسطين والقدس لقمة سائغة للصهيونية التي كانت وراء الربا العالمي منذ عصور بعيدة، عاملة على تقريب المسافات إلى تحقيق الغاية، من وراء الاستعمار الغربي.

ومن أهدافها محاولة حجب حقيقة الإسلام الجامعة بين الدين والدولة والقائمة على أساس أن الإسلام «دين ونظام مجتمع» وإثارة الشبهة حوله بتصويره ديناً لا هوتياً – على النحو الذي صوره به الكماليون في تركيا وعلي عبد الرازق وجماعة

خيبة الأمل في تمزيق المسلمين:

وإذا كان الهدف الأول قد تحقق لأنه داخل في نطاق مرحلة الضعف التي أرخت قبضة المسلمين عن حقوقهم وممتلكاتهم وسلطانهم، فإن الهدف الثاني لم يتحقق بعد. لأن المسلمين سرعان ما تنادوا إلى الوحدة في محاولة لاحتواء الخطر، وذلك بالرغم مما طرحه الغربيبون من مفهوم غير أصيل عن أن الإسلام دين عبادي، وأن الخلافة والحكم لم تكن من أسس الإسلام.

بل إن عدداً كبيراً من المستشرقين الغربيين اعترف بأن الإسلام ليس ديناً فحسب بل هو نظام سياسي واجتماعي أيضاً.

يقول «فيتزجرالد» في كتابه «قانون المحمديين»: على االرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير، بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم أنهم عصريون، يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح الفكر الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وشهد بذلك «تلينو» الذي قال: إن محمداً ﷺ أسس في وقت ما دينا ودولة. وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته.

وذلك ما عبّر عنه «شاخت» حين قال: على أن الإسلام يعني أكثر من دين، إنه يمثل أبداً نظريات قانونية سياسية وجملة القول أنه نظام كامل يشمل الدين والدولة معاً.

وهو ما أشار إليه «جب» حين قال: لقد صار واضحاً أن الإسلام، لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين في الحكم، وله قوانينه ونظمه الخاصة به.

هذا من ناحية (الفكرة) أما من ناحية التطبيق فإن «ألفرد كانتول سميث» في كتابه عن «الإسلام في العصر الحديث كتب تحت عنوان «الإسلام والدنيوية التركية» ما يفهم منه أن سقوط الخلافة وإلغاء نظام الإسلام في تركيا، ليس إلا عملاً قامت به جماعة حاكمة، ولكنه لا يمثل شعور الأمة، ولا يطابق سلوكها.

ويقول: «إن القول بأن الأتراك بإيثارهم الدنيوية قد تخلوا عن الإسلام لا يحظى بتأييد من الباحثين في الشرق أو الغرب، وإنما هو مجرد إحساس شائع بين الأوربيين والمسلمين في الأقطار الأخرى، والمسألة في حقيقتها لا تعدو الهيئة الحاكمة.

كما يردد الببغاء:

ولذلك فإنه من المؤسف أن يجري بعض الكتّاب العرب والمسلمين وراء مفاهيم غربية من خصوم الإسلام والدولة العثمانية، ويرددون كلماتهم ويلوكون عباراتهم ويعادون منطق الأشياء الحقيقي، فيخرجون بذلك عن دينهم وأصالتهم دون أن يقدروا النتائج التي تجيء من بعد، والتي هي أكبر من تقديرهم وإدراكهم، فنجد مثلاً الدكتور «الخربوطلي» الذي يقول في كتابه عن «الخلافة الإسلامية» هذه العبارة المريرة: «فأفلت شمس الخلافة الإسلامية إلى الأبد» وكيف يمكن لباحث أو مؤرخ أن يتنبأ بأن الخلافة قد أفلت شمسها إلى الأبد، وهل يملك من الأدلة على ذلك دليلاً واحداً أو نصف دليل وهو قول لم يقله أكثر الغربيين تعصباً ضد الإسلام.

واليوم يرى هؤلاء أنه كانوا من قصر النظر، بحيث جهلوا أن الحديث عن الخلافة الإسلامية لم يتوقف يوماً واحداً منذ ذلك اليوم، جرى في مناهج الدعوات والحركات والجماعات الإسلامية في العالم الإسلامي كله، كغاية كبرى لابد من ملاحقتها، وجرت حركات التجمع لتذكر دوماً بهذا الحق، الذي لا تطويه الأيام ولا

تخفيه الأحداث، مهما تغلف الحديث عنه بالضباب.

وما زلنا نسمع صيحات الدعوة إلى إعادة الخلافة عالية وقوية من مسئولين ومفكرين متعددين ولا يزال المؤتمر الإسلامي الذي يضم أكثر من أربعين دولة إسلامية يضع هذه الحقيقة أمامه.

الوحدة الوجدانية ثم وحدة الفكر

نعم إن المسلمين بعدإسقاط الخلافة عن طريق المؤامرة لم يستكينوا إلى الهزيمة التي فرضت عليهم، ودبرت من راء أراداتهم الحرة، ولكنهم فكروا وقدروا، وعملوا لمواجهة هذا الفراغ، فأقاموا روابط كثيرة ومؤتمرات متعددة، وإذا كانت القوى الاستعمارية قد حالت دون تحقيق الوحدة السياسية فإنهم حققوا وحدة اجتماعية ووجدانية لا تزال تنمو قوية وقادرة على أن تحقق في مطالع القرن الخاس عشر (وحدة الفكر) التي هي الأساس المكين بعودة الخلافة الإسلامية ولقد كانت الأزمات دائماً قادرة على تجميع المسلمين ووحدتهم إزاء الأحداث والأخطار.

ولم يكن عمل عبد الحميد في سبيل هذا التجمع إلا قمة الإيمان بالخطر وبالمسئولية إزاء هذا الخطر، وإذا كانت حركته إلى الوحدة الجامعة قد أجهضت فليس لأنها فشلت؛ بل لأنها نجحت نجاحاً مذهلاً مما دفع القوى الاستعمارية والصهيونية إلى القضاء عليها بإسقاطه قبل أن يتمكن من وضع القواعد التي يمكن أن تسير عليها موضع التنفيذ، ثم جرى العمل على الإجهاز على القاعدة نفسها. وإذا كان العرب بعد سقوط الوحدة الإسلامية قد تجمعوا حول وحدتهم، فإنهم لم يكونوا في ذلك عاملين على إعلاء شأن العناصر والدماء، ولكنهم كانوا يرون في الوحدة العربية حلقة وخطوة إلى عودة الوحدة الإسلامية الكبرى، ولم يكونوا يفهمون من العروبة ما فهمه الغرب من القومية، ذلك لأن العروبة إنما نشأت في أحضان الإسلام سمحة مؤمنة بالإخاء الإسلامي الأكبر، بعيدة عن العنصرية

والتعصب والصراع، وقائمة على وحدة قرآنية بالشريعة والإيمان، ولكن القوى الخصيمة هي التي أفسدت مفهوم العروبة وقطعته عن صلته بالوحدة الإسلامية.

عزل العروبة عن الإسلام:

لقدضربت القوى الغاصبة هذا الاتجاه وعزلته عن جذوره، كما ضربت من قبل الخيوط التي تجمعت في يد السلطان عبد الحميد، وهكذا فإن إسقاط الخلافة لم يكن وفق سنة طبيعية أو قانون اجتماعي صحيح، ولكنها كانت عملية إجهاض زيفت لها مبررات خادعة، استطاعت أن تضلل البعض، ولذلك فإن الخلافة الشرعية ستظل في فقه المسلمين وشريعة الإسلام، وقلوب المؤمنين وعلى أقلام كتّاب الإسلام عاموداً أساسياً، فهي جزء لا يتجزأ من الإسلام، ولعلها سقطت لتسقط معها خلافة عجزت عن تطبيق الإسلام تطبيقاً حقيقاً ، ليعود من بعد على مفهومها الأصيل وهو ما تتطلع إليه قلوب المسلمين وتهفو وتعده من آمال القرن الخامس عشر.

حقيقـة مؤكـدة:

والحقيقة التي يؤكدها الباحثون المنصفون: أن المسلمين لم يناموا على الضيم منذ أسقطت الخلافة الإسلامية وهم لا يستنيمون أو يفرطون أو يغيب عليهم مدى خطرها وجلال شأنها والآثار البعيدة التي ترتبت على حجبها.

ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم فإن الخلافة الإسلامية مبثوثة في كل أعمال التضامن الإسلامي والرابطة الإسلامية والأخوة الإسلامية الجامعة.

وقد أحس المسلمون اليوم بأن محاولات التجمع الوطني والقومي لم تنجح؛ لأنها ليست هي الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة، وأن المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوي بينهم مرة أخرى، بعد أن تراخي

في السنوات الماضية تحت تأثير الدعوات الإقليمية والقومية. غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والأبحاث والمشروعات والدعوات التي تفتح الطريق إلى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى.

ومن هذا العرض التاريخي فإننا نصل إلى حقيقتين:

الأولى: أن الخلافة هي بؤرة الجامعة الإسلامية وأن الجامعة الإسلامية يمكن أن تقوم أولاً ثم تنبثق عنها الخلافة، وأن حركات التحرر والوحدة والتقارب التي تجري اليوم في عالم الإسلام يمكن أن تحقق ترابطاً ثقافياً واجتماعياً قبل أن يصبح سياسياً وعسكرياً.

الثانية: أن المسلمين بعد إلغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدي سبا، وأن الهدف الذي كان يطمع فيه النفوذ الاستعماري قد فشل تماماً. وأن العالم الإسلامي قد تلاقى على مستويات كبيرة ومتعددة: اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الإسلامي مازال هو المصدر الأول للثقافات العربية والفارسية والتركية الهندية الإسلامية.

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسي استعماري دفين أخفى أمره طويلاً وبدقة، وَراء غلالات، فإن المسلمين قد بدت أمامهم الحقائق سافرة اليوم، وتنبهوا لما يراد بهم فسارعوا إلى اتخاذ وسائل أخرى، تمهد للوحدة فاندمجت رابطتهم في مؤتمر الحج السنوي، وفي الاتجاه إلى الجامعات الإسلامية العلمية، التي لا شك ستوحد الفكر والثقافة والتعليم، وزاد من قوة هذه الروابط تحرر دولتين كبيرتين بعدالحرب العالمية الثانية هما الباكستان وأندونسيا وعشرات الدول ذات الأغلبية المسلمة في جنوب شرق آسيا وإفريقيا، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنة والشيعة والأكراد، وتوثقت الصلات وزادت عمقاً وخفت حدة الخصومات والخلافات، التي أججها الاستعمار والنفوذ الغربي حرصاً على استبقاء التمزق والخلاف، كما كشفت الوقائع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما، وفشلت دعوات الإقليمية والقومية جميعاً، كما

فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أم الاشتراكية، ولم يعد أمام المسلمين في مطالع القرن الخامس عشر بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الإسلامية، ونظامهم السياسي على أساس الوحدة الإسلامية، وسوف تنقشع السحب التي تحجب الضوء ويجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى الالتقاء إزاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقي لعودة الخلافة الإسلامية خلال هذا القرن الجديد.

* * *

(٧٠)

التجربة الغربية في بلاد المسلمين معارضة لطبيعة تكوين الأمة الإسلامية

كشفت الأحداث المتوالية على مدى ثلاثين عاماً، أن الكيان الإسلامي مازال يرفض الجسم الغريب ولا يقبله؛ لأنه ليس من معدنه، ولأنه لا يستطيع أن يقدم له أشواق الروح، أو يتجاوب معه في أسلوبه ومضمونه وقيمه. لقد رفض الكيان الإسلامي التجربة الغربية، ليس في مجال النظام السياسي الديمقراطي الليبرالي وحده، ولكن على النطاق الأوسع في مجال الحضارة والمجتمع.

طبيعة الإسلام والشكل المرفوض:

لقد جاءت التجربة الغربية في بلاد الإسلام معارضة لطبيعة تكوين هذه الأمة، التي شكلها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً في وجوه كثيرة، وإن كانت في بعض مظاهرها تخدع الذين لا يعرفون جوهر الإسلام بالمقارنة بين الديمقراطية الغربية والشورى الإسلامية، وبينهما فروق بعيدة وخلافات عميقة.

ولقد جاءت الديمقراطية الغربية إلى بلاد الإسلام على سبيل القسر والتحكم، ولم تكن عن رغبة أو طواعية، فقد فرض النفوذ الأجنبي بالاحتلال السياسي والعسكري هذا النظام بعد أن عطل منهج الشريعة الإسلامية الذي عاشت الأمة الإسلامية في إطاره عمرها كله.

ولم يكن هذا النظام الوافد البديل إلا عاملاً من عوامل تهديم المجتمع الإسلامي وضربه في الصميم، فقد فرض عليه القانون الوضعي ونظام الربا، وأباح فيه أسلوباً من التعامل قريباً من الإباحية وحمى التفسخ، وأتاح لكل عوامل الفساد أن تنمو في حياطة القانون وحمايته.

ففضلاً عن النظام السياسي الذي لم يكن إلا مظهراً كاذباً يحمل طابع الديمقراطية وحكم الشعب، بينما يضمر في أعماقه تسلط الفرد الديكتاتور.

فيلسوف البرالية:

قامت الديمقراطية في الغرب على مفاهيم ميكافيلي: الذي قرر أن السياسة لا تخضع للدين ولا للأخلاق، وأن لها قواعدها المتقلبة.

والسياسة عند ميكافيلي هي: فن الوصول إلى الحكم، والبقاء في احكم بعد الوصول، وفي سبيل الوصول إلى الحكم تباح جميع الوسائل بدون استثناء ومن ذلك قولهم: إن السياسة تكتيك. لا شأن لها بالخير والشر.

فمن أراد أن يصل إلى الحكم فهذه هي الوسائل:

االقتل، والكذب، والرشوة، والمكر، والخداع، ويرى «ميكافيلي» - وقد قامت مفاهيم النظام السياسي الغربي الديمقراطي الليبرالي على ما قعده من قواعد - يرى أن السياسة لا تقوم إلا على الدسائس والمؤامرات لنيل القوة، وأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن على الحاكم أن يحقق رغبته دون نظر إلى الأخلاق والقيم.

يقول ميكافيلي: «فليحافظ الأمير على عرشه دون النظر إلى الوسائل فإنها ستبقى على الدوام معتبرة شريعة يمدحها الكل لأن العامة مأخوذون بالظواهر وبنتائج الأشياء، وأنهم هباء لا قيمة لهم ولا يحسب لهم حساب».

القفاز والمخالب:

وبهذا المفهوم جرى تطبيق التجربة الغربية في بعض بلاد عالم الإسلام ولم تكن الصورة الديمقراطية الظاهرة إلا قفازاً حريرياً يخفي وراءه الأظافر المخضبة بالدماء، والتي لا تسمح للمعارضة أو الرأي الآخر أن يكون له وجود حقيقي.

ومن العجب أن يشهد كتّاب الغرب بأن هذه الديمقراطية الليبرالية الغربية قد فشلت فشلاً ذريعاً في بلادها، ومع ذلك فقد نقلت إلى أفق العالم الإسلامي لتلقي مزيداً من الفشل.

يقول مؤلف كتاب «الثورة العقائدية»:

إن الليبرالية السياسية لم تنم نمواً طبيعياً في أية بلاد إسلامية، وأن بعض المحاولات التي جرت لنقل الليبرالية الأوربية في القرن الراهن إلى بعض البلاد الإسلامية قد فشلت.

ويبرر المفكرون المسلمون هذه الظاهرة: بأن القرآن دين ديمقراطي في جوهره، كما ينطوي على مساواة بين الناس، ولما ينص عليه من شورى قبل تقرير الأمور، ولما يؤكده من إجماع ويصر عليه من ضرورة خضوع الحاكم للشرع.

حكم الله أم حكم سيادة الأمة ؟

والواقع: أن الإسلام لا يقيم نظاماً بشرياً يسمى: «مبدأ سيادة الأمة»، ولكنه يقيم نظاماً ربانياً يسمى: «تطبيق حكم الله، وإقامة المجتمع الرباني».

ولذلك فإن الإسلام حين يأخذ بمبدأ الشورى لا يهدف إلى تحقيق ما يسمونه: «مبدأ سيادة الأمة» فإن التشريع الإسلامي في الحقيقة، هو التعبير الأصيل عن إرادة الأمة، وأن الحاكم في الإسلام إنما يهدف إلى أن يكون لهذه الأحكام السلطة العليا.

وأن محاولة جعل الأمة صاحبة سلطة السيادة. إنما هي محاولة مضللة لإخفاء وضع هذه السيادة في يد القيصر أو الديكتاتور، أو لما يهدف القيصر أو الديكتاتور إلى أن يتخفى وراء هيئة نيابية منتخبة من الشعب.

وليس الأمر في نظر رجال القانون الغربيين إلا مجرد رمز أو صورة تخفي

وراءها سلطة ديكتاتورية مستورة وراء ما يسمى: «الاستفتاء الشعبي».

ويقول الفقهاء الغربيون اليوم بمنتهى الوضوح:

إن مبدأ سيادة الأمة لا يكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسلطة المطلقة وقد يتلاءم مبدأ سيادة الأمة مع الأنظمة الديكتاتورية، فهو لا يمنع الاستبداد بل هو خطر على الحرية، لأنه ليس من شأن هذا المبدأ أن يهدف إلى وضع قيود أو حدود على سلطان السلطة التنفيذية أو السلطة التشريعية.

ولقد وصلت الديمقراطية الغربية اليوم إلى مرحلة الفشل والهزيمة والانهيار بعد ان اقتحمتها الأخطاء من كل ناحية. ولم تعد الشعوب في الغرب تثق فيها، أو تجد فيها نظاماً صالحاً، ولم تعد أحزاب الغرب تستطيع أن تنال ثقة الناس:

وقد كتب كثيرون من أمثال «توينبي» وغيره يكشفون عورات هذا النظام وفساده ونتائجه الخطيرة: في الاضطراب الاقتصادي، والتحلل الاجتماعي، والفساد الأخلاقي، وتوسيع الهوة بين الفقراء والأغنياء.

اقلية متحكمة وغالبية مستذلة:

وعندما تنظر إلى إحدى الدول الأوربية الديمقراطية نجد أن ٤٨٪ من ثروتها في قبضة ٧٪ من مجموع المواطنين.

وأنه بينما تسلمت أرملة آخر من فقد حياته من عمال المناجم أثناء عمله ٦٧٥ دولاراً تعويضاً عن حياة زوجها. حقق لورد كارلنجتون «وزير الدولة السابق لشئون الطاقة» ما يساوي ٩٣٧ ألف دولار ربح صفقة واحدة.

وقال «درزائيلي» منذ مائة عام:

إن بريطانيا أمتان تقع كل منهما تحت مؤثرات مختلفة، وتحكمها أخلاقيات

متباينة، ولا يجمعهما فكر مشترك ولا حتى في المشاعر، بل مجتمع للفقراء ومجتمع للأغنياء، يطفحان بروح الصراع الطبقي العميق.

الخطر الجاهل:

ومن هنا نجد الخطر كل الخطر، في ذلك الجيل الذي يؤمن بتفضيل قيام النظام الديمقراطي الغربي، بديلاً عن النظام الإسلامي هذاالجيل الذي لم يتعرف إلى مفهوم الإسلام تعرفاً صحيحاً، مع التفريق الواضح بين الشورى الإسلامية، والديمقراطية الغربية بعد أن حدث خلط كبير بينهما.

ذلك أن الإسلام يجعل السيادة للشرع لا للشعب أو لفرد أو لجماعة: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء: ٦٥].

فالسلطة التشريعية هي لله وحده تبارك وتعالى. فلا يجوز للناس أن يشرعوا، أما السلطة التنفيذية فهي بين يدي أمير المؤمنين، ونظرة الإسلام إلى الحكم: هي أن يكون الحاكم نائباً عن الأمة في تنفيذ ما تعاقدت معه على تنفيذه.

فالحاكم في الإسلام نائب عن الأمة في تنفيذ أحكام الشرع عليها، لأن السلطان للأمة أصلاً، تعطيه بالإنابة عنها لمن تراه كفؤاً للقيام بأعباء الحكم وتنفيذ أحكام الشرع.

ومن هنا فقد بطلت تلك المحاولة التي تهدف إلى تطويع الإسلام تحت اسم الشورى، إلى مفهوم الديمقراطية على الطريقة الحديثة، ذلك أن ذاتية الإسلام تعلو على هذه المقارنة، وعلى المسلمين تطويع مجتمعاتهم لنظام الإسلام، وأن يعلموا أن الديمقراطية الحديثة تختلف اختلافاً عميقاً وجذرياً عن الإسلام.

فهم خاطئ للشورى:

ولا ريب أن محاولات بعض الكتّاب المسلمين في إخضاع مفهوم الإسلام للشورى، للأساليب الغربية خطأ محض، وهذه الطريقة الغربية تخضع للرشوة والتزوير، والتي تمكن البعض من الوصول إلى السلطة بغير كفاية حقيقة، بينما الشورى في الإسلام لا تكون إلا مع من صفت نياتهم، وتأكد الإمام من أخلاقهم حتى يطمئن إلى الأخذ برأيهم، والأعتماد على وجهات نظرهم، فلا يستنبطون من ورائها أمراً ولا يطمعون في مغانم أو مصالح.

ومن ذلك خطأ الذين يقولون إن الديمقراطية تقوم على الشورى، وإن الشورى الإسلامية يمكن أن تنفذ عن طريق المجالس الشعبية الديمقراطية، وبالطريقة التي تعمل بها، لأن هذه المجالس لا تمارس وظيفة الشورى بل وظيفة الرقابة، فليس الحكم الديمقراطي قائماً على الشورى كما يفهم بعض الناس، ولكنه يقوم على الرقابة وإحصاء الأخطاء أما الطريقة الإسلامية فإنها تختلف عن ذلك تماماً، ففي الإسلام وحده الهدف الذي يسعى إليه الحاكم والمحكوم.

وتقييد سلطة ولي الأمر إنما يكون بمقتضى النصوص الشرعية فولي الأمر في النظام الإسلامي لا يملك التشريع إلا في أمور فرعية وهو متقيد بالأصول الشرعية وهو منفذ للشريعة، والعدالة الإسلامية عدالة ثابتة ويجب التقيد بها على مر الزمان ولا يصح طرح الشريعة لمجرد الطعن عليها بالقدم، ومضي المدة، وتغير الظروف.

بين الديمقراطية والثيوقراطية:

وليس في الإسلام حكومة (ثيوقراطية) والتاريخ الإسلامي كله لم يعرف مثل هذه الحكومة، فالإسلام يقيم نظام الدولة شاملاً لجميع المواطنين، ويجعلهم على

قدم المساواة في الحقوق والواجبات ويكفل حرية الاعتقاد والعبادة لجميع المواطنين.

والقول بأن في الإسلام دولة ثيوقراطية هو من الأخطاء التي يحاول بعض المستشرقين العلمانيين إلصاقها بالإسلام، بينما هي من عمل التاريخ الغربي والأديان في الغرب.

ومن الحقائق الثابتة الأكيدة، أن الإسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية على المفهوم الذي عرفه البابوات في حكوماتهم، ومفهوم الدولة الثيوقراطية التي يتولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه في الغرب، لا يوجد في الإسلام، وشريعته السمحاء ما لا تقر وجود ما يسمى برجل الدين.

وليس في التوحيد بين السلطتين الدينية والدنيوية في الإسلام ما يؤدي إلى شيء من التضارب، فليس في الإسلام حقائق روحية خالصة، ولكنه جامع بين الروح والمادة.

وحكومة الإسلام في تطبيق مبادئه ليست إلهية، بل هي بشرية تخضع للنقد وتقبل الشورى وتقبل رأي الإنسان واجتهاده، وإمام المسلمين هو بحكم نظام الإسلام من أفضلهم إيماناً بالله ومعرفة بمبادئ الإسلام، وأكثرهم تجنباً للظلم وإحقاقاً للحق وإقراراً للعدل.

فساد المنهج البشري:

ولقد سجل كثير من الباحثين المسلمين فساد المنهج البشري، فكتب أمثال الدكتور محمد عبد الله العربي عن تجربته الخاصة فقال: أدركت – كما أدرك غيري من علماء أوربا أنفسهم – أن هذه النظم التي تمكنت من درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاماً، كانت من أهم الأسباب في كل ما حاق بالبشرية. ومازال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل من هذه النظم الأوربية وما فيها من

اضطراب وتناقض لأنها من تفكير البشر وصنع البشر، الذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم في فترة محدودة من الزمن، وفي قطاع محدود من الأرض، رؤية فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامحة، فتفكيره من أجل ذلك لا مناص من أن يكون تفكيراً جزئياً وتفكيراً وقتياً.

ومن هذه الجزئية يقع النقص والقصور.

ومن هذه النقطة يقع الاضطراب في التمييز بين الحق والباطل، فيكون الباطل حقاً في عصر، ويكون الحق باطلاً في عصر آخر تبعاً لأمزجة الحكام وأحياناً المحكومين.

البلاء في القدوة العمياء:

ويقول: «لقد احتجبت حضارتنا الإسلامية أمام غزو حضارة أجنبية، وكان تقليدنا لما خبث فيها أسرع من اقتباسنا لما صلح منها.

فشبابنا في الجامعات لا يدرسون إلا النظم السياسية والاقتصادية كما تعرفها أوربا.

وتشريعاتنا الوضعية في شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع، تحتذى حذو التشريعات الأوربية وتنهج على منوالها فيما تحرمه وفيما تبيحه.

وفي سياستنا الاقتصادية والمالية اقتبسنا نظمهم المصرفية الربوية، التي سيطر من خلالها اليهود على الاقتصاديات العالمية.

وفي سلوكنا الاجتماعي أصبحنا نقلد مجونهم وأزياءهم ومباذلهم الفاجرة، ثم تقاعسنا في نفس الوقت عن ابتكاراتهم الفنية وكشوفهم العلمية.

كشف النقاب:

هذه هي الحقيقة التي انكشفت في العالم الإسلامي منذ وقت طويل، عندما أخذت حركة اليقظة الإسلامية تدحض زيف الدعاوى الوافدة، في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والقانون، وتلح إلحاحاً شديداً على مدى الأخطار التي واجهتها المجتمعات الإسلامية منذ أن خضعت للتجربة الغربية، ومدى الآثار التي ترتبت عليها في أجيالها المتوالية.

فكان لابد أن تصل الأمور إلى غايتها بإزاحة هذه التجربة في بعض الأقطار الإسلامية كباكستان وإيران، والكشف عن آثارها التي تتمثل في فرض مجتمع الفجور والربا على الأمة الإسلامية.

وقد بدا واضحاً اليوم أن المسلمين إنما يريدون مجتمعاً أصيلاً يستمد وجوده من مفاهيمهم وقيمهم، ولا يرضون عن هذا المجتمع الذي أقامه اليهود في قلب العالم الإسلامي على دعائم من النظام الليبرالي الدمقراطي، الذي يتمثل في دكتاتورية الحاكم المستبد، تحت اسم العصرية والتقدم واعتبار الإسلام رجعية، وبناء الدولة التقدمية على أساس الأصول الوثنية القديمة، وإحياء التراث الذي سحقه الإسلام سحقاً، سواء أكان مجوسياً أو أشورياً أو هندوكياً أو بابلياً، أو تراث قورش وقمبيز، وإقامة الدولة العصرية على معنى التحلل الخلقي والفجور.

إن التجربة الغربية في أسلوب العيش قد فشلت في المجتمع الإسلامي فشلاً ذريعاً، وما يعتقد أحد أن المسلمين يرغبون في إعادة تطبيق مجتمع الانحلال والفساد الغربي على مجتمعهم حيث لا تفهم الدولة العصرية إلا حرية الفجور والخمور وسيادة اليهود عن طريق الفوائد الربوية.

هذا هو النمط الذي كان يشجعه بعض الحكام المسلمين الذين أسقطهم الشعب، حيث تفتك الدكتاتورية وتسلب ثروة الشعب من ناحية، وحيث يجرى تدميرهم

بالمفاسد والانحلال من ناحية أخرى مما يحول بيهم وبين امتلاك ثرواتهم وإرادتهم في إقامة المجتمع الأصيل.

العودة إلى الإسلام:

إن المسلمين الذين يملكون اليوم الطاقة والثروة والتفوق البشري يتطلعون في قوة إلى مجتمع إسلامي قائم على مفهوم الإسلام الأصيل، بعد أن فشلت التجربة الغربية، وبعد أن أخذت شمس الحضارة تغرب عن أوربا بشقيها الديمقراطي والماركسي، وبدأت أنظار العالم كله تتطلع إلى المشرق إلى عالم الإسلام، وإلى الإسلام نفسه كمنقذ للبشرية من وهدتها.

إن على الغرب أن يغير نظرته وأسلوبه القديم، حين كان ينظر إلى الشعوب الشرقية كأنها وسائل لغاياته الخاصة، وأن تتوقف محاولات الغرب في أن يفرض على المسلمين أسلوب العيش الغربي وحضارته، في إطار أيديولوجياته المضطربة من ديمقراطية واشتراكية، لأنها تهدف إلى الحيلولة بينه وبين امتلاك إرادته الحرة، في إقامة المجتمع الرباني، وتقديم الإسلام للبشرية كلها بوصفه الأمل الوحيد الباقي للبشرية، حتى تخرج من أزمتها القاسية.

هذه رسالة الإسلام:

لقد كانت رسالة الإسلام وستظل، أعمق حركة من حركات التحرر، تحرير الإنسان من عبودية الإنسان وتحرير الإنسان من الوثنية وعبادة غير الله.

وقد أعلنت مساواة الأجناس البشرية أمام العدل الإلهي، وتحطمت القوى المستبدة على صخرة المساواة الإسلامية، واليوم ما أشد حاجة البشرية إلى تحريرها من المادية والوثنية والإباحية التي تتردى فيها.

إن الإسلام لا يزال غضاً طرياً، وقادراً على العطاء، وأن التجرب التي تمت قد كشفت عن فساد الأسلوب الغربي الذي أخذت به الدول الإسلامية منذ الحرب العالمية الأولى إلى اليوم، وكيف جر عليها هذا الأسلوب من التدمير والخطر والفساد ما يعرضها اليوم إلى الاندحار.

صيحة صحية:

لذلك فإن الصيحة التي تنطلق اليوم في باكستان وإيران وتركيا هي صيحة طبيعية، لأنها تكشف عن مدى ما وصل إليه العقوق، في حجب المنهج الإسلامي تحت ركام شديد الظلام والفساد، من الفكر الوثني القديم المنبعث، والفكر الغربي الوافد، الذي لا يلتقي مع الفطرة الإنسانية ولا مع الأصالة الإسلامية.

يقول فريد هاليدي في كتابه «إيران الدكتاتورية والتطور» كان المثقفون الإيرانيون يشعرون أنهم في مصيدة، فمن ناحية كانوا يدركون حدود التاريخ والثقافة الإيرانية، ومن ناحية أخرى كانوا ثائرين على الشكل المحدود من الثقافة الغربية التي كانت تستورد إلى إيران.

ولهذا تطلع عدد محدود من هؤلاء المثقفين إلى العودة إلى القيم الإسلامية.

أما الذين كانوا يتطلعون إلى ما قبل الإسلام فكانوا يعتنقون أفكاراً خاوية متعصبة، كذلك فإن مجال التعبير في ظل الدكتاتورية كان محدوداً للغاية، فقد اتسع نطاق الممنوعات.

لقد كان من أكبر التحديات أن يبعث في شعب مسلم بعد – أربعة عشر قرناً – عودة إلى قورش وقمبيز والاحتفال بالوثنية الجاهلية، وإعادتها جذعة، وإنفاق ملايين الجنيهات على هذا الأحياء.

بل إن الشاة ألغى التقويم الهجري واستبدل به تقويماً فارسياً قديماً. تحدياً لتاريخ الإسلام الذي أعطى المجتمع الإيراني هويته الحضارية في الأربعة عشر قرناً الأخيرة.

ومن ثم تلتقي الدكتاتورية بالوثنية الجاهلية بالإباحية الغربية للإجهاز على شعب مسلم.

وكان من طبيعة الإسلام أن تنبعث من أعماقه القوة القادرة على التصحيح والتماس الأصالة والمنابع، هذه الصيحة التي هزت أركان العالم الاستعماري كله والتي تستغلها الصهيونية العالمية.

لكي تخيف الغرب من يقظة الإسلام. هذه اليقظة الكريمة التي لا تحمل في طياتها إلا الرحمة والعدل والأخاء البشري.

إن الإسلام لا يهدد أحداً ولكنه يتطلع إلى أن يقدم المنهج الصحيح للبشرية

أما اليهود فليس لهم بضاعة إلا البغاء والفساد والربا، ولذلك فهم من وراء القوى المستبدة المفسدة.

إن الأمة الإسلامية بعد أن جربت النظام الغربي، وجربت النظام الماركسي قد أصبحت مقتنعة تماماً اليوم أنه لا سبيل لها إلا عن طريق منهج الإسلام: وأن أي منهج لتحديث المسلمين أو إدخالهم في حضارة العصر لا يصلح إلا إذا قام على الإسلام نفسه.

وقد استطاعت الحركة الإسلامية أن تؤكد للدنيا كلها أن الإسلام مازال حياً قادراً على العطاء وأن كل ما أذاعه المستشرقون والاستعماريون عن الإسلام كاذب مضلل، وأن الغد للإسلام.

(٧١)
البهائيــة

إن الحرب على الإسلام كانت ولا تزال تعمل في كل ميدان، ولقد كانت البهائية والقاديانية تستهدف الدخول إلى الإسلام وضربه من الداخل، وهي خطة قديمة ترمي إلى دخول خصوم الدين في دائرته والتماس مكان الصدارة فيه، ثم العمل على تدميره وتحويله عن مقوماته الأساسية.

وقد استعمل اليهود الأساليب في محاولة تقويض المسيحية وكذلك استعملوها في المؤامرة التي وقعت في الدولة العثمانية لإسقاط الخلافة العثمانية الإسلامية عن طريق يهود الدونما، الذين كانوا قد هاجروا من الأندلس وأقاموا في سالونيك، وكان لهم دورهم الخطير في تنفيذ الخطة التي أسقطت السلطان عبد الحميد، وفتحت الطريق إلى الصهيونية للسيطرة على فلسطين، وكانت أداتها حزب الاتحاديين الذين نشأوا في أحضان المحافل الماسونية.

البهائية تلاميذ الصهيونية:

والدارس للبهائية يجد هذا الهدف واضحا في مخططها وتاريخها كله، ويجدها واضحة العلاقة بالركام الباطني القديم مجددة إياه في أسلوب من ناحية، والارتباط بالصهيونية التلمودية، كثمرة من ثمار البروتوكولات ومن هنا كانت دعوتها إلى دين جديد بشري تنصهر فيه الأديان السماوية، بعد الحملة عليها والادعاء بأنها كانت مصدر الصراع بين البشر، وقد تكشفت الجذور الباطنية للبهائية منذ قليل، كما أفصحت عن انتماءاتها الصهيونية التلمودية، ولقد سقطت أضواء كثيرة حول النحلة البهائية، وحاولت أقلام عدد من المستشرقين البارزين «وفي مقدمتهم لورنس براون في كتابه طوالع الإسلام» والمستشرق «جولد زيهر» الذي امتدح الحركة البهائية، وينظر إليها بوصفها حركة متحررة في الفكر الإسلامي، وأنها

ستؤدي إلى تنشيطه وتجديده، وأن الذين قاموا بها ثوار أبطال، وهكذا يصل التضليل والزيف إلى أعلى مداه، على قلم مستشرق يهودي يروج لهذه النحلة المنحرفة.

ومن يراجع تاريخ وفكر هذه النحله يكتشف في يسر مصدرها وهدفها، وأنها واحدة من الدعوات الهدامة التي أرادت أن تعمل من داخل الإسلام، وإن كانت مفاهيمها وقيمها جميعها مستمدة من الفكر البشري الوثني المادي المنثور في الزرادشتية والهندوسية والمجوسية، وتراث التلمودية القديم المبثوث في التلمود والمشنا والجمارة، وإن قوى خطيرة جددت هذا الفكر وحاولت ابتعاثه لخدمة أهداف معاصرة: أهمها دعم الصهيونية والمادية ومحاربة الإسلام في عقائده وقيمه ومفاهيمه، وتزييف لغته وتاريخه وإثارة روح فلسفة التحلل واللذة والأباحية، والكشف، وتدمير المجتمعات الإسلامية والأسرة وإفساد العلاقة بين الرجل والمرأة.

المدخل والأسلوب

وتقوم الفكرة البهائية أساسا على التأويل، شأنها في ذلك شأن الفرق الباطنية القديمة - وهى تستهدف تأويل آيات القرآن الكريم، بما يخرج بها عن مفهومها ومدلولها اللغوي والشرعي بعيدا عن أصول اللغة، ومتعارضا مع النواميس والسنن، ذلك بالتحايل على آيات القرآن الكريم وتوجيهها إلى غايات تتعارض أساسا مع التوحيد الخالص.

* * *

البهائية عارضت مفهوم الإسلام
في عقائد الجهاد والأمر بالمعروف:

ومن ذلك قول البهائية بتطور الشريعة الإسلامية وأنها لا تصلح لهذا الزمان، واستهدافها إقرار القوانين الوضعية، وإقرار الربا، وفصل الدين عن المجتمع، وموافقة تفسيرات الأديان السابقة عن الصلب والخطيئة والتثليث وألوهية المسيح ومتابعة اليهود في منهجهم الربوي، وفرض نظام عالمي بوحدة العالم من خلال منطلق الربا.

وترمي البهائية بدعوتها إلى وحدة الأديان واتحاد العالم، إلى صهر الإسلام في بوتقة الأممية الضالة والفكر البشري الوثني المادي، وهم يزعمون أنهم جاءوا بنسيج الديانات كلها، والسخط على القوميات والوطنيات بأجمعها، يستهدفون من ذلك القضاء على إلغاء الجهاد وإبطال روح المقاومة. وهم باستهدافهم هدم العقيدة الإسلامية، وقد جروا وراء فلسفات باطنية وضالة. مستوحاه من الأفكار الباطنية والمجوسية والتلمودية القديمة، ويقوم مفهومهم في التأويل على مارست عليه المشبهة والرافضة والكرامية والحشوية، وهى نحل حاولت في تاريخها أن تشبه الله «تبارك وتعالى وعز وجل وعلا علوا كبيرا» بخلقه كمحاولة لزعزعة أيمان المسلمين.

كشف الاتباع عن سادتهم

وفيما تدعوا إليه البهائية من عالمية الأديان تستمد مفاهيمها من التوارة والتلمود، ولذلك وجدت البهائية هوى لدى اليهود الذين ظاهروها، مدعين أن رسالة البهائية نابعة من التوراة، وأنها دعوة إلهية موحى بها إلى البهاء، وأن التوراة أشارت إلي دعوته. وقد حرم البهائيون الجهاد على أتباعهم مساندة للوجود

الاستعماري، وحلل البهائيون الربا بإيعاز من اليهود، وبين البهاء أن أرباحة حلال. وبهذا أعطى اليهود فرصة ممارسة الربا علانية. وقد وصف أحد الباحثين البهائيين، بأنهم مجوس القرن العشرين، وهى امتداد طبيعي للماسونية، تمثل طائفة مرتدة عن الإسلام، ولا يحق لمسلم أو لمسلمة أن يندرج بين أهلها، وقد تركز البهائيون في سالونيك(١) حيث توجد الدونمة «الطائفة اليهودية المرتدة» والمحافل الماسونية. ومن تركيا أتجه البهائيون إلى فلسطين بإيعاز من اليهود، فاستوطنوا عكا وحيفا لتعضيد الوجود اليهودي بالأرض المقدسة، واتخذوا شعار الماسونية «الحرية والإخاء والمساواة» وقد ظهرت البهائية لتقويض أركان الوجود العربي في فلسطين، رغم أنها ترفع شعار الإسلام، ومات بهاء الله عام ١٨٩٢ فخلفه في الزعامة عباس أفندي الملقب بعبد البهاء، فطور الآراء التي ورثها عن سلفه، وأقحم مبادئ استوحاها من التوراة «العهد القديم» وأدخلها ضمن العقيدة البهائية كما فعلت الصهيونية من قبل، «وكان مقيما في حيفا» وكان عبد البهاء ماجنا مفرطا في مجونه. فقد كان يجهر خلال رحلته إلى أوربا وأمريكا بأن أساس دعوته التحرر من كل شئ حتى العرى، فإنه مباح لدى البهائيين، وكان يشيد بالأفكار المجوسية، ويندد بدعوة الأنبياء، ويصفهم بأنهم أصحاب أوهام وخرافات أفسدت عقائد الشرق، وكان يقول إن البعث الذي يراد به إحياء الأجساد بعد الوفاة، إنما هو بعث فكري وتجديد في حياتنا الراهنة، وقد أعطته الحكومة الإنجليزية لقب «سير» شكرا له على ما أبداه من الكرم والإكرام للجنود البريطانيين في فلسطين مدة الحرب العالمية الأولى، وقد احتفل بدفنه هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني «اليهودي الأصل».

ومن أخطر دعوات البهائية دعوتهم إلى الخداع والتمويه، فهم يدعون أتباعهم إلى أن يصلوا مع المسلمين في المساجد، ومع المسيحيين في الكنائس ومع اليهود في المعابد، وأن يكون أحدهم مسلماً مع المسلمين وملحداً مع الملحدين.

الادعاء والافتراء:

وقد أعلن زعماء البهائيين أن لليهود حقاً في فلسطين، ودعوا إلى نصرة الصهيونية العالمية واتجه زعماء البهائية إلى التراث اليهودي فاحتضنوه، وذلك بمعنى أن الصهيونية احتوتهم وجعلتهم من خدامها، ومما أثر عن عباس عبد البهاء قوله: إنه يدعو جميع المسلمين والنصارى واليهود على نواميس موسى عليه السلام، أي أنه يريد تهويد المسلمين والنصارى، وأن يجعل اليهودية هي الدين السائد في الأرض، وبذلك يكون السلطان في العالم كله لليهود وحدهم.

والمعروف أنه عندما دخل الإنجليز عكا عام ١٩١٨، بعد إجلاء الدولة العثمانية عن فلسطين، بادر قائد الحامية البريطانية بزيارة عبد البهاء الذي أيد فتوحات الإنجليز للبلاد العربية، وأبدى استعداده لتقديم ما يلزم بريطانيا من خدمات، وقدم إليه وساماً بريطانياً من درجة فارس من ملك بريطانيا لقاء خدماته. والمعروف أن البهائية وليدة حركة سبقتها هي الحركة البابية أسسها (الميرزا حسين علي المازندراني في إيران)، وقد كان الباب همزة الوصل بين البابيين، وبين الحكومة الروسية القيصرية، التي انتزعت مملكة القوقاز من الدولة الإيرانية، وقد رأت الحكومة الروسية لتنفيذ أغراضها في إيران تقوية البابية فأخذت تساعدهم في بلادهم، وقد استغلت اليهودية العالمية كل حركة تؤدي إلى تمزيق الأديان ومحو وجودها، ولذلك فإنها سرعان ما ضمت العناصر اليهودية إلى صفوف الحركة البهائية بصورة جماعية في طهران وهمزان وكاشان، وتوجيههما إلى الأغراض اليهودية، ومن هنا كان مديح جولد زيهر للحركة البابية والبهائية وليدتها، والنظر إليها على أنها متحررة في الفكر الإسلامي، وأن قادتها ثوار أبطال ..

اجتماع الأعداء:

وقد جرى التعاون بين الانجليز والروس واليهود لإنقاذ حياة البهاء الميرزا حسين

علي وإخراجه من الهند ثم من بغداد إلى تركيا، وأخيراً إلى عكا حيث أعدوا المؤامرة الكبرى، بإعلان الميرزا نفسه «رباً للجنود ومسيحاً جاء لهداية العالم» والدعوة إلى التجمع الصهيوني واعتبار قيام «إسرائيل» دليلاً من التوراة على صدق مزاعم البابية، التي سرعان ما أسلمت قيادتها للبهائية، وما زال المعبد الرئيسي للبهائيين قائماً في حيفا، يمثل التعاطف بين البهائيين والصهيونية.

الأصول والمصـــادر:

ومن هذه العناصر كلها يتبين مصادر البهائية، وهويتها الباطنية المجوسية التي اتخذت أسلوب التأويل مصدراً لتحريف العقيدة السمحاء وإخضاعها للأهواء، وقد جاءت تفسيرات البهائيين المزعومة لبعض آيات القرآن هادفة إلى تحريف النص المقدس عن معناه الشرعي الأصيل، والعبث بكتاب الله تبارك وتعالى والتهوين من قداسة النص القرآني في النفوس، وتحويله إلى مفاهيم سطحية، وفي هذا ما فيه من الجرأة على تفسير النص القرآني دون ارتباط بالمعايير الدقيقة: لغوية ودينية، مما وضعه علماء السلف الصالح الذين فسروا القرآن، وبالجملة فإن البهائية صورة عصرية للفكر الباطني القديم، فهم كما وصفهم الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية «لا يدعون الناس إلى مسلك واحد، وإنما يبحثون عن معتقد الشخص وما إليه يميل في طبعه ومذهبه، وهدفهم وغايتهم إشاعة روح المجون والخلاعة، والسخرية من الذين يحترمون الفروض والتكاليف الشرعية، ودعوتهم إلى التحلل منها واتباع الشهوات وميل اللذة وقضاء الوطر، وإغراء كل إنسان من ناحية هواه وضعفه، والسير معه مرحلة على طريقه لتحويلهم إلى طريقهم وهم من وراء ذلك يحملون كل أساليب المكر والدهاء والخداع، مستغلين فطرة البسطاء وصفاء فكر الشباب، وقد كان اعتمادهم في السيطرة على شخصيات من ينتمي إليهم أو

يخدعونهم بدعوتهم إلى تحطيم الحاجز الأخلاقي الذي يعصم النفوس من السقوط، وهم يستهدفون فرض الجنس وإشاعته وتصويره بصورة المباح، وهم يستغلون في ذلك التراث اليهودي الصهيوني الحديث، للمثل في دعوات «فرويد» و«دوركليم» ثم «سارتر».

وقد وجدت الدعوة البهائية تقبلاً من أصحاب الأهواء ولكنها سرعان ما كشفت زيفها وعجزها عن أن تكون ديناً وعقيدة.

الهدف والمقصد:

يقول العلامة محمد فريد وجدي: إن طموح البهائية أن تكون ديناً عاماً، يدخل فيه الناس على اختلاف جنسياتهم ونحلهم هو مما يقضي بالعجب، لأنها ليست بدين سماوي، وليس فيها من الأصول والمبادئ ما يلفت العقول إليها بعد أن بالغت في عرض نفسها على الأمم، فأين هي من الإسلام الذي بنى أمماً قوية ومدنيات فاضلة في خلال عصور متعاقبة، ولا يزال على مثل حيويته الأولى، حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برنارد شو أن مبادئ الإسلام توشك أن تعم العالم أجمع، حيث يقوم الإسلام على أصلين ضمنا له التعميم والخلود: موافقته للفطرة، واعتماده على العقل والعلم، فأين البهائية من هذا الموقف العلمي الحق، وهي تقوم على أصلين أحدهما: عتيق غامض، قال به أفراد من محبي السيح في الخيالات، وهي تصوير ذات الله تعالى بصور المخلوقين، وثانيهما: وهو صرف الألفاظ عن ظواهرها وهو مجال فسيح للظنون والأوهام والخبط.

«وتدعي البهائية أنها أتت العالم بجديد من الأصول، ولم يدر في خلد المصلحين قبلها كاتحاد الأديان وترك العصبيات، واتحاد الأجناس والسلام العام، ومساواة المرأة بالرجل، أما ما سموه باتحاد الأديان فقد سبق إليه الإسلام وأسسه على أقوى الأصول، وأحاطه بأحكم الدلائل فقرر أن أصل الأديان كلها واحد، وأن

الخلافات التي بينها ما حدثت إلا بسبب ما أدخله قادتها عليها من الأوهام، فالإسلام يفرض على أهله القول بوحدة الدين فرضاً، ويأمرهم بالاعتقاد بجميع الرسل من غير تفريق بينهم.

إن البشرية ليست في حاجة إلى دين جديد بعد الإسلام فإنه استكمل جميع شرائط الدين العام» ..

يمكن القول بأن أخطر ما دعت إليه البهائية:

١- تأويل نصوص الشريعة: والزعم بأن شريعة الباب ناسخة للشريعة الإسلامية، ويستهدف التأويل، تحويل القرآن والحديث وصرفهما عما يراد بهما من حكمة وهداية، وقد ابتدعت البهائية لاتباعها أحكاماً خاصة خالفت بها أحكام الإسلام وقواعده وغيرت أحكام الصلاة والصوم وأبطلت الحج، وأنكرت معجزات الأنبياء موسى وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وقالت بقدم العالم وادعت بأن الأنبياء ستروا الحقائق تحت ستار الشعارات.

ولا ريب أن التأويل فن ابتكره اليهود، وقام فيلسوفهم (فيلون) بتأويل التوراة ذاهباً إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة.

ومن تأويلاتهم أن القيامة هي قيام الروح الإلهية في مظهر بشري جديد، وقالوا عن الجنة إنها فرح روحي وأن النار حرمان من معرفة الله.

٢- إنكار البعث والجنة والنار، وقد قلدت البهائية في إنكار البعث طائفة الدهريين، وهم يرون أن الجنة والنار في الكتب المقدسة حقائق مرموزة.

٣- إسقاط التكليف، والدعوة إلى فلسفة إباحة الشهوات، ودفع الإنسان ليكون أسيراً لشهواته وغرائزه وأهوائه، وقالوا: إن أحكام الشريعة الإسلامية قد نسخت، وإن الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء فافعلوا

ما تشتهون. وقد اتخذوا مدخلاً إلى ذلك: الدعوة إلى المساواة بين الرجال والنساء في الميراث وغيره. وقد تعالت دعوتهم إلى تمزيق الحجاب بين الرجال والنساء تحت اسم دين الحب الذي كان مفهومه الصحيح «شيوعية الجنس».

ودين الحب الذي طبقوه في مجتمعاتهم «وحملت لواءه قرة العين» لم يكن سوى إلغاء كاملاً لكل الروابط الأخلاقية، كي تنطلق الشهوات الدنيا في الإنسان حتى يمارس فوضوية الجنس والمتعة الحيوانية المشاعة، «دكتور عبد الصبور مرزوق» حيث كانت «قرة العين»[٣] تدعو الرجال إلى ما تسميه قطف ثمار النساء الجميلات قبل أن تذبل، واعتنام لذات الحاضر قبل فوات الأوان.

٤- دعوتهم إلى نزع السلاح وإنكار الجهاد

٥- ادعاء النبوة لبعض زعماء المذهب بل ادعاء الألوهية بالحلول والوحي من الداخل.

٦- اعتمادهم على تفسيرات الباطنية للمصطلحات المعروفة في اللغة.

٧- التقاؤهم مع الماسونية في تقويض الدين في نفوس الناس، ومحو آثاره من المجتمع البشري كله، والماسون لا يخفون عداءهم للإسلام والمسيحية، بل ويجهرون بالحديث عن سحق ما يسمونه عدوهم الأزلي الذي هو الدين، مع إزالة رجاله، وعدم التردد في شن الحرب على كافة الأديان لأنها العدو الحقيقي للبشرية، ولأنها سبب في التطاحن بين الأفراد والأمم.

٨- أسقطت البهائية فرائض الصلاة والصيام والحج والجهاد والحدود والقصاص وسائر ما جاء في الكتاب والسنّة من تعاليم.

٩- مهاجمة اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن، إلى ما يسمونه اللغة النوراء، واستنكار كون العربية لغة «الدين الإسلام» ودعوتها إلى اختراع لغة جديدة وإنكار إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تبارك وتعالى.

وقد كشفت الوثائق عن صلة البهائية بالصهيونية والبروتوكولات من جهة، وصلتهم بالماسونية من جهة أخرى، واستمدادهم من الباطنية القديمة، واعتمادهم على الفلسفة المادية ومفاهيم الفرويدية والجنس، وقد وصفهم صاحب كتاب «مفتاح باب الأبواب» بأن لهم ديناً خاصاً مزيجاً من أخلاط الديانات البوذية والبرهمية الوثنية. والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام ومن اعتقادات التصوف الفلسفي.

وبالجملة فإن نحلة البهائية قد عرضت مفهوم الإسلام الصحيح الجامع. في عقائد أربع أساسية:

أولاً: عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم.

ثانياً: عقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثالثاً: عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الإسلامية وحمايتها من الذوبان.

رابعاً: عقيدة الحج لتثبيت الوحدة ودعم الجماعة.

---

(٣) إحدى المؤمنات بالباب آمنت به ونشرت دعوته واسمها «سلمى أم رزين» ولقبها الطاهرة أو قرة العين ولما فجرت وخلعت الحجاب وكفرت بالله سجنت حتى أعدمت سنة ١٨٥٢

* * *

(٧٢)
الانقطاع الحضاري

تجرى محاولة خطيرة ترمى إلى ردة العالم الأسلامي إلى كيان وهمي قديم، وإعطائه صفة الاستمرار التاريخي تحت أسم: حضارة السبعة آلاف سنة الفرعونية والفينيقية والفارسية والهندية، وتجرى محاولة لإحياء هذه الحضارات القديمة.

والحق أن هذه تتجاوز حقيقة تاريخية أكدها المؤرخون المنصفون، وهى أن الإسلام بظهوره وانتشاره قد قطع العلاقة بين الأمة الإسلامية وبين هذا التاريخ الوثني القديم، وكل ما يتصل به من لغات وأديان وحضارات.

ولقد قرر الباحثون الثقات بأن الإسلام كان عامل التصحيح الحضاري مع هذه الحضارات القديمة، وبين الأمة التي دخلت بعد ذلك في الإسلام.

استمرار الحنيفية:

والواقع أن الاستمرارية الموهومة التي يحاولون جمع خيوطها ليست هى استمرارية الفرعونية أو الفينيقية أو غيرها وإنما هى استمرارية (الحنيفية الإبراهيمية) التي بدأت بها الدعوة إلى التوحيد، والتي كانت رسالة محمد ﷺ ختامها لها، وانقطاعية عما سواها، وهذه الانقطاعية الواضحة في تاريخ البلاد العربية كلها منذ جاء الإسلام، وبعد ألف سنة من اليونانية والرومانية الوثنية.

لقد كان الإسلام هو الخط الفاصل الحاسم في تاريخ الإنسانية، فقد قطع الامتداد الفكري والاجتماعي والثقافي بين ما قبل الأسلام وما بعده، قطعه عن العرب أولا ثم في كل مكان ذهب إليه، وقد ذهب الإسلام إلى كل مكان وأثر في جميع النحل والأقطار. قطع امتداد الوثنية في العالم كله من ناحية العقائد والملل،

وقطع العبودية في العالم كله من ناحية الحضارات والأمم. فقضى على استرقاق العبيد في حضارات البراهمة والفرس والفراعنة والرومان. وقضى على قيصر وكسرى جميعا.

ماذا تعني العودة

وبعد، فماذا تعني العودة إلى ما قبل الإسلام: هل هى ممكنة؟؟ وما هو مفهومها؟؟

إن الباحثين الذين حملوا لواء الدعوة إلى الفرعونية أو الفينيقية أو غيرهما، لم يجدوا أي خيوط يمكن أن تشكل تراثا أو لغة أو ثقافة أو «فكراً» كما يقولون.

بل تبين لهم أن كل الحضارات البابلية والأشورية وغيرها هى حضارات عربية حنيفية الأصل، وقد كشفت الأبحاث عن زيف أدعاء ما حاوله التغريب والاستشراق بالتفرقة بين الفراعنة والعرب، أو الفينيقيين والعرب. وذلك في سبيل تمزيق المسلمين إلى أمم وعناصر، وكشفت الأبحاث الجادة عن زيف هذه الأدعاءات، وتعين أن المصريين الأولين وفدوا من بلاد العرب وعبروا البحر الأحمر، ونزلوا عند حدود الحبشة ثم تدرجوا إلى أن هبطوا وادي النيل، وأسسوا دولتهم. وقد أحصى المرحوم الأثري الكبير أحمد كمال باشا ما يزيد على خمسة الاف كلمة متصلة الجذور بين العربية والفرعونية

وما يقال عن الفراعنة يقال عن الأشوريين والبابليين والفينيقيين، فهم جميعا موجات خرجت من الجزيرة العربية وانماعت في هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى الشام إلى مصر إلى أفريقيا، وأن هذه الموجات توالت في خلال فترات طويلة من القرون المتوالية قبل الإسلام، وكانت ممهدة للموجة الإسلامية الضخمة التي حملت لواء الإسلام والتي وجدت – عندما تمددت – جذورا لها في هذه المنطقة.

أما الانقطاع التاريخي بين ما قبل الإسلام وبين عصر الإسلام فإن أمره واضح ويعترف به حتى ممن هو أشد المؤرخين الأوربيين تعصبا فإن (هنري بيرين) مؤلف كتاب (محمد - ﷺ - شارلمان) يقرر: « إن الإسلام هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي، وإن العصر الوسيط والنهضة الحديثة، ثمرتان من ثمار الإسلام، وأن ما يقال من أن سقوط الأمبراطورية الرومانية هو العامل المؤدي إلى هذا التحول في التاريخ هو قول خاطئ؛ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن، وضيق الحياة، إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبيد إلى السادة. فما كان يخطر - بل ما كانت ترغب أبدا - في أن تناوئ روما وتقضي عليها».

أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أساليب الحياة، ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تربيتهم، فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم، وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة، وظلت حضارتها باقية، بعد أن اجتاز (الوندال) حدودها واستقروا في نواحيها، وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسي من روما إلى بيزنطية «القسطنطنية» وأصاب حياتنا العقلية والمادية بالركود والفساد.

ولكن لم تكد تهب (رياح الإسلام) وتسير ركائبه إلى أراضي اليونان، حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار، وقامت دول جديدة وظهرت حضارة جديدة، حاصرت أوربا من الشرق والجنوب والغرب «بعد فتح الأندلس».

فاضطرت ملوكها إلى أن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك التي كتبت تاريخ أوربا في العصر الوسيط وإبان العصر الحديث.

أما الجزء الجنوبي من أوربا فلم تقع فيه - في تلك العهود - معارك إلا معركة (بواتيه) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس بالخيانة والغدر لا بالقوة والبأس.

فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة، وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق، ولظل البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا - بل قد سمي فترة بحر الروم - ولما قامت الثورات القومية التي خلقت أوربا الحديثة، ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة.

وهكذا نجد أن الإسلام قد غير العالم كله.

صفحة جديدة:

لقد فتح الإسلام -حين جاء- صفحة جديدة للبشرية، من حيث «عالمية» الرسالة وخلودها، ودعا الأمم القائمة إلى الدخول في دين اللّه: لأنه هو الدين الحق، بعد أن زيف رؤساء الأديان مفهوم التوحيد، ولقد أعلن الإسلام وحدة الدين، ووحدة البشرية، والتوحيد الخاص، فحطم الوثنية والأصنام، وعبادة غيرالله، وقدم للبشرية منهج الإخاء الأنساني، فقضى على العبودية الفرعونية والقيصرية، ودعا المسلمين إلى النظر في الكون فأنشأ (المنهج العلمي التجريبي) الذي هو قاعدة الحضارة العالمية اليوم، ولقد استطاع الإسلام لأنه الفطرة والحق، وضياء النفس البشرية الأصل، أن يزحف في خلال قرن ولا يزيد، حتى سيطر على ثلاث قارات أسيا وأفريقيا وأوربا: من الصين إلى حدود نهر اللوار في قلب فرنسا، وقدم للبشرية ذلك الضياء الحق، وتغلب على اللغات والأديان، ونقل العالم كله إلى نور التوحيد، ونفذ بأشعته إلى قلب أوربا، فحررها من الوثنية والرهبانية والمادية، وأدخلها إلى عصر النهضة. وبذلك كان الإسلام هو العامل الأكبر. الذي أدخل العالم كله إلى العصر الحديث.

وعبر الإسلام الشاطئ الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط فأدخله في السلم كافة، وقامت فيه كلمة التوحيد وامتدت نحو أسيا، فأخرجت القبائل التركية فيما وراء النهر من الوثنية. وواصلت زحفها إلى الصين، وفي الغرب إقتحم الأسلام

الأندلس، ووصل إلى نهر اللوار ثم لم يلبث أن اقتحم أوربا من البلقان حتى وصل إلى أسوار فينا. بل تعداها إلى جبال الصرب والكروات.

ودخل الناس في دين الله أفواجا:

من هذا كله نجد أن الإسلام كان عامل انقطاع حضاري عميق المدى. بين حضارات الفراعنة والرومان والفرس والهنود. فبعد ألف سنة عاشتها هذه المنطقة بين يدي اليونان والرومان. انداح فيها الإسلام، ولم تلبث بعد عقود قليلة من الزمان، أن تحولت إلى رسالة التوحيد فنسيت لغاتها وأديانها ونحلها القديمة، وأقبلت على الإسلام إقبالا تاما، ومع أن الإسلام حين سيطر على هذه المناطق لم يفرض عليها دينه، وإنما أقام حكمه العادل، وأفسح لأهل الكتاب الحرية الكاملة في حياتهم الدينية، وحمى معابدهم وفتح لهم آفاق العمل في مختلف المجالات في سماحة ورحمة، غير أن الطوائف العربية الداخلة في هذه البلاد سرعان ما انصهرت في البيئات التي عاشت فيها، ولم تستعل عليها استعلاء سلطان أو استعمار، وإنما تآخت معها وأصهرت إليها، ومن ثم فقد دخل الناس في دين الله أفواجا، عندما تبينوا أن ذلك الحكم السمح العادل الذي حررهم من مظالم الرومان، هو من عند الله، لذلك فقد دخلوا في الإسلام الذي كانت جذوره موجودة في أعماقهم وضمائرهم. منذ رسالة الحنيفية الإبراهيمية. التي جددها محمد ﷺ ، واتصل بها بعد أن انحرفت.. في مرحلة ما بينهما (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) النحل: ٢٣.

ومن هنا فإن الانقطاع ليس إلا عن المرحلة القصيرة التي تعثر فيها طريق الحنيفية إلى العنصرية، وكان هذا أمرا طبيعيا في التاريخ، فمصر العربية قد انفصلت عن مصر الفرعونية انفصالاً تاما، لأن مرحلة الفرعونية انحرفت عن الإبراهيمية. وكذلك فإن سوريا العربية قد انفصلت عن سوريا الفينيقية والعراق

العربي قد أنفصل عن العراق الأشوري والبابلي ، وبالإسلام عادت سيرتها الأولى إلى الربط بين الحنيفية الإبراهيمية والحنيفية المحمدية.

الجري ضد تيار التاريخ:

وحين جرت المحاولات في العصر الحديث لإعادة البلاد العربية إلى تاريخها قبل الإسلام بإحياء الفرعونية والفينيقية والأشورية، فشلت هذه المحاولات فشلا ذريعا، لأنها كانت تجرى ضد تيار التاريخ.

ويصور هذا المعنى العلامة «علال الفاسي» حين يقول «إن العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول ﷺ لم تكن إلا تمهيدا لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين، بوجود محمد خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ولم يكن محمد ﷺ بدعا من الرسل، فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات ربانية تشمل كل بقاع العالم، ولكنها لم توفق إلى البقاء، وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجدد وتصلح، ثم انفتحت آفاق التقدم الإنساني، فكان لابد أن يبعث الله الرسول الخاتم. وكانت مهمة النبي ﷺ أن يضع الناس في جو الرشد المبني على العقل والروح، على القلب والجسم ومن هنا فإن كل ماسبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هى وجود الرسول نفسه ﷺ ، وبذلك يصبح الماضي وكأنه ما قبل التاريخ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الأسلامي والبشرية كلها مخاطبة لتسير وفق ما ترشد إلى ناموس الكون وما بنى عليه هذا المجتمع.

هذه هى قصة الاستمرارية والانقطاع في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، إنقطاعية ألف سنة عن اليونان والرومان والوثنية، والحقيقة أن الاستمرارية هى استمرارية دين إبراهيم أبي الأنبياء. وانقطاعية عن كل ما سواه من محاولات عنصرية وقبلية وعرقية. وقومية حاولت أن تخرج بالرسالة الخالدة عن هدفها الأصيل وغايتها الكبرى.

وكذلك فليست هناك استمرارية فرعونية ، أو بابلية ، أو أشورية ، أو فينيقية ، وإنما هناك استمرارية التوحيد الخالص وميراث إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وكلها على طريق الله الحق.

وذابت الأعراق:

لقد ذابت كل القوى التي حاولت أن تسيطر على المنطقة الحنيفية الإبراهيمية، لقد ذهبت العنصرية وبقيت العقيدة الخالصة، وانصهرت القبلية والعرقية كلها في دعوة الله الخالصة. وأن الوحدة التي التقى عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها . وهى وحدة العقيدة والفكر والتوحيد الخالص ولغة القرآن. ولقد انهزمت كل عوامل العنصرية. والعرقية أمام قوة العقيدة والفكر، التي غلبت على فكرة الدم والنسب. وغلبت لغة القرآن على كل اللغات القديمة. حتى اضطر النصاري إلى ترجمة أناجليهم إلى اللغة العربية بعد أن ماتت القبطية والسريانية والآرامية التي كان المسيح علية السلام يتحدث بها إلى معاصريه.

إن الارتباط بين الحنيفية الإبراهيمية والرسالة المحمدية هو التصحيح السليم للاستمرارية. بل هو التفسير الأصيل للترابط الأكيد الجامع بين عصور هذه المنطقة وأجزائها الجغرافية والتاريخية، وهو ما تعمد المحاولات التغريبية واليهودية إلى التأثير فيه، وذلك حين تشكك المصادر اليهودية: في مجئ إبراهيم إلى مكة وبنائه البيت الحرام مع إسماعيل. وذلك بسوء نية، وهم يهدفون إلى نفي الرابطة الجامعة بين إبراهيم ، وإسماعيل ، وبين محمد عليهم الصلاة والسلام ورسالة الإسلام الجامعة الخاتمة. التي هى رسالة الإسلام الممتدة منذ آدم عليه السلام ونوح.

لقد عمد الاستشراق إلى تزييف العلاقة بين الحنيفية الإبراهيمية وبين الإسلام، وأثارة الشكوك حول إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام، على النحو الذي قال به

الدكتور طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي حين أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل، بالرغم من ثبوت وجودهما في التوراة والقرآن وإن كانت الأحداث لم تلبث أن كشفت زيف ما دعا إليه طه حسين جريا وراء الصهيونية في دعواها بعد ظهور الحفريات التي كشفت عن كثير من آثار إبراهيم وإسماعيل وأنباء إسماعيل في شمال شبه الجزيرة العربية وحول الكعبة.

ومن الأسباب التي تدعو إلى إنكار الحنيفية الإبراهيمية أنها يدخلها الكردي والشركسي والبربر والمسيحيون، وهم يهدفون إلى إعلاء العنصريات للقضاء على هذه الوحدة التي هي «عربية اللسان» ولقد أكد هذا المعنى رسول الله ﷺ في قوله:

«ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي، ألا إن العربية اللسان ألا إن العربية اللسان» رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن مالك.

دعوة البغضاء:

إن الدعوة المسمومة إلى إعادة بعث الأقليميات والعنصريات القديمة، إنما تهدف إلى أذكاء البغضاء والأحقاد بإثارة الفرقة ، بينما تقوم استمرارية الحنيفية السمحاء على وحدة الفكر والعقيدة، وهي الوحدة الحقيقية وليس دعوى اللغة والتاريخ والأرض التي يحمل لواءها العلمانيون الشعوبيون.

* * *

---

* بدأت الدعوة إلى التوحيد من عهد آدم واستمرت وأخذت اسم الحنيفية في عهد إبراهيم.

التبشير الغربي

الإرساليات التبشيرية مهمتها

إخراج المسلمين من الإسلام

الإرساليات وسيلة لهدم مفهوم العقيدة

والتشكيك في الإسلام وسيرة رسول الله ﷺ

إن ظاهرة الإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي هي أخطر الظواهر الاجتماعية التي يجب أن تدرس في توسع، للتعرف على الدور الخطير الذي قامت وتقوم به في محاربة الإسلام وتزييف مفاهيمه واحتواء معتنقيه، وتمهيد السبيل لتثبيت دعائم النفوذ الأجنبي على مدى قرن كامل من الزمان، وخاصة بعد أن توسعت واقتحمت مجال الثقافة والصحافة بعد المدرسة والجامعة.

مصانع تخرج العمـلاء

فقد كانت هذه الإرساليات هي المصانع التي خرجت الأجيال من العملاء والتابعين للنفوذ الأجنـبي وأوليـاء الثقـافات الفرنسـية والانجليزية والماركسية والتلمودية.

ولقد عرف الدكتور «زويمر» هذف هذا العمل الخطير بأنه: ليس إدخال المسلمين في المسيحية وإنما هو إخراجهم من الإسلام حين قال: «ليس غرض التبشير المسيحي إلا إخراج المسلمين من دينهم، ولقد برهن التاريخ وأزمة بعد أزمة على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً، ولكن الغاية هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه، وعندها لا يكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها.

وهذه أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية «أجل قضينا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً ، فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الإسلام ومن ثم آخرجنا الشباب والفتاة الإسلامية من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة الوطنية والإخلاص والرجولة والدفاع عن الحق .

وثيقة خطيـــرة:

هذه هي أخطر وثائق التبشير التي يؤرخ بها للتعليم في البلاد العربية والإسلامية. ذلك لأن الإرساليات جاءت فوضعت البرامج التى تدمر الإنسان المسلم، ثم جاءت المدارس الوطنية - في ظل النفوذ الاستعماري في مصر والمغرب والشام والهند وأندونيسيا - فاعتنقت هذه المناهج وطبقتها ولا تزال في جانب كبير منها مطبقة إلى اليوم. وقد ركزت الإرساليات على عدة أمور هامة:

أولاً: أن تحتضن الفتاة المسلمة، فكانت أولى الإرساليات هي مدارس البنات، لتعليم المرأة المسلمة في ظل مفاهيم مسيحية وعلمانية.

وقالت المبشرة المعروفة (أنا مليمنان): ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة..

وقال المبشـرون: لقـد بـرهن التعليم على أنه أثمن الوسـائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها، في سعيهم لإخراج المسلمين من الإسلام.

ثانياً: أن يكون التعليم وسيلة لعقد الولاء مع الأمة صاحبة المدرسة أو الجامعة. ولقد تردد طويلاً، أن الجامعات الأمريكية كانت وسيلة لتمهيد الطريق أمام المصالح الأمريكية، وكانت منطلق العمل لتأكيد الصهيونية في العالم الإسلامي ودعمها، كما كانت الجامعات الفرنسية وسيلة لتثبيت النفوذ الفرنسي وكذلك الجامعات الإنجليزية.

ثالثاً: أن يكون التعليم في الإرساليات وسيلة لهدم مفهوم العقيدة، وذلك بالدعوة إلى وحدة كل الأديان والعقائد والنحل والمذاهب، وحرية الجمع والمساواة بين الأديان المُنَزَّلة، وبين الأديان الوثنية وفتح الطريق أمام نقد «الدين» والسخرية به ، وتصويره على أنه فكر قد مضى عهده، وأن العصر عصر العلم وأن الدين معارض للعلم.

رابعاً: تقوية العنصريات والدعوة إلى الإقليميات والعصبيات والقوميات كالبربرية والتركية والفارسية والعربية، وإحياء الحضارات القديمة كالفينيقية والأشورية والبابلية والفرعونية، وإحياء الفلكلور القديم والآثار القديمة، لخلق ثقافات وتاريخ سابق للإسلام، مع أن الإسلام أقام قاعدة الانقطاع الحضاري بين حاضره وما سبقه من عصور طابعها الحضارية الوثنية.

خامساً: الدعوة إلى العاميات واللغة المحلية والقضاء على اللغة العربية الفصحى، والحيلولة بين النشء وبين تعلم لغته التي هي المفتاح للإسلام والقرآن، وإحياء العاميات والتركيز على تعليم اللغة الأجنبية، التي هي المدخل إلى مفاهيم الفكر الوافد، والادعاء بأن اللغة العربية لم تعد صالحة لاستيعاب كل الأغراض، مع تفريغ اللغة الفصحى من الروح الإسلامي عن طريق كتابات الصحف والمسرحيات والإذاعة والأغاني التي تقدم مضامين وافدة غربية منقولة مكتوبة باللغة العربية.

وإقامة ثقافة خفيفة مستمدة من التفاهات مقام الثقافة الأصيلة ذات البيان العربي الرصين.

سادساً: الاعتماد على الترجمات من اللغات الأجنبية، وخاصة ترجمة قصص الجنس والإباحية، وقصص الإغريق الوثنية وكتابات سارتر وكافكا ونيتشة وغيرها. مما يثير في نفوس الشباب شبهات الشكوك والإلحاد.

سابعاً: طرح الأيدلوجيات المختلفة، والنظريات الفلسفية المتعددة في علم النفس

والاجتماع والأخلاق، وكلها ترمي إلى تحطيم مفاهيم الدين الحق، وخلق روح حرية الشباب والجنس، والإفساد الأخلاقي بالأندية والسمر والرحلات المختلطة، واستغلال الفكر الماركسي في هدم المجتمع الإسلامي، وتقديم الشبهات المسيحية واليهودية في قالب من النظريات ذات الصبغة العلمية البراقة الكاذبة.

ثامناً: محاولة التشكيك في تاريخ الإسلام وسيرة رسوله ﷺ وذلك بالادعاء بأن القرآن مستمد من التوراة والإنجيل.

واستغلال الآيات التي مجد القرآن فيها السيد المسيح عليه السلام والسيدة مريم، للتبشير بالمسيحية ومحاولة إقناع المسلمين بفكرة التجسيد، أو الادعاء بأن الفكر الإسلامي مستمد من الفلسفة اليونانية.

تاسعاً: تقديم مفاهيم فاسدة عن الموسيقى والمسرح والفن والحضارة والتقدم والمعاصرة، تختلف مع مفهوم الإسلام الأصيل.

عاشراً: إغراء الشباب المسلم بالبعثات الخارجية، وهي التي تستهدف تغيير شخصية الشباب بعد صهره في معاهد خاصة، ووضع الفتيات الأجنبيات في طريقه لعقد صلة اجتماعية تستمر مدى الحياة، وتكون عاملاً من عوامل خدمة أهداف التغريب، وحصار رجال البعثات بعد عودتهم، ليكونوا خادمين للثقافات الأجنبية، وهنناك نماذج واضحة أمثال طه حسين ومحمود عزمي وغيرهما.

الدخول في التيه:

إن خطة الإرساليات التبشيرية لم تتوقف عند المدرسة والجامعة، ولكنها امتدت إلى الثقافة والصحافة.

وهي ليست خطة ضيقة مرتبطة بتغيير الدين فحسب، ولكنها خطة واسعة ترمي إلى تحويل العقل والنفس الإسلامي جميعاً، وإخراج المسلم من مفهوم الإسلام الصحيح، ومن قيم الإسلام الحقة بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع، وإدخاله في دهاليز الفكر البشري الرطبة المظلمة، وصهره في أتون الوثنية والمادية والعلمانية والأممية، وفتح الطريق أمام فكره وعقله وقلبه ليتقبل كل فكر وافد، ويتلقى كل ما تطرحه أعاصير الليبرالية والماركسية والتلمودية والوجودية وغيرها من السموم.

المهم هو إخراجه من الإسلام دون إدخاله في أي دين آخر، وإبقائه مهموماً يدور في الدائرة المظلمة المفرغة: دائرة التيه التي لا تجعل منه قوة صالحة لأي اتجاه، أو كما صوروا هذا في دقة «أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله»..

وبذلك فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك يتحقق الهدف، ما هو الهدف؟ هو على حد تعبيرهم، أن يكونوا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية».

وبمفهومنا نحن، خلق ذلك الجيل ذي الولاء الخاص العامل على تدمير مقومات المجتمع الإسلامي من حيث تمكنه لقيادة الثقافة والاستيلاء على ألوية التوجيه.

التبشير يغير جلده:

وقد تطور أسلوب التبشير، وخرج من مرحلة إلى مرحلة، واستطاع تغيير جلده ليوائم تطورات المجتمعات الإسلامية وهم يركزون اليوم على أهدافهم القديمة بوسائل جديدة، فقد انتهى عهد المبشرين والدعاة الذين يفتحمون المستشفيات ويوزعون الأدوية والملابس، وجاء دور الخدمات الفنية والخدمات الاقتصادية والاجتماعية، في أنظمة مثل «التربية الأساسية» والتغلغل في أنحاء الريف، ومخاطبة الناس والتعرف على نوازعهم.

وهي أساليب الجواسيس والمبشرين بصورة أخرى، قوامها السيطرة على توجيه المجتمع، والجاسوسية السياسية للحصول على معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها، وقد اتخذت أساليب جديدة قوامها الجداول الإحصائية لكل شيء في البلاد، مع التركيز على التعليم بالذات، وتجنيد رجال التربية في العالم العربي في مؤسساتهم وإغرائهم بالمرتبات الضخمة.

كما يدعون بين آن وآخر إلى مؤتمرات موسعة، والهدف هو تطبيق أفكار تربوية بحقل الفكر الإسلامي العربي تابعة للفكر الغربي المسيطر، وتطبيق مبادئ علم النفس وتجاربه على أبنائنا وتلاميذنا بهدف احتقار أوضاعنا ومقدراتنا والخروج من تقاليدنا إلى التقاليد الوافدة.

ولا ريب في أن تحقيق هذه الأهداف يباعد بين المسلمين وبين العودة إلى مناهج التربية الإسلامية الصحيحة التي تمكنهم من امتلاك إرادتهم، ولا يزال النفوذ الأجنبي يركز على الثنائية الموجودة في نظام التعليم في العالم الإسلامي، فيصبح النظام الإسلامي خاضعاً وتابعاً للنظام الغربي.

بينما الوجهة الصحيحة هي أن يكون التعليم الأولي كله إسلامي الأساس. وأن تقوم مناهج إسلامية ثقافية تحتضن كل أنواع الدراسات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والأدبية واللغوية، وأن تكون اللغة العربية هي أساس العلوم والتكنولوجيا ودراسات الطب والعلم التجريبي.

حيرة الشباب:

يقول الدكتور عمر فروخ: إن التحدي الذي يواجه المسلمين منذ قرن كامل من الزمن على الأقل: «هو عندما قرر الاستعمار أن يستخدم التبشير عن طريق الغزو الفكري بديلاً عن الفتح العسكري، واتخذ لذلك طريق المدرسة والكتاب والجريدة، ثم طريق الراديو والتلفزيون في السنوات الأخيرة، وعن طريق الأزياء أيضاً، وكانت

طريق الأزياء من بين الطرق الناجحة في سلب الشخصية الإسلامية من المسلمين، ثم كانت أنجح الوسائل إطلاق الأحزاب ذات الهوية الفكرية المعادية للإسلام، والهدف هو زعزعة اطمئنان المسلم بماضيه ومثله العليا. وأول ما يتجه إليه خصوم الإسلام هو أن يختاروا من الشبان من كان في أزمة نفسية واجتماعية، وهم يدعون الشاب المختطف إلى التحرر من جميع القيود وأن يقرر أمره بنفسه، من غير أن يشاركه في ذلك أبوه ولا أستاذه ولا النظم الحاضرة، ويقف الشباب المسلم حائراً قلقاً، يظن أن الحضارة غير الإسلامية تتحداه، وهو في الواقع لو عرف شيئاً كافياً من أمور دينه وأشياء من تاريخ الحضارة الغربية، لما وقف موقف الحائر في هذا التحدي، بل لما كان الخصوم قادرين على تحديه وكان هو القادر على تحديهم.

الاحتواء والولاء:

والواقع أن كل محاولات التبشير تركز على الشباب وعلى الأجيال الجديدة بهدف احتوائها، لتكون ذات ولاء للفكر الغربي وأنها في سبيل ذلك تستخدم الشيوعية والعلمانية وأكاذيب مذهب «فرويد» وضلالات فلسفة «سارتر»، وغيرها من الدعوات لتدمير القيم الأخلاقية في نفس الشباب، وجعله لقمة سائغة للقوى التي تعمل على احتواء العالم الإسلامي، وتحول بينه وبين القدرة على امتلاك إرادته بفهم دينه وعقيدته، والتشكل على النحو الصحيح، وهو أن يكون قادراً على مواجهة التحدي والإعداد للرباط في سبيل الله والجهاد بحمل السلام للدفاع عن العقيدة والأرض معاً.

وقد سجل رجال التبشير هدفهم هذا وما وصلوا إليه حين قالوا: لقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منذ حطم التبشير النشء الإسلامي تحطيماً. وهو سبب فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة في نفوس الشباب.

إخضاع العالم الإسلامي:

وقد كتب أحد المبشرين في مجلة «لاريفو مسلمان» التي تصدر في باريس مقالاً كشف فيه بكل وضوح عن هدف الإرساليات التبشيرية، التي تحولت اليوم إلى جامعات ومعاهد لها صفة علمية خالصة، تحت عنوان «إخضاع العالم الإسلامي» قال: إن الهدف ليس مجرد نشر النصرانية، بل إخضاع العالم الإسلامي، فقد أثبت التاريخ أن المجابهة بين المسيحية والإسلام لم تنته بمجرد انتهاء ما يسمى بالحروب الصليبية،تلك الحروب التي مثلت الصراع الجسدي على أعلى المستويات، والتي استمرت في خمس حملات خلال مئتي عام، وقال إن بين الإرساليات والاستعمار تعاون وثيق. فإذا أضفنا إلى هذا ما كتبه الأب «جيرونر» في خطاب ألقاه في أحد المؤتمرات التبشيرية حيث قال: إن الإسلام هو مشكلة اليوم التي لا يجب تأجيلها، وإنه يتحتم علينا أن نرصد كل إمكانياتنا لحلها، مما يدعو إلى التستر في هذا الهدف والوصول إليه بأساليب غير مباشرة.

الإسلام دين متحرك زاحف يمتد بنفسه دون قوة تساعده و هذا هو وجه الخطر فيه:

الإسلام الخطير:

يردد كثيرون ما هو أشد صراحة من هذا المعنى حين يقولون: إن الإسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية، إذأنها جميعاً ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها، وهي في نفس الوقت أقل من النصرانية رقياً، أما الإسلام فهو كما يسمونه - دين متحرك زاحف - وهو يمتد بنفسه وبلا أية قوة تساعده وهذا هو وجه الخطر فيه.

ويقول الأستاذ سيد قطب معلناً: إننا لا ندرك ضخامة الجهود التبشيرية التي تبذلها أوربا وأمريكا لنشر النصرانية في أرجاء العالم، وفي مجاهله ومعموره على السواء، ولا ندرك أن للكنيسة الكاثوليكية وحدها نحو ثمانية آلاف بعثة تبشيرية، تنتشر في أنحاء الأرض، وتذهب إلى مجاهل الكونغو والتبت (وإذا كان هذاالكلام عن عام ١٩٥٠) فإن الأمر اليوم قد تضاعف، مع تملك هذه البعثات التبشيرية من وسائل الدعم المالي والآلي لتمكين جهودها.

ولا ريب أن الجهود المختلفة المبذولة من الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية(١) والموجهة إلى أفريقيا وإلى جنوب آسيا بالذات في هذه المرحلة تؤازرها قوى

(١) العجيب هو هذه الكنائس التي تبنى، بينما كنائسهم في انجلترا وأمريكا لا تجد من يعمرها من النصارى، ثم تباع أبنية خالية، وربما يشتريها ناد للقمار أو مؤسسة للرقص والفجور، لتكون مركزاً لمعصية الله ورسله. وأولى بمن يبشر بالنصرانية في آسيا وأفريقيا أن يبشر بالنصرانية بين أبناء الملة في بلادهم.

مختلفة، وترصد لها ميزانيات ضخمة ببناء المستشفيات والكنائس الضخمة، وتربي أجيالاً تنسلخ عن أسرها ودينها، هذه العناصر هي وحدها التي يتاح لها فرصة تسلم أرقى المناصب، ودعامتها العقيدة المسيحية واللغة الإنجليزية، والإيمان بالحضارة الغربية، وتمكن النفوذ الأجنبي من السيطرة على مقدرات الأوطان ومقاومة الإسلام الذي ينتشر تلقائياً.

وقد تواترت أخبار كثيرة عن الخطط التي تقوم بها الإرساليات في أندونسيا وماليزيا. والتي ترمي إلى تصفية الأسلام في نصف قرن، وكذلك ما يجري في أفريقيا مدا بالحركة التبشيرية في جنوب السودان والحزام الأفريقي.

المظهر والمخبر:

فإذا ذهبنا نبحث وجدنا أن المناهج كلها وإن كانت مسيحية المظهر فهي تلمودية المخبر، وأن التبشير المسيحي كله خاضع اليوم لنفوذ الصهيونية العالمية، وأنه يعمل لتحقيق غاياتها البعيدة، والتبشير بمفاهيم شعب الله المختار ومفاهيم أخرى تتناقض تماماً مع مفاهيم الإنجيل المنزل من عند الله، بل أن ما تطرحه الإرساليات الآن إنما يستمد مصدره من الفكر الماسوني التلمودي، الذي يقدم في نظريات ماركس وفرويد ودوركايم وفريزر، هذه المفاهيم التي فرضت اليوم على جميع الجامعات والمعاهد في العالم الإسلامي، على أنها علوم يقينية وليست نظريات وفروض قابلة للخطأ والصواب.

وإذا كانت الإرساليات التبشيرية هي منطلق العمل في المدرسة والصحيفة، فإن من ورائها قوى الاستشراق الضخمة التي تمدها بالمادة الواسعة للتشكيك وإثارة الشبهات، ويقوم التغريبيون خلفاء طه حسين وساطع الحصري ولطفي السيد وسعد زغلول وسلامة موسى في العالم الإسلامي كله للتبشير بهذه المفاهيم، تحت اسم الدعوة إلى المعاصرة والتقدمية.

ولقد تنبهت قوى اليقظة الإسلامية إلى هذه المخططات والأهداف، فهي تواجهها في قوة وتكشف زيفها ولم يبق إلا أن تسيطر عليها في القريب.

* * *

(٧٤)
مفاهيم النفس والأخلاق

كان حقاً علينا أن نصدع بكلمة الحق لأنفسنا أولاً، ولأخواننا المسلمين أولاً وأخيراً، محذرين من ذلك الخطر الواسع الضخم الذي يحاول أن يحتوي أمتنا ويسيطر على فكرنا الإسلامي، ويهدد مقدساتنا ومقرراتنا وقيمنا الأساسية بتحيولها عن المنهل العذب والمورد الثر، مورد القرآن الكريم، نور الله وهديه إلى العالمين، إلى موارد كدرة مليئة بالأخطار والأسواء هي موارد (الركام البشري) الذي جمعته قوى الشر والباطل، لتحارب به كلمة الله والتي حاولت في السنوات الأخيرة أن تخرجه إخراجاً له طابع علمي براق لتخدع به المسلمين بعد أن خدعت به كثيراً من الأمم، وتحقق لها بالفعل احتواء الفكر الغربي المسيحي والسيطرة عليه، ذلك أن هذه النظريات المطروحة في مجال النفس والأخلاق والاجتماع إنما هي وجهات نظر لأفراد وهي أيضاً بمثابة فروض يراد النظر فيها عند التطبيق هل هي صالحة أم لا تصلح؟

وهي مقدمة لأمم أخرى غير أمتنا، أمم لم تجد لها منهج حياة، ولا نظام مجتمع، فقد كان دينها عبارة عن أدعيات روحية وتوصيات خلقية، ومن هنا فهي قد وجدت نفسها في حاجة إلى أن تضع لها نظاماً اجتماعياً وسياسياً وقانونياً، حاولت أن تستمده مرة من الفكر الوثني الهليني أو من الفكر البابلي القديم وكلاهما شر.. أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى هذا لأن الإسلام كفاهم الأمر كله.

فهو قد قدم لهم منهجاً شاملاً عن الميتافيزيك (ما وراء الغيب) ليريح عقولهم من

التفكير في امور لايستطيع العقل إدراكها أو الوصول إليها، وحتى يوجه العقل إلى النظر في أمر العمران، والبحث عن سنن الله في الحياة ، إنماء لهذه الحياة ودفعاً لها إلى الأمام.

كذلك قدم لهم منهجاً خاصاً بالحياة والمجتمع والعلاقات البشرية والإنسانية وذلك حتى يحميهم من أهواء النفس ورغبات الذات وتقلبات الحياة التي قد لا تسمح لهم بإقامة ميزان الحق، والعدل، فأغناهم بذلك المنهج الرباني المصدر الإنساني الطابع الذي حرر البشرية من عبودية الإنسان ووثنية الأصنام.

كذلك قدم لهم منطق العمل للكشف والعلم حين دعاهم إلى النظر في السموات والأرض ومن ثم اكتشف المسلمون ولأول مرة في تاريخ البشرية المنهج العلمي التجريبي.

ومن هنا فلم تعد حاجتنا إلى الحضارة الحديثة إلا حاجة واحدة هي التماس مناهج العلم التجريبي والتكنولوجيا وصهرها في بوتقة اللغة العربية والفكر الإسلامي حتى يكون العلم إسلامياً في طابعه وفي اتجاهه وفي هدفه نحو الإنسانية الخالصة التي لا تريد علواً في الأرض ولا فساداً.

أقول هذا كله بين يدي البحث عن النظريات التى ظهرت أخيراً في الغرب تحت اسم علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق، وكلها فروض مطروحة في أفق البحث وليست علوماً بالمعنى المفهوم لكلمة «علم» وهي تستهدف بيئاتها أولاً، ولكن الغزو الفكري والهدف المبيت لتغريب المسلمين قضيا بأن تثار هذه القضايا في أفق فكرنا الإسلامي لتحدث بلبلة واضطراباً شديدين.

وتحاول هذه النظريات سواء منها ما اتصل بالنفس أو بالمجتمع أو بالأخلاق، أن تقرر بأن الإنسان حيوان مادي، لا تهمه إلا الغريزة أو لقمة العيش وأنه مُجبر لا

إرادة له وأنه عاجز عن أن يختار لنفسه شيئاً، وأن الأسرة ليست فطرة وأن الدين غريب عنه قد نبت من الأرض ولم ينزل من السماء.

وكان حقاً علينا قبل أن نخوض في الموضوع أن نعرف أبعاده وخلفياته وبواعثه، وكان حقاً علينا أن نكون دائماً في حذر من كل ما يقدم لنا من خارج نطاق فكرنا لأمرين:

أولاً: لأنه ليس مطابقاً لذاتيتنا الخاصة ولا لمجتمعنا.

ثانياً: لأنه يتسم بسمة الإحساس الغربي بالاستعلاء العنصري، أو التعصب الديني، أو الرغبة الاستعمارية ، فهذه الأمور الثلاثة تحول دون أن يكون ما يقدم لنا سليماً أو مقبولا على علاته، ونحن كمسلمين أمرنا بالحذر ونهينا عن التبعية.

وكان حقاً علينا بعد الضربات المتوالية خلال السنوات الطويلة أن تكون قد تكونت لدينا حاسة الحرص والحذر في نفس الوقت الذي يجب أن يكون فشل تجاربنا مع المذاهب الشرقية والغربية قد أقنعنا بأنه ليس لنا إلا طريق واحد هو طريق: لا إله إلا الله.

ولقد كان الاستعمار هو عدونا الأول ثم ثبت أن هناك أعداء أكثر ، منها الشيوعية ومنها الصهيونية ، ومنها الوثنية ، وكشفت الأحداث - لتزيد توعيتنا وتضيء طريقنا في السنوات الأخيرة عن خطط سرية تراد بالبشرية تحت عنوان: «بروتوكولات صهيون » التى تريد احتواء الإسلام بعد أن احتوت المسيحية والغرب وهدفها الأكبر هو تدمير المجتمع البشري قبل السيطرة عليه وذلك بعمل واحد هو هدم«الإنسان».

فالإنسان اليوم هو الهدف، ولقد حرص القرآن على أن يرسم للإنسان طريقاً يحميه من كل الأخطار، ويكشف له عن كل المحاذير ويضيء له السبيل المستقيم في أن تكون وجهته إلى الله سبحانه.

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾.

ولذلك يحق لنا أن نقول أن لنا:

«علم إسلامي» للنفس و«علم إسلامي» للأخلاق و«علم إسلامي» للمجتمع فلماذا نلجأ إلى علوم الآخرين نعتنقها ونؤمن بها. إن الخطر هو أننا فرغنا عقول شبابنا وقلوب ناشئتنا من التعبئة الإسلامية عن طريق التربية، فأصبحت متطلعة إلى أي مما يلقى في طريقها وخاصة إذا كان مسايراً للغرائز والأهواء والرغبات وفاتحاً الطريق أمام اللذات، ذلك إن الإسلام إنما يفتح لنا الطريق إلى الرغبات والمطامح النفسية غير أنه يجعل لها منطلقاً وضوابط ومحاذير تستهدف في الأصل حماية الإنسان من خطر الانهيار والتدمير، إن الذين فتحوا الطريق أمام الأهواء إنما كانت لهم تحديات من عقيدة ودين أغلق أمامهم باب الرغبات، وأسلم الإنسان إلى رهبانية عنيفة صارخة تنكر على الإنسان كل ما أحل له من زواج وطعام ومتاع، ولذلك فقد جاءت هذه الموجة من الفكر المادي الوثني الحديث كرد فعل، لذلك الإغلاق الشديد، ومن هنا كان هذا الخطر الذي يحاول أن يحطم كل الحدود والسدود.

أما المسلمون فكأن هذا الخطر ليس متصلاً بهم وليس له في مجتمعهم قضية أصلاً، فلماذا يتشبثون بهذه النظريات ويتعصبون لها؟

أخطر ما في النظرية المطروحة: في النفس والأخلاق والاجتماع. أنها مادية صرفة، وأنها ترغب إلى تدمير التفس الإنسانية وأنها ترى أن مصدر تصرفات الإنسان هي الغريزة، وأنها تعلي حيوانية الإنسان وتنكر روحانيته، وأنها تحاول بذلك كله أن تخلق صراعاً عنيفاً بين الأب والأم في محيط الأسرة لهدم قوامة

الرجل على المرأة وتحطيم قيادة الرجل للأسرة، وهي بذلك كله تمثل جوهر الفكر التلمودي اليهودي الهدام لكل القيم وتستهدف خلق أجيال هشة فاسدة منحلة، لا تستطيع أن تقوى على حماية مقدرات الأمم ومقدساتها.

ونحن – لكي نفهم هذه النظرية – لابد لنا أن نفهم طبيعة الفكر الغربي ووجوه الالتقاء والخلاف بينه وبين الفكر الإسلامي.

لقد تشكل الفكر الغربي من مصادر ثلاثة: الوثنية الهلينية والمسيحية الغربية والفكر التلمودي اليهودي، وعندما انفصل الفكر الغربي الحديث عن الدين خلق تياراً مثالياً حاول به أن يستغنى عن الدين بقيم أخلاقية، غير أن هذا التيار لم يلبث أن انحرف تحت وطأة التيار التلمودي المادي الذي غلب وسيطر، واستطاع أن يستوعب الفكر الغربي إلا قليلاً.

وتتمثل طبيعة الفكر الغربي في «التجزئة»: تجزئة النظرة إلى الأمور، بينما يتمثل الفكر الإسلامي في «تكامل النظرة». فالفكر الغربي يفصل بين الأشياء فصل التعارض والمخالفة استمداداً من طبيعته الأصلية التي تعزل بين الدين والدنيا وفق قاعدة «ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

ولذلك واستمداداً من طبيعته الخالصة ومزاجه العام تستحيل عملية التكامل التي هي طبيعة أساسية للفكر الإسلامي. فهو حين يقبل العلم يرفض الدين، وحين يقبل المادة يرفض الروح، وحين يقر المحسوسات يرفض الغيبيات.

بينما يجمع الإسلام بين تلك القيم في تكامل ومواءمة وتوازن دقيق بناء على قاعدة أساسية ثابتة لا تختلف على أن الإنسان نفسه مادة وروح فقد صنعه ربه من الطين ثم نفخ فيه من روحه.

ولذلك فالفكر الغربي يعجز عن التكامل ويعجب لإمكان تلاقي الروح والمادة

والنفس والجسم، ذلك لأنه في أعمق أعماقه يقوم على قاعدة الفصل بين القيم ولاريب أن هذا أخطر خلاف جذري بين منهج البحث الإسلامي ومنهج البحث الغربي، ومن هنا كانت فجوة ضخمة بين الفكرين في مجال دراسات النفس والاجتماع والأخلاق.

لقد هدى الإسلام الإنسان إلى سنن الفطرة وبيّن له طبيعة الإنسان القابلة للخير والشر والطريق المفتوح أمامه إلى الهدى والضلال والإرادة الإنسانية الحرة في اختيار أيهما، هذا وقد منح الله البشرية عطاء موجهاً هو الهداية الربانية: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

ومن هنا فإذا خالف الإنسان طبيعته الجامعة بين المادة والروح وجنح إلى أي السبيلين: المادية أو الروحية فلا ريب أنه سيصل إلى التمزق والضياع، ولقد تمزقت المجتمعات التي عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق في الروحية، كما تتمزق اليوم نفس المجتمعات التي عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق في المادية، هما أسلوبان ضالان وبينهما طريق وسط جامع متكامل هو المفهوم الإسلامي للحياة.

ومن هنا أيضاً كان خلافنا مع منهج الفكر الغربي الذي يحاول أن يخضع المفاهيم الإنسانية «ولا نقول العلوم» لمناهج العلوم التجريبية على أساس القول بأن الإنسان مجموعة من اللحم والعظم والشهوات والأهواء وأنها جميعاً يحكمها منطلق واحد هو الغريزة على النحو الذي قدمه «فرويد»، أو المعدة على النحو الذي قدمه ماركس.

ومن عجب أن الفكر الغربي أخطأ مرتين في فهم الإنسان.

أخطأ من خلال الفلسفة المثالية أمس.

ومن خلال الفلسفة الوجودية اليوم، حين قرر أن الإنسان أرقى الكائنات، وأنه

سيد الكون وأنه وحده الموجود في الكون.

وأخطأ مرة أخرى من خلال الفلسفة المادية حين قال: إنه حيوان خاضع لغرائزه وشهواته، ومن خلال الطعام واللقمة - والنظريتان تتعارضان مع الحقيقة وتبعدان عن المفهوم الصحيح فليس الإنسان وحده في هذا الكون وليس هو الحيوان وإنما هو مخلوق كريم للخالق الاكبر الذي اختاره واستخلفه في الأرض ، ووكل إليه عمارتها بميثاق أمانة ومسئولية فردية والتزام اخلاقي ، وليس هو حيوانا ولا خاضعا لغرائزه ولكنه مهيأ وفق إرادته لأن يختار أحد الطريقين (وهديناه النجدين) وها مناط الأمانة التي وكل الله امرها إليه والتي تقوم علي الأختيار. والأنسان بمفهوم الإسلام قابل للخير والحق والهدى مهيأ لذلك في ضوء هداية الله ومن هنا كانت حاجته إلى الوحي والنبوة والرسالة.

أما الفكرالغربي فإه يقول بعكس ذلك تماما ويري أن طبيعة الإنسان ليست في حاجة إلى توجيه إلهي وأ ن الإنسان قد وصل إلى مرحلة الرشد ، فلم يعد في حاجة إلى وحي السماء.

وهذا كله باطل تماما ذلك لأن الحضارة المادية قد قدمت إنجازات للإنسان في المجالات المختلفة الخاصة بأسلوب العيش ، ولكنها عجزت عن أن تمده بأي تقدم في مجال المفاهيم النفسية والروحية والأخلاقية ، لأنها أنكرتها أساسا ولم تعد تعتبرها ذات قيمة ما.

وفي مجال الإسلام يختلف الموقف عن الفكرالغربي في دعواه التي تقول بأن هناك صراعاً بين الجسم والروح لقد ألغى الإسلام هذه الفكرة الزائفة ودحضها وكشف عن الحقيقة التي هي أن الجسم والروح متكاملان، وبذلك سقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحي، ومن

هنا فقد نظر الإسلام إلى الإنسان أكرم نظرة: نظرة قوامها الروح والجسد معاً، وجعلهما معاً موضع التكريم، ودعا إلى الاهتمام بالطهارة الحسية والنظافة والزينة.

الإنسان والعلوم التجريبية:

أثبتت الدراسات الجادة أن محاولة إخضاع الإنسان والإنسانية «النفس والأخلاق والاجتماع» للمناهج التجريبية التي تخضع لها العلوم المادية فيه تعسف كبير، وأن المناهج التجريبية المطبقة على المادة تعجز عن الحصول على نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الإنسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته.

ذلك لأن طبيعة العلوم الإنسانية مختلفة متباينة ، ومن ثم لزم أن يعالج كل منها مفهوماً خاصاً، وإذا كانت هناك قوانين لقياس الطبيعيات والرياضيات فإن هذه القوانين تعجز عن قياس العواطف والمشاعر والأحاسيس.. ويرجع ذلك إلى أن حرية الإرادة البشرية تتدخل في الظواهر الإنسانية وتغير مجراها تغييراً يجعل من العسير إخضاعها لقانون علمي ثابت – وأنه إذا كانت القوانين الطبيعية عامة صادقة في كل زمان ومكان فإن مقررات العلوم الإنسانية ترتبط بظروف شخصية وتاريخية متغيرة، كذلك فإن الباحث في مجالات العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه وهو ينظر إلى موضوعه الذي يتصل حتى بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليد وطنه ونحو ذلك من عوامل تؤثر على نزاهته وتجعله ذاتياً أو متأثراً بالعوامل الذاتية على عكس الحال في العلوم الطبيعية، إذا أردنا أن نواجه النظرية الاجتماعية نجدها في مقدمة مفاهيمها تنكر حقيقة ثابتة هي أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى.

والقصد هو التضحية بالأسرة من أجل قيام شيوعية المجتمع، وفي المفهوم

الأصيل أن الأسرة تكونت في بداية البشرية ولم يتخل جيل من الأجيال عنها.

والقرآن يقرر أن الأسرة نظام بشري أصيل ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ .

كذلك لا يعترف الإسلام بأي نظرية عن تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة في عهد البشرية الأولى، ثم تكونت العائلة بمرور الزمن بفعل عامل اقتصادي (وذلك ما تحاول بعض الدراسات الانثربولوجيا دسه وهو غير صحيح).

وهكذا تجري النظرية الاجتماعية المادية في محاولة التشكيك في أصل هذا النظام توطئة للدعوة إلى القضاء عليه - والنظرة الصحيحة ترى أنه ربما غلبت هذه الدعوة مرة أو مرات على مدى التاريخ الطويل، بحكم الاستثناء الذي يحدث لاستعلاء الباطل والشر، ولكن الواقع أن هذه المحاولات كانت تتحطم بسرعة وتفسل فشلاً ذريعاً لأنها تعارض الفطرة وتيار التاريخ، وبعبارة واحدة إنه قد عجزت كل المحاولات التي جرت على مر التاريخ للقضاء على الأسرة وستظل نظام الأسرة ثابتاً مكيناً، ذلك لأن الأصول الإنسانية التي تقوم عليها ليست من صنع الأفراد ولا هي خاضعة لما يريد الفلاسفة أو صناع الأيديولوجيات. كذلك يكشف الإسلام زيف المفهوم الذي طرحه علم الأثربولوجيا والقائل بأن البشرية بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد. أو القول بأن الدين نظام اجتماعي قابل للتطور مثل الجماعة نفسها في تاريخها من تشريع وأخلاق. ذلك لأن الحقيقة العلمية هي أن البشرية عرفت النتوحيد بأول إنسان وهو آدم، ومع أول نبي وهو نوح، وأنها ظلت تداول التوحيد والوثنية عصراً بعد عصر ولم يكن هناك عصر واحد خال من التوحيد.

كذلك فأن الإسلام ليس ديناً وضعياً يخضع لما تخضع له الأيديولوجيات من تحوير وتعديل وتطوير، إنما هو دين موحي به من السماء وقد أحمكت أياته على

نحو يجعله صالحاً لكل الأزمان والعصور والبيئات، وأنه جاء علي نحو من المرونة واتساع الأطر وملامسة الفطرة البشرية.

ولذلك فهو لا يخضع لما تخضع له الأديان الوضعية.

الأخـــــلاق:

تقول النظرية الغربية في الأخلاق: إن مبادئ الأخلاق ما هي إلا ظواهر اجتماعية تملي على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها أو فضل في الإيمان بها.

وتقول: إن الأخلاق تختلف عن الدين وإنه لا صلة بين الدين والأخلاق، وأن الأخلاق هي استجابة النفس إلى الوسط فإذا ما تغير الوسط تغيرت الأخلاق، وأن هذا الوسط يتسع ويضيق باختلاف الزمان والمكان.

كذلك تقول النظرية: إن الأمم ليست في حاجة إلى الأديان ولكنها في حاجة إلي الأخلاق، وأنه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الإنساني.

أما النظرية الماركسية فترى أن الأخلاق مثل السياسة والقوانين تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع.

ومجمل قول الفكر الغربي بشقيه: أن الأخلاق نتاج البيئة وأنها تختلف باختلاف الأمم والعصر ومتغيرات المجتمعات، ولا ريب أن هذه النظرية في ضوء الفكر الإسلامي تبدو ساذجة وقاصرة ومنشطرة عن فهم النفس البشرية ومضادة لحقائق التاريخ وسيير الأبطال وحيوات الأمم، وأنها ضد الفطرة، ولا يقرها العلم ومفهوم الإسلام، إن طبيعة الإنسان ثابتة لا تختلف وأن الأخلاق جزء من الإسلام

فالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق، وأن هناك فارقاً عميقاً بين الأخلاق الثابتة المتصلة بالدين نفسه وبين التقاليد التي تتصل بالمجتمع وتتغير بالتغير الطارئ.

فالإسلام يفرق بين الأخلاق والتقاليد.. والدين والأخلاق في الإسلام لا ينفصلان.

والقرآن أصل الأخلاق الإسلامية، والإسلام يربط بين القول والعمل والقيمة والسلوك.

والأخلاق في الإسلام قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة سياسية واجتماعية وقانونية وتربوية.

وغاية الأخلاق في الإسلام بناء مفهوم التقوى الذي يجعل أداء العمل الطيب واجباً حتماً، ويجعل تجنب العمل الضار واجباً حتماً، ويجعل الخوف من الله أقوى من الخوف من القانون والعقوبات الوضعية.. ويقرر الإسلام أن القيم الأساسية ثابتة لا تتغير، لأنها صالحة لكل زمان ومكان، وأن الأخلاق والعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان ولذلك فهي قائمة على الزمان ما قام الزمان، وعلى اختلاف البيئات والعصور، وأن الحق سيظل هو الحق لا يتغير.

ولذلك فإن أبرز قواعد الإسلام هو «ثبات القيم» وبالتالي ثبات الأخلاق وإن الالتزام الخلقي هو المحور الذي تدور حوله القيم الأخلاقية، فإذا زالت فكرة الإلزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقي ذلك أنه إذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه.

في الغرب أخلاق بلا التزام، وفي الإسلام أخلاق ملتزمة.

وثبات القيم في العقيدة الإسلامية يجعل ثبات الأخلاق قيمة أساسية تقوم على أساس القاعدة بأن طبيعة الإنسان ثابتة لا تختلف وقد جاء الحق ليقدم لها الضوء

الكاشف والهدى الصحيح الذي يحفظها من القلق والتمزق .. والتشاؤم والحيرة واليأس .. وهي بغير هذا العطاء لا تستطيع أن تواجه الحياة.

ولقد ذهب العلم الحديث في منجزاته إلى آفاق بعيدة من المتاع المادي والرفاهية، ولكنه ظل عاجزاً عن أن يعطي الإنسان لمحة سكينة أو نفحة طمأنينة، إن الطبيعة الإنسانية لا تجد طريقها الحق إلا في الإتصال بالله وفي التماس منهجه.

ومن هنا قرر الإسلام أن هناك قيمة ثابتة ليست من صنع الإنسان هي الأخلاق، وقيماً متغيرة لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات هي العادات والتقاليد، ومن الخطأ الخلط بين الثوابت والمتغيرات من القيم الأصيلة الربانية وبين القيم التي صنعها الإنسان.

ثم نصل بعد ذلك إلى نهاية المطاف وإلى أخطر ما يطرحه المذهب الغربي الوافد في مجال النفس، وهو مذهب «فرويد» الذي لم يكن إلا مذهباً واحداً من عديد من المذاهب ولم يكن أحسنها، وإنما كان أبعدها عن الفطرة، ولكنه وجد من يدافع عنه ويسوق به الناس سوقاً حتى سيطر سيطرة كاملة في الجامعات، وفي منهج الأدب والقصة، وفي منهج التربية، وبذلك حمل إلينا أخطر المفاهيم التي كان لها أبعد الأثر فيما أصيب به المسلمون في العصر الأخير من نكبة ونكسة.

والحق أن نظرية «فرويد» لم تكن إلا مجموعة من الفروض التي استقاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين، وليس من الأصحاء أو الأسوياء، وهي وجهة نظر مطروحة للنظر، ومع الأسف فإنها لم تثبت طويلاً في مجال التجربة، وقال كثير من الباحثين: إن «فرويد» أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء، وإنه يرمي بنظرياته وأرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمي أو السند الواقعي، وأنها تقوم في أغلبها على الافتراض ثم تصديق ما يفترض فيبني عليه وكأنه حقيقة علمية لا

يأتيها الباطل، وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالحاجة إلى الهواء أو الشراب أو الطعام، ثم إن الدافع الجنسي يخضع للتربية بمعنى أننا نستطيع تربية الإنسان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي ويتحكم فيه وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكناً فحسب بل ضرورياً...، ويرى الباحثون أن نقطة الضعف الأساسية في «فرويد» كعالم هي أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة – وقد ترك «فرويد» من كتاباته عن نفسه وعن حياته ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أخلاقه وهواجسه ومشاكل صباه كيهودي في النمسا المتعصبة ضد اليهود قاعدة لكل تعميماته، والفلسفة الفرويدية تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية. (أي أنها تعارض أبرز معالم الإسلام وهو إرادة الفرد التي هي مناط مسئوليته) وهي أي الفلسفة الفرويدية تنظر إلى الإنسان على أنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة، وأن فرويد أسرف في إرجاع كل ظاهرة سلوكية إلى الغريزة الجنسية.

ثانياً: لم تكن فرضيات «فرويد» موضع القبول من العاملين معه في حقل علم النفس بل على العكس من ذلك كانت موضع المعارضة، وقد عارض «ادلر» و«يونج» نظرية «فرويد» في الجنس ورفضا رأيه في الغريزة الجنسية وفي الطفولة وفي عقدة أوديب.

أما «ادلر» فإنه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله وارجع تكوين الشخصية أو نشأة الأمراض العصبية إلى مجرد الرغبة في القوة والتعويض عن نقص الكيان، ويعتقد «ادلر» أن حافز توكيد الذات وليس الدافع الجنسي هو القوة السائدة الإيجابية في الحياة. ويرى «يونج» أن الجنس ليس الدافع الحقيقي ولكن الرقي والسعادة والرغبة الملحة في التفوق. وأن الحب ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه

السيادة، وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسي.

ويرى «ادلر» أن الشعور بالنقص هو أهم الأمراض العصبية في الأمور الجنسية التي بالغ «فرويد» في إعلان خطورتها. ويقول ثالثهم «يونج» أن آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج وأن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو اللبيدو ولكن يجب ألاّ يوصف بأنه جنسي أبداً، وذلك باعتبار أن الدافع الجنسي لم يتميز بعد عن الميل الابتدائي للحياة. وينكر «يونج» أن الليبدو جنسي بكليته وهو يعتبر أن الليبدو هو إرادة الحياة.

ثالثاً: كذلك كشفت الأبحاث التي أجراها الأطباء النفسيون عن فساد نظرية «فرويد» وأن إصرار رجال التربية على لوم الآباء هو المسلك المدمر فى تربية الأبناء. ويقول العلماء إنهم درسوا أحوال ١٥٨ طفلاً غير منحرفين فيهم الفقراء والأغنياء، وقد نشأ الأولاد أصحاء مستقيمين بالرغم من القيود التربوية القاسية، ويدل ذلك على أن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل وليس بالبيئة والوسط والحالة الإجتماعية وحدها.

وقد دعا كثير من الباحثين (منهم الدكتور ناثان كلاين) إلى نبذ نظرية فرويد فى العلاج النفسى والعقلى التى ترجع جميع الإضطرابات النفسية إلى أسس جنسية بحتة. وقال إن هذه النظرية ليست سوى معول هادم لعقول الشباب ومخدر مميت لنفوس أبناء الشعب، ويرى أن القول بأن البيئة هى المسئول الأول عما يصيب الإنسان من إنحراف نفسى وعقلى هو الأصح.

رابعاً : يرى بعض الباحثين فى دراسات الأمم والسياسة والاجتماع أن دعوة فرويد ومدرسته فى القول بأن الحياة النفسية للإنسان هى حياة حيوانية مطلقة، وأن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه، وأن الجانب المسمى

بالروح لاوجود له مطلقاً، وأن القول بأن الحياة كلها جنس ومنبثقة من الجنس حتى الدين والأخلاق، هذا القول كله - على بطلانه العلمى - إنما يرمى به فرويد إلى تحطيم القيم الأساسية التى جاءت بها الأديان. وإن ذلك أول أهداف الصهيونية التي تعمل على هدم النظم الدينية والأخلاقية من أجل السيطرة على العالم على النحو الذى أرادته بروتوكولات صهيون، التى تقول بأنه لابد من تخريب العالم أولاً وقبل السيطرة عليه، وكانت الصهيونية قد أذاعت دعوات ترمى إلى إسقاط حفاظ الإنسان وغيرته وكرامته بإنشاء جماعات أندية العراة وغيرهًا، ثم جاء دور فرويد فى هذا الإطار حيث أراد أن يحطم احترام الإنسان لنفسه تحطيماً كاملاً، ومن يقرأ فرويد يدرك تماماً أنه ينفذ مخططاً يهودياً جباراً حين أراد أن يصّم الجنس البشرى بأنه جنس متحلل، ينطوى على أسوأ النوايا، وأخس الرغبات، حتى أنّه اتهم الجنس البشرى كله بأن الطفل يعشق أمه ويريد قتل أبيه «، وقد تبين بما لايدع مجالاً للشك فساد رأى فرويد فى القول بأن معارضة رغبات الطفل فى صغره تؤثر فى تصرفاته إذا كبر، بل إن التجربة قد أثبتت بعد دراسات طويلة ضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل، وقالت هذه الأبحاث إن مسلك الطفل يتأثر بعدد كبير من العوامل غير البيئة والوسط والحالة الإجتماعية فلاسبيل لإخضاع تربية الطفل المسلم لنسق واحد.

وبعد فلابد لنا فى النهاية أن نعرض رأى الإسلام وموقفه من كل هذا، نقول إن الإسلام يقف موقفاً واضحاً صريحاً من مفهوم النفس والسلوك الإنسانى، فهو يأخذ الكائن البشرى كاملاً ولايفصل بين نفسه وجسمه أو بين عواطفه وعقله، أو بين ماديته وروحانيته، ويؤمن بأن الإنسان ثابت الجوهر متغير الصورة، وأنه لاسبيل إلى تفريغ كيانه من مضمونه أو النظر إليه على أنه الهيكل البشرى خالياً من الروح والوجدان.

ولذلك كله فالإسلام يعمل إلى إيجاد التوازن فى نفس الوقت بين قواه المختلفة ممّا يؤدى إلى التوازن فى المجتمع، فيحاول أن يحفظه دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية أو يصرع نفسه فيها بالإباحة. فالتوازن الدائم هو الذى يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسته تجربته دون أن يفقد المسئولية باعتزالها ودون أن يعجز، عن إحتمال الأمانة بالانحدار عنها.

والإسلام يعترف بالكائن البشرى كما هو، ويحقق له رغبات جسده وعقله وروحه، كما يعترف بالنشاط الحيوى للإنسان، وبحق الفرد فى مزاولة هذا النشاط فى حدوده الطبيعية - واعتراف الإسلام بالطبيعة البشرية وبحق ممارستها يحول دون كل مايسمى بكبت أو تمزق أو ضياع. وإنما يقع التمزق والضياع والكبت نتيجة الفصل بين القيم وإعلاء شأن إحداها، أما إعلاء الروحانيات بالزهادة المطلقة أو إعلاء الماديات بالإباحية المطلقة .. ومن حيث تكون النظرة إلى الحياة متكاملة جامعة فإن الإنحراف لايقع. ذلك أن النظرية المادية الخالصة هى وحدها التى تخلق التشاؤم والتشكك والقلق الذى يحس معه الإنسان أنه وحيد وغريب وشقى - هذا هو معنى التمزق والضياع، أما حيث يوجد التكامل الذى يقوم على الإيمان بالله فإنما تحل معه الثقة ويحل معه التفاؤل والرضا بقضاء الله، ذلك أن الإيمان قوة دافعة تعطى الأمل، وتحول دون اليأس، وتبعث الثقة وتدعو إلى المعاودة فى حالة الإخفاق.

إن أبرز معطيات الإيمان هو التفاؤل برحمة الله فليس في الفكر الإسلامى طابع الانهزام أو اليأس أو الضعف أو التشاؤم الذى نراه فى الفكر الغربى، ويتصل بهذا تحرر الفكر الإسلامى من طابع الوثنية فى عبادة الشهوة أو عبادة الأحبار أو عبادة الفرد أو عبادة ماسوى الله تعالى.

ويقوم الإسلام على فكرة التضحية والتقوى، بينما يقوم الفكر الغربى على فكرة الرفاهية وهى تتعارض مع البذل والفداء.

٢ـ ولاريب أن دراسة معطيات الفكر الإسلامى فى النفس تكشف بوضوح عن السبق الواضح للمسلمين فى مجال الدراسات النفسية، ويقدر فى هذا فضل الأشعرى والغزالى وغيرهما وقد كشفوا قبل الباحثين فى العصر الحديث عن حقيقة النفس والجنس، وقالوا إن النفس لها جوهر روحانى بما يرى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب، وأشاروا إلى أن الغريزة الجنسية ركبت فى الإنسان لفائدتين: اللذة وبقاء النسل، وقالوا إن لهذه الشهوة إفراطاً وتفريطاً واعتدالاً، أما الإفراط فهو مايقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الإستمتاع بالنساء والجوارى، فيبعدهم عن سلوك سبل الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى إقتحام الفواحش.

وإن التفريط فى هذه الشهوة هو الضعف، وهو مذموم، وتمتزج مفاهيم النفس الإسلامية بالأخلاق والدين، وترمى من ذلك إلى أن تكون سبيلاً إلى إصلاحها وإلى تهذيب الأخلاق والوصول بالمسلم إلى شاطىء النجاة إلى رضاء الله.

ويفسر الغزالى سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية: هى شهوة الطعام والجنس والمال والجاه، وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام، ويرى أن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك، وأن الخروج من الاعتدال إلى التفريط والإفراط هو مصدر الأمراض النفسية، والعلاج هو العودة إلى الاعتدال.

ومفهوم النفس فى الإسلام يقوم على أن الإسلام لم يحرم الرغبات الجنسية بل اعترف بها ولكنه نظم الممارسة فى إطار كريم ومتوازن مع حاجات الإنسان الأخرى بحيث تتحقق أشواق الروح ورغبات الحس فى وقت واحد، وبدون طغيان

أحدهما على الآخر، وليس على هذا الأسلوب الذى يدعو إلى الانطلاق الذى تدعو إليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية، هذا فضلاً عن أن وصف الرغبات الحسية بأنها من عوامل الكبت، وأنها من مصادر الخطر العقلى والجسمانى هو وصف مبالغ فيه، والإسلام يجعل ممارسة الرغبات الحسية بعد الاعتراف بها وتعليتها لمن لايستطيعها فى وقته الحاضر، يجعل لها إطارين وحاجزين وضابطين.

الأول: إطار النظام الإجتماعى وقوانينه الحافظة من أخطار الزنا والإباحة.

الثانى: إطار الضوابط التى تحمى الطبيعة البشرية من الانهيار والتحلل.

ومن هنا يمكن القول بأن مناخ المفاهيم النفسية الغربية إنما يستمد استجاباته من تحديات معينة هى خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية فى أوروبا، والتى استمدت مضامينها من جو الرهبانية وإنكار العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة، حيث بالغت المسيحية الغربية فى فرض القيود على النشاط الحيوى، وإنكار حق الفرد لافى مزاولته فقط بل أيضاً فى الإحساس بالرغبة فى هذا النشاط. فهى لاتكتفى بوضع القيود على المجال العملى بل تتعداه إلى مجال الشعور فى داخل النفس وعلى سبيل الإلزام، وهذا يعنى معارضة الطبيعة البشرية ومقاومة الرغبة الأصيلة فى النفس، وامتهان الجنس كوسيلة لاوسيلة غيرها للارتقاء بالروح، وقد صاحب هذا الاتجاه دعوة حارة إلى الرهبانية والأديرة وما اتصل بها من أصداء وأهواء بالإضافة إلى عدم إباحة الطلاق. كل هذا أدى إلى تحد خطير وإلى رد فعل كبير، لأنه يتعارض مع الطبيعة البشرية فكان «فرويد» هو صاحب مدرسة تبرير هذا المد الجنسى الإباحى المضاد للاتجاه الأصيل .

أما نحن فى عالم الإسلام فأمرنا يختلف، مفهومنا متكامل جامع والنفس المسلمة سوية مطمئنة لاتنحرف إلى الفاحشة ولا إلى الرهبانية، وتقول بالاعتدال والتوسط وتجمع بين رغائبُ الجسد وأشواق الروح ومطامع الدنيا ومقاصد الآخرة على سواء .

* * * *

* * *

*

(٧٥)

الطريق إلى الأصالة
وكيف نتحصن ضد الغزو الثقافي الوافد

كانت هذه القضية هي الشغل الشاغل للفيلسوف الجزائرى فى آخر حديث مع العلامة مالك بن نبى قبل وفاته .. قال: إن سنةَ الله فى خلقه أن المجتمعات المتحضرة تؤثر بعاداتها وأذواقها وأفكارها وأشيائها وحتى ملابسها فى المجتمعات الأقل حضارة، ولم تغب هذه السنة عن نظر ذلك العقاب الفكرى العربى الذى حلق فى زمانه فى سماء الأفكار، وترك لنا فى تراثنا الثقافى شهادة يجب ألا ننساها، ألا وهو ابن خلدون. فهو فى فصل من فصوله، بل فى عنوان أحد فصوله، ينص على هذه الظاهرة بطريقته الخاصة المعروفة (فصل فى أن المغلوب يقلد دوماً الغالب فى عاداته).

فالقرون الوسطى الزاهرة رأت مانراه اليوم حسب اتجاه الحضارة العربية الإسلامية الآن، بحيث كانت رؤى القرون الوسطى وكل مصادر ثقافتها وعلومها عربية، وكانت الكتابة العربية مسيطرة على الأوساط ألعلمية، إلى جانب اللاتينية، إلى درجة أن أحد كبار الأدباء الإيطاليين فى زمن مايسمى بالنهضة - وهو الشاعر بوكاشيو- أراد أن يقوم بثورة على اللغة العربية وعلى الكتابة العربية بالذات، فقال كلمات - وأنا آسف إذ كانت كلمات حقد لاكلمات عقل تبحث عن وسائل تحرر عقلى، كلمات متعصب ضد ثقافة إسلامية عربية كانت تغدق عليه وعلى مجتمعه بالأفكار التى لم يكن له أن يتصورها إلا عن طريق اللغة العربية. إذن القصة قديمة أولا، وإنما تتجدد فى عصرنا نحن فى زمن نعانى رواسب العهد الإستعمارى.

وبينما كان بوكاشيو لم يكن يرى أداة ظلم أو عدوان، أداة ميزة عنصرية، فإن من

حقنا اليوم أن نرى فى الثقافة الغربية على العموم أدوات هيمنة، أدوات سيطرة على العقول، لأن هذه الثقافات كلها تحمل تلك الروح التى حركت الموجة الإستعمارية فى القرن الماضى وفى منتصف هذا القرن بحيث يحق لنا أن نطرح المشكلة في صحافتنا ا وأنديتنا ومجتمعاتنا المثقفة، وحتى مجتمعاتنا السياسية.

أمّا السؤال فهو كيف نتحصن ضد هذا الغزو الثقافى المسلط علينا من حضارة تمخضت فى أحشائها الظاهرة الإستعمارية؟.

يجب علينا أولاً أن ننهى مرحلة التسكع الثقافى أو الفكرى لأننا فعلاً نعيش وننغمس منذ بداية العهد الاستعمارى وبداية اتصالنا بالحضارة الغربية فى النطاق الاستعمارى - نعيش فى شبه تسكع فكرى يجعلنا معرضين لالتقاط الحابل والنابل من هذه الحضارة. حيث إن الشباب المثقف المحتك بالثقافة الغربية لم يكشف غالبا عن جذورهذه الثقافة وإنما اقتنع بقشورها فى أكثر الأوقات. إما لأنه ذهب لعاقلها للحصول علي الشهادات والعلم فلم تتح له الفرصة للاطلاع على جذور الثقافة الغربية. وإما لأنه ذهب لمجرد التسلية.

وهذان النوعان من شبابنا المثقف لايعودان لبلادهما بحصيلة ثقافية يمكن أن تفيد لنهضة ثقافية، وإنما يعودان:الأول بالشهادات التى تمكنه من الحصول على مركز مرموق، والثانى بحصيلة من التفسخ الأخلاقى يجعله غير صالح لبلاده. المرض الذى نعانيه هو التسكع الفكرى. يجب علينا أن نجتهد للتخلص من هذا النوع من التسكع، ولايمكن التخلص إلا بتحديد رسالة تكون محور الحياة - على العموم فى المجتمع العربى والإسلامى - وعلى الخصوص فى حياة كل فرد يستطيع أن يخلصنا من التسكع لأنه يبعث فينا روح الجدية والاجتهاد والأصالة والابتكار والإبداع.

لعل من الممكن أن تتحدد في المجتمع الإسلامي رسالته بحيث يكون كل فرد فيه يتحرك في نطاق شروط معينة تجعله في كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته يخضع سلوكه كله لقانون الرسالة.

ومن الممكن تحديد هذه الرسالة من ناحية أن الإنسان العربى المسلم يعانى من بين ما يعانى من أمراض اجتماعية متنوعة: (ظاهرة التخلف) ،

الوسيلة الوحيدة للتخلص من قيود التخلف هى أن نصنع فى نطاق حياتنا العربية الإسلامية أسس حضارة جديدة وهنا نلمس ماسميته (الضرورة) والضرورة تعنى بذل كل مانستطيع من مجهود فى سبيل تحقيق شروط الحضارة الجديدة، ثم إذا لاحظنا أن لكل حضارة: (وظيفة إجتماعية)من ناحية ، وإشعاعاً ثقافياً من ناحية أخرى، أمكننا أن نتصور من خلال إشعاع حضارتنا المتجددة بفضل اجتهادنا أننا نستطيع تخليص المجتمع الغربى نفسه ممّا يعانى من محن نفسية تؤدى به إلى أنواع من الفرار من الحياة، إمّا بالغوص فى حياة الهيبى، وإمّا بالانغماس فى متاهات الوجودية وإما بالتخلص من الحياة عن طريق المخدرات، أو أحياناً عن طريق الإنتحار، وليس غريباً أن بلداً كالسويد فى مقدمة الشعوب المتحضرة تحتل فى الإحصائيات السنوية مكانة الصدارة فى إحصائية الانتحار. إننا عندما نتحدث عن رسالة إنقاذ يجب أن نعتبر أننا سننقذ أولا أنفسنا من التخلف أو مانسميه النقصان الحضارى ولانستغرب إذا قلنا ربما سننقذ أيضاً الإنسان المتحضر نفسه من إفراط حضارى أو طغيان حضارى.

فمسئولية العربى المسلم: هى مسئولية كبرى بالنسبة إليه فى إنقاذ نفسه من الفناء أو بالنسبة إلى إنقاذ أخوانه الآدميين المعرضين لطغيان حضارتهم إلى نوع من الفناء والزوال.

يجب أن ننهى ماأسميه (بالتسكع الفكرى) لأننا مادمنا نعيش فى هذه الشحاذة الفكرية لايمكن أن نعود لجذور ثقافتنا، كما لايمكن أن نصل إلى جذور ثقافة الاخرين، فنبقى من الناحيتين منغمسين فى الشكليات بحيث إذا تمسكنا بديننا نكون دون المثل العليا التى ينصبها الإسلام أمام الضمير الإنسانى .. وإذا انحزنا إلى الجانب الآخر نجد أنفسنا دون المثل العليا التى تقرها الثقافات الأخرى ..

فالأصالة تقتضى منّا الشعور بمسئوليتنا فى مجال الفكر بحيث لانطاطئ الرأس لفكرة لمجرد مصدرها وقد لفت القرآن النظر لقيمة الفكرة فى ذاتها دون صلتها بالأشخاص أو بعالم الأشياء فى قوله عز وجل: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِن مَاتَ أَو قُتِلَ إِنقَلَبْتُم عَلَى أَعقَابِكُم ﴾صدق اللّهُ العظيم ، هذا التخلص من الشخصية وأى شخصية، إنها شخصية رسول اللّه ﷺ الذى قال فيه سبحانه وتعالى: ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمْ ﴾

ومع هذا أراد سبحانه أن تخلص الدعوة الإسلامية من شخصية محمد ﷺ لكنّه فى الوقت ذاته أراد لهذه الدعوة الإسلامية منطلقها التام.

﴿ ٢ ﴾

* سعد زغلول:

قال عن العرب إن صفر + صفر = صفر ...

ولم يخجل !!

* لطفى السيد:

أغلق الباب فى وجه كل مايسمى عروبة أو إسلاماً !!

* طه حسين:

رائد من رواد الفكر الوافد .. لقن الشباب الأدب بمفهوم الغرب !!.

إن أحرص مايحرص النفوذ الأجنبى عليه هو ذلك (الواقع) الذى شكلته الظروف المتغايرة فى البلاد العربية والعالم الإسلامى، والذى كان ثمرة للغزو الفكرى والتأثيرات التى فرضها الاستعمار على البلاد، فلما تحررت من النفوذ السياسى أو العسكرى له، ودخلت فى مرحلة الاستقلال والحرية بقيت هذه الرواسب وبقى هو حريصاً على استمرارها.

هذه الرواسب موجودة الآن فى مناهج التعليم وفى القانون الوضعى، وفى مفاهيم الوطنية والإقليمية التى ماتزال عاجزة عن الإستجابة للتحولات الجديدة والأوضاع المتغيرة التى تحول إلينا العالم الإسلامى فى العقود الأخيرة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية وبعد هزائم ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ وبعد انتصار رمضان.

إنّ كثيراً من النظريات التى طرحت فى هذه الفترة وتحدث عنها مفكرون، وألفت فيها كتب، وأقيمَت لها محافل وكُتِبت عنها الصحف قد تبين فسادها أو انحرافها أو زيفها أو عدم صلاحيتها لمجتمعاتنا أو فقادنها روح الأصالة أو بعدها عن ذاتيتنا أو عجزها عن الاستجابة لمشاعر النفس العربية الإسلامية.

ومع ذلك فإن تراكمات هذه النظريات والكتابات ماتزال تعد فى نظر دعاة التغريب، وحملة ألوية الغزو الفكرى، وبقايا التشكيلات الشعوبية والإلحادية والشيوعية واقعاً قائماً يشيرون إليه، ويستندون إليه، ويعيدون التذكير به بين آن وآن، لأنهم يجدون فيه سدوداً وحواجز وعوائق تحول دون هذه الأمة والطريق الجديد الذى تريد أن تمضى فيه بوصفه طريق الأصالة وبحسبان أن كل الطرق القديمة قد

كانت عاجزة تماماً عن تحقيق الأمن والسلامة والنصر وامتلاك الإرادة.

ومن الحق أن يقال إن تراكمات كثيرة طرحها الفكر الوافد فى مجرى نهر فكرنا الإسلامى الأصيل وابرزها المصطلحات : القومية والليبرالية والماركسية والعلمانية والإشتراكية والثورة والديمقراطية والشيوعية والرأسمالية، وهى مصطلحات تتعلق بالسياسة وبالاقتصاد وبالاجتماع، وهى مستقاة من مذاهب وأيدلوجيات ونظم غربية تختلف اختلافاً كبيراً عن أصول ومفاهيم الفكر السياسى والاقتصادى والإجتماعى الإسلامى، وإن كانت تلتقى معه أو تختلف عنه بصورة أو بأخرى.

ولقد كان علينا بعد أن مررنا بتجربة الأصالة وامتلاك الإرادة فى حرب رمضان وتبين لنا أن هذا هو الطريق الوحيد للنصر ولتأكيد وجودنا وذاتيتنا الإسلامية العربية الخالصة، أن نطرح هذه المصطلحات جميعاً وأن نلتمس من فكرنا الإجتماعى والشورى والإخاء الإنسانى والرحمة.

ولقد كان من أخطر التحديات التى واجهت مجتمعنا بعد الاحتلال تلك التبعية للفكر الغربى فى مفاهيمه ونظمه السياسية والاجتماعية التى أوقفت التشريع الإسلامى، وألغت نظام التربية الإسلامية وحجبت النظام الاقتصادى المسلم وفتحت الطريق أمام الربا والقانون الوضعى ومناهج التعليم الغربية المنقولة من معاهد الإرساليات والتبشير، والقائمة على تمجيد الغرب ودينه ولغتُه وتاريخه، وعلى احتقار الشرق ودينه ولغته وتاريخه، والتى كانت منطلقاً للدعوة إلى التخلى عن الدين والأخلاق والقيم بحثاً وراء منهج إقليمى يقيم الحوائط العالية بينه وبين الإمتدادات العربية من ناحية والعالم الإسلامى بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع من ناحية ثانية .

وكان من أكبر دعاة هذا الاتجاه لطفى السيد وسعد زغلول وطه حسين وسلامة موسى وغيرهم، ولقد كانت الصورة التى تشكلت على الوجه التالى:

أولا: فهم الأدب بمفهوم الغرب استمداداً من نظريات (تين وبرونتير وسانت بيف)التى أدخلها طه حسين كلية الآداب، والتى تنظر إلى الإنسان على أنه مادة خالصة لاروح فيها أو على أنّه حيوان تطبق عليه تجربة الحيوان وغرائزه وتخليه تماماً من عناصر النفس أو المعنويات أو الروح، كذلك فإن هذه النظريات تحاكمه فى إطار البيئة والعصر وحدهما دون أن تربطه بالعقيدة الممتدة على الزمن، والتى كان لها وسيظل أثرها البعيد فى تشكيل الإنسان وفى تصرفه وحركته وتفسير أهوائه وغاياته.

كذلك اعتمدت أحكام الأدب والنقد على مفاهيم دارون وماركس وفريزر وهى فى مجموعها مفاهيم ترد النتاج الأدبى الى التفسير المادى للإنسان وهى فى مجموعها تحاول أن ترد الإنسان إلى حيوانيته سواء في الجنس أو فى لقمة العيش أو فى التطور المطلق أو في الجبرية ·فتحول بينه وبين امتلاك الإرادة التى هى مصدر حركته ومصدر مسئوليته وجزائه عند اللّه .. هذا الاتجاه الأدبى إنما يستهدف طعن الفطرة الإنسانية وتدمير العقيدة والأخلاق وخاصة عندما علت صيحة الدكتور طه بفصل الأدب عن الفكرالإسلامي ليكون حراً في الإنطلاق نحو الأدب الكشوف والشعر الماجن والقصة الداعرة على النحو الذى أقام عليه مذهبه وأدبه وفتح به الطريق إلى الأجيال التى جاءت بعده وكان ذلك من أخطر الركائز التى أعانت دعاة الشيوعية فى البلاد العربية ودعاة الفكر الصهيونى التلمودى، فإن هذا الإنحدار الأدبى قد كانت له أخطر النتائج فى كل الهزائم التى وقعت بالعرب والمسلمين وبما تمكنت به الصهيونية من السيطرة على الأرض وعلى الفكر.

ثانياً: كان أكبر أهداف الأدب العربى ﴿ الحديث ﴾ الذى قام به كتاب مابعد الحرب العالمية الأولى جميعاً وبلا استثناء هو ﴿ الانقطاع عن الأدب العربى ﴾ الذى يمتد منذ ظهور الإسلام، ولذلك فإن كاتباً واحداً من هؤلاء لم يصل نفسه بهذا الأدب ﴿ ماعدا المرحوم مصطفى صادق الرافعى وكانوا يعدونه رجعياً ﴾ ، وكل ماعرضه هؤلاء الكتاب من الأدب العربى القديم إنما كان محاولة لتصوير هذا الأدب بصورتين:

١ـ صورة الشعر المكشوف ممثلاً فى أبى نواس وبشار ومجموعة الزنادقة الذين شغل بهم الدكتور طه حسين، أو الشعر الجاهلى الوثنى.

٢ـ أدب السجع والمحسنات اللفظية الذى لم يكن من الأدب العربى الأصيل والذى جاء به الفرس والوثنيات القديمة.

وكانت النظرية الرائجة إبعاد (الغزالى وابن تيمية وابن القيم وابن حزم) وكل هؤلاء الأساطين وغيرهم عن مجال الأدب ووصفهم بأنهم فقهاء وذلك حتى يتحرك الشباب المسلم المتعلم فى دائرة مغلقة كريهة.

ولقد ظل عمل هؤلاء الأدباء مقطوع الصلة بالأدب العربي في امتداده يركز على المناهج الفرنسية (طه حسين وهيكل وزكي مبارك والزيات) أو المناهج الإنجليزية (المازني وشكري والعقاد) وقصاري ما وصل إليه هو البارودي في الشعر ومحمدعبده في النثر ، أما ما سبق ذلك فإن هناك مفازة واسعة وقف عندها هؤلاء الرواد ولم يتجاوزها إلا بين حين وحين كتبوا عن المتنبي أو المعري أو ابن الرومي.

أما من حيث قيام دراسة متصلة شاملة تربط حلقات الأدب كلها فلم يكن هناك غير الأسلوب المدرسى الذى يقسم الأدب العربى إلى عصور: الأموى والعباسى

وماسموه عصر الانحطاط (وهو أحفل العصور بالموسوعات والإنتاج) وعصر الحملة الفرنسية الذى أطلقوا عليه عصر النهضة اعتماداً على أن النهضة جاءت مع الإستعمار الفرنسى ومؤسسات التبشير، وقد ادعوا أن نابليون هو الذى أيقظ المسلمين، بينما الواقع أنهم استيقظوا قبل نابليون بأكثر من خمسين عاماً.

ثالثاً: كانت هذه التجزئة فى الأدب مساوية تماماً للتجزئة السياسية فإن الحركة الوطنية والأحزاب السياسية التى تولت الحكم بعد الحرب العالمية الأولى كانت تؤمن بالإقليمية، وتركز على الوطنية الضيقة، وتقف عند حدود مصر، وقد رفع هذا اللواء سعد زغلول ولطفى السيد، وبذلك أغلاقت الأبواب دون الفهم الصحيح للروابط الإجتماعية والسياسية والفكرية بين مصر والبلاد العربية من ناحية وبين العرب والمسلمين (الأتراك والفرس والهنود) وغيرهم. وقال سعد زغلول عن العرب «إن صفر + صفر= صفر» ودعا لطفي السيد إلى إغلاق الأبواب في وجه كل ما يسمى عروبة أو إسلاماً، وخلقت الحزبية السياسية روح «الهجاء» العنيف التي انتقلت إلى الأدب وتمثلت في أكبر وثيقة يعدها الباحثون رمزاً للنهضة، وهى الديوان، حيث حمل فيه العقاد والمازني وعبدالرحمن شكري وعلى شوقي والرافعي حملات غاية في العنف والهجاء.

وبذلك شاعت في الأدب العربي الحديث روح المجون وروح الهجاء، وعجزت الأحزاب السياسية عن فهم الأخلاق والاجتماع والتحديات التي يقوم عليها النفوذ الأجنبي، وقصرت نظرتهم حول الصراع السياسي، ونظروا باحتقار إلى دعوات الأخلاق والعقائد، وبذلك حصروا في دائرة مغلقة لا تستطيع أن تقدم للمجتمعات أسلوبا أصيلا للعلاج والمقاومة.

كذلك كان أكبر الأعمال التي قام بها الغزو الفكري إحلال القوميات محل الوحدة

الإسلامية، وبه أسقطت الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية من أجل إقامة الدولة اليهودية، وقد كانت دعوة القوميات مؤمرات كبرى، يجب أن تدرس بتوسع، ولم تكن الكتب التي أحدثت ضجة إلا كتباً معارضة للأصالة العربية الإسلامية، وإن عدها التغريبيون والشيوعيون ركائز فهى ركائز للغزو الفكري والهزيمة والخروج عن الذات وتحطيم الأصالة وفي مقدمتها: الأدب الجاهلي لطه حسين والأسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، واليوم والغد لسلامة موسى، وما كتبه محمود عزمي وإسماعيل مظهر وغيرهم.

وتبين أن كتابنا الذين كانوا يخاصمون الاستعمار الغربي كانوا تلاميذ للأدب الغربي، وللفكر الغربي وكانوا خداما لمفاهيمه.

ويتساءل الكتاب الآن عن «أزمة الفكر العربي» ويردونها إلى عجز الأدب العربي (إبان النكبة والنكسة وخلال مرحلة ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧) عن العطاء ، وقد أجاب كثيرون إجابات جانبية وعجزوا عن أن يفهموا أعماق الأزمة: إن الأزمة الآن أكبر من الأدب نفسه، إن القضية قد انتقلت إلى مجال الفكر وهو الفكر الإسلامي العربي، بعد أن فشل الأدباء في الاستجابة الحقيقية للأمة، وكان أغلب ما قدموه لايمثل حقيقة هذه الأمة ولا جوهر فكرها ولا مضمون روحها، وإنما كان مترجمات ضالة من الفكر التبشيري الوثني والمادي والماركسي والإباحي، وحجب في هذه الفترة كل كتاب الأصالة حتى ماتوا كمدا (وقد مات علي أحمد باكثير، وعبد الحليم عبد اللّٰه) بعد أن حجبت آثارهم ومنع إنتاجهم، وكثيرون غيرهم اعتقدوا وآمنوا أن راية الإسلام هى المظلة الحقيقية.

إن الأدباء كانوا تابعين لمدارس وأبدلوجيات ومفاهيم موزعة بين الوجودية والماركسية والمادية وكانوا يحاولون أن يتخذوا من القصة وسيلة إلى هدم المقومات،

ويتخذون من النظم وسيلة إلى هدم عامود الشعر، ويتخذون من النظم وسيلة إلى هدم الفصحى وتغليب العامية بما تحمله من مفاهيم فاسدة، وكان هذا النتاج كله يدور حول الأحقاد التي يحملها الشيوعيون والشعوبيون للإسلام والعرب ولغتهم ودينهم وفكرهم وتاريخهم، وكانوا يدورون في دائرة ضيقة هى الهدم والصراع الطبقي. وكيف يمكن أن يكون هذا أدبا أصيلا. لقد فشل الأدب نتيجة أنه تخلى عن رسالته وعن أصالته وعن موقعه الصحيح بالنسبة للفكر الإسلامي العربي وقد احتوته مفاهيم الشيوعية والوجودية والمادية والإلحاد. ولذلك فقد كان لابد أن يسقط وأن يقدم الفكر الإسلامي العربي نفسه ليحمل الأمانة.

وأمام هذا الركام.. فهل يمكن أن يقال في صراحة ووضوح: إن نجيب محفوظ ولويس عوض وعبد الرحمن الشرقاوي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ويوسف إدريس ونعمان عاشور وغيرهم وغيرهم ممن يتصدرون الساحة الأدبية منذ عام ١٩٦٠، هل يمكن أن يقال أن هؤلاء يمثلون الأدب العربي، ويتميزون بأنهم حلقة بين أجيال سبقتهم، وأجيال ستأتي من بعد، وبقليل من الدراسة نجد أن هؤلاء جميعاً ضيعوا الانتماء إلى مصر العربية الإسلامية، وأنهم ثمرة من ثمار التغريب والغزو الثقافي وأن موقفهم من اللغة العربية والتاريخ الإسلامي غامض، وأنهم ليسوا من النبت الأصيل، فقد نشأوا في أكناف ثقافات اجنبية احتوتهم ومذاهب أدبية لها مفاهيمها المشهورة من الوجودية أو الماركسية أو الليبرالية، أو متصلة بالمذاهب المادية، مندفعة وراء مذهب الإباحة الذي عرفه بشار وأبو نواس ولورانس وبودلير، وليس أدل على ذلك الفشل من زن كتاب القصة التي سقطت قصتهم قد أصبحوا كتاب يوميات.

ولقد صدق الأستاذ فتحي رضوان حين قال: إن كتابنا الرواد ما كانوا إلا قناطر ومترجمين للفكر الغربي وإنهم لم يكونوا من القدرة بحيث يصبحون مفكرين

أو أصحاب مذاهب وإن أغلبهم – ولا نقول كلهم – قد استخدموا في سبيل التغريب والغزو الثقافي، وقلة منهم عجزوا عن الخروج عن نطاق المفاهيم الغربية التي عرفوها قبل أن يعرفوا الفكر الإسلامي، فلم يصلوا إلى درجة الأصالة الإسلامية.

لقد حاولت حركة اليقظة الإسلامة منذ ظهور فجرها أن تعمل على تحرير الحركة الوطنية من الإقليمية والأدب من التبعية، وأن تفتح الطريق لهذه الأمة إلى الأصالة في منابعها الثلاثة نابغة الثلاثة.

١- أسلوب تربية إسلامي بديلا للمناهج التعليمية الوافدة.

٢- الشريعة الإسلامية بديلا للقانون الوضعي.

٣- بناء المجتمع الإسلامي على أساس الأخلاق والعقيدة..

ولقد كانت كل محاولات الغزو الثقافي تستهدف ضرب هذا التيار وحربه والقضاء عليه.. واليوم وقد تكشف فساد هذا التيار جملة، بجزئه الاستعماري الغربي القديم وجزئه الماركسي المادي الأخير فإن طريق مصر والعرب والإسلام هو: طريق الأصالة الذي يجب أن يمتد ليشمل الساحة كلها ويستوحى كلمة الله لتكون هى العليا.

* * *

* *

*

(٧٦)
الأصالة الإسلامية
بين المعاصرة والتبعية

لقد قطعت الأصالة الأسلامية مرحلة واسعة في سبيل تأكيد وجودها بعد أن استطاعت حركة اليقظة الإسلامية في السنوات الخمسين الأخيرة أن تكشف كثيرا من الزيوف التي طرحتها محاولات الغزو الثقافي والتغريب عن طريق أجهزتها المسيطرة: كالاستشراق والتبشير في مجال التعليم، والصحافة والثقافة مستمدة قوتها من مصادرها الأصيلة، التي حمل لواءها الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم.

فقد كانت دعوة التوحيد بقيادة الإمام محمد ابن عبد الوهاب استجابة صحيحة لها في العصر الحديث، ومنطلقا لكل الدعوات التي عملت على تحرير المسلمين: فكرا ومجتمعا من طغيان النفوذ الأجنبي. ولقد كان من أكبر الجهود المبذولة تلك التي كشفت عن فساد الفكر الوافد المطروح كبديل للفكر الأسلامي، وظهور عدد من دعاة التغريب في أفق الفكر الإسلامي، استطاعوا بنفوذ الاستعمار اقتعاد أماكن الصدارة في مجالات الثقافة والتعليم والصحافة. هؤلاء الذين حاولوا أن يطرحوا على الأمة الإسلامية منهجا مضللا يستهدف حجب الارتباط الأصيل بالإسلام وعقائده وفكره وأدبه ومنهجه، واتخاذ أسلوب آخر يقوم على أساس التماس حضارة الغرب وفكره ومناهجه والإيمان بها والانصهار فيها والقبول بها: خيرها وشرها ،حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب، وتلك هي قمة الاندفاع التغريبي كما حمل لواءه الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة» والذي كان في نظر المراقبين أخطر من صيحته التي سبقت ذلك عن إنكار وجود إبراهيم

وإسماعيل عليهما السلام، ومعارضة مفاهيم القرآن والإسلام والنبوة. وكان طه حسين وهو أخطر العاملين في مؤسسة التغريب ورافع لواء هذا الفكر المسموم فى وجة الإسلام مؤيداً بقوى ضخمة كانت تدفع به إلى السيطرة على الجامعات ووزارة المعارف، وقد جعلت من كتابه مستقبل الثقافة برنامجاً للتطبيق في مجال التعليم والتربية، بعد أن دخلت البلاد العربية في مجال الاستقلال، وعلى أبواب الحرب العالمية الثانية التي كانت القوى الاستعمارية تتهيأ بعدها لتدمير مقومات الفكر الإسلامي عن طريق الصحافة والثقافة والتعليم، وكان طه حسين قد أختير مع الأسف قائداً لهذه الفكرة عن طريق توليه شئون التربية، ثم اللجنة الثقافية للجامعة العربية، ثم مجمع اللغة العربية، فضلا عن مكانته في الصحافة، وإنشاء مجلة الكاتب المصري بأموال يهودية المصدر. ولما كان هذا كله غير واضح من قبل وقد كان المثقفون المسلمون والعرب لا يعرفون الحقائق واضحة، أما اليوم قد أصبح واضحاً بعد أن قدم أحد كتاب الإسلام الوثائق التي تكشف هذا المخطط الخطير، ولذلك فلا عجب أن اندفعت حركة الاستشراق لدفع بعض رجالها إلى الطواف في بعض البلاد العربية للدفاع عن طه حسين ومحاولة إعادة الثقة به مرة أخرى وهيهات، فقد انكسر قيد التبعية ودخل الفكر الإسلامي مرحلة الرشد إلتماساً لمنابعه الأولى ومصادره القرآنية الأصيلة.

وتحمل هذه الحركة محاولة استعادة الأرض التي فقدها طه حسين بالقول بأنه كان في أول أمره مندفعاً، ولكنه عاد فتريث، وإن غيرته على وطنه وحبه للتنقدم هو الذي كان دافعه، كما تحاول أن تدعى هذه المحاولة القول بأنه حمل لواء الدفاع عن الإسلام في مراحل حياته الأخيرة.

وهذة إحدى أكاذيبهم الكبرى التي يكشف زيفها أن طه حسين عاد في السنوات الأخيرة فجمع سمومه القديمة كلها التي كانت قد نشرتها الصحف وطواها الزمن

فجمعها في كتب نشرت في بيروت واستعاد فيها مواقفه من الحملة على مادة الإسلام التي جاء بها الدستور، وما أثاره من سموم حول الخلاف بين الدين والعلم، وهى كلمات أثارها في الفترة الأولى من حياته وقوبلت بأعنف الرد والتفنيد، وكل الدلائل التي بين إيدينا تؤكد كذب الدفاع الذي يقول بأن طه حسين كان في أول حياته معارضاً للإسلام ولكنه عاد في أخر حياته إليه.

ولذلك فنحن نترك أثاره الأولى هذه التي يحاولون التنصل منها ونتحدث عن آثاره الأخيرة. نتحدث مثلا عن «مستقبل الثقافة» الذي يقول جاك بيرك عنه في محاضرته الأخيرة إنه يمثل برنامج طه حسين في الثقافة والتربية وأنه لم يتحقق حتى الآن، ولن يتحقق قبل جيل.

ونؤكد لجاك بيرك أن ذلك وهم كبير وإن هذا البرنامج لن يتحقق أبداً، فقد قدمه طه حسين في غفله من حركة اليقظة الإسلامية التي لم تكن تملك إرادتها بعد، وإن كانت قد اكتشفت أخطار عمل التغريب في مجال الثقافة والتعليم ومناهج الجامعات والمدارس، وإن هذا المنهج هو الذي طبقه طه حسين ونفذه خلال مدة عمله مستشاراً لوزارة المعارف، ووزيراً للتعليم، ومشرفاً على اللجنة الثقافية في الجامعة العربية، وحاول أن يعممه في مختلف جامعات ومدارس البلاد العربية بالدعوة إلى مفهوم كنسي للإسلام، يرمي إلى تصويره على أنه دين عبادة، ودعوته في فهم الألوهيه على مقتضى مذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد التي تأثرت بها المسيحية، وإنكاره أن الإسلام دين ودولة أو منهج حياة ونظام مجتمع. ولقد كشفت الدراسات والمؤتمرات الإسلامية التي عقدت في السنوات الأخيرة زيف هذه الدعاوي وهذا المنهج، بل وحطمته وأبانت عن فساده وعجزه عن إعطاء النفس الإسلامية أشواقها ومطامحها، بل وكشفت عن أن السبب في النكبة والنكسة والهزيمة التي منيت بها البلاد العربية وفلسطين كان مصدرها هذا المنهج المسموم

الذي فرضه النفوذ الأجنبي ردافع عنه طه حسين ورجاله.

نقول لجاك بيرك: إن هذا المنهج الذي هاجم فيه طه حسين الأزهر والإسلام لن يتحقق أبدا وإنه مضى إلى غير رجعة.

ويحاول جاك بيرك أن يدافع عن طه حسين فيقول إنه له جوانب إيجابية وجوانب سلبية في محاولة لاستنقاذه، ونحن نقول له إن طه حسين بكل أعماله إنما كان يتحرك في إطار رسمته له مدرسة العلوم الشرقية والكواليج دي فرانس - ويسأل عنهما الدكتور محمد المبارك - الذي دخلهما بروح المؤمن اليقظ ليعرف أي المناهج تدرس لمن يختارهم النفوذ الغربى لنشر مفاهيمه في بلاد المسلمين، ويقول جاك بيرك في الجانب السلبي لطة حسين مثل ما نقول وأكثر مما نقول، يقول إن لطه حسين في هذا الجانب:

«الإسفاف، والإبهام، والتناقض، والإزدواج والتكرار الممل والتكديس للمترادفات».

ونقول لجراك بيرك إننا نعرف إسلوب الغرب وفلسفته التي يحاول أن يخفي بها عنا شخصية العاملين معه، واستنقاذهم في مجالات الخطر: فطه حسين يطبق هذا تماما حين يكتب مادحا للأدب العربي وذاما له، ومادحا للإسلام وذاما له، ومادحا لهذا الشئ ومنكراً له، وذلك في محاولة للتمويه والإيهام بأنه يسطيع الدفاع عن نفسه وقت الحرج، ولكن المحاولة كلها ترمى إلى التشكيك وإثارة الشبهات وخلق روح القلق، فهو لا يقول أبدا كلمة إيجابية، وإنما يثير الشكوك والشبهات دوما ويترك قارئه قلقا ضيق الصدر حرجًا كأنما يصعد في السماء. وهذه الخلة موجودة عند كل الزنادقة وفلاسفة الإلحاد والتشكك، نجدها عند أبي العلاء وابن العربي والحلاج وأبي نواس وغيرهم، ويراد بها الدفاع في ساعة الحرج، ولكن الخط

الأكبر والأوسع هو في مجال خدمة الغرض الكبير: التغريب.

ويدعى جاك بيرك في محاضرته التي ألقاها في إحدى البلاد العربية: أن طه حسين مصلح وعقلاني، وأنه يحمل دعوة التقدم لأمته. ونقول له: إنه يكذب ويموه، ذلك أن طه حسين حين نشأ كانت هناك حركة اليقظة تشق طريقها قريبة العهد بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأحمد زكي باشا شيخ العروبة وقد مضي هو على الطريق ثمة، ولكنه بعد أن عاد من أوربا أعلن الحرب على مدرسة اليقظة وحركة الإصلاح ومنهج السلف، وقال إنه يعارض هؤلاء تماماً ويشق طريقاً آخر. هو الطريق الذي سلكه من قبل جورجي زيدان ويعقوب صروف ودعاة مذهب دارون ورجال الماسونية وجملة ألوية الخصومة للجامعة الإسلامية والملاحدة جميعاً.

ويسمى «جاك بيرك» هذا الاتجاه بالعقلانية العربية، ونحن نكشف لجاك بيرك فساد هذا الاتجاه فإن الإسلام الجامع المتكامل الذي قدم منهج المعرفة ذا الجناحين: العقل والقلب والجسم والنفس والدين والعلم والمادة والروح والدنيا والآخرة ولا يقر مفهوم العقلانية الذي يدعو إلى تقديس العقل، أو تأليه العلم، أو المفهوم المادي القائم على انشطار إنسانية الإنسان، وأعتباره حيوانا، وهو المنهج الذي حمل لواءه طه حسين في دراسته للأدب العربي، والتفسير المادي للتاريخ الذي اتخذه طه حسين، منهجا في كتابة التاريخ الإسلامي، والفتنة الكبرى، حيث صور الصحابة والخلفاء على أنهم سياسون محترفون يتقاتلون على الملك ويتصارعون على الحكم وحاشاهم ما وصفهم به طه حسين من إفتراءات.

ويحاول جاك بيرك أن ينقذ طه حسين من قبضة حركة اليقظة بعد أن كشفت زيفه، وكان لمجلة رابطة العالم الإسلامي دورها الواضح الكبير في هذا المجال فيقول: إن طه حسين قام بمناسك الحج والواقع أنه قام بعمره فقط أبان انعقاد

اللجنة الثقافية في جدة ويقول إنه وقف أمام الكعبة وبكى ونقول له: إن كان قد بكى فقد بكى على خطيئته وفساد رأيه الذي كان قد أعلنه من قبل عندما ادعى عدم وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، نقول: إن كان قد ندم حقا فأين دليله من بعد في كتاباته، وإن كان قد تراجع عن سمومه وآرائه فأين ما كتبه يسترد به إيمانه إن كان صادقا، إن كتابه مرآة الإسلام والشيخان اللذين يعدان آخر ما كتب مليئان بالسموم وهما متابعة لحملته الأولى تحت لواء غطاء كاذب ودعوى باطلة يراد بها استرداد مكانته وهيهات.

لقد تكشفت للدكتور طه وهو حي أسباب مادية في الحفريات الأثرية تدل على وجود إبراهيم وإسماعيل، فهل رجع عن رأيه الأول وآب وأناب، إن طه حسين لم يمت حتى كشف الله تبارك وتعالى كذبه بأدلة مادية يؤمن بها الذين ينكرون رسالات السماء فهل آمن؟

لقد تبين بوضوح بعد أن تكشفت وثائق كثيرة أن تلك الصيحة الباكرة عام ١٩٢٦ ميلادية أي منذ خمسين عام في هذا الادعاء بإنكار إبراهيم وإسماعيل كان خطوة على طريق الصهيونية في دعواها الباطلة، وإن الحديث عن الشعر الجاهلي كان «حاجزاً» يراد به الخديعة لتبليغ مثل هذه الدعوات ولقد كشفت مذكرات السيدة سوزان التي نشرت أخيراً «الوجه الآخر» للدكتور طه حسين الذي كان يتلقى التوجيه الدائم من هيئة الاستشراق، وعلى رأسها لويس ماسنيون كما أشارت تلك المذكرات. وكذلك أشارت إلى أن جاك بيرك هو الرجل الذي أختير لحمل لواء الدفاع عن طه حسين اليوم.

ويقول جاك بيرك إن طه حسين اشترك في مؤتمر فلورنسا وإيطاليا ودافع عن الإسلام، ونحن نعرف أن هذين المؤتمرين كانا في إطار المصيدة التي نصبت

أخيرا تحت اسم «الحوار» لخداع المسلمين وكان طه حسين أول من جند لها من كُتاب العرب وجاء بعده كثيرون ، وكلمات (طه حسين) في هذين المؤتمرين بعد الدراسة الدقيقة لا تخرج عن أن تكون تمسيحاً للإسلام وحديثاً عما أسماه بيرك «في قوله إن الله هو ضمير الإنسان» وهو تعبير مسيحي كنسي. لم يرد في أصل ولا سنة ولا يعترف به المسلمون.

أما الحديث عن هامش السيرة فقد تبين بما لايدع مجالا للشك أن طه حسين تأثر فية بكتاب شبيه له عن «الكتاب المقدس» وأن طه حسين أفسح لنفسه بإدخال المزيد من الأسرائليات وتجديد الاساطير والإشارة إلى أمجاد وهمية للمسيحية واليهودية والوثنية إبان ظهور الإسلام، والذي يدهش له الباحثون هو لماذا يحتمل المستشرقون مشقة الجولان في البلاد العربية للدفاع عن طه حسين. إن طريق اليقظة الإسلامي قد أصبح واضحا مستقيما ولم يعد في الإمكان رده القهقري إلى عصر التبعيه والاحتواء.

ويكذب طه حسين وتلميذه جاك بيرك حين يدعي بأن الفكر الإسلامي هو صنيعة الفكر الهليني وأن الأدب العربي يدين لتراب البحر الأبيض المتوسط، فتلك دعاوي باطلة ثبت زيفها وتبين أن الفكر الإسلامي لن يقبل الفكر الذي ترجم إليه من اليونان أو الفرس أو الهند، وإنما استعلى عليه وكشف فساده وأب إلى إقرار مذهب أهل السنة والجماعة، ودحض كل الوثنيات والماديات، والفكر الفلسفي، وأبان عن استقلاليته وعن إصالة وروح التوحيد الخالص فيه على أيدي أبرز مفكريه وفي مقدمتهم الإمام الشافعي والإمام ابن تيمية. وكل قول طه حسين في هذا باطل وكاذب وزائف، وهو محاولة من مدرسة التغريب الفرنسية بالذات لاحتواء الفكر الإسلامي في بلاد الإسلام الواقعة على شاطئ البحر المتوسط ونحن نؤمن بأن الإسلام قد أقام فكرا ومذهبا وأمة في شرق هذا البحر وجنونه منفصلة تماما ولها

ذاتيتها الخاصة عن اليونان والرومان الحديث ولا سبيل إلى احتوائها.

ونقول للسيد جاك بيرك إن رصيد طه حسين قد أصبح الآن لا يزيد على مجموعة من العبارات البليغة الخادعة، وأن مبادرة العقلانية التي يدعى أنه حملها قد آلت إلى الفشل وإن كل مفاهيم طه حسين عن الشعر الجاهلي والمتنبي وابن خلدون والتبعية الغربية قد سقطت تماما، وشهد مصرعها قبل أن يفارق هذه الحياة، ولا أمل مطلقا في أن يعود مرة أخرى فقد شب الوليد عن الطوق، ودخل مرحلة الرشد ولم يعد في الإمكان خداعه، وأن المسلمين عادوا مرة أخرى إلى طريق الأصالة القرآني، المصدر الذي سارت فيه حركة اليقظة منذ فجرها في العصر الحديث وأنه لا سبيل إلى قبول العصرية تحت حكم التبعية وأن للمسلمين منهجهم الأصيل الذي يصل بهم إلى الحقيقة تحت لواء القرآن.

* * *

* *

*

البطـــولة

في تاريخ الإسلام تتكشف البطولة في ثلاثة أبعاد:

* بطولة الحرب والمقاومة ورد الغـــزاة.
* بطولة الفكر وتصحيح المفاهيـــــم.
* بطولة بناة الدول في مجال الحضـارة.

وهى بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجري في هذه الأبعاد الثلاثة، والواقع أن الإسلام قد رسم أيديولوجية جديدة لها طابعها الخاص، تتسم بالإيمان بالله ، وقوامها الجهاد في سبيل كلمته ، وإقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة. ومن خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء.

ومن هنا برزت «البطولة» التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه، ورد عادية خصومه عن قيمه وعن أرضه.. ومن هنا كان مفهوم «الجهاد» لا يتوقف على الحرب وحدها، وإنما يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله، ما دام هدف الحياة الإنسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته.

هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها ضوؤه، وهى أمة مهيأة بالفطرة لتقبل رسالة عظمى كهذه الرسالة، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إعدادا نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة، فإنه من خلال هذه الجماعة تبرز بطولات الأفراد التي تخطو بالعمل خطواته المتوالية.

كذلك فإن الأمة العربية بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثياتها، وهى تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة عن حضارة الرومان وحضارة الفرس، والتي بعدت عن عبور الغزاة وحركات الغزو ومعارك القتال، وتيارات الحضارة والفكر والمذاهب والأديان، إنما كانت معدة بذلك إعدادا خاصاً لتلقى رسالة ضخمة إنسانية عالية، تحمل لواءها بكل هذه العوامل المكونة لنفسية جماعتها وأفرادها، وقد التقى مفهوم الإسلام بطبائع العرب. فتحقق بذلك تحول خطير في قيم العرب وفق مقاصد الإسلام، وقد حدث هذا التحول الخطير في دقة ويسر.. واستطاعت أعوام لا تزيد على نيف وعشرين عاما هى حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثته إلى وفاته ، أن تحقق هذا التحول.. فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل . وتلك كلها صفات يرتضيها الإسلام.. غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة في سبيل الغاية الفردية، والاستطالة والثأر، والستعلاء والظلم، فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنساني رفيع، وجعلها في سبيل تحقيق هدف، ومن أجل غايات عليا قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية، وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها ، وبالتالي عدل اتجاه النفس الإنسانية العربية ، وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حد لها في سبيل إذاعة كلمة الله في الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسيعها. دون أن تكون قوة عدوان أو تسلط أو ظلم. وإنما تكون وفق مفهوم القرآن ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا.. ﴾

والمسلمون يقاتلون في سبيل غاية عليا هى تحقيق كلمة الله ونشر الإسلام والدفاع عنه. وهم لا يطمعون في مغنم مادي بالدرجة الأولى. وهم في أعمق أعماقهم قد خرجوا على مضمون واضح في نفوسهم.. هو النصر أو الشهادة.. وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أحرز أكبر نصر.. فهو قد قدم روحه في

سبيل فكرة؛ ملأت نفسه وفاضت بها روحه. ومن هنا فهو يقاتل دون أن يخشى الموت أو القتل، إذ أنه وطد نفسه على أن يموت. فلابد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولاً. ومن هنا فإن النتيجة أن ينتصر ولا يموت، تحقيقاً لقانون صادق: «أحرص على الموت توهب لك الحياة». وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين أحد، قد قتل ولكنهم شهداء.. مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل مبدإ آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم.

وقد عاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلا وما زال حيا نابضا بالحياة، فهم يتمثلون في كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول.. وما تزال صورته الواضحة الدقيقة المتمثلة في كتب السنة، وفي مختلف تصرفاته، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي. فقد كان صلى الله عليه وسلم هو التطبيق العملي لفكرة الإسلام ومقاصده وأهدافه.

فكان تجسيداً كاملاً لتعاليم الإسلام، والأسوة الحسنة للمسلمين، كان خلقه القرآن.. وقد وصفه الحق بقوله: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وقد تمثلت البطولة بعد مرحلة النبوة في مواجهة الردة التي أصبحت الجزيرة العربية عليها ذات يوم بعد اختيار النبي للرفيق الأعلى، وفيما عدا ثقيف وقريش، فقد ارتد سائر العرب.. وكان موقف الصديق دائما قويا، فقد أصر أبو بكر الخليفة الأول على المقاومة ورفض الاستسلام.. وأنفذ أحد عشر جيشا في يوم واحد.. واستطاع أن يستأصل الردة في معارك متعددة أكبرها معركة اليرموك..

وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الإسلام بطولات. في مقدمتها بطولة البراء بن مالك، فقد زحف المسلمون حتى الجأوا المرتدين إلى

حديقة أطلق عليها من بعد (حديقة الموت) وفيها مسيلمة مدعى النبوة. فقال البراء: يا معشر المسلمين، القوني عليهم في الحديقة. فقيل للبراء: لا تفعل.. قال: والله لتطرحني عليهم فيها.. فحمل إلى أن أشرف على الحديقة حتى فتحها للمسلمين.

وفي مواقف متعددة وغزوات مختلفة توالت على ثرى الشام وفارس والعراق ومصر، برزت معالم البطولة الإسلامية حية نابضة بالحياة وقد غيرت مقومات الإسلام..القيم والمفاهيم لدى المرأة، كما غيرتها لدى الرجل. فقد جاهدت المرأة في الحرب وقاتلت.. فقدمت حليها وشعرها.. وفي معركة اليرموك قاتلت النساء في جولة، فخرجت جويرية بنت أبي سفيان ومعها زوجها فقاتلت قتالاً شديداً.

وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها. مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه. وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت في العالم ١١٤هـ بصورة عامة، فإنها ظلت حية، تتمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية، والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية وفي حدود عالم الإسلام والمشرق.

فقد امتدت معارك المقاومة متقطعة على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير من جوانب العدو وهى: الإدالة من علم الإسلام أو الحيلولة بينه وبين التوسع... ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هى: الحروب الصليبية في المشرق، وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب، والغزو الصليبي التتري، وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الإسلام في المقاومة بصمودها وسماحتها في الوقت نفسه، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية، وتشابهت صور نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، مع صور خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص..

وتلمس المسلمون على المدى الطويل أخلاق الإسلام ومفاهيمه، يحاولون أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول، حماية للذمار ومقاومة للعدو وعدلا وسماحة.

بطولة العلم التجريبي:

لا مشاحة أن العلم كان ولا يزال من أخصب جوانب الفكر الإسلامي، والدعامة الأساسية في بناء الحضارة الإسلامية فقد حرض القرآن على اصطناع العقل، ودعا إلى النظر في الكون والبحث في أعماق الأرض ففتح الباب واسعا للمسلمين منذ اللحظة الأولى لنزوله إلى النظرة العلمية العقلية القائمة على التكامل بين العقل والقلب ، والوسطية بين الروح والمادة، وقد كانت أزهر فترات التاريخ الإسلامي هى المرحلة التي توازن فيها الفكر الإسلامي: جامعا بين الدين والدنيا وبين ثقافة القلب وثقافة العقل..

وفي مجال العلم برز أبطال من الباحثين الدارسين لم يتوقف أمرهم عند علوم الشريعة والعقيدة والأخلاق، وإنما امتد إلى مجال العلوم الطبيعية والرياضية، فبلغوا في مختلف مجالاتها قدرا عاليا، وقد كانت قاعدتهم الأساسية: أن العلم هو علم الدنيا والآخرة معا ، وهو العلم الجامع بين بناء الحضارة وبناء النفس الإنسانية جميعا.

هذه النظرة كانت قيمة أساسية في مجال البحث العلمي الإسلامي.. أما انحراف هذه النظرة في مرحلة الضعف حين غلبت (الجبرية) وحين انصرف المسلمون عن العلوم الطبيعية والرياضية فذلك انحراف لا ينسب إلى الإسلام وإنما ينسب إلى المسلمين.

وقد بدأ المسلمون في ممارسة العلم والبحث في مختلف المجالات قبل أن يتصلوا بالفلسفات اليونانية وغيرها، فلما بدأت ترجمة الآثار اليونانية، أخذوا تلك المبادئ القليلة التي كانت عند اليونان، فنظروا فيها وعرضوها على مفهوم التوحيد الخالص، فرفضوا منها وقبلوا، ثم نموا ما قبلوه وأضافوا إليه، ثم أبدعوا علوما أخرى لم يسبقهم إليها أحد.

ولا شك أن اتجاه الفكر الإسلامي إلى الانفتاح على الثقافات البشرية: فارسية ويونانية وهندية، كان إيمانا بإنسانية الفكر الإسلامي ومرونته وحيويته وقدرته على استيعاب الثقافات البشرية وصهرها في بوتقته ورفض ما لا يتفق مع مفاهيم الإسلام ومقوماته. وإذا كان أئمة المسلمين يهدون الهدايا إلى حكام بيزنطة إغراء لهم بإرسال الكتب القديمة، بل وكانوا يجعلون هذه الكتب من الجزية المفروضة على الروم، فإن دلالة هذا التصرف واضحة في فهم المسلمين للإسلام وجرأتهم في مجال العلم والعقل والبحث.

وقد نما الفكر الإسلامي من خلال العقائد والفقه ، وكان الحديث النبوي علامة ضخمة على قيام المنهج العلمي الموثق لقبول النصوص أو رفضها، هذا المنهج الذي نمـا بعد ذلك في مجـال الفقه والتاريـخ، ثم كانت التفـريعات والتشـقيقات التي قام بهـا المفكرون المسلمون إزاء القضايا والأحداث والمواقف المتعددة لإيجاد حلول منوعة لكل حـالة من حالات المجتمع، وعلاقات الناس في مختلف البيئات والعصور.

كانت هذه الممارسة مقدمة للعمل في مجال الفلك والكيمياء والرياضيات ، والطب الذي حقق مولد حدث ضخم هو (المنهج التجريبي الإسلامي) الذي رسم

المفكرون المسلمون والعرب منهاجه، ووضعوا قواعده، وأقاموا عليه أعمالاً ضخمة، وحققوا به تقدما بارعا.

هذا المنهج التجريبي الإسلامي هو آخر ما أهدت الحضارة الإسلامية لأوربا في القرن العاشر الهجري أي القرن السادس عشر الميلادي، عن طريق الأندلس بعد أن سجل أعلام العلم التجريبي خطوات واسعة تشهد بدور المسلمين في إقامة هذا المنهج وممارسته، وفي مقدمة هؤلاء الرازي وابن سيناء والخوارزمي والبتاني والبيروني وعمر الخيام، وابن زهر وابن خاتمة وابن الهيثم وابن العوام وابن البيطار وابن رشد وابن الخطيب.

وقد سجل العلامة سارطون حقيقة الدور الذي قام به المسلمون في مجال العلم التجريبي حين قال: إن أعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك كانت في شيئين: علم الحساب الجديد وعلم المثلثات الجديد، وعنده أن العرب جمعوا بين المصدرين (اليوناني والهندي) وأنهم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية. وقال: إذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكارا فليس في العلم ابتكار على الإطلاق، فالابتكار العلمي في الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد.

والحق أن المسلمين لم ينقلوا المفهوم الرياضي الإغريقي بل وضعوا مفهوما جديدا - كما فعلوا في الفلسفة والأخلاق والتصوف والأدب، وكل الفنون التي كان لها وجود سابق على الإسلام. وكان مفهومهم قائما على الربط الوثيق بين مكتشفات العلم وبين مبادىء الإسلام.

وهكذا كان موقف المسلمين من العلم موقفا له طابعه الاستقلالي الإبداعي،

وإذا كانوا قد أخذوا من تراث الأقدمين فإنهم لم يستسلموا له، أو يتوهوا فيه، ولم يدعوه يصوغهم بل هم الذين صاغوه وفق إطار واضح من قيمهم ومفاهيمهم، ذلك أن القرآن قد دعاهم إلى العلم، وحثهم الإسلام على النظر في الكون والبحث في الأرض، فلما تسلموا زمام العلم لم يخضعهم، وإنما أخضعوه وحرروه من زيوف الوثنيات والغموض وحاولوا دون أن يكون وسيلة للعدوان أو إباحته، فقد أعادوا صياغته في ضوء مفهوم الإسلام خلقا جديداً مختلفا كل الاختلاف، ثم أقاموا عليه بناء ضخما وأضافوا إليه إضافات كبيرة.

وقد كانت أداة العمل في مجال العلم عند المسلمين هي: (النظر العقلي + التجربة + الرحلة) وقد بلغ المسلمون في ذلك غاية الغايات، فحققوا النصوص القديمة ورفضوا ما لا يقبله العقل، والتمسوا التجربة في المعامل، فقاموا بها على الحيوانات والحشرات، ثم ذهبوا إلى أطراف الأرض يبحثون عن الحقائق، وقد رحل البخاري ستة عشر عاما، ورحل الغزالي عشر سنوات ورحل ابن بطوطة ربع قرن كامل.

كما حفلت عواصم الحضارة الإسلامية بمعاهد العلم ومعامله ومراصد الفلك والمكتبات، وكان في بغداد وحدها في عصر المقتدر بالله الخليفة العباسي ما قارب التسعمائة طبيب، ممن جازوا الامتحان ليكونوا أطباء، وقد نظمت صناعة الطب، فكان للأطباء رؤساء وكان عليهم رقباء لاتصال أعمالهم بمصالح الناس كافة، ومن الأطباء من كان خاصا بالجند فهو يصحبهم في أسفارهم، ولهم رواتب ومنهم من يطببون العامة وهم غير المرتزقين، ومنهم متخصصون، ومنهم الطبيب على إجماله، ومنهم الجراح والفاصد، ومنهم الكحال أي طبيب العيون والأسنان، ومنهم من يقتصر عمله على معالجة النساء ، ومنهم من يطب

للمجانين، وكانت جامعة بغداد تعتمد سنويا مليونا ونصف مليون دينار لشراء الكتب والمخطوطات.

ولم يقف شأن العلماء التجريبيين المسلمين عند مجال الطب بل تعداه إلى مختلف مجالات الفلك والجغرافية والكيمياء والفيزياء، والنبات والزراعة والرياضة والتاريخ والرحلة والكشف.

وقد سبق الباحثون المسلمون علماء أوربا في (تقعيد) القواعد «فابن حزم» وضع أسس نظرية المعرفة التي قال بها (كانط) بعده بثمانية قرون.

«وابن خلدون» بسط فلسفة الاجتماع قبل «منتسكيو وتادر» بخمسة قرون. وبراهين «الغزالي» للدفاع عن الإيمان سبقت نظرات «القديس توماس الاكويني» بعشرة قرون.

وكان أبرز عوامل التقدم العلمي الإسلامي سماحة المسلمين في تلقي علوم السابقين لهم وإن خالفت أصول فكرهم كما كان العلماء المسلمون سمحاء مع اليهود والنصارى ، ذلك التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى ، وكانوا آية التسامح في عرض علوم الملل والنحل ، وقد قدموا كل نتاج أبحاثهم العلمية في الأندلس إلى أوروبا بسماحة ، وكان العلماء المسلمون مطبوعين على الخلق والصدق وشمول النظرة بين العلوم العقلية والشرعية والرياضية. والحق أن الإسلام لم يعط الغرب أساس البحث العلمي التجريبي فحسب ولكنه أعطاه مفهوم الحرية والاندفاع نحو العمل والبناء والانتشار والابتكار، وهو ما قدمه ابن رشد للفلسفة الأوربية من مفاهيم زلزلت القيم الجامدة القديمة، حيث تغيرت نظرة إنكار الدنيا والتشاؤم التي كانت غالبة على الفكر الأوربي، وحلت

محلها نظرة إيجابية مصدرها الإسلام، فالإسلام وهو دعوة البحث عن الحق قد حرض الناس على السعي إليه عن طريق المعرفة والدفاع عنه وقدم في هذا المجال قانونين أساسيين:

الأول.. هو الشك قبل الإيمان وقدم لذلك قصة نبي الله إبراهيم الذي تطلع إلى القمر ثم الشمس وغيرهما ثم دخل بعد الشك في الإيمان.

الثاني.. جعل للمجتهد أجرا إذا أخطأ، وأجرين إذا أصاب..

وقد أكد العلامة بريفولت دور المسلمين في إبداع المذهب العلمي التجريبي فقال:

لا يستطيع (روجر بيكون) ولا (سميه) الذي جاء من بعده (فرنسيس بيكون) أن يدعيا أنهما ابتكرا الطريقة التجريبية، تلك الطريقة التي هى من صنع العرب وحدهم، ولم يسبقهم إليها باحث أو مفكر ، وكل ما عمله (بيكون) أنه كان تلميذا مخلصا للمسلمين، تلقى أفكارهم كما تلقى عنهم الطريقة التجريبية التني أبتكروها ونقلها إلى أوروبا.

وقد أرسى العلماء المسلمون قاعدة بحثهم على هذه الأسس:

١- تكريم العقل.

٢- احترام الشخصية الإنسانية.

٣- العدل والمساواة.

٤- الإيمان بالعلم والحقيقة.

٥- الاعتماد على التجربة.

٦- الاعتقاد ببقاء الروح بعد البدن.

٧- الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة.

٨- القول بإله واحد قديم خلق العالم من لا شيء.

* * *

* *

*

بطولة العلم والعلماء:

للعلم والعلماء صفحة بطولة في تاريخ الإسلام رائعة باهرة ففي كل مجال من مجالات العلم نجد أسمائهم اللامعة وإضافاتهم البناءة.

ففي التاريخ: الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون.

وفي الأدب: الجاحظ وابن قتيبة والخليل ابن أحمد.

وفي الفلسفة: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد .

وفي التصوف : ابن عربي وابن الفارض والشعراني وعبد القادر الجيلاني .

وفي الكلام : واصل بن عطاء والنظام والاشعري والماتريدي والباقلاني والجويني .

وفي الحديث النبوي : ابن شهاب الزهري ، وابن جريج المالكي وابن اسحق والترمذي .

وفي الفقه : مالك وابو حنيفة والشافعي وابن حنبل وابو يوسف .

وفي العلم : الخوارزمي والبيروني والبتاني وجابر بن حيان والرازي وابن الهيثم وثابت بن قرة.

وفي تصحيح المفاهيم: ابن حزم والغزالي وابن تيمية

وابن سينا أعظم الأطباء، والبيروني أعظم الجغرافيين، وابن الهيثم أعظم

علماء البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين وابن رشد فقيه وفيلسوف.

يقول (ول ديورانت): ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي إلا جزءا صغيرا مما بقى من تراث المسلمين وليس هذا الجزء الباقي إلا قسما ضئيلا مما أثمرته قرائحهم وليس ما أثبتناه إلا نقطة من تراثهم.

كان لهؤلاء العلماء رحلاتهم الطويلة من أجل البحث عن النص وتحقيق السند، ذهب البخاري في رحلته الطويلة بضعة وعشرين عاما في تحقيق الحديث، وجد سبعين ألفا وأقر منها أربعة آلاف فقط. وعرض ذلك كله في ذوق رفيع وأدب وخلق فلم يهاجم أحدا، ولما عاد رفض أن يحدث الناس إلا في بيته أو في المسجد.

وكانوا جميعا يوجهون العلم لله خالصاً ولخدمة الأمة، ولا يتطلعون إلى مال أو جائزة سنية، كان ابن الهيثم صاحب نظرية الضوء التي قام عليها علم أوروبا كله، يعتمد في كسب قوته على نسخ الكتب وكان يقول: يكفيني قوت يوم، وقال كلمته المشهورة عندما وصلته هدية أحد الأمراء: اعلم أنه لا أجر ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير ونشر العلم.

أما (البيروني) فقد رَدّ ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من النقود وقال: «إنما نخدم العلم للعلم».

وفي مجال العلم عرفوا: «البرهان والحق» فقد دافع ابن حزم عن كروية الأرض بالعقل والدين وسبق (كانت) في نظرية المعرفة بسبعة قرون وقال: إن التقليد حرام، ولا معجزة لنبي بعد وفاته. وكان مذهبه: «لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان».

و(الفارابي) فكر في أمم متحدة منذ قرون، ومدينته الفاضلة تضاءلت إلى

جانبها جمهورية أفلاطون، فقد أقامها على العدل المطلق بين أبناء المدينة، أما أفلاطون فقد رفع الأوارء وجعل عامة الشعب عبيداً. والأمة عند الفارابي جسم وأحد لا يستقيم أمره إلا بالتضامن والتعاون.

وقد ظهرت آراء الفارابي فيما بعد في نظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، ومن آراء الفارابي: أن السعادة ممكنة على وجه الأرض إذا تعاون المجتمع على نيلها بالأعمال الفاضلة، ويرى أن النجح في الأعمال هو تمام ارتباط العلم بالعمل، وأن بلوغ الغاية يكون بإصلاح الإنسان نفسه ثم إصلاح غيره. والعلماء العرب هم الذين أطلقوا الأسماء على النجوم، هذه الأسماء التي لا تزال حتى اليوم تطلق عليها في عصر غزو الكواكب، فالشعري اليمانية والعيون والسماك والرامح والنشر وقلب العقرب، ما زالت تترجم إلى اللغات الأوربية بأسمائها العربية.

وقد كشف علماء المسلمين عن المحموعات الفلكية: مجموعة العقرب والبروج الاثنا عشر والدب الأكبر والنجم القطبي والفرقدان والحاوي.

«وابن رشد» دعا إلى مشاركة المرأة الرجل في خدمة المجتمع والدولة، وعنده أن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له. أما «الغزالي» فقد سبق «كانت وهيوم» وغيرهما من الفلاسفة العقليين في مسألة قدم العالم والزمان والمكان بمئات السنين، واهتدى في ذلك إلى آراء سبق بها فلاسفة القرن الثامن عشر.

و «الطوسي أبو جعفر»: له فضل إقامة مرصد مراغة العظيم، وله مؤلفات رائعة في علم التحول وانعكاسات الشعاعات قال سارذون: إن أقوال «الطوسي» مهدت للأعمال التي قام بها «موبرنيكس» فيما بعد وبحوثه عن الكرة السماوية

ونظام الكواكب. وكتابة «شكل القطاع» إنه كتاب يفصل المثلثات ويجعلها علما مستقلا.

أما «الشاطبي» فقد توصل إلى نظرية شبيهة بما يسمى في القوانين العصرية بـ «نظرية التعسف في استعمال الحقوق» فاثبت بعد تحليل وتفصيل دقيقين أنه يجب منع الفعل المأذون فيه شرعا إذا قصد منه فاعله الإضرار بالغير. وقال «ابن حزم» زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع، وهذه دعوى باطلة وبلا برهان، وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا وأن حركتها أبدا على رتبة واحدة ولا تتبدل واحدة عنها، وهذه صفة الجماد الذي لا اختيار له، وليس للنجوم تأثير في أعمالنا ولا لها عقل تدبرنا به، إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الماء والهواء. ونرى أثرها في المد والجز، وقال إن النجوم لا تدل على الحوادث المقبلة.

أما إبراهيم النظام فدعا إلى الشك في سبيل اليقين وقال: إن الشك سبيل الإنسان إلى كل يقين ، وإن طالب العلم لا يكون كحاطب ليل، بل ينبغي أن يتخير مما فيها ولا يسمح أن يدخل في نفسه إلا الجد المنتقى، وعنده أن الكتب لا تحيى الموتى، ولا تحول الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن طبيعة الإنسان إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفى.

ويقول: الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حالة شك.

والمعروف أن النظام وواصل بن عطاء وغيرهما كان لهما دور ضخم في الدفاع عن الإسلام في وجه مناهج الفلسفة اليونانية التي حمل لواءها خصوم

الإسلام وقد استطاع بعمق منطقة وسلامة جدالة تصحيح الحقائق والعقائد في نفوس المئات.

وقد عرف علماء المسلمين «التقنين» ممثلا في اللغة القانونية المحكمة التي كتبت بها مصنفاتهم الفقهية، وفي التبويب الدقيق للمسائل، مما نجده في أوضح صورة في المختصرات المكرسة للفقه العملي، مثل كتاب الماوردي وكتاب أبي يعلى المعاصر له والحامل نفس العنوان. وقد نسقت أحكام هذه المختصرات على صورة تجعل من الميسور تصنيفها إلى مواد قانونية على الشكل المتبع في التقنين الحديث، وكان ابن حجر العسقلاني واحد من أعمدة المنهج العلمي. يقول «البقاعي» عنه: لا يستطيع أحد أن يقسره في شئ أصلا، أو أن يقرب من ذلك فهو لا يقبل كلام أحد في غيبة خصمه، فهو آية في حسن القضاء ومعرفة دسائس الناس في كلامهم والاهتداء إلى قطع الأمور. له في المناظرة مسلك غريب قل أن يثبت له في ذلك أحد. ويركز «الترمذي» منهجه الفكري على الحق والعدل والصدق. يقول: إنا وجدنا دين الله عز وجل مبنيا على ثلاثة أركان: على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح والعدل على القلوب، والصدق على العقول، فإذا افتقد الحق من عمل خلفه الباطل، وإذا افتقد منه العدل خلفه الجور، وإذا افتقد منه الصدق خلفه الكذب. فهذه الثلاثة جند المعرفة وهذه الثلاثة التي هن أضدادهن جند الهوى.

والطرطوشي في كتاب (سراج الملوك) يسبق فلاسفة السياسة وفن الحكم في أوروبا، وهو واحد من عدد من علماء الإسلام الذين عملوا في هذا المجال: كالغزالي في تبر المسبوك، والتبريزي في المنهج المسلوك في سياسة الملوك، وابن طباطبا في (الفخري)، وأبرز مفاهيم الطرطوشي أنه لا يفرق بين السياسة

والأخلاق، بل يراهما شيئا واحدامتفقا، وهذا المنهج الإسلامي يخالف منهج «ميكافيللي» في كتابه الأمير.

– أما «**الكندي**» الفيلسوف فقد درس الصلة بين الموسيقى وتحريك النفس، وما يناسب أحوالها وما يبعث السرور، ودرس علاقة ذلك بالطب وأمكنه التوصل إلى إمكان معالجة المرضى بالموسيقى، وذلك بضرب الأنغام المناسبة للمريض.

وعرف (**المقدسي**) بأنه أعظم جغرافي عرفته البشرية قاطبة على حد تعبير المستشرق «أشيرنجر» فقد طاف العالم كله ما عدا الأندلس والسند وركب المخاطر في بحر الهند والبحر الأحمر والبحر الأبيض يقول: ما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم، ولم يبق شئ مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نبأ غير الكدية «التسول» وركوب الكبية، وقد تفقهت وتذهدت، وتعبدت وفقهت وأدبت، وخطبت على المنابر ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي «الملاحين» العصائد، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري وتهت في الصحاري.

أما «**الطبري**» فقد صور منهجه في كتابة التاريخ في مقدمة كتابه «تاريخ الرسل والملوك» فقال: ليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره منه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبارالتي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها دون مأدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس. وابن كثير «الذي تصدى للمرويات الإسرائيلية وفصل القول فيها، وهو يرى أن القرآن قصد إلى الإجمال فيجب الوقوف عند ما قصد إليه، والزمخشري في (الكشاف) يحرر فكره من الخضوع للأهواء ويعارض

العلماء ذوي الأهواء الذين جمعوا عزائم الشرع ودونوها، ثم رخصوا فيها للأمراء وهونوها وقال: إنما حفظوا ، وعقلوا وصفقوا وحلقوا ليجمعوا المال ويسيروا». والخليل بن أحمد واضع قواعد العروض ومناهجه، و(أبو الأسود الدؤلي) واضع مناهج الفصحى وقواعد النحو، و(الجاحظ) واضع مناهج النقد الأدبي، و(الشافعي) واضع الاستنباط وأصول الفقه،

و (الأشعري) صاحب الحملة على الانحراف إلى الفكر اليوناني، وابن تيمية صاحب الحملة على الطرقيات المنحرفة، و(الغزالي) صاحب الحملة على مغالاة الفقهاء.

و(ابن دقيق العيد) الذي قال: «النص» هو الإمام و(الرأي) هو المأموم والمذاهب ترد إليه. ويقول لا يصح أن يجعل الرأي الذي فيها للنص أصلا فيرد النص إليه بالتكليف والتحايل.

* * *

(٧٨)
الدارونية
الدارونية ونظرية التطور

أولا: ليس الخطر الحقيقي في نظرية «دارون». ولكن الخطر في محاولة إذاعتها وفرضها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب، وذلك هو ما حاولته القوى التلمودية الصهيونية التي اتخذت من النظرية منطلقاً إلى نشر الدعوى المادية وإلى تدمير المجتمعات، ومنها أخذت فكرة التطور المطلق الذي يعارض طبيعة الحياة ومفهوم الفطرة ومقررات الدين الحق، ومن الجائز أن يكون دارون كان مؤمنا، ولكنه لم يلتفت إلى مدى الخطورة من محاولة القول بأن الأجناس البشرية من أصل واحد، وأن الإنسان من أصل حيوان: فإنه قد فتح بابا خطيراً من الشبهة حمل لواءه رجال الفلسفة من بعده بالدعوة إلى حيوانية الإنسان، وكان في ذلك معارضا لمفهوم الدين الحق الذي أعلن كرامة الإنسان واستخلافه في الأرض. ولقد كان لاتخاذ التطور أسلوبا اجتماعيا أبعد الأثر في التنكر للقيم الثوابت ومنها العقيدة والشريعة والأخلاق.

تقول بروتوكولات صهيون: إن دارون ليس يهوديا ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع وأن نستغلها في تحطيم (الدين والواقع)، إن السر في دفع نظرية دارون ذلك الدفع القوي هو قيامها على مفهوم مادية الكون، فقد كان دارون يرى أن العالم وجد صدفة، ويقول بمادية الكون، وهو أول من صور الإنسان على أنه حيوان.

ثانيا: إن دارون لم يفهم العلاقة بين الطبيعة والإنسان، ولقصور نظريته وقلة أدلته أكبر من شأن التنازع. تنازع البقاء، وقد حال هذا بينه وبين رؤية التعاون

بين الحيوان والنبات الذي هو أوسع وأكبر من التنازع، ويرى العلماء أن دارون أخطأ خطأ فادحاً عندما زعم أن تنازع البقاء هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك، وقد تبين للعلماء أن التعاون في الطبيعة أكثر من التنازع، بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشري الذي نفهمه لهذه الكلمة.

ثالثاً: فساد نظرية الانتخاب الطبيعي التي جاء بها دارون، فقد أعلن العلماء في الأخير أن هذا التفسير الذي تقدمه نظرية التطور والارتقاء، قد اهتزت أساساته من جذورها، فقد طالما انتقد علماء الحياة هذه النظرية، أما في هذه المرة فيبدو أن الهجوم كان صاعقا بحيث انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسر اختلاف أجناس المخلوقات.

لقد تبين فساد نظرية دارون التي قال بها حين قال: إن الزرافة حين أعطتها الطبيعة ارتفاع القامة، فقد أعطتها الأسبقية في البقاء على بقية أبناء فصيلتها، ففي استطاعتها الحصول على الغذاء من لباب الشجر، بينما ظلت الحيونات الأخرى تقاسي الجوع، فهلك بعضها واندثر.

ويقول «جين روستد» عضو الأكادمية الفرنسية للعلوم وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية بعد أن اطلع على مجموعة أبحاث ومراجع لعلماء البيولوجيا البارزين، إن نظرية التطور التقليدية بمعناها الحرفي قد غدت الآن شيئاً ماضياً، وإنه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة، كاصطفاء الطبيعة للجنس الأصلح، لمجرد أن علماء البيولوجيا قد اخفقوا حتى الوقت الحاضر في إثبات ما إذا كان بالمستطاع على تغير الأجناس الوقت الحاضر في إثبات ما إذا كان بالمستطاع على تغير أو التحكم به أو خلقه عن طريق العملية نفسها.

وإذا كانت الزرافة ذات العنق الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام هي نتاج

الاصطفاء الطبيعي، فكيف يكون الحال مع الخروف الذي لا يزيد طول رقبته عن بضع بوصات، أليست الزرافة والنعجة بنات عم تماماً ثم تكادان تكونان أختين في المملكة الحيوانية، فقد تولد كلاهما من أصل واحد فكيف يمكن تفسير بقاء بنتي عم كل منهما أصلح للبقاء من الأخرى إحداهما بسبب طول عنقها والأخرى بسبب قصر ذلك العنق.

كيف يمكن تفسير مسألة قرونها، يقول إن القرون نمت بشكل عفوي، وحينما ثبتت فاعليتها للحيوان في صراعه من أجل الحياة، أخذت الطبيعة تصطفي الحيوانات ذات القرون وتفضلها على غيرها، التي جعلت تنقص تدريجياً، ولكن هل هذا هو الواقع، أن هناك خرافاً قرعاناً (من غير قرون بنفس عدد الخراف القرناء تقريباً، فإيهما أصلح للبقاء).

رابعاً: راجع العلماء مفهوم التطور المطلق الذي أضفى على نظرية التطور فاثبتوا أن حقائق الأشياء ثابته لا تتغير، وإنما الذي يتغير هو الصورة فقط، فنزعة الطعام لا تزال ثابتة، وإنما الذي يتغير هو صورة الطعام، وكذلك نزعة اللباس والقتال واتخاذ السكن.

وبرهنوا على التطور ليس قانوناً أخلاقياً وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه بأن التطور قانون اجتماعي يتحرك في إطار الثوابت، ولا يقتضي مطلقاً تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة، والتطور غير التطوير، والتطور ليس كلها تقدماً والجديد ليس الأصلح دوماً.

وهم بذلك قد زيفوا زعم «سبنسر»، بأن التطور الاجتماعي تطور حتمي لا شعوري.

خامساً: كشف الباحثون أن الدروانية قد استغلت في محيط السياسة مما

أدى إلى خلق جو مضطرب أطلت منه مذاهب العبقرية، فقد كان قول دارون بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل، قد استغلتها حركة الاستعمار العلمي كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة.

سادساً: اتخذت نظرية التولد الذاتي (قال بها دارون ولامارك وأرنست هيكل) منطلقاً إلى الإلحاد وجعلها البعض سنداً في إنكار العقيدة الدينية، واتخذت منها فلسفة لنفي الخالق، وإعطاء المادة صفة القادر على كل شئ، ومن ثم دعا «هيكل» إلى تأليه الطبيعة وإنكار وجود الله تعالى وقال بوحدة الوجود.

سابعاً: اتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم باعتبار أن كل شئ بدأ ناقصاً يثير السخرية والاحتقار ثم تطور. فلا قداسة إذنً لدين، ولا لوطنية، ولا قانون ولا فن ولا لمقدس من المقدسات، وظهر كإنما أخرجت النظرية لرجال السياسة وعلماء الاجتماع ليقتنعوا بها أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وأبادة الأجناس المغلوبة على أمرها.

وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصري والشعوب المختارة كما صيغت نظرية القوة عند «نيتشة»، ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان وبها انتفع دعاة الأرستقراطية، فوجدوا فيها سلاحهم، فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكي العروش وصانعي التاريخ.

وتلقفها معلنوا الحرب على الأديان، فأخذوا يضربون بها في جدران الدين وإعلاء العلم.

ثامنا: إن التطور قانون اجتماعي وليس قانونا أخلاقيا ويتحرك دائرة الثوابت ولكنه لا يقتضي مطلقا تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه لأن التطور في الحياة قد يكون إرتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا.

سقوط نظرية دارون:

تفترض نظرية التطور وصاحبها دارون أن جميع الكائنات الحية التي كانت تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد، أو بضعة أصول، وإن التغيرات المختلفة التي حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى كائنات أخرى أكثر تعقيداً ، وقد قال بذلك مابيه ولامارك واتيين جوفرسان، وقد بدت منذ اللحظة الأولى اعتراضات ثلاثة على هذه الفرضية:

أولاً: عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية منذ عهد الألوف عديدة من السنين.

ثانياً: عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلاً حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الإنسان رتبة واحدة.

ثالثاً: طول الزمان اللازم لحصول الترقي بين الأحياء

ولم تلبث النظرية أن اهتزت حتى أن البعض أعلن موتها ويرجع ذلك إلى سببين هامين:

١- أن الداروانية كانت نظرية بحتة تتخذ الانتخاب الطبيعي لتفسير أي ظاهرة تطويرية من غير أي دليل.

٢- أن علم الوراثة كان قد اكتشف حينذاك أن التغير الفجائى أو الطفرة حقيقة، وأن التغير الوراثي يسير بقفزات وأحياناً بقفزات واسعة، وأنها - أي التغير - ليس تدريجياً كما يقول دارون.

ووقف علماء كثيرون ومنهم دى فرتز موقف المتحدي حيال مبدأ الانتخاب

الطبيعي واعتبر العلماء أن اكتشاف نظرية الطفرة في الوراثة هو منشأ الاختلافات الوراثية غير المتوقعة.

وأعلن العلامة (والأس): أنه من المستحيل أن يكون الإنسان قد تم تكوينه على طريقة التطور والارتقاء حيث قال: إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأساً وقال «فرخو» أنه قد تبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره.

وقال (أجاسير): أن النشوء لا يتم إلا وفقاً لخطة إلهية حكيمة، وأن الاصطفاء الطبيعي إذا ما حل محل الخلق الإلهي فإن الإنسان يكون قد جرد من روحه وغدا آلة صماء، وإن التفسير الحرفي لنظرية داروين يفسح المجال لتأليه سوبر مان نيتشة وتمجيد القوى البدنية على أنه الأساس الوحيد للسلوك بين الناس، وأن الفكرة التي يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة.

وتترد دفوع كثيرة عن فكرة داروين من أنه لن يجعل نظرية التطور والارتقاء أساساً للدعوة إلى الإلحاد وإنكار الخالق، وأنه لم يقل بالتولد الذاتي أو نفي الخالق ويتردد أن أرنست هيكل تلميذ دراون هو القائل بأن الحياة تولدت من المادة تولداً ذاتياً وبفعل الطبيعة، وأن أنصار داروين وتابعيه هم الذين زعموا أن أصل الإنسان يرجع إلى القرد، وأن القائلين بأن القرد هو أبو الإنسان الأول هم غلاة الماديين الذي ألصقوا هذا القول بمذهب داروين، ونفى هكسلى تلميذ داروين: أن الإنسان قد تحدر من القرد.

وتلاميذ داروين هم: هيكل ولامارك وأوبادين.

وعنهم أخذ «نجنر» الذي حاول أن يجعل نظرية التطور منهجاً اجتماعياً.

لقد دخل مذهب دارون وأتباعه إلى العالم العربي عن طريق الترجمات وبواسطة مجلة المقتطف والدكتور شبلي شميل الذي ترجم شرح بخنر على مذهب (دارون) وتابع ذلك (إسماعيل مظهر) و(سلامة موسى) وغيرهم.

وقد حاول (شبلي شميل) في جرأة عجيبة إلى الأخذ بمبدأ النشوء والارتقاء كقاعدة لتفسير الكون دون النظر إلى ماوراء الطبيعة، والإنسان في نظر شميل استمداداً من دارون وبخنر - كائن بيولوجي يخضع لنواميس طبيعية لا تتزعزع، وبات الكون كله سلسلة من الأجسام والكائنات يتولد بعضها من بعض متدفقة على التوالي نحو مراتب جديدة الارتفاع. وقد جعل شميل النظام الطبيعي لا الدين أو الله منبع الأخلاق والمرجع الأخير في تقرير القيم وصحتها، ولم يبق له إلا خطوة واحدة حتى يرفض الدين رفضاً قطعياً ويستبعده من نظام الحياة الاجتماعية، ويهدف مذهب دارون كما شرحه بخنر وكما أورده شبلي شميل إلى إقرار مبدأ العلمانية في تنظيم المجتمع وفصل الدين عن الدولة وإلغاء الوطنية الضيقة وإزاحة الأديان والوجود الذاتي، الحاضر للأمة والدعوة إلى المواطنة العالمية ليصبح العالم أمة واحدة تحت لواء القوة العالمية.

ولقد ووجهت هذه الدعوات والنظريات بردود فعل عنيفة وشجب كامل ورفض جامعي، مما دعا أصحاب الدعوات إلى تخفيف الدعوة ونقلها إلى أسلوب آخر على النحو الذي دعا به إسماعيل مظهر ثم سلامة موسى.

وكشفت حركة اليقظة إن نظرية التطور البشرية ليست إلا استنتاجاً وستظل استنتاجاً حتى توجد العظام الحقيقية التي تدلنا على كيفية تقدم الكائنات البشرية. وظل الكلام عن الحلقة مفقودة يثير السخرية بالدعاة إلى مذهب دارون.

وقد ظلت علامات الاستفهام معلقة على رأس دارون وتابعيه والداعين إلى فكرته مطالبة بالبراهين، لماذا كانت هناك حلقات مفقودة؟ ولم يستطيع دارون ولا أتباعه أن يجيبوا، لقد كانت فروضاً ولم تكن حقائق ولكن الفكر التلمودي والمادي استطاع أن ينتفع بها أعظم انتفاع، وأن يثير بها جوا من الإلحاد العاصف في كل مكان.

والمعروف أن النظرية قد تلقفها من دارون مفكرون وفلاسفة وقوى خطيرة، أرادوا بها أن تنتقل من ميدان البيولوجيا إلى ميدان الاجتماع والدين. والهدف هو القول بأنه لاشئ ثابت وكل شئ يتغير، والهدف هو استغلال هذه الشبهات وهذه الفروض للقضاء على مفهوم الأديان. وكان ما أحدثته الدراونية في عالم العقيدة رفي الفكر الأوربي كله أن فكرة التطور لم تنحصر في الدراسة المعملية التي قام بها دارون، ولا كان في الإمكان أن تنحصر في هذا النطاق، وإنما دخلت مجالات الفكر الاجتماعي ولم يعد هناك شى ثابت حتى فكرة العقيدة والألوهية.

ومن دارون بدأت فكرة القصور المطلق، ومن دارون بدأت فكرة حيوانية الإنسان، وتفتحت أبواب الفكر الماركسي والفرويدي جميعاً. وبه انفصلت النهضة الصناعية والكشف العلمي والحضارة والاستعمار والرأسمالية عن الدين واتجهت الحضارة إلى الاستهلاك: وقامت على صناعة أدوات الترف والزينة والفساد ومزيد من الأرباح تدخل أمبراطورية الربا اليهودية.

وقد ولدت بذلك النهضة الأوربية في جو لا ديني وعلى أساس لا ديني.

ومع أن العلم قد شجب كثيراً من تلك الفروض الأولى، وعارض رأي دارون وكشف عن فساد رأي الدارونية بحيوانية الإنسان، وأعلن عن تفرد الإنسان في

نوعه وفي كيانه البيولوجي البحت فضلاً عن كيانه النفسي والعقلي والروحي، فإن فلسفة العلم ظلت تحتضن تلك الفروض لتأييد مفهومها المادي الإلحادي للحياة.

وتبين فساد رأي دارون حين قال: الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها

ولقد تبين أن هذه حلقة خطيرة تربط بين رأي دارون وبين الفلسفة المادية يقوم بها أدعياء من الصهيونية التلمودية.

وقد تبين ذلك في عبارة بروتوكولات صهيون: «إن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين، لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم» والواقع أن عبارة (الترويج) عبارة قاصرة والحقيقة أن الطاقم التلمودي قد صنع من العلم أهواء خطيرة في طريق هدم مقررات الدين. وأن نظرية دارون في النشوء والارتقاء وفي التطور قد استغلت أبشع استغلال لتحطيم الدين والأخلاق، وكان من أبرز ثمار الداروينية: ماركس وفرويد ودوركايم، وقام الفكر الغربي على احتقار الدين والقول بأنه ليس فطرة ، وأن الجريمة ظاهرة سوية وتصوير الإنسان على أنه حيوان. وإنكار الأسرة وتحطيمها ووصف الأخلاق بأنها نسبية وأنها انعكاس للوضع الاقتصادي. وأن الزواج والدين ليسا من الفطرة، وأن للمرأة أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسياً خالصا من القيود، وقد أدخلت هذه المفاهيم إلى التقدم الصناعي، فأصبح يستهدف الشهوات، ويقوم على النظام الربوي. وكان تطور حركة السينما، والقصة والأزياء في الاتجاه الإباحي والانحلال نتيجة طبيعية لذلك.

ذلك موقف فلسفة العلم.

ولكن ماذا كان موقف العلم التجريبي؟.

إن العلم اليوم قد كشف فساد نظرية دارون وأعلن أنها أسطورة قد انهارت.

فإن الكشوف العلمية الجديدة أثبتت أن الإنسان لم ينحدر من فصيلة القرد.

لقد تبين اليوم أن نظرية دارون باطلة بعد أن أزعج أتباع دارون – والذين تلقفوا نظريته – العالم والجنس البشري بالباطل مائة عام ويزيد، حين أعلنوا أن الإنسان منحدر من سلالة القرود. وجاء علماء الأنثروبولوجيا (أي علم الإنسان) فأخذوا على عاتقهم عبء ربط حلقات هذه السلسلة الغريبة التي تبدأ بالقرد وتنتهي بالإنسان.

وجاء علماء النفس والاجتماع والأخلاق وأعلنوا أن الإنسان حيوان شهوة أو حيوان بطن، وبالرغم من أن نظرية دارون قد أعلنت أن هناك حلقات مفقودة يجب البحث عنها قبل التصديق بما قال به، ولقد ذهب العلماء كل مذهب في سبيل البحث عن هذه الحلقات، في الجماجم والعظام وبقايا الإنسان المتناثرة في أنحاء العالم القديم من جزر جاوه إلى كينيا وروديسيا والصين، ووجدوا هذه الجماجم والعظام المتناثرة التي يرجع تاريخها إلى ما يقرب من خمسة مليوناً من الأعوام، فماذا قالت تلك العظام والجماجم؟

لقد ظلت نظرية دارون في أصل الأنواع قاعدة أساسية للعلم الحديث والفكر المادي حتى خيل للبعض أنها من مسلمات العلم التي لا سبيل إلى نقضها، ولكن الأيام كشفت زيف النظرية، وأثبت تقدم العلم والحفريات الأثرية أن هذه الفرضية التي فرضها دارون ولامارك وغيرهما كانت قابلة للخطأ، وأن كل ما ترتب عليها وأسس عليها من فكر علمي و وهم باطل.

كانت النظرية المادية التي قامت خلال هذه العصور الطويلة على نظرية دارون ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد، وأن الإنسان فرع من فصيلة الحيوان في أرقى درجاته وهو القرد، وقد عارض الباحثون من العلماء البيولوجيين هذا الافتراض، ولكن قوى كبرى كانت وراء الانتفاع بالنظرية

وتحويلها إلى نظرية التطور الاجتماعي المطلق التي اشتقها هربرت سبنسر من نظرية التطور البيلوجي وكان لها أبعد الأثر في معارضة الحقائق الأساسية الجامعة الرابطة بين نظام الثوابت والمتغيرات من حيث حاولت أن تلقى ظلالا باطلة على أنه لا توجد ثوابت مطلقاً، وأن الحياة كلها في تغير دائم وتطور مطلق،، وهذا ما ذاع وشاع وسيطر بعد ذلك على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع.

والآن وبعد مرور قرابة مائة عام يجئ العلماء ليعلنوا بطلان هذا كله حيث تعلن جماعة العلماء التجريبيين: في صراحة تامة أنه لا علاقة للإنسان بالقرد ولا تجانس بينهما.

١- جال بيفتو رئيس المجمع العلمي الفرنسي:

لقد وقف هذا العالم نصف قرن تقريباً على دراسة أصل الإنسان واستطاع أن يؤكد أن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد، وهو يثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك يتشعب منه كل من الجنس البشري وجنس القردة الكبير لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم وأن هذه المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية للجزم بوجود أصل للإنسان والقرد.

وليس من المعقول أن الإنسان الحاضر ربما أنحط عن منزلته غضون ملايين السنين القادمة ليترك المجال لحيوان من الحيوانات ليحل محله ويسيطر على الكون. وهذا الافتراض مرفوض، لأن الإنسان لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة، بل إنما كان بمثابة الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك ظهر مركباً في أكمل تقويم.

٢- الدكتور رونالد جونسون أستاذ علم الأجناس البشرية:

إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩٩.٩٪ من الدقة أن الإنسان

سار منتصباً على قدمية منذ بداية تاريخه الإنساني منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة، أعلن هذا في مؤتمر صحفي - مارس ١٩٧٤ - وهو يمسك في يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عثر عليها في أواخر عام ١٩٧٣ في أثيوبيا. ويعتبر الآن واحدا من أعظم الاكتشافات في التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية، فقد ظهر الإنسان كائناً فريداً في نوعه وسط دنيا من الوحوش الكاسرة، وأن هذه العظام قد سدت الثغرة التي ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم - الحلقة المفقودة - وأن ما وصل إليه الدكتور رونالد جونسون كان خاتمة حفريات كثيرة تمت خلال سنوات ١٩٦٩ وما بعدها في كينيا ووادى أفار في الحبشة. ومن أهم ما تقرر أن الجماجم فريدة في نوعها تتميز بسعة الدماغ مما جعل العلماء يخرجون بانطباع عام وهو أن الإنسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت إنما كانت له سلالته الخاصة المستقلة. ويقول الدكتور (جونسون) إن المعلومات التي أمكن التوصل إليها عن طريق عظام الساق والفخذ في مجال تكوين الحوض والبناء العظمي العام تقرر بانتصاب الإنسان. وأقول إننا نملك أدلة واضحة وجلية على أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة.

٣- الدكتور بير بير سون الاخصائي في علم الوراثة في جامعة اكسفورد:

أكد أنه بالاستناد إلى المقارنات الطويلة التي أجراها بين عناصر الخلايا التي تحدد أصول الوراثة أن الإنسان لم ينحدر من القرد، وأنه لم تعد هناك حاجة تدعو لدراسة ظهور القرد وتطوره على سطح الأرض بغية التأكد من طبيعة الإنسان الحقيقية. فقد أصدر الدكتور بير بيرسون مع ثلاثة من زملائه قانوناً اشتهر باسم قانون القرد. حظروا فيه على المدارس والجامعات أن تدرس المذهب

الداروني – مذهب النشوء والارتقاء وذلك لبطلان النظرية التي كانت تقول إن الإنسان هو الحلقة الأخيرة من تطور انطلق من أول انواع القرود مرورا بالشمبانزي والقوريلا حتى الأوران أوتان التي تشبه الإنسان إلى حد كبير. وقد تبين أن فرضية الدكتور بيرسون قد أيدتها الاكتشافات الأخيرة في أفريقيا.

وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقريرات العلم الحقيقي – لا الفلسفة – متأكدين مما جاء به الدين الحق وجاء به الإسلام من أن الإنسان خلق مستقلا وأنه سيد المخلوقات وصدق الله العظيم:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

٤- في السنوات الأخيرة رويت تجربة العالم ليكي مدير المتحف الوطني في كينيا، الذي استمر في أعماله الحفرية لمدة تقارب ثمانية وعشرين عاما قبل أن يصل إلى اكتشافه الهام. وكان أول اكتشافه عام ١٩٥٩ حينما عثر على جمجمة وبقايا متحجرة في شمال كينيا لها صفات تختلف كثيراً عن صفات القرد، ولم يحرك هذا الاكتشاف ثائرة الأوساط العلمية المؤمنة بنظرية دارون.

ثم اكتشف بعد ذلك جمجمة لإنسان أسماه: هوموهابلس، أي الرجل اليدوي، وبين عامي ١٩٦٤/٦٠ اكتشف مجموعة من المخلوقات في جبل كينيا وهى تتميز بأصابع سبابة تشبه أصابع الإنسان، وحجم مخها أكبر.

فسر ليكي الاكتشاف بأنه فرع جديد من شجرة التطور الإنساني تختلف تماماً عن شجرة دارون، واستمر ليكي في أبحاثه حتى أصبح شوكة في جنب علماء الأنثروبولوجيا. فقد أكتشف في أحد جبال كينيا جمجمة وعظاما هزت الأوساط العلمية إذ بعد قياس عمرها الجيولوجي بواسطة أجهزة الإشعاع الذرية وجد أنها ترجع إلى مليون وستمائة ألف سنة تقريبا، وأهم ما يميزها هو حجم المخ فقد وجد أنه ٨٠٠ سنتيمتر أي ضعف حجم مخ القرد الجنوبي وتزيد عليه

مليون سنة.

هذا المخلوق يعتبر حلقة هامة من تاريخ تطور الجنس البشري مؤكدا أننا ننتمي إلى فصيلة أخرى غير فصلة القرد الشمبانزي وقد سمى الاكتشاف الجديد باسم الإنسان ١٤٧٠. من أهم ما يميزه: أن شكل الجمجمة والأسنان وعظام الساق تشير إشارة واضحة إلى شكله وكيفية سيره، لأن زاوية ارتباط العمود الفقري بقاع الجمجمة تؤكد أنه كان قادرا على المشي مثلك تماماً، ولم تكن له صفات الوحش المفترس، وذلك كله يثبت خطأ النظريات الاجتماعية التي بنيب على آراء دارون من أن الصفات العدائية في الإنسان ترجع إلى أجداده القردة.

٥- أذاع البروفيسور جوهانس هوددبر العالم الذري في سنميال بسويسرا بياناً في ١٠ مارس ١٩٥٦ عارض فيه نظرية دارون بشدة، وقال إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القرود، وأن التجارب الواسعة التي أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفردا وبعيداً جداً، كذلك أعلن الدكتور دونير المشرف على أبحاث جامعة كولومبيا، وأيده البروفيسور هوردلو (٣١ مارس ١٩٥٦) أن نظرية دارون هو رأي لا أساس ولا أصل علمي له، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً فمنها الإنسان الذي يمشي على رجليه ومنها الدواب التي تمشي على أربع ومنها الزواحف التي تمشي على بطنها وصدق الله العظيم:

﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء ﴾ .

لقد تآزر دليل العلم مع أدلة الدين الحق على تأكيد فساد نظرية دارون بشقيها، وعلى أنها أسطورة انهارت وصدقت الكشوف الأثرية رأى الدين في أن

الإنسان خلق من جنس مستقل.

أن ما أثبته العلم أخيرا لم يكن مفاجأة فإن علماء كثيرين متجردين أعلنوا أن الأنواع كلها ظهرت إلى عالم الوجود دفعة واحدة كاملة دون سابق إعداد أو خطوات متوسطة، فلم يكن هناك حاجة إلى سلسلة من الأجيال المتعاقبة أو الانتخاب الطبيعي أو تنازع البقاء، وقد قال بذلك كثيرون من قبل.

ولكن أنصار دارون وأنصار التطور كانوا كالكلاب الضارية يأكلون كل من يحاول أن يكتشف زيفهم في محاولة لئيمة تهدف إلى إفساد الفكر البشري كله وتسميم الأديم الإنساني كله بما وراء ذلك من غايات وأهداف.

لقد كانت جماعة دارون من الملاحدة والمعطلة يهدفون إلى تدمير الإنسان.

يقول (أودن لويس): إن المؤمن يرى كل تطور نتيجة فعل القوة الإلهية في الطبيعة لا نتيجة تطور ذاتي. وإن دارون خطر على الدين ، لأن مذهبه لا يعطي المقام اللازم للعزة الإلهية في تطور الكون، وإن فئات متعددة من الداروينيين معطلة، تقول بأن الله نفسه من خلق الإنسان، وإن أصل كل شئ كيس هلامي كان في الماء (فخت وهيجل وبختر وكليفرد) أما سبنسر وهكسلي وتندوايين وأتباعهم فيؤلفون فئة اللا أدرية التي لا تهتم بالقضية الدينية إطلاقاً لأنه في نظرها لا دخل لها في مسالة النشوء والارتقاء.

إن أول ما نطالب به رفع التناقض في البرامج الدراسية بين ما يتصل بالعقيدة الإسلامية وبين هذه النظريات الوافدة، ونحول دون أن يتمزق شبابنا بين عقيدة الدين وفرضيات العلم، وخاصة بعد أن سقطت نظرية دارون وانكشف فسادها.

ملاحق البحث:

– كشف عمره ٢،٥ مليون سنة يهز نظرية دارون عن التطور.

(الأهرام في ٨ نوفمبر سنة ١٩٧٢).

– تم اكتشاف بقايا عظام جمجمة إنسان من عظام بشرية وهذا الاكتشاف يقلب النظريات القائمة بشأن التطور ويدل على أن المخلوق الإنساني المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد كما تقول نظرية دارون.

مجلة الانكومست (مارس ١٩٧٣) عن جريدة الأخبار:

–إن المجلس التعليمي في ولاية كاليفورنيا الأمريكية قرر أن تشير جميع الكتب المدرسية الخاصة بالعلوم إلى نظرية الارتقاء الداروينية بأنها نظرية افتراضية وليست حقيقة وأن ما قيل عن أصول الحياة لا يعدو على أحسن تقدير أن يكون مجرد افتراض ذكي.

وأن هذا يعتبر انتصار للعلماء الذين قاموا بحملات ضد نظرية دارون منذ ٦٣ سنة.

ويعلق الدكتور عبد المنعم النمر على هذا فيقول: هذا الذي فعلته كاليفورنيا لم نفعله نحن المؤمنين بالله لا من أجل إيماننا بالقران والكتب السماوية الأخرى ولا من الأمانة العلمية بل إننا لا نزال مشدوهون للرأي الذي يقرر أن الإنسان هو والقردة تطوراً من أصل حيواني واحد يعارض مقتضى إيماننا بكتبنا المقدسة ونسير وراءه معصوبي العيون مغلقي العقول مدفوعين بروح التقليد الأعرج، دون أن نكلف أنفسنا حتى مجرد الإشارة إلى ما قاله القرآن والكتب المقدسة. ونلقن أولادنا نظريات لم تثبت ثبوتا علمياً بل اهتزت أمام العلماء وأمام الاكتشافات العملية على أنها حقائق، ونساعد بذلك الصهيونية من حيث ندري أو لا ندري على تحقيق أهدافها في تحطيم الأديان وزعزعة ثقة أولادنا في دينهم وفي كتبهم

المقدسة التي ذكرت في شئ من التفصيل قصة خلق آدم الإنسان الأول من تراب أو من طين، ثم سواه ربه، ونفخ فيه من روحه، وزوده بكل الطاقات والمواهب التي تهيئة للاستخلاف في الأرض لعمارتها، وخلقه على أحسن تقويم، وعلمه الأسماء، وأمر الملائكة بالسجود له، إلى غير ذلك مما ذكرته الآيات مما يتعارض مع ما يقوله علماء التطور من أن وجود الإنسان تم عن طريق التطور من الخلية الأولى كباقي الأحياء إلى أن وصل هذا التطور إلى فصيلة من الحيوانات العليا، تطور منها الإنسان والقردة العليا، مما لا يترك مجالاً في نظرنا لما قصه الله تبارك وتعالى عن كيفية خلق آدم الإنسان الأول.

* * *

(٧٩)
الســـاميـــة

فساد دعوى (الجنس السامي واللغة السامية)
وهى أخطر سموم الاستشراق اليهودي
أبعاد خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين
لحساب الصهيونية والتلمودية

لا تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التي قام بها الاستشراق المسيحي واليهودي، والتي لم تكتشف بعد أبعادها الواسعة. وفي كل يوم نجد خيطاً جديداً يضاف إلى سابقه، فتبدوا الصورة أشد خطراً مما كان متصوراً من قبل، ولا ريب أن المثقفين المسلمين في حاجة إلى متابعة الكشف عن هذه الخيوط والأبعاد، حتى يعرفوا ما يراد بهم، ومدى خطة الاحتواء، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التي أصبحت كالمسلمات، بينما هى من افتراءات الإسرائيليات الجديدة التي جددت الإسرائيليات القديمة.

ولكي يكون البحث علميا وقائما على أصوله الأصيلة فإنى أضع أمام الباحثين هذه المصادر لنبني عليها الحقائق التي وصلنا إليها:

١- تاريخ الجنس العربي للأستاذ محمد عزة دروزة.

٢- الإسرائيليات والغزو الفكري للدكتورة بنت الشاطئ.

٣- محمد رسول الله والذين معه للأستاذ عبد الحميد جودة السحار.

٤- مقدمة كتاب شمس الله على الغرب للدكتور فؤاد حسنين علي.

ومنطلق البحث أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية في العصر الحديث «المخطط متجدد ومبتعث عن «التوراة» التي كتبها حكماء اليهود إبان السبي البابلي و«التلمود» التي جاء بعد تدمير الرومان للقدس). هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التي عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ وفي خلال إعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التلمودية في داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية وإدخالها في مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الإرساليات في العالم الإسلامي.

وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربيين الذين احتوتهم الصهيونية: (شلوسر، بروكلمان، رينان، دوركايم، دوزي... الخ).

وذلك بالإضافة إلى الاستشراق اليهودي الصهيوني: (ماركليوث، جولدسيهر، برنارد لويس... الخ)

وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف:

أولاً: ابتكار فكرة «السامية» التي نسبت إليها كل أمجاد التاريخ العربي القديمة وسلبه من أصحابه الحقيقيين وخاصة إسماعيل بن إبراهيم وأبنائه وأحفاده، وأضافت هذا كله إلى مصدر غامض ليس له سند علمي ويستمد مصدره الأساسي من التوراه التي كتبها اليهود بأيديهم وليست التوارة الحقيقية المنزلة على موسى عليه السلام وذلك بهدف اشراك اليهود مع العرب في هذه الأمجاد، بينما لا يوجد لليهود أي اتصال بإنشاء هذه الحضارة.

ويستتبع هذا الخطر : ايجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذي حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه «تاريخ اللغات السامية» وقاموا بتدريسه في الجامعات وهم: إسرائيل ولفنسون، وشاخت، ثم الدكتور مراد كامل.

ثانياً: محاولة التشكيك في رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وإقامة ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بمكة. وهذا يبدو واضحاً من تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ومحاولة إثارة الشبهات فيها، وقد ردد الدكتور طه حسين هذا القول في كتابه «في الشعر الجاهلي».

ثالثاً: محاولة اعتبار التوراه مرجعاً للبحث العلمي مع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد أن التوراه الموجودة الآن كتبها اليهود. منها ما كتب أيام المملكة الإسرائيلية بنحو ثلاثة قرون.

رابعاً: محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود في الجزيرة العربية وفي الأدب العربي.

خامساً: محاولة إيجاد ترابط بين العرب واليهود والقول بأنهما أبناء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد للدعوة إلى إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

سادساً: إعلاء شأن إسحق على إسماعيل وهما أبناء إبراهيم عليه السلام، وأكبرهما إسماعيل الذي هاجر به وأمه إلى مكة والذي أقام معه القواعد من البيت الحرام، والذي امتحن بذبحه وجاءه الفداء من السماء.

والهدف هو إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه وقصر الوعد على أبناء اسحق تحت اسم اسطورة «شعب الله المختار».

هذه هي: أهم أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام و«العرب قبل الإسلام لحساب الصهيونية التلمودية: وقد جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم، واستكتاب عشرات الكتاب لبحوث متعددة منوعة تدور حول هذه الشبهات، لخلق أدلة مضللة لتثبتها في الأذهان.

وتكاد تكون فكرة «السامية» أخطر هذه الشبهات.

وهي عبارة عن مصطلح لم يرد مطلقاً في كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ، وقد استمد أساساً من نص من نصوص التوراه المكتوبة بأيدي الأحبار، وفي ظل تقسيم وهمي للأجناس البشرية مستمد من أسماء أبناء آدم أبي البشر: «سام وحام ويافث».

وقد برز هذا المعنى في ظل تقسيم مستحدث ظهر في أوربا إبان استعلاء نزعة العنصرية الأوربية التي قسمت العالم إلى ساميين وآريين، لتضع العرب والمسلمين في قائمة موازية للجنس الآري صانع الحضارة الذي وصف بكل أوصاف العبقرية والعظمة والاستعلاء على البشر، وخضوع الأجناس الأخرى إليه.

وكان هذا التنظير الذي ألبس ثوب العلم إنما يستهدف إعطاء الاستعمار «مبررا» علمياً لسيطرته على الأمم الملونة غير الآرية الأوربية.

غير أن المحاولة التي حاولت أن تضع عبارة «السامي» والسامية بديلاً

غير التجارة والربا، وتحتقر في كل مكان تنتقل إليها تلك الغرائز المنحطة بالوراثة المتتابعة مدة عشرين قرنا وأكثر فتتأصل فيها وتصير إلى ما صار إليه اليهود لا محالة».

ولقد كانت مؤامرة «السامية» هذه موضع نظر الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل، فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التي استهدفت اعتبارها منهجاً من مناهج الدراسة الجامعية وإعطاء شبهاتها صيغة المسلمات.

وقد جاء ذلك في الوقت الذي حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة إلى تجديد دراسة الأدب وفق المناهج الحديثة، والبحث في الشعر الجاهلي، فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية لم تكن لغة واحدة في الجزيرة العربية، وأن هناك لغة في الجنوب، ولغة في الشمال، وهى محاولة مضللة تستهدف التشكيك في وحدة اللغة العربية ، قبل الإسلام وإثارة الشبهات حول نموها واتجاهها إلى اتخاذ مكانها الذي أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الإسلام.

كذلك فإن الدكتور طه حسين قد هيأ لشاب يهودي استقدمه من فرنسا لإعداد دراستين: إحداهما عن اليهودية في جزيرة العرب، والأخرى عن تاريخ اللغات السامية ، ليحشد فيها كل تلك المخططات التي أعدتها الصهيونية لتزييف التاريخ الإسلامي، وقد قدمت إحدى هذه الدراسات على أنها أطروحة دكتوراه قدمها «إسرائيل ولفنسون» وكان ذلك مقدمة لتكون هذه السموم «مسلمات» تدرس في الجامعات المصرية والعربية ولا تزال.

وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تدخل نظريتها إلى قلب الفكر الإسلامي والأدب العربي لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذي عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم.

كذلك فقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول إقناع المسلمين والعرب

بأن لليهود فضلاً على أدبهم وتاريخهم وتراثهم، فهو يعرض لليهود واليهودية كلما عرض للغة العربية وأدبها.

ولقد عمل باكراً لتحقيق هذا الهدف حين أعلن بأن وجود إبراهيم وإسماعيل لا تثبته المصادر العلمية والتاريخية، وأنكر أن ورود أسمهما في القرآن يعد سنداً صحيحاً، ومن العجب أن تتخذ نظرية السامية هذا الاتساع والشهرة والاستمرار وهى تعتمد على نص من التوراة التي كتبتها أحبار اليهود ويقرها طه حسين على ذلك، ولكنه لا يقر القرآن على وجود إبراهيم وإسماعيل، والقرآن هو النص الموثق الذي نزل من السماء والذي لم يصبه أي تحريف.

كذلك فقد تحدث الدكتور طه عما أسماه أثر اليهود في الحياة العربية والأدب العربي (ومحاضراته متعددة في هذا الصدد، وأهمها محاضرته التي سجلتها له مجلة الجامعة المصرية في عددها الأول في سنتها الثالثة ١٩٢٥) والتي خلص منها إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود:

أولاً: أن اليهود أثروا في الأدب العربي تأثيرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود.

ثانيا: أن اليهود انتحلوا شعرا لإثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب.

وفي مقدمة كتاب إسرائيل ولفنسون (الذي يشرف الآن على البعوث الإسرائيلية في أفريقيا) يقول الدكتور طه حسين:

« ليس من شك أن المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز، وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود، وفي أنها قد استحالت من المحاجة والمحاورة إلى حرب بالسيف أنتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية»

ويعلن الدكتور طه حسين اغتباطه إلى أن إسرائيل ولفنسون: «قد وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل» ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ إن الدكتور فؤاد حسنين علي أكبر المتخصصين في مصر في اللغة العبرية وتاريخ اليهود يقول: إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف «مارتن بوبر» تدعو إلى نشرها، وما نقله (إسرائيل ولفنسون) في رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية. وأن هذه الرسالة - التي مازالت في أيدي المثقفين والباحثين - مشحونة بالأخطاء، وهي بعيدة عن المراجع العبرية التي اشير إليها، وأن الدكتور طه حسين لا يعرف العبرية وقد أخذ بالنتائج التي وصل إليها الباحث دون التحقق منها ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدرسات، والأمانة العلمية كانت تقتضي غير هذا. ذلك أن البحث العلمي يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة، كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادي الرخيص».

ولا ريب أن هذا مقتل من مقاتل طه حسين الكثيرة التي غابت عن صديقنا الدكتور محمد رجب البيومي.

وإلى قيمة تراث اليهود وصلته بالتراث الإسلامي يقول الدكتور فؤاد حسنين: «في مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا وفي بابل وأشور شريعة حمورابي وفيها الشئ الكثير من هذا التراث الذي نقله واضعو سفر التثنية.

ولما عاد اليهود من السبي نقلوا معهم عن العرب البابليين الشئ الكثير مما نجده المقدس، وعند المعنيين السبئيين العمارة وهندسة الري والتجارة. وقصة ملكة سبأ والدور الذي تلعبه في تاريخ الأسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد.

ويشير الدكتور (فؤاد حسنين) إلى آثار اليهودية والمسيحية والإسلام: وما استتبعه ذلك من تفتق العقل البشري فأنتج أدبا وشعراً ونثراً وقصصاً وفلسفة وحكما وأمثال. وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض ابنائها شعوب العالم القديم شرقيين وغربيين ، فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية ، وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التي جاءت بالمعجزات، فالعرب – لا اليونان أو اليهود – هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى أفضل حياة ممكنة من التحكم في مصائر الكون ، فأطلق العربي الأفكار من عقالها، وحررها من جمود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية، فظهرت طائفة القرآئين حيث أنكر هؤلاء التلمود وتعاليمه، كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور، وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الديني وبعث النهضة العلمية. وكما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التي أزالت الفوارق بين الشرق والغرب، كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملاً من عوامل التفرقة والتمييز العنصري والحط من القيم الإنسانية ولذلك نجح العربي في تحقيق ما عجز عنه اليوناني والفلسفة اليونانية.

ومذهب الإنسانية لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ولم تعرفه أوربا إلا في العصور الوسطى، وعلى يد العرب وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب في العصر الإسلامي، ويصل الدكتور فؤاد حسنين إلى القول بأن الحانقين على العرب والإسلام، والناسبين التراث العربي إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم، والعكس هو الصحيح والعرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود. والتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين، أو فزعا من اضطهاد اليونان والرومان، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلاً، فهذه القبائل اليهودية التي

كانت تنزل يثرب وخيبر ووادي القرى، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة تذوق اللغة العبرية وتجديدها، حتى أصبح من المألوف لدى اليهودي أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية، فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربي معجب بلغتة معنى بها نثراً وشعراً حريص على المحافظة عليها فصيحة نقية.

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين، كانوا يتكلمون لغة عربية، ويتأدبون بأدب عربي، ويتطبعون بطباع عربية، كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء، يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم، في لغة هي لغة أهل الحجاز، نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً، ولم يمض نصف قرن من الزمان على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق حتى أصبح في استطاعتهم التعبير بالعربية.

وقد حبب إلى اليهود ظاهرة المحافظة على عربية القرآن الكريم، فاقتفوا أثر العرب فيها فحاولوا الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً، وتأثر اليهود بالعرب أيضاً، فأوجدوا ما يعرف في الأدب العربي بالشعر العبري الحديث، فهذا الفن صورة من الشعر العربي وزنا وقافية، ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر، وكذلك الأمثال العربية، ولقد فتح العرب أمام اليهود دور العلم على مصاريعها، ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم ولذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعر، إذ انسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوربيين ما أنتهت إليه معرفتهم.

ويحدثنا التاريخ اليهودي أن الإسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطر النبي (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام واتباعه، وأقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى اله عنه) والإمام علي (كرم اللّٰه وجهه) الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي «جريتز» إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابة تاريخ اليهود فقال:

«إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية، وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي» وقال: « لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين وعوض اليهود المطرودين – وهذه هى العدالة – أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي عام ٦٤٠، حقاً رب ضار نافعة. إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها».

وإذا تركنا الخلال العربية الاجتماعية جانباً: هذه الخلال التي بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتي جعلتهم أهلاً ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية أدركنا الفرق الشاسع اجتماعياً وعقائدياً بين الملتين كذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلاً تفضل الالتجاء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل في قضايا الأحوال الشخصية. وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودي بالزوال، فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجاراة للشريعة الإسلامية، لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الأحكام التي لا تستند إلى نص قوي في الكتاب المقدس.

يقول الدكتور (حسنين): هذه بعض حسنات العرب على اليهود، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقياً ولا غربياً. والعرب

هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوي ورفعوا مستواهم الأدبي ، فمكنوهم من خلق ملكة أدبية .

ثالثاً: ليس أخيراً احتذي اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم، فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا في وضع نحو للغتهم صيانة لها من اللحن والضياع، هذه هي الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور (طه حسين) وتلميذه الدكتور (إسرائيل ولفنسون)».

ونقول: هذا هو سر الحقد الشديد الذي تبيته الصهيونية العالمية للعرب واللغة العربية، فتعمل على محو ذلك التاريخ الطويل ورفع اسم العرب عنه، ونسبته إلى رمز مضلل هو «السامية» فينقل ذلك التاريخ الزاخر من مصدره الأصيل إلى مصدر غامض يقوم من التوراه التي كتبها أحبار «اليهود» والتي لا ترقى إلى مستوى الحقائق الثابتة التي قدمها القرآن الكريم الذي لم يصبه أي تحريف.

إن الهدف هو طمس الرابطة بين الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله رسول الله في القرن السادس الميلادي وبين دعوة إبراهيم التي بدأت منذ عام ١٧٥٠ قبل الميلاد، ذلك أن إقامة إبراهيم ابنه إسماعيل في قلب الجزيرة العربية في مكة، وإسماعيل هو جد العرب وجد محمد صلى الله عليه وسلم وبناء البيت الحرام الكعبة، ودعوة الله سبحانه وتعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى اتباع ملة إبراهيم «وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا» كل هذا مما يريد اليهود والصهيونية طمسه وتزييفه، وقد أثبت الأحافير التي كشف عنها أخيراً أن إبراهيم عليه السلام كان يتكلم العربية، وأن لم تكن العربية التي نزل بها القرآن كانت أو التي نتكلمها اليوم، كما أثبتت الأحافير أن اللغة التي كانت مستعملة في اليمن والعراق والشام والحجاز لغة واحدة، وإن اختلفت لهجاتها كما تختلف لهجات الشعوب العربية في هذه الإيام. وقد استشهد عبد الحميد السحار الذي

أورد هذا في كتابه (محمد رسول الله والذين معه) بالآية الكريمة: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس».

وقد جاء في كتاب العلامة «البرايت» : عن أحافير فلسطين قوله: «تتقارب اللغات العربية القديمة عدا الأكادية في الأجرومية والنطق، بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية».

والملاحظ أن التوراه لم تورد ذكر ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز، وسكتت هذه المصادر سكوتا متعمداً عن علاقة إبراهيم بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة، بل وسكتت أيضاً عن ذكر هود وصالح من أبناء العرب، كأنما لم تكن عاد وثمود على مقربة من فلسطين. وقد حدد بطليموس في أطلسه موقع ثمود وعاد وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وعثر على بعض الخطوط الثمودية في ثمود وفي الطائف. وقد كان اليهود ينفسون على العرب أن صار لهم بيت محرم منذ أيام إبراهيم، بينما لم يصبح لهم هيكل في بيت المقدس إلا في إيام سليمان بن داود فكان هذا السكوت المتعمد.

وقد عمد اليهود إلى طمس حقيقة وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم فجعلوه قاصراً على إسحق، ولذلك تجاهلوا ابنه الاكبر إسماعيل، وحاولوا إخراجه وإخراج أبنائه من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه، وابتكروا الأكذوبة التي تقول أن بني إسرائيل وحدهم هم شعب الله المختار. يقول الأستاذ السحار: «حرم اليهود أبناء إسماعيل حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم من ربه، وأرادوا أن يسلبوا إسماعيل كل فضل فزعموا أن الذبيح هو إسحق، مع أن التقاليد تقضي بتقديم الابن الأكبر قرباناً لله».

ولا ريب أن إنكار إسماعيل وأبنائه يحرف تاريخ العرب قبل الإسلام تحريفاً شديداً، فإن أبناء إسماعيل الأثنى عشر قد انبثوا في هذه المنطقة.

وقد أعلنت الواح الطين التي كتبت بالخط المسماري والتي وجدت في أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بني إسماعيل كانوا حقيقة واقعة، وأن أبناءه الأثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوئ بابل وأشور ومصر والإغريق والرومان.

والواقع أن تاريخ هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم عليه السلام (١٧٥٠ قبل الميلاد) هو تاريخ العرب الذين كانت تطلقهم الجزيرة العربية في موجات مهاجرة امتدت من حدود الفرات إلى المغرب، وشملت هذه المنطقة كلها، وإن فكرة السامية الزائفة لم تكن شيئا معروفاً أو مقرراً، ولاتوجد أي إشارة إليها في أي كتاب أو الحفريات أو الأسانيد المكتوبة على الأعمدة أو الآثار القديمة.

يقول العلامة (محمد عزة دروزه) : «لقد أصبح أمر انسياح الموجات من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة، وكون الكلد والاشور والاكاديين في العراق والكنعا والعمور والآراميين والعبرانيين في جزيرة الفرات وبلاد الشام ومعظم سكان وادي النيل شماله وجنوبه ومعظم سكان أثيوبيا والصومال من هؤلاء المنساحين في القرون التاريخية من الحقائق التي لا تحتمل جدلاً، ولا سيما أن جزيرة العرب ظلت ترسل بموجاتها إلى هذه الأقطار بدون انقطاع قبل دور العروبة الصريحة، أي قبل أن تغدو اللغة العربية الصريحة لغة العرب واسم العرب اسماً لهم، ثم في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام، ثم منذ الإسلام إلى اليوم مما سجلت أحداثه القديمة نقوش المصريين والأشوريين والكلدان، وكتب اليونان والرومان القديمة، وما قرره علماء الآثار والتاريخ».

ومن خلال بحثه الواسع نصل إلى الحقائق الآتية:

أولاً: أن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصريحة في كتب اليونان

والرومان وأسفار العهد القديم منذ (ألفين وخمسمائة سنة)، واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستعربين في داخلها وتخومها الشمالية جزئياً ثم كلياً منذ ألفين وخمسمائة سنة، كذلك بل قبل ذلك مما يدل عليه النقوش والمدونات القديمة واللغة العربية التي تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منذ ألفين وخمسمائة سنة، كذلك هى اللغة العربية الصريحة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها وبعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغة الفصحى، على ما تدل عليه آثار وأسماء ونقوش السبئيين والحجريين والنبطيين والتدمريين واللحيايين والثموديين والصفويين العائدة إلى الحقبة الممتدة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس بعده، وقد ساعدت عوامل متنوعة على سرعة تطورها بعد ذلك حتى بلغت ذروتها باللغة الفصحى قبل البعثة المحمدية بأمد ما.

ثانياً: أن هناك نصوصاً قاطعة بأن اللغة العربية هى اللسان الأول: وهى لسان آدم عليه السلام إلا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها فظهرت منها السريانية ثم سائر اللغات: وفي المزهر (جـ ١ / ٢٠) : أن اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة كان عربياً إلى أن بعد العهد وطال فحرف وصار سريانيا وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف.

وقد ثبتت القرابة بين العربية والسريانية، فقال المسعودي في كتابه التنبيه (ص٦٨): وإنما تختلف لغات هذه الشعوب (أي شعوب الجزيرة العربية) عن السريانيين اختلافاً يسيراً. وأكد المرحوم أحمد كمال باشا في قاموسه الذي أعده للمقارنة بين اللغة الفرعونية واللغة العربية أن ثلاثة أرباعها تمت إلى العربية بصلة.

ويقول الأستاذ دروزة: إن علماء العربية أخذوا نظريتهم في القرابة بين العربية والسريانية من أهل الكتاب، فقد كانت السريانية هى لغة الثقافة والمثقفين

ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد.

ثالثاً: مما وجد في الحفريات ما كتب على قبر امرئ القيس (٣٢٨ بعد الميلاد) عبارة: (ملك العرب كلهم) مما يسوغ أن كلمة العرب كانت معروفة في ذلك الوقت وتطلق على العرب الصرحاء، وأن التسمية العربية كانت تطلق أولاً على بعض أجزاء من الجزيرة وتخومها وقبائلها وملوكها قبل ذلك بعدة قرون.

وترجع كلمات (ارابا وعربانا، وعرابا وعريبي) إلى مدونات قديمة في القرن التاسع قبل الميلاد المسيحي، وإن أقدم أثر عربي هو أثر الملك الأشوري (٨٦٠ - ٨٢٥) قبل الميلاد.

وقد أضاف إلى هذا الأستاذ (عبد الحميد السحار) : أن الحفريات أكدت: أن حضارة بابل عربية، وحضارة العموريين عربية، وحضارة الكنعانيين عربية وحضارة سيناء عربية وحضارة ثمود عربية، وقد اكتشفت هذه الحضارات وعرف أنها حضارات عربية خالصة، ولكن بعض العلماء أرادوا أن ينسبوها إلى جد أعلى حتى لا يلقوا أضواء على مجد أقوام نافسوا بني إسرائيل منذ أيام خليل الرحمن إبراهيم، فأطلق العالم سلوتيسر اسم (السامية) نسبة إلى سام بن نوح، وصادف ذلك هوى في نفوس الآخرين، فأخذوا يتحدثون عن الأقوام السامية والحضارات السامية ويتبعهم الكتاب العرب.

والمعروف أن سيدنا إبراهيم قد أقام القواعد من البيت وابنه إسماعيل عام ١٧٠٠ قبل الميلاد وتلك هى أولى خطوات هذه الأمة الحقيقية ومن ثم فإن أصلح اسم لها هو «العروبة الحنيفية» هذه الأمة التي امتدت حتى جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) فأكمل لها الدين.

ونصل من هذا كله إلى عدة حقائق:

أولاً:- أن اليهود لم يكن لهم دور صريح أو وضع صريح أو أثر صريح في أي نهضة من نهضات هذا التاريخ الطويل، وأنهم زيفوا تاريخهم وتاريخ العرب وعمدوا إلى حجب إسماعيل حتى يقصروا الوعد على أبناء اسحق.

ثانياً:- أن هذه الجزيرة العربية منذ بعثة إبراهيم عليه السلام ونشأة إسماعيل عليه السلام وبناء الكعبة وهى عربية، واللغة العربية لغة الموجات المهاجرة المتصلة التي شملت البلاد من بعد، والتي كانت قبل الإسلام عربية وموحدة لأنها كانت تعرف دين إبراهيم (الحنيفية).

ثالثاً:- أن أحقاد الصهيونية العالمية هى التي حرضت المستشرقين وكتاب الغرب على تغيير هذا التاريخ وإنكاره واصطناع اسم آخر أقدم منه، ولا صلة له بهذا التاريخ فضلاً عن أن مصدره ليس سليماً من عند الله.

رابعاً:- استهدف اليهود أن يجمعوا بين العرب واليهود في كيان تاريخي زائف، كما أن يجمعوا بين العبرية والعربية في ترابط وهمي غير صحيح محرفين بذلك حقائق التاريخ الأصلية.

خامساً:- أن كلمة (السامية هو تعبير اصطنعه اليهود ليحصلوا من عمومه دورا لهم أكثر وضوحاً من دور العرب أصحاب الشأن الحقيقي، وأن يجعلوا منه تكأة لمعارضة خصومهم باسم معاداة السامية.

سادساً:- أن السامية إحدى شبهات الاستشراق اليهودي والغزو الفكري، وتجديد دعاوى «الإسرائيليات القديمة».

* * *

(٨٠)
الفلسفة المادية

إن أخطر ما يحاول دعاة التغريب والماديون وأصحاب الفلسفات أن يقولوا: أنهم إنما يصدرون فيّما يقولون به من نظريات وأيدلوجيات ومذاهب عن أساس علمي لا يقبل النقض، ونحن نعلم أن هناك فارقاً بعيداً جداً بين العلم وبين الفلسفة، وبين معطيات العلم التجريبي القائمة على البحث والتجربة على النحو الذي يتم داخل المعامل وبين الفرضيات التي لم تؤكدها التجربة بعد، أو التي قال بها العلم في مرحلة ما ثم جاءت تجارب أخرى غيرت هذه المسلمات وتخطتها، ذلك أن الخطأ والخلط إنما يجئ نتيجة تبني الفلسفات لبعض مؤثرات العلم أو نظرياته ونقلها من مجال العلم التجريبي، أو من مجال الدراسات البيولوجية ودراسات الطبيعة إلى مجال المفاهيم الإنسانية وقضايا النفس والإجتماع والأخلاق. بينما لا تصلح أساليب العلم التجريبي في التطبيق على شئون الإنسانيات من نفس واجتماع وأخلاق ، هذه التي يجب أن تدرس وفق منهج غير مناهج العلوم المادية.

إذا اتضح هذا المعنى أمكن النظر في سهولة ويسر إلى ذلك الحشد المتعدد من المصطلحات والمفاهيم التي تختلط بين العلم وبين الفلسفة، أما في مجال العلم فهى تدرس دراسة خالصة، وأما في مجال الفلسفة فإنها تخضع لكثير من الأهواء والدوافع.

وقد ظهرت نظريات متعددة في مجال العلم البيولوجي ثم لم تلبث أن نقلت إلى مجال العلوم الاجتماعية كحقائق مسلمة، ومن ذلك مفهوم التطور ومفهوم تنازع البقاء، وقد تبين من أن تقبل هذه الفرضيات ليس سليماً على إطلاقه، وأن تطبيقه في المجال الاجتماعي ليس صحيحاً دائماً

ومن العجب أن النظرية المادية قامت من بعدها النظرية الماركسية على فرضية

كشفت أبحاث العلم من بعد خطأها، قامت النظرية المادية وكذلك الماركسية على أساس القول بأن الحياة كلها من عقلية ونفسية وسلوكية صادرة من مادة عضوية، وهذه الفرضية لا تعد الآن من الحقائق العلمية، ومعنى هذا أن اساس الفلسفة المادية والنظرية الماركسية قد انهار من الأساس. كذلك فإن القول بالتطور المطلق الذي جعله هربرتسبنسر مفهوما اجتماعياً قد سقط نتيجة لمفهوم آخر أصلح منه، هو مفهوم الثوابت والمتغيرات كذلك فإن فكرة الجوهر الفرد التي قامت عليها الفلسفات سقطت بنظرية النسبية، وظهور مفهوم الطاقة التي تتحول إلى المادة، والمادة التي تتحول إلى طاقة، كذلك فإن نظرية النسبية نقلت إلى المجال الاجتماعي القول بنسبية الأخلاق، وارتباط القيم الأخلاقية بالمجتمعات والعصور، وهذه النظرية وجدت معارضة شديدة لأنها تخالف الفطرة وطبائع الأشياء. كذلك فإن نظرية الجبرية التي حاولت بعض المذاهب تطبيقها على التاريخ والحضارات والمجتمع قد تبين فسادها، لأنها تلغي التزام الأفراد ومسئوليتهم، وتلغي إرادتهم، بينما التاريخ كله من عمل الأفراد.

وكذلك تبين خطأ القول بتنازع البقاء وتبين أن تعاون الكائنات أظهر وأقوى وأكبر أثراً من تنازعها. وأن تنازع البقاء إنما ظهرت نتيجة ملاحظة محدودة لمجتمع محدود.

ويرجع هذا كله إلى منطلق الفكر الغربي أو الفلسفة الغربية الذي يقصر النظرة على المادة وحدها بينما ينطلق الفكر الإسلامي إلى آفاق أرحب وإلى نظرة لها لا أبعاد أكثر وضوحاً وقوة.

فالفكر الإسلامي يؤمن بأن الثبات والتغير من القوانين الطبيعية في حياة البشرية والإنسان وفي الكون نفسه. وأن هناك أفلاكاً ثابتة وكواكب مرصودة. وأن لكل شئ إطاراً لا يتغير وإنما تتغير الحركة في داخله.

فالإنسان في صورة خلقه وفي حياته يتحرك داخل إطار محدود منذ الولادة

إلى الوفاة، وقد تتغير الأساليب والملابس والوسائل ولكن تبقى القواعد الأساسية ثابتة، النوم واليقظة، والسكون والحركة، والطعام والشراب، هناك قيم ثابته ولكن أساليب العمل بها تتغير وتتطور من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة حسب الظروف والحاجات.

والإنسان يتغير دائما من حيث الحركة، ولكن له إطاره الثابت من حيث أصول الحياة والفكر وأصول البقاء.

وكذلك فإن الإنسان يتحرك في الحياة في إطار من القيم والتعاليم والضوابط والحدود. ويخضع لقوانين الأخلاق والتعامل معه مع مسيرة المجتمع كله، أخذاً وعطاءً، وحيث تنتهي حريته عندما تبدأ حرية الآخرين.

ومن هنا فإن مفهوم الإسلام يقوم على أساس ثبات القيم الأخلاقية والآداب الإنسانية التي هى من أصول ثبات الطبيعة البشرية، فيما عدا ذلك فإن هناك تغيراً وتبديلاً وتطوراً دونما انقطاع، هذه القيم الثابتة من الدين والأخلاق والحدود والضوابط هي التي تقي المجتمع الإنساني من الفناء والهلاك، وهى القانون الثابت القائم مع تغير العناصر المختلفة في المجتمع.

وهكذا نجد ثوابت الكون في الطبيعة وثوابت الأخلاق في الإنسان ومتغيرات الكون ومتغيرات الإنسان، وكأنما نظام السلوك الإنساني مطابق لواقع النظام الكوني.

وثبات السنن الإلهية في الكون والإنسان هو إطار حركة المتغيرات، ولقد كان الفكر الغربي في مرحلته اليونانية يؤمن بالثبات المطلق، ثم جاء هيجل فنقله إلى التطور المطلق. وكلاهما صدر عن نقص في النظرة وعجز عن استقصاء الأبعاد المختلفة التي جاء الدين الحق ليكشف عنها للإنسان وليدله عليها وليجعل فكره أكثر رقيا وأعمق فهماً.

ومن هنا فإن الفكر الغربي هو فكر انشطاري يمر اليوم بمرحلة التطور المطلق الذي لا يتوقف عند حد والذي يجري في غير إطار من الثوابت ومن ثم يتعرض لكثير من المعاطب والأخطار.

أما الفكر الإسلامي فهو فكر متكامل جامع، يربط بين القيم في توازن دقيق وتناسق معجز، فالحياة يقابلها الموت، والفقر يقابله الغنى،، والجبن يقابله الشجاعة، والروح يقابلها المادة، والكون كله ثنائيات متلاقية فيه، ليس فيه واحد لا ثنائية له ولا تعدد إلا الله تبارك وتعالى، ومن شأن هذا الفهم أن يعالج أزمة الفكر الغربي التي تقوم على الصراع والتناقضات، ذلك أن المفهوم الكامل من شأنه أن يقضي على المتناقضات ويذيب الصراعات.

فليس وجود الأضداد دليلاً على خصومتها تعارضها ولكنه سبيل إلى تكاملها والتقائها فالضد يولد من الضد ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. ذلك أن النور يكشف الظلام والحق ينسف الباطل.

أما الفكر الغربي الذي آثر فكرة التطور المطلق وحجب فكرة الأطر الثابتة فقد عجز عن فهم هذا الالتقاء وعده صراعاً، وتناقضات.

أما الإسلام فقد وفق بين المتناقضات في إطار التكامل وعلى قاعدة التوازن، وليس في هذا ما يوصف بأنه أزدواجية، بل هو التكامل الذي يوفق بين الأضداد والمتناقضات ويسلكها في طريق الحركة الطبيعية.

ولقد يعجز الفكر الغربي عن فهم التكامل والالتقاء، بينما هو طبيعة للفكر الإسلامي الذي يقوم على التكامل بين الزمني والروحي، والمطلق والنسبي، واللانهائي والمحدود.

ومن هنا يمكن القول بلغة الفلاسفة إن الإسلام يجمع بين المنطلق الشكلي والمنطلق الجدلي، بين منطلق أرسطو القائل بثبات الموجودات ومنطلق هيجل القائل

بتغير الموجودات الدائم. وبذلك يقيم قانون «الثوابت والمتغيرات» فالإسلام يجمع بين الأصول العقائدية الثابتة وبين الاجتهاد في الفروع والتفاصيل والتطبيقات (وهو ما نسميه التطور) ويقول بتغير الأحكام النوعية مع تغير الأزمنة والأمكنة، وهو ما يسميه الفقهاء اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان، ذلك أن الإسلام منهج إلهي من حيث الأصول، ووضعي بشرى من حيث التطبيق والتفاصيل، أصول إلهية على أساس التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، فهو لا يستحق الفرد لصالح الجماعة، ولا يسحق الجماعة لصالح الفرد فإذا استحال التوفيق اختار الإسلام لمصلحة الفرد الجماعية، وهذا هو التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة. ومعنى هذا أنه لا انفصال بين ما هو مادي وما هو روحي في الإسلام، ومنهج الإسلام أصول إلهية وتفسيرات بشرية وعن طريق هذا المفهوم لا يجد المسلم ذلك القلق الفلسفي الواسع الذي يشغل الباحثين حول: التناقض والصراع والجبرية وتنازع البقاء.

* * *

فساد نظرية الجبرية:

إلى أي حد يمكن أن يصل بالحضارة الغربية وبالفكر الغربي ذلك التصور الذي يجتاح العصر كله ويحاول أن يلقي بظله على الفكر الإسلامي ويجد من المثقفين العرب من يتبناه ويردده ، هذا الفهم الخطير للجبرية والحتمية الذي يستمد منطلقه من الفلسفة المادية والذي يذهب بعيداً ليكون عاملاً خطيراً في تصرف الإنسان وسلوكه، وما هي صلة ذلك كله بنظرية الخطيئة الأولى في الفكر الغربي المسيحي، وعلاقته بالوجودية وبالأدب وبالأخلاق.

لنستعرض هذا النص الذي يمثل وجهة نظر عامة الآن بين كتاب الغرب لنرى معه إلى أي حد نستطيع أن نفهم الموقف: النص: للكاتب الغربي الأمريكي «ماكسين جرين» يرى الإنسان الحديث أنه وليد قوى اجتماعية واقتصادية وبيولوجية تحدد دوره في الأرض، دون أن يشعر هو نفسه على الأطلاق. إن فقدان الإنسان لكرامته واعتزازه بنفسه يرجع إلى التقدم العلمي الضخم في القرن التاسع عشر إلى أمثال دارون وهكسلي وماركس الذين أظهروا الإنسان فريسة لقوى ضخمة مظلمة لا سلطان له عليها، وهكذا وجد التفكير الجبري، وظهر هذا التفكير في الأدب في أعمال أصحاب المذهب الطبيعي في كل بلد، هؤلاء الذين احلوا محل الأبطال الشاعرين بذواتهم مخلوقات سلبية مطاوعة أنتجها قوى الوراثة والبيئة لا صلة لهم بها بل لا وعي لهم بها، وقد اختفت بطولة الإنسان بفضل المذهب الطبيعي» هذا النص يتحدث عن «جبرية القوانين الطبيعية» وخضوع الإنسان لها: هذه تريد أن تفرض وجودها على الفكر الغربي كله ليس الفكر الماركسي وحده ولكن الليبرالي أيضاً فقد تغيرت الجذور القديمة التي كانت تستمد من الفلسفات المثالية وغيرها رؤية تتمثل فيها إرادة الإنسان، وساد الفكر الغربي اليوم وغرها قتام كامل ترتبط فيه كل المذاهب بهذه الجبرية والحتمية. سواء في دراسات علماء النفس أو علماء الاقتصاد، أو علماء الاجتماع، أو علماء التاريخ أو في مذاهب الأدب والفن والشعر والمسرح والقصة.... الخ.

هذا التحول الخطير أساسه المذهب المادي الذي يعد الآن بمثابة القاعدة الأساسية للاتجاهين المختلفين في الفكر الغربي: ليبرالي وماركسي، فردي واجتماعي، أدبي وعلمي. وهذا هو أبرز وجوه الخلاف اليوم بين الفكر الإسلامي وبين هذا الفكر جملة.

فإذا ذهبنا نستقصي المصدر الأول لفكرة الحتمية أو الجبرية وجدناها في تلك القوانين التي اكتشفها الإنسان للكون عن طريق العلم الحديث، دون معرفة مصدر

هذه القوانين، والاعتقاد بأنها قوانين طبيعية حيث تدبر الطبيعة نفسها فهى لا تتخلف. وفي هذا الاعتقاد خطأ أكبر وخطأ أصغر. أما الخطأ الأكبر فإنه من المستحيل أن تدير الطبيعة نفسها بمثل هذه الدقة، لأنها لم تخلق نفسها ولابد لها من خالق أساساً، ثم هو نفسه تبارك وتعالى الذي يديرها لحظة بعد الأخرى. ومن هنا فإن هذه القوانين مخلوقة لله تعالى وهو القادر على إبطالها. غياب هذا الفهم عند الفكر المادي جعل النظرية قائمة على شق واحد منها هو حتمية هذه القوانين، وإغفال الجانب الهام منها وهو صانعها ومديرها والقادر على إبطالها.

ومن هنا يصور العلماء الحتمية بأنها: هى خضوع الأشياء لمبدأ التغيير للقوانين الضرورية، وهذا يعني أن الأحداث تترابط فيما بينها وفق قوانين موضوعية، ومن هنا فإن الحتمية هى إنكارها المصادفة والاحتمال وحرية الإرادة وأخطر ما في الحتمية هى إنكارها حرية الإرادة، ذلك أن الحتمية لا تتفق مع إرادة التغيير ومن هنا فإنها تعطل هذا الجانب الهام الذي هو مصدر أصيل في إنشاء التاريخ، وتلغى دور الإنسان في التغيير.

وهى في هذا تخالف الإسلام من جانبين: من جانب عجزها عن فهم قدرة الله المطلقة وقدرته على خرق القوانين وتغيير الواقع، وقصورها عن فهم إرادة الإنسان التي منحها الله أياه، داخل الإرادة العليا للكون كله.

والفارق يسير جداً فهو في نظر المسلم أن العوامل الظاهر للحدث أو القانون... ليست هى وحدها العوامل الحقيقية، وأن هناك عوامل أخرى تختفي وهى من إرادة الله تعالى ومشيئته التي هى أكبر من الأسباب نفسها، والقادر على تعطيل الأسباب أو إمضاء الأسباب من غير أن تحقق النتائج المترتبةعليها. ونحن نطلق خطأ على هذا الجانب المجهول من قدرة الله والذي لا يخضع للقوانين الظاهرة: المصادفات والاحتمالات والظواهر غير المنظورة تقريباً للأمور والواقع على أن الحتمية تقوم على نظرية مادية خالصة.

أما الإنسان فله دوره وإرادته الذاتية التي تحقق له التصرف الذي به يكون مسئولا عن عمله، في دائرة صغيرة ولكنها بعيدة الأثر في إحداث التغيير.

«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

والفرد يستطيع أن يمارس إرادته في تغيير الواقع والمجتمع بقدر استفادته من قوانين الحركة.

والإنسان له إرادة فاعلة وهي جزء من إرادة الله يتميز بها عن الحيوان، وهو يتحرك في دائرة خاصة ويكون مسئولاً في حدودها، ولكنها لا تمثل إلا شطراً يسيراً من إرادة الله الكبرى التي تخلق التأثيرات العامة للمجتمعات والأكوان أما الحتمية فهي لا تتفق مع إرادة التغيير، لأن الحتمية تفترض أنه لا إرادة من جانب الإنسان، وهي بذلك تعد الإنسان متفرجاً إزاء حركة التاريخ يرى ما يحدث له وللمجتمع دون أن يشارك فيه، وهذا القول مخالف للواقع ولطبائع الأشياء.

ومن هنا فإن القول الذي يردده جبريو التاريخ كماركس والذي يقول إن التاريخ محكوم المسار في مستقبله فهو غير صحيح وكل النبوءات التي قدمها ماركس في هذا الصدد قد تبين كذبها ولم تتحقق - جميعاً - وما وقع في المستقبل بعد تنبؤات ماركس كان مخالفاً تماماً لما قرره بناء على حتمية التاريخ أو جبرية في حدود النظرية التي قدمها، ذلك لأن ماركس ليس إلا بشراً يعجز عن الإحاطة، ونظريته ليست إلا شطيرة ترتبط بعنصر واحد من عناصر التأثير وهي الاقتصاد، وتقوم في مرحلة زمنية محدودة وبيئة لها طابع خاص ومن هنا فقد عجز وعجزت عن تفسير المستقبل فضلاً عن إخفاق كاركس في تحليل التاريخ القديم.

ولا ريب أن النموذج البشري الذي تقوم عليه فكرة الجبرية هو نموذج إنسان سلبي خامل كسول، مستسلم للواقع، متنازل عن حقه الطبيعي في الاختيار،

مؤثر للأمان والجبن وعدم المجازفة، وبذلك يفترض في هذا الإنسان أنه تطبيق للحتمية المادية الخادعة الكاذبة.

والمسلم لا يقر هذا المفهوم، السلبي، ويؤمن بالإرادة، وبالقدرة على الاختيار والحركة لتغيير الواقع، ويجعل من إرادته البشرية قوة قادرة على حكم الغرائز وقيادتها والسيطرة عليها.

وهذا هو السر في دعوة الإسلام الملحة لبناء الإرادة.

وكذلك الأمم فإنها حين تخضع للجبرية تموت، لأنها تستسلم وتداس بالأقدام ، أقدام الغزاة والغاصبين، والإرادة والاختيار هما عاملا التغيير في الفرد وفي الجماعات والأمم، وبقوانين هذه الإرادة تقوم الأمم وتتجدد، ولا ريب أن التقدم مرتبط بتنمية إرادة التغيير، فإذا فقدت الأمة هذه الإرادة، استسلمت للجبرية التي هى الانحطاط.

ولا ريب أن تفشي هذا المفهوم في الفكر الغربي في هذه المرحلة من إنهيار الحضارة هو علامة على مرحلة سقوطها الذي تنبأ به كثير من الباحثين، والذي هو سمة كل الحضارات والأمم التي تستسلم للجبرية الممثلة في الترف والانحلال والفساد والإباحية.

وكما يرفض الإسلام الجبرية التي تجعل الإنسان متفرجاً على التاريخ، كذلك فإن العلم يرفض الجبرية ولا يراها حقيقة أساسية. وكل ما يقال عن أن الجبرية الحتمية هى علم فهو من قبيل الخداع: فالعلم لا علاقة له بهذه الأبحاث التي هى شأن الفلسفة وإنما هم أطلقوا عليها كلمة فلسفة العلم، لأنهم حاولوا أن يستمدوا مفهوم المادية من بعض نظريات العلم التي كانت في القرن التاسع عشر تقول بانبثاق هذا الكون بدون صانع، وقد سقطت هذه النظرية التي قامت على أساسها مذاهب سياسية واجتماعية كثيرة كالماركسية والوجودية والبرجماتية مثلاً. ولقد تقدم العلم الآن تقدما عجيباً وألغى كثيراً من النظريات العلمية التي لم تكن في

واقع الأمر إلا «فرضاً» لتغطية الجوانب الناقصة في عملية البحث، غير أن التجربة المستمرة كشفت عن أشياء جديدة جعلت كل ما يقال من قبل فاسداً وخاصة فيما يتعلق بالطاقة والمادة، فقد أثبت العلم أن الطاقة تتحول إلى مادة وأن المادة تحول إلى طاقة وبذلك انهدم أساس الفكر المادي وتحطم كثير من القواعد التي تقوم عليها الفلسفات المادية.

ولكن دعاة هذه المذاهب إنما يهدفون إلى هدم المجتمع البشري بإحلال روح الفساد فيه وإسقاط الإرادة ووضع مسئولية الخطأ والانحراف على المجتمعات، وإعلاء شأن المفهوم الجمعي للقضاء على الفردية التي هى مناط المسئولية والجزاء في الدين الحق، وذلك من شأنه أن يدفع إلى مزيد من غلبة الشهوات، وتبرير الفساد وسقوط المجتمعات وهو ما تهدف إليه اليهودية التلمودية فيما أشارت إليه في بروتوكولات صهيون.

وعندما تراجع أصول الجبرية في الفكر الإسلامي نجد أن مصدرها يهودي فهو مما قال به الذين حملوا سموم الفكر البشري القديم والفرنسيون يقولون إن الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار ولا تأثير ولا جزءاً جزء كسبياً ولذا لا يرونه جديراً بالمدح ولا بالذم، أما اليهود الفروشيم فقد بالغوا بالاختيار ورأوا الإنسان قادراً على مطلق عمل دون أمر الله ونهية. وكلا الأمرين الجبر المطلق والاختيار المطلق لا يقرهما الإسلام. وفي الفلسفات الهندية والصينية والفارسية جبرية واضحة إذ أن البرهمية والبوذية والمزدكية تبرزه، كذلك الفلسفة اليونانية فإن حرب طروادة قد حملت سواد الناس على التسليم المطلق بالجبر، وكذلك فلسفات التقمص والتناسخ كلها مفضية إلى الجبرية.

وكذلك تحمل فكرة وحدة الوجود معنى الجبر فهى تلغي الإرادة والمسئولية الفردية، وصدق في هذا قول القائل: « إن الاختيار المطلق يكلف الإنسان فوق الطاقة والجبر المطلق محو للتكليف وهدم للشريعة وإبطال لحكم العقل وإنكار للواقع ».

والإســـلام لا جبر فيه ولقد بادى القرآن بالتخيير: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأخذ الرسول بيد طلاب الهداية لربهم ودعا الإسلام إلى الإرادة: والصبر وعزائم الأمور، ودعا إلى تغيير الواقع الفاسد، ودعا إلى الهجرة في الأرض حتى لا يظلم الإنسان نفسه بالبقاء في الواقع السلبي.

ولقـد أقـام الإسـلام الاختيـار ونـادى بـه القـرآن« فمن اهتـدى فإنمـا يهتـدي لنفسـه».

وقال شيـخ الإسـلام (ابن تيمية) : «أن للعبد قدرة ومشيئة وعملا فهو مختار مريد. والجبريون هم المعطلون للتكاليف الشرعية المسفهون للخطابات الإلهية. وقال النابلسي إنهم زنادقة هذه الأمة ».

ولقد فتح الإسـلام الباب واسعاً أمام الذين ينحرفون إلى الجبر مع قدرتهم على الحرية والاختيار وفتح لهم باب العودة إلى الإرادة الصحيحة.

و (رســل اللـّه) و (دعاة الحق) في كل جيل وعصر لم يأمروا بالانحراف، ودعوا إلى الإرادة والاختيار التي تنشأ عنها المسئولية والجزاء، ولكن المنحرفين من أصحاب الفكر البشري هم الذين زينوا للناس الحلول والإشراق والتجسد وغيرها من المفاهيم الباطلة المبطلة التي تدعوا إلى الجبرية ثم جاء الفكر الفلسفي المادي المعاصر فاحتوى كل هذه العناصر وأعاد صياغتها من جديد.

ومن عجب أن العلم بالتجارب العديدة لم يعد يعبر نظرية الحتمية: التي كان يقوم عليها كيانه فأصبح حيـن تتوافر الشـروط والأسـباب يحكـم وقـوع النتائج وذلك لأنه وجد عشرات من الأشياء لا تخضع لهذا القانون ، ومن ثم فإن العلماء الآن يقررون أن الحتمية في العلم غير ضرورية وأن القانون الذي يحكم العلم هو قانون الاحتمالات، وبذلك انفسح لهم المجال للإيمان بقوة عليا تسير العالم خارج نفسه.

لكن رجال الفلسفة المادية، وهم اليهود التلموديون أصحاب بروتوكلات صهيون إنما يريدون أن يتجاهلوا حقائق الفطرة وآراء العلم وطبيعة الدين الحق، ليفرضوا على البشرية نظرية زائفة يرادبها تدمير المجتمعات: تلك الجبرية والحتمية.

ولقد صدق القائل: « إن الإنسان لا تجوز عليه الحتمية لأن الناس ليسوا كرات بليارد تتحرك بحتمية قوانين فزيائية، ولكنها مجموعة إرادات حرة، تدخل في علاقات متعددة يستحيل فيها التنبؤ القائم على قوانين مادية، كذلك فإن القوانين الإحصائية هى قوانين إجمالية وكلها ترجيحات ولا يرتفع أحدها إلى مرتبة الحتمية على الإطلاق » .

فساد نظرية « تنازع البقاء »:

ومن الفرضيات التي قدمها العلم تحت التجربة نظرية «تنازع البقاء» وقد تعالي القول بهذه النظرية ، وامتد حتى خيل للناس أن هناك قانونا يطلق عليه «تنازع البقاء» وفي أفق الفكر الإسلامي والثقافة العربية ردد الباحثون هذا المصطلح سنوات وسنوات وتبين من بعده أنه لا توجد حقيقة علمية تسمى تنازع البقاء ، وأن كل ما يقال عن التنازع أو الصراع ليس من طبيعة العلاقات بين الأحياء.

لقد جاءت فرضية التنازع نتيجة لتقدير مادي بأن إنتاج الطعام في العالم محدود بينما الأفراد لأجل البقاء أو من أجل الحصول على الطعام، ولكن نظرية إنتاج الطعام المحدود التي قال بها «مالتوس» ثبت بطلانها من بعده، فقد اكتشفت آفاق عديدة للموارد والرزق، ونما العالم وتضاعفت عشرات المرات دون أن يفقد القوت، وهذا عيب النظريات التي تكون دائما محدودة بقدر معين من العلم في عصرها، وبالتحدي الخاص ببيئتها، وبالتأثر بنظرية جزئية أخرى، نجد هذا تماماً عند دارون ونجده عند ماركس ونجدة عند فرويد.

وقد حاول أنصار دارون تبرير موقفه ودافعوا عنه، فقالوا أنه استمد نظريته تنازع البقاء في الطبيعة من إقامته في لنكشير وغيرها من الأقاليم الصناعية، وكانت نظرية دارون في مجموعها - رهي نظرية بيلوجية - مما استخدمه الفكر السياسي الاستعماري خاصة فيما يتعلق بتنازع البقاء وبقاء الأصلح فقد طبقوها على الشعوب المستعمرة والقوى الاستعمارية المسيطرة عليها، وجعلوا منها مبررا لسيطرة المستعمرين.

فشلت نظرية دارون في تنازع البقاء وبقاء الأصلح وتبين للباحثين والعلماء أن هناك « تعاونا » بين الأنواع أكبر من التنازع، وهناك تلاقيا أقوى من الصراع، وفي هذا يقول أحد الباحثين: إن عوطفه الاجتماعية التي اكتسبها من المزاحمة الصناعية في لانكشير، ومن كفاح الامبراطورية البريطانية لخطف الأسواق وإذلال الأمم، هذه العواطف حملته على أن يكبرمن شان التنازع «تنازع البقاء» وحال هذا بينهم وبين رؤية التعاون في الطبيعة، لأن الواقع أن البقاء عن طريق التعاون بين الحيوان والنبات أكبر وأوسع من البقاء عن طريق التنازع.

وكما سقطت نظرية التطور كما أرادها الفلاسفة الاجتماعيون، وسقطت نظرية مالتوس في الوراثة، كذلك سقطت نظرية «تنازع البقاء» والفكر الإسلامي واضح في هذا تمام الوضوح، فهو يقر مفهوم التلاقي والتعاون والتكامل بين قوى الطبيعة المختلفة، ويرى أن هذا الالتقاء هو دافعها إلى الحركة والقوة والنماء».

ويرى الفكر الإسلامي ضرورة التعاون في المجتمع الإنساني بجميع أفراده، القوي والضعيف، والغني والفقير، والمريض والصحيح، ويحمل الإسلام الأقوياء والأغنياء والأصحاء مسئولية باقي أفراد المجتمع بنظام كامل من أنظمة الإعاشة والإنفاق والبذل.

ويرفض الإسلام تماماً فكرة القضاء على الضعفاء إو الفقراء أو المرضى، ويراها عاملاً من عوامل الخروج عن الإيمان «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » وإذا

كانت نظرية تنازع البقاء قد بدأت في مجال العلم الطبيعي فإن علماء الاجتماع أرادوا أن يجعلوها قانوناً عاماللبشرية، ولكنهم فشلوا في ذلك وتبين من التجارب المتعددة قيام التعاون بديلا عن التنازع.

ومن هنا كان زيف كل التفسيرات التي حاول بعض الماديين إلقاءها شأن المواقع التاريخية وأندثار الحضارات وانقراض الأمم.

ومن الحق أن الصراع لم يكن هو مصدر أنهيار الحضارات أو انقراض الأمم وإنما كان الفساد والانحراف والاستعلاء والترف والتحلل والخروج عن نظام الكون وقوانينه الطبيعية التي تفرض العمل والإرادة وبذل الجهد والاستمساك بالخشونة في الحياة والحفاظ على الضوابط والحدود.

ومما ينقض نظرية تنازع البقاء أن الحيوانات الواطئة الضعيفة تعيش وتنمو وفق قانون التكيف مع البيئة الذي هو أصدق من قانون تنازع البقاء، ذلك أن كل كائن يستطيع أن يحتاط ويتكيف مع الظروف إذا كانت هذه من الطبيعة كالبرد والحر أو من مقاومة الأعداء.

ويصدق قانون التكيف مع البيئة بينما تفشل نظرية «تنازع البقاء» ويؤكد الباحثون أن فساد نظرية تنازع البقاء ترجع أساساً إلى أنها تعارض الطبيعة والفطرة وتكشف عن تحد واضح لانطلاقة الحياة في صورتها السليمة، فهي تؤدي إلى حرمان الضعفاء من حق الحياة وتشجيع الأقوياء على التسلط والسيطرة، وتبيح الحرب وتعتبرها ضرورة في يد القوي لإهلاك الضعيف.

ولما كان من طبيعة القوي أن يسيطر على الأضعف فقد دعا الإسلام إلى أن يتمسك أهله بالقوة في مواجهة كل من يحاول الاعتداء عليهم، وكذلك دعا الأفراد إلى الهجرة من الأرض التي يقع فيها الإذلال لهم حتى لا يكون المسلمون موضع سيطرة من غيرهم أو تسلط من عدوهم.

والحق دائماً يثبت والباطل دائماً يرتفع ثم ينهزم،. لأنه لا يستطيع أن يواجه

ثبات الحق وسلامته وقدرته على الانتصار والبقاء. وعلى أهل الحق أن يلتمسوا نصر الله بالاستعداد لمعارضة الباطل ومقاومته.

ويقر الإسلام نظام « التعاون » بديلاً لمفهوم « التنازع » ومن هنا فإن الأنظمة التي تقوم على الصراع لابد أن تسقط لأنها تمثل اتجاهاً مضاداً للحق والخير، الذي هو الناموس الطبيعي للحياة. ومن شأن «الفطرة» التي فطر الله عليها الكون والناس أن تمكن للحق من هزيمة الباطل والإدالة له، ومن شأن أهل الحق أن يكونوا في يقظة حتى لا يستشري الباطل ويكسب الجولة عليهم، فإذا فقدوا مقومات عقيدتهم، تغلب الباطل عليهم لا محالة، فكان حقاً عليهم أن يعودوا إلى التماس مقومات عقيدتهم ويتجمعوا لها، ومهما كانوا قلة فإن تمسكهم بالحق مع معونة الله يحتم تحقيق النصر لهم، وهذا هو مفهوم دفع الله الناس بعضهم ببعض، وهو معنى يختلف عن النظرية الغربية «تنازع البقاء».

ويجمع الباحثون على أن «الصراع» فكرة استعمارية نشأت في ظل الفكر الغربي الاستعماري الذي اعتمد على القوة كوسيلة للسيطرة على الضعيف على النحو الذي سارت عليه عمليات الاستعمار والاحتلال والحروب الاستعمارية، تبريراً للاستيلاء على موارد الغير وممتلكاته بالقوة والعنف. ولقد رحب الماديون بفكرة دارون، لأن عقيدتهم تقوم على العنف وصراع الطبقات.

أما القرآن فقد ذكر أن «الصلاح» هو سبب بقاء الأمم والحضارات في الدنيا، وهو عدة الضعفاء المتقين في التغلب على الأقوياء المنحرفين.

* * *

ولا ريب أن من أخطر ما تروج له الفلسفات الغربية كلمة «الطبيعة» حيث ينسب إليها العطاء والمنع والكشوف والقوانين، ولا ريب أن هذا معارض تماماً لمفهوم الدين الحق، فإن الخالق هو الله وليس الطبيعة، والطبيعة مخلوقة لله، مذللة له سبحانه. أما كلمة الطبيعة في مفهوم العلم فهي عبارة عن قوانين سقوط الأجسام

ودورانها ومغناطيسيتها وهي قوانين تعبر عن قدرة الله في خلق الكون والإنسان وليس في الإسلام صراع بين الله والطبيعة فالكل يسلم ويسجد طوعاً وكرهاً.

وكل ما كشفه العلم الحديث ليس إلا قشوراً صغيرة من علم الله الاكبر، وما استطاع العلم أن يصل إلى تفسير ظواهر الأشياء. ومن أخطر ما قابل العلم الحديث أنه فصل بين المادي والروحي في العلم وأنكر الروحي، يقول الكسي كاريل: إن الغلطة المسئولة عما نعانيه أنها جاءت من فكرة «جاليليو» فقد فصل جاليليو بين الصفات الأولية للأشياء وهي الأبعاد والأوزان التي يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية، وهي الشكل واللون والرائحة التي لا يمكن قياسها، فقد فصل الكم عن النوع (الكيف) ولقد جلب الكم المعبر عنه باللغة الحسابية والعلم، بينما أهمل الكيف. لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمراً مشروعاً، ولكن التغاضي عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك، فالأشياء غير القابلة للقياس في الإنسان أكثر أهمية من تلك التي يمكن قياسها، فوجود التفكير هام جداً مثل التعادل الطبيعي الكيميائي لمصل الدم، ولما اتخذت التركيبات العضوية والألباب الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيراً من التفكير والسرور والحزن، والجهل، دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فرز العلم والانحلال الإنساني، ولابد أن يعيد الإنسان صياغة نفسه، وأن الخطأ الذي بدأ به كان أنه أعلى شأن الكم على الكيف، هذا الخلل المروع في بناء الحضارة، هو الذي حقق تسخير المادة وإطلاق الطاقة لا يزال أقرب إلى الغابة في العقل والتدبير، ذلك أن الدين هو الحماية، هو الحائط العريض الحاجز عن الخطر، هو إنسان الإنسان الذي ينقله من الغابة».

ومن هذا المنطلق وقع المحظور، وتوالت الأخطاء، واندحر الإنسان الذي تمزق في الغرب.

* * *

(٨١)

السيـــرة

تحفظات على الكتابة العصرية للسيرة النبوية

إن العمل الذي قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية ، قد أدى دوراً لا بأس به وأحدث اثاراً طيبة في نفوس المسلمين ، ولكنه ، لم يكن عملا أصيلا علي طريق التطور الطبيعي لكتابة السيرة من منطق المفهوم الإسلامي الجامع القائم على أساس التصور الكامل للوحي والنبوة والغيبيات والمعجزات، ومن هنا كان عجزه وقصوره الذي جعله في تقدير الباحثين قائماً على التبعية والإحتواء للمناهج الغربية التي لم تكن عمليتها إلا مظهراً خادعاً يخفي من ورائه الأهواء والخلافات بين الأديان ، ونزعة الاستعلاء الغربية ومطامح النفوذ العربي في السيطرة على الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي حتى لا يحقق إنبعاثه الأصيل هدفاً يجدد حضارة الإسلام، ويفتح الطريق لقيام المجتمع الإسلامي.

لقد احتوى هذا العمل على مجموعة من الأخطاء الأساسية التي كان مصدرها تبتي وتبنى وجهات نظرهم، وهم أساساً لا يعترفون بالإسلام دينا خاتما ولا بالنبي محمد، ولا يؤمنون بالوحي ولا يفرقون كما يفرق المسلمون بين الألوهية والنبوة.

وفي مقدمة هذا البحث نؤكد أن كتابات العصريين في السيرة النبوة كانت في عصرها أمراً محبباً أقبل الناس عليه وقدم سيرة الرسول وعظمة الإسلام للمجاهير التي كانت لا تلم بالدراسات العلمية إلا قليلاً، فقد كتبت هذه الفصول أول الأمر في المجلات الأسبوعية الذائعة (السياسة الأسبوعية، والرسالة) مما كان لها أثرها في الانتشار والذيوع، وقد اختلفت فعلا عما عما سبقها من كتابات السيرة التي في مؤلفات لغلبة الأسلوب الصحفي الميسر.

ولقد أقبل القراء على هذه الكتابات لعاملين:

العامل الأول:

العامل القريب والمباشر وهو ظهور حركة التبشير المسيحي الضخمة في القاهرة عن طريق الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ وتنصير عدد من الطلاب المسلمين بها وكان ذلك جزءاً من موجة ضجة قام بها العرب بعد أن استردت الفاتيكان الأموال الضخمة إلتي كانت قد احتجزتها الحكومة الإيطالية عنها.

العامل الثاني:

أثر الحرب العالمية الثانية في نفوس الناس بالدعوة إلى الرجعة إلى الدين والتطلع إلى آفاق جديدة تقديمها رسالات السماء وفي مقدمتها الإسلام.

غير أن هناك عوامل أخرى خفية وراء ظواهر الأحداث تحدثت عنها كتابات الباحثين والمرافقين لهذه الأحداث منها:

أولا : رغبة حزب الأحرار الدستوريين في كسب مشاعر الوطنيين بعد أن عرف عنه أنه الحزب الذي يجمع دعاة التغريب وأساطينه ، والذي صدرت من تحت عباته الكتب التي أثارت الضجة وخالفت مفاهيم الإسلام الأساسية وهزت مشاعر الناس، وفي مقدمتها (الشعر الجاهلي لطه حسين) (والإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق) وكانت الفكرة التي استقر عليها الرأي هو الدخول إلى مشاعر المسلمين عن طريق الكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم (هذا بالنسبة لكتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل)

ثانيا: الموقف الذي أحدثته الحرب العالمية من أئتلاف بين البلاشفة والرأسماليين في وجه النازيين ، وما تسرب إلى البلاد العربية من دعايات شيوعية ورغبة الغرب في مواجهتها عن طريق تزييف مفهوم الماركسية عن البطولة

الجماعية ورد الاعتبار للبطولة الفردية التي كانت عنواناً على الفكر الليبرالي الغربي، ومن هنا كانت الكتابة عن البطولات الإسلامية من منطلق غربي (هذا بالنسبة للعبقريات).

وقد ظهرت هذه الكتابات متفرقة في الصحف: حياة محمد في ملاحق السياسة على أنها ترجمة وتلخيص لكتاب «أميل درمنجم» وكانت تنشر تحت هذا العنوان (حياة محمد، تأليف إميل درمنجم. تلخيص وتعليق الدكتور محمد حسنين هيكل) ثم ظهرت فصول (على هامش السيرة) في الأعداد الأولى من مجلة الرسالة التي صدرت ١٩٣٣ بقلم الدكتور طه حسين، أما فصول (عبقرية محمد) فقد بدأت عام ١٩٤٢ بقلم الأستاذ العقاد في أحد الأعداد السنوية الخاصة بالهجرة بعد أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية بعامين.

وكان الكتاب الثلاثة من المعروفين في مجال الدراسات الأدبية بأنهم عصريون ليبراليون عطافيون قليلو الاهتمام بالدراسات الإسلامية، بل كانت جريدة السياسة تحمل حملات ضخمة على الإسلام (هيكل - طه حسين - علي عبد الرزاق - محمد عبد الله عنان) وتؤازر الغزو الثقافي ، بل لقد حمل الأستاذ العقاد حملة ضارية على الكتب الإسلامية التي صدرت عام ١٩٣٥ في جريدة روزاليوسف اليومية وعدّها ظاهرة خطيرة، وقال إن هذه الكتابات بمثابة مؤامرة على القضية الوطنية، وتردد يومها أن الدكتور محمد حسنين هيكل قد أحرز قدراً ضخماً من الكسب المادي من كتابه ومن ثم أصبحت الكتابة الإسلامية موضع تقدير في نظر الكتاب، غير أن أخطر ما هنالك أن الدكتور هيكل وعلي عبد الرزاق أعلنا موقفاً خطيراً في مجلس الشيوخ عندما اثير النقاش في كتابات طه حسين ووقف للدفاع عنه وتبين من ذلك أن الكتابة عن الإسلام لم تكن تصدر عن إيمان برسالة الإسلام (دينا ودولة) وإنما كانت من الأعمال السياسية، والحزبية

إذا كانت كتب. حياة محمد وعلى هامش السيرة والعبقريات قد هزت وجدان الشعب المسلم وقتها وأحدثت نوعا من الإعجاب والتقدير فإن هذا كان هدفاً مقصوراً من الجهات التي شجعت ذلك وهو:

أولاً: مواجهة حركة اليقظة الإسلامية التي كانت تهدف إلى تقديم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع بكتابات إسلامية من أقلام لامعة لها مكانتها السياسية في الجماهير لتحويل التيار نحو المفاهيم العلمانية والليبرالية وهو ما يسمى (تقديم البديل) المتشابه ظاهرياً والمختلف جوهرياً وهو بهذا استجابة ظاهرية للموجة الإسلامية ومحاولة لاحتوائها.

ثانيا: فرض المفهوم الغربي على السيرة والتاريخ الإسلامي وهو المفهوم المفرغ من الوحي والغيبيات والمعجزات.

ولكن ظاهرة الإعجاب بكتب ليبرالين عن السيرة لم تدم طويلاً فقد تكشفت خفاياها، وظهر أن منهج الكتابة في هذه المؤلفات لم يكن إسلامياً أصيلاً، وإنما اعتورته التبعية لمفاهيم الاستشراق والتغريب حتى أن يقال في غير ما حرج إن المؤلفات الثلاثة الكبرى:

(حياة محمد - على هامش السيرة - عبقرية محمد)

هى نتاج غربي يعتمد على مذاهب الكتابة العربية ويخضع لكثير من أخطائها ويسقط بحسن نية وراء مفاهيمها الكنيسة والمادية. ويختلف اختلافاً واضحاً عن منهج الإسلام الجامع.

ولقد تطورت الدراسات الإسلامية في ظل حركة اليقظة الإسلامية واستطاعت أن تتحرر من هذه المرحلة التي كانت تمثل التبعية للفكر الغربي في دراسات التاريخ الإسلامي وكتابة السيرة وهى التي قامت على مفهوم يتسم بالتأويل للمعجزات، ومحاولة حجب الكثير من وجوه الإعجاز، ومتابعة المستشرقين

في مفاهيمم لسيرة النبي الكريم.

وفي الكتب الثلاثة نجد أن العمل يبدأ غريباً ثم يفرض على سيرة الرسول:

١- فالدكتور هيكل يبدأ عمله في كتابة السيرة بترجمة كتاب (أميل درمنجم) الكاثوليكي الفرنسي ويتبني كثيراً من آرائه التي يمكن أن توصف بالخطإ أو عدم القدرة على فهم الإسلام أو تبني عقائد النصارى أو متابعة هدف يرمى إلى التقريب بين الأديان أو الدعوة إلى وحدة الأديان (وهو هدف ضال).

٢- والأستاذ العقاد يبدأ عملة بمنطلق غربي محض هو فكرة (العبقرية) التي تداولتها كتابات الغربيين شوطاً طويلاً عن نوع من الامتياز أو الذكاء في مجال الفن الموسيقي والشعر والقصة في الغرب ويسحب هذا الوصف على النبي المؤيد بالوحي وعلى العظماء من الصحابة دون تفرقة واضحة بين النبي والصحابة.

٣- والدكتور طه حسين يعلن في غير ما حرج أنه استوحى (هامش السيرة) من كتاب جيل لومثير عنوانه (على هامش الكتب القديمة) وأنه يحشد فيه كل ما استطاع من أساطير اليونان والمسيحية واليهودية والإسرائيليات وهكذا يتبين تبعية هذه الدراسات أصلا للفكر الاستشراقي.

ويمكن تصنيف الأخطاء التي وقعت فيها المدرسة التغريبية في كتابة السيرة على هذا النحو:

أولا: متابعة مناهج ودراسات كتاب الاستشراق

فقد عمد الكتاب الكبار الثلاثة إلى البدء في كتابة السيرة من منطلق غربي استشراقي ، فالدكتور هيكل معجب بكتاب أميل درمنجم وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلاف بين الإسلام والنصرانية، ومن ذلك نراه يتابعه في مجموعة من آراء تختلف مع مفهوم الإسلام الأصيل، وقد خضع هيكل لمناهج المستشرقين

الأحاديث التي أطبق على قبولها أئمة الحديث وغيرهم مع تواترها والإجماع على مضايمنها.

-موقف النبي (صلى الله عليه وسلم) من وفاة ابنه إبراهيم

كذلك فقد كانت الصورة التي رسمها الدكتور هيكل عن حزن الرسول (صلى الله عليه وسلم) من وفاة ابنه إبراهيم مما لا يتفق مع جلال النبوة وعظمة الرسالة صورة صلوات الله وسلامه عليه - واضعا ولده في حجرة وعيناه تذرفان الدموع مدراراً ، ولسانه ينطق بالفاظ يشيع منها الحزن والأسى وتقطر غما وتاثراً مما يشبه أن يكون ضعفاً عن احتمال صدمة الحادث.

«والحقيقة إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اسمى قدراً من أن يصدر منه ما صوره الدكتور هيكل هيامًا في الخيال والشعر والقصص، وإنما أظهر رسول الله ماأظهر من حزن سام وذرفت عيناه دموعاً مطهرة لا يرزقها إلا لله ولا يمكن أن يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد بدرت منه الألفاظ التي نسبها إليه الدكتور هيكل منساقاً مع شعوره حين حزن هو على فقد ولده ولأجل هذا غير اسم كتاب رحلة إلى أوربا إلى عنوان (ولدي).

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعلم علم اليقين وحق اليقين أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإن ولده إبراهيم لن يعيش طويلاً حيث يقول الله تبارك وتعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولقد مات له ولدان من قبل احتسبهما في رضى وإيمان.

٣- تقبل وجهات نظر درمنجم في مسائل أساسية:

وقد أخِـذَ على الدكتور هيكل تقبل وجهات نظر أميل درمنجم، في تصوره أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد تاثر بأهل الكتاب في الجزيرة العربية أو فى ذهابه إلى الشام أوفي إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحية، فقد جرى

ولمفهومهم في الفلسفة المادية، بالنسبة للمعجزات، وبالنسبة للإسراء والمعراج وبالرغم من نوايا الدكتور هيكل الطيبة في تقديم صورة بارعة للرسول صلى الله عليه وسلم فإن موقفه من إنكار المعجزات والغيبيات وتجاهلها حتى وإن وردت في القرآن والسنة على حد قوله كان مأخذا كبيرا في تقليل قيمة العمل الذي قام به.

فقد أنكر عدداً من المعجزات الثابتة بصريح القرآن ومتواتر السنة، كنزول الملائكة في بدر، وطير الأبابيل، وشق الصدر، والإسراء، وأول ذلك كله إرضاء للمنهج العلمي الغربي الذي أعلنه وأعلن التزامه به، فاعتبر الإسراء سياحة للروح في عالم الرؤيا ، ووصف الملائكة الذين أمد إليه بهم المسلمين في غزوة بدر بالدعم المعنوي ، ووصف طير الأبابيل بداء الجدري ، واعتبر شق الصدر شيئاً معنوياً، واعتبر لقاء جبريل بالنبي في حراء مناما ، وبذلك عمد إلى تفريغ تاريخ النبي من الحقائق الغيبية والمعجزات وقصر موقفه على أن للنبي معجزة واحدة هى القرآن الكريم ، مع أن الخوارق والمعجزات لا يمكن أن تتنافى في وجودها مع حقائق العلم وموازينه، وقد سميت خوارق لخرقها لما هو مألوف أمام الناس، وما كان للإلف أو العادة أن يكون مقياساً علمياً لما هو ممكن وغير ممكن، ولما كان الله تبارك وتعالى هو صانع النواميس فإنه هو وحده القادر على خرقها متى شاء.

يقول الشيخ (محمد زهران):

« ولقد علل الدكتور هيكل إنكاره جميع المعجزات المحمدية (غير القرآن) بأنها مخالفة للسنن الإلهية ، وزعم أن روايات معجزاته (صلى الله عليه وسلم) موضع قصد واضعها إما أن يجعل لنبينا مثل ما لموسى وعيسى عليهم السلام، وإما أن يشكك الناس في صحة دينه (ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ولا شك أن دعوى استحالة خرق العادات المعبر عنه في كتابه بمخالفة السنن يستلزم التسليم بها إنكار الإسلام من أصله وتكذيب الأديان كلها، ومنها إنكار

هيكل وراء عبارات درمنجم دون أن يتبين مكرة وخبثه حين حاول أن يصور دعوة النبي أصحابة إلى الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية.

ويتساءل الدكتور حسين الهراوى الذي ناقش هيكلاً في هذه النقطة:

هل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية، ويقول إن درمنجم شأن المستشرقين يسرد هذه القصة بصفة مشوهة للحقيقة، فلم يكن الدافع للنجاشي ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الديني بل الدافع الحقيقي أن هذا النجاشي كان عادلاً، وهذه هى الخلة إلى ذكرها النبي حين قال (لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق)

ومن مراوغات درمنجم تفسيره للآية الكريمة:

(فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك)

يريد درمنجم أن يقول إن القرآن طلب إلى النبي سؤال أهل الكتاب، وإن الله تعالى رضى للناس الإسلام دينا مع بقاء الأديان التي سبقت، وحدة مندمجة، فيما أسماه الكمال الروحي، ولا ريب أن هذه مرواغة خطيرة من الاستشراق يحاول بها أن يفسر الآيات القرآنية تفسيراً يخدم بها أهدافه والحقيقة أن الإسلام جاء ليظهره الله على الدين كله وأن الأديان كلها التي سبقت كانت موصلة إليه لولا أن قادتها حرفوها.

ثانيا: ظاهرة إنكار المعجزات وتأويليها إرضاء للمنهج الغربي وباسم إعلاء نظرة العقل:

هذه الظاهرة واضحة تماماً في كتابات هيكل وطه حسين والعقاد وقد قامت عليها كتاباتهم في (حياة محمد وهامش السيرة والعبقريات) وكانت لها جذور ممتدة في كتابات الشيخ محمد عبدة وفريد وجدي وقد هاجمها الشيخ

مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في كتابة الضخم (موقف العلم والعالم من رب العالمين)

وقد جرى الكتاب الثلاثة هذا المجرى باسم (المنهج العلمي الغربي)

والحقيقة أن المنهج العلمي هو منهج إسلامي الأصل والمصدر على خلاف دعوى بعض المتأثرين بالدراسات الغربية، ولقد كان من أبرز أهداف التغريب التأثير في أسلوب كتابة التاريخ الإسلامي وفي مقدمة ذلك (سيرة النبي الأعظم) إيمانا منهم بأن هذه الصفحات الباهرة من شأنها إذا عُرضت عرضاً صحيحاً ابتعثت الأحاسيس العميقة في قلوب شباب المسلمين، ومن هنا كانت محاولتهم المسمومة في إدخال أسلوب عصري له طابع براق ، ولكنه يخفي من وراء ذلك إطفاء الأضواء التي يقدمها هذا التاريخ من حيث الصلة بالله تبارك تعالى والإعجاز الرباني الواضح في كل مواقف حياة النبي صلى الله عليه وسلم وفي تاريخ الإسلام وفتوحاته، ولما كان هذا العمل هو بمثابة هدف واضح الدلالة في مخطط الأحتواء الغربي الذي يرمي إلى التقليل من شأن البطولات الإسلامية ووضعها موضع المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحي المادية وحدها، فقد حجبت هذه الدراسات جانباً كبيراً من أثرها المعنوي والروحي الذي يهز النفوس ويملأها بالثقة واليقين في عظمة هذا الدين الخاتم وفي سعة العطاء الرباني لنبيه.

ومن هنا كان ذلك الأسلوب المسمى بالعلمي الذي اصطنعه كُتّاب لهم أسماء لامعة ولم تكن لهم سابقة في الدراسات الإسلامية بل كانوا غارقين في دراسات الغرب وبطولات رجاله (جان جاك روسو ، فولتير، مونسيكو ، أرسطو إلخ) في محاولة للتقليل من قدر أحداث السيرة النبوية تحت اسم العقلانية، وإنكار المعجزات والجوانب الغيبية، والإعراض عن الجوانب ذات الصلة بالإيمان والعقيدة

واليقين والتقوى وغيرها.

ولقد استطال الدكتور هيكل في مقدمة كتاب بإعجابه وتبنيه الطريقة العلمية الحديثة وأشار إلى ميزاتها وأفضلها، ولكن الشيخ محمد مصطفى المراغي في مقدمة الكتاب حياة محمد لم يخف عليه مدنه هذا فقال:

أما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه وقد ساير الدكتور (هيكل) غيره العلماء في هذا، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين، انظر كتب علماء الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله فيقول اخرون: لا: إن أول واجب هو الشك، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدر، ورتب ووازن، وقرب وباعد، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما اهتدى إليه من الآراء، وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية (تجريد النفس) عما ألفته من العقائد، ثم البحث والنظر، فطريق التجريد طريق قديم وطريق التجربة والاستقرار طريق قديم، والتجربة والاستقراء . التام وابدا الملاحظة، فليس هناك جديد عندنا، ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت في التطبيق العلمي والعملي في الشرق، وبعد أن نشأ التقليد وأهدر العقل، وبعد أن أبرزها الغربيون في ثوب ناصع وأن وأفادوا منها في العلم والعمل رجعنا نأخذها ونراها طريقة في العلم جديدة، أ. هـ.

وكذا تبين للمدرسة الحديثة أن الإسلام هو واضع الأسس لهذا المنهج العلمي الذي أخذوا به، وإن لم يعطوه حقه من الأصالة الإسلامية، بل قصروه على الجوانب المادية ففاتهم خير كثير، نظراً لأن خلفياتهم مع الأسف كانت غربية ولم يكونوا قد قرؤا من التراث الإسلامي ما يمكنهم من معرفة الحقيقة كاملة.

لقد كتبت هذه الدراسات بالرغم من حسن النية عن البعض - بصورة قاصرة خالية من الإيمان اليقين تحت اسم العلم الذي لا يعترف للنبي (صلى الله عليه وسلم) إلا بمعجزة واحدة هى القرآن ، وكان من رأي فريد وجدي وهيكل الإعراض عن الخبر الصادق الذي ثبت في الكتاب والسنة إذا عارض طريق العلم وبذلك حجبوا عن السيرة النبوية أهم جوانبها وأخطرها على الإطلاق وهو (جانب معجزة الوحي الإلهي وعالم الغيب)

ولطالما ردد هيكل وطه حسين وغيرهم كلمة العلم والمنهج العلمي، والحقيقة أنهم ما كانوا يقصدون (العلم التجريبي) الذي يقوم في المعامل على أساس الأنابيق، وإنما العلم الذي قصدوا إليه والذي لقن لهم هو الفلسفة المادية التي قررها التلموديون وكانت قد استفحلت في الغرب بعد القضاء على الفلسفة المثالية المسيحية.

وهى فلسفة التنوير كما يقولون، قامت على إنكار جوانب الإنسان الروحية والمعنوية وتصويره بصورة الحيوان، والحيوان الناطق والخاضع لشهوتي الطعام والجنس (ماركس وفرويد) وقد امتد هذا الأثر إلى علوم الاجتماع والأخلاق والتربية والأدب والسياسة جميعاً ولم يكن هذا في الحقيقة هو العلم، وما كانت هذه الصيحات تساوي شيئاً ، لأن هذه المفاهيم كانت سرعان ما تتغير وتسقط أمام المتغيرات فضلاً عن أنه قد ثبت من بعد عجز العلم التجريبي عن أن يقول (كيف) وعجز الدراسات المادية أن تكشف سرائر العلوم الإنسانية.

ولقد كانت هذه الدراسات مع الأسف خاضعة لفكرتين مسمومتين قائمتين في نفوس وعقول كتاب الغرب والتغريب هما:

أولاً:فكرة (إخضاع الدين لمقاييس العلم) في إفق الفكر الإسلامي كما في عقل الغرب ، وهى فكرة مردوده لعمق الفوارق بين الإسلام وبين المسيحية وقد تبين من

بعد أنه ليس في الإمكان إخضاع الدين لمقاييس العلم.

ثانيا تخليص الفكر الإسلامي من سائر الغيبيات التي لا تخضع لمقاييس العلم الحديث.

ومن هنا كانت محاولة إخضاع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لهذا المفهوم وهو ما جرى عليه كتاب التغريب من استبدال السند والرواية وقواعد التحديث وشروطه بأسلوب جديد (زائف) من الاستنتاج الشخصي المتصل بذوق ومزاج كل كاتب على حدة ، فطه حسين تابع لمذهب العلوم الاجتماعية ، والعقاد تابع لمذهب العلوم النفسية ، وهيكل تابع لمذهب (تنين وبرونتير) إلخ ، هذا الأسلوب الذاتي خطير جداً، لأنه لا يقوم على قواعد أساسية علمية، وإنما يقوم على أساس (الظن وما تهوى الأنفس) هذا الأسلوب يتيح لأصحابه أن يقبلوا وقائع واحلآثاً وأن يغضوا عن غيرها مما يختلف مع وجهتهم المسبقة، ومن هنا كانت خطورة هذا المذهب في:

(استبعاد ما يخالف المألوف مما يدخل في باب المعجزات والغيبيات في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم).

كذلك فقد حاول دعاة التغريب الاستفادة من هذا الاتجاه ملحظاً خطيراً هو القول بأن الغاية منه هو ما أطلق عليه (فكرة الاندماج الكلي في الكمال الروحي) وأنها جميعاً وحدة متصلة تربط البشرية في فكرة واحدة)

وهذه محاولة مضللة لأن الأديان مترابطة من حيث أن أولها يوصل إلى أخرها ولكن رؤساء الأديان غيروا وبدلوا وبذلك جاء الإسلام مرة أخرى يربط نفسه بدين إبراهيم ليعيد هذه الوحدة في مفهومها الصحيح.

ثالثاً:إنكار معطيات الرسالة الخاتمة:

ومن ذلك ما أورده الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني) عن أنه كان للعرب في الجاهلية نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية كان الإسلام تاجا لها. أي أن الإسلام كان نتيجة وتاجاً لتلك النهضة لا سبباً يقول: لأنه لايمكن لرجل فرد مثل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن ينقل أمه كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة،هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون هذه الأمة قد استعدت في أعماقها وفي ضمائرها وفي عقولها بحيث استطاع (رجل واحد) أن يكون منها (أمة متحدة) وكانت قبائل متفرقة، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وإفريقيا وأوربا في زمن وجيز ، ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لما رأينا أنبياء اخفقوا ولم يصلوا، لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض، وهذا واحد من إتهامات التغريب والاستشراق المسمومة حملها قلم رجل مسلم اعتقد هذا الاعتقاد وتعلم في الغرب يحاول أن يرد نهضة الغرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول من دين، ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب، وأن كل ما فعله النبي هو أنه نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا في القارات الثلاث في زمن وجيز ، يقول الدكتور (محمد أحمد الغمراوي) :

«إن تاريخ العلوم في الأمة العربية بعد الإسلام معروف كما أن مقاومة العرب للنبي ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة، ولكن الرجل ينكر التاريخ ويفترى تاريخاً آخر، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستطيع في منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النبي، كلام محمد العربي، لا كلام الله، عندئذ فقط يعقل أن يكون العرب على ماوصف الدكتور من نهضة وعلم وأدب،لأن القرآن أكثر من نهضة علم وأدب ، ولا يعقل إن كان كلام بشر أن يأتي صاحبه في أمة جاهلة كالتي

أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شرقيين ومستشرقين ومؤرخو الإسلام » .

وهكذا نجد الدكتور زكي مبارك يهدر مقام النبوة الإسلامية بمقاييسه المادية البحتة التي صورت له كما صورت للمستشرقين أنه من المستحيل أن تؤدى رسالة النبي محمد خلال بضعة عشرة عاماً إلى قيام الملك الباذخ وهذا هو إنكار المعجزات والغيبيات، في فهم السيرة النبوية وتاريخ الإسلام.

رابعاً: إحياء الأساطير في سيرة النبي:

يقول الدكتور طه حسين في بحث نشره في كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ في باريس: لقد حاولت أن أقص بعض الأساطير المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم قصصت مولده وطفولته، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو (على هامش السيرة) ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين اشتعلتا موقدين كبيرين: أحد الكتابين لجيل لوميتر عنوانه (على هامش الكتب القديمة) والثاني: (حياة محمد) لأميل درمنجم.

أما كتاب جيل لومتير فانني. بعد أن شغفت به كثيراً وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد أم أنه يتعذر ذلك، وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر.

وقال عن كتاب (على هامش السيرة):

هذا الكتاب من عمل المخيلة، اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن إشرح الأحداث، وأخترع الإطار الذي يتحدث

عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطابع القديم.

وكان الدكتور طه حسين يتحدث بهذا إلى المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام، ويعد كتابه هذا خطوة في هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلها في كتاب واحد وفي اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير في الأدب العربي هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) فماذا كان موقف الباحثين فيه، يقول صديقه وزميل دربه الدكتور محمد حسنين هيكل:

استبيح طه العذر إن خالفته في اتخاذ النبي (صلى الله عليه وسلم) وعصره مادة لأدب الأسطورة، وأشار إلى ما يتصل بسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ساعة مولده واروي عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبي ثم قال:

ولهذا وما إليه يجب في رأيي أن لا تتخذ حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) مادة الأدب الأسطوري ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب، وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما. والنبي (صلى الله عليه وسلم) وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هى فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً ، وأعلم أن هذه «إسرائيليات» قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية[1] لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلي نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه (صلي الله عليه وسلم) فقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام .

---

(١) (الميثولوجيا) : مصطلح غربي معناه القصص الأسطوري الذي يحرك العواطف وان لم يكن له أثر من الصحة.

ولاريب أن كلام الدكتور محمد حسنين هيكل هذا هو اتهام صريح لطه حسين في اتجاهه وتحميل له لمسئوليه من اخطر المسئوليات وهي :

اعادة إضافة الاساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة النبي (صلي الله عليه وسلم) منها طوال العصور ، وإعادتها مرة اخري لخلق جو معين يؤدي إلي إفساد العقول في سواد الشعب وتشكيك المستبيرين ودفع الريبة إلي نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه (صلي الله عليه وسلم) وهذا الذي كشفه هيكل مازال كثيرون يجهلونه ومازال المتابعون لحياة الدكتور طه حسين وتحولاته يرون أن هذا أخطر تحول له ، وأن هذا التحول جاء ليخدع الناس عن ماضيه وسابقته في إذاعة مذهب الشك وطارت الدعوات تقول: إن طه حسين عاد إلي الإسلام وانه يكتب حياة الرسول ، ولم يكن هذا صحيحا علي الإطلاق ، ولكنه كان تحولا خطيرا وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته، وهي سيرة الرسول الأمين (صلي الله عليه وسلم) ولقد دمغه هيكل حين قال: لقد تحول طه الرجل الذي لايخضع لغير محكمة النقد والعقل إلي رجل كلف بالاساطير يعمل علي إحيائها ، وإن هذا ليثير كثيرا من التساؤل ، إذ أن طه وقد فشل في تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي – لجأ إلي الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب اظهاراً لما فيها من أوهام في ظاهرها تفتن الناس.

وقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ (محمد النايف) في كتابه دراسات عن السيرة حيث قال: إن علي هامش السيرة هو في حقيقته علي هامش الشعر إلجاهلي ومتمم له ، فهو علي طريق تطاوله علي الاسلام ولكن مع المراوغة والمداهنه .

ومن أبرز ما يلاحظ أنه خلط تاريخ الإسلام بأساطير المسيحيه واليهوديه وقساوسة مصر والشام وحمير ونصاري اليمن ، كما عني عناية كبيرة بأساطير

اليونان والرومان ، وخلط هذا كله خلطا شديد مع سيرة النبي وأراد بذلك إثارة جو من الاضطراب بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين ما كان قبل الإسلام من أساطير وخرافات ، وقد اهتم بتراث اليهود فقدم لهم قصة (مخيرق) اليهودي،

وقد أخذ في كتابه بالاحاديث الموضوعة وفي نفس الوقت رد أحاديث صحيحة لأنها خالفت هواه ، وعول كثيرا علي الإسرائليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر من إيرادها ، وحشد قدراً كبيراً من الأساطير في قصة (حفر زمزم) علي يد عبد المطلب ، وبالغ جيداً في قضية ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع أنه لم يثبت منها إلا حديث واحد ، وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة (زينب بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول (صلى الله عليه وسلم) عند مرضعته (حليمه السعديه) واثناء سفر النبي في تجارة خديجه (رضي الله عنها).

وقد خص الشياطين باهتمام بالغ فتوسع في الحديث عنهم وصور مؤتمرا يتصدره إبليس للشياطين ، ورسم صورة للشيطان الذي حضر خلاف قريش علي الحجر الأسود وكان علي شكل شيخ نجدي.

وعلي ندرة الصفحات التي خصصها لسيرة الرسول (صلي الله عليه وسلم) جاءت هذه الصفحات مملوءة بالمغالطات ، والذي سلم من التحريف كان للمتعه والتسلية ومن أخطر مزاعمه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أحب (زينب) وهي زوجة (زيد) وهذا بهتان عظيم.

وإذا كان طه حسين فد أشار في المقدمة إلي أنه اهتم باختراع الأحاديث فإن الحرية التي أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عنه عن طريق النقد والكتابه الأدبية .

يقول (غازي التوبه) في دراسته عن طه حسين وهامش السيرة:

إن طه حسين ينصب نفسه إماما للأساطير اليونانيه، ويضع السيرة في مصاف الإلياذه ويطلب من المؤلفين والكتاب أن يفتتنوا في الحديث عنها افتتان أوربا بأساطير اليونان كي يرضوا ميول الناس الي السذاجة ويمتعوا عواطفهم واخيلتهم ، ولكن هل يتساوى الأثران في المجتمعين (الالياذة في المجتمع اليوناني والسيرة في المجتمع الإسلامي) وهل كانت السيرة يوما ما في التارنخ موضوعا لتسلية قصصية أو مباراة لفظية»

ولم تكن السيرة يوما من الأيام وسيلة للتسليه والترفيه كما يهدف طه حسين ولكنها كانت مصدرا لانبعاث الهمم ودفع النفوس المؤمنة إلي النهوض بالمجتمعات في ضوء حياة النبي وسننه.

ولقد تحدث كثيرون عن الشبهات الوارده في (على هامش السيرة) ووصفها الأستاذ مصطفي صادق الرافعي بأنها «تهكم صريح» وقالت صحيفة الشهاب الجزائرية (ذي القعده ١٣٥٢) الموافق ١٩٣٤ تحت عنوان : (دسائس طه حسين)

ألف كتابا اسماه علي هامش السيرة (يعني السيرة النبويه الطاهره) فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية، وكتب ما كتب في السيرة الكريمة علي منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال ، حتي يخيل للقارئ أن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ما هي الا أسطورة من الأساطير ، وفي هذا من الدس والبهت ما فيه ، والدكتور طه الذي كان يقول في الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين أصبح اليوم يحسب للمسلمين حسابا (فلا يكتب إلا ويقول إنه مسلم وإنه يعظم الإسلام) ، ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهور كما بدا جليا في كتابه هذا (على هامش السيره)

وقال الدكتور (زكي مبارك) (البلاغ - يناير ١٩٣٤) وانا أوصي قرائي أن يقرءوا هذا الكتاب (علي هامش السيره) بروية فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل عرف الدكتور كيف يكتمها علي الناس بعد أن راضته الأيام علي إيثار الرمز علي التصريح (بعد ضربة الشعر الجاهلي) آثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه.

وقال الدكتور هيكل في دراسته لهامش السرة الجزء الثاني (ملحق السياسه ١٩٣٧/١٢/٢٥) : إن اليهود لهم باع طويل في دس الإسرائيليات في الإسلام والحق أنني كنت اشعر أثناء قراءة هذا الجرء الثاني من هامش السيرة وكأنما أقرا في كتاب من كتب الأساطير اليونانيه ، وليس فصل (نادي الشياطين) بأشد إمعانا في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب قراءة هذا الجزء الثاني من هامش السيرة وقد عرف تبعية الدكتور طه حسين لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود في قضايا كثيرة مثل موقفه من عبدالله بن سبأ في كتاب الفتنه الكبري.

خامسة: الفوارق العميقة بين النبوة والعبقرية

إن التفرقه بين (النبوة) (والعبقرية) هى من أخطر ما تعرضت له كتابات العصريين للسيرة النبوية فليس من المعقول أن تطلق تسمية (العبقرية) على الرسول (صلى الله عليه وسلم) المؤيد بالوحي وعلى صاحبيه أمثال أبي بكر وعمر بن الخطاب وقد وصف الرسول بالعبقرية في كتابات (العقاد)، والبطولة في كتابات (عبد الرحمن عزام) ، وبطل الحرية في كتابات (عبد الرحمن الشرقاوي) ، وكل هذه تسميات تحجب عن القارئ المسلم الصفـة البارزة والمهمة الأساسية وهى «النبوة» المؤيدة بالوحي.

إن دراسة حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) تحت أي اسم من شأنها أن تعجز عن استيفاء جوانب هذه الشخصية العظيمة، وليس ثمة غير منهج واحد هو أنه نبي مرسل من قبل الله تبارك وتعالى، فإن هذا الفهم وحده هو الذي يكشف عن الحقائق الناصعة ويكشف عن صفحات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي.

إن كلمة (العبقرية): هى مصطلح عرف في الفكر الغربي وتناولته الأقلام ودارت حوله المعارك والمساجلات وفي عام ١٩٣٥ إنتقلت هذه المعارك إلي المجلات العربية ، فدارت مناقشة طويلة بين (محمد فريد وجدي) والدكتور (أمير بقطر) والتقطها الأستاذ (العقاد) واختزنها في ذاكرته ليجعلها عنوانا لدراسة عن الرسول التي بداها عام ١٩٤٢.

ومن مجمل الدراسات التي دارت يتكشف أن هذه النظرية تجرى حول التميز والذكاء والتفوق في مجال الفن والموسيقى والتصوير ولم يرد في الأسماء التي تناولتها الأبحاث أي اسم من أسم المصلحين أو أصحاب الرسالات.

ولقد قصر الدكتور (أمير بقطر) العبقرية على الذكاء، وقال إنها تجئ عن طريق الوراثة وإنها غير مكتسبة، وأوردت دوائر المعارف وصفاً للعبقرية بانها لغة الكامل في كل شئ، ويكون مبلغ رقم قياس زكاء العقبرية فوق المعتاد، وبينما يقصر (أمير بقطر) العبقرية على مسألة اختبار الذكاء فإن (فريد وجدي) يرى أنها هبة إلهية ثمرتها فوق القدرة البشرية يمنحها الله لبعض الأفذاذ لتبرز على ألسنتهم أو على أيديهم في أمور لا يستطيع العقل البشري أن يستقل بإيجادها)

ولعل هذا هو المعنى الذي جعل العقاد يختارها ليصف بها الرسول مع أن جميع علماء الغرب لم يصفوا بها احدا من الأنبياء كالمسيح أو موسى (عليهما السلام) والحقيقة أن مقاييس الجاه والثروة والعظمة التي جاءت بها العلوم

المادية الحديثة تختلف تماماً عن التقديرات التي جاءت بها النبوة.

وأن أي قدر من الموهبة الإلهية التي توصف بها العبقرية تختلف اختلافاً واضحاً عن النبوة .

وبالرغم من الاختلاف في فهم العبقرية من كتابات العشرات من الباحثين الغربيين فإن أحدا لافى الغرب ولا في العرب أدخل النبوة والأنبياء في هذه الدائرة، ولكن يبدو وأن الأستاذ العقاد إراد أن يتفوق على صاحبيه (هيكل وطه) وقد سبقاه بعشرة سنوات في كتابه السيرة باتخاذ هذا المصطلح.

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: يجب أن تقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام فالعقاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافته مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شئ كثير، وليس كل ما كتبه المستشرقون يقبله المسلم ، ولا كل نظريات الغرب تتفق وما قرره القرآن، ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد فهو ينظر إلى القرآن من خلال ما اعتقد منها ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد نظرية (فريزر) في نشوء الأديان فهى عنده ليست سماوية ولكنها أرضية نشأت بالتطور والترقي إلى الأحسن ، ومن هنا تفضيل العقاد للإسلام على غيره من الأديان فهو أخرها وإذن فهو خيرها ويقول: « إن لم يكن هذا هو تفسير إطلاق تسمية غريبة على كتابه (عبقرية محمد والفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغي إن يتنبه إليه قارئ الكتابين من المسلمين لينجو ما أمكن مما توحي به التسميات ، من أن محمد (صلى الله عليه وسلم) ، عبقري من العباقرة لانبي ولا رسول بالمعنى الديني المعروف في الأديان المنزلة ، وتولد هذا الإيحاء أن جاء الكتاب واحداً من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية وان يكون أولها ، فالناشئ الذي يقرأ بعد عبقرية (أبي بكر) وعبقرية (عمر) مثلاً لا يمكن أن يسلم من إيحاء خفي إلى نفسه أن محمداً وأبا بكر وعمر من قبيل واحد، عبقري من عباقرة وإن

يكن أكبرهم جميعاً، كالذي سمي النبي (صلى الله عليه وسلم) بطل الأبطال فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور، بدلا من صنف اختتم به (صلى الله عليه وسلم): صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله ، فالنبي والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحي ومن كتاب ، ولا كذلك العبقري ولا البطل، فالنبوة والرسالة فوق البطولة بكثير ، وكم من الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقري، وكلهم يدين له (صلى الله عليه وسلم) بأنه رسول الله إلى الناس كافة في ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النبيين.

ويقول الأستاذ (غازي التوبة) : كتب العقاد العبقريات دفاعاً عن العظمة الإنسانية في وجه المتطاولين والحاقدين والمشوهين ، هذه العظمة الإنسانية التي تحتاج إلى رد الاعتبار في عصره ، ودفاع العقاد عن العظمة الإنسانية هى حلقة من دفاعه عن الفرد وإيمانه به ، ولكن ما هى الأخطار التي هددت الفرد والعظمة وجعلته يستل قلمه عام (١٩٤٢) ليكتب أول عبقرية من عبقرياته، في الحقيقة أن الأخطار المباشرة التي هددت الوجه الآخر من إيمان العقاد بالفرد هو النظام الديمقراطي، هددته ثلاثة أخطار هى الفاشية والشيوعية والمد الإسلامي، تصدى للفاشية في (هتلر في الميزان)، وتصدى للشيوعية في كتابه (الشيوعية والإنسان)، وأفيون الشعوب، أما تيار المد الإسلامي فحاربه بسلاح الشخصيات، فكتب العبقريات ليؤكد صحة أفكاره في أولية الفرد في التاريخ وأحقيته كمحرك له وليطعن ويشوه الإيمان بالجانب الجماعي في الإسلام ويشكك في دور العقائد والتربية في توجيه الأشخاص، فالعظيم عظيم بفطرته ، والعبقري عبقري منذ نشأته ، كذلك فقد ركز العقاد على العوامل الوراثية للتكوين الجسماني والعصبي، ووضع هذه الأسباب في المرتبة الأولى في توجيه الشخصية بحيث تأتي العقيدة الإسلامية والتربية في المرتبة الثانية إن كان هناك دور للعقيدة أو التربية.

والعقاد في موقفه هذا متأثر ببعض المدارس الأوربية التي تقدس الفرد والفردية وتفسر مختلف حوادث التاريخ على هذين الأساسين، وقد أورد العقاد ذكراً لإحدى هذه المدارس التي تحدد صفات العبقرية انطلاقاً من تكوينه الجسدي وهي مدرسة (لامبروزو) وهكذا قَوْلَبَ العقاد الشخصيات الإسلامية ضمن نظرياته الجاهزة في الفرد والطوابع الفردية.

وهو في هذا قد حجب الجانب الرباني المعجز، وحجب الغيبيات، فهو في موقفه من انتصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غزواته لا يعرض مطلقاً لوعد اللهّ تبارك وتعالى لرسوله ورعايته والملائكة المقاتلين والنعاس الذي تغشى المسلمين أمنة ، والمطر الذي طهرهم والرياح التي اقتلعت خيام المشتركين وتثبيته لأفئدة المقاتلين وقذفه الرعب في قلوب الكافرين، فليست العوامل المادية وحدها هي قوائم مكانة الرسول العسكرية ولكن العوامل الربانية يجب أن تضاف إلى ملكات الرسول في التخطيط.

كذلك فهو لم يكشف عن دور الإسلام في بناء شخصية الرسول، فالإسلام هو الذي أعطى النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك الإيمان باللّه تبارك وتعالى، والإيمان بأحقية الموت في سبيل اللّه، وذلك القدر من الثبات والتضحية والإقدام والعزم والصبر.

هذا الجانب الذي تجاهله (العقاد) واكتفى بالمقارنة بين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين نابليون من النواحي المادية والعسكرية ، كذلك لم يتبين الفارق بين حروب محمد (صلى الله عليه وسلم) وبين حروب نابليون وأنها كانت خالصة في سبيل اللّه ونشر الإسلام وليست في سبيل المطامع والسيطرة.

ذلك أنه ناقش عبقرية الرسول العسكرية في ضوء العبقريات البشرية، ولم يتنبه للفوارق العميقة، التي تتميز بها شخصية الرسول بوصفه نبي مرسل أو تلك

التي هداه إليها الإسلام، وأن تميزه هذا يختلف عن البطولات والعبقريات البشرية الأخرى، ومن هنا يبدو النقص في وزن النبي (صلى الله عليه وسلم) بالعبقرية البشرية الأخرى.

كذلك فإن هذا التمييز الذي عرفت به شخصية محمد (صلى الله عليه وسلم) «نبياً» ومرسلاً وهادياً، تختلف في المقارنة بينه وبين الأبطال العالمين الآخرين من ناحية كما أن شخصيتة تختلف بينه وبين أبي بكر وعمر وغيرهم.

لقد تحدث العقاد عن الجانب المادي في شخصية الرسول وحجب تماماً الجانب الروحي المتصل بالوحي وأظهره كمجرد إنسان يعمل بمواهب ممتازة وملكات خاصة، وهكذا فإن (العبقرية) التي حاول العقاد أن يقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من خلالها، كان حجمها ضيقاً ومجالها ناقصاً، وأخطر ما أخذ عليه هو أنه لم يظهر أثر الإسلام في بناء شخصية الرسول وهو العامل الأكبر في حياته وتصرفاته على النحو الذي وصفته السيدة عائشة (رضي الله عنها) بقولها (كان خلقه القرآن) هذه الربانية الخاصة التي تعلو على طوابع البشر، وقد وصفها القرآن في قوله تعالى:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴾.

كذلك فقد تحدث عن افتتان المسلمين بشخص الرسول وانبهارهم بمواهبه واعتبر إعجابهم به سبباً وحيداً لدخولهم في الإسلام، وعذا اجتماع الصداقات المتنوعة حوله كان نتيجة لمزاياه النفسية وبذلك أنكر أثر عظمة الإسلام نفسه في إيمان أصحاب النبي، وليس من شك أن إعجاب المسلمين بالرسول له أهميته في مرحلة الدخول في الرسلام ولكن تقدير المسلمين للإسلام هو العامل الذي ثبتهم بعد ذلك على الإيمان بالإسلام وحفزهم للدفاع عنه.

إن الأستاذ العقاد قد حارب مذهب التفسير المادي للتاريخ الذي قدمه

ماركس والشيوعية حرباً لأهوائه فيها خضع مع الأسف للمذهب النفسي المادي الذي لا يعترف بالآثار المعنوية والمترتبة على الإيمان والعقيدة في بناء الشخصية، كما تجاهل جانب الغيبيات ولم يفهم النبوة فهما صحيحاً، ولذلك فإن الجانب الروحي القادر على العطاء في بناء الشخصيات والذي صنع شخصية رسول الإسلام تراه باهتا غائما عنده، وذلك لأنه اعتمد في دراسة الشخصيات والبطولات على مذاهب غربية تتجاهل النبوة والوحي والغيبيات والمعجزات، ولا تجعل لهذه العوامل الروحية والمعنوية أي اعتبار وإنما قامت اعتباراتها على جوانب الحس وتركيب الإنسان المادي والوراثيات وغيرها.

سادسة: تطور جديد: التفسير الماركسي للسيرة:

ثم جاء بعد ذلك تطور جديد في كتابة السيرة العصرية، وهو إخضاعها للتفسير الماركسي على النحو الذي كتبه عبد الرحمن الشرقاوي تحت اسم (محمد رسول الحرية).

وقد قال الشيخ (محمد أبو زهرة) في توصيف هذا العمل: إن الكتاب كان له اتجاه غير ديني في دراسته، فهو ما درس محمداً (صلى الله عليه وسلم) على أنه رسول يوحى إليه بل على أنه رجل عظيم له آراء اجتماعية فسرها الكاتب على ما يريد، وقد تبين أن الكاتب يقطع النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الوحي، فكل ما كان من النبي من مبادئ وجهاد في سبيلها إنما هى من عنده لا بوحي من الله تعالى، وهى بمقتضى بشريته لا بمقتضى رسالته ، والعنوان ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ يعلن أن ما وصل إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) من مبادئ جاهد من أجلها إنما هو صادر عن بشرية كاملة لا عن نبوة، وقد اقتطع هذه الجملة مما قبلها وما بعدها ونصها الصحيح (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) وهو بهذا الاقتطاع ينفي الوحي عن الحياة المحمدية.

كذلك فهو ينفي الخطاب السماوي للرسول ولا يذكر أن جبريل خاطب النبي صلى الله عليه وسلم في العيان وتصوره للوحي بأنه حلم في النوم يخالف ماأجمع عليه المسلمون من أن جبريل كان يخاطب النبي (صلى الله عليه وسلم) بالعيان لا في المنام: الأمر الذي تردد ذكره في القرآن على أنه رسول الله إلى الذين يصطفيهم من الأنبياء لتبليغ الرسالة الآلهية لأهل الأرض.

كذلك فهو يقطع الرسالة عن الرسول ويقطع الوحي عنه ويتجه إلى القرآن فيذكر عباراته أحياناً منسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) على أنها من تفكيرة ومن قوله لا أنها قرآن موحى بها وقائله هو الله سبحانه وأن ذلك مثبوت في الكتـاب بكثرة وهو ينسب بعض أي القرآن إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولا ينسبه إلى الله تبارك وتعالى ، وكذلك ينسب تحريم الخمر إلى النبي، كما أنه يذكر قصص القرآن على أنه نتيجة تجارب النبي (صلى الله عليه وسلم)، وما كانت قصص النبي إلا من القرآن وما كانت له رحلات في بلاد العرب بل إنه لم يخرج من الحجاز إلا مرتين إحداهما في الثانية عشرة والثانية في الخامسة والعشرين.

ويرى الكاتب أن القرآن من كلام محمد ولم يذكر قط على وجه التصريح أن لله تبارك وتعالى هو منزل القران وباعث محمد بالرسالة بل إن ذكر الله تبارك وتعالى يندر في الكتاب بل لا تجد له ذكراً قط ولم يذكر القرآن إلا نادراً بل لا تجد له ذكراً قط، وإذا ذكر آية ذكر أنها همهمة نفس النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهو لا يذكر كلمة القرآن على أنه منسوب لله في مقام يومي بالتشكيك في صدقه ويوهم بأن به تحريفاً وتبديلاً ومحاولة التقاط واحد ممن كانوا يشركون مع العشرات في كتابه الوحي لإثارة هذه الشبهة»

ولقد كان هذا التطور في كتابه السيرة نتيجة للأدوار التي مرت بها على

أيدي السابقين.

سقوط المدرسة المادية في السيرة:

لقد قامت هذه المدرسة على إنكار الغيب والمعجزات في آن، وإنكار الوحي والنبوة في آن اخر ، وحاولت أن تفسر الإسلام وسيرة الرسول تفسيرا مادياً، وجدت في خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية وتحت لواء ما زعموه المنهج العلمي الحديث، وكانت هذه المدرسة، رد فعل أثاره الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين ترى أن نتابع الأوربيين في فهم الدين والعقيدة.

ولكن سرعان ما تكشفت هذه النزعة وسقطت وجهتها ، وبرزت كتابات مدرسة الأصالة التي أنكرت هذا الأسلوب الفلسفي المادي ، وأقامت مفاهيمها على الأساس القرآني الأصيل وظهرت تلك الكتابات بأقلام حسن البنا ومحمد الغزالي وسعيد رمضان البوطي وأبو الحسن الندوي وكثيرون غيرهم فردت إلى السيرة النبوية اعتبارها وأعادت تقدير جانب معجزة الوحي الآلهي والغيبيات والمعجزات.

وقد جاءت كتابات مدرسة الأصالة في السيرة النبوية مصححة لأغلاط كثير ممن كتبوا عن السيرة في هذا العصر وأماطت اللثام عن المغالطات التي كانت ول تزال تدسها أقلام كثيرة من المستشرقين والتغريبيين وهى أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها وترويجها مدرسة التبعية.

إن هذه المدرسة لم تعد تخدع إلا قلة من بقايا المفتونين بأسمها وإن الحقائق الناصعة في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ستظل هى المشرقة والسائدة، وليس أدل على ذلك من هذه المؤتمرات للسيرة التي حشدت عشرات من الأعلام للكشف عن الجوانب المختلفة في حياة هذا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)

الذي هدى البشرية إلى طريقها وأخرجها من الظلمات إلى النور.

-المراجـــع:

* دراسات في السيرة: محمد النايــف.

* الفكر الإسلامي المعاصر: غازي التوبه.

* فقه السيـرة: محمـد سعيـد البوطـــي.

* كتابات الدكتور محمد أحمد الغمــراوي ومحمــد محمـــد حســين.

* العبقرية : محمـــــــــد فريـــد وجـــدي .

* تقرير الشيخ محمد أبو زهرة عن كتاب (محمد رسول الحـــــرية).

* مقالات الدكتور حسين الهراوي (ملاحق السياسة ١٩٣٢ - ١٩٣٣).

* مجلة الفتح: محب الدين الخطيــب.

* * *

(٨٢)

العلوم الإنسانية

«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» .. حديث شريف.

كان من أهم ما دار في الملتقى الأسلامي للإسلام والعلوم الإنسانية والاجتماعية الذي عقد في الجزائر، موقف الجماعات من تبني المفهوم الوافد لهذه العلوم ، والأخطار التي تنتج من ذلك وتؤثر على ثقافة الشباب المسلم وعلى حياته وفكره ، ومن هنا كانت الصيحة التي رددتها جنبات الملتقي من أكثر من مائة عالم وباحث ، من مختلف أقطار الأمة الاسلامية ، بالتحذير من الآثار الخطيرة التي تترتب علي هذه التبعية لفكر يتعارض أساساً مع مفاهيم الإسلام والقرآن والفطرة الإنسانية.

ولقد تنين بطلان القول بوحدة الفكر الإنساني أو الثقافات العالمية ، ذلك لأن مصدر الوحدة في الحقيقة هو العقيدة والقيم والأخلاق ، ولما كانت هناك فوارق عميقة بين الفكر الأسلامي والفكر الغربي، فانه من غير الصحيح أن يبني المسلمون مناهجهم علي أسس فكر يختلف اختلافا واسعا مع عقيدتهم.

ومن هنا جاءت صيحة التحرر من مفاهيم العلوم الايسانية الوافدة، بعد أن كشف الغرب نفسه عن أنها خلال تجربتها لم تحقق الهدف، نظرا لقيامها علي الفروض ووجهات النظر البشرية والأهواء والاعتماد على الأساطيرالقديمه والخرافة التي تمثل طفولة البشرية.

وءإذا كان هذا هو ما دفع الغرب إلي إعادة النظر في علومه الإنسانية

والاجتماعية، فإننا نحن المسلمين لنا ضوابط أخري يختلف معها هذا الفكر تماماً، من أهمها :

أولاً: تعارضه الواضح الصريح مع مفهوم التوحيد الخالص والنبوة والوحي»

ثانياً: مضادتها للفطرة .

ثالثاً: خطؤها في تصور الإنسان والقول بأنه مادة وانه خاضع للشهوات وغير قادر علي التحرر منها .

رابعاً: إنكار الفكر الغربي للمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي ، واقامة منهج المسئولية الجماعية :مسئولية المجتمع (وهي التي لايقرها الإسلام) . كذلك فإن هناك فسادا في المنهج العلمي نفسه، المدعي دائما كذباً وبهتانا انه موضوعي ، وذلك لما عرف عن العكر الغربي من فصله بين النظرية والتطبيق، وبين القول والعمل ﴿يأأيها الذينَ آمنوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفْعَلونَ ، كَبُرَ مقتاً عندَ اللَّه أنْ تقولوا ما لا تَفْعَلونَ ﴾.

ومن إخضاع العلوم الانسانية للمناهج المادية والتجريبية فضلاً عن « الفكرة المسبقة » ، التي تملأ عقول التاحثين الغربيين في الدراسات الإسلامية ، حيث يبدءون بهدف هدام ، ثم يعملون علي البحث عن نصوص مقطوعة عن أصولها للاستدلال بها ، مما يؤكد أن المنهج الغربي المضوعي علي الأقل – في مواجهة الإسلام – يقوم علي الهوي والظن .

ولقد خطت حركة اليقظة الإسلامية في خلال القرن الرابع الهجري ، خطوات في سبيل الكشف عن فساد وجهة العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية ، وأنها ليست علما حقيقيا وليست أصيلة وليست عالمية وليست صالحة لأمم أخرى ، وبقي اليوم أن ينتقل المسلمون إلي مرحلة بناء المنهج الإسلامي في هذا المجال ، كذلك فإن النظرة الانتقائية التي طرحت «من حيث الجمع بين خيوط من الفكر لإسلامي والفكر الغربي » لن تؤدي إلي شيء ، لاختلاف الأسس التي تمكن من ذلك خاصة عقائد الغربيين عن نسبية الأخلاق والجبرية الاجتماعية ، ومن هنا فإننا نري أن هذا الركام تحت اسم العلوم والأيدلوجيات، ليس إلا نظريات وفروضا فلسفية تستدعينا أساسا إلي القيام:

اولاً: بتصحيح دائرة المعارف الإسلامية التي جمعت سموم الاستشراق .

ثانياً: أن لانسمح بترجمة أي كتاب في هذا المجال ما لم يقدم له بدراسة العصر والمؤلف، والعوامل التي دعت إلي كتابته، وكذلك فعل الغربيون عند ما ترجموا التراث الإسلامي في أول النهضة ، وحين وضعوا أساساً حاسماً حين قال لهم البابا: « خذوا علوم المسلمين ولا تأخذوا دينهم».

وغير صحيح أن المسلين قبلوا الفكر اليوناني ، بل الحقيقة انهم وقفوا منه منذ اليوم الأول موقف المعارضة ، واعتبروا الفلاسفة «أمثال الفارابي ، وابن سينا ، والكندي، وابن رشد من المشائين اليونان ، وذلك لاختلاف الأرجانون اليوناني عن المنهج الإسلامي في ابرز مفاهيمه وقيمه « وهو التوحيد وتحرير الانسان » في مواجهة علم الأصنام وعبودية الإنسان الفكرية والجسمية.

فقد كان الرق عند أرسطو وافلاطون أساسا ضروريا للمجتمعات، وكانت الديمقراطية اليونانية خاصة بالسادة الذين يجلسون في القمة ، والتي ترى أن العبد عبد ولو تسلم أعلى المناصب ، والسيد سيد ولو استعبد ، ولم يكن هذا مفهوم اليونان والرومان وحدهم ، ولكنه كان مفهوم كل الحضارات التي سبقت الإسلام . فارسية وهندية وفرعونية ، ومن هنا جاء الإسلام ليحطم هذه العبودية، وكان مثابة بعث جديد للإنسان ، ومن هنا فقد كان كل ما سبقه مقدمة له .

ومن هنا قال العلماء بمفهوم(الانقطاع الحضاري)، بين ما قبل الإسلام ومابعده ، حيث انهارت الثقافات واللغات القديمة ، وانطوت وأصبحت ركام الزيف الخرافة وطفولة البشرية « وهذه التي جاء يجددها التغريبيون تحت أسماء الفلكلور أو الانتربولوجيا».

وهكذا نجدنا في مواجهة ما يسمى علم الفلسفة ، أو العلوم الفلسفية التي تدرس الآن في جامعاتنا ومعاهدنا ، لتزيغ قلوب أبناء المسلمين بتقديم مفاهيم زائفة من الفكر الأفلاطوني والباطني والمجوسي والغنوصي

يتحدث عن العقول العشرة وعن الفيض وكلها زيوف ما كان لها أن تشكك أبناءنا في مفهوم التوحيد الخالص ، حيث تتصل تلك الفلسفات بوحدة الوجود ، والحلول والاتحاد ، وكتابات الحلاج من ناحية ، وكتابات ابن سينا والفارابي ، وتتصل بالقرامطة والمزدكية والمانوية، ورسائل إخوان الصفا والفكتر الباطني جملة .

وقد كان حقا لنا أن لا نعود إلي هذا الركام بعد أن كشف المسلمون منذ القرن الرابع الهجري فساده ، وقد حطم الإمام الغزالي دعاوي الإباحيين والباطنيين ، ورد ابن تيمية علي منطق أرسطو، وكشف عن منهج القرآن في الحجاج والجدل ولكننا نجد في العصر الحديث محاولة إحياء هذه النظريات وبعد أن أسقط الغربيون منهج أوسطو. جاء الاستعماريون في بلاد الإسلام ليفرضوه علي المسلمين ويمنعوهم من المنهج التجريبي الذي كانو وهم صانعيه، ومحاولة حشو أذهانهم بالفكر الباطني وإحياء وحدة الوجود، والحلول والاتحاد ، والتصوف الفارسي الذي عمل فيه مستشرق وهب حياته كلها له ، فترك آثاراً تبدو اليوم خطيرة فقد أحيا أمثال زوزبهان الشيرازي وغيره من الغلاة وما نتج عن ذلك مما كتبه «كوربان» عن الفن والنظرة الجمالية ، وقد صحح علماء المسلمين الموقف من التصوف فقالوا نحن أتباع النصوص لا اتباع الفصوص[1] واعترفوا بدور الصوفية في الجهاد في سبيل الله ، ونشر الإسلام ، ومواقفهم الحاسمة في الحروب الصليبية ، وصححوا المعادلة بين المنقول والمعقول وجعلو

---

(١) يقصد نصوص الحكم لابن عربي.

المعقول متفقا مع المنقول ، والمنقول هنا هو الوحي الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وما يدرس في جامعاتنا عن الفلسفة ، يضعنا ويضع فكرنا الإسلامي في موضع التبعية والانحسار، بين الفكر اليوناني والفكر الغربي المادي الحديث ، وهو ليس كذلك إطلاقا.

أما مفهوم العلم الذي يدرسه أبناؤنا فهو العلم المفرغ من الإيمان بالله. فكلهم ينكرون الدين ، فيراه ماركس انعكاسا للظروف المادية، ويراه دور كاريم ظاهرة اجتماعية، والإنسان عندما لا يعبد الله ، فإنما يعبد المجتمع.

خيال وظنون:

ومن هنا تحدث الإزدواجية بين ما يقول به الإسلام والقرآن من خلق آدم ، ومن تقوله نظرية دارون ، وما من واحد من هؤلاء ، دارون ، فرويد ، دوركايم ، في شتي فروع العلم الذي يدرس إلا متعارضا مع مفاهيم الإسلام.

فضلاً عن ذلك الفصل الواضح في العلوم الغربية ، بين العقل والقلب ، وبين البعد العقلي والبعد الروحي الذي يرونه « بعد الخيال والظنون » لأنه لايدخل في نطاق المحسوس ، ومن ثم فإن الوحي والنبوة عندهم من الأمور المهزوزة.

ففي الغرب يقولون : « اعتقد وأنت أعمى » أو أغمض عينيك واتبعني ، أما في الإسلام فهناك ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ ، فالعقلانية والروحية يتعانقان في الإسلام ونحن إن نقلنا مفاهيم الغرب في مجالات النظر الفلسفي أو العقلي أو الروحي فإننا نجد مفاهيم مختلطة ، منها مفاهيم علم الأصنام اليوناني ومفاهيم المسيحية النسطورية، ومفاهيم أفلوطون ومدرسة الرها الغنوصية . فلا يمكن حين تختلط هذه المفاهيم في الإسلام علي أيدي المعتزلة أو الباطنية أو دعاة

الجبر أو القدر أو الإشراق ، أو غيرها من هذه النظيريات المضطربة ، لايمكن أن نجد في هذا كله ضوءا من الإسلام النقي الصحيح ، القائم علي التوحيد الخالص ، بل تجد مفهوماً مختلطاً ملفقا يمكن تسميته التجسيم ، وهو الذي أطلق عليه علماء المسلمين اسم المشبهة ، هذا الذي جاء الإسلام ليحرر البشرية منه ارتفاعا بالعقل المسلم إلى الإيمان بالقيم الروحية العليا ، علي نحو عالم الغيب ، الذي هو من أسس الإسلام الرصينة ﴿ الـم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾.

فقد قدم لنا الإسلام تصوراً ميتافيزيقيا غيبياً كاملاً فأغنانا عن البحث عنه وأمرنا بالإيمان به ، وهو ما يتصل بكل عالم ما وراء المادة ، وهو الأمر الذي خاض فيه الفلاسفة وأثاروا الشبهات وأفسدوا عقول من آمن بهم وضلوا وأضلوا. ولم يصلوا إلي شيء ؛ لأن الله تبارك وتعالى وحده هو الذي يعلمه ، ولقد أعطى تبارك وتعالى المسلمين هذا التصور ، حتى ينصرفوا عن البحث فيه إلى البحث عن عملهم الحقيقي في الحياة وهو السعي والعمران.

مادية الفلسفة الحديثة

ومن هنا فإن هذا الخليط كله الذي يدرس تحت اسم علم الكلام أو الاعتزال أو الفلسفة القديمة هو أمر يجب أن تتحرر منه المناهج التعليمية والجامعية لأن الفلسفة الحديثة قائمة علي إنكار كل ما وراء الحس والمادة وتتعدد فيها المدارس التي تنكر الغيب والوحي والنبوة والروحيات جميعا. حتي قالوا إن العقل هو اسمى نتاج المادة . والعالم لم يوجد إلا اتفاقا ومصادفة وقد كان هدف هذه المدارس المادية سواء في علم الاجتماع والنفس أو الاخلاق تقويض أركان العقيدة الدينية. والاعتداد بالعقل والعلم . وظهر التفسير المادي للتاريخ . الذي يقوم علي أساس أن نمو الحياة البشرية فردية وجماعية يتوقف علي الظروف المادية

والاقتصادية ، وأن الصراع بين الطبقات هو الذي يحكم سير التاريخ.

علم الاجتماع

وبالنسبة لعلم الاجتماع فقد أخذ المسلمون في هذه الأيام منطلقهم ، ليس من حيث انتهي ابن خلدون ، بل بما كتبه (دور كايم) اليهودي الذي كان يكره ابن خلدون ويحقد عليه ، ويصفه بأوصاف نقلها عنه طه حسين في كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ، حيث أخذت المدرسة الاجتماعية في فرنسا تقدم تفسيرا تلموديا ماركسياً وفق بروتوكولات حكماء صهيون ، وسار علي نمطه كثير من العرب المستغربين ثم نشأت ناشئة من الأصالة تدرس علم الاجتماع علي أصوله الإسلامية. في مقدمتهم الأستاذ محمد قطب وآخرون . ووصل حسن الشرقاوي إلى دعامات أساسية لعلم نفس إسلامي ، كذلك فقد درس شيخنا الدكتور محمد عبدالله دراز ، منهج الأخلاق من القرآن الكريم ، قارن في بحثه بين منهج الإسلام، وجميع المناهج الغربية ، وكشف تقصيرها وفسادها، وكل هذه حفريات يجب ان تتسع ، في مجال الكشف عن الخلاف العميق بين أصول الفكر الإسلامي وأصول الفكر الغربي (النصراني اليهودي اليوناني الروماني).

ومنها علوم قامت من أجل تركيز نفوذ الاستعمار وقد استعملت نظرية دارون في هذا الصدد، كما استعملت نظرية جونبيو في الأجناس من أجل انتقاص الأجناس الملونة ، وإعلاء الجنس الأبيض المستعمر ، وإعطائه الحق في نهب ثروات الأمم . وكانت مفاهيم « الانثربولوجيا » ، قد نشأت بتشجيع ودعاية الاستعمار حتي يتمكن من قهر الشعوب المتخلفة وامتصاص ثرواتها ، وان وظيفة «انثربولوجي» ، لاتوجد إلا في البلاد الاستعمارية « علي حد تعبير دكتور زيدان عبد الباقي» وهذه المفاهيم تتنافي تماما مع مفهوم الإسلام الجامع بين العوامل المادية والروحية فضلاً عن أن أعظم أحداث التاريخ التي غيرت

المجتمعات ، كانت نتيجة للإيمان والعقيدة ، والتضحية بالنفس والمال في سبيل إحقاق الحق وهزيمة الباطل .

إن الحقيقة عندهم هو ما يمكن إدراكه بالحواس الخمس ، اما ما سوي ذلك فهو ليس بموجود أصلاً كالمعدوم ، أما الإسلام فقد أقام قاعدة عريضة قوامها ، العقل والوجدان وتجربة التاريخ ، حيث يكون أفضل العلم ما دخل من العقل إلي القلب ، وحيث الإيمان بالغيبيات.

والإسلام هو الذي وضع قاعدة البرهان : ﴿قل هاتوا برهانكم ﴾ والنظر في السموات والأرض : ﴿قُلْ سِيروا في الأرضِ فانظروا ﴾ ، ومنها انطلق المسلمون الى بناء المنهج العلمي التجريبي ، ومنهج المعرفة ذي الجناحين ، ومنهج قيام الحضارة والمجتمعات وعوامل انهيارها فالإسلام بهذا هو مصدر كل العلوم والمناهج القائمة علي التوحيد الخالص وعلي أن الله تبارك وتعالي هو خالق كل شيء ، وهو الذي يدير هذا الكون لحظة بلحظة ، ومن خلال القرآن الكريم نجد المفاهيم الأصلية الأساسية لعلوم النفس والاخلاق والاجتماع والتربية إلي جانب علوم السياسة والاقتصاد والقانون والاقتصاد.

وقد استطاع علماء المسلمين اكتشاف بعض القوانين والسنن الاجتماعية من خلال القرآن ، كما فعل الغزالي وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون ، ولكنا الان في حاجة إلي توفر أكبر علي هذه الدراسات علي قاعدة استضاءة العلم بنور الوحي والشرع ، وقد أقام العلماء المسلمون منذ وقت بعيد ، قاعدة أساسية ، هي لكل أمة شخصية تستمدها من عقيدتها وأخلاقها ، وأن الأمم لا تنهض إلا ببناء الإنسان ، وأن من يعيش عصره يجب ألا ينقطع عن ماضيه ، (إننا نطالب الآن بأسلمة العلوم والمناهج ، وتقديم البدائل الإسلامية وتصحيح دوائر المعارف والوقوف من العلوم الانسانية موقف الحذر ، أما العلوم المادية فيجب أن ننقلها إلي دائرة الفكر الإسلامي واللغة العربية كمواد خام لنضعها في دائرة عقيدتنا التي تختلف وجهتها عن وجهة الغرب .

يقول جورج سارتون في كتابه تاريخ العلوم بإن هناك مساحه ٣٥٠ سنة متواصله للمسلمين من (٧٥٠ - ١١٠٠) تبرز فيها اسماء « جابر بن حيان » والخورازمي والرازي والمسعودي وابن الهيثم والبيروني وابن سيناء.

ومعنى هذا تاكيد أولية المسلمين في مجال العلم التجريبي ومن هنا فإننا أصحاب منهج أصيل يسمح لنا باستيعاب العلوم التجريبية الغربية وإعادة صياغتها في إطار مفهومنا للعلم والحضارة.

١- التماس مفهوم التوحيد الخالص.

٢- بناء المجتمع الإسلامي علي شرعة الله تارك وتعالى .

٣- تاكيد روح الالتزام الأخلاقي والمسئولية الفردية.

٤- الإيمان الصادق بمسئولية المسلم إزاء تطبيق منهج الله تعالي.

وفــي داخـل هـذا الإطـار يمكن البحث عن سلم الأوليات فـي إعـادة النهضه والبناء.

ومـن هنا لابد أن يشكل المنهج العلمي الإسلامي مفهوم القرآن لا مفهوم الغرب.

إن الغربيين يلوحون لنا اليوم بالدخول في باحة العلم والتتكنولوجيا بقصد مدخول ، هو أن نذوب في الحضارة الغربية ونقبل أوضاعها السائدة اليوم بكل أخطائها وتجاوزاتها ، يريدون أن تضع مقدراتنا في هذا الموقد أو الأتون الذي يستهلك كل شيء ويصيره إلي رماد ، تحت اسم الترف والاستهلاك ، وتبديد الثروات الطبيعيه في أفاق المتع الزائفه، حيث يحصل علي اضعاف مضاعفة ، بينما المجموعة الكبري من البشر يعيشون عيش الكفاف ويموتون جوعاً بالملايين كل عام .

إننا إذا قبلنا احتواء الغرب نكون قد قضينا علي ذاتيتنا الخاصة وانصهرنا تماماً في البوتقة الغربية في ساعات هزيمتها وانهيارها.

إن مفهومنا الإسلامي يتعارض مع الاستهلاك والتكديس وتدمير مقومات الأمم فنحن لانقبل هذا الاتجاه جمله ولنا وجهة أخري تختلف عن هذه.

إن مقدرات الأمم في الإسلام لاتحتكر من أجل الأهواء والشهوات ، ولا توقف علي الجنس الأبيض المتسلط، ولكنها تمثل عدالة الله ورحمته بالبشرية كلها إننا لانقبل ان نندفع في هذا التيار المتعارض مع الأمانه التي وكلها الله تبارك وتعالى إلى الانسان من أجل إسعاد البشرية كلها وليس صنفا واحداً منها.

ومن هنا فلابد من أسلمة مناهج العلوم الطبيعية والتجريبية أيضاً وليس مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية فحسب ، وإدخالها في إطار اللغة العربية ومفهوم الإسلام أساسا من أجل إعادة بناء الحضارة الإسلامية بعد أن انهارت مفاهيم الحضارة الغربية ووصلت إلي هذا الحد من الدمار.

إن الغرب لا يريد أن يخرج المسلمون من دائرة الاحتواء المُغلقة، لينصهروا في هذه الحضارة الغازية ، إن المجتمع المسلم له مفهوم مختلف عن مفهوم الغرب في كل شؤون التمويل والتنمية والاستهلاك ، ولابد أن تعود موارد الأمة الإسلامية المستثمرة خارج بلادها إليها.

(٨٣)

وحدة الثقافة الإسلامية

إن أهم ما يمكن أن يكشف عن الأمة الإسلامية في هذه المرحلة (العقد الأول من القرن الخامس عشر) ما تواجهه من تحديات وأخطار تحاول احتواءها وصهرها في بوتقة الأممية العالمية ، هو إقرار مفهوم جامع واضح للثقافة الإسلامية، وتجرى دراسة في مختلف المعاهد والمدارس والجامعات في الوطن الإسلامي عامة وتنشأ عليه الأجيال الجديدة من المسلمين فهو وحده القادر على تحقيق أمرين هامين:

اولاً: إرساء مفاهيم الإسلام بوصفه رسالة الله الخاتمة إلى البشرية، الجامعة للعقيدة ونظام المجتمع، القادرة على العطاء على مختلف العصور والبيئات المحققة لبناء المجتمع الإسلامي الرباني، وإخراج المسلمين من أزمة العصر وإعطاء النفس الإنسانية أشواقها ومطامعها، وتحرير الأرض الإسلامية من الدخيل.

ثانياً: دحر الغزوة التغريبية الثقافية والمتشابكة من تيارات المذاهب الوافدة والشيوعية والصهيونية والباطنية والوثنية والمادية والعلمانية، وردعها وبناء الحصانة الحامية للمسلمين من سيطرتها واحتوائها والتحرر من التبعية الأجنبية.

ومن هنا فإن الميثاق الإسلامي الذي تلتزم به الدول الإسلامية يجب أن يقوم إساساً على:

اولاً: إعادة بناء منهج التربية والتعليم من جديد على أساس إسلامي أصيل،

والتحرر من منهج التعليم الوافد الذي يقوم على مفاهيم «ديوي» التي تفصل بين التعليم والتربية من ناحية وبين التعليم والدين من ناحية أخرى.

ثانيا: أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات وتحريرها من المفاهيم الوافدة وإعادتها إلى المفهوم الإسلامي الأصيل وخاصة في مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية.

ثالثا: تحرير مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق من التبعية للمفهوم الغربي، والكشف عن زيف مفاهيم الفرق والنحل ودعوات الباطنية وغيرها، والتحرر من التبعية لمفهوم الفلسفات والكلام والاعتزال والتصوف الفلسفي.

رابعا: إبراز الدور الذي قام به الإسلام في مجال والحضارة المعاصرة والتنبيه على المفاهيم المحررةالتي قدمها في مختلف مجالات العلوم الرياضية والفلك والكيمياء والضوء والجغرافيا وغيرها، وخاصة المنهج العلمي التجريبي ومنهج المعرفة ذي الجناحين ولذلك أثار واضحه في مجال علوم التاريخ والاقتصاد والسياسة.

خامسا: تقديم مفهوم الإسلام الجامع بوصفة منهج حياة ونظام مجتمع (عقيدة ومعاملات وأخلاق) على مفهوم أهل السنة والجماعة وإقرار مفهوم الإسلام في: تكامل العقل والقلب والروح والجسد، وفي بناء المجتمع الإسلامي على أساس بناء الفرد ، بناء الأسرة ، وبناء الجماعة وإقرار مفهوم أمانة الإنسان المسلم في السعي والعمل والكسب والعمران على أساس المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي، وإبراز مفهوم الإسلام في قضية المرأة والعلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الآباء والأبناء وحماية الشباب.

سادسا: ويتطلب هذا تصحيح المفاهيم التي تحاول أن تصبح كالمسلمات، وتصحيح مفهوم التطور وما يسمى بالمسئولية الجماعية، والكشف عن الخلاف

الواضح بين مفهوم «ماركس» و «فرويد» و «دارون» ودوكايم» و «سارتر» في مختلف مجالات الاقتصاد والاجتماع وفق مفهوم الإسلام القائم على:

١- تكامل الجانب المادي والروحي.

٢- عدم إخضاع العلوم الإنسانية لمناهج العلوم المادية.

٣- مفهوم الترابط بين التراث والعصر.

٤- مفهوم التكامل بين الوطنية والقوميات والوحدة الإسلامية.

سابعاً: الكشف عن زيف الفرق والنحل ودعوات الباطنية والإسرائيليات القديمة والجديدة ومواجهة النحل الجديدة كالقاديانية والبهائية والماسونية والروتاري.

ثامناً: تثبيت مفهوم الجهاد (الشريعة الماضية إلى يوم القيامة) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإصرار على تحرير القدس وفلسطين وأفغانستان وإحقاق حقوق المسلمين في أرتيريا والفيلبين.

أولاً: تأصيل التصور الإسلامي للثقافة.

تقدم الثقافة الإسلامية على أساس مفهوم التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، وإسلام الوجه لله، والإيمان بأنه خالق كل شئ ، وأنه يدير هذا الكون ساعة بعد ساعة ولحظة بعد لحظة ومنه يبدأ الأمر وإليه ينتهي ، وأن الإنسان مستخلف لأداء رسالة الله في الكون، والإيمان بأن رسالة الإسلام التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) هي خاتم الرسالات والإيمان ، ومن هنا فإن التصور الإسلامي يجب أن يشمل هذه الأمور:

أولاً: وحده المسلمين الجامعة ، والتوجه من القوميات والإقليميات والوطنيات إلى الوحدة الإسلامية، والتخلي عن فكرة القومية المنفصلة عن تكامل الإسلام.

ثانياً: تكامل المنظومة الإسلامية والتوجه من الإنشطارية الفردية إلى النظرة

الإسلامية الجامعة وإسقاط فكرة العلمانية من الحياة الثقافية الإسلامية وهي فصل الدين عن الدولة وإبعاده عن شوكة الحياة ، ذلك أن العلمانية هي الخطر الأكبر على الأمة الإسلامية.

ثالثاً: تحرير المجتمع الإسلامي من تبعية المذاهب الوافدة وفي مقدمتها مناهج التعليم، والمدرسة الأجنبية، ومن رسائل التسلية والترفيه المنحرفة، ومن التحلل الخلقي والإباحية.

رابعاً: تحرير الاقتصاد الإسلامي من المصارف الربوية ومن نظرية الاقتصاد السياسي الوافدة وإقامة منهج الإسلام الاقتصادي الجامع المختلف عن الرأسمالية والشيوعية.

خامساً: بناء المجتمع الإسلامي وفق ركائزه الأساسية.

من الشورى والعدل الاجتماعي والإخاء الإنساني.

(وليست الشـورى هـي « الديمقراطيـة » ، وليـس العـدل الاجتمـاعي هـو « الاشتـركيـة »).

سادساً: بناء الإنسان المسلم على مفاهيم الأخلاق والقيم الإسلامية، وتحريره من روح الإلحاد والبعد عن الدين، وتشكيله على أساس الانتقال من الفردية إلى العشيرية (الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد) وعلى أساس إعلاء الأخلاق على الجمال.

سابعاً: تحرير الصحافة والثقافة من التبعية والولاء الأجنبي.

ثامناً: تحرير التاريخ الإسلامي من التقسيم القومي ، والإقليمي ، ومن التفسير المادي الذي يفقده روحه الجامعة ويطفئ نور عطائه.

تاسعاً: تحرير التراث الإسلامي من محاولات تجديدة بإحياء الجوانب المضطربة منه، وإخفاء الجوانب الإيجابية، والعمل على ضرورة ارتباطه بالميراث الأساس (القرآن والسنة).

عاشراً: تقديم المفهوم الإسلامي للمرأة المسلمة من حيث العمل والملبس والتعامل مع الناس ، وإبراز أهمية دور المرأة في بناء الأجيال الجديدة وعدم التضحية بها في سبيل الكسب المادي.

حادي عشر: تقديم مفهوم علم النفس الإسلامي القائم على إقرار الأسلام رغائب الإنسان كلها مع وضع الضوابط الخاصة بها لحماية الإنسان من التقدير والانبهار.

ثاني عشر: تقديم مفهوم (علم الأخلاق) الإسلامي القائم على أن الأخلاق من الثوابت المرتبطة بالعقيدة ، وهى غير (التقاليد والعادات) المتغيرة.

ثانياً: ترشيد التصور الإسلامي للثقافة.

تقوم الثقافة الإسلامية على أسس واضحة:

أولاً: أن يكون العلم وسيلة إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وأن مهمة الإنسان الأساسية في الحياة هي العمل على العمران والسعي في سبيل إقامة المجتمع الرباني المتحرر من الربا والإباحية والفساد وأن يكون سعيه أخلاقي الوجهة.

ثانياً: دعوة الإسلام إلى العلم بنوعيه: المادي والديني وأن يكون العلم في غايته وسيلة إلى معرفة الله تبارك وتعالى والإيمان به.

ثالثاً: إقرار التقدم في مفهوم الإسلام (مادياً ومعنوياً) على أساس التوجيه القرآني ولا يضحى بالمعنوي من أجل المادي.

رابعاً: تكوين الوجدان الإسلامي الذي يلتزم بالأخلاق الإسلامية والتأدب بأدب الإسلام وبناء قوة الرقابة الداخلية (الضمير).

خامساً: إقامة منهج المعرفة الإسلامي الجامع بين الروح والمادة.

سادساً: إقرار دعوة الإسلام إلى إصلاح الدنيا، وإقامتها على حدود الله،

وليس إلى ترك الدنيا والزهد فيها والانسحاب منها.

سابعاً: إقرار مفهوم أهل السنة والجماعة بعيداً عن المفاهيم الفلسفية والمعتزلية والصوفية الفلسفية.

ثامناً: إقامة مفهوم العقل في ضوء الوحي.

تاسعاً: إقرار مفهوم تطابق الوسائل مع الغايات وارتباط الفكرة بالتطبيق.

عاشراً: إحداث التغيير من الواقع إلى الأصالة يجب أن يبدأ من نقطة التماس منهج الله.

حادي عشر: تصحيح الهوية وتغيير العرف بإعادة المسلمين إلى المنابع عن طريق التعليم والتربية والثقافة.

ثاني عشر: تأكيد مفهوم مسئولية المرأة في الأسرة وأثرها في بناء الأجيال الجديدة وفساد دعوى تحرير المرأة.

ثالث عشر: حماية اللغة العربية الفصحى من محاولات تدميرها وتغليب العاميات واللغات الأجنبية، والكشف عن محاذير الترجمة، وتعلم اللغات المختلفة دون أن يكون ذلك في إطار الالتزام الإسلامي.

رابع عشر: الكشف عن أصالة مفاهيم: القرآن، الوحي، السنّة.

خامس عشر: الكشف عن الفوارق الأساسية بين الإسلام وبين الأديان الأخرى، وخاصة مفهوم وحدة الأديان الذي تدعو إليه القاديانية أو البهائية.

سادس عشر: العمل على مواجهة خطة إزالة الهوية الإسلامية والقضاء على الذاتية الخاصة، ومقاومة غرس القيم الدخيلة في نظام القيم السائد.

سابع عشر: استكمال النقص في المناهج التعليمية، بتقديم مفاهيم الإسلام في بناء الأسرة والتكافل الاجتماعي.

ثالثاً: مواجهة التغريب والغزو الفكري:

إن مواجهة الفكر الوافد هي من أكبر المهام التي يجب أن يتجه لها عدد كبير من الباحثين المسلمين من أجل تحقيق خطوات جديدة في طريق الأصالة والترشيد الفكري للمفهوم الإسلامي للثقافة.

وقد تحقق في السنوات الأخيرة خطوتان كبيرتان:

أولاً: قدرة الباحث الإسلامي على كشف فساد الأيديولوجيات الغربية وعجزها عن تحقيق أي هدف في محيط العالم الإسلامي، فضلاً عن عجزها في بنياتها الأصلية.

ثانياً: ظهور المناهج الجديدة في مجال العلوم الإسلامية: علم الاجتماع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي، وعلم الاقتصاد الإسلامي ونظرية الأدب الإسلامي.

ثالثاً: حققت حركة اليقظة الإسلامية تقدماً في سبيل تصحيح أخطاء الشبهات التي طرحها الاستشراق والتبشير فانكشف:

١- فساد نظرية السامية التي حاولت أن ترد الأمة الإسلامية إلى أصل مجهول وحجب الجذر الإبراهيمي الأساسي (الحنيفية السمحاء).

٢- فساد نظرية إحياء الدعوات السابقة للإسلام كالفرعونية والفنيقية والأشورية والبابلية، وغيرها، وتأكيد حقيقة (الانقطاع الحضاري) بين الإسلام وما قبل الإسلام.

٣- تصحيح قصة الدولة العثمانية وكشف الاتهامات الموجهة إليها وإلى السلطان عبد الحميد وتبين دوره الحاسم في مواجهة الصهيونية.

٤- فساد نظرية «دارون» القائلة باتصال نسب الإنسان بالحيوان وتبين من الحفريات المتعددة استقلالية خلق الإنسان تماماً.

٥- انكشاف فساد نظرية «فرويد» عن الجنس وقد تبين بالوثائق أن مفهومه مستمد من التوراة والتلمود.

٦- انكشاف فساد القانون الوضعي، نظام التعليم الغربي، النظام الربوي .

٧- سقوط المذهب المادي باكتشاف العلم أموراً غير عادية، وبخاصة تحول المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة.

٨- انكشاف صلاحية الإسلام لإنقاذ البشرية مما ترددت إليه مما كتبه علماء غربيون مختلفون، كما انكشف فساد الحضارة الغربية وتزييف الكتب القديمة.

٩- انكشاف فساد التفسير المادي للتاريخ ومنهج العلوم الاجتماعية، وزيف دعاوي الفلكلور، وكتابات ابن سينا والحلاج، ورسائل إخوان الصفا وابن عربي.

(٨٤)

السلفيـة

حاولت كتابات المستشرقين والتغريبيين والماركسيين إضفاء صورة قاتمة على مفهوم السلفية ، إذ نسبت إليه كل تأخر وجمود وتخلف ووصفته بأنه القديم البالي.

والواقع أن مصطلح السلفية إنما يعني غير هذا ، إنه يعني التماس المنابع والعودة إلى الأصالة . وهو كما يقول الدكتور (مصطفى حلمي): «علم على أصحاب منهج الاقتداء بالسلف من الصحابة والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى ، وكل من تبعهم من الأئمة الأربعة ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن المبارك ، والبخاري ، ومسلم ، وسائر أصحاب السنن ، كما شمل شيوخ الإسلام المحافظين على طريقة الأوائل مع تباين العصور أمثال: ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، وكذلك أغلب أصحاب السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية ، والقارة الهندية، ومصر وشمال إفريقية ».

وقد كانت هذه الحركة ذات أثر واضح في تنقية مفاهيم الإسلام ودفعه إلى الأمام ، لمواجهة الحضارة والتطور والتكيف مع جوهر الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة ، القادرة على الحياة في كل جيل وفي كل بيئة.

أما من حيث المضمون ، فإن السلفية في الإسلام هي التعبير عن منهج المحافظين على مضمونه من ذروته الشامخة ، وقمته الحضارية ، كما توجهنا إلى النموذج المحقق في القرون الأولى المفضلة ، ولقد استمدت حضارة المسلمين أصولها ومقوماتها ممثلة في العقيدة خضوعاً للتوحيد، وبياناً لدور الإنسان في هذه الحياة، وتنفيذ القواعد الشرعية الإلهية بجوانبها المتعددة، في الاجتماع والاقتصاد، والسياسة والأسرة والأخلاق.

فالسلفية كمصطلح تعني الاقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإن أمتنا تنفرد بمزية لا تشاركها فيها أمة أخرى في الماضي أو الحاضر أو المستقبل تلك هي تحقيق القدوة في شخصيته (صلى الله عليه وسلم) ، إذ حفظت سيرته كاملة محققة بكافة تفاصيلها.

وهكذا فإن السيرة النبوية حية في كياننا ونحن نعيشها كل يوم ، وتطبيق الشريعة الإسلامية منفذ على طول الزمن ، لا يتعلق بعصر دون آخر ، بل إن كل جيل من أجيال المسلمين مطالب بتنفيذ أصولها النقية مع الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ، عند مواجهة أحوال الحياة المتغيرة كما هو معروف في أصول الفقه.

وقد أصبح اسم السلفية علماً في العصر الحديث علي أهل التوحيد منذ حركة محمد بن عبد الوهاب ، وعندما اشتدت المقاومة ضد الاستعمار الغربي بهدف المحافظة علي أصالة الأمة الإسلامة في عقيدتها وشريعتها واخلاقها ، حتى لا تتميع أو تهتز تحت ضربات الغزو الاجنبي.

وقد ظهر السلفيون إبان الهجوم المكتسح عندما نقل الفكر الغربي اليوناني واللاتيني حيث أخذوا في دراسته وتحليله ومناقشتة ورد أباطيله، ثم تبين ذلك بمقياس العلم الإسلامي فما وافقه قبله البعض وما خالفه رفض، وكان الرفض من علماء السلف محافظة علي شخصية الأمة وأصالتها.

ولما جاء المستشرقون أخذوا يقلبون صفحات تاريخنا لاستخراج كل ما يسيء إلي الإسلام. فأعلوا شان الفرق المنشقه كالخوارج والمعتزله والصوفية المنحرفين، والفلاسفة، وعملوا على إحياء وتحبيذ ومدح نحل ومذاهب مختلفة ، إما بأسمائها المعروفة كالإسماعيلية أو الباطنية ، أو تحت أسماء جديدة كالبهائية والقاديانية. وبعث الإلحاد من جديد تحت شعار العلمانية والماركسية والدّاروانية ، مع نشر فكرة (وحدة الأديان) أو التقريب بينها وإزالة الحواجز بين الحق بصوره الوحيدة والباطل بصورته المتعددة المتضاربة.

ولقد كانت طريقة السلف هى المحك الذي كشف زيف هذه العقائد والنحل مهما تغيرت الأزمنة والأعصار، لأنها طريقة موضوعية ذات أسس علمية منهجية، تعتمد على النصوص الشرعية الموثقة، وقد كشفت هذه الطريقة حقائق كثيرة: من أن هناك مسائل ثابتة لا تتغير كفطرة التوحيد، وفي مخاطبة العقول البشرية للبرهنة على النبوات بعامة، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم بخاصة، والرد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في كل ما انحرفوا به عن الشرع المنزل، مع دحض شبهات الملحدين والمشركين، هذا فضلا عن ثبات الفضائل الأخلاقية وقواعد التحليل والتحريم في المأكل والمشرب والملبس، وتنظيم العلاقات الاجتماعية والمجتمع وإقامة العلاقات الدولية مع سائر الأمم وفقاً لأصول الشرع.

ولا ريب أن الحركة السلفية هى الحركة الكبرى التي جددت الدعوة الإسلامية ولولاها لهان على الغرب أن يستعبد الشرق روحياً وفكرياً إلى أمد بعيد.

وقد حاول الاستشراق إفساد مفهوم السلفية الأصيل، وكان «ارنولد/ توينبي» هو أحد الذين صوروه بأنه ارتداد عن محاكاه الشخصيات المبدعة المعاصرة إلى محاكاه اسلاف القبيلة حيث قال:

« تعد الحركة السلفية سقوطا من الحركة الديناميكية للحضارة إلى الحالة الاستاتيكية التي يشاهد عليها الإنسان البدائي في الوقت الحاضر، بهدف تثبيت مجتمع منهار ، ومحاولة تبذل عن حدوث موقف اضطراري ، وإنما تظهر في شكل منظم متكلفة وآراء تتشبث بالمصطلحات الفارغة ، وتعبر عن نفسها بمنهج يتسم بالسلفية ، وعيب «توينبي» والمستشرقين أنهم ينظرون إلى الحركة السلفية الإسلامية على ضوء الحركة الإنجليزية الكاثولوكية والإصلاح الديني خلال القرن السادس عشر، والتي كانت ترمي إلى استعادة استخدام طقوس كانت شائعة خلال القرون الوسطى، ثم هجرت وألغيت منذ اربعمائة سنة، والواقع أنه في العالم الإسلامي قامت حركة حقيقية بين المحافظين على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ،

وبين الذين عادوا من أوربا قد فتنتهم ببريقها فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه . ثم قضت، العصبية تحت دعوى التحديث على كل أصيل في الدين واللغة والأدب ونظم المجتمع والاقتصاد والسياسة بدعوى نبذ القديم البالي والأخذ بالجديد الحالي، وظهرت دعوات تطور الدين وهى كلمات منقولة من الفكر الغربي والتفسيرات والتأويل، وأصبح الإسلام هدفاً لحملات تحمل اسم القديم والماضي والتراث والرجعية، للنيل من مقوماته الراسخة المحددة للحلال والحرام، والخير والشر، والرذائل والفضائل بدعوات ضالة منها: النسبية والتطور نسبية الأخلاق والتطور المطلق وعدم الثبات وما يسمى الثورية والتجديد، والتقدمية والعصرانية.

وجرى تحديث المذاهب الكلامية والفرق الصوفية والمدارس الفلسفية وبقيت الطائفة الظاهرة على الحق التي ظلت تعض بالنواجز على الكتاب والسنة بالطريقة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ولقد وقف علماء السلف جيلاً بعد جيل بصلابة أمام محاولات التجزئة والبتر، والتأويلات الكلامية، والتمزيقات الفلسفية والتفسيرات الرمزية الباطنية فلم يهنوا ولم تعد لهم همة.

ووقف علماء السنة والسلف بالمرصاد مبينين الانحرافات عن الأصول الإسلامية، وظل الإسلام محفوظ في الأصلين العامين: الكتاب والسنة، وإن تلقينه وتطبيقه بنمهج السلف هو الذي حفظه حتى الآن وقد حارب علماء السنة والسلفية نزعة الجبرية التي ساهمت في ركود الهمم، وإضعاف الإرادة الإنسانية، وتغليب سلبيتها على جانبها الإيجابي البسيط، وعملوا على المحافظة على الإسلام من مصادره وعقيدته وعباراته ومعاملاته وأنظمنه وفقا لطريقة السلف: الحسن البصري . سعيد بن المسيب . سعيد بن جبير . إلى أمثال ابن حنبل وابن تمييه والدارمي ، الشافعي ومالك . وابن حريمه والشاطبي . وابن

القيم ، والشوكاني وابن الوزير اليماني ، وغيرهم ومحمد بن عبد الوهاب في العصر الحديث للإطاحة بمظاهر الشرك والوثنية لتخليص عقيدة التوحيد من جديد.

ويقر أرنولد توينبي : بأن الحضارة الإسلامية لم تمت عضويا كما ماتت الحضارة الاغريقية ويرجع الفضل في بقائها إلي نقاء العقيدة .

وظل دور المسلمين باقيا في إحياء عقيدة التوحيد وفهم الأوائل للإسلام ، لأن الإسلام كما يقول (توينبي) قد أعاد توكيد وحدانية الله عز وجل في مقابل الضعف المادي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية .

وقد استمرت السلفية في المحافظة علي التوحيد في جوهرة النقي فمنعت تردي العقيدة الدينية إلي صورة من صور الوثنية .

وكان الذين وجهوا الضربات القاصمة أناسا ينتسبون إلي طائفة من المتفلسفة والقرامطة الباطنية والاسماعيلية كابن سينا وأمثاله ، وأصحاب رسائل إخوان الصفا، والعبيدين (الدوله الفاطميه) الذين كانوا يتظاهرون بالتشيع وهم في الباطن ملاحدة.

وهكذا يمثل السلفية تلك الجهود المبذوله فيي المحافظة على طريقة الاتباع لا التقليد ومقوماتها الجامعة بين إخلاص التوحيد لله تعالى وحده والايمان بالوحي طريقا لمعرفة عالم الغيب مع استسلام الإنسان في شئون حياته لما أمر به الله بواسطة خاتم الرسل، وتحرير العقول من الوثنيات وترك الشرك ليتفرغ فيما نعود علي الإنسان بالنفع في ميادين العلوم ، ووسيلتها النظر والتجربه مع ثبات الفضائل الأخلاقيه والقيم الانسانية .

ويأتي الجانب الآخر من السلفية هو المتصل بالتراث:

ويقول الدكتور عبد السلام العجيلي: « إن الاعجاب بالماضي عند المسلمين

يحمل طابع القداسة . وانما يحمل طابع التقدير للدور الذي جاءت به الرسالة السماوية الخاتمة ، والتعبير الخطير الذي احدثته في موازين المجتمعات الإنسانية وإن الإعجاب بالماضي ليس قائما على مسكوكات أثرية ، أو أوان فخارية ، إو إهرام إو مباني إو قصور ، كما يفهم البعض من الحضارة ، ولكن الإعجاب ينصب علي القيم ، فنحن نحاكم هذا الماضي إلى العقيدة، فكل ما جاء بها وسار على هديها فنحن نعجب به، وكل ما يخالفها فنحن ننظر فيه بحثاً وراء العبرة مقدرين أن الهزائم التي وقعت فيها الأمة الإسلامية إنما جاءت من تجاوزها أصول منجها وحدود شريعتها، هذا الارتباط بالأمة التي حملت لواء (لا إله إلا الله) ونزل فيها القرآن وبعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم ووصفت بانها﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، ومصدر الإيمان والإعجاب هو الأصل في أن تكون الأجيال الجديدة سائرة على هذا الطريق الذي رسمه الله تبارك وتعالى لها ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، فالتقدير والإعجاب يرجع إلى المضمون والقيم وليس إلى عدد السنين ولا إلى الاستعلاء بالعنصر. هذه الأمة التي حملت رسالة الله إلى البشرية ولا تزال تحملها، هذه الأمة لها ذاتية خاصة بين الأمم يريدون طمسها، ويجب أن نحافظ عليها، لها مفهوم كامل في كل المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصاد والتربية ولها بطولات صنعها الإيمان بالله، وكل حركات التحرر من النير الأجنبي كانت تحت لواء الجهاد في سبيل الله وإن اختلفت مظاهرها وطنية أو قومية، إن هناك مؤامرة للقضاء على ذاتيتنا وهويتنا عن طريق سموم مطروحة منها: الإقليمية، والديمقراطية، والاشتراكية، وإننا مطالبون بالمحافظة على أصالتنا وطابعنا المميز حتى لا ننصهر في الأقوام ولا نكون هجناء ولا إمّعات.

ولقد حرص ديننا على دعوتنا إلى المحافظة على ذاتيتنا وإننا سنواجه على مدى العصور محاولة تدمير مقوماتنا من تلك القوى الطامعة في موقعنا الوسط وثروتنا ومقدراتنا، فالسلفية هي أداة استمرار وجودنا الأصيل، لأنها سلفية

تعتمد على المنابع الأصيلة الثابتة لا على الوقائع المتغيرة، فهي لا تستعلي بالعنصر أو الجنس أو اللون، وهي مرتفعة عن التعصب الأعمى متسامحة مع الأجناس والملل والأقليات عادلة مع القرباء والبعداء، مفتوحة على الأمم التي تشترك معنا في العقيدة والثقافة، ونعترف أن خير ما في الجاهلية من قيم هي من ميراث الإبراهيمية الحنيفية السمحة.

ويعني مصطلح (**السلفية**) العودة إلى المنابع، فالمسلمون حين يرتبطون بالماضي أو التاريخ أو القيم، إنما يهدفون إلى استجلاء ذلك الميراث الأصيل الذي قدمه لهم الإسلام ممثلاً أساساً في القرآن الكريم والسنّة الصحيحة، وما أنشأ ذلك الميراث من تاريخ مليء بالبطولات ، ومن تراث فياض بالبحث والنظر وخاصة في مجال الفقه الإسلامي والعلوم التجريبية ، ومعطيات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية ، وهناك الدعوة إلى التخلص من التراث بالطعن فيه ، وهو تيار خاطئ وظالم يحمل لواء العداء للسلفية ، ومن ذلك دعوة إبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني في الكتابة بحجة أن الحرف الذي نقل كلام العرب وأفكارهم على مدى العصور عسير في الألفاظ عاجز في الأداء معقد في الاستعمال، أو اتهام العربية نفسها بأنها عقبة في سبيل تقدم العرب ، ومصدر تخلفهم في العلوم التقنية بصورة حاسمة.

وما أكثر الأدلة التي يقدمها السلفيون ليبرهنوا على قدرة لغتنا في استيعاب مصطلحات العلوم الحديثة، فالطب يدرس باللغة العربية في جامعة دمشق منذ العقد الثاني من هذا القرن، وأين التعقيد في العربية وإنك إذا أردت أن تتعلم اليابانية لابد من معرفة ثلاثة آلاف حرف لكي تستطيع الكتابة بها.

إن أخطر ما يواجهها من التحديات هو التحلل من ارتباطنا بماضينا بحجة أنه يعوق انطلاق حاضرنا .

إن السلفية هي «الأصالة» وهي العودة إلى المنابع والخطأ هو أن يدفع

العرب المعاصرون تخليهم عن شخصيتهم ثمناً لما يأخذونه مما يحتاجون إليه ، إنهم بهذا يضيعون أصالتهم ، لابد أن نحافظ على أصالتنا ونعض عليها بالنواجذ .

وقد وقف السلف خلال تاريخ الإسلام كله في وجه الفرق المنشقة كالخوارج والقدرية والجهمية ، كما شجبوا الاتجاه العقلي المغالي كالمعتزلة، والفلاسفة، وشجبوا الاتجاه الروحي المغالي لفلاسفة الصوفية.

وقف (**ابن تيمية**) و (**ابن القيم**) في القرن السابع والثامن بثبات عند كل الاتجاهات التي استفحل خطرها في دوائر علم الكلام والفلسفة والتصوف والتشيع ، وجاء دور السلفية في العصر الحديث في المحافظة على نقاء التوحيد في العقيدة والعبادة ثم الجهاد، للتخلص من نير الاستعمار الغربي الصليبي، وقد قامت السلفية بدورها الواضح:

أولاً: في معارضة دعاوي التجديد وتطوير المفاهيم الدينية خضوعاً للنظريات العلمية المعاصرة.

ثانياً: نقد الفلسفة الحديثة الغربية والمعاصرة وشجبها بمنطق القرآن الكريم، وعدم الخضوع لتصوراتها التي أخذت في الزحف على العالم الإسلامي وإحداث ثغرات في الجبهة الإسلامية مستهدفة النيل من أصالة العقيدة ووحدتها وشمولها.

ومن ذلك الفصل بين الدين والدولة (العلمانية) والنيل من (السنّة) وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة.

وفي مجال الثقافة والتعليم كان دأبهم تعظيم الفرق المنشقة كالخوارج والشيعة وإثارة الأفكار المخالفة، وتوسيع دائرة التصوف وتشجيع فرق الإنشاد الديني، بصورة مشابهة للنصرانية، كالموالد وبناء مساجد جديدة على الأضرحة وإلهاب مشاعر الجماهير العاطفية عن طريق التفسير الصوفي للدين ، وسياسياً

بتشجيع الفرق المنشقة من أهل السنّة والجماعة ، وابتداع أساليب جديدة كالبابية والبهائية والقاديانية، ومدها بالعون المادي، وتمكين أتباعها من الوصول إلى مراكز التأثير، إلى جانب إذاعة آرائها والترويج لها تحت ستار الإسلام مع الاعتماد على الفرق التي مازالت تتوارث عقائدها الباطلة.

ولقد حدث لبس شديد بالنسبة لمفهوم (السلفية) بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، فبينما هو في الفكر الإسلامي علامة الأصالة ومنطلق التقدم الحقيقي، فهو في الغرب عودة المنهج الصوري اليوناني والرهبانية وجمود الكنيسة وبيع صكوك الغفران.

وهذا المفهوم يفزع الغرب اليوم ، إذ يرى أنه يعوقه عن التقدم المادي بعد تفجر الثورة الصناعية واستخدام المنهج التجريبي في العلوم، وقد تحررت أوروبا من السلفية إلى العلمانية التي فصلت بين الدين والدولة سياسياً واجتماعياً طبقاً لشعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فتحررت الشعوب من قيود الكنيسة التي ضيقت الخناق على حركة التقدم السياسية والاجتماعية.

أما الأمر بالنسبة لمفهوم (السلفية) في الإسلام وعالم الإسلام فهو مفهوم تقدم وأصالة وعودة إلى المنابع الحقيقية

* * *

(٨٥)

علم تصحيح المفاهيم

على طريق مسيرة الفكر الإسلامي الجادة عبر القرون الطويلة، وبالاحتكاك مع الثقافات المختلفة التي حاولت أن تحتويه، أو تنحرف به عن مفاهيمه وقيمه، عمل رجال الإسلام على الوقوف في وجه هذا الخطر مدى العصور بتحرير مفهوم الإسلام الأصيل الجامع من كل المفاهيم الباطلة وتصحيح مساره،وقد إمتدت هذه المعركة زمناً طويلاً وجاهد في سبيلها أعلام كثيرون في مقدمتهم: الشافعي وابن حنبل والغزالي وابن تيمية وابن القيم وكثيرون.

وفي العصر الحديث وبعد أن سقط العالم الإسلامي في براثن النفوذ الأجنبي إلا أجزاء قليلة منه، عمد النفوذ الأجنبي إلى احتواء الفكر الإسلامي بإثارة هذا «الفكر ابشري الوثني والباطني مرة أخرى، وإعادة طرحه في أفق الفكر الإسلامي، فأعاد مجدداً كل السموم والتحديات والافتراءات التي بثتها الباطنية والمجوسية والفلسفات الوثنية، ودعوات التحلل والانحراف والزندقة والإباحية التي عرفت في عصور ما قبل الإسلام.

وقد اجتمع هذا الركام في العصر الحديث تحت اسم «التغريب والغزو الثقافي» وعملت قوى الاستشراق والتبشير على إذاعة هذا الفكر المسموم عن طريق المدرسة والجامعة والصحافة ودوائر الثقافة. وجنّدت له الكثير من أصحاب الأسماء اللامعة والضمائر الخربة.

ولقد عملت حركة اليقظة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجري المنطوي على مواجهة هذه الشبهات. وقامت في ذلك بدور كبير واستطاعت أن تدحض زيفها وأن تقدم المفهوم الأصيل، ولذلك فقد حق على أهل الدعوة الإسلامية في مشرق القرن الخامس عشر أن يقيموا «منهج المواجهة مع الفكر الوافد» على أن

يصبح علماً كاملاً له أصوله ومنهجه وأن يدرس في الجامعات والمعاهد، كاشفاً هذه الحقائق التي وصل إليها المخلصون الأبرار في مختلف المجالات.

وهذا ما أدعو هذا المؤتمر إلى قراره والعمل به حتى يكون هذا القرن الخامس عشر هو الذي يحمل راية الحسم في هذه القضية، بإخراج المسلمين من ظلمات شبهات التغريب والغزو الثقافي وإدخالهم في عصر «الرشد الفكري»، والمواجهة الحاسمة لهذا الركام الضخم الذي طرحته المحاولات الخطيرة التي نسقها الاستشراق والتبشير تحت ظلال النفوذ الغربي والماركسية والصهيونية، لإفساد جوهر الإسلام وتمييعه ومحاصرة مفاهيمه القائمة على التوحيد والعدل والإخاء الإنساني، والجهاد، واحتوائه وصهره في بوتقة الفكر الأممي العالمي بهذف القضاء على «روح الأصالة الإسلامية» وعلى إزاحة تلك «الذاتية الإسلامية» ذات الطابع الخالص الذي يتميز به المسلمون وفكرهم ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

ذلك لأن دعاة النفوذ الأجنبي الغربي بقواه المختلفة: ماركسية وصهيونية تعلم أن المسلم لا يمكن أن ينهزم إلا بعد إخراجه من قيمه وذاتيته وكيانه الخاص الذي صنعه به الإسلام. ولذلك فإن محاولة التغريب نفسها واضحة من اسمها وهي: العمل على تغريب المسلمين في عقائدهم وأخلاقهم وقيمهم. وهم يؤمنون بأنهم إذا استطاعوا ذلك، فقد المسلمين خاصيتهم التي حققت لهم الثبات مع الزمن والاستمرار في الوجود، والقدرة على مقاومة كل عدو باغ، فإذا خرج المسلمون من ذاتيتهم ذابوا في الأممية وانتهى أمرهم وأصبحوا صوره مكرره رديئة للبشريه الضاله .

وصدق الله تبارك وتعالي حين قال :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾..

هذا الخطر الخطير الذي يتجمع كل قوي أعداء الإسلام علي العمل له هو اقتلاع هذه الذاتيه ومحو هذه الخاصيه التي اختصوا بها والتي صنعها لهم الاسلام والتي هي مصدر قوتهم في حياتهم وفي قدرتهم علي مقاومه كل عدوان وأداتهم في أداء رسالتهم المرتجاه للبشريه بتبليغ كلمة الله تعالي الي العالمين .

هذا الخطر أهم كثيرا في نظر القوي المختلفه عن امتلاك ثروات المسلمين لأن هذا العمل «التغريب» سيمكنهم من امتلاك نفوس المسلمين وارواحهم فيقودهم كيفما شاءوا ، وإذا تمكنوا من ذلك فلن تصبح ثروات المسلمين وحدها ملكاً لهم بل سيصبح المسلمون أنفسهم عبيداً للقوى الأممية المسيطرة الآن ، ولذلك فان هذا المنهج الذي أدعوكم إلي إقراره ليكون علما قائما بذاته إنما يستهدف عدة أمور :

أولا: كشف زيف هذه النظريات والأيدلوجيات المثاره والمطروحة في أفق الفكر الاسلامي علي أنها «علم» ، والتي تدرس في بعض الجامعات والمعاهد علي أنها حقائق مقرره ، بينما هي لم تصل بعد إلي درجه العلم من حيث إنها «فروض» افترضها عقل بشري يخطئ ويصيب ، وقد جاءت رداً علي تحديات مجتمعاتها وعصورها ، ولذلك فهي ليست صالحه لتكون منهج حياه لغير عصرها أو بيئتها ، وهي لن تصلح لتصدر الي أمم أخري تختلف من حيث العقيدة والشريعة والأخلاق.

وعلينا أن نكشف تلك الحقائق التي واجهت كل هذه الأيدلوجيات من حيث عجزها عن تحقيق المجتمع الأمثل من ناحية ومن حيث إنها لم تلبث إلا قليلاً من الزمن حتى احتاجت إلى كثير من الإضافة والحذف.

وعلينا أن نبين مدى الفرق بينها وبين المنهج الرباني الخالد الذي لا يعتوره النقص مهما مرت الدهور أو اختلفت البيئات لأنه من صنع العلي القدير العليم

بالبشر في أعمق أعماق نفوسهم ومطامحهم وأهوائهم، وقد جاءت رسالة السماء وحدها القادرة على العطاء الدائم الذي لا يتوقف.

ثانياً: كشف محاذير هذه الحضارة الغربية في مرحلة التدهور والأفول: والإبانة عن انحرافها الخطير عن منهج الله تبارك وتعالى والتعريف بالآثار الخطيرة التي أحدثتها من حيث أوقعت البشرية في الأزمة والنفس الإنسانية في التمزق والانحراف والتحلل باندفاعها وراء شهوتي البطن والفرج التي يمثلهما منهج الرأسمالية والفرويدية والماركسية جميعاً.

وكيف جاءت الحضارة الإسلامية للبشرية محررة إياها من عبودية العقيدة الوثنية وعبودية الإنسان للإنسان، وكيف سقطت حضارات المادية والإباحية والإلحاد التي عرفت بالفرعونية والرومانية والفارسية.

وأدخل الإسلام البشرية في عصر التحرر من الظلم والعبودية والرق، وفتح لهم القرآن باب البحث العلمي وصولاً إلى «المهج التجريبي» الذي قام به المسلمون والذي هو عماد الحضارة المادية المعاصرة.

وعلينا أن نعلن بدون مواربة أفول الحضارة الغربية لأنها خرجت عن منهج الله وأن البشرية تتطلع إلى شروق الحضارة الإسلامية مجردة بعد أن توقفت عن العطاء.

ثالثاً: تعميق المفاهيم الجديدة التي بدأت تشق طريقها في عالم الغرب كاشفة عن فساد التفسيرات الدينية التي قام بها الأحبار والرهبان خارجين برسالات الله عن طريقها الحقيقي وعن تسلسلها الطبيعي، وإعطائها حجماً أكبر من حجمها الحقيقي وخاصة ما كتبه في العصر الحديث علماء اللاهوت والدكتور موريس بوكاي عن التحليل العلمي للكتب المقدسة التي في أيدي الناس ومدى

اضطرابها وبشريتها ومعارضتها للحقائق التي كشف عنها العلم بينما يلتقي القرآن الكريم بهذه الحقائق فيثبت أنه من عند الله.

رابعاً: تأصيل المفاهيم التي أصبحت الآن بمثابة الحقائق والتي تقرر أن العلم لا يستطيع أن يقول الكلمة الأخيرة لا في مسئولية الإنسان ولا في حقيقة الكون، وأنه ليس إلا أداة من أدوات التعرف على مجموعة متواضعة من الحقائق تفسر ظواهر الأشياء وأن نظرية «دارون» التي كانت منطلقاً للفكر المادي قد تكشف زيفها وأثبت العلم وكشفت الأرض عن الجماجم والعظام التي دحضت فرضية الصلة بين الإنسان والقرد فقد عبرت هذه الجماجم عن استقلالية كل عنصر منذ خلقه الله جلا وعلا، وأن الإنسان منذ خلقه الله ومشي على الأرض كانت قامته مثلما هي اليوم قائمة مستوية، وبذلك تساقطت كل ما رتبته هذه النظرية الضالة وتبين فساد نظرية التطور الدائم، كما تبين فساد نظرية الثبات الدائم، وأقر العلم بأن هناك ثوابت، وأن هناك متغيرات كان الإسلام قد سبق فأعلن عن ذلك منذ خمسة عشر قرناً.

وكيف أن القرآن حمل مفاهيم واضحة عن أول الخلق والحياة على وجه الأرض وقد جاءت الأبحاث العلمية لتصدقها وتؤكدها.

خامساً: تعميق الوثائق التي قدمها علماء الغرب في الكشف عن عظمة الشريعة الإسلامية وخصوبة الفقه الإسلامي وعمق عطائه في مختلف مجالات الحياة، فقد أنهت المؤتمرات القانونية والفقهية أبحاثها منذ قرابة خمسين عاماً عن قرارات واضحة الدلالة في سلامة الشريعة الإسلامية وكمالها، وقد تبين لعلماء الغرب من كنوزها ما أذهلهم، وجعلهم يعترفون راغمين بأصالة هذه الشريعة، بل إنهم لم يتوقفوا عن أن ينقلوا منها الكثير ويطبقوه تحت أسماء مختلفة، وقد اعترفوا بفضل الإسلام أساساً على القانون المعاصر الذي نقل

أغلبه من فقه مالك حين استقدمه علماء نابليون إلى الغرب لأول مرة.

وكيف أن الغرب الذي يعترف بفضل هذه الشريعة الغراء مازال يحول بين المسلمين وبين تطبيقها في مجتمعاتهم، ويفرض عليهم القانون الوضعي وهم مازالوا عاجزين عن التحرر من ربقة هذا القيد الأسيف.

ولقد تبين للغربيين اليوم عن طريق أعلام من مفكريهم بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يصح للإنسان أن يشرع لنفسه ولمجتمعه وأنه لابد من «جهة عليا» هي التي تشرع له ، وأنه حين يخضع الإنسان لقانون بشري فإنما يكون قد خضع للأهواء وللظن وهو ما يؤدي إلى تدمير المجتمعات، وهم يرون دمار حضارتهم اليوم نتيجة ذلك، ومع أنهم يكتشفون هذه الحقيقة فإنهم مازالوا سادرين وراء مفاهيم وأيدلوجيات لم تستطع أن تحقق لهم مطامح الروح ولا سعادة المجتمع، هذه الأيدلوجيات التي يتراوحون منها يميناً وشمالاً بين الديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية وبين الفردية والجماعية، وقد تبين لهم فساد هذه الأيدلوجيات وعجزها عن الاستجابة الحقيقية.

سادساً : علينا أن نستأنف البحث الذي بدأ في العالم اليوم بحثاً عن منهج اقتصاد جديد بعد أن أعلن فشل وهزيمة المناهج الاقتصادية المعاصرة وعجزها عن العطاء، فالعالم اليوم حين يطالب بمنهج جديد فيه الرحمة والمساواة ويتخلص به من ارستقراطية الرأسمالية، وديكتاتورية الماركسية، لن يجد إلا «الإسلام» فهو الذي يستطيع أن يعطيه ما هو في حاجة إليه.

وكما تبين لهم فساد منهج الاقتصاد العالمي فقد تبين لهم فساد نظريات فرويد ودوركايم وفريزر التي أوصلتهم إلى اضطراب الأسرة وانتشار الجريمة وحوادث الإجهاض واستشراء الإباحية وامتهان كل القيم بما ظهر من حركات الوجودية والهيبية والعري الجماعي ، ومع ذلك فهم سائرون في غيهم ، يحاولون

الانتقال من المادية الإباحية إلى نظريات الروحية الإباحية في مفاهيم البوذية والثيوصوفية واليوجا والغنوصية الشرقية.

ولو كانوا يبحثون عن الحق لما عدوا الإسلام الذي يجدونه واضحاً أمامهم وفي طريقهم قبل أن ينتقلوا من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق.

ولقد تبين لهم فساد نظرية فرويد في الجنس وكشفت الأبحاث العلمية عن أنه ليس الجنس وحده مصدر التصرفات البشرية، وتبين لهم فساد التفسير المادي للتاريخ وكشفت الأبحاث العلمية عن أن للتاريخ مصادر متعددة وأن الاقتصاد هو في الدرجة الثالثة أو الرابعة ومع ذلك فالبشرية الضالة مازالت متشبثة بضلالها وتجر وراءها عالم الإسلام.

سابعاً: علينا أن نصحح مفهوم قدرة الله عز وجل وإحيائه في مختلف العلوم والثقافة بعد أن عمد الفكر الغربي إلى إنكار الله تبارك وتعالى صانع كل شيء وإنكار النبوة والبعث والجزاء ومسئولية الفرد في الحياة والتزامه الخلقي وعمد إلى تصوير الحياة بصورة مادية خالصة، وتجاهل جانب الروح والمعنويات والغيبيات وعالم ما وراء المادة، وقد تبين له فساد ذلك كله، وجاء تفجير الذرة محطماً لكل هذه النظريات المارقة التي تخالف الآن ما يقرره العلم التجريبي الذي أخذ يؤمن بعالم الغيب ويؤمن بوجود الله تبارك وتعالى الخالق القادر القائم وراء هذا الكون كله، يدبره ويديره لحظة بعد لحظة ، ويعرف علماء الفلسفة المادية هذه الحقائق العلمية التجريبية ، ولكنهم سادرون في غيهم يضللون الناس ويسخرون من الأصالة والفطرة ولقد أدخلت الفلسفة المادية البشرية في حيرة شديدة بإنكارها لعالم ما وراء المادة ، ولا مخرج لها إلا بالإيمان بالله الواحد الأحد، ذلك هو منطلق الفطرة الذي يهدي إلى مسئولية الفرد في بناء المجتمع الرباني على هدى من الالتزام الخلقي.

ثامناً: علينا أن نكشف فساد مفهوم القوميات الوافد الذي طرح في أفق الفكر الإسلامي للقضاء على مفهوم الوحدة الإسلامية والوحدة الفكرية الجامعة القائمة على أساس لا إله إلا الله والمستمده من مفهوم القرآن الأصيل بدلاً من هذا المفهوم الضال المظلم الذي فتح الباب واسعاً أمام الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية والبربرية والذي يستهدف في العصر الحديث انبعاث أفكار بائدة قضى عليها الإسلام الذي أعلن الانقطاع الحضاري في مختلف أجزاء عالم الإسلام عن كل ما سبقه من دعوات سواء كورش في فارس، أم طوران في تركيا، أم وثنية العرب، أم قيصرية الروم، لقد كانت نظرية القومية الغربية بمثابة مؤامرة استهدفت تمزيق الوحدة الإسلامية السياسية والاجتماعية والفكرية، التي كانت مترابطة تحت كلمة التوحيد، ولقد تجاوز المسلمون اليوم مرحلة الوطنية والقومية، وكشفوا زيف هذه الأطروحة الفاسدة، التي قصد بها دعاتها إلى القضاء على رابطة التجمع الإسلامي، في مواجهة النفوذ الغربي الزاحف.

تاسعاً: يجب أن يكشف علم تصحيح المفاهيم عن نتيجة التجربة التي خاضها العالم الإسلامي في مواجهة التبعية للنظام الديمقراطي الليبرالي الرأسمالي الغربي ، وفي مواجهة التبعية للنظام الماركسي الاشتراكي البلشفي، وكيف أن المجتمع الإسلامي قد لفظ كلتا التجربتين بعد أن جرى شوطاً في اصطناع إحداهما كمحاولة للعصرية والتقدمية ، وكيف أن هذه التجربة حملت معها الهزيمة والنكبة للبلاد التي أجرت هذه التجربة ، وكانت نهايتها تلك النكسة المروعة التي أودت بثروات الأمم ومقدراتها ، وكادت تحصدها حصدا لولا أن علت صيحة الأصالة والتماس المنابع التي دعت المسلمين إلى استخلاص التجربة الغربية بشقيها ، والإيمان بأنه لا سبيل أمام الأمة الإسلامية إلا طريق واحد هو طريق الله الحق الذي دعا إليه الإسلام.

﴿ وأنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بِكُم عَن

سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ ﴾ ..

هذا كله هو منطلق ذلك العلم الذي يطلق عليه علم تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في مواجهة شبهات التغريب والغزو الثقافي . فإن علينا- نحن المسلمين- أن نكشف زيف هذا الاتجاه المضلل الذي تتردى فيه البشرية وأن نحرر أنفسنا أولاً من إصر هذه الفلسفات التي تحاول احتواء الفكر الإسلامي. هذا واجبنا أولاً، وأن نقدم هذه الحقائق إلى قومنا المسلمين وقد طرحت هذه النظريات كلها في أفق فكرهم، ونسألهم : هل يسيرون وراء ضلال الغرب وهواه، وهل يقبلون بالحضارة الغربية وهي في مرحلة الانهيار وهل يخضعون لهذه الأيدلوجيات المتصارعة المتهالكة ؟.

إن هناك قوى ضالّة مضلة ما تزال توقد النار لتغري الناس بهذه الأهواء المضلة وتدفعهم دفعاً إلى أتون الشهوات الصاخبة، وهناك أقلام مسمومة تحاول أن تحطم كل القيم، وأن تزيف حضارة الإسلام وتثير الشبهات حول القرآن والسنّة وسيرة الرسول وتاريخ الإسلام، وهي تروج لمفاهيم زائفة وأفكار باطنية، وتحيي من التاريخ تلك الشخصيات الشاذة الغريبة الضالة والمنحرفة أمثال الحلاج والسهروردي وابن عربي وأبي نواس وبشار، وهناك من تخصص في تشويه الشريعة الإسلامية والادعاء بأنها موقوتة، أو من يحاول مهاجمة اللغة العربية ويدعو إلى العامية والكتابة بالحروف اللاتينية، وما تزال هذه المخططات تجري مجرى الدم في فكرنا الإسلام عن طريق الجامعة والصحيفة والثقافة ويحاول الاستشراق والتبشير من خلال هذه المراكز وعن طريق مخططات متجددة متغيرة إخضاع ثقافة الإسلام وفكره، وتاريخه ولغته إلى ما يسمى باسم «التقارب» أو « الحوار »، ولا ريب أنه ليس هناك تقارب ولا حوار أصيل ، وإنما هناك هدف بعيد من وراء ذلك هو « تجريد الإسلام من ذاتيته الخاصة وميزته المفردة» ، وذلك في محاولة لتضليل المتطلعين إليه كمنفذ للبشرية من وهدتها

الحانقة وأزمتها العسيرة، والراغبين في التماس الإسلام كمنهج حياة بعد أن عجزت الأيدلوجيات الغربية عن العطاء.

وبعـــد:

فإذا تقرر هذا المعنى فيحق لنا أن نضع خطوطاً عامة لمنهج هذا العلم:

« علم تصحيح المفاهيم ودحض الشبهات على طريق الأصالة الإسلامية » ..

وقد سبقنا إلى ذلك علماء أجلاء في مثل هذه الأزمة التي نمر بها، واجهوها بكل قوة ويقظة ووضعوا أصول المقاومة والمواجهة لكل حملات التشكيك وشبهات التغريب، وعلينا أن نقتفي طريقهم تحريراً للفكر الإسلامي من دخائل التبشير والشعوبية وكشفاً عن الأخطاء الشائعة التي بلغت من كثرة ترددها أن أصبحت كالمسلمات، وتصحيح المفاهيم وتطبيق قانون الجرح والتعديل على الكتاب الذين خدعوا الكثيرين من حيث بريق الشهرة وضجيج الدعاية والإعلان، هؤلاء الذين يكنون خصومة عميقة لفكر المسلمين وإن كانوا يخدعون بالدعوة إلى التقدم والعصرية ، وهم لا يتركون فرصة تمر دون النيل من قيم فكرنا وذاتية أمتنا، ويهدمون كياننا ، ومن قبل رد ابن تيمية على المناطقة ورد الغزالي على الباطنية، ورد ابن حزم على الفرق وقدم ابن الجوزي كتاب «تلبيس إبليس» كمنهج في هذا المجال كما كتب القاضي بن العربي كتاب «العواصم من القواصم»، وفي العصر الحديث ظهرت كتابات كثيرة في هذا المجال، فقد رد جمال الدين الأفغاني على الدهريين وكشف محمد عبده فساد تفسيرات النصرانية، وجلى رشيد رضا شبهات النصارى، ودحض ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة كثيراً من شبهات اليهود والنصارى.

ومن الحق أن يقال : إنه قد أصبحت هناك ضرورة قائمة لهذه المواجهة

وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم يقوم على أساس تحرير قضايا الفكر ودراسة المصطلحات السارية المتداولة، وكشف وجهة نظر الفكر الإسلامي فيه وإبراز مفهوم الإسلام للقيم المختلفة، وهو مفهوم يختلف قطعاً عن مفاهيم الفكر الغربي والفكر الشرقي جميعاً لهذه القيم.

ولا شك أن الدعوة إلى تصحيح المفاهيم هو عمل كبير الأهمية في مطالع القرن الخامس عشر الهجري: هذه المرحلة الخطيرة الحاسمة في حياة أمتنا بوصفها انتقالاً من اليقظة إلى النهضة، ومن التبعية إلى الرشد الفكري، وذلك يتطلب إلقاء نظرة واسعة على الأخطاء الكثيرة التي ترددت في العصر الحديث، وتضمنتها الأبحاث والمؤلفات والكتب الدراسية المقررة، والمفاهيم التعليمية المختلفة، التي حاول النفوذ الأجنبي والاستعمار الفكري فرضها ودعمها وتعميقها، وصقلها وتجديدها كلما بليت، وإعطائها صورة الحقائق الأساسية التي لا يقبل الشك بينما هي زائفة ليس لها أصل علمي تعتمد عليه أو سند تاريخي يضمن الثقة بها ، وقد شجع على ذيوعها سقوط فكرنا في مرحلة التقليد والترديد البيغائي دون وعي حصيف، أو تقليب داع، أو محاولة يقظة لهذا الفكر.

ونحن لا ندعو إلى حرب أو خصومة إزاء ما يقال ولكن نطالب بالنظرة الحذرة اليقظة حتى لا نخدع ولا يدلس علينا بالزائف من القول حتى ينقض حقنا وحقائقنا.

علينا أن نواجه في وضوح:

– شبهات التبشير والاستشراق.

– شبهات بروتوكولات صهيون والإسرائيليات الجديدة.

– شبهات المذاهب والدعوات المادية والإباحية الوثنية التي صيغت في قوالب علمية براقة خادعة وإن كانت لا تستطيع أن تصمد أمام ضوء الحقائق الإسلامية الكاشف التي تعريها وتفضح خبيئتها.

ولقد كان الفكر الإسلامي ولا يزال – استمداداً من مصادره الإسلامية القرآنية – على المحجة البيضاء ولكنه أصيب بالانحراف والإضطراب حين

انصرف عن أصوله القائمة على التوحيد والحق والعدل والترابط المعنوي المادي معاً.

ولقد واجه الفكر الإسلامي عملية الغزو الفكري والثقافي منذ قديم الزمان، واستطاع بعد معركته الأولى التي امتدت قرنين كاملين في مواجهة الباطنية والمجوسية وإخوان الصفا والفلاسفة أن يتحرر من كل هذه الزيوف، وأن يستعيد طابعه الأصيل، وذاتيته الحقة، بعد حرب عنيفة مع الوثنيات اليونانية المجوسية والهندية القديمة، واستطاع أن يحطم مفاهيم الاعتزال والفلسفة الإلهية والجبرية الفلسفية، وأن يقيم مفهوم التوحيد الخالص، مفهوم أهل السنة والجماعة.

وهو اليوم يراجع نفس الموقف ويحتاج إلى تجمع واع أصيل لأداء هذه الرسالة، وهو قادر على ذلك، ويقظ لكل المؤامرات التي تراد به، متفتح الآفاق لكل الثقافات والمفاهيم يأخذ منها ويرفض على قاعدته الأساسية العميقة الجذور ، وهو بقوته الذاتية المستمدة من القرآن قادر على كشف الزيف ، ورفض الخطأ ودحض الشبهة.

لقد كان هدف حركة التغريب (الاستشراق والتبشير) هو العمل على الحط من شأن العرب والمسلمين في أنفسهم ، وتشجيع العاميات جرياً وراء تفكيك عروة وحدة الفكر الجامع، ولقد جرت محاولات كثيرة لفصل الأدب العربي المعاصر والفكر العربي المعاصر عن أصولهما الإسلامية ومصادرهما الأصيلة، ثم تبين أن هذا العمل كان عسيراً بل ومستحيلاً.

كما جرت المحاولات لتدمير الشخصيات النابغة في تاريخنا وفكرنا وخاصة أولئك الذين حرروا الإسلام من التبعية، كما جرت لإعلاء شأن أبي نواس وبشار والحلاج وعمدت إلى اتهام الفكر الإسلامي بانتقاص الحرية وعرضت حياة ابن رشد والسهروردي أمثلة على ذلك، واتصلت الشبهات بمختلف ميادين الفكر

سياسية واجتماعية، كما ظهرت عشرات الكتب تحاول أن تفرض مفهوماً زائفاً وخاطئاً في سبيل خدمة هدف تدمير الذاتية الإسلامية المتميزة وتمييعها واحتوائها وصهرها في أتون الفكر العالمي والأممي.

وجرى البحث لإعلاء شأن كتب المحاضرت والنوادر والأساطير التي يرددها الرواة الكذابون المزيفون ، وجرت المحاولات لأن تكون هذه الكتب مصادر علمية يعتمد عليها في استخراج صورة للمجتمع الإسلامي، وقد شدد الدكتور طه حسين وصحبه على الأغاني وألف ليلة وغيرها من الكتب الفاسدة لتكون مصدراً لتصوير الحياة الاجتماعية الإسلامية.

كما اتسعت الشبهات المضادة للإسلام وأقوال خصومه في موسوعات أهمها دائرة المعارف الإسلامية ، والموسوعة الميسرة ، والمنجد ، وقد وضعت في أيدي الباحثين فهم يلجأون إليها في كل وقت دون معاناة، غير أبهين بمدى الخطر الذي يحيط بها والهدف البعيد الذي يراد من وراء نشر هذه الشبهات الزائفة ووضعها في قالب علمي خطير.

وقد وجهت هذه الموسوعات من أجل خدمة السموم التي قدمتها اليهودية العالمية والصهيونية والتلمودية من أجل دعواها الزائفة ، ولذلك فإنها في مواد القدس وفلسطين وإبراهيم وإسماعيل وإسحق تقدم تحريفات خطيرة تختلف عن مفهوم الإسلام الأصيل المستمد مـن القـرآن الكـريـم.

ولقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن هذه الشبهات والأخطاء إنما يراد بها القضاء على ذاتية الإسلام والمسلمين وإخراجهم من قيمهم ومزاجهم النفسي، وإثارة اليأس في قلوبهم وتشكيكهم في مقدراتهم وتشويه معالم فكرهم وأدبهم، وما تزال هذه الحملات مستمدة لم تتوقف بصورها المتعددة ومصادرها الكثيرة.

والهدف هو محاولة التأثير على النفس الإسلامية وإفساد ثقتها لقيمها،

ودفعها إلى طريق اليأس والشك والنظر بعين الانتقاص إلى مقوماتها التي هي مصدر قوتها، والتي هي الطريق الوحيد الذي يجب أن تسلكه في سبيل دحر عدوها ورد عدوانه في مختلف مجالات الفكر والسياسة والحرب ، وهي المنطلق الحقيقي للقوة والنصر والحرية واستعادة المسلمين مكانهم الحقيقي فوق هذا الكوكب.

ومن أجل هذا كله أدعو إلى الإعلان عن علم جديد نجند له كفاياتنا ومقدراتنا ، وليكن معلوماً لنا جميعاً أن هناك أكثر من مائة مؤلف أجنبي مليء بالخطأ والسموم، وهي متداولة في جامعاتنا ومكتباتنا وهي معارضة تماماً لمفهومنا الإسلامي الأصيل، وأن هناك علوماً تدرس في جامعتنا ومعاهدنا عن علوم النفس والاجتماع والأخلاق والسياسة والاقتصاد، فكل ما تدرسه جامعاتنا معارض تماماً لمفهوم النظرة الإسلامية الحقة، وهو ليس علماً ولكنه فروض فلسفية بشرية تخطئ وتصيب فعلينا أن نقيم هذه القوة القادرة على كشف هذا الزيف كله وتحطيم هذا البناء الزاحف، وهدم هذه الدائرة المظلمة التي حاولت أن تحتوي شبابنا وأمتنا وتردها عن الأصالة الإسلامية ..

هذا وبالله التوفيـــق ..

* * *

* *

*

(٨٦)
ما قبل الإسلام

عندما جاء الإسلام تحدد موقف البشرية كلها من دورة الحياة، فقد جاء الإسلام ليضع تاريخ البشرية كله من قبله فيما يسمى مرحلة ما قبل الإسلام، فقد كان الدين الخاتم قد حمل معه في كتابه ودعوته عصارة ماأرسل الله تبارك وتعالى به أنبياءه إلى الناس منذ نوح عليه السلام، وقد صور القرآن الكريم ذلك وأعلن أن كل نبي قد أوحى إليه أن يؤمن بالنبي الخاتم إذا جاءه ، وأن على البشرية كلها أن تؤمن به ، وقد سجل القرآن ذلك في آيات صريحة بما يؤكد أن عيسى (عليه السلام) جاء مبشراً بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتماً للنبوة كلها كما جاء القران خاتماً لرسالات السماء ومهيمناً عليها.

وفي هذا يصدق قول العلامة (علال الفاسي) حين قال:

«إن تاريخ ما قبل الإسلام وصنعه الله تبارك وتعالي كمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض وإن الإسلام قد جاء بعد أن نضجت البشرية وأصبحت مستعدة لتقبل رسالة عالمية فقد كان النبي والرسول يرسل إلى قومه ، حتى جاء محمد (صلى الله عليه وسلم) للناس كافة ، وجاء الإسلام للبشرية كلها، دينا عالمياً إلى أن تقوم الساعة.

وتبدأ رحلة الإسلام الكبرى مع البشرية منذ نبي الله الأول نوح إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، أما الرحلة الصغرى فتبدأ بالحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء: إسماعيل وإسحق وإلى العرب والنصارى واليهود، وقد بدأ إبراهيم عليه السلام رسالته في (اور) بالعراق ثم امتدت إلى الشام ومصر، ثم امتدت إلى الجزيرة العربية برحلته مع أبنه إسماعيل إلى مكة حيث أعادوا بناء الكعبة أول بيت وضع للناس مباركاً.

ولقد جاء الإسلام في بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مجدداً رسالة إبراهيم (عليه السلام): ﴿ هو الذي سماكم المسلمين من قبل﴾ وقوله تعالى :﴿ وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾

فرسالة الإسلام التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت بمثابة التماس الأصول التي جاءت بها الحنيفية السمحا بعد أن حرفت الرسالتان : اليهودية والنصرانية عن هدفهما الأصيل الذي جاء بعث محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتماً لها ..

(وإذ قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من الكتاب ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد).

ولقد كانت رسالة موسى (عليه السلام) مؤيدة بالتوراة إلى بني إسرائيل: دعوة إلى التوحيد الخالص ، وقد قامت شريعة التوراة على أساس المبادئ الأولية للسلوك: لا تقتل ولاتسرق ، ثم جاءت شريعة الإنجيل تقرر هذه المبادئ وتؤكدها، ثم تترقى فتطبع عليها طابع التسامح والرحمة والإيثار والإحسان ، ثم جاءت شريعة القرآن تقرر المبدأين كليهما في نسق واحد

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾

فالشرائع الثلاث كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة ثم تزيد عليها.

وقد جاء الإنجيل بتعديل أحكام التوراة، إذ أعلن عيسى عليه السلام أنه جاء ليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة إذ أعلن أن محمد (صلى الله عليه وسلم) إنما جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم – وليس معنى هذا من المتأخر نقضاً للمتقدم ولا إنكاراً لحكم من

أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر، مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن ، وجاء الثاني إلى الطفل في مرحلة تالية فقرر له طعاماً ولبناً وطعاماً نشوياً خفيفاً ، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأذن له بغذاء قوي كامل.

تصديق للقديم مع الأذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية ، ذلك لأن الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: تشريعات خالدة لا تتبدل تبدل الأصقاع والأوضاع كالوصايا العشر ونحوها، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله ، أي أعادت مضمونه تذكيراً به وتأكيداً له ، تشريعات مؤقتة بآجال طويلة أو قصيرة، وهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتجئ الشريعة التالية بما هو وفق للأوضاع الناشئة الطارئة ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخيرمنها أو مثلها ﴾

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري ، عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد الذي يعد الحاضر للتطور والرقي اتجاهاً إلى مستقبل أفضل وأكمل.

ولقد كان البناء ناقصاً فأكمل الإسلام البناء وأقام (اللبنة الأخيرة) قال الله تعالى: ﴿جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾. إكمال الدين وإتمام النعمة.

ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) «مثلي ومثل الأنبياء من بعدي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » ..

«فقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتب، واضاف صفة أخرى: مهيمنا على الكتب، أي حارساً أميناً عليها، وحامياً لها من الدخيل وقد كانت علاقة الإسلام بالكتب السماوية: علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وعلاقة تصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها»

(دكتور/ محمد عبد الله دراز)

وهكذا كان الإسلام بداية لتاريخ البشرية الراشدة.

يقول عمر رضي الله عنه: إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية.

فمعرفة التاريخ السابق للإسلام ضرورة لفهم الإسلام نفسه ، والإسلام هو الذي أطلق على هذا التاريخ تعبير (الجاهلية) وهي جاهلية قريبة وجاهلية قديمة أو أولى ولما كان الإسلام هو خاتم رسالات السماء فقد كان من الضروري أن يتعرف أهله على رسالة السماء منذ بدأت ، لأنهم مكلفون بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب التي سبقت والتي هي في مجموعها رسالة واحدة هي (الإسلام) والدعوة إلى توحيد الله وإن اختلف باختلاف البيئات والعصور، فقد أرسل الله تبارك وتعالى رسله وأنبياءه للبشرية منذ نوح إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد كانت هذه الرسالات إلى كل أمة بواسطة رسول منها إلى أن وصلت البشرية إلى مرحلة الرشد الفكري الذي أهلّها لأن تتلقى الرسالة العالمية الخاتمة للإنسانية كلها ، وهي الرسالة التي حمل لواءها محمد (صلى الله عليه وسلم) بكتابه الخالد المعجز (القرآن الكريم) ..

وحين نزل القرآن الكريم كانت البشرية تعرف أدياناً منزلة انحرفت عن طريقها، وأدياناً بشرية ، ومن الأولى : اليهودية والمسيحية ومن الأخرى: الديانات المجوسية وغيرها وكانت هناك (الوثنية) التي ليست ديناً ولكنها انحرافاً،

وكانت تتمثل في صورة ضخمة في بلاد اليونان، ومن بلاد العرب وفي قلب جزيرتهم جاء إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل يحملون لواء الحنيفية السمحاء، حيث أقاموا القواعد من الكعبة «البيت الحرام» ونشأ في قلب جزيرة العرب في أم القرى ومن حولها، وحول الكعبة دين الحنيفية السمحة الذي امتد في إسماعيل وأبنائه من بعده، والذي ظل قائماً في نفوس الكثرين حتى جاءت رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتمة للأديان ومتصلة الأسباب بالدعوة الإبراهيمية.

ومن ثم فإن تراث النبوة التي عرفتها هذه المنطقة العربية كلها بدأ بإبراهيم عليه السلام، وختم بمحمد عليه الصلاة والسلام، وفيما بينهما كانت النبوة والرسالة قد امتدت في بيت إبراهيم .. امتدت في ولديه إسماعيل وإسحاق، ثم امتدت في فرع إسحق في يعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وجاء عيسى عليه السلام ختاماً للنبوات في بني إسرائيل، ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم من العرب ومن فرع إسماعيل ختاماً للنبوة والرسالة جميعاً.

ولا ريب أن بني إسرائيل قد عجزوا عن حمل رسالة الله تبارك وتعالى على وجهها الصحيح، وأنهم قد حرّفوا كتاب التوراة والإنجيل فاستحقوا أن تنتزع منهم الرسالة وتعطى لمن هم أقدر على حملها.

وقد انحرف العرب بعد رسالة التوحيد الحنيفية التي قام عليها إبراهيم وإسماعيل إلى الوثنية والشرك، فالوثنية العربية ليست وثنية عميقة الجذور كالوثنية اليونانية ، ولكنها كانت أميل إلى الشرك ، فقد كان العرب يتخذون الأصنام على أنها وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله ، ويقول المؤرخون إن الذي انحرف بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من ملكه ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للبيت وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا

وضعوه وطافوا به طوافهم بالكعبة ، وبمرور الزمن نسي الناس العلة في تقديس الحجارة على أنها أثر من آثار الكعبة وذكرى لها ، فانتقل التقديس للحجر نفسه وتطور الحجر إلى صنم ، ولكن بقيت فئة تتطلع إلى دين التوحيد: دين إبراهيم، عرفت هذه الفئة بالأحناف ودينهم الحنيفية ، وكانوا قد اعتزلوا الأوثان، وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على النصب لغير الله، وعرف من الأحناف زيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلت ، وورقة بن نوفل ، ولم تكن الحنيفية امتداداً أو تقليداً لليهودية أو النصرانية بل لم يكن لها بها صلة أو وشيجة.

﴿ مَا كَانَ إبْرَاهِيمَ يَهُودِياً ولا نَصْرَانياً وَلَكن كَانَ حَنِيفاً مُسلماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ..

وكانت الوثنية تشويهاً لدين إبراهيم ، وتحريفاً له وخروجاً عليه ، وليست الوثنية في حقيقتها ديناً ولكنها انحراف عن الدين المُنَزَّل.

وكذلك فقد عرفت الجزيرة العربية : اليهودية والمسيحية ، وكذلك عرف العرب عبادة الكواكب وفي هذه الفترة أصاب فريضة الحج هذا الانحراف الوثني، فكانوا يذبحون الذبائح ، لا ليطعموها الفقراء ، ولكن ليلطخوا بها جدران الكعبة، وكانت صلاتهم عند البيت (مكاء وتصدية) كما وصفها القرآن الكريم.

ولقد اتخذت قبائل العرب في الجزيرة العربية عدداً من الأوثان كاللات والعزّى ومناة، والشمس والقمر والشعرى والنجم (الثريا) وود وسواع ونسر، ولم يكونوا يؤمنون بها من دون الله تعالى، بل كانوا يشركونها مع الله (جلّ شانه) ويتخذونها وسطاء وقد سجل القرآن عليهم ذلك في قوله تعالى:

﴿ ألا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ والَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ

لِيُقَرِّبُونَا عِنْدَ اللهِ زُلْفَى، إنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّار ﴾ ..

وقد واجه القرآن الكريم ودعوة الإسلام ظاهرة الشرك هذه مواجهة صريحة بالإضافة إلى مواجهة كل أسباب الوثنية وأنواعا من عبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر ، وعرض الإسلام لفساد كل الانحرافات التي عرفتها الأديان قبل الإسلام وبخاصة ما يتصل باليهودية والمسيحية ، بل هاجم الإسلام الوثنية وتعدد الآلهة ، ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد.

وحين دخل الإسلام مكة فاتحاً كانت الكعبة التي بنيت لعبادة الله الواحد الأحد تعج بالأصنام إذ كانت تحتوي على ثلاثمائة وستين صنماً غير الأصنام الأخرى التي كانت في جهات متفرقة.

وكانت عقائد الوثنيين والمشركين من أهل مكة ممزقة منهارة فقد عبدوا الكواكب وزعموا أن الملائكة بنات الله وقال صاعد في طبقات الأمم: إن حمير كانت تعبد الشمس، وكنانة تعبد القمر، وتميم تعبد الدبران ولخم وخزام المشترى وطي سهيلاً وقيس الشعرى العبور وأسد عطارد.

ولقد كان أحرص ما عمدت إليه دعوات التغريب والغزو الثقافي هو إثارة تاريخ ما قبل الإسلام والإذاعة به وتوسيع البحث فيه، وذلك عن طريق البعثات الأثرية وانبعاث الدعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والبربرية، وذلك من أجل إعادة المسلمين والعرب إلى ماضيهم الوثني قبل الإسلام وإعلاء هذا الماضي وتزيينه، وكان للكشوف الأثرية التي حرص النفوذ الاستعماري على استغلالها أبعد الأثر، ففي مصر كان كشف قبر توت عنخ أمون في العقد الثاني من هذا القرن وما وجد فيه من آثار عجيبة منطلقاً للدعوة إلى الفرعونية في مواجهة الدعوات العربية والإسلامية، وقد جرى المصريون شوطاً في هذا المجال

من حيث بناء القبور والقصور على الأنماط الفرعونية، والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعوني غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن فشلوا ، وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية خلال أربعة عشر قرناً كاملاً، وذلك بالإسلام الذي غيّر النفسية والعقلية والمزاج المصري والعربي تغييراً كاملاً بعد أن أخرجه من الوثنية ودفعه إلى التوحيد وإلى منهج رباني قوامه الفطرة تقبله المصريون تقبلاً واسعاً ضخماً، وتصدروا به العالم الإسلامي كله.

وما تزال هذه المحاولات تجري في كثير من بلاد الإسلام والعرب لرد المسلمين إلى ما قبل الإسلام من انتماءات كانت مرتبطة بالوثنية كالدعوة الفينيقية وغيرها وما حاول النفوذ الغربي من محاولات ليجعل لها تراثاً أو تاريخاً موهوما أو يجعل لهم من نفوذ فكري واجتماعي يغذيه الاستشراق ومن خلفه المطامع في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية والحيلولة دون اجتماعها على فكر موجود يدفعها إلى الأمام بقوة.

ولقد كان الاستعمار والتغريب والصهيونية والماسونية والتبشير على اهتمام موحد بالدعوات القديمة التي كانت قبل الإسلام وهي كثيرة: منها الفرعونية والبابلية والزنوجة والبربرية وغيرها ..

ومنهـا التـراث اليونانـي الإغريقي الوثنـي ، ممـا يحمـل من أساطير وملاحم وفلسفة إلهية مسرفة في التعارض مع التوحيد، فضلاً عن الجاهلية العربية التي قامت على عبادة الأوثان والأصنام، ومن هنا اتخذت الصهيونية العالمية والاستعمار ودعوات التغريب والتبشير من هذا التراث القديم كله بما يتصل بالفسفات الهندية القديمة القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفلسفات المجوسية الفارسية القديمة، وغيرهما مما يطلق عليه (الغنوصية)

بالإضافة إلى الإفريقية الوثنية، اتخذت من كل ذلك تراثاً تصدر عنه القصص والمسرحيات والكتب ، ليكون عاملاً من عوامل تدمير القيم الإسلامية الأصيلة، ومضاهاة الفكر الوثني القديم في محاولة لرد المسلمين عن التوحيد والنبوة والغيب والدين الحق عامة.

* * *
* *
*

(٨٧)

الوثنيــة

محاولات تغريبية لإحيائها في مواجهة التوحيد

تجددت في السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء الفكر الوثني الذي كان ذائعاً قبل الإسلام ، وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ ومحاولة خلق تراث فكري أو أدبي لهذه المحاولة.

وقد جرى العمل لذلك في كل أجزاء العالم الإسلامي وأقطاره، وركز في كل قطر على تاريخه السابق للإسلام في محاولة لرد التاريخ إلى الحياة وانبعاثه وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة، والمعروف أن العالم الإسلامي قبل ظهور الإسلام قد عاش حضارات مختلفة أبرزها الفرعونية والفينيقية والفارسية واليونانية والهندية، وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى في الأغلب من الأديان المنزلة ثم انحرفت عنها، وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء والعدوان، وعرفت في محيطها الداخلي بنظام المفاضلة الكاملة بين طبقتين هما السادة والعبيد.

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية وجعلته نبراساً لها فضلاً عن العدوان والغدر للأمم المجاورة ، وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم – قبل الإسلام – من أبرز الأمثلة على هذا المنهج الذي عرفته هذه الحضارات وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات.

وقد اتخذ النفوذ الغربي من حملات البحث عن الآثار والكشف عنها في البلاد الإسلامية أداة خطيرة في تشكيل قضية جديدة تطرح من خلال هذه الآثار

عن الحضارات القديمة الوثنية التي حطمها الظلم ، وقضي عليها الانحراف عن منهج العدل والحق ، والتي عرفت بالعدوان الإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسي قيام الأمم وسقوطها، كما ارتبطت الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام بالدعوة إلى الإقليميات والقوميات وقد برزت في البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبربرية وغيرها، وأحاطها دعاتها والعاملون من ورائها والقوى الاستعمارية الدافعة لها بكثير من عوامل التحريك والإثارة، غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار فإن التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً علي أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها، ذلك لأن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر قرنا قد أنهى الوجود الفكري والاجتماعي للأمم والمجتمعات، وشكل لها وجوداً جديداً ما يزال حياً متجدداً.

ولقد تجاوز المسلمون تاريخهم القديم بالإسلام كله مرتين، مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية وعقائد الثنوية والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد وتحويل البطل إلى إله، ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشري كله وامتص خير ما فيه من عصارة وتجاوز عما ليس متصلاً بالأصول الأصيلة له من التوحيد والعدل والإيمان بالغيب والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي.

الوثنيــة

وقد استهدفت التيارات الوافدة الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام إحياء الوثنية والجاهلية وهى ترمي في مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين لتقبل تعدد الآلهة والأصنام والنظر في بساطة إلى أمور قطع الإسلام فيها بالرفض ونهي المسلمين عن الإعجاب بها أو التوقف عن معارضتها، ويتصل بهذه

الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما لم يعد سائغاً أو متقبلاً في النفس الإسلامية، كالعادات الجنائزية، وصلات الأحياء بالأموات، ثم العادات الاجتماعية في الموالد والأفراح والمآتم ، ونحن نعلم أنه في عصر ما من عصور ما بعد الإسلام استشرت هذه الوثنيات، وعادت إلى التشكيل في صورة مهرجانات وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة، وما تزال هذه العادات سائدة، وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن مفاهيم الإسلام وقيمه فضلاً عما تمهد له هذه المذاهب من إحياء «طقوس» لا يعرفها الإسلام ولا يقرها وهو الذي حرر البشرية منها، فقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار والحيوانات والأنهار ودعا إلى التوحيد الخالص المعارض لكل مظاهر الوثنية والشرك والتعدد جميعاً، والمعارض لاتخاذ بعض الناس بعضهم أربابا، كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة «الشمس والقمر» وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان.

وتطلق كلمة «الوثنية» على مختلف العقائد التي لا تفرد الله تبارك وتعالى بالتوحيد وتنسب الوثنية إلى الوثن «أي إلى عبادة الأحجار والأصنام» وقد وصف اليونان القدماء «الإغريق» بالوثنية، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف في المدى رالفهم، وكانت الوثنية اليونانية عريقة، لها أيدلوجية كاملة فاسدة ولها فلاسفة أمثال أفلاطون، وشعراء أمثال اسخيلوس وسوفوكليس.

والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة أو جزء منها، كالشمس والقمر، أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر: فرداً أو أسرة أو جماعة، وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء، أو الحديثة كاليابان والهنود، وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء ولذلك قد حرص الإسلام على الاقتصاد في تكريم الأبطال والصالحين حتى لا تتحول هذه الطقوس مع الزمن إلى نوع من العبادة ، وقد حرص الإسلام على عدم إسباغ

أي نوع من أنواع التكريم المبالغ فيه للأبطال أو الصالحين حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل ما تحولت إليه تقاليد اليونان، الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة، فكل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ومن ذلك «زيوس» إله الرعد والبرق وهو كبير الآلهة عندهم و«ديميتر» إله الأرض والخصوبة و «وافروديت» إلهة الجمال و «ابولو» إله الشمس و «نيتون» إله البحر وهكذا، وكانوا لا يفرقون بين طبيعة الآلهة المزعومة وطبيعة البشر إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للإنتقام، وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الالهة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة.

وقد هاجم الإسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة «الله» الواحد الأحد، وتختلف الوثنية العربية عن الوثنية الإغريقية في أنها لم تكن وثنية قائمة بذاتها، وإنما كانت انحرافاً عن التوحيد الخالص الذي دعا إليه إبراهيم عليه السلام، فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم والحنيفية ولكنهم يحملون معهم بعض حجارة الكعبة، ويتبركون بها ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان، ومن هنا اختفى التوحيد وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين ، ومن وثنية العرب عبادة النجوم.

الفكر التلمودي

ولا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من وثنيات تهدف إلى إشاعة الفكر التلمودي الذي شكله اليهود خروجاً عن مفهوم رسالة موسى (عليه السلام) واستهدافاً لتحقيق غاية معروفة هى الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين وقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت صياغته من جديد واعتبرته تراثاً

للبشرية تدعو إليه وتزدهي به ، وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية ، وفي عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب «الآداب والعقيدة» يبدو هذا العمل الخطير في إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والعبرانيين واليونان، وما يتصل بها من رموز كالخنفساء الذهبية والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح وأبي الهول والأهرامات والمثلثات والمربعات والدوائر والأعداد المقدسة «كذا» كالعدد ٣، ٧، ٩، وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم فضلاً عن السحر فإنه باب وحده، وقد حرصت التلمودية على هذا التراث كل الحرص، وعملت في كل العصور على تجديده وعلى بعثه في صورة أو أخرى وعلى تلقينه في المحافل السرية، وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا والرمايانا والزاندفستا والالياذة، وتجئ التلمودية والمشنا على رأس الكتب ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم وتلك هى أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الإسلام.

الدهرية

ولقد كانت «الدهرية» واحدة من أخطر الدعوات الهدامة التي أذاعها النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية، فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار القضاء على القوة الأصلية التي قام عليها الإسلام وهى «التوحيد» فنشر في كل مكان حل فيه مفاهيم المادية والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق وأن الكون طبيعي وجد اعتباطاً، وقد عرف هذا المذهب بالنيشيرية نسبة إلى كلمة الطبيعة في اللغات الأجنبية (Nature)، وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة في الهند حيث نشرها

الإنجليز بين المسلمين، وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغاني فوضع رسالته المعروفة «الرد على الدهرين التي صدرت عام ١٨٨٥ وترجمها الشيخ محمد عبدة » وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : (النتشر) اسم الطبيعة وطبيعة النتشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح، وقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحية والاشتراك في الأموال والأبضاع بين الناس عامة، وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا، وبالغوا في السعي إليه، وتلونوا لذلك في ألوان مختلفة وتقلدوا في مظاهر متعددة، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال.

«وأينما ذهب ذهب في غور مقاصد الأخذين بهذه الطريقة تجلى له أن ألا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية.، إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة، وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان، وطرح كل عقد ديني، أما عدم شيوع هذه الطريقة مع طول الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الالفة الإنسانية – وهو من آثار الحكمة الآلهية – كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة».

وقد عرف أن الدهريين هم منكرو الأديان السماوية، وأنهم عشرة مذاهب «الأبيقورية، الارتقائية ، المذدكية ، الباطنية ، أتباع فولتير، جان جاك رسو، المورمون، النفعيون، المدلسون، الماديون» وقد وصفها الدكتورصلاح الدين السلجوقي بقوله: إن الدهرية هي حكومة الغرائز والعقد النفسية ، وتشاء «أي الدهرية» أن يعم الذل والهوان والخوف والإرهاب والتفرقة والكراهية، وإن قبيلا من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصل وهو الإباحية والاشتراك، واكتفوا في ظاهر الأمر بإنكار الألوهية وجحود يوم الدين: يوم العرض والجزاء. وإبراز مفاهيم الدهرية.

(١) إنكار وجود الخالق، والقول بأن الكون بلا إله ولا صانع.

(٢) قولهم إن الدهر قديم.

(٣) إنكار البعث والإعادة.

البـاطنيـــة

كذلك فقد أحيت قوى التغريب والغزو الثقافي لخدمة النفوذ الأجنبي مفاهيم الباطنية على الرفض والتعطيل ، وإبطال النبوة والعبادات ، وإنكار البعث والقول بأن للقرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر.

وقالوا إن اللغة والأدب علوم لا تراد لنفسها بل لغيرها، وقد قامت دعوتهم على أساس التأويل : تأويل آيات القرآن وقالوا إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة، وذلك بهدف اقتحام مفهوم الإسلام الصحيح والخروج عليه بالدعوة إلى رفض الفرائض وإباحة المحظورات لأوليائهم ، وقد أولوا الصلوات الخمس وصيام رمضان وفريضة الحج.

وقد احتضنت الباطنية آراء مزدك في شيوعية النساء والأموال، وقالت الباطنية بإنكار الميعاد والإباحة المطلقة واستباحة المحظورات وإعطاء بعض الرؤساء العصمة.

وقد قامت آراء الباطنية على أساس الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك وزرادشت وماني، واتخذت لها ستاراً من الولاء لبعض الأسماء اللامعة، واتخذت من الشعوذة والتقشف وسيلة لها، واستهدفت من وراء ذلك كله استعادة دولة الأكاسرة، وقد عمدت إلى الهدم عن طريق تحطيم عقيدة الإسلام وإثارة الشكوك فيه، وقد ساعدهم على نشر تلك الآراء جماعات من إخوان الصفا، والشعراء المجان، وبعض الشخصيات المنحرفة مثل ابن المقفع وحيدر بن كاوس .

وقد أعادت قوى الغزو إحياء هذا الفكر في العصر الحديث، يقول السيد

أبـو الحسـن النـدوي : أدركـت الباطنيـة الصلـة القائمـة بين الكلمات والمصطلحـات الدينية. ومعانيها أساساً تقوم عليها الحياة الإسلامية والهيكل الفكري والعلمي في حياة المسلمين، هذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التي يمتاز بها المسلمون بماضيهم ومنابعهم الصافية ، فإذا انقطعت هذه الصلـة بين الكلمات والمعاني ، وأصبحت الكلمـات لا تـدل علـى معنى خاص ومفهـوم معـين أو تسرب الشك إليها أصبحت هـذه الأمـة فريسة كل دعوة وفلسفة وساغ لكل واحد أن يقـول مـا يشـاء.

وقـد وصفـت الباطنيـة بأنها ثـورة على النبـوة المحمـدية وأن هدفهـا الأكيـد هـو تدميـر دولـة الإسـلام.

ولقد قامـت الفلسفـة الباطنيـة أساساً على الإلحاد في العقيدة والإباحية الأخلاقية ، ومن خلال الفلسفة الباطنية قامت دعوات عديدة ولم تزل كلها تعتمد الفلسفة اليونانية والفلسفة الغنوصية معاً أساساً لها وخاصة الأفلاطونية المحدثة.

وجرت كلها على التأويل الفلسفي والاستناد على مفاهيم المجوسية القديمة، وهى بذلك تخالف مفهوم الإسلام مخالفة تامة وتعارضه معارضة كاملة.

فليس في الإسلام وسيط بين الله تبارك وتعالى والعباد، ولا إنسان له صفة العصمة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤيد بالوحي والذي وصفه ربه بأنه بشر ورسول، وليس لعلم الله وريث خاص، وليس هناك قانون يلزم المسلمين غير الشرعية الإسلامية التي جاء بها القرآن والتي اكتملت قبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى ، وقد فصل الإسلام تماماً بين الألوهية والبشرية والنبوة فلا يمكن أن يرقى الإنسان إلـى مرتبـة الألوهيـة أبـداً.

* * *

(٨٨)

العقلانيه في ظل أضواء الصحوة الإسلاميه
هناك محاولات لإحياء مؤامرات قديمه

في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي كانت تظهر دعوات منحرفة بعيدة عن مفهوم الإسلام الجامع القائم على التكامل والتوازن بين القيم والعناصر، وكان علمـاء المسلمين يكشفون هذه الدعوات المنحرفة ويدحضون محاولات المحرفين والمنحرفين ويردون كيدهم إلى نحورهم.

وفي هذا العصر الذي نعيش فيه، وفي ظل أضواء الصحوة الإسلامية نجد محاولات جديدة ، تحاول إحياء مؤامرات قديمة تحت أسماء جديدة ترمى إلى إثارة الشبهات وهدم مفهوم الإسلام الجامع.

وتتمثل هذه المؤامرات في خطين متوازيين:

خط يختفي تحت اسم العقلانية ، ويرمي إلى إحياء مفهوم الاعتزال بدعوى أن تجديد الإسلام ينطلق من هذا الطريق خداعاً وتضليلاً عن مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والروح، والذي يتكون تحت جميع العناصر والقيم.

وخط يختفي وراء الفكر الفلسفي والصوفي الفلسفي، بهدف إحياء مفاهيم الوثنية والغنوصية والفكر المجوسي القديم. اعتماداً على القول بأن الحدس والوجدان منطلقان للمعرفة بينما يقرر الإسلام أن للمعرفة جناحين لا يطير الطائر إلا بهما معاً: هما العقل والوجدان.

ولاريب أن هذين التيارين يعارضان مفهوم الإسلام الصحيح الجامع لمفهوم أهل السنة والجماعة ، وأنهما يسريان الآن كل منهما في منطقة من المناطق تحت

أسماء أخرى جديدة ومضللة، ومن خلال أفكار براقة زائفة تطرح هنا وهناك وتتخفى وراء : الحداثة والتقدم والعصرية والتجديد والابتعاث.

ولما كانت هذه الدعوات الجديدة تواجه شباباً غضاً قليل المعرفة، ليست له أرضية إسلامية في مجال التربية بالأسرة أو مجال التعليم بالمدرسة فإن المظاهر الخلابة التي تبدو من وراء الكلمات البراقة تخدع الكثيرين سواء من قرأ منهم عن الوجودية أو البهائية أو القاديانية أو ادعاء النبوة، وأخطرا ما يتردد الآن الكتابة عن الفرق والنحل القديمة من منظور حيادي كاذب، يرمي في حقيقته إلى التركيز على السموم الناقعات التي عرضها أصحاب هذه المذاهب قديماً ودحضها العلماء المسلمون، وان يجري عرضها مرة أخرى في خداع شديد بين حقيقتها ولا يدري كيف كان وضعها وكيف كان دعاتها من الزنادقة المضللين، بل إن البعض يسعى لتقديم تاريخ زائف لهذه الأسماء في محاولة لوصفها بالبطولة وحرية الفكر، لقد عقد مؤتمر بلتيمور منذ سنوات بهدف إحياء تاريخ الفرق الضالة، وتجديده وإعادة إحياء تاريخ الباطنية والمجوسية مرة أخرى عن طريق كتب تنشر وأطروحات تقدم في الجامعات، وفصول تنشر في الصحف تحت اسم دعوات العدل والحرية، ورسمت لهذه الفرق المنحرفة مخططات كأنها كانت تدعو لا إلى هدم المجتمع الإسلامي وتدميره ، بل إلى إحيائه وبعثه ، كتبت عن البابكية والسبئية والقرامطة والزنج والحشوية وغيرها.

لا ريب أن هذه المحاولة في بعث هذه الفرق وتجديد فكرها ووضعه في قالب اشتراكي علماني براق على أن أصحابها دعاة عدل اجتماعي وهم لم يكونوا إلا من الظالمين المبطلين، وربما ادعى البعض أنه يريد أن يكشف هذه المخططات خدمة للصحوة الإسلامية، ولكن ذلك الادعاء باطل، وما تكون الكتابة غي هذا المجال إذا أريد بها خدمة الإسلام على النحو الذي يبرر الواقع الأسود أو يذيع الفكر المسموم ليخدع به العقول الصغيرة والنفوس البسيطة التي لا تعرف مدى

الأخطار المحدقة بالمسلمين ولا تدري شيئاً عن المخططات التي يراد بها احتواؤهم وتذويبهم في بوتقة الأممية العالمية ليفقدوا تميزهم الخاص وطابعهم المستقل.

إن الهدف الحقيقي لهذه الغزوة هو تفريق شمل الأمة وراء جيوب مختلفة من المعتقدات والنظريات حيث لم يكف القوى الخارجية ما طرحته من ماركسية واشتراكية ووجودية ومن بهائية وقاديانية.

قضايا فكرية في الميزان

إن محاولة الغزو الثقافي والتغريب في إحياء الاعتزال تحت اسم جديد هو العقلانية إنما يرمي إلى تمزيق وحدة الفكر الإسلامي الجامع بين العقل والوجدان.

وأصحاب هذه الدعوى يهاجمون كل مافي الفكر الإسلامي من الأخلاق والمعاني الروحية القلبية، ويصفونه بأنه خرافات وأساطير، وليس الأمر كذلك تماماً، ولكن مفهوم الإسلام الجامع أخذ بالتوازن والوسطية والتكامل بين العنصرين اللذين يشكلان منهج المعرفة ذي الجناحين، فنحن حين نرفض انحراف الوجدان إلى الحد الذي يصل إلى مفهوم الحلول والإتحاد ووحدة الوجود فإننا نرفض انحراف العقل إلى إنكار المحسوس وإنكار الوحي والمعجزات، وتلك هي وسطية الإسلام الجامعة التي تؤمن بالتكامل والتوازن وترفض استعلاء عنصر العقل أو عنصر الوجدان.

العقلانية والهدم والتدمير

إننا نجد اليوم دعاة العلمانية والماركسية والكارهين لمنهج الله والمعارضين للشريعة الإسلامية يحاولون أن يجدوا عن طريق الدعوة إلى العقلانية منفذاً ينفذون

منه إلى الهدم والتدمير، ونحن نعرف أن قوى الاستشراق والتغريب كلها تركز على العقلانية وفكر المعتزلة، ولذلك فإن الدعوة إليها إحياء لهذه الرابطة التي وقع فيها المشاؤون المسلمون حين ظنوا أن الفلسفة الهلينية تستطيع أن تلتقي بمفهوم التوحيد، بينما هى تستمد مفهومها من علم الأصنام والوثنية والأساطير، وتؤمن بأن «الرق» أساس من أسس الحضارات والمجتمعات ، وأن المجتمعات تتكون من سادة في الأعلى وعبيد في السفح، وهذه هى القاعدة التي قامت عليها الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية والهندية، وهى نفسها التي تقوم عليها الحضارة الغربية الحديثة وإن كانت قد غلفتها ببعض المظاهر الخادعة، أما الإسلام فقد جاء هادماً لهذه القاعدة مقيماً قاعدة(الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح).

فنحن نحذر من دعاة العقلانية أو ما يسميها بعضهم العقلانية الإسلامية لأن الإسلام يجمع بين العقلانية والوجدانية وأنه بجمعه هذا قام ببناء منهجه التجريبي من ناحية وبمنهج المعرفة من ناحية أخرى، وقدم أيضاً قانون قيام الحضارات والأمم وسقوطها.

وإذا كان بعض هؤلاء يشيدون بالمعتزلة ويرى بعضهم أن سقوطهم وهزيمتهم كان هزيمة للإسلام فتلك دعوى باطلة وأننا نرد كل ما أدى بالمجتمع الإسلامي إلى التراجع إلى الولاء للفكر الفلسفي سواء الفكر العقلاني أم الفكر الصوفي الفلسفي، والحقيقة أن هزيمة المعتزلة، كما كانت هزيمة الفكر الصوفي الفلسفي، نتيجة طبيعية لانهيار التوازن الأساسي في الفكر الإسلامي بين الروح والمادة والعقل والقلب، فلما كانت هذه الدعوة مخالفة لجوهر الإسلام ومنهج المعرفة فيه، فقد كان من الطبيعي أن تنهار، وإذا كان الاعتزال أساساً محاولة مرحلية لمواجهة المذاهب الفلسفية التي تحتمي وراءها القوى المعارضة للإسلام، فقد أدى دوره في هذا المجال على أحسن وجه وواجه علماء الكلام في الأديان والفلسفات

الأخرى في قوة وأدال دولتهم ، وحقق كثيراً من النتائج وأدخل مئات من الوثنيين فـي الإسـلام.

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو في تأكيد موقفهم وفكرتهم، وبذلك أعلوا شأن العقل وبلغوا بـه مبلغاً خطيراً، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ويؤمنون بالوحي وبالعقل على أنه أداة لفهم الوحي فإن إعلاء شأن العقل وحده كان خروجاً على مفهوم الإسلام، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للأنهيار تحت أضواء الإسلام الصحيح، ومن هنا جاءت تعديلات وتصحيحات قام بها الإمام الأشعري ومدرسة الإمام أحمد بن حنبل إذ كان لابد أن يعود الإسلام إلى أصوله الصحيحة الجامعة، وأن يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من انحراف ولذلك فقد كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الإسلام، وتعديلاً لمسار فكره ، وربما كان حزن بعض المستشرقين على هزيمة المعتزلة (وتابعهم أحمد أمين) راجعاً إلى ما حاولوا أن يلصقوه بها من أنها منطلق الفكر اليوناني الإغريقي وأنها لو حققت نجاحاً مضطرداً لقضى ذلك على وسطية الإسلام وتكاملهم بل وربما قضى على أرفع مفاهيم الإسلام وأصلها الأصيل: «التوحيد» لذلك فهم يتمسحون بالمعتزلة ويعلون من شأنها ويجددون الدعوة لأتباعهم عن طريق وهم كاذب بأن الإسلام علمي وعلماني وعالمي عن هذا الطريق وحده، في محاولة لمزجه بالفكر الغربي المادي الوثني، ومن هنا علت هذه الصيحة في بعض البلاد العربية اليوم، ومنها نحذر ونكشف الحقائق حتى لا ينخدع بها شبابنا المسلم الجديد ..

العقلانية والعقل:

ويقتضينا المقام هنا أن نتحدث عن العقلانية والعقل، هذه الدعوى الوافدة التي لها في أفق الفكر الإسلامي مفهوم مختلف، وقد سرت عن طريق الخداع مقولة: أن الإسلام دين العقلانية وذلك بهدف طمس مفهومه الأصيل الجامع بين الروحية والعقلانية في كيان جامع متكامل ومن أجل إعلاء شأن المنهج الغربي، وللادعاء بأن الإسلام كان ثمرة لنحلة المعتزلة التي استمدت مفاهيمها من الفكر الغربي الوافد.

والعقلانية مذهب انشطاري يحاول الزعم بانه يمكن عن طريقه الوصول إلى فهم الأشياء والأمور، وهو واحد من عدة مذاهب ظهرت في الغرب منها المذهب التجريبي، والمذهب الإنساني، والمذهب الفلسفي ، والمذهب المادي، والواقع أن هذه المذاهب مرحلية وجزئية وقاصرة ولا تستطيع أن تقدم الحقيقة الجامعة، لأنها تنقصها مفاهيم الروح والوجدان والمعنويات والقلب والغيب والوحي ، وهذه كلها يسقطها الفكر الغربي العقلاني، بل إنه بالرغم من الدعوة الغربية في الغرب إلى العقلانية فإن العقل الغربي قاصر أساساً، لأنه لا يستطيع أن يؤمن بالتكامل بين العناصر التي تشكل الإنسان نفسه وأنه لا يتحرك إلا في الجزئية الانشطارية التي تحجب عنه باقي الأجزاء ، ومن هنا يتبين الفارق العميق واضحاً بين المفهوم الغربي والمفهوم الإسلامي حين يرفض الإسلام الانشطارية وجزئية النظرة ، ويؤكد الواقعية والصدق وتكامل الروح والمادة والعقل والنفس والدنيا والآخرة.

فالعقل وحده لا يستطيع أن يستيقن النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد إلا بهدى من وحي، ولكن إذا عرف فهم وصدق، فالعقل خادم للحقيقة ولا يمكن له بدون توجيه صادق أن يصل إلى الحقيقة، فإذا وضع بين

مقولات ضالة مضلة كالفكر البشري فإنه يعجز أن يصل إلى الحق، ولقد تبين أن عقل الإنسان غير كاف في الوصول إلى فهم علاقته بالله تبارك وتعالى ومهمته في الحياة ومسؤليته وأمانته والتزامه الإخلاقي وغير ذلك.

ولا بد من أن يحتاج إلى نور وهدى من النبوة والوحي ، ومن هنا تجئ ضرورة النبوة ومعنى هذا أن العقل لن يكون المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة ولا يمكن أن يصل وحده إلى الحقيقة ، وهذا ما يتقرر معرفته في هذا الشأن.

ولقد يحاول بعض التغريبيين الاستشهاد بأحاديث مروية ، وقد تأكد عن مصادر ثابتة أن هذه الأحاديث المروية عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في العقل لاأصل لشئ منه وأنه ليس من رواياتها ثقة يعتمد ، أورد ذلك (**ابن تيمية**) فيما نقل عن (**الحافظ**) وأهل المعرفة بالحديث. وقال (**الدارقطني**) أنه رويت أحاديث كثيرة في العقل ليس فيها شئ يثبت.

هذه هى الحقيقة فيما حاول دعاة تقديس العقل الإنساني وهى دعوة باطلة وافدة وهى قضية غربية الأصل لها ارتباطاتها بالنصرانية والكنيسة تنادى بها العلماء بعد أن وقفت الكنيسة أمامهم ضد ما حقق العلم، وقد تعالى هذا الصوت في الغرب من أجل تحرير العقل من مفاهيم وثنية وأساطير على النحو الذي كشف عنه أخيراً الدكتور موريس بوكاي.

الصراع العنيف:

وقد أراد المستشرقون ودعاة التغريب وضع العقل في مواجهة الوحي الإلهي، وكان من وراء ذلك محاولة إيجاد صراع عنيف بينهما فالإسلام يجمع بين المنهجين: الوحي والعقل، ويجعل العقل قائماً في إطار الوحي حيث يقرر الإسلام «الغيب» والإيمان به، ولا يسقط ما هو خارق للطبيعة، وقد أقام منهجاً كاملاً لما وراء الغيب (الميتافيزيقا) ولا يقر الإسلام ما فعله الغرب من حيث أناط بالعقل الإنساني المهام التي كانت موكولة إلى الوحي الإلهي، أو محاولة جعل العقل على مرتبة من الوحي ، وإذا كان ذلك قد تقرر في الغرب عندما ثبت أن كتبهم قد كتبها الأحبار والرهبان فإن ذلك ليس مقبولاً في محيط الإسلام حيث أن القرآن هو النص الإلهي الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يدية ولا من خلفه.

وفي نفس الوقت يقرر الإسلام أن العقل هو مناط التكليف ويعطيه حقه في التفكير والتأمل والتدبر والنظر والنقد والاعتبار والاختيار.

غير أن الإسلام ينكر أمرين: أن هناك خلافاً بين الدين والعقل أو نزاعا بين الفلسفه والدين، ويضع العقل في مكانه الصحيح دون أن يعلي من شأنه على النحو الغربي، أو ينكره كما تحاول بعض فصائل الباطنية ودعاة الروحية ويقرر الإسلام أنه لا خلاف بين الوحي والعقل، أو بين المنقول والمعقول، فإذا وقع الخلاف حمل على أنه خطأ في تفسير الأمور فالحسن هو ما حسنه الشرع وما قرره الوحي وهو مقدم على ما يراه العقل، ذلك أن العقل البشري لا يستطيع أن يعلو على الوحي، أما مسألة العقل الفعال والعقل المحض والعقل الهيولاني فهى كلمات لا يقرها الإسلام وهى منقولة من الفلسفات اليونانية الهلينية والهندية والسريانية، ويتقرر مفهوم العقل على النحو الذي سوره القرآن في أية سورة العنكبوت.

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾

وقد قرر الإمام (**ابن تيمية**) وعلماء كثيرون: أن الدين أصل للعقل وأب يفئ إليه، إذا حيرته متاهات الظنون ، وأنه ليس بين العقل والدين خصومه وما زعمه الفلاسفة في هذا باطل ، بل إن هناك توافقهما وتآخيهما إذا وضعا الوضع السليم فوافق صريح المعقول لصحيح المنقول.

وبعد فهذا موجز قليل نفتح الباب به أمام القضية المثارة ويلقي الضوء إزاء القضية الأولى: دعاوى العقلانية وتقديس العقل ويبقى أن نتحدث عن القضية الثانية في البحث القادم بإذن الله .

* * *

* *

*

(٨٩)

الحــــوار

لم يكن الحوار بين الأديان أو بين الإسلام والمسيحية إلا إحدى محاولات الغرب لاحتواء عالم الإسلام، واستخدام الحوار كوسيلة لتعزيز عامل التبعية وإخراج الإسلام من ذاتيته الخاصة وتصوره المتميز وطابعه المفرد إلى خدمة أهداف الغرب في استمرار وإدامة أيدلوجيته الرأسمالية الغربية القائمة على الليبرالية والديمقراطية والتي تمثل إحدى قوتي الصراع العالمية، هذا فضلاً عن المحاولة التي ترمي إلى استخلاص تصريحات وكتابات بأقلام أسماء إسلامية لا معة تؤيد المسيحية وتشير إلى أنها لا تختلف مع الإسلام إلا في جوانب يسيرة أو في مسائل فرعية.

ولقد كانت فكرة الحوار بين المسيحية والإسلام ومحاولة التقريب بينهما فكرة قديمة قدم الصراع بين الإسلام والغرب ، ومن عمل الذين يؤرقهم أن يروا الإسلام قوي التأثير أو مقتحماً للوجود الغربي في العصر الحديث .

بل لعل ظاهرة اقتحام الإسلام لوجدان الغربيين قد كان بعيد الأثر في المخطط الذي دعت إليه الكنيسة الكاثوليكية وعقدت عديداً من مؤتمراته في قرطبة وطرابلس الغرب والقاهرة وتونس ، والذي اشترك فيه قساوسة أقزام على قدر كبير من الذكاء والمرونة والخبرة بأساليب الجدل، عارفين بالوجهة التي يريدونها من وراء الحوار مخفين غايتهم، ومظهرين أساليب ووسائل تمكنهم من الوصول إلى الأهداف دون أن يسلموا للمسلمين بصريح الاعتراف بالإسلام أو رسوله، على أنه دين سماوي في نفس الوقت الذي يقدم فيه المسلمون المفهوم الصريح الواضح بالاعتراف بالدين المنزل على السيد المسيح، وبنبوة السيد المسيح، والتكريم العميق لأمه مريم البتول. ولقد وجد من علماء المسلمين المشاركين من ذهب إلى أبعد ما

كان يتصور المحاورون المسيحيون دون تقدير أو وعي لخطط الحوار أو التقدير الصحيح لوضع الإسلام بوصفه خاتم الأديان ليظهره على الدين كله.

وقد كشف كثير من الباحثين حقيقة أساسية هي أن محاولة الحوار تقوم على جمع نفر من المثقفين ذوي الكلمة المسموعة في قولهم على مناقشات ممكنة، لا تمت بظاهرها إلى التبشير، وإن كانت غايتها الحقيقة زعزعة العقائد، بجر الناس إلى القول والرد، ثم النفوذ من خلال الأخطاء والجمل المتشابهة إلى التأثير على ذوي النفوس الضعيفة (علي حد تعبير الدكتور /عمر فروخ)؛ ولقد كان غاية الحوار الذي دعى إليه بين المسيحية وغير المسيحية (١٩٦٣) زعزعة العقائد على ألسنة أشخاص معروفين في قومهم، والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيها من كان أقوى يداً وأعلى صوتاً . وقد أدرك المخلصون أن (الحوار) هو وسيلة جديدة من وسائل التبشير الديني والسياسي معاً. وكان المجمع المسكوني الثاني (١٩٦٦) قد قرر إعداد رجال دين عندهم استعداد للحوار، رجال دين يعرفون كيف يصغون إلى الآخرين، وكيف يفتحون قلوبهم لجميع حاجات النفس الإنسانية، رجال دين من طبيعتهم أن يوقظوا الاهتمام في النفوس ويكونوا معلمين للإيمان المسيحي.

وقد وصف الباحثون المصنفون الحوار المسيحي الإسلامي بأنه محاولة لتغطية الفشل الذريع الذي أخذ يلاحق الكنيسة والعقيدة الكنسية بالخصوص لا خارج العالم المسيحي فحسب، بل داخل ذلك العالم وبين أوساط شبابه، فحاولوا الالتجاء إلى الإسلام كوسيلة أخيرة لإثبات قيمة المسيحية كدين صحيح الأصل، له وزنه بين الأديان الكتابية، وقد عبر عن هذه الظاهرة بعض الباحثين بأن الحوار لم يكن يستهدف القول بأنه لا خلاف بين المسيحية والإسلام لوأن هناك وجوها واسعة للقاء، فلماذا إذن دعوة الأمم إلى الدخول في الإسلام مادام ما يعرض عليهم هو مثيل لما عندهم، وتلك قضية دقيقة عالية الدقة، وهامة أشد الأهمية، لأنها هي القضية القديمة التي بدأت أيام الحروب الصليبية تعود وتتجدد، وذلك حين عاد

الأوربيون إلى بلادهم يشيدون بالإسلام وعدالته فقتلوا ؛ حتى لا ينشروا هذه الحقيقة ولتبقى الكلمة المتعصبة الباطلة قائمة، والواقع أن هناك وجوها عديدة وعميقة من الخلاف يجب أن تكون صحيحة واضحة.

ولقد كان من الضروري أن تمثل في هذه الندوات جماعة مختارة واعية تعرف أبعاد الأمور، والأخطار والمؤامرات المحدقة بالمسلمين ممن عرفوا بقوة إيمانهم بالإسلام وتعمقهم، وعدم تنازلهم وعدم سيرهم في خط المجاملة. وذلك حتى يكشفوا الحقائق الأصيلة . والتي تقرر أن الأديان السماوية الثلاث بينها من الفوارق الواسعة ما يجعل الجمع بينها مستحيلا ، ولكن من الممكن أن نقول لأصحاب تلك الأديان السماوية: تواصوا بالرحمة والسماحة وإقامة العدل بينكم وبالتعامل على قواعد الشرف والإخاء ، والوقوف في وجه الإلحاد والوثنية – على حد تعبير الشيخ محمد الغزالي – وقد أشار الكثيرون إلى ضرورة أن يملك الذين يذهبون إلى الحوار من علماء المسلمين رصيداً ثقافياً عربياً إسلامياً، وإلا كان من الخطر أن يذهب للحوار مع الغربيين أناس نشأوا في ظل الفكر الغربي ومفاهيمه وقيمه، وإلا فإنهم سوف يعجزون عن كشف شبهات الغربيين أو الرد عليها ويكون كلامهم معهم بمثابة (هذه بضاعتنا ردت إلينا).

كذلك فإن على علماء المسلمين أن يردوا تماماً فكرة التقريب بين الأديان لأنها لا تعني إلا الاعتراف بالأديان بوضعها الحالي الذي تختلف فيه عن حقيقتها التي أنزلت بها ، وحتى لا يظن الناس أن هذه الأديان صحيحة ويسلم المسلمون بصحتها، وهذا معناه أن الإسلام لم يأت بجديد بعد اليهودية والنصرانية، فقد جاء الإسلام لإصلاح ما حرفته الأديان السابقة.

وذلك أن نغمة وحدة الأديان هي من الأهداف الخفية للماسونية، ويكفي أن تتساند الأديان في مواجهة الإلحاد والشيوعية.

وفي عديد من هذه اللقاءات رفض المحاورون المسيحيون نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين والاعتراف بأن القرآن كلام الله تعالى.

ومن ذلك دعواهم إلى مايسمى بإحلال التفاهم بين الديانتين على شروط النصارى واشتراطهم على المسلمين التنازل عن أشياء كثيرة.

وقد بلغوا في ذلك قدراً من الانحراف الشديد بإشراك العلمانيين والماركسين في جلساتهم، حتى يكون الهجوم على الإسلام من جانبهم وليس من جانب الكهنة والقساوسة.

ولقد كان العلماء المسلمون غاية في الإيجابية حين قدموا مفاهيم أساسية لمختلف القيم الإنسانية العليا التي قدمها الإسلام للبشرية، وخاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان ووجه المقارنة بينها وبين ما جاء في الاتفاقيات الدولية، حيث لا يستند في القوانين الأوربية إلى حوافز إيمانية قوية حيث أدت الصناعة والتكنولوجيا إلى أخطار فظيعة يستخدمها الإنسان في الفتك والدمار والحرب والقتل .

وبينوا أنه لا يمكن تلاقي هذا الجانب إلا إذا اشتملت الحقوق الثقافية التي تضمنها الاتفاقات الدولية لحقوق الإنسان على جانب الأيمان بالله تبارك وتعالى.

كذلك كشف علماء الإسلام لعلماء الغرب أخطار العلمانية التي اعتنقها الغرب بديلا للدين، وكيف أنها اضعفت مبدأ من عقيدة الإيمان بالله، مما أدى إلى النتائج المادية وانتشار الإلحاد أما في الإسلام فقد جعل هذه الحقوق فرائض دينية، ومن ثم أعطاها بذلك مؤيداً قوياً جداً، لا تتمتع به حقوق الإنسان لدى الأوربيين ، وذلك لأن حقوق الإنسان في الإسلام تحمل نوعين من المؤيدات:

(١) مؤيدات نفسية في ضمير المسلم يشعر معها بالمسئولية أمام الله ولذلك فهو يؤدي هذه الحقوق ويكفلها ويرعاها .

(٢) مؤيدات ترجع إلى المسئولية في التشريع الإسلامي ، وهى مسئولية منظمة توجب عقوبات رادعة إلى جانب المسئولية الدينية والنفسية.

كذلك فقد طالب العلماء المسلمون المسيحين بأن يوقفوا التبشير في بلاد الإسلام، وحيث يمكن أن يكون ذلك نواة للحوار-وأشاروا إلى أن هناك بلادا في الجزيرة العربية ليس منها مسيحيون ومع ذلك تقام فيها مؤسسات وتنشأ كنائس ومستشفيات للتبشير، وكان من الشروط الأساسية لقيام هذه اللقاءات. حسن النية بعدم جواز إقامة كنائس في الجزيرة العربية بما أن سكانها جميعاً مسلمون ، ومن ثم فإن إيجاد فئة غير متجانسة معهم من المسيحية من شأنه أن يخل بالتجانس والانسجام الموجود بينهم لأنه من شأنه أن يوجد فتناً ، ويؤدي إلى إيجاد عصبيات لا مبرر لها، ولهذا فإن الحكم الشرعي هو عدم جواز إقامة كنائس في الجزيرة، وهناك نص: أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان وهى وصية الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، وكانت النتيجة أن أجلى الخليفة عمر نصارى نجران وأعطاهم في مقابل أرضهم أراضي في أمكنة أخرى خارج الجزيرة. (هذا النص من حديث الأستاذ محمد المبارك) كما كشف علماء المسلمين في ندوات الحوار حقيقة موقف الإسلام من المرأة: هذا الموقف الذي لم تصل إليه بعد الدول الأوربية بالرغم مما اكتسبت المرأة من حقوق كثيرة في التشريع الفرنسي فإنه لا يزال هناك سبع وعشرون موضعاً يفوق فيها الشريعة الإسلامية القانون الغربي.

ولقد كان من الضروري أن يكشف علماء الإسلام عن موقف الإسلام من المسيحية : ذلك الدين المنزل على عيسى عليه السلام، والموقف الآن الذي تقفه المسيحية من الإسلام.

وقد واجه هذا الحوار الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر عندما دعا مؤتمر قرطبة عام ١٩٧٩ لدراسة موضوع (محمد وعيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة).

فقد كتب الدكتور (عبد الحليم محمود) موضحاً الأسس التي يجب أن يقوم عليها الحوار قال : أحب أن أنبه في مودة من أجل تفاهم عميق إلى بعض الأمور:

١- الإسلام منذ أن بدأ خالف الجو العالمي اليهودي والوثني في أمر (عيسى) عليه السلام ، فقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه، أما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والآخرة، وأما أمه فهي صديقة - ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم، ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الآن ، وقد افتروا ومازالوا على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع، أما الإسلام فمجدهما وما زال مستمراً في تمجيدهما هذا ، فما لقي المسلمون من المسيحين مقابل هذا ؟.

٢- أنه لابد من الاعتراف بالدين الإسلامي ورسوله حتى ينال المسلمون في أوربا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وشعائرهم، وأنه لايتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحاربه المسلمون هو عيسى عليه السلام واتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

٣- أن المسلمين والمسيحين يعلمون مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد، وكان يجب أن يسيروا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة، ولكن للأسف يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة ، فهم يعملون ليل نهار على تنصير المسلمين في كل مكان في العالم وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفي مشهور، ويضيق المسلمون بذلك ضيقاً شديداً، ورغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق عن سعة للتنصير بكل الطرق، ولو حصروا نشاطهم في تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للأسلوب ولموضوع التنصير نفسه.

٤- والمسلمون أقليات في بعض الأقطار المسيحية مثل الفلبيين، وهذه الأقليات

المسلمة ينكلّ بها باسم المسيحية، وتؤخذ أرضها وييتم أطفالها وترمل نساؤها، ولا تجد إلا ارتياحاً في نفوس الأغلبية المسيحية ويجب أن ينتهي ذلك إنسانياً ويجب أن ينتهي ذلك دينياً.

- وفي المؤتمرات التي تعقد في أسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث:

١- التزام العقل وهنا يتحلل المسلمون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلي فيكون موقفهم منه موقف اليهود يقولون على (مريم) وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديداً ويقولون علي المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقاً شديداً، ولكن المسلمين في هذه المؤتمرات، يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام وأمه، أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالي فيتحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما يضيق به المسلمون فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم وإنما تكون وسائل تنافر، وذلك كما حدث في المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين التزام ما تمثله روح التفاهم فلا يساء إلى المسلمين في مقدساتهم.

٦- ونحن من جانبنا قد قدمنا أسس التفاهم واضحة سافرة :

* احترام المسيح عليه السلام * احترام أمه عليها السلام.

فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شيء ..

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا ومازالوا يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام فهل يمكن مع ذلك التفاهم.

٧- وأحب أن أقول إن الإسلام هو العامل الأكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام، وحين برأ أمه ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له، ومازال يقابل بهذا الجحود بين المسيحيين على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام.

وبعد .. فإنني أحب صادقاً أن نتعاون ضد كل انحراف وأحب أن أقول إنه لولا تقديري لكم لما كتبت لكم هذا وإنما يسرني أن أقرأ لكم وسأتحدث إليكم عن رأيي في موضوع المؤتمر في المستقبل ..

«(طبق الأصل) من عبد الحليم محمود إلى (ميجيل ابيالنا)»

ذلك هو الوجه الصحيح الذي يجب اعتماده لبدء الحوار الحقيقي بين المسيحية والإسلام.

* * *

ونحن ندعو دائماً إلى اليقظة والوعي في التعامل مع تلك الدعوات التي يقوم بها الغرب تحت واقع ظروف معينة أو غايات خفية، فقد عودنا الغرب هذا بحيث يجب علينا أن نكون على حيطة واسعة، دون أن ندخل نحن في خطة التآمر أو التعصب أو الحقد ، فذلك شأنهم، أما نحن المسلمين فقد كنا دائماً أنقياء القلوب ولكن ديننا علّمنا الحذر والحرص.

وحين يتسع نطاق الحوار على نحو ما يكتب بعضهم (نحن جميعاً بنو إبراهيم) في محاولة للعودة إلى الإبراهيمية، وما وراء ذلك من مخططات ترمي إلى حماية النظام الرأسمالي أو تأييد الصهيونية ومحاولة الادعاء بحق لليهود في فلسطين، كل هذا يتطلب الحيطة والحذر.

ولذلك نجد من يرى أن الحوار يصدر من الغرب الذي يدعي أنه يملك السلطة والنفوذ، ويملك الاستعلاء بالعنصر، وأدوات التكنولوجيا، وأنه ينظر إلى المسلمين على أنهم لابد أن ينصهروا في هذه الحضارة حتى يقيموا مجتمعهم، وأن وسائل التقدم كلها متصلة بهم مستمدة منهم، وهذا مفهوم خاطئ لا يقبله المسلمون اليوم، وإنما يرون أنهم يملكون منهجاً ربانياً أصيلاً، قادراً على العطاء، بل إن الغرب نفسه اليوم في أشد الحاجة إلى الانتفاع به في تصحيح مسار حضارته

ومجتمعه، فهل الغرب حقيقة على استعداد لتقبل أطروحة الإسلام؟ إن وجدان الغرب قد استطاع فعلاً أن يحس بعظمة الإسلام، ولكن القوى السياسية ما تزال تحاول أن تفرض نفوذها وأن تصر في عناد على أنها صاحبة السلطان والقوة.

ولذلك فإن مستوى الحوار على هذا النحو لن يحقق شيئاً حقيقياً فالغرب (كما يقول الأستاذ محمد الصالح عزيز) غير مستعد لأن يتنازل عن مفاهيمه تلك قدر شبر واحد، ولذلك فإن مشاركتنا معهم في الحوار على هذا الأساس إنما هو تعريض لأنفسنا للذوبان في عقيدتهم، وإنكار لشخصيتنا نحن، بل إن الحوار معهم على هذا الأساس يعتبر خيانة بحقنا نحن وبحق أصالتنا وعقيدتنا، لأن علاقتهم بنا حسب هذه المعادلة هي علاقة المستعمر في ظل ظروف الهيمنة وإطفاء جذوة الحماسة فينا، هذه الحماسة التي هي الشرط الأساسي للحوار والبناء»..

ونحن لا نقبل مقولة الغرب بأن الحضارة واحدة ولابد أن يقبلها العالم، أو أن الثقافة واحدة هي الثقافة الغربية، ولابد أن نقبل القوالب التي يقدمها لنا الغرب، فهذه مقولة مضللة قديمة قد انتهت تماماً بعد أن انتقل المسلمون إلى مرحلة الصحوة والتماس المنابع والإيمان الأكيد بأن منهج الإسلام هو وحده القادر على أن يكون أساس البناء في المجتمع الإسلامي.

أما تلك المقولات التي رددها طه حسين، وزكي نجيب محمود من بعده فقد تلاشت تماماً كما تلاشت المحاولة التي كانت تريد أن تجعل من الماركسية أسلوباً للعمل، وما لدينا في منهج الإسلام ما هو قادر على العطاء على نحو يفوق الأيدلوجيتين الرأسمالية والماركسية.

* * *

ويتساءل حسام الخطيب في مجال البحث عن أعماق فكرة الحوار: أليس واضحاً أن الغرب مازال يهيمن ثقافياً على كل مكان في العالم تقريباً، وهل

تصالح الغرب مع أي ثقافة أخرى أو على الأقل تحاور معها على المستوى اللائق من الجدية والاحترام؟ ثم يقول ونحن حين نضع حوار (الغرب والإسلام) في إطاره الأوسع من الحوار الثقافي العالمي فماذا نجد؟ .. هناك ثقافة واحدة مسيطرة عالمياً هي الثقافة الغربية، وهي تمد كل حوار صغيراً كان أو كبيراً بمفاتيحها الخاصة ومصطلحاتها ومفهوماتها، أليس الصراع بين التقدمية والرجعية، والماركسية والليبرالية والديمقراطية والمثالية والنسبية والتحليلية، كل يدور في فلك الثقافة الغربية، هل أبدى الغرب أي استعداد لتفهم أي ثقافة عريقة؟ كيف تعامل الغرب مع ثقافات الأمم المقهورة فيما يسمى غربياً بالعالم الثالث؟ ألم نقبل نحن طائعين مسميات غربيية فرضت علينا بالعالم الثالث أو البلدان المتخلفة، أو الشرق الأوسط أو الشرق الأقصى والشمال الإفريقي، وغيرها وكلها من اختراع الغرب ..

ويرى كثير من الباحثين أن (الحوار) وهو بديل للماسونية، وأن الدعوة إلى الحوار بين الحضارات، أو بين الأديان أو الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية كلها محاولات لإخراج المسلمين من عقيدة التوحيد، بدعوى أن دين الله واحد، متجاهلين تلك المحاذير التي اتصلت بالأديان والكتب السابقة للإسلام، والتي تتصل بسلامة النصوص ولعل من وراء هذه الدعوات العمل على إسقاط الإيمان بالأديان كلية لأن الدين في زعمهم أداة للتعصب.

ثم إن هناك شبهة مصادر تمويل هذه الندوات، فإن الاتفاق عليها إنما تتقدم به جهات ذات نفوذ استعماري، ومعنى هذا أن هذا الحوار يراد به خدمة أهداف سياسية واقتصادية عالمية ويركز على أن يتولى الحوار أولياء الغرب الذي تعلّموا وتكونوا ذهنياً في الغرب، وكثير منهم يفكرون برموزه وأساليبه.

ومن هنا فقد كان لابد من الاحتياط للمحاذير الأساسية:

١) وأخطرها ما تعني من اعتراف الإسلام بالأديان الأخرى (على النحو الذي عليه واقعها اليوم) ..

٢) أن الإسلام ينتشر بسرعة فائقة في أوروبا وأمريكا واستراليا ولا شك أن هذا الحوار يوقفه ويشكك فيه ويقدم لخصوم الإسلام وثائق تنتقص من تفرد الإسلام وذاتيته المتميزة ..

٣) لا يقوم تعاون حقيقي بين الإسلام والغرب إلا إذا كف الغرب عن أحكامه المسبقة والمغرضة عن الإسلام التي تروجها وسائل الإعلام الواقعة تحت تأثير الصهيونية.

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

صدق الله العظيم ..

(٩٠)
الإبراهيمية

تتردد في الأيام الأخيرة، فكرة قديمة جديدة، هي الدعوة إلى العودة إلى دين إبراهيم، أو تحت عنوان الإيمان بالإبراهيمية في محاولة لإحياء فكرة الدعوة إلى وحدة اليهودية والنصرانية والإسلام، بوصفها خرجت على أيدي أبناء إبراهيم عليه السلام، وتتحرك هذه الدعوة اليوم على ألسنة وكتابات من يرغبون في خلق حوار بين اليهودية والإسلام على نحو الحوار الذي يدور منذ وقت بين النصرانية والإسلام.

وقد عرفت هذه الدعوة بأسماء الذين دعوا إليها في الماضي وفي مقدمتهم اليهودي «المير بيرجر» الذي أنشأ جماعة أصدقاء الشرق الأوسط، وأعلن أنه يهودي وليس صهيونياً، وأن هذه الدعوة بدأت في نفس الوقت الذي قام فيه الكيان الإسرائيلي، على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م.

وهي في أصلها محاولة لخداع المسلمين، بما يسمى الرابطة التي تربطهم بالنصرانية واليهودية عن طريق (إبراهيم عليه السلام) أبي الأنبياء إسحق وإسماعيل، دون أن يكتشف المخدوعون كيف تغيرت خطة الأديان السابقة للإسلام، وخرجت عن الخط الحقيقي الذي رسم لها على أساس ﴿ النَّبِيَّ الأمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ .. ﴾ ..

كذلك فقد تعددت الشكوك حول هذه الدعوة لارتباطها بدعاة الصهيونية. فقبل أن يطرحها الأستاذ (جارودي) على علماء مصر في الفترة الأخيرة أغسطس ١٩٨٦م بأكثر من عام كامل ظهر في باريس كتاب تحت عنوان «نحن جميعاً بنو إبراهيم»..

وأعلن أنه من صنع السكرتارية الكاثوليكية للاتصال بالمسلمين بالتعاون مع

المركز الوطني للتعليم الديني .. وقال الذين عرضوه إنه يعتمد في مادته على الكتاب الذي أصدره الفاتيكان عام ١٩٧٠م تحت عنوان «توجيهات لإقامة الحوار بين المسيحيين والمسلمين» وعلى كتاب ميشال لولونغ «نعمة الله عليك» وكتابه « ولا أن ورجاء واحد» ومقال الكاتب روبرت كاسبار، الذي نشرته الكنيسة (ديسمبر ١٩٧٩م) وعنوانه «ثلاثة عشر قرناً من تعايش النصارى والمسلمين» وقد كان هذا كله طبيعياً وعادياً، في نطاق الدعوة المبثوثة منذ أكثر من عشرة أعوام عن الحوار النصراني الإسلامي ولكننا سرعان ما سمعنا أصواتاً جديدة تدعو إلى فتح حوار يهودي إسلامي على غرار الحوار النصراني الإسلامي.

إحياء الإبراهيميه

وسرعان ما سمعنا بمن يدعو إلى إحياء الإبراهيمية بعد الدعوة إلى الحوار بين الحضارات والحوار بين الأديان بدعوى أن دين الله واحد، وأن على المؤمنين أن يلتقوا مهما كانت طبيعة إيمانهم ، في نفس الوقت الذي ترتفع فيه أصوات أخرى تدعو إلى إسقاط الإيمان والأديان ، لأن الدين في زعمهم أداة للتعصب، وأنه هو مفرق الشعوب والأمم، وذلك هو ما أعلنته مبادئ الماسونية، وما دعت إليه البهائية وأيدتا التلمود والصهيونية.

وقد بدا أن الدعوة إلى إحياء الإبراهيمية هي بديل للماسونية أو هي الماسونية بثوبها الجديد، فهي محاولة التحام ترمي إلى الحوار بين الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانيةوالإسلام.

ومن العجيب أن يشترط المحاورون من الطرف الآخر أن يقبل المسلمون منهم مفاهيمهم في العقيدة وخاصة فيما يتعلق بنبوة عيسى (عليه السلام) ، والتي يرى النصارى فيها مفهوماً مختلفاً عن مفهوم الإسلام وما يتعلق بنبوة محمد (صلى الله

عليه وسلم) التي لم تستطع حلقات الحوار التي انعقدت خلال السنوات الطويلة أن تصل إلى الاعتراف من قِبَلِ النصارى بنبوته صلى الله عليه وسلم .

وقد كشف المحاورون المسلمون أهداف هذه الدعوة إلى الحوار بأنها محاولة من الكنيسة للحصول على اعترافات صريحة من علماء المسلمين بالنصرانية وبالسيد المسيح في غير مقابل مماثل، وأن هذه الاعترافات تقدم للنصارى والغربيين لإثنائهم عن الدخول في الإسلام بدعوى أنه لا توجد بين النصرانية والإسلام فوارق أساسية وهذه خدعة شديدة الخطورة إذ أن مفهوم التوحيد الخالص الذي يتميز به الإسلام له آثاره البعيدة في النفس الإنسانية وفي الإيمان وفي سكينة النفس تختلف تماماً عن الصلب والتثليث والخطيئة التي هي من أبرز وجوه الاختلاف بين النصرانية و الإسلام .

ومن هنا فإن حرية الحوار غير مكفولة وإن المحاورين النصارى يرغبون في عدم إثارة المسلمين لوجوه الخلاف، وقبول التعامل مع الواقع، والحقيقة التي يكشف عنها تاريخ الحوار الطويل أنه كان في أول أمره يستهدف أن يلتقي أهل الأديان المنزلة على خطة يواجهون بها الإلحاد والمادية والمذاهب الهدامة أساساً (وهذا ما اختفى الآن تماماً) وأن يكون هناك عربون أساسي هو أن يكف الجانب النصراني عن عملية التبشير و(التنصير) كلية في البلاد الإسلامية كمقدمة لهذا الحوار ولكن هذه الرغبة لم تتحقق ، بل تبين أن هناك محاولات شرسة لتوسيع دائرة التبشير عن طريق هذا الحوار نفسه.

والغرب يعرف وجوه القصور في دعاويه، ولكنه يحرص على أن لا يمسها المسلمون، بينما يذهب هو إلى أبعد الحدود في إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام وقيمه وتاريخه ولغته وخاصة بالنسبة للقرآن الكريم، وذلك عن طريق دوائر المعارف وخاصة دائرة المعارف الإسلامية وهو غير مستعد لأن يتنازل عن شبر

واحد في هذا الحوار لحساب الالتقاء على قاعدة أو أساس، وإنما هي في الحقيقة محاولة تعرض الإسلام للذوبان وتقديم التنازلات عن طريق أسئلة ماكرة ومحاورين غاية في الدهاء مع حسن الظن من الطرف الآخر وما لم تتغير النظرة القديمة أساساً إلى الإسلام وإلى المسلمين، وتذهب إلى غير رجعة فكرة الاستعلاء الغربي بالعنصر والدم والجنس الأبيض صانع الحضارة فإن الأمر كله يظل باطلاً.

وسيلة جديدة للتبشير:

بل لقد ذهب البعض فعلاً من الخبراء في هذا الأمر أمثال الدكتور «عمر فروخ» وغيره إلى أن: الحوار هو وسيلة جديدة من وسائل التبشير الديني والسياسي معاً، وأن غاية الحوار هو زعزعة العقائد على ألسنة أشخاص معروفين في قومهم، والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيه من كان أقوى يداً وأعلى صوتاً.

نقول هذا كله في مواجهة هذا التحرك الجديد الذي بدأه عدد من دهاقنة الصهيونية وتورط فيه أخيراً «رجاء جارودي» الذي استطاع الآن أن يحصل على قلعة من قلاع قرطبة لإقامة مقر لهذه الدعوة يجمع فيه قسساً وأحباراً وبعض المسلمين، وهكذا يمكن أن تتحقق رغبة الصهيونية العالمية لأول مرة في الجلوس على موائد الحوار مع المسلمين وخاصة وهي تبدأ من منطلق خطير هو «الإبراهيمية» أي اتخاذ دين إبراهيم مدخلاً إلى هذا الحوار بينما نرى أن هناك محاذير خطيرة في هذا الأمر بعد أن تجاوز النصارى واليهود دعوة إبراهيم الحنيفية التي تنكر التعدد، والإله الخاص، وتربط بين حلقات الإسلام ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

أولا : يجب أن يكون واضحاً أن الدين عند الله هو الإسلام منذ أنزل على نوح عليه السلام إلى خاتمه محمد (صلى الله عليه وسلم) وأن روساء الاديان هم الذين حرفوا السلسلة وخرجوا عنها ليجعلوا من ديهم رسالة قومية مستقلة ، والمعروف أن أبراهيم (عليه السلام) هو أبو الأنبياء . وأن اسحاق وإسماعيل هما جدا اليهود والنصاري والمسلمين وقد حملت هذه الأديان بشارات مؤكدة بالنبي الخاتم ثم حرفت هذه البشارات على النحو الذى أشار إليه القران الكريم ﴿قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾

فقد حاول اليهود أن يعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، ورسموا لدينهم خطة قامت علي حقدهم علي البشرية وغلوائهم ، ثم جاء النصاري فغيروا طريقهم ، فقد كانت رسالة المسيح عليه السلام هي خاتمة رسالات الله تبارك وتعالي المختصة ببني اسرائيل: ﴿ وإذ قال عيسى بنُ مريم يابني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراةِ ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ .سورة الصف.

غير أن رؤساء الأديان فصلوا رسالة عيسي (عليه السلام) عن منطلقها الحقيقي كآخر الرسالات الخاصة ببني إسرائيل وادعوا أنه دين عالمي وبذلك انفصلت كلتا اللرسالتين . رسالة موسى (علية السلام) ورسالة عيسى (عليه السلام) عن سياقهما المتصل بالدعوة الإبراهيمية الحنيفية أساساً وإلى الدعوة الخاتمة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) نهاية .

ومن هنا فإن أي موقف في الحوار بين الأديان أو التقارب بينها يجب أن يكون علي بينة حقيقة من هذا التحول بمعنى أن الدين قد انحرف عن مساره وهدفه بما أدخل عليه من مفاهيم تختلف عن الدين المنزل . وبما جرى من تحريف الكتب المنزله على رسله . وقد كشفت الأبحاث العلمية التي قام بها علماء

متخصصون في اللاهوت في السنوات الاخيرة عن هذه الانحرافات

ومن هنا فإن قبول الحوار مع هذه الأديان دون تقدير الموقف الخاص بهذه الانحرافات يكون عملاً غير علمي . خاصة وأن الجانب أخر سيصر على موقفه ويطالب بقبول الأمر الواقع.

فهل معنى هذا أن يعترف الإسلام بالإمر الواقع وبالأديان القائمة الأن على أنها هي الأديان المنزلة وأن كتبها هي الكتب المنزلة ؟

ثانيا: فكرة وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم (عليه السلام)

وهذه الفكرة قد حرفت في التوراة حيث اقتصر وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم على إسحاق لتعتبره مدخلاً إلى العنصرية التي سميت من بعد (شعب الله المختار) ولكن القرآن الكريم فصل في هذا الأمر وجعل وعد الله لإبراهيم والصالحين من أبنائه وأن هجرة إبراهيم إلى مكة مع ابنه إسماعيل من أجل أن الله أعطا ميثاقاً بأنه تعالى قد اختاره إماماً للأمة والمؤمنين من قومه سيقوم بأمانة الرسالة، وإن الله قد أتاه وآل إبراهيم ملكاً عظيماً هو الملك الذي تحقق بالإسلام.

وكانت هذه الحقائق واضحة في التوراة المنزلة ولكن اليهود حرفوها فجعلوا منها كياناً عنصرياً حتى اسم الإله بدل ، فالموقف هنا مختلف بين مفهوم الإسلام للرابطة بين إبراهيم عليه السلام وبين اليهودية والنصرانية حيث يقول سبحانه وتعالى ﴿ وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ فكيف يمكن الاحتجاج اليوم بالإبراهيمية بالنسبة لقوم حرفوا صلتهم به وغيروا دينهم من الأساس ؟

أمر خطير للغاية

الحقيقة أن محاولة إحياء (الإبراهيمية) أو الإيمان الإبراهيمي على النحو الذي

بدأه الصهيونيون واليهود ويحاول أن يسير فيه اليوم (رجاء جارودي) هو أمر خطير للغاية وغير محسوبة عواقبه[1] .

وقد واجه علماءُ الأزهر (جارودي) في القاهرة ورفضوا فكرته تماماً كما كان كثيراً من علماء المسلمين في الملتقى الإسلامي بالجزائر عارضوا الفكرة ورفضوها وقد أشار بعض الكتاب في الأخير إلى أنه من المخوف أن تكون لهذه الدعوة صلة بما نادى به (صني مون) المليونير الكوري المقيم في أمريكا والذي أدعى النبوة وكون مجلساً علمياً للأديان.

وتلتقي أهداف هذا المجلس مع أهداف الماسونية العالمية التي تجعل من أهم مراميها الخفية (تذويب العقيدة في نفس كل مؤمن) تمهيداً لمحوها ومن ثم فرض عقيدتهم الجديدة التي تارة تأخذ اسم الماسونية وتارة تأخذ اسم البهائية للوصول إلى مرحلة (اللادين).

وكان (مون) قد أنشأ الكنيسة الموحدة في كوريا ولها الآن فروع في أنحاء العالم بالإضافة إلى هذا فقد حدث أن عقد مؤتمر إسلامي في تركيا (١٩ سبتمبر الماضي) تحت شعار نحو فهم ووحدة العالم الإسلامي قام على تنظيمة مون وجماعته واشترك فيه ١٦ من كبار العلماء المسلمين.

وقد تبين للباحثين أن المجلس يريد أن يطرح بعض الأفكار المدسوسة التي أعدها بدقة مجموعة من علماء اللاهوت الكاثوليك واليهود، وهي ترمي إلى القول بأن هناك وحدة تجمع بين اليهودي والبوذي والهندوكي مع الأديان السماوية.

ثم لم يلبث (كوفمان) اليهودي أن أعلن أن (مون) تلقى الوحي من المسيح عام ٣٦ وأنه درس الأديان والقادة: بوذا وموسى في دعوة إلى الجمع بين الأديان والأمم حتى تعيش في سلام.

وهكذا تجري الدعوة إلى خداع وتضليل المسلمين بالأفكار البراقة والكلمات

المنمقة، تحت اسم وحدة الإنسانية واحترام تراث الإنسانية (الذي هو ركام الباطنية والوثنية في عصر طفولة البشرية) والدعوة إلى حقوق الإنسان وحرية المعتقدات الدينية.

وكل هذا يرمي إلى تفريغ المؤمن من عقيدته ثم الوصول به إلى مرحلة اللادين (كما يقول الأستاذ محسن فهمي عبد المالك) وكل هذا يتكامل في إطار وحدة يتمثل في حملة خطيرة ضارية على الإسلام.

إن الخطر الحقيقي في فكرة الحوار أو التقريب بين الأديان أنها لا تعني إلا اعتراف المسلمين بهذه الأديان بوضعها الحالي الذي يختلف عن حقيقتها حتى يظن الناس اليوم أن هذه الأديان صحيحة ويسلم المسلمون بصحتها وهذا معنى أو ما يمكن الحصول عليه هو أن الإسلام لم يـأت بجديد بعد اليهودية والنصرانية، ولا ريب أن الخلط بين الإسلام والأديـان الأخرى يلحق الضرر بالمسلمين.

والحقيقة التي لا تقبل الجدل أن الإسلام جاء ليصحح أخطاء اتباع الأديان السابقة ويكشف عن انحرافها عن الطريق الذي رسم لها وأن الإسلام قد أعاد البشرية مرة أخرى إلى الصراط المستقيم، ومن هنا فإن الحوار المفتوح يعتبر اعترافاً بالوجود القائم الآن لهذه الأديان وبذلك تكسب من حوار المسلمين معها قوة على الحياة بعد أن تكشف لإهلها انحرافها واضطرابها.

وإذا كنا نقدر هذه الصحوة الإسلامية وخطواتها السريعة التي أذهلت الغرب والتي دفعت البابا إلى عشرات الرحلات في أنحاء العالم لمقاومة هذا الزحف الإسلامي فإننا لا نستطيع أن نتجاهل أن الحوار في ذاته هو محاولة لتغطية الفشل الذريع الذي أخذ يلاحق الكنيسة في الغرب بدخول الناس في دين الله أفواجا

فالغرب الآن بهذه الأعداد الضخمة التي يقتحم الإسلام وجدانها اليوم يحس بأنه في حاجة إلى محاولات مضللة لمقاومة هذا التحدي ونحن نعرف أن الكنيسة

الغربية اليوم محتواة بالنفوذ اليهودي الصهيوني الذي يسيطر عليها وأننا نحب أن يكون واضحاً أمامنا أننا نملك الدين الصحيح الذي لا يأتي لكتابه الموثق أي تحريف أو باطل وأنه المنطلق الوحيد لبناء مجتمع الأمن والسكينة للبشرية كلها.

* * *

(٩١)

العلمانية

دخلت على الفكر الإسلامي مصطلحات وقيم ومفاهيم للفكر الغربي بتياراته الثلاثة: اللبيرالية والماركسية والصهيونية، ﴿ ولكل وجة هو موليها ﴾ وكلها تطمع في أن تحتوي الفكر الإسلامي وتسيطر عليه وتخرجه من ذاتيته الخاصة وتميزه المفرد، بوصفه القوة المنيعة، التي تتحرك خارج نطاق الفكر الغربي العلماني الوثني المادي المرتبط أساساً بالفكر اليوناني - الروماني ، المتصل بالفكر المسيحي - اليهودي والذي جاء الفكر الإسلامي - مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية - ليحرر الفكر الإنساني الرباني المتصل برسالات السماء من التحريفات الغالية والأهواء الضالة، ويرده إلى الربانية والإنسانية بعد أن انطلق وراء المطامع والرغبات معلياً شأن الأساطير وفكر طفولة البشرية وكل فكر جاء الدين الحق لتزييفه ونقضه، وقد تختلف في العلمانية الغربية (وفق مفاهيمها المختلفة) وإقامة تلك القاعدة الضالة التي تجمعت فيها كل وسائل المكر والمؤامرة والخداع والتضليل واصطناع ظواهر العلم وأساليبه في الإخفاء والإعلان، واستغلال البريق والوهم (إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس) في سبيل النيل من قلاع الإسلام وحصونه التي تستمد وجودها الحقيقي من الفطرة والعلم والاستجابة لنواميس الكون وقوانين الوجود التي لا تغلب مهما بلغوا من القدرة في سبيل إغراء الباطل وحشده وإغراء السانجين ببريقه الأخاذ الذي قد يمتد، وينمو ، ولكنه لا يسطيع أن يغلب الحق ، والذي لابد أن ينهار وتدوسه الأقدام لأنه يعارض سنن الله الحق.

لقد جاءت العلمانية إلى أفق الفكر الإسلامي كأداة خطرة وقوة محتشدة تحملها أيدي القوى المتصارعة على السيطرة العالمية والمتجمعة على هدف أساسي

هو الإدالة من الإسلا م أولا لأنه الصَّخرة العاتية التي إذا تحقق النيل منها فقد انفسح الطريق أمام تلك القوى للسسيطرة العالمية ولهدم قوة الدين الحق الذي قامت عليه السموات والأرض والذي هو منقذ الإنسانية وملاذها وعلاج أمراضها وأسقامها، والضوء الكاشف الذي يقدم لها أسلوب الحياة وطريق النجاة.

ومن هنا كان خطر (العلمانية) من حيث هي أداة تستغلها القوى العالمية الطامعة في السيطرة على عالم الإسلام، والتي تعرف أن هذه الأمة التي أقامها القرآن لا يمكن أن تخضع أو تستسلم أو تذل، أو تُحتوي مهما بلغت شراسة عملية التغريب والحصار والاحتواء .

إن مفهوم العلمانية في أفق الفكر الإسلامي هو ضرب أكبر قواعد الإسلام وهي قاعدة (الإسلام دين ودولة) ، أو عقيدة وسياسة، وإحالة الإسلام إلى دين عبادي لاهوتي منفصل تماماً عن مناهج السياسة والاقتصاد والاجتماع التي هي أكبر مقرراته وأعظم معطياته بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع.

فالعلمانية لفظ يحمل في طياته مفهوم الدينية (Seeularism) سيكولار- ولفظها بالفرنسية (Laigue) لابيك-هذان المصطلحان يلتقيان عند معنى واحد هو «اللادينية»» ومعناها عزل الدين عن الحياة والاحتكام إلى نظريات بشرية ونظم وضعية وهو من خداع العناوين في أنه يوحي بالعلم والبحث عن المعرفة. وقد استخدمت العلمانية لتقديم تفسيرات من صنع البشر لحركة الكون والحياة وموقف الإنسان منها وتأثيرها على قيام المجتمعات وتوجيهاتها في إحلال (الطبيعة) محل القدرة الإلهية، والقول بالصدفة، وقد استخدمت كل الإنجازات المادية في حضارة الغرب للتمكين للنزعة العلمانية في المدارس والجامعات في العالم الإسلامي ويبدو أثرها واضحاً تماماً في عقلية الشباب المسلم ، وهي طرح شعارات تهدف إلى: عزل الدين عن الحياة وحبسه في دائرة العبادات.

إن مصطلح العلمانية ماكر خبيث أريد به تخفيف وقع كلمة (لا دينية) على الأسماع برده إلى الاشتقاق من العلم، وتعني العلمانية ان النفوذ الديني يجب أن ينحسر، والعلمية تعني : حالة علاقة بالدنيا وليس بالدين، وقد شاعت وذاعت هذه الكلمة في مرحلة الخصومة الشديدة في أوربا بين العلم والدين ، واستتبعت إلغاء الدين كعنصر تكوين قوى ، كما عنيت بحياد الدولة تجاه الدين ، كل دين.

والعلمانية في محيط العرب والإسلام دعوة لامحل لها في الحقيقة فليس في هذا المحيط هيئة تقوم مقام الكنيسة، وليس علماء الإسلام هم رجال دين بمفهوم الغرب، وليس في الإسلام حكومة ثيوقراطية قامت أو نص على ظل لها. ولما كان الإسلام ديناً ونظام مجتمع، وقد امتزج الإسلام بالمجتمع الإسلامي امتزاجاً كاملاً عقدياً وعضوياً لا سبيل إلى نزعه ، فقد تشكلت هذه الأمة على هذا النحو ولن يستطيع أحد أن يغير فطرتها، والإسلام دين ودولة وحضارة، فلا يمكن فصله عن الدولة من حيث إنه يعطيها المبادى الإنسانية العامة.

أما المسيحية فإنها كدين عبادي، منهجه التشريعي في اليهودية، فإنها حين فصلت نفسها كدين مستقل، استتبع ذلك عجزها عن تقديم المنهج الجامع مما أوقعها في التصادم مع العلم ومما انتهى برجال العلم إلى إزاحتها تماماً وتقرير بديل لها هو (العلمانية).

أما الإسلام فلأنه يتعارض كلياً وجزئياً مع هذا فإن الدعوة إلى العلمانية في أفقه تعني تعطيل الإسلام عن التطبيق وإقصاءه عن التأثير في حياة المسلم.

ولقد حاولت قوى الاستعمار والتغريب تدمير المجتمع الإسلامي بإقصائه عن شريعته، وفرض القوانين الوضعية عليه، وتحويله إلى نظام الربا في الاقتصاد وإلى مناهج التعليم الوضعية في مجال التربية وذلك كله يهدف خلق أجيال تابعة تبعية كاملة للفكر الغربي تمتلك مقاليد الأمور في مختلف مجالات القيادة الفكرية

والسياسية، وكانت عملية إسقاط الخلافة وتحويل الدولة العثمانية إلى دولة إقليمية علمانية أبعد الأثر في العالم الإسلامي ، كله، وفي البلاد العربية وإيران وغيرها، وصار للعلمانية بعد ظهور الإقليميات والقوميات دعاة في البلاد الإسلامية يدافعون عنها، ويروجون لها، ولما كان دعاة العلمانية قد احتلوا مراكز قيادية في مجالات التربية والتعليم والثقافة ولقد كان لهذا أثره الكبير في الحيلولة دون العودة إلى الأصالة الإسلامية.

وتقرير الباحثون أن الدعوة إلى اللادينية في الغرب والتي سميت خداعاً بالعلمانية نشأت في أوربا نتيجة الصراع بين الحكام ورجال الكنيسة من ناحية وبين العلماء ورجال الكنيسة من ناحية ثانية، وقد انتهى الفراغ إلى ما عرف باسم نظرية (فصل السلطات) وعزل الدين عن التأثير في المجتمع، وهذه النظرية التي واجهت تحديا قائماً في الغرب مع تفسيرات المسيحية التي لم تكن شريعة مستقلة، عند ما نقلت إلى أوربا، هذه لا علاقة لها البتة بالإسلام الذي جاء ديناً ومنهج حياة في نفس الوقت، والذي لا يفرق بين الدين والدولة أساساً، حيث لا يوجد بينها في مفهومه أي تناقض أو تعارض بل يوجد بينها تكامل وتواصل جذري.

وقد طرحت هذه الفكرة في أفق الفكر الإسلامي بعد سقوط العالم الإسلامي تحت نفوذ الغرب بهدف حجب الشريعة الإسلامية (سياسياً واقتصادياً وتعليمياً) عن التطبيق وتقديم القانون الوضعي ونظام الربا ونظام التعليم اللاديني بديلاً عن نظام التربية الإسلامية الجامع ، ومن ذيول هذه الدعوة المسمومة فكرة (الدين لله والوطن للجميع) أو (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) جهلاً بأن الدين والوطن لله وأن ما لقيصر هو لله أساساً. وذلك بهدف أقصاء المفهوم الإسلامي عن المجتمع والسياسة وبمعنى أوضح فإن (العلمانية) هي إقصاء القيم الروحية والفكرية التي جاء بها الدين عن الحياة الاجتماعية وتحرير الفرد والمجتمع من الالتزام الديني

والمسئولية الأخلاقية بهدف دفعه إلى التحرر الخارج عن حدود الله» ولقد كانت العلمانية ركيزة أساسية لكل دعوات عدم الوحدة الإسلامية الجامعة كالاقليمية والقومية ودعوات الأجناس والعروق والدماء . ذلك لأن هذه الدعوات إنما تقوم في سبيل تحطيم الروابط الروحية والفكرية التي جمعت بين الأجناس والأمم المختلفة تحت لواء واحد مع اختلاف الفروق اللونية والعرقية والتي جاء الإسلام اساسا لقطع تلك الأصول القديمة وهدمها من فينيقيه وفرعونية وأشوريه وبابليه وصهرها مع وحدة فكرة أساسية (لا إله إلا الله) كلكم لادم وأدم من تراب ويقول الباحثون :

« إن العلمانية تعتمد على مصدر للمعرفة هو العقل . وترفض المصادر الأخري كالوحي والإيمان بالغيب . وهي بذلك تقف في الطريق المعاكس لكل دين من الأديان ،والعلم بمفهومه الصحيح برئ من هذا المصطلح المنسوب إليه.

ومن أخطاء دعاة العلمانية ما يقولون من التخيير للمسلمين بين الإسلام والعلمانية . أو القول بأن الإسلام لا يستطيع أن يواجه التطورات الاقتصادية التي يواجهها العرب والمسلمون . ولقد رفض المسلمون والعرب خلال أكثر من قرن من الزمان هذا الأسلوب من العمل سواء في مجال السياسة أو الاقتصاد والتربية .

ولما كانت الماسونية هي المخطط الأكبر في مواجهة الأديان فإن فصل الدين عن الدولة نظرية صهيونية تلمودية عَمِلَ اليهود على تنفيذها في فرنسا بعد الثورة الفرنسية وفي مختلف أنحاء أورباء بدحض النفوذ المسيحي الكنسي الذي كان يرسم حدوداً لليهود في أزقتهم وحواريهم ويحول بينهم وبين الوصول إلى النفوذ السياسي وفي عام ١٩٠٥ بدأت عملية الفصل وخرجت التربية من نطاق الكنيسة. وفي الشرق كان أول من أبتدع فصل الدين ونادي بها (مصطفي كمال اتاتورك) وكان وراء ذلك دفع من الأستعمار الذي غذى هذه المؤامرة وعمل على شيوعها ،وكانت الخلافة في نظره حجر عثرة يجب التخلص منها ولا يمكن التخلص منها إلا

بالتخلص من العقيدة الإسلامية نفسها باقتلاعها من نفوس أصحابها. وقد سلخ اتاتورك تركيا الإسلامية عن العقيدة الإسلامية بقانون وبرنامج وضعت خطواته في محافل أوربا الماسونية. ولم يمكن عن إرادة الشعب التركي العميق الإسلام الذي لم يلبث أن عاد سريعاً إلى أحضان الإسلام رغم أنف حماة الماسونية والعلمانية من «الدونمة» الحاكمين.

* * *

يرد بعض الباحثين انتقال العلمانية إلى مصر منذ عهد (محمد علي) حين أرسلت البعثات العلمية لمختلف دول أوربا. وحينما استحضر عدداً من الاوروبيين لكي يساهموا في مختلف نشاطات الدولة . وسار على هذا النهج خلفاء محمد علي :عباس وسعيد واسماعيل وعند الاحتلال البريطاني لمصر فرضت العلمانية على البلاد فاقصيت الشريعة الإسلامية وحل محلها القانون الوضعي . وأبعدت مفاهيم الإسلام في الإنسان والمجتمع والأسرة . ووضعت العلوم الإجتماعية الغربية بدلاً منها وطبق الأقتصاد الغربي،أما عن التعليم فقد طبقت العلمانية في التعليم الوطني بعد الاحتلال البريطاني لمصر ، بعد أن كان تطبيقها قاصرا على مدارس الإرساليات قبل الاحتلال ودرس شبابنا من ذلك الوقت وحتي الآن علوم معربة . وانحسرت العلوم الإسلامية وأخذت مكانا ثانوياً ودرست العلوم الوضعية .فاقيم علم الاجتماع علي وجهات نظر (سان سيمون واميل دوركايم وأوجست كونت وماركس) . وأقيم علم النفس على وجهات نظر فرويد وبافلوت وغيرهم ، وأقيم الاقتصاد على النظرية الماركسية الشمولية والليبرالية والربوية . وأقيمت السياسة على وجهات نظر ميكافيلي وجون لوك وجان جاك روسو.

وأقيمت الأخلاق على النسبية المطلقة .وأقيم القانون على أسس وضعية .وأقيم الفن على أساس الانفلات من القيم حتى لو كانت هذه القيود والحدود هي القيم الخلقية. كما أقيم التاريخ على تفسير الغرب وأغفلت النظرية الإنسانية والأخلاقية، بل وأكثر من هذا أغفلت الأحكام الجامعة المانعة في استخدام نتائج العلوم . بل

أخذت المفاهيم الإسلامية المتعلقة لشئون الحياة مكاناً ثانوياً للغاية في جميع ميادين النشاط البشري .

وقد كان انتقال هذه الفكرة المسمومة لمجتمعاتنا سبباً في تحطيم السد الذي كان يقف في وجه النفوذ الاستعماري الاقتصادي والاجتماعي (زكريا فايد).

إن أكبر أسباب الخلط هو عدم الوعي الدقيق بأثر الظواهر الاجتماعية بين مجتمع ومجتمع آخر. نتيجة للتباين الواضح في وجهة كل مجتمعات نتيجة انطلاقة من مقوماته وقيمة وعقيدته التي تختلف.

فالعلمانية التي نادى بها الغرب استوجبتها اسباب خاصة بالمجتمع الغربي (بوصفه مجتمعا مسيحيا تشكل على أصول وثنية يونانية ورومانية في الأساس) أهمها قصور الدين المسيحي (المنقول عن المسيحية المنزله) عن استيعاب شئون الحياة وتحجر الكنيسة ممثلاً في وقوفها في وجه العلوم والمعارف وتحالفها مع السلطة المستبدة . ضد الطبقات الضعيفة والفقيرة والمقهورة والأمر في الإسلام لم يشهد وصفاً مشابهاً لما جرى في الغرب . فالعلم نشأ وترعرع وازدهر في أحضان الدين الذي دعا إليه . وشجع عليه واعتبره من أعظم العبادات.

لقد أخذت أوربا بالعلمانية في مواجهة جمود المسيحية وانحرافها وقصورها ذلك أن المسيحية التي انتقلت إلى غرب أوربا هي مسيحية بولس وليست المسيحية الأصلية .

ولما انتقلت العلمانية إلى عالم الإسلام وجدت مجالها في تجربة تركيا . وأن المراجع لتجربتها في أول بلد إسلامي يجد أنها عجزت تماماً عن أن تحقق هدفاً أيجابيا لهذا المجتمع وسرعان ما سقطت وأعلنت عن أنها تجربة فاشلة مضطربة أريد بها عزل العرب عن المسلمين وتأجيج الصراع بينهم وإحياء تاريخ تركيا القديم للإسلام وعزلها عن العالم الإسلامي والتراث الإسلامي بلغتها المكتوبة

بالحروف اللاتينية وتكوين أجيالها المقاومة بعيدا عن الإسلام والعرب وبذلك تصبح غربية مجهلة .

ثم كانت الدعوة إلى العلمانية في أول بلد عربي مصر،حيث بدأت هذه الدعوة بكتابات (علي عبد الرازق) فقد أرسل إلى لندن للدراسة فتلقفه المستشرقون العتاة وفي مقدمتهم (مرجليوث اليهودي) المتعصب الذي أغراه بأن ينقل كتابه عن الخلافة إلى العربية وأن يضيف إليه بعض التوابل من الأدب الغربي ثم ينشره بأسمه واغراه بأن ذلك سوف يكسبه شهرة عالمية مدوية وقد كان .ثم جاء بعد ذلك خالد محمد خالد ثم عبد الملك عـودة الذي دعا إلى أن الطويق أمـام العرب إلى النهضة،يقوم على (القومية والعلمانية والديمقراطية) وبذلك كان أول صوت داخل الجامعات ١٩٥٢ يرفع لواء الدعوة التي بدأها على عبد الرازق ١٩٢٦ (وذلك في كتابه عن الكتلة الإسلامية .

وقد أحصى أحد الباحثين أثار العلمانية على الفكر الإسلامي في هذه المواقف:

أولاً: تنفي الخالقية عن الله سبحانه فهو عندهم لم يخلق الكون ، وليس الكون في حاجة إلي افتراض وقوة من خارجه وهذه هي أعلى مراحل نفي الخالقية عن الله تبارك وتعالى عندهم .

ثانياً: أزلية الطبيعة وأبديبها . فالعلمانية تعتقد قدم الطبيعة أي أنها موجودة من الأزل فلم يسبق زمان لم يكن لها وجود . والطبيعة تحتوي في ذاتها على القوى المطلوبة لإحداث جميع صور الوجود فيها فلا شيء في الطبيعة لا يفسر الطبيعة .

ثالثاً : تلقفت العلمانية أوهام نظرية «دارون» التي تقول إن الإنسان قبل صيرورته إنسانا قد مر بمراحل حيوانية متعددة متنقلاً من طور إلى طور.

رابعاً: نفي معجزات الرسل والأنبياء وإنكار المعجزات التي أيد الله تبارك

وتعالى بها رسله وأنبياءه ورفض أي خرق للقانون الطبيعي .

خامساً: تردد في العلمانية معنى (الدهرية) المعروفة قديما فهي نزعة ينكر أصحابها البعث والحياة الآخرة ويقولون كما حكى عنهم القرآن الكريم :

﴿ إنْ هيَ إلا حياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾

بينما يوجه الإسلام الناس إلى الاهتمام بالآخرة وبالدنيا معاً :

﴿ وابتغ فيما اتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنس نصيبكَ من الدنيا ﴾

والإسلام يرسخ عقيدة البعث والجزاء والحياة الأخرى .

قال اريري في كتابه « الدين في الشرق الأوسط»

إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال اللادينية ، واللادينية صفة مميزة لأوربا وأمريكا مع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط فإنها لم تجد أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة.

والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في تركيا ومن هنا فإن الإسلام يختلف عن العلمانية من حيث أنه عقيدة وشريعة ﴿ ومنْ لمْ يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك هم الكافرون ﴾ فالإيمان بالعقيدة المنزلة ، والحكم بالشريعة الموحاة شرطان أساسيان في تحقيق الإيمان والعدالة...

(٩٢)
القصة الغربية المكتوبة بالعربية

أصبح الأدب اليوم المدخل الرئيسى والاكبر لمؤامرة التغريب والغزو الثقافى عن طريق القصة والشعر الحر والمسرحية والحوار والدراما بعد أن استخدم فى كل من الماركسية والوجودية والرأسمالية مدخلاً لخدمة هذه المذاهب، وما يزال كتاب التغريب يطرحون فى أفق الفكر الإسلامى والأدب العربى تطورات وافدة خاصة فى مجال: الحداثة والبنيوية والواقعية الإشتراكية، وهذا أمر متصل تمام الإتصال بالتصور الإسلامى الذى يتطلب منا تجلية موقف الإسلام الذى يملك نظرية أساسية فى الأدب والفن، وله مفهوم أصيل للقصة والمسرح والشعر، ويطالبنا بالنظر فى هذه المطروحات الوافدة بالحذر واليقظة من حيث إن الأسس التى تقوم عليها الآداب الغربية (غربية وماركسية ويهودية) تختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام فى مجالات ثلاث.

١ـ فى مجال التوحيد.

٢ـ فى مجال الإنسان ومسئوليته.

٣ـ فى مجال البعث والجزاء والحساب.

والمفاهيم الغربية تقوم علي أساس تصور مختلف لذات الله تبارك وتعالى فهو رب الجنود فى اليهودية، وهو ثالث ثلاثة فى النصرانية، وهو قد مات فى مفاهيم الغرب (نيتشه وأوجسيت كونت ومدرس الجدلية المنطقية) أو أصبح ولا حاجة للبشرية إليه بعد أن بلغت رشدها فى نظر بعض المدارس الغربية أو (لا إله، والحياة مادة) فى النظرية الشيوعية أو أن الإنسان يخلق إلهه فى مدارس أخرى الخ، علي النحو الذى تكشف عنه الكتابات والأقاصيص والشعر الغربى (بشقيه).

أما الإنسان فهو فى مفهوم الأدب الغربى حيوان خاضع للجنس (فرويد) أو للطعام (ماركس) وأنه قطيع فى المجتمع ليست عليه مسئولية فردية ، فالمسئولية هى مسئولية المجتمع (دور كايم) وأن الجريمة فطرة. والأسرة دخيلة عليه، وأن البشرية كانت تعبد الطوطم، ثم الصنم، ثم ارتقت إلى عبادة الآلهة، ثم الإله الواحد، (وهذه كلها مفاهيم باطلة لا يقرها الإسلام ولكنها هى القواعد التى يقوم عليها الأدب الغربى.

أما البعث والجزاء فهذه مسألة تثير السخرية فليست الحياة إلا هذه الحياة الدنيا بمطامعها وأطايبها ولذاتها وعلى الإنسان أن يسرع ليقتنص كل ما يستطيع قبل فوات الأوان.

وفى ضوء هذا التصور الغربى تأتى الفنون الأدبية وفى مقدمتها القصة .. هذه القصة التى تقدم لنا اليوم بأقلام عربية وهى لا تمثل صورة حقيقية لمشاعرنا أو مجتمعنا، وإنما هى فى حقيقتها قصة غربية بعواطفها وأحداثها وقد غيرت أسماؤها وأماكنها، وهى من الفنون الدخيلة علي الذوق الإسلامى والمختلفة مع الفطرة الإنسانية نشأت تحت ضغط ظروف معينة ولأداء رسالة معينة، ولإبلاغ الوجدان والعقل قضايا معقدة تحتاج إلى الإقناع وليس فى الإسلام ما يدعو إلى هذا، لبساطة فكرته ويسر دعوته وسلامة كلمته.

وهى تستعمل وسائل الخداع والإخفاء والرمز وتوسيع مساحات الخيال وحجب بعض الحقائق حتى تقنع البسطاء بالغاية التى تدعو إليها ومن هنا فإن القرآن الكريم ما عرض قصة إلا وأضاف إليها وصفاً قوامه الحق: أي الصدق والواقع، فى اتجاه واضح هو أن يكون القصص عبرة لأحداث الماضى لا سرداً لوقائعه، بعيداً عن أسلوب الحوار أو تقصى التفاصيل، أو الإغراق فى وصف الأماكن والثياب والأجواء، وخاصة كراهية الإلحاح عن التفاصيل والسؤال عنها،

وهذا مما عرف عن أهل الكتاب الإسراف فيه والتعلق به على النحو الذى يستشرى اليوم فى كتابة القصص، ولا ريب أن تركيز القرآن علي (القصص الحق) و « أحسن القصص » كما قال الحق تبارك وتعالى ﴿ نحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحق ﴾ لهو تاكيد بان كثيراً مما قدمته الكتب القديمة مشوب بالباطل، قد تداخلت فيه الأسطورة والحقيقة، وغلب عليه طابع التجسيم الذى هو الرمز الأكبر لطفولة الفكر البشرى.

ومن هنا فإن القصة (الغربية) التى يتطلبها التغريبيون فى الأدب العربى يجب أن تكون قائمة علي الجريمة أو الفضيحة أو الخيانة أو المطاردة أو الإغتصاب، وإلا فقدت عقدتها وكيانها حسبما يقول هاملتون جب فى تقريره عن القصة: (مادامت الحياة الإسلامية محافظة علي تقاليدها الموروثة فلا ينتظر أن يكون للقصة مستقبل) ويفسر هذا محمد عبد الله عنان بقوله (إن المجتمع الإسلامى لا يمكن متى بقى تطوره محصوراً فى المبادىء الإسلامية الخالدة أو فى التقاليد التى كانت أثراً لهذه المبادىء أن يظفر كتاب القصص العربى يوماً بمادة واسعة أو غريزة كالتى تقدمها المجتمعات الغربية إلى كتاب الغرب) وهكذا ينكشف زيف الدعاوى الباطلة التى يرددونها عن أن القصة فن رفيع وأنها ترمى إلى إصلاح المجتمع وعلاج مشاكله، وآية ذلك أن (الدراما) لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال وقوع المأساة، فإذا سار المجتمع المسلم علي هدى تعاليم الإسلام سقطت القصة الغربية الدخيلة علي فكرنا ومجتمعنا، فالقصة التى يريدها التغريب ، ليست هى القصة الصادقة ولكنها القصة التى تقوم على الخيانة أساساً سواء فى العرض أو المال وأشهر المسلسلات المتفشية اليوم فى البلاد العربية كلها في المساء تجدها تحمل هذا التصور ولا تخرج عنه، فهى قائمة علي الافتعال وعلى الإثارة التى صنعتها الصحافة فأصبحت (مزاجاً) سوداويا قاسياً لا يحتمل الناس معه رؤية الأوضاع الطبيعية أو السوية، فعقدة القصة الغربية المنقولة إلى أفق الأدب العربى سواء

الرواية أو المسرحية أو غيرهما هى الصراع الحاقد فى المجتمع، كأنما المجتمع كله مجموعة من اللصوص يسرق بعضهم بعضاً، يسرقون المال ويسرقون الأعراض ويسرقون كل شىء، ويجدون لذة فى تعذيب الآخرين، قسوة قلوب لا توصف، وتطلع فى طمع إلى الحرام، وتهالك على المتع والشهوات كأن النهاية فى الغد وكأنه ليس بعد النهاية حساب.

لقد نشأت القصة فى الغرب لتغطية التطلعات النفسية للطبقات الفقيرة المحرومة إزاء الثراء الفاحش، وقد أريد بها إعطاء جرعة من الخيال، وركز صانعوها علي محور (الحب) فى الأغنية والحوار، وكانت المرأة وجسدها وجمالها سلعة رخيصة فى سوق الخنا، ووضعت عبارات الحوار علي ألسنة من لايصلح لها أو من لا تناسبه فى مؤامرة خطيرة واسعة الأطراف تقودها قوى تريد أن تصنع الشر والجريمة والإباحة والاغتصاب علي الألسنة كأمر مشروع لا عيب فيه، فعاً فليس إلا أن تعرى عواطفها وتعرى مواطن الإغرا، حتى تصبح مع تداولها مقبولة غير ممنوعة.

فالحب الذى تقدمه القصة اسمه الحقيقى الجنس والفعل الفاضح، والصراع هو الصراع بين الزوجة التى أحلها الشرع والدين والعشيقة المحرمة، ومذاهب الغرب تحرم تعدد الزوجات ولكنها تبيح تعدد الخليلات.

وتجرى .. القصة الغربية «العربية اللغة» وراء هذه المفاهيم وتحتضنها وتروج لها، مع أنها مفاهيم محرمة فى الإسلام الذى نظم علاقات الرجل والمرأة تنظيماً كريماً يحول دون الزنا ودون الإغتصاب ودون الإباحية ، حيث أباح للرجل القادر جنسياً أن يتزوج بأربعة دون أن يقع فى جريمة الزنا أو الإغتصاب.

ولذلك فإن إغراق المجتمع الإسلامى بانحلالات المجتمع الغربى من دور بغاء وخمر، وعلب ليل ضرورة عند أعدائنا لتصبح القصة حقيقية واقعة.

إن الفكر الإسلامى الذى هو منطلق الأدب العربى لا يقر القصة الأجنبية، لأنها قصة داعية للفساد ويرى أنها فن دخيل لا يتفق مع الذوق أو المزاج الإسلامى، إن الوجدان الإسلامى والعربى قد عبر عن نفسه فى أوعية أخرى وبأساليب مختلفة وكان له فى القصة موقف حاسم.

القصة الغربية حكايات وتلفيق

إن القصة بمفهوم الفكر الغربى هى تأليف الحكايات وتلفيق الوقائع واصطناع الأخبار المكذوبة التى يلفظها الكبت والظلم، فتسعى سعيها لإخفاء عارها وكذبها، فإن ذلك ممّا ترفضه العقلية العربية الإسلامية وتشيح بوجهها عنه وتنكره، لأنه وهم وهى تعيش فى الواقع. ولأنه تعويض لا يوجد فى أفق الإسلام، فالمسلمون يواجهون الحياة مواجهة صريحة واضحة ويبلونها علي أسسها الصحيحة ويمارسونها علي نحو صحيح متكامل، فقد أعطاهم الإسلام أنظف الرغبات ودعا إلى تحقيقها، ووضع لها الضوابط والأطر الصالحة لذلك دون إسراف ودون امتناع، وربط بين الرغبات المادية والأشواق الروحية.

ولم يجعل لعبادة الجسد أو الإسراف في اللذات أو في استباحة الحلال أو الخنا ضرورة . بل إنه أقام مجتمعه على أساس الفصل بين الرجل والمرأة وبذلك حمى النفس الإنسانية من الصراع والتضارب والازدواجية المصروعة التى تحاول أن تجد تعويضاً فى عالم الفن والقصة، وبذلك حمى الإسلام النفس والعقل من هذه الدوامة التى. تشيع ولا تنتهى ولا تكتفى بالواقع الإباحى بل تنشده مضاعفاً فى عالم الخيال.

والإسلام بواقعه وفكره وشريعته يحول دون الانشطار ودون قيام عالم الوهم ويحول دون الانشطار ودون قيام عالم الوهم ويحول دون وجود الحرمان الحسى أو

المادى الذى تعوض عنه القصة، فإن إفساحه السبيل إلى تحقيق الرغبات الحسية بالزواج وإقامة نظام الزكاة الذى يحقق العطاء للمحتاجين دون تخلف محروم واحد، من شأنه أن يقضى على هذا التزاوج بين عالم الحقيقة وعالم الوهم ولا يوجد فى مجتمع الإسلام مثل هذه النماذج التى نراها فى القصة الغربية.

لا يوجد مثلاً (ديفيد كوبر فيلد) الطفل الذى مات أبوه فتزوجت أمه من رجل غليظ القلب علي نحو لقى معه كل عنت وشقاء، فلما ماتت أمه لجأ إلى العمل صغيراً ولقى القسوة فى معاملة الناس حتى اللصوص لم يشفقوا علي طفولته وسرقوا ملابسه ونقوده.

هذه الصورة لا توجد فى المجتمع الإسلامى فالرحمة تحل فى أى مكان ولا يمكن أن تتجمع القسوة بهذه الصورة فى مكان ما، إلا فى المجتمع الغربى الذى يتميز بطابع (نيتشه) فى دعوته إلى قتل المحرومين وتدمير الفقراء والقضاء على المحتاجين، أما المجتمع الإسلامى فإنه فى نهجه الإسلامى الربانى يجعل لهؤلاء مكاناً كريماً ويقر لهم نصيباً مفروضاً، وليس هو هبة ولا منحة ولكنه حق معلوم.

والنفس الإسلامية مفطورة علي الرحمة والإحسان، لذلك فإن عشرات من القصص لا يمكن أن تمثل إلا مجتمعها نفسه بجهامته وقساوته.

وكذلك الصورة الإباحية الصارخة القائمة علي الخلاعة والترف البالغين، والتى تمثل قصص تابيس وماتون ليسكو وغيرهما، لا تمثل الوجدان المسلم ولا تتفق معه، وإذ حاول كتاب الجنس أن يكتبوا ويظنوا أن ما كتبوه قد أصبح مقبولاً فهم واهمون، فإنما هى مرحلة الاستطلاع والانهيار التى سرعان ما تنطفىء وتحل محلها مرحلة التقييم والرجوع إلى الذات، وآية ذلك أن جميع الأسماء اللامعة فى ميدان القصة قد تقهقروا مرة أخرى إلى مجال كتابة اليوميات في الصحف بعد أن سقطت القصة الغربية وتجاوزتها الأصالة الغربية وتجاوزتها الأصالة.

وإذا كان من حق الغربيين أن يقيموا عالما مواجهاً لعالمهم الحقيقى الفاسد المضطرب الذى يغرق الآن فى بحيرة آسنة من الإباحيات والسموم يتخذونه أسلوباً لحل قضاياهم ومعضلاتهم لأنهم فى الأساس ليس لديهم منهج ربانى فى شئون المجتمعات وعلاقات الأفراد والناس. أما المسلمون فليسوا فى حاجة إلى مثل هذا العالم المواجه، لأنهم يجدون فى منهجهم كل ما يكفل لهم السلامة والأمن ويحول بينهم وبين التمزق والشك، وإذا كان العالم المواجه الغربى قد قام علي الأساطير الوثنية القديمة وجددها ليجعل منها وسيلة للوصول إلى فروض فى مجال النفس (كما فعل فرويد، أو فى مجال الوجودية كما فعل سارتر) فإن من شأنه أن يؤكد ظاهرة الهروب من الواقع الحى المعاش وان يزيدنا نحن المسلمين إلا ثقة بأن العالم المواجه هو عالم الوهم الزائف الذى يحاول أن يرد الناس إلى حياة الإباحة الجاهلية القديمة حيث لم يكن للعرض قيمة ولا للأخلاق التزام وحيث تبدو الحياة كأنما هى سوق من أسواق الرقيق والبغاء، وحيث ترى القصة تنبعث من نظرة الحيوان المجنون المتهافت علي الأجساد والطعام، المتدافع إلى الفجور والإثم.

ولا ريب أن القصة الغربية اليوم إنما تدفع إلى تحقيق نفس الأهداف التى عملت لها مذاهب العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق، أو هى التطبيق العملى لمذهب التحليل الفرويدى والتفسير المادى ونظريات نسبية الأخلاق والتحلل مجازة فى صورة واقع، لتحقيق الهدف الكبير الضخم الذى تسعى إليه اليهودية التلمودية من تحطيم الأسرة وتدمير المجتمعات ونشر الإباحية وإنكار البعث والجزاء وإقحام العقول والنفوس فى عوالم وهمية خادعة للسيطرة عليها وإذلالها وسحق كرامتها وإيمانها وهدم عقائدها.

المسلمون والقصة الإسلامية:

تقوم القصة الإسلامية أساساً علي مفهوم الفطرة وهى بمفهوم القرآن الكريم والسنة النبوية مستمدة من الواقع الملموس، وما زال مفهوم القصة فى اللغة العربية والإسلام هو الإخبار بالواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة دون تلفيق أو اصطناع الأخبار المكذوبة، وقد قدم (القرآن الكريم) القصة الصادقة وهى من خلال نصوص القرآن الكريم تقوم علي: (الحق - الواقع - الحسن - عبرة التاريخ).

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص.. ﴾ .

﴿ إن هذا لهو القصص الحق..﴾ .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق..﴾ .

﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق...﴾ .

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك... ﴾ .

﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق... ﴾ .

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى...﴾ .

وهكذا تأتى كلمة القصة مستمدة من الحق والواقع بينما هى فى اللغات الأخرى مستمدة من مدلول (الخرافة) فكلمة Story ترجع إلى الكلمة اليونانية HSTORIA التى تعنى الخرافة والتى عرفها العرب قبل الإسلام بقولهم (أسطورة) وجمعها أساطير وق أطلقت فى القرآن الكريم على الخرافات والخيال المسرف المبالغة، ومن ثم فإن المسلم لا يتصور الصراع بين الإنسان والقدر، وصراع الإنسان مع الله أمر لا يفهم ولا يقبل مع قاعدة التوحيد التى هى قمة العقائد فى الإسلام ، لذلك فإن المسلمين لم يجدوا أنفسهم فى يوم من الأيام فى صراع مع

القدر، كذلك فإن الإسلام لا يقر الصراع بين الإنسان والخطيئة لأن المسلم غير مرتبط بخطيئة آدم وهو يؤمن بأن خطيئة ادم هـي مسئوليته وحده، وأن الله غفر له بـل واجتباه بعد ذلك ولذلك فإن البطل فى الإسلام لا يبدو في صورة المتحدى لإرادة الله تبارك وتعالى.

والإنسان المسلم هو في سلام مع الله الواحد الأكبر ومتقبل للقدر خيره وشره، والوحدانيـة لا تحمـل الشـرك ، وليس هناك أرباب فى الإسـلام أو أنصاف أربـــاب.

وكذلك فإن من شأن الإسلام صياغة المسلم على وضوح الرؤية، والاستمداد من الفطرة، والقدرة على التعبير الصريح ، دون أن تكون هناك عوامل حائلة تمنع كل ذلك من مسألة الرمز أو التأويل أو الشك أو التجسيم ، ولنقاء المسلم وطهارته فهو لا يقبل مفاهيم الإباحية والوثنية واللهو والتحلل التى يجدها في الآداب الغربية، وقد استعاض الأدب العربى عن تلك العقد فى القصة الغربية ببراعة الحوار وفصاحة اللسان ودقة التأملات ، والمرح البرىء والبساطة والسماحة والبشر وإشراقة الأمل التى لا تجدها في القصة الغربية نتيجة سيطرة مفهوم (الخطيئة) عليها، وكذلك فإن المفهوم الإسلامى للأدب والقصة يتحرر دائماً من الأساطير والخرافات ولا يقرها.

المقارنة بين القصة الإسلامية والقصة الغربية:

إذا أردنا المقارنة بين القصة الإسلامية والقصة الغربية وجدنا ما يأتى:

★ أولاً:

الإسلام يدعو إلي تبريد العاطفة لا إلهابها ويدعو إلى تصوير الجوانب الطيبة وإلى عدم التركيز علي حالات الضعف البشرى.

ثانياً:

ليس فى الإسلام ما يدعو إلى الإخفاء بالرمز أو الإغراق فى الخيال أو المبالغة، ذلك لأن الأفق فى العالم الإسلامى مشرق مفتوح و المفاهيم واضحة صريحة، والنفس الإسلامية لا تخفى شيئاً، وكذلك فلا غموض فى العقيدة الإسلامية يتطلب إقامة سامر لإقناع الناس.

★ ثالثاً:

لأن المسلم يؤمن بأن الله تبارك وتعالى هو ولى الأمر كله فهو يقبل قضاءه ويرضى به من غير يأس، وإذا أصابته سراء شكر وإذا أصابته ضراء صبر، وهذا المفهوم يحول دون قيام ما يسمى بالمأساة أو الصراع مع القرة الإلهية فعقيدة المسلم لا تضعه أبداً فى صراع مع القدر.

رابعاً:

لأن المسلم يؤمن بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى فإنه لا يقر ما هو غير أخلاقى من أمور الخيانة الزوجية أو الإباحيات أو قبول ما يسمى صديق الأسرة أو تبادل الزوجات أو الخيانة.

★ خامساً:

لأن المسلم يؤمن بالرحمة فإنه لا يقبل النهايات القاسية أو المؤسفة لليتامى والفقراء أو صنوف الظلم والخداع أو استلاب العفاف أو نهب المال أو سرقته أو قتل ما حرم الله.

★ سادساً:

لا يعترف الإسلام بالصراع المأساوي الذي هو لب القصة الغربية، ذلك لأن البطل المأساوي الذي هو في صراع مع القدر، بينما الإنسان المسلم في سلام مع الله الواحد الأكبر وفي إيمان بالقدر لا يحول دون السعي وإن كان يحول دون المصارعة أو الصراع.

ما أعظم الفوارق، فهو في استجابة النفس المسلم للأحداث من خلال القيم الإسلامية القائمة على الأخلاقية والأمانة وحماية العرض وغض الطرف، بينما تركز القصة الغربية علي الخيانة الزوجية والحب بمفهوم الجنس وماله من آثار بعيدة في علاقات الرجل والمرأة والآباء والأبناء.

ويرجع ذلك إلى قيام الأدب والقصة الغربية علي نظرية فرويد والتفسير المادي للتاريخ ومفاهيم الوجودية التي لا تعترف بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروي، ولخضوع القصة الغربية لمفاهيم الفلسفة المادية (إن الإنسان حيوان، سيطرة الجنس، غلبة المطامع المادية) فقد خضعت لتصوير الجريمة الخلقية والإغتصاب والغواية والإغراء وافتعال الحدث وقيامه علي العنصر الشهواني وعلي الجريمة والخيانة، وهدف هذه القصة في الغرب هو إعطاء الشعوب جرعة من الخيال للتعويض عن الواقع السيء ولشغلهم عن الحاضر المظلم، وقد اعترف كثير من الباحثين أن القصة المكتوبة بالعربية على النحو الغربي إنما تمثل فناً دخيلاً لا يتفق

مع الذوق ولا المزاج ولا القيم الإسلامية، فلكل أمة مزاجها وعقيدتها وطابعها، ويجب أن لا يخضع الأدب فى أى أمة لأسلوب مغاير واف وإنما يجب أن يستمد من قيمه وعقائده الأصيلة.

* * *

(٩٣)
العروبة والإسلام

إن من أكثر المحاولات التغريبية خطراً: تلك المحاولة التى تريد أن تفرغ العروبة من مفهوم الإسلام ، وتفصل بين الإسلام والعروبة ، وذلك في نطاق النظرية الواحدة التى تقول بأن الدين ليس مقوماً من مقومات الدعوات القومية وكيفما يكون الرأى فى هذه النظرية فإن الإسلام ليس ديناً بمفهوم اللاهوت القائم علي العلاقة بين الله والإنسان، وإنما الإسلام إلى جوار ذلك منهج حياة ونظام مجتمع وثقافة وحضارة. ومن هنا فإن علاقة الإسلام بالقومية أو علاقة الإسلام بالعروبة هى علاقة عميقة الجذور بعيدة المدى حيث ارتبطت منذ أمد طويل ارتباطاً عضوياً. أما مقومات القومية من لغة و تاريخ فى مجال العروبة والإسلام فلا يمكن الفصل بينهما، فاللغة والتاريخ العربيان مرتبطان بالإسلام ارتباطاً شاملاً متصلاً علي مدى هذه القرون الأربعة عشر، وليس هو قولنا وإنما هو قول بعض العلمانيين والتغريبيين حيث لا مفر من الإعتراف به،

يقول الدكتور (**نبيه أمين فارس**): إن تشابك الإسلام والعربية فى التاريخ تشابك عضوى متفاعل، حيث لا مجال إلى فصل الواحدة عن الأخرى، وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الإسلامية فى القرن التاسع عشر، هذا بالإضافة إلى تشابك المفاهيم القومية والإسلامية وقوة النزعة الإسلامية فى الجماهير ..

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية مفهوماً إسلامى الجذور منذ بدأت حركة اليقظة ولم يكن فى الإمكان غير ذلك، غير أن الدعوة التغريبية ومحاولة القضاء على أصالة الفكر الإسلامى والثقافة العربية (إسلامية الجذور) كانت دائماً تحاول أن تنتزع مفهوم القومية العربية من الإسلام وتجعله علمانياً خالصاً مجرداً، بينما لم

تستطع القوميات فى الغرب أن تنفصل عن مفاهيم المسيحية الغربية التى هى بطبيعتها ليست إلا دينا لاهوتياً خالصاً، وقد جرت هذه المحاولة في الحركة الطورانية، وفي العالم العربى حاولت بعض أحزاب الحركة العربية أن تتبنى هذا المفهوم فى محاولة خلق قومية عربية علمانية على الطراز الذى عرفته تركيا عن طريق الإتحاديين والماسون ، ومن هنا فقد كانت أزمة الوحدة العربية هى ذلك الجفاء بين الواقع وبين النظرية المستوردة التى لوصلحت للتطبيق فى بيئات الغرب فهى لا تصلح للتطبيق فى بيئة الفكر الإسلامى، وفي هذا المعنى يقول عيسى البندك: يرتبط الإسلام والعربية: اللغة التى يتكلم بها والأخلاق التى يتخلق بها، والتقاليد التى يزاولها، ومما يفتر به من إباء وشهامة ومروءة، إننا نؤمن إيماناً قاطعاً بأن كيان النصارى العرب جزء من كيان إخوانهم المسلمين.

ويقول الدكتور(**محمود عزمى**): الإسلام مبدأ يخضع له جميع العاملين فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى بلادنا مهما كانت عقيدتهم (عقيدة المسلمين أو المسيحين أو اليهود ونحلهم والملحدين) ذلك أن بلادنا قد غمرتها (الإسلامية) بالمعنى الذى نفهمه. ويقول الدكتور (**عبد الرزاق السنهورى**): إنه في الإسلام إلى جانب الدين توجد المدنية والذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون، أما الذين ينتمون إلى الثقافة الإسلامية فهم أولئك الذين يضمهم هذا الوطن الاسلامى الكبير فى مختلف أديانهم ومذاهبهم وجنسياتهم ونحلهم، ليس المسلمون هم أصحاب الفكر الإسلامى ولكن كل من استظل براية الإسلام وانتهى إلى الثقافة الإسلامية ولو كان غير مسلم.

إن محاولة الفصل بين العروبة والإسلام هى إحدى مؤامرات الغزو الثقافى والنفوذ الإستعمارى من أجل تمزيق وحدة الأمة الإسلامية ، وإن محاولة تمثل التجربة الغربية فى الخلاف بين القومية والكنيسة هو تمثل باطل لاختلاف المصادر، والمفاهيم ، وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الإسلام الجامع بين القوميات

والوطنيات في إطار وحدة الفكر الإسلامى وبين إختلاف مفهوم المسيحية الغربية عن القوميات الغربية.

وفي ضوء تكامل العروبة والإسلام يمكن أن نقدم الحقائق الآتية:

أولا : ليس بين العروبة والإسلام تناقض ولا تضاد بدليل أن كل إنسان يستطيع أن يكون عربياً ومسلماً فى وقت واحد، وقد اجتمعا فى الرسول وصحبة فكانوا عرباً وكانوا مسلمين. وأن القرآن كتاب الإسلام وكتاب العربية فهو (الدين) لمن أراد الدين وهو البيان والبلاغة لمن أراد البيان والبلاغة.

ويقول الأستاذ (على الطنطاوى) : وما الذى يبقى من العربية إن لم يكن فيها محمد والقرآن . هل يبقى إلا المعلقات السبع وحرب البسوس ، وموقعة ذى قار، إن هناك دائرة كبيرة ودائرة صغيرة، الكبرى هى الإسلام ، والصغرى هى العربية، فالعربية تنطوى فى الإسلام إلا جانباً منها، والعرب المسلمون لا يتناقضون مع أنفسهم حين يفرقون بين صفتين قائمتين، والفكرتان من التداخل بحيث لا يظهر الخلاف بينهما ولا يستطيع الغلاه تجريد العربية من الإسلام.

ثانيا: العروبة جزء من الإسلام بل هى نتاج الإسلام فالإسلام هو الحركة التى جمعت العرب كلهم على إيمان واحد، ولولا الإسلام لبقى العرب فى جزيرتهم قبائل متفرقة، لا قدر لها في تاريخ الحضارة الإنسانية، وللإسلام علي العرب فضل توحيدهم، وفضل اطلاعهم على معارج الحضارة، وفي الحياة الإنسانية وأن العرب توحدوا بالإسلام، وأن الإسلام جعل منهم قوة عالمية حاملة لواء الحضارة «عمر فروخ».

ثالثا: الإسلام هو التراث الحضارى للعرب مسلمين ومسيحين، والإسلام هو الذى وحد مفاهيم العرب. وحدد مقاييسهم الأخلاقية فنقلها من وحدة الأرض ووحدة الدم إلى وحدة الفكر والعقيدة.

رابعاً: كانت فكرة القومية عند أمم الغرب مقترنة بالصراع واحتقار الأمم الأخرى، ولكن العروبة تتكامل مع الدول الإسلامية، وتلتقى معها فى الإخاء البشرى والتعارف، وقد اعترف المستشرقون بأن الحركات القومية التى قامت فى أنحاء العالم الإسلامى لم ترم إلى ما رمت إليه أوربا من إيجاد قوميات مستقلة متنافسة، هذا إلى أنه لم ينشب، ولا ينتظر أن ينشب قريباً بين الشعوب الإسلامية منافسة اقتصادية، كهذه المنافسة العنيفة التى طالما أوقدت نار الكفاح والنزاع بين الدول الأوربية، وقد أراد الله تبارك وتعالى للأمم أن تسير فى طريقها السوى وأن تتعارف بالمعنى الواسع الذى يقتضى حسن الصلة والإخاء والإمتزاج.

خامساً: يجب معرفة الفرق بين مصطلح الدين بصفة عامة وبين مصطلح الإسلام فالدين بالمعنى الذى يستعمل به هو العلاقة بين الله (تبارك وتعالى) والإنسان، ولكن الإسلام يجمع بين العلاقة بين الله والإنسان من ناحية وبين الإنسان والمجتمع من ناحية أخرى، فالإسلام ليس ديناً لا هوتياً فحسب، ولكنه إلى ذلك نظام مجتمع، ومن هنا فإن القول بإبعاد الدين عن مفهوم القومية هو مفهوم غربى، لأن الغرب أقام الصراع بين الدين والقومية لأن الدين لم يكن نظاماً اجتماعياً كاملاً عندهم، ولا كذلك العروبة فهى مرتبطة بالإسلام لأنها منبثقة عنه.

سادساً: الإسلام لا يفصل بين العروبة عن الإسلام كما دعا إلى ذلك ساطع الحصرى ومدرسة التغريبيين، ولا يفصل الدين عن السياسة كم دعا إلى ذلك على عبد الرازق ودعاه الشعوبية.

سابعاً: أكد الباحثون فضل الإسلام على الوجود العربى نفسه، يقول الفريد كانتول سميث: الإسلام هو الذى خرج بالعرب من ديارهم إلى العالم، فالإسلام سبب عظمة العرب الدنيوية، والعرب هم الذين نشروا الإسلام فى بقاع الأرض

ونحن نؤمن بأن العرب قادة الإسلام حملوا رسالة الله تبارك وتعالى إلى العالمين، ولكن ليس لهم من أثر يوحى بالإستعلاء على المسلمين.

كذلك فالإسلام هو الذى حمى (اللغة العربية) : حتى قال أحدهم: إن الإسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى ملأ نفوس معتنقيه فخراً وإعجاباً، وهم ينظرون إلى لغتهم بوصفها اللغة التى اختارها الله (تبارك وتعالى) لإظهار دينه، وهى اللغة التى يتعلمها كل من أراد أن يتخذ الإسلام ديناً له.

يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ليست العربية بأحدهم من أب ولا أم وإنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى (رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى).

ثامناً: غيّر الإسلام موقف الأمم فاعلى رابطة الفكر والعقيدة وحال دون الإستعلاء برابطة العنصر والقرابة والنسب ودعا إلى الخروج من عصبية الجاهلية وإبدالها بأخوة الإسلام فلم يبق بعد الإسلام نسب ولم تصبح القرابة هى الرابطة.

كذلك فإن الإسلام لا يفرق بين المسلمين باختلاف لون ولا تباين لسان، وعندما يدخل الإنسان فى الإسلام يكون واحداً من جماعة له مالها وعليه ما عليها لا يفصل الإسلام عربياً على أعجمى ولا أبيض علي أسود إلا بالتقوى وأدخل العجم فى العربية لغة، وفي الإسلام ديناً، فنشأ علماء فحول كانوا مصابيح الهدى: (البخارى، الطبرى، المروزى، التبريزى، الجرجانى، الأصفهانى، القزوينى، الفيروزبادى ، أبو حنيفه، سيبويه، ابن سيرين، الزمخشرى) وكلهم كتبوا بالعربية.

ويقول (الزمخشرى): الحمد لله الذى جعلنى من علماء العربية ، وجعلنى على الغضب للعرب، وقد أشار الإسلام إلى أن الإسلام امتاز عن سائر الأديان بأنه دين قومية جامعة، وأنه سياسة وعقيدة، فيقول الأستاذ (محمد سليمان): (ولما كان الإسلام ديناً وجنسية فقد رفع الحدود بين الأمم اللاتى تدين به، وكره أن يدعى

فيها بدعوى الجاهلية، وجعل أصحابها جميعاً إخواناً تؤلف مجموعهم كتلة واحدة لا فضل فيها لعربى علي عجمى إلا بالتقوى، ولما لم يكن به المجموعات البشرية من رابطة تتعصب لها، وتعتصم بضرورتها فإنه وهو دين التوحيد، ودعوته للإتحاد كان لابد للمسلمين من وجهة عامة وعقيدة عامة ولسان عام، وقد نبت الإسلام عربياً وبعث علي لسان رسوله العربى، ونزل قرآنه بلسان عربى فصيح، لهذا وجب أن يمتزج ألنوع بأصله وأن يتحد الإسلام بالعربية وأن يكون لسان شعوبها قاطبة، وقد نجحت هذه النظرية أيما نجاح وأخلص المؤمنون العمل بها نعمت العربية ذلك المنبسط الآسيوى الإفريقى إلى حدود جبال البرنية فى أوربا وذلك ما يعجب له علماء الاجتماع الآن.

لقد دعا الإسلام إلى استعراب هذه الأمم حين جعل العربية لسان العبادة، بين العبد وربه وأوجب علي كل مسلم تعلم شيء منها يقيم به صلاته، وجعل فهم القرآن وهو غاية كل مسلم معلقاً علي درس العربية وفهمها، وجعل حب النبى وقومه من أصول الإسلام كما أوجب الحج لتكون تلك القبلة وهذا الوادى أحب إلى المؤمن من داره وبلده.

وهكذا جاء الإسلام نسباً وجنسية حيث ربط الإسلام بين الجنس والوطن وجعل الفكرة هى الدائرة الأوسع وأعلى من شأن الفكرة والعقيدة عن الجنس (القومية) والوطن (الأرض) ولذلك فإن مفكرى الإسلام لم يكونوا يصدرون عن أقطارهم ولكنهم كانوا يصدرون عن فكر: (عالمية الإسلام).

تاسعاً: لقد كان هدف التغريب والغزو الثقافى فى إحلال (العروبة) بديلاً عن الإسلام وإعطائها صورة العقيدة وتمزيق الوحدة العقائدية الفكرية بالسلالات القومية والدعوات العنصرية القائمة على استغلال الدماء، وما سبق الإسلام من تاريخ وأحداث وأفكار وهى قوميات وهمية اندثرت وماتت وانقطعت عن الحياة

بالإسلام، ولم تعد بابل وأشور والفراعنة تستطيع أن تبعث فى النفس العربية والإسلامية شيئاً.

عاشراً: الإسلام وليس العروبة: هو الذى حمى الوطن العربى من الصليبيين، بعد أن تم تكوين أربع إمارات صليبية فجاء صلاح الدين الكردى المسلم لينتشل العروبة من هوتها التى كان في الإمكان أن تستمر، والمماليك هم الذين حموا الأرض العربية من التتار الذين دخلوا بغداد، وأزالوا الخلافة الإسلامية، وجعلوها مدينة للموت والدمار، لقد قاتل المماليك الذين هم من جنس التتار لا من جنس العرب باسم الإسلام اخوتهم فى الجنس.

وفي الجزائر بعد مائة وثلاثين عاماً من القضاء علي الكيان الجزائرى ممثلاً فى اللغة العربية استطاع الإسلام أن يبعث الأمة من جديد فقد رفع ابن باديس (راية الإسلام) من جديد، فأضاءت شعلة العروبة ومن هنا فقد تبين أنه حيث يسقط الاسلام يسقط العرب وأنه حيث يسقط العرب لبعدهم عن الإسلام فإن الإسلام هو الذى يبقى لهم أملاً ومنفذاً.

حادى عشر: يقول (موروبيرجر) فى فى كتابه (العالم العربى اليوم): إن العروبة تعنى الإسلام وإن الإبتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام.

* * *

(٩٤)
العلم القرآني

فى كل عصر من عصور البشرية منذ نزول القرآن وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن كتاب الله لابد أن يكشف وجهاً من وجوه إعجازه التى خفيت عن الأجيال السابقة بحيث يتحقق وعد الله تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ .

لقد تكشفت فى إطار الإسلام مجموعة من الحقائق التى لم تعرفها البشرية من قبل: أولى هذه الحقائق أن القرآن الكريم هو الذى هدى المسلمين إلى إنشاء المنهج العلمي التجريبى وإلى إنشاء منهج المعرفة ذى الجناحين (الروح والمادة) وهو الذى قدم قانون قيام الأمم والحضارات وسقوطها.

فالإسلام هو صانع منهج العلم. ولذلك فقد امتنع أن يكون فى أفق الإسلام وفكره ذلك الصراع الذى عرفه الغرب بين الدين والعلم.

أما التراث الطبى الإسلامى فهو أمر جدير بالتقدير والإعجاب فقد أعلن الدكتور خالد الحديدى رئيس الجمعية العالمية لإحياء التراث الإسلامى أن هناك ثلاثة آلاف مخطوطة طبية إسلامية، ومائة أرجوزه طبية.

أما ما قدمه علماء المسلمين فى مجالات العلم والفكر والحضارة والإقتصاد والتربية فذلك ما تشهد به عشرات الدراسات. وما من عالم أو نابغة قدم شيئاً جديداً أو مبهراً إلا أكد أنه استمد ذلك من القرآن الكريم وقديماً حاولوا أن ينسبوا الإضافات الضخمة التى قدمها ابن خلدون إلى معرفته للغة اللاتينية ولكن استقراء فكر ابن خلدون يؤكد أنه استمده من الأصول الأصيلة كتاب الله العزيز وسنة رسوله.

ولقد كان المثير للدهشة أن يصرح مثل الدكتور موريس بوكاى بأن المعلومات التى قدمها القرآن الكريم لم يكن هناك فى القرن السادس الميلادى بشر يعرفها، فكون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) جاء بها فهو إنما جا بها من مصدر أعلى هو الله تبارك وتعالى ، ويقول الدكتور (برسو) أستاذ التشريح : إن ماقام به من تحقيق لبعض آيات القرآن الكريم والأحايث النبوية الشريفة علمياً جعله يشعر بأنه أمام ثورة علمية جديدة وعلم جديد، لم يألفه الناس من قبل هو العلم القرآنى، لأن الأبحاث قد أكدت أن ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف من حقائق وبنفس الترتيب والمراحل الزمنية . وهنا لا أملك إلا أن أقول إنه وحى من الله إلى محمد (صلى الله عليه وسلم).

ويقول عالم الجيولوجيا الأمريكى الدكتور (ألسون باطر) إن القرآن الكريم بما يحتويه من حقائق وأسرار علمية ، لا يزال العقل البشرى يجهل بعضها، ويعجز عن تفسير البعض الآخر إنما هو كتاب الماضى والحاضر والمستقبل وقال: لم لا يكون محمد رسولاً من الله ، فالقرآن الكريم بالقطع أكبر من طاقة كل البشر فى الدنيا كما أنه أنزل منذ أربعة عشر قرناً فى وقت كانت فيه الحياة بسيطة وبدائية وكان محمد لا يعرف من العلم شيئاً ثم يأتى القرآن بكل هذه الحقائق والمعلومات التى أكدها العلم فى القرن العشرين فلابد أن يكون القرآن الكريم وحيا من الله وأن محمد (صلى الله عليه وسلم) رسول الله.

ويقرر الدكتور (جارودى) : إن الإسلام جاء ليخضع العلم والتقنية لله تبارك وتعالى وينقذ البشرية من الدمار بما يعنى من التمسك بالحكمة والعقيدة فى الحفاظ علي بقاء الإنسانية. وأن هناك فرقاً بين العقل والكشف الإلهى. وبعد عدة قرون من هيمنة الغرب بالعلم وإعداده وسائل تدمير الحياة وهذا ما يؤكد انحراف العلم عن الأهداف النبيلة للإنسان، ويجب أن يرتبط العلم بالإيمان، والإسلام هو الخضوع

لله والتسليم له وهو الدين الأساسى والأول منذ أن خلق الله الأرض ونفخ الروح بالإنسان.

والرسول الكريم قد فرض العلم والتعلم على كل مسلم ومسلمة انطلاقاً من أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يربطان بين الإيمان والعلم.

ويقول الدكتور رشدى فكار: لقد استحدث الغرب أموراً حين تمرد علي القيم فكان علينا أن ننظر فى قرآننا فالقرآن ليس وثيقة متحفية توضع فى المتحف بل هو قدرة نشيطة خالدة علينا دائماً أن نركز عليها ولقد آن الأوان أن يطرح الإعجاز العلمى فى الطب وبقية علوم الإنسان. فالقرآن ليس كتاب نصائح وأخلاقيات وما تعود أن ينكمش وأن يتقلص بل تعود المواجهة والتحدى.

وقال الشيخ (الزندانى): إن المعجزة العلمية للقرآن والسنة إظهار لصدق الرسول بما حمله إليه الوحى من علم إلهى ولكل رسول معجزة تتناسب مع قومه وترتبط بزمانه. أما المعجزة العلمية فتناسب الرسالة الخاتمة ومختلف المستويات والأزمن البشرية وحقائق القرآن يدرك العربى معناها اللغوى فى زمان نزوله، ولكن حقيقتها العلمية لا تنجلى إلا بعد حين، وشاء الله أن يكون لكل نبأ زمن خاص يتحقق فيه. وأن أصل الإعجاز العلمى يتمثل فى أن علم الله هو العلم الشامل المحيط الذى لا يقربه خطأ أما علم الإنسان فمحدود ويقبل الإزدياد ومعرض للخطأ ولا يمكن أن يتناقص القرآن والحديث كما لا يمكن أن يقوم صداه بين الوحى والعلم التجريبى ولو وقع تعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحى وإذا وقع توافق ينهما كان النص دليلاً علي صحة النظرية.

وفى عديد من المجالات العلمية البارزة تشهد عطاء القرآن وافراً مؤكداً ما ذكره دكتور برسو من أننا أمام ثورة علمية جديدة أو علم جديد هو العلم القرآنى.

ولنأخذ أطوار الجنين التى ذكرتها الآيات الكريمة:

- سلالة من طين - نطف - علقة - مضغة - عظام - ثم يكسو العظام اللحم) والآية تقول فى (سورة المؤمنون).

﴿ ولَقدْ خَلَقنَا الإنْسَانَ منْ سلالةٍ منْ طينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قَرَارٍ مَكينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُطْفَةَ عَلَقَة، فَخَلَقْنَا العَلَقةَ مُضغة فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أنْشأنَاهُ خَلْقاً آخَر فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينِ﴾

أولاً تطور الجنين

نقول هذا كله لنقدم بين يدى تلك الظاهرة الخطيرة التى كشف عنها القرآن الكريم فى السنوات الأخيرة من خلال العلم فالدكتور «كيف مور» أستاذ علم التشريح بجامعة تورينو بكندا يبدى دهشته البالغة إزاء التصوير الدقيق الذى وصف به القرآن الكريم مراحل تطور الجنين منذ ألف وأربعمائة عام وقال: إنه قد اعتراه الشعور بالدهشة البالغة إزاء الدقة العلمية التى تضمنتها آيات القرآن الكريم بشأن مراحل تطور عملية تكوين الإنسان وهو الأمر الذى لم يتمكن الخبراء الغربيون من معرفته إلا خلال السنوات القليلة الماضية فقط، وقد كتب الدكتور مور كتابين فى علم الأجنة كما درس ترجمة الآيات التى تناولت تطور الجنين البشرى وقد تفحص الدكتور مور بعد ذلك التوراه والإنجيل ولكنه لم يجد فيها ما يمكن مقارنته بما ورد فى القرآن. كما درس أحاديث الرسول بشأن هذا الموضوع وقال إنها (القرآن والسنة) تسهم فى تقريب الفجوة بين العلم والدين التى ظلت قائمة سنوات طويلة.

* * *

(٩٥)
التصوف السني والتصوف الفلسفي

أجمع الفقهاء والمفكرون المسلمون على أن الإسلام يضم ثلاثة عناصر أساسية: هي العقيدة والمعاملات والأخلاق، وأنها لا تنفك تتكامل بتداخل العناصر الثلاثة دون انفصال أي منها أو قيامه بمفرده ممثلاً لمفهوم الإسلام، وعندما كان الإسلام في أوج نهوضه وحضارته كان يجمع بين العناصر الثلاثة ولا يفرق بينها. ولما كان العنصر الأخلاقي هو بمثابة الميزان الذي يعطى حركة الحياة مفهوم التقوى والتماس رضاء الله وإقامة ذلك الوازع العميق الكائن في النفس الإنسانية يهدي إلى الخير ويردع عن الشر، فقد كان من الضرورى تربية هذه القيمة الاساسية ، ولذلك عرف جانب الأخلاق بأنه جانب التربية وتزكية النفس، وبذلك يعطي العقيدة والمعاملات جميعاً ذلك القدر الكبير من مخافة الله وتقواه، وحماية النفس الإنسانية من الوقوع في الحرام ، ومن هنا كان التصوف السني هو موضوع هذا العمل كله.

وقد استمد دعاة تزكية النفس منهجهم من صور الزهد والتقوى التي عرف بها رسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وما تنامى في أجيال التابعين، ثم توسعوا في ذلك حينما جاءت تحديات الحضارة، لتعرض الترف والثراء وتفتح أبواب اللذات والمطامع والأهواء. فكان التصوف بمثابة عامل يقظة ودعوة إلى مواجهة الانحراف الاجتماعي الذي أصاب المجتمعات الإسلامية بعد انصرافها عن طوابع العصر الأول ومفاهيمه.

غير أن التصوف في الإسلام لم يلبث أن اتصل بالفلسفة اليونانية ومفاهيم التصوف الهندي ونتاج الوثنية الفارسية والهيلينية، فأصابه اضطراب كبير، ودخلت إليه مفاهيم كثيرة ليست من مفاهيم الإسلام أصلاً، وبذا انحرف انحرافاً

خطيراً عن أصول الفكر الإسلامي وطوابعه الأصلية، اضطرب معه مفهوم «التوحيد» الذي هو أعلى قيم الإسلام نفسه وخاصة حين دخلت إلى التصوف مفاهيم غريبة عنه معارضة لأصوله الأساسية تلك هى مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد.

ومن هنا فقد كان من الضروري أن يفرق الباحثون المسلمون بين التصوف السني المتصل بالمفهوم الإسلامي الجامع، وبين التصوف الفلسفي المنحرف.

ولقد عني أعلام التصوف الأول بان يؤكدوا ارتباطهم بالقرآن الكريم والسنة المطهرة وأعلنوا أنهم إنما يتحركون في دائرة الشريعة والعقائد والأخلاق الإسلامية وقالوا في ذلك إن أي ارتقاء في مجال التصوف لا يصرف صاحبه عن أداء فرائض الإسلام كاملة وأنه ليس في الإسلام سقوط التكليف وأن تطبيق حياة الرسول وتصرفاته هى المصدر الأول، وأنه لا عبرة بما يقال من خوارق أو كشف فذلك كله لا ينقض أصول الإسلام الأساسية.

ويرى الباحثون أن هناك فارقاً كبيراً بين التصوف والفلسفة، أو بين الصوفي والفيلسوف، ذلك أن الصوفي إنما يعتمد في منهج المعرفة الجامع بين العقل والوجدان، وليس باعتماد العقل وحده كما يذهب إلى ذلك الفلاسفة فيفوتهم جانب هام من جوانب المعرفة الإسلامية التي تقوم على ترابط العقل والوجدان وأن يكون الوحي أساس من أسس المعرفة لاينفك عنها.

ومن هنا فقد كان استعلاء الفكر الصوفي المختلط بالفكر الفلسفي في المرحلة السابقة لليقظة الفكرية الإسلامية الحديثة عاملاً هاماً وخطيراً فيما أصاب المسلمين والفكر الإسلامي من اضطراب وتأخر وضعف وجمود، فقد برزت ظاهرة الجبرية التي أصابت المسلمين بالقصور عن ملاحقة أسباب التقدم.

غير أنه إذا ذكر ذلك فلابد أن يذكر أن التصوف قد فتح للإسلام أفاقاً واسعة

في عديد من الاقطار وخاصة في إفريقيا وجنوب شرق أسيا ربذلك أدخل في الإسلام سلماً أعداداً كبيرة من الوثنيين ، ولقد كان للخلق الإسلامي النقي والصلاة والطهارة وحسن المعاملة أكبر الأثر في تقبل هذه المجموعات الضخمة للإسلام، حتى قيل إن العمامة البيضاء في إفريقيا أخطر من القنبلة الذرية.

التصوف السني:

أولاً: عني رجال التصوف السني بالنفس الإنسانية بحثاً ورياضة وتهذيباً لأخلاقها وكشفاً لآفاقها، يرون أن أول ما يلائم الإنسان معرفته هو علم آفات النفس وأهوائها وكيفية رياضتها وتهذيب أخلاقها.

وأن الصوفية المسلمين فيما أنشأوا من علم للنفس الإنسانية قد التمسوا بادئ ذي بدء عناصر هذا العلم من ينابيع إسلامية خالصة في مقدمتها القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم أقوال الصحابة والمختصين من أهل السنة ثم أقاويل المتكلمين والفلاسفة وأضافوا إليها تجاربهم الخاصة وأقاموا علم النفس الإنسانية ووضعوا له مادته وقواعده ومناهجه.

ثانياً: كان أساس منهجهم هو:-

(١) تطهير النفس من الخطايا.

(٢) ترك الشبهات وفضول الحلال.

(٣) ترك مايشغل عن الله تعالى.

(٤) الزهد عن الأعراض بمعنى أخذ قدر الضرورة من الحلال المتيقن الجلي.

(٥) الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق أو الدخول في كل خلق سنّي والخروج من كل خلق ردئ.

وقد جاءت عبارات أقطابهم واضحة في هذا المجال:

(١) ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال أو إضاعة المال ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك وأن تكون المعصية إذا أصبت بها أرغب منك منها لو أنها ألقيت إليك.

(٢) قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ومن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدي به في علمنا هذا.

(٣) قال الشيخ (عبد القادر الجيلاني): «كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة، الشيخ يلزمك الكتاب والسنة ويبعدك عن المحدثة والبدعة».

« إذا رأيت الرجل يطير في الهواء فلا تعيره حتى تزن أقواله بميزان الشرع، من أيقن أن الله هو الفعال المطلق صرف همه عن غيره » .

ثالثاً: ليس الزهد في الإقلاع عن طيبات الحياة وإنما هى دعوة إلى ترك الحرص على الدنيا والانهماك في شئونها وعدم الإسراف في ملذاتها حتى لا يشغل عن الآخرة . ولكن ليس معناها الانصراف عن السعي في الحياة، أو الانصراف عن الطيبات وإنما تعني التخفف من الدنيا وعدم التهافت عليها والاعتدال فيما قيس من طيباتها مع الاعتماد على الله ، والثقة بما عنده والرضا بما قدره.

رابعاً: مفهوم التصوف في الإسلام الدنيا في اليد وليست في القلب،

والأخلاق ليست مقصورة لذاتها وإنما الغاية منها تطهير النفس من الأدران وجعلها صالحة والإقامة على قصد الله تعالى في التحلي بمكارم الأخلاق وتوطين القلب على الرحمة والمحبة للمؤمنين ومحاسبة النفس.

خامساً: للفكر الإسلامي منهج في المعرفة للبحث عن الحق وهو طريق ذو شقين: العقل والوجدان وللعقل مداه في الفهم، وغايته في الرأي وللوجدان مكانته، وضرورته، وأن الحكم في الشر والخير والحسن والقبيح ليس هو العقل ولا الوجدان، وإنما هو الشرع، ولم يدع الإسلام إلى الزهد أوالرهبانية بل هو صريح في إنكارها في القرآن والسنة ولكنه دعا إلى العبادة والورع والصوم والصلاة ، وقد أبطل الإسلام الرهبنة ودعا إلى مباشرة العمل والتجربة على الدوام مع تطهير النفس من الخطايا وإقامة مفهوم الخوف والرجاء معاً.

سادساً: فرض الإسلام على المسلمين الكدح والسعي في الحياة لكسب المال من حل وليضع المال في مواضعه فالمال وسيلة والمطلوب أن تكون هذه الوسيلة في يد من يحسن استعمالها وأن تسمو بها نفسه ببذل هذه الوسيلة في طاعة الله. (قيل لمحمد بن واسع رحمه الله: إننا نعجب لزهدك في الدنيا، وكان من أعظم الزاهدين قال لهم: إنما الزهد في الدنيا لمن ملكها وصارت مفاتيح خزائنها في يده فكانت في نظره أحقر من هيبة، والزهد لم يحمل (**عمر بن عبد العزيز**) الابتعاد عن الإمارة والملك حتى لا تحرم الأمة من عدله.

وقد جرى تاريخ التصوف في مرحلتين: مرحلة القوة والجهاد وبناء الشخصيات المفطومة عن المطامع والأهواء، وفي هذا الدور قام بعملين خطيرين:

الأول: مقاومة النفوذ الأجنبي بالجهاد وبذل النفس والمال في سبيل الله وقد كان المتصوفة هم الذين قادوا معارك المقاومة للصليبيين والتتار.

الثاني: إذاعة الإسلام في مناطق الوثنيين فقد نشروا الإسلام في مناطق شاسعة في شرق أفريقيا وغربها وفي جنوب شرق آسيا.

وكان الرباط مأوى للمجاهدين بقدر ما كان موئلا للزهاد، ومن ذلك الرباط الذي ابتناه عبد الله بن ياسين حيث بلغ عدد المرابطين فيه مائة من أشراف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس دولة المرابطين

وقد جاءت الحركة الصوفية أساساً كرد فعل للانحراف والتحلل والترف الذي لحق بالمجتمعات الإسلامية، ولقد كان مفهوم التصوف السني هو الذي أمسك قلوب المسلمين وأرواحهم أثناء المجازر الوحشية التي سادت القرن الثالث عشر الميلادي وكارثة الغزو المغولي، فالصوفية هم الذين حاربوا في صفوف حطين وعين جالوت ومعركة المنصورة.

وقد إصلح الإمام (الغزالي) مفهوم التصوف فأزال الصراع بين الفقهاء والصوفية وجمع العنصرين في مفهوم واحد وأزال ما كان من تضارب بين النهج الشرعي والنهج الصوفي.

ولكن التصوف السني سرعان ما دخل مرحلة الضعف فكانت له شوائبه، وأخطرها تأثره بالفكر الفلسفي والوثني والمجوسي فقتل روح النضال والكفاح والسعي بالدعوة إلى الجبرية وبناء التكايا والتوكل وما يشبه الرهبانية، ومن ثم دخل في إطار العمل للنفوذ الاستعماري في مصر والمغرب فكان قادته أولياء للمستعمرين. يحملون الناس على الاستسلام لهم.

* * *

التصوف الفلسفي:

عملت القوى الأجنبية التي تعرف قوة الإسلام وقدرته في حماية الوجود الإسلامي، ومدى الدور الذي يقوم به المؤمن الذي لا تشغله الدنيا والذي يقدم روحه فداء لدينه،عملت هذه القوى على تزييف مفهوم التصوف بإشاعة نظريات التصوف الفلسفي وإعلاء زعمائه ودعاته والتوسع في الكتابة عنهم، ومن ثم أذاعوا نظريات وحدة الوجود والحلول ودعاوى إسقاط التكلف وقضية الظاهر والباطن وقضية الشريعة والحقيقة وكلها دعوات باطلة زائفة ردها بعض الذين تأثروا بالفكر اليوناني والفارسي القديم، وقد أكد الباحثون أن النظريات المحرفة لم تقف على قدمها إلا في عهود الضعف التي مرت بالدولة الإسلامية ولم تجد صدراً رحباً إلا في العراق والأندلس.

وقد واجه علماء المسلمين في مختلف العصور وفي مقدمتهم الشافعي والغزالي وابن تيمية وابن القيم هذه النظريات المسمومة وكشفوا زيفها.

وفي العصر الحديث انتقد جمال الدين ومحمد عبدة وإقبال وأبو الحسن الندوي وابن باديس مفهوم التصوف الفلسفي الذي أدخل إلى الإسلام في مرحلة الجبرية والذي جعل المتصوفة أولياء للمستعمر لا حرباً عليه.

وقد أنكر الإسلام:

(١) مذهب الحلول: حلول الله – جل في علاه – في الإنسان.

(٢) أنكر فناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية.

(٣) أنكر الإسلام مذهب وحدة الوجود، أو القول الباطل بأن الله – جل في علاه – هو مجموعة هذه الموجودات.

(٤) وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته هو الله.

وعرض الباحثون المسلمون لفكرة (إسقاط التكليف) فردوها وكذبوها كما رفضوا الرموز الباطنية التي تختلف في مصطلحاتها ومضامينها عن مفاهيم القرآن والسنة.

وردوا على من قالوا إن للشريعة ظاهرا وباطناً وسفهوا رأيهم.

وقد قال العلامة المقريزي: إن الإسلام ظاهر لا باطن فيه وجوهر لا سر تحته وهو كلام لازم لكل أحد، ولم يكتم رسول الله من الشريعة ولا كلمة، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ولد على شئ من الشريعة وكتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده سر ولا رمز ولا باطن عند ما دعا الناس كلهم إليه ولو كتم شيئاً لم يبلغ كما أمر.

* * *

ويرد كثير من الباحثين هذا الانحراف إلى فتنة الفلسفة اليونانية التي ترجمت في عهد المأمون وهى (علم الأصنام) عند اليونان وأضيف إليها مجوسية الفرس وانحرافات الفلسفة الهندية، فانحرف التصوف من مفهومه السني إلى مفهوم غريب يحمل دعاوي مذهب الحلول والوحدة بين الإنسان وخالقه وتجاوز الألفاظ المهذبة من التعبير عن تجربة الإنسان الباطنة مما أصبح يشكل تهديداً للأسس الداخلية التي شيد فوقها النظام الإسلامي والحضارة الإسلامية، تلك التي تنبثق عن التوحيد الحقيقي لله تبارك وتعالى.

وقد قاوم علماء المسلمين هذا الانحراف واليوم تتجدد هذه القضايا بعد أن طرح دعاة التعريب هذه النظريات مرة أخرى في أفق الفكر الإسلامي عن طريق ترجمات جديدة للفلسفات اليونانية والغنوصية.

إن التصوف السني هو الذي يستمد من أصول الشريعة أحكامه وقواعدة. ولا ينزلق فيما انزلقت إليه بعض الاتجاهات الصوفية الشرقية التي تسربت إليها من فلسفات الهند وفارس، حين تسربت إلى الطرق الصوفية بعض ضلالات الجهل وحرفتها عن وجهتها وتقدمت لإصلاحها جماعات من العلماء أحيوا روح السلف ودعوا إلى الانقاذ من الضلالة، في المغرب أمثال أبو شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي.

وتكشف رسالة عقد المرجان الموجهة إلى الشيخ محمد بن سليمان: التصوف الحقيقي هو الذي لا يجعل الاستغراق في العبادة وسيلة للتغرير بالناس وتضليلهم واستغلالهم لأخذ أموالهم فإن الجرم كل الجرم أن لا يبحث الإنسان عن وسيلة من وسائل الرزق تغنية عن الناس فإذا اكتسبها بقيت عبادته لله خالصة».

* * *

لقد كان التصوف تجربة روحية خاصة في طور الزهد ولكن بعض الصوفية فلسفوا هذه التجزية منذ القرن الثالث الهجري:

حين ظهر التصوف الإشراقي الذي بدأ في نظريات الاتحاد (البسطامي) والحلول (الحلاج) ووحدة الوجود عند إبي عربي فيما بعد، ولذلك دخلت مفاهيم غير إسلامية كالحب الإلهي لرابعة وكان هذا تأثير الفلسفة اليونانية حيث دخلت على تعاليم الإسلام، (التوحيد الخالص) مفاهيم وحدة الوجود أو اتحاد الخالق بالمخلوق التي تتعارض مع التوحيد الخالص تعارضاً كلياً وبدأت الصوفية مصطلحات وكلمات لم ترد في القرآن ولا في السنة ورد الباحثون هذه التحولات إلى مصادر الفلسفة الهندية واليونانية والمسيحية فهى منقولة منها وتتشابه مع مصادرها ومن يراجع كلمات الحلاج يجدها خليطاً من هذه المصادر.

١- مبدأ الفناء يندمج فيه المتصوف بالله ويفقد شخصيته الفردية مستمد من

عقيدة «النرفانا» الموجودة في الديانة الهندية.

٢- مبدأ القول بأن كل الأديان واحدة مما يردده الرهبان المسيحيون.

٣- مبدأ إن طريق التجرد هو الخلاص التام من المادة وانفصال النفس عنها وهى من مفاهيم الأفلاطونية الحديثة.

٤- فكرة العقل الأول والعقول العشرة من مصطلحات الأفلاطونية الحديثة.

٥- فكرة أن المعرفة لا تتم بالمجادلات العقلية ولا بالمناظرات الفلسفية وإنما تكون المعرفة في الشعور وهى من الأفلاطونية.

وهذه كلها مفاهينم تخالف مفهوم الإسلام الصحيح، ذلك أن الإسلام يدعو المسلم إلى عبادة الله بالعمل والتعامل وهو ليس باعتزال المجتمع وليس في الإسلام ما يسمى (الفناء) كذلك فإن الإسلام لا يقر فكرة وحدة الأديان فقد جاء الإسلام مصححاً لأخطاء التفسيرات التي قدمها رؤساء الأديان فخرجوا بها عن الطريق الصحيح، وكذلك فإن الإسلام لا يعترف بنظرية العقول العشرة فهو يرى أن المعرفة تتم بالعقل والقلب معاً وليس بأحدهما كما لايقر الإسلام مايسمى بالحب الإلهي: ولكنه يقيم نظاماً جامعاً بين الخوف والرجاء ولا يقر امتزاج العنصر الإلهى في الإنسان مع الله تبارك وتعالى كما لا يقر تلك الاستعارات والمصطلحات الصوفية التي ترد في الاسفار الفارسية والهندية، ولا ما ذهب إليه عمر بن الفارض أو محي الدين بن عربي أو نظرية الاشراق التي تكلم بها السهر وردى.

وقد انبعثت في السنوات الأخيرة كتابات المستشرقين الغربيين عن التصويف بهدف إثارة هذه السموم ودفعها مرة أخرى إلى أفق الفكر الإسلامي الذي تحرر منها بعد أن قام مذهب أهل السنة والجماعة، وكان أن ترجمت كتابات نيكلسون وجولد زيهر ومكدونالد وماسنيون. وكلها ترمى إلى تزييف مفهوم التصوف السني وتصبيه بالاضطراب والخلط.

فقد ملئت هذه الكتابات بعبارات خاطئة اريد أن تنفذ إلى قلوب الشباب المسلم دون أن يتنبه إليها ومن ذلك ما قاله (نيكلسون) عن الحق تبارك وتعالى حيث وصفه بالوصف الذي عرفه اليهود فيقول إنه اله جبار شديد البطش سريع العذاب وهو ما لا يمكن أن يكون صحيحاً على هذا النحو فقد جمعت الآيات القرآنية بين رحمته تعالى وانتقامه، رحمته بالمؤمنين وانتقامه بالفاجرين بعد ان فتح لهم باب التوبة.

ولم يكن التصوف حباً في الله على النحو الذي سمي الحب الألهي ولا خوفاً من بطش الله كما صوره نيكلسون ولكن المفهوم الإسلامي الأصيل هو جامع الخوف والرجاء في وقت واحد وبدرجة واحدة.

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة كتابات كثيرة في المسرحيات والشعر الحر تحاول أن تحيي هذه المفاهيم المسمومة ومن ذلك ما كتب عن الحلاج وابن الفارض والشبلي وابن عربي.

وفي كتابات الكاتبين في هذا المجال مفاهيم لا يقرها الإسلام فيما يتعلق بنظرية الحب الألهي - رابعة العدوية - والحلول - الحلاج، وابن الفارض وابن عربي - وحدة الوجود.

وكل هذه مفاهيم مضللة دخيلة على الإسلام وعلى التصوف السني وما كان لها أن تنشر إلا بتأثير قوي خارجية تريد أن تهدم التماسك الروحي الإسلامي.

وما من واحد من هؤلاء إلا واحتشد له الفلاسفة لإعادة طبع مؤلفاته وإحياء نظرياته والدفاع عنه. وخاصة نظرية الفناء في الله وهى النظرية البوزية المسماه (النرفانا) وهى تعني الحلول الذي قال به الحلاج وهو ليس من مفاهيم الإسلام وهناك نظرية الفيض التي قال بها ابن سيرين وهى يونانية إيضاً.

* * *

أن تيار تصحيح المفاهيم للعودة إلى الأصالة والتماس المنابع يتطلب منا:

أولاً: العودة إلى مصطلحات القرآن الكريم والسنة المقررة والتحرر من مصطلحات الفلسفات والباطنية والفكر الغنوصي.

ثانياً: الإيمان بالمعنى الجامع: مفهوم أن يكون إيمان المؤمن واضح الأثر في صياغة بيته واهله ومجتمعه.

ثالثاً: أن يرتبط مفهوم التصوف بمفهوم الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

رابعاً: أن يكون دعاة التصوف على وعي بالخطر الذي يحاول أن يفسد به دعاة التغريب والغزو الثقافي، قيم الإسلام الحقيقية.

خامساً: أن تتكامل قيم الإسلام في نفس كل مسلم: وأن تصبح حقيقة واحدة متكاملة (الاعتقاد والشريعة والأخلاق) وعلى دعاة التوحيد تكميل مفاهيمهم بالإيمان بالشريعه والاخلاق وعلى دعاة التصوف (الأخلاق والتربية وتزكية النفس) الإيمان بالتوحيد الخالص وتطبيق الشريعة.

سادساً: الرفض الكامل لمفاهيم: الحلول والاتحاد ووحدة الوجود والاشراق والتناسخ وغيرها وكذلك رفض مفهوم سقوط التكليف.

سابعاً: إلانجعل لحالة المجاهد الخاصة وما يتبعها من معطيات خاصة كالكشف والكرامة أي صلة بالأصول الأساسية القائمة عليها حدود الله.

* * *

(٩٦)

الخلاف بين الصحابة

لقد كان للإسلام موقفه الواضح ، من عصر الصحابة وهو موقف يقوم على أساس عدم الخوض في الخلافات التي حدثت، إذ الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدي كما يقول ابن خلدون، وقد قال عمر بن عبد العزيز: تلك دماء طهر الله أيدينا منها فلا نلوث ألسنتنا بها.

ويقول السيد محب الدين الخطيب: وقد أوصى الكثيرون بأن نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرنا بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم، ولا ينظر في كتاب صفين والجمل وواقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم، والصحابة هم أفضل المسلمين بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتوجد لهم أيضاً درجات في الفضل تعتمد في الغالب على السبق في الإسلام وما قدمه أولئك الصحابة من جهود في سبيل نصرة هذا الدين . فهم الخلفاء الراشدون وأصحاب بالشورى الستة والعشرة المبشرون بالجنة وأصحاب بدر وأصحاب أحدذ أحد والمبايعون تحت الشجرة، ويتلو الصحابة في الفضل التابعون وتابعوا التابعين.

وقد قامت بعض الجهات ذات الهوى والغرض بكتابة تاريخ الإسلام من مصادر زائفة وقررت تلك الدراسات على الطلاب في المدارس والجامعات وهى تصور هذه المواقف بصورة الصراع بين المسلمين.

وفي السنوات الأخيرة، مضت خطة التغريب إلى غايتها حين أخذ الدكتور طه حسين يكتب عن الفتنة الكبرى، على أساس إنكار شخصية عبد الله بن سبأ ومواجهة الصحابة على أنهم جماعة من السياسين المحترفين.

وهو في هذه الكتابات يتبني وجهة نظر معينة ليست هي وجهة نظر أهل السنة والجماعة، وقد انطلق أخيراً عبد الرحمن الشرقاوي إلى الهدف وهاجم الخليفة عثمان ووسع دائرة الخلاف والفتنة ثم جاء فرج فودة فاعتمد على أكاذيب الشرقاوي في محاولة خطيرة من ورائها قوى الاستشراق والصهيونية.

والهدف هو انتقاص الصحابة الكرام وهدم هذا الصرح الإسلامي الذي تقوم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم.

وقد حاول طه حسين أن يصور معركة الجمل وكإنها معركة جاهلية بين بني هاشم وبني أمية ويتحامل على «بني أمية» فيدعي أنهم من الطلقاء الذين دخلوا الإسلام وقد غلبوا على أمرهم وعادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى -وهو نفس الخط الذي سار فيه قبل ذلك وقد افترى على السيدة عائشة رضي الله عنها افتراء واسعاً فقد تحدث طويلاً على أنها كانت تخطب الناس وهي على جملها وتحرضهم على القتال في خيال ودعاوى باطلة - فهى لم تخرج إلى قتال - وهكذا وجد خصوم الإسلام في بعض الأسماء اللامعة وسيلتهم إلى التهوين من شأن الإسلام وإظهار أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أجهد نفسه في تبليغه قد صار - بعد أن اختار الرفيق الأعلى كلمات على طرف اللسان على حد تعبير الدكتور إبراهيم شعوط.

رأس الفتنة

ورأس الفتنة في هذا الخلاف، هو (أبو لؤلؤة عبد الله بن سبأ) اليهودي اليمني الذي كان له ولأتباعه وتلاميذة من المجوس الذين عجزوا عن مقاومة الإسلام

وجهاً لوجه في قتال شريف، فادعوا الإسلام كذباً ودخلوا قلعته مع جنوده خلسة وقاتلوهم بسلاح «التقية» بعد أن حولوا مدلولها إلى النفاق، فادخلوا في الإسلام ما ليس منه وألصقوا بسيرة رجاله ما لم يكن فيها ولا من سجية أهله، وبهذا تحولت أعظم رسالات الله وأكملها إلى طريقة من الخمول والجمود كان من حقها - كما يقول السيد (محب الدين الخطيب) أن تقتل الإسلام والمسلمين قتلاً، لولا قوة الحيوية الخارقة في الإسلام فقد استمال عبد الله بن سبأ في البصرة والكوفة والفسطاط كل طامع في الرئاسة والجاه وتظاهر بالتشيع لعلي، ثم دفعهم إلى السفر إلى المدينة تحت دعوى الحج وفي المدينة تطورت حركاتهم حتى حصبوا أمير المؤمنين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر، ثم منعوه من الصلاة واجترءوا على قتله، وقد أفرد له المؤرخون صفحات عديدة وفي مقدمتهم الطبري وادعى طه حسين أنه شخصية خيالية موهومة.

ثلاث فرق

وقد بدأت الفتنة حين تناولت على بن أبي طالب وموقفه من مقتل الخليفة عثمان، وأنه أهمل الدفاع عنه، ولم يكن مخلصاً في ضرب الثوار، وفي كتاب الكامل يحدثنا ابن الأثير أن علياً كان شريكاً لعثمان في محنته، وأنه وقف معه ضد المتآمرين وما زال يتولى السفارة بين الثوار وبينه، حتى أفلت الموقف، وبعد مقتل عثمان وقع أهل المدينة في حيرة، ولم يجدوا منجاة إلا أن يبايعوا علياً، وبعد بيعة على أنقسم المسلمون إلى ثلاث فرق.

(١) فرقة تطالب الخليفة بالتعجل في إقامة القصاص على قتلة عثمان.

(٢) وفرقة ترى رأي على في مهادنة الثوار ريثما تهدأ الأمور، بمبايعة جميع

الأنصار حتى لا يجد قتلة عثمان أنصارا يدافعون عنهم أو يتخذونهم ذريعة للشغب.

(٣) وفرقة لزمت الحياد في هذه الفتنة.

ولما كان الثوار قد احتشدوا في البصرة والكوفة، ليستنفروا الناس هناك فقد ذهب طلحة والزبير، بعد استئذان الخليفة لطرد أولئك الثوار ومبايعة علي، ويروي القاضي ابن العربي أنه يحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان، ويمكن أن يكونوا قد خرجوا في جمع طوائف المسلمين وضم نشرهم وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا.

أما السيدة عائشة أم المؤمنين، فإن خروجها لم يكن بقصد تفريق الجماعة ولا شفاء حقد بينها وبين علي، إن الذين طلبوا منها الخروج وهم طلحة والزبير ومن معهما، كانوا يعلقون آمالاً على خروجها في حسم النزاع وجمع الشمل، ويقول القاضي ابن العربي: فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم، رجاء أن يرجع الناس إلى أمهم، فيراعوا حرمة نبيهم واحتجوا عليها عندما حاولت الامتناع بقول الله تبارك وتعالى: «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس». ثم قالوا لها: إن النبي قد خرج في الصلح وأرسل فيه، قال ابن العربي «فرجت المثوبة واغتنمت الفرصة، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها ».

وأن أهل البصرة لما عرفوا بمجيء عائشة وطلحة والزبير علموا أنهم جاءوا ساعين في الصلح راغبين في تأليف الكلمة.

ويروي (الطبري) : لما وصل علي إلى البصرة أرسل القعقاع بن عمرو ليقوم بالوساطة بينه وبين أصحاب الجمل فلما رجع القعقاع أخبره أنه قد استجاب له أصحاب الجمل ، وبعث إلى (طلحة والزبير) يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه

القعقاع فكفوا حتى ننزل فننظر في الأمر فأرسلا إليه «إنا على ما فارقنا عليه القعقاع من الصلح بين الناس».

قال (الحافظ بن كثير) : فاطمأنت النفوس وسكنت فرجع كل من الجيشين فلما أمسكوا بعث (على) كرم الله وجهه - عبد الله بن العباس إليهم، وبعثوا محمد بن السجاد إلى على وعولوا جميعاً على الصلح وباتوا خير ليلة لم يبيتوا بمثلها، وبات الذين آثاروا أمر عثمان بشر ليلة باتوها، فقد أشرفوا على التهلكة وجعلوا يتشاورون حتى اجتمعوا في السر على إنشاء الحرب.

مساعي الصلح

يقول (ابن الأثير) «الكامل: ١٥٠/٣» إن الاشتر النخعي وهو من قتلة عثمان الذين لا يريدون الصلح، قال: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، أما على فلم نعرف رأيه اليوم ورأي الناس فينا واحد، فإن يصطلحوا مع على فعلى دمائنا، فهلموا بنا نثب على على وطلحة فنلحقهما بعثمان فتعود فتنة يرضى فيها منا بالسكون «يعني أنهم يقتلون بها من أحد في دم عثمان» وهكذا كانت فكرة الصلح هى المسيطرة على عقول القوم في الطرفين، كما كانت هدفهم الذي يهدفون إليه حتى في وقت استعدادهم للقتال.

ويقول (ابن الأثير) «الكامل جـ ١٢٢/٥» ولما خرج طلحة نزلت مضر جميعاً وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت أليمن أسفل منهم وهم لا يشكون بالصلح، ثم يقول: فكان بعضهم، يخرج إلى بعض لا يذكرون إلا الصلح وكان أصحاب على عشرون ألفا، وخرج على وطلحة والزبير فتوقفوا فلم يروا أمراً أمثل من الصلح ، ووضع الحرب ، فافترقوا على

ذلك ولقد أدرك المفسدون أن الصلح سيسلم رقابهم لسيف أمير المؤمنين، وانتهزها كذلك دعاة السوء من منافقي يهود الذين لا تزال صدورهم تغلي حقداً على الإسلام والمسلمين.

وانتهزوا فرصة العمر، فوقف عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء فقال: ياقوم إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم فإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر، فمن انتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع - أي عن الصلح - ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون.

مؤامرات في الظلام

وتجمع المصادر الموثوق بها على أن المجرمين الذين تلوثت أيديهم بدم عثمان، خافوا على أنفسهم واتفقوا على مؤامرة في الظلام هى السطو على المعسكرين في وقت واحد بعدما أعلن الجميع قبولهم للصلح، واستراحت قلوبهم إليه، فاختلط الحابل بالنابل، واشتبهت الأمور حتى ظن كل من الفريقين بصاحبه شراً، وخرج الأمر عن يد الحكمة وفشل الصلح وفوجئت أم المؤمنين بمجئ كعب بن الأسود وهو يقول: أدركي فقد أبى القوم، إلا القتال لعل الله يصلح بك الأمور فركبت والبسوا هودجها الأدراع.

حقيقة موقف السيدة عائشة

ولكن هيهات أن يوجد العقل في الثوارات، وأن تتبين الرؤية في الظلام، إن

التي استنجد بها الناس لفض النزاع ولتقضى على أسباب الفرقة وجدت نفسها - فجأة - دون أن تدرك طرفاً في القتال وانتشر بين الناس ، أن أم المؤمنين وقفت تقاتل علياً وحزبه.

ومن الغريب أن الذين التفوا حولها، هم الذين خرجت للقبض عليهم وتنفيذ القصاص فيهم، واستطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم مدافعين عن أم المؤمنين.

هكذا صورت المعركة: صورها تتابع الحوادث، وغموض الموقف، واستغلال قتلة عثمان وجود أم المؤمنين في المعركة، ولذلك استشعرت أم المؤمنين أن اسمها استغل في إشعال النار وتأجيج الخصومة فقالت هذه العبارة:

« والله لوددت، أني مت قبل هذا بعشرين عاماً »

وهذا تصوير لحقيقة موقف السيدة عائشة، من وحي روايات المؤرخين المنصفين ، وكما ذكره (ابن الأثير) في الكامل جـ ١٢٣/٣، ذلك أن سفارة (القعقاع بن عمرو) كانت قد نجحت واقتنع الطرفان بوجوب الصلح واستبشر المسلمون ببوادر الاتفاق وأمن طلحة والزبير والسيدة عائشة أن الله قد نجى المسلمين من شرور حرب طاحنة ، وبات المسلمون ليلة لم يبيتوا مثلها لما احسوا به من نجاح الصلح وتطهير صفوفهم من الشياطين.

محور الخلاف

وقد كان المحور الذي يدور حوله الخلاف، بين علي رضي الله عنه وكل المخالفين له هو أمر قتلة عثمان، فكل المسلمين كانوا مجمعين على وجوب إقامة الحد وتنفيذ القصاص في قتلة عثمان، وأن الذي تولى الحديث عن المقتول هو

هو معاوية باعتباره ولي الدم ولما طلب إليه أن يبايع علياً ، لم يمانع في البيعة ولكن اشترط أولاً تسليم قتلة عثمان، أو إقامة الحد عليهم.

ومعاوية وان قاتل عليا فانه لا ينكر إمامته ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان (رضي الله عنه) ظناً إنه مصيب وإن كان مخطئا، ولم يسبق الى ذهن أحد من المسلمين في المدينة أن هذا الطلب اتخذ ستار للوصول بمعاوية إلى الخلافة.

وكان على يرى هذا الرأي ولا ينكره ، وإنما حصل بسبب التأجيل حتى يتم له الأمر وتبايع الأمصار.

وكان لكل رأيه واختلفا ورأى (طلحة والزبير) أن أم المؤمنين تستطيع أن تدخل فإذا نادت بهذا فستجد من المسلمين جواباً واحداً هو القبض فوراً على كل المتهمين بقتل عثمان.

جاء هذا في كتاب (لمع الأدلة) لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، هذا الهدف الذي دفع أم المؤمنين، أن تشد رحالها من مكة إلى البصرة وقد بعث أمير المؤمنين (على بن أبي طالب) القعقاع بن عمرو إلى البصرة وقابل أم المؤمنين واتفق الجميع على محاكمة قتلة عثمان ونجحت سفارة القعقاع . واتفقا على الصلح ولكن المتهمين بقتل عثمان والمشتركين في الفتنة أصباهم الغم وأدركهم الحزن من اتفاق الكلمة وايقنوا أن الصلح سيكشف امرهم وتسلم رقابهم إلى سيف الحق وقصاص الخليفة فباتوا يدبرون أمرهم .فلم يجدوا سبيلا لنجاتهم إلا أن يعملوا على إفساد الصلح .. جاء هذا في الكامل لابن الاثير جـ / ١٢٣.

فباتوا يتشاورون على الحرب في السر فغدوا مع الغلس ما يشعر بهم أحد فخرجوا متسللين وعليهم ظلمة بعض ، مضرهم إلى مضرهم ، وربيعهم إلى ربيعهم، فوضعوا السلاح بغتة فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه

أصحابهم الذين أتوهم وبلغ طلحة والزبير ما وقع من الاعتداء على أهل البصرة فقالوا : ما هذا ؟.. قالوا طرقنا أهل الكوفة ليلاً فقال طلحة والزبير :

« قد علمنا أن عليا غير ملته حتى يسفك الدماء وأنه لن يطاوعنا » وفي هذا الوقت ذهبت فرقة أخرى تحت جنح الظلام ففاجأت معسكر على بالكوفة فلما بلغ «على » قال ما هذا ؟

قال الصحابه : ما شعرنا إلا وقوم من أهل البصرة قد بيتونا فقال على نفس عبارة طلحة والزبير : « لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء وان لم يطاوعنا » .

وخفيت حقيقة المؤامرة على كلا الفريقين وظن كل منهما الشر بصاحبه ونجح العاملون في الظلام ونجحت خطتهم في افساد الصلح واراقة الدماء وطاشت عقول القوم واختلطت عليهم الأمور .

وهذا هو السر الحقيقي للأحداث .

وهو يكشف زيف دعوى اختلاف الصحابة أو الدعوات المدعاة بانتقاصهم .

(٩٧)

(الحداثة) الباطنية الجديدة

الدعوة إلى الحداثة ردة إلى طفولة البشرية

الدعوة إلى الحداثة ليست دعوة مرحلية من دعوات التغريب في مجال الأدب، ومن حيث تدخل في إطار السريالية والوجودية أو مذاهب الكلاسيك والرومانسية والواقعية، وإنما هي شيء أكبر من ذلك : إنها ثورة على الثوابت الإسلامية الأساسية عن طريق خافت الضوء هو «الشعر» حتى لا تحدث ضجيجاً أو صياحاً يفسد عليها هدفها الذي تسير فيه حتى تصل إلى غايتها الخطيرة ، وهي تقصد أساساً إلى محاربة القيم الإسلامية وإزاحة فكرة الأصول الثابتة بهدف تغليب طوابع التطور المطلق والتغيير المتوالي الذي لا يعترف أساساً بالضوابط والحدود، والذي يرقى إلى فتح الطريق أمام حرية الإباحة وتمجيد العلاقة الجنسية، والجرأة على أعلى القيم التي جاءتا بها الأديان ، وذلك بتحطيم هذه الضوابط والحدود.

فحتى عند فحص كتابات الداعين لها وتعمق كتاباتهم (وخاصة ما نشر من أبحاث مؤتمرهم الذي جمعت أبحاثه ليكشف عن أبعاد هذا المخطط الخطير) يتبين أن وراء هذه الدعوة خطة رسمت بدقة وذكاء ومكر في نفس الوقت، قام عليها الحاقدون على كل شيء طيب كريم في دنيا الإسلام والعرب، وقد تعاقدت مطامحهم إلى توجيه ضربة للصحوة الإسلامية عن غير الطريق الذي تتوقع منه الضربات ، بل عن طريق مدخل ضيق لا يلتفت إليه الكثيرون وهو الشعر ، وقد جاءت حركة الشعر الحر والشعر التفعيلية ، وغيرها منذ ظهورها مقدمة ومدخلاً لهذا العمل الخطير ، قام على رأس هذه المؤامرة شاب علوي خدعه (انطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري وأغراه بترك الإسلام والدخول في المسيحية وحمل لواء الدعوة إلى ما أسماه فينيقيا) وتلقفته الجهات التي استثمرته لخطة

عمل بعيدة المدى (علي أحمد سعيد – ادونيس) ، وقد أتاحت له تلك الجهات أن يحصل على الدكتوراة في الأدب العربي من معهد الدراسات الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت برسالة عنوانها (الثابت والمتحول : دراسة في الاتباع والإبداع عند العرب) حاول فيها أن يهدم صرح العرب الشامخ ، ويثبت أن أصحابه غير مبتكرين أو مبدعين ويبرهن على أنهم لم يقدموا شيئاً للإنسانية ، وفي هذه الرسالة وضع (أيدلوجية) دعوته إلى الحداثة التي خدع بها عدد من الشباب العربي الذين عجزت خلقياتهم عن أن تحميهم من السقوط في هذا المستنقع

دعاة الحداثة :

دعاة الحداثة كانوا كما يقول دكتور «أحمد عبد العظيم مسعود» من أقليات بعضها ربما كان متهماً في دينه أو ولائه القومي ، وبعضها كان لا يحظى من الأغلبية بنظرة ارتياح مطلقة ، وإن هناك غالباً شيئاً ما عالق بالنفوس ، ففي سورية كان "علي أحمد سعيد" الذي زين له «أنطون سعادة» أن يغير اسمه إلى (أدونيس) منتمياً إلى الحزب القومي السوري ، وهو حزب أعلن عداءه للإسلام والعروبة معاً ، إذ دعا إلى فينيقية سورية ثم تحول "أدونيس" بعد ذلك إلى مذهب اللامنتمي وأدونيس هو القائل : «إن السبب في العداء الذي يكنه العرب للإبداع ، كل إبداع ، هو أن الثقافة العربية بشكلها الموروث هي ثقافة ذات معنى ديني» ..

ويعرف الأستاذ (ولسون) في كتابه (اللامنتمي) بقوله :- « لا صلاح لهذا العالم المليء بالمتناقضات إلا بالثورة والغضب وعدم الانتماء إلى أية قيمة أخلاقية من القيم الموروثة ، بل لابد من مواجهة العالم بكل مشاعر الحقد والكراهية» ويقول "محمد الماغوط" من زملاء أدونيس :- « على اللامنتمي أن يحس باللاجدوى ، لأن هذا الوجود بلا موقف ولا دليل ولا مستقر ولا مرشد ، فليس اللامنتمي إلا الإحساس بالسأم وتمني الموت والأنانية الفردية ورفض كل المعطيات الخارجية » ..

وفي لبنان كان هناك "سعيد عقل" الذي بايعه بعض النقاد والشعراء بإمامة الشعر وهو الذي خرج بعدها ليعلن أن اللغة العربية لا تفي بالتعبير عن المشاعر ولابد من استبدالها باللغات العامية ، وأن هناك مشكلة في كتابتها فليس كل أحرفها منطوقة وبعض كلماتها ينقصها أحرف ولهذا كتب ديوانه (يارا) بلغة غربية في أحرف لاتينية وهو رجل (حراس الأرز) الذين جعلوا شعارهم قتل الغرباء (أي قتل المسلمين) ..

وفي مصر كان الدكتور "لويس عوض" وهو رجل يكرر في كل مناسبة أنه ليس قومياً، وأنه علماني ، وقد لعب هذا الرجل دوراً خطيراً في الحياة الثقافية في مصر في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن العشرين حين كانت وسائل الإعلام كلها موجهة ، وتحت الرقابة الصارمة ، وكان هو المستشار الثقافي لجريدة الأهرام ، وقد قام لويس عوض بروح متعصبة في وجه أي شاعر عمودي يبتغي طريقه إلى وسائل الإعلام والنشر من إذاعة أو صحافة أو أي وسيلة أخرى إلى الجماهير (كما يقول الدكتور "طاهر أحمد مكي" في كتابه (الشعر العربي المعاصر دوافعه ومداخل لقرائته)، وأفسح المجال واسعاً عريضاً لكل من يكتب الشعر الحر ، وإذا نشر قصيدة عمودية لشاعر عمودي مثل كامل الشناوي نشرها موزعة الجمل على نحو يوحي بأنها من الشعر الحر ، وفي ظل هذه الحركة تحول شبان كثيرون لما يزالوا شاردين في عالم الشعر ، وكان يمكن أن يصبحوا شعراء عموديين ممتازين إلى شعراء يكتبون كلاماً تافهاً في الشكل الجديد وأصبحوا كما يقول الشاعر أدونيس وهو ليس متهم في شهادته ، لأنه من دعاة الشعر الحر المتحمسين له (في الشعر الجديد اختلاط وفوضى وغروراً وتفاهة وشبه أمية ، ومن الشعراء الجدد من يجهل حتى أبسط ما يتطلب الشعر من إدراك لأسرار اللغة والسيطرة عليها ومن لا يعرف من الشعر غير ترتيب التفاعيل في سياق ما ، إن الشعر الجديد مليء بالحواة والمهرجين» ..

كان هناك "بدر شاكر السياب" و "عبد الوهاب البياتي" وهم من أخلص دعاة الماركسية ، نشر السياب قصائده كلها صيحات إنكار وحيرة ، بل وثورة على الله (جل في علاه) ..

هذا أمر ، أما الأمر الآخر الذي يهدف إليه هذا التيار «فقد كان واضحاً في تلك الرغبة المحمومة في إظهار الاحتقار للتراث الإسلامي العربي والزراية على الشعراء العرب القدامى المجيدين ولغتهم بالصنعة والتكسب وإعلاء التراث

اليوناني والروماني على ما فيه من وثنية ..

ويسخر "ادونيس" من حادثة الإسراء في قصيدة (السماء الثامنة) و "معين بسيسو" الماركسي يهزأ بالتراث وأعلام التريخ ومن طريقة الإسناد في الحديث النبوي الشريف ويؤلف منظومة ساخرة (حدثني وراق الكوفة ، عن خمار البصرة ، عن قاض في بغداد ، عن سايس خيل السلطان ، عن جارية ، عن أحد الخصيان) الخ ..

والحق أن الشعر الحر مترع بالدعوة إلى الإباحية على نحو لم يشهده الشعر العربي إلا عند بعض الشعراء الشواذ المنبوذين ، والعجيب أن دعاة هذا اللون العجيب قد قفزوا إلى كثير من البلاد العربية إلى حيث التحكم في وسائل الإعلام حتى أنك تكاد تراهم يسيطرون سيطرة تكاد تكون كاملة على هذه الوسائل في بعض بلدان العرب ، وفي هذا الجو الإرهابي أصبحت ترى شعراء عموديين يكتبـــون قصائدهم أو يعيدون كتابتها بعد تسطيرها وتبيضها وتقطيعها إرضـاء لهـــم وتقيـة ..

وقد ترجم كثير من تلك القصائد ليس لجودتها وإنما أولاً لسهولة ترجمتها لمستشرق شاذ ، أو لدوافع سياسية وعلل دينية ، ونحن نرجح أنها حركة مقصودة أريد بها طعن اللغة العربية : لغة القرآن والإسلام وعمادها توطئة للإجهاز عليها .

وستبقى العربية والشعر العمودي وسيبقى من فوقهما القرآن والإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وان يصمد هذا المسمى بالشعر الحر طويلاً لأنه لا يعلق بالذاكرة ، ويستعصي على الفناء ، أو يفرط في الرمزية المتطرفة الجاحمة والغموض والتلفيق» .. أ.هـ ..

وإذا ذهبنا نستعرض الدعاة إلى الحداثة نجدهم جميعاً من متعصبي

الأديان الذين دأبوا على محاربة الفكرة الإسلامية واللغة العربية واتخذوا شعار الحداثة ستاراً ينفثون من تحته سمومهم ويظهر ذلك واضحاً في كتاب غالي شكري (شعرنا الحديث إلى أين) ومنهم أدونيس والماركسيون أكبر عداء الإسلام . بدر شاكر السياب والبياتي ودنقل ، وشعراء المجون وكان يوسف الخال قد رسم الخطة لهؤلاء وساقهم إليه وهو مبشر مسيحي يقول : « خاسر من يبيع ثلاثة ويشتري واحداً !! »

يقصد *بالثلاثة* : عقيدة التثليث المسيحية *والواحد* هو عقيدة الإسلام ومنهم أمير اسكندر (مسيحي ماركسي) جبرا ابراهيم جبرا ، أسعد رزون ، ولويس عوض ، وخليل حاوي وتوفيق صايغ ، وشقي ابن سقا ، وميشال طراد وميشال سليمان وفتحي سعيد وسعيد عقل وموريس عواد وكلهم مسيحيون . ويقول الدكتور طاهر التونسي – بعد هذا العرض – : «إنه حتى عندما انتسب إلى مدرستهم بعض من تسمى بالإسلام استعمل التعبيرات المسيحية ويبدو ذلك واضحاً في شعر بدر السياب الذي يدعي أن المسيح صلب وقد كذب وكذب أساتذته النصارى واليهودي ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ويذكر عن آدم وحواء القصة كلها كما روتها التوراة لا كما رواها القرآن » ..

وقد أشار لويس عوض إلى أن صلاح عبد الصبور يقرأ الإنجيل بحماسة وأنه دخل دائرة الخلاص المسيحية ، وتجد التركيز على التراث المسيحي والمصطلحات المسيحية واضحة في شعره ، وقصيدة (حكاية قديمة) عن المسيح وصلبه ونظم بعض أبيات من (نشيد الإنشاد) وتجد ذلك في معين بسيسو ونزار قباني :

(مصلوبة الشفتين ، الصليب الذهبي) ..

وعبد الوهاب البياتي (في صليب الألم) ..

أيدلوجية الحداثـة:

أجمع الباحثون على أن (الحداثة العربية) هي ثورة متمردة على كل نظام وقاعدة وقانون ، وأنها ترمي إلى هدم الضوابط والحدود والقيم والقواعد التي قدمها المنهج الرباني إفساحاً للمنهج البشري : القائم على التحول الدائم ، ويرى البعض أنها ثورة اجتماعية هدامة تتخفى وراء نصوص الشعر والأدب لتحجب غايتها وحركتها ، ولذلك فإن دعاة الحداثة يهاجمون الثوابت التي قدمها الدين الحق في عنف شديد ، ويصفونها بالجمود والمحافظة والتحكمات ، وقد وصفها الأستاذ "محمد عبد الله مليباري" بأنها باطنية جديدة تحاول غزو مبادئنا وقيمنا بدءاً من الشعر وانتهاء بالعقيدة الإسلامية ، وأن المسألة ليست أن يكون الشعر عمودياً أو غير عمودي أو تفعيلياً أو نثرياً ، ولكنها أكبر من ذلك ، إنها محاولة هدم في مختلف :-

١- **قضايا العصر :** السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بها من تحرير وحرية وعدالة.

٢- **قضايا العصر التعليمية والعلمية :** وما يترتب عليها من مشكلات .

٣- **قضايا العصر الادبية والفنية :** وما يستحدثه من أجناس ومدارس واتجاهات.

ويمكن القول بأن هذه المؤامرة قد وضعت قواعدها على أساس حركة الزندقة القديمة وجماعة المجان الذين كان قيادتهم (الشاعر الفارسي أبو نواس) الذي كان حاقداً على الإسلام والذي جندته قوى الباطنية والمجوسية والقرامطة ليهدم عن طريق الشعر جميع مقومات الثبات الإسلامي في البيئة العباسية وقد أعانه على ذلك مجموعة من الزنادقة والشعوبيين الذين تركوا تراثاً مسموماً استطاع

المستشرقون إحياءه عن طريق شعوبي جديد يحمل في أعماقه جميع أحقاد المجوسية والباطنية وقد وضع نظرية الحداثة على ستة أصول :

١- نظرية التطور المطلق التي نقلها من فكر "هيجل" في دعوته إلى إلغاء الثوابت وهي نقيض نظرية أرسطو وقد اصطنعتها القوى الصهيونية والماسونية لإحياء الفكر التلمودي وخلق نظرية تقول بأنه ليس هناك شيء ثابت أصلاً وأن كل شيء متطور وذلك لهدم ثبات الأديان وأخلاق والقيم . ويرون أن الإنسان هو محور العالم .

٢- إحياء الوثنيات القديمة فقد كشفت رسالة "أدونيس" عن تقديسه الوافر لفكر أبو نواس واهتمامه بفكر الملاحدة وأصحاب نظرية وحدة الوجود والحلول والاتحاد وإعادة إحيائها من جديد وهي الخطة التي وضع قواعدها المستشرق "لويس ماسينون" .

٣- تحطيم عمود اللغة العربية ، وهدف تحطيم الفصحى لغة القرآن هدف قديم وقد شارك فيه كثيرون منذ بدأت حركة التعريب والغزو الثقافي ـ ويلكوكس – لطفي السيد – سلامة موسى ، سعيد عقل .. الخ» أملاً من هؤلاء الدعاة بأن تحطيم اللغة العربية سيحولها إلى المتحف ويفسح الطريق أمام تمزق الوحدة القرآنية الإسلامية الجامعة ..

٤- تحطيم عمود الشعر ، وذلك إيماناً بأن عمود الشعر هو القاعدة الأساسية للأدب والبيان العربي بعد القرآن والسنّة ومن هنا جاءت الحملة على "الخليل بن أحمد" مؤلف معجم "العين" وعلى كل الشعراء الملتزمين للنظم العربي الأصيل.

٥- مهاجمة منهج الثبات والقيم وإطلاق اسم السلفية عليه ، والسلفية هنا تعني المعتقد الديني فالحداثة ترى أن في الأفكار الباطنية والصوفية تحولاً من

الثبات الديني بل ويعتبر هذا التحول منطلقاً تاريخياً للحداثة العربية منطلقاً تاريخياً للحداثة العربية ..

٦- تغليب مفاهيم السريالية (النظرة التي لا يحكمها العقل أو ما يسمى فوق الواقع وقوامه احتقار التراكيب الفعلية والروابط المنطقية المعروفة والقواعد الأخلاقية والجمالية المألوفة ، والاعتماد على اللاشعور واللامعقول ، والرؤى والأحلام والحالات النفسية المرضية ولا سيما حالات التحلل النفسي ويعنون بالرغبات الجامحة.

٧- تغليب طوابع الجنس والإباحة استمداداً من مفهوم الإغريق وعبادة الجسد وإباحيات الوجودية التي دعا إليها سارتر ، والتحليل النفسي الذي يعتمد الجنس التي دعا إليه فرويد ونظرية العلوم الاجتماعية التي دعا إليه "دوركايم" وفتح أبواب المجون والجنس والإباحية والتحلل الاجتماعي.

٨- على أن يدور ذلك كله في إطار (التاريخانية) وهي الحتمية التاريخية لماركس فالمنهج الماركسي التاريخي هو الأساس الأيدلوجي للحداثة.

وقد عمد "أدونيس" في سبيل صياغة هذه النظرية التي قدمها له شيخ المنظرين القس "يوسف الخال" إلى استقطاب خيوط من التاريخ لتكون أدلة واضحة واضواء كاشفة على الطريق، وذلك بالاعتماد أساساً على الفكر الباطني الفلسفي والصوفي والاهتمام برموزه ، ومحاولة ربط الخطوات بتطور الشعر الحديث وبالمرحلة الأخيرة فيه (قصيدة النثر وشعر التفعيلة) واختيار الحاقدين الجدد على نسق الحاقدين القدامى : أبو نواس ومهيار الديلمي ، واعتماد الحركات التمردية الهدامة "للمختار الثقفي" والقرامطة والزمج وقد خطا دعاة (الحداثة) خطوة متقدمة على مفهوم العصرية من ناحية والشعر الحر من ناحية أخرى .

فالشعر الحر تعلية لشعر (والتي ويتمان) أما شعر الحداثة فهو متابعة للشاعر الصليبي "توماس اليوت" ويرى دعاة الحداثة أن الشعر الحر هو التيار (السلفي) الجديد بالنسبة لشعر الحداثة.

أما توماس اليوت فهو زعيم هذه المدرسة في الغرب ، خليفة دانتي الذي يحمل الحقد الصليبي الأعمى.

ويقول دكتور (عبد الله الطيب) : لقد حذف "اليوت" في منظومته (الأرض المقفرة) اللفظ الدال على العرب واستبدله بكنيسة ماغنس وردد أشياء من التوراة والإنجيل ويرجع هذا إلى الشعور الصليبي الموروث الصادر عن تعصب ديني أو عنصري إذ لا يخفى أن ظلال جزية العرب لا تخلو من معنى ظلال سيوف محمد وصلاح الدين والإسلام والجهاد ، فهو يرجع إلى الشعور الصليبي الموروث والتعصب الديني أو العنصري ومردة إلى الزهو والغرور والاعتداد بالانتماء إلى حضارة اليونان والرومان».

ولا ريب أن كتمانه سرقته للمعلومات وشعر العرب عن طريق مستشرقي الهند وفرنسا وحذفه اسم العرب وأسماء من أشاروا إليهم ، كل هذا يؤكد الشك في أصالة اليوت في منظومته (الأرض المقفرة) ويؤكد فساد وجهة الذين تابعوه من دعاة الشعر الحر والحداثة .

الحشاشية : هي الجـذور ..

ويحاول "أدونيس" ودعاة الحداثة أن يردوا فكرتهم إلى القديم : وهم صادقون في ارتباطهم بالحشاشين والباطنية والمجوسية المتنامية في القرامطية ويتحدثون عن جذورهم في أبي نواس وأبي تمام والرازي وابن الراوندي ، على أساس أن الخاصة الرئيسية التي تميز هذا النتاج هي أدائه التقليد والمحاكاة

ورفض النسج على منوال الأقدمين ويركز أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول) على الحركة العقلية والفلسفية والعلمية عند ابن الراوندي والرازي ويراه في الحركة الصوفية (الفلسفة) وفي التيارات الإلحادية ، أو ما يسمى حركات الزندقة والشعوبية وفي طليعتها الحركة القرمطية ..

الحداثة وخلفياتها الأيدلوجية:

تهدف الحداثة إلى تجاوز القواعد الأساسية للإسلام : قواعد الثوابت التي هي بمثابة الضوابط والحدود التي تحفظ شخصية الفرد والوجود الاجتماعي وهي تحاول أن تخدع الناس بأن هؤلاء الرواد والرموز السابقين قد حطموا هذا القيد وتجاوزوه ، وإن هذه المحاولة هي التي مكنتهم من الإبداع ، وهم يدعون بأن الحداثة هي الثورة الدافعة لتجاوز التأخر والجمود والارتقاء إلى منطلق العصر .

وترد ذلك كله إلى التاريخانية (الماركسية) كمدخل للحداثة . وترى أن هؤلاء الرواد قد اقتحموا مفهوم الزمن الديني ومن ثم فهم يركزون على (فكر التجاوز) وأنه مصدر الإبداع وأن هذا التجاوز لا يتوقف فهو في حركة دائمة.

هذا هو مفهوم (الثابت والمتحول) .. وهذا التجاوز يرمي إلى تزعزع فكرة النموذج أو الأصل ، إلى أن الكمال لم يعد موجوداً خارج التاريخ ، وأصبح الكمال بمعنى آخر كامناً في حركة الإبداع المستمرة .

هذه المحاولة كاذبة ومضللة ومحكوم عليه بالسقوط لأنها لا تقوم على أي أساس من الفطرة أو العلم أو الحق أو المنطق ، وإنما هي نوع من التمويه الكاذب والخداع المضلل ، لأن كل هؤلاء الذين اعتمد عليهم مفهوم الحداثة من رموز قديمة قد سقطوا فعلاً وداستهم الأقدام ولم يدخلوا التاريخ إلا في باب الشعوبيين والباطنيين وأعداء الإنسانية ، ولقد هُزِموا فكرياً في عصرهم وذهب كل ما قالوه

من أكاذيب وادّعاءات حتى جاء الاستشراق والغزو الفكري ليعيدهم مرة أخرى إلى الحياة ، وهي محاولة محكوم عليها بالانهيار والدمار كالمحاولات الأخرى التي سبقتها ولن تجدي هؤلاء الدعاة الجدد نفعاً لأنها لا تقوم عندهم من منطلق أمين أو من منطلق غيره على هذه الأمة أو رغبة في السمو بها ، ولكن من منطلق حقد دفين وكراهية وهزيمة ، والمهزوم يعمل دائماً على كسب المهزومين إلى صفه ، ليحس بأنه ليس منبوذاً ، ولقد كان دعاة الشعوبية والباطنية مهزومين منعزلين شأنهم شأن أبي نواس وبشار في القديم حيث كان يتحاماهم الناس ، وإذا كان قد أتيح لهم عن طريق «أحد غلمان التغريب والشعوبية» أن يطلق لهم فكرهم على هذا النطاق الواسع فإنها ليست إلا صيحة مضللة قد أغمدت الأقلام الإسلامية فيها خناجرها ..

إن هؤلاء دعاة الحداثة إنما يدعون إلى توهين السلطة المطلقة وهي الدين ، والنيل من السيد الأعظم (الله تبارك وتعالى . جل وعلا عن كلماتهم المسمومة) ولن يتحقق يوماً أن تغلب الفئة الباطلة على النظام الرباني القائم ، في حكمه وقواعده وأي أصل من أصوله ، مهما تجمع لهذا دعاة الشعوبية والباطنية ..

ويرمي "أدونيس" إلى إلغاء القديم الأزلي الباقي جل جلاله ، ومفهوم الزمن عند أدونيس يتعارض مع مفهومه الديني ، وإلغاء الزمن الديني يرمي إلى إلغاء كل قديم باعتبار أنه لا شيء في الوجود اسمه قديم ويهدف من ذلك إلغاء فهمنا للقرآن الكريم وأنه كلام الله القديم ..

والحرية عند الحدثيين هي التحلل من كل قيد (ديني أو اجتماعي أو نظامي أو قانوني) .

وهم عندما يسمون الحداثة (الثورة المتجهة لتجاوز السلفية) يقصدون تجاوز قيم الدين والأخلاق ..

وحين يدعون إلى حرية اللغة يقصدون الخروج باللغة عن سياقها ومضمونها وتحررها من إطارها التاريخي والبلاغي المرتبط بالبيان العربي والقرآن الكريم ..

ويؤرخ أدونيس للحداثة بالدعوات التي خرجت على الإسلام (المختار الثقفي والزنج والقرامطة) ويرى أنها قامت بالتحرر من الثبات وكذلك دعوات الزنادقة (في الشعر) والإباحية ودعاة وحدة الوجود والحلول والإشراق ..

وبالجملة فإن الحداثة (أيدلوجية مناهضة) للإسلام والدين الحق والأخلاق يقوم على الغموض في فهم النص ، وتفسيره تفسيراً مختلفا (لأن الشاعر ليس مطلوباً منه أن يفهم ما يكتبه) ودعواهم الباطلة أنهم يتشبهون بتفاسير القرآن متناسين أن لمفسر القرآن شروطاً لابد أن تتوفر فيه ..

وهم حين ينكرون العمودية في الشعر أو التقيد بالوزن والقافية إنما يتطلعون من مفهوم الحداثة القائم على التمرد والثورة على كل قيد عقدي أو فني (كما تحرر أبو نواس ، بصوفية وحدة الوجود والحلاج وابن عربي ونظرية الحاكم بأمـر اللّه) ..

وقد استعمل الحداثيون نفس الألفاظ التي استعملها الباطنية سواء في الغرب (نيتشه وفرويد) أو في الشرق (الباطنية والحلوليين) .. ويرد أدونيس مفاهيمه إلى أصولها قائلاً : -

« السريالية قادتني إلى الصوفية وتأثرت بها أولاً ، ولكني اكتشفت أنها موجودة بشكل طبيعي في التصوف العربي (يقصد التصوف الفلسفي) ، وتأثرت بالماركسية ونيتشه من حيث القول بفكرة التجاوز والتخطي ، وتأثرت أيضاً بأبي تمام وأبي نواس من حيث فهم اللغة ، ولم تكن ثورة المختار الثقفي والثورات القرمطية وثورة الزنج إلا توكيداً للقاعدة المادية (الأرض - الاقتصاد - علاقات الإنتاج) .

ومن هنا يتأكد أن حداثة أدونيس هي تلفيق من فكر الباطنية والملاحدة والإباحيين في الشرق والغرب وأنها تستهدف (ثوابت الإسلام) والإيمان بالغيب وتقوم على أسس ثلاثة :

١- عدم الانتماء لأي قيم أو منهج ..

٢- التمرد على كل الثوابت وفي مقدمتها الدين والأخلاق ..

٣- استعمال قواعد اللغة استعمالاً مغلوطاً ..

٤- بناء الصور الشعرية على أنقاض الأساطير القديمة ..

وأخطر ما يركز عليه دعاة الباطنية الحديثة (الحداثة) هو ما يسمونه (المطلق) وهو الله تبارك وتعالى وما من واحد من هؤلاء إلا وله في هذا المجال شعر رديء هابط مليء بالإلحاد والفجور ، والله تبارك وتعالى أعلى وأجل عما يقولون ، وهذا يكشف أن الهدف الحقيقي هو الثورة على العقيدة والإلوهية والجذور الأصيلة للتكوين الاجتماعي وعلى كل ما هو متعارف ومقعّد ومنظم ومقنن حتى القواعد اللغوية ..

ومهاجمة النص المقدس عملية واضحة وأساسية في دعوتهم ..

يقول كمال أبو ديب : «من الدال جداً على أن النص المقدس في جميع الثقافات التي نعرفها هو نص قديم فليس هناك من نص مقدس حديث والحداثة بهذا المعنى هي ظاهرة (اللاقداسة) » ، وهو يقصد بالنص المقدس القرآن والأحاديث النبوية وكل كتاب ديني تقدسه الأديان ويقول : «لأنه لا سبيل لأن يكون الأدب حداثياً إلا إذا رفض كل نص مقدس ، وأصبح نقيضاً لكل ما هو مقدس حتى العبادة.

فالدعوة إلى تدمير القداسة هى هدف أساسي في دعوة الحداثة وهي لا تقف عند ذلك بل تدعو إلى مقارنة الخطيئة بدعوى رفض كل قيد على الحرية

الإنسانية، ومن دعواهم إلغاء الخطيئة وبكارة الإنسان وإحراق التراث وإلغاء الخطيئة أي لا خطيئة في الحياة (الزنا ، الربا ، السرقة ، العقوق .. الخ) فيقولون : كلمة الخطيئة يجب أن تشطب من قواميس اللغات ..

والدعوة إلى العصيان المعلن قاعدة أخرى متمثلين بقول أبي نواس :

فإن قالوا حرام قل حرام * ولكن اللذاذة في الحرام

وقد أعلن أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول) أنه يرمي إلى تحول يزلزل القيم الموروثة من دينية واجتماعية وأخلاقية ، تحول في البطانة العربية التي بيثها الإسلام بقيمه الدينية ..

والمعروف أن "الأب بولس نويا اليسوعي" هو الذي قدم له منهجه ووصفه بأنه (شاعر التحول المتمرد) ..

وقد ركز على عبارة أدونيس (نفسي تجردت من الماضي وقيمه كلها بما فيها القيم الدينية والخلقية) ..

وعلق الأب بولس على ذلك فقال : لقد انتهيت إلى نتيجة هي أن الرؤيا الدينية هي السبيل الأصلي في تغلب المنحى الثبوتي على المنحى التحولي في الشعر ، إن النظام الشامل الذي خلفه الدين (يقصد الإسلام) كان العامل الأساسي الذي جعل المجتمع العربي في القرون الثلاثة الأولى يفضل القديم على الحديث بحيث إنه وضع القديم في مجال الكمال ، واعتبر كل جديد خروجاً على المثال الكامل».

وهكذا نرى كيف تتضافر قوى كثيرة على تأييد هذا المذهب وتشوه صفحات التاريخ الإسلامي ، وترى أن ثلة من الزنادقة قد ظهروا في القرن الثالث وداستهم الأقدام كانوا عوامل تجديد وحداثة كاذبة بدعوى أنهم تجاوزوا الثوابت واجترؤا على الحقائق الإسلامية ..

وهكذا كانت دعوى الحداثة التحول هو المنطلق ، وأن التجرد من كل

الموروثات التي تمت مع نمو تاريخنا الإسلامي هو أساس الوجهة ، ومن العجيب أن أدونيس وثلته كانوا من المتجردين من موروثاتهم وأوساطهم وأسرهم وعقائدهم التي نشأوا عليها ، وتنكروا لما غذتهم به أمهاتهم وآباؤهم من إيمان وهكذا يدعو هؤلاء الخارجين على أمتهم - يدعون الناس إلى خروج مثل خروجهم إن هؤلاء ينكرون مفهوم الإسلام الجامع بين (الثوابت والمتغيرات) ، ويلجأون إلى مفهوم الغرب الذي كان يؤمن بالثوابت وحدها وقد دفع هذا بعض المفكرين إلى تحطيم الثبات بالدعوة إلى (التغير المطلق) ولكن هذه الدعوة لا تصلح في أفق الفكر الإسلامي لأنه لا حاجة له بها ، «لما جاء الإسلام أرسى قواعد الثبات ونظم وسائل التحول والتغيير والتطور من داخل الثوابت الأساسية القائمة على الخلق والمسئولية الفردية والإيمان بالبعث والجزاء ، ومن هنا وقف الإسلام أمام كل دعوة باطلة ترمي تحت اسم التحول إلى القضاء على الثوابت أو هزها أو النيل منها .

وتلك سنّة الله في خلقه وناموسه في قيام الأمم والحضارات وتحولها وسقوطها ..

وكل الدعوات التي حاولت أن تنال من الثوابت الإسلامية ، كالبابية والبهائية والقاديانية والقرمطة فقد تحطمت لأنها مخالفة لمنهج الله وستذهب (الحداثة) وتدوسها الأقدام قبل أن يعرف دعاتها من أين أتتهم الجائحة ﴿ وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ مهما بلغ ارتفاع اسمهم فهو إلى انحسار وانتشار فكرهم فهو إلى زوال ..

مقطع الرأي في الحداثة أنها:

أولاً: ردة إلى طفولة البشرية وهجوم مستتر على الفصحى لغة القرآن بهدف

تدمير منظومة البيان العربي التي عرفها العالم منذ أربعة عشر قرناً والمنسابة في جميع كتابات العلماء والمؤرخين والفقاء ، والتي تقوم على فقه اللغة والبيان ، والتحقيق التاريخي الذي استمده المسلمون من علم الحديث النبوي ..

ثانيا: تهدف إلى تقويض المنزع الحقيقي للأدب العربي المرتبط بالقرآن الكريم والسنّة وترمي إلى إغراقنا في مذاهب التجريدية والرمزية والدادية والسريالية ..

وقد وصفه الدكتور محمد مصطفى بدوي بأنه (الفن الذي استجاب لما حل بأوروبا من اضطراب شامل وكان نتيجة لانعدام اليقين والتجديد المعلن ، إنه الفن الوحيد الذي يصلح لانهيار العقل ولما صارت إليه من دمار إبان الحرب العالمية الأولى ، إنه فن الرأسمالية ، دارون وماركس وفرويد ، جاء بعد القضاء على الحقائق العامة المشتركة وعلى أفكارنا التقليدية عن العلية وبعد اندثار الآراء المتوارثة عن وحدة الشخصية الفردية فأين نحن العرب من هذه الأسماء ؟..

إن (المودرنزم) حركة أوروبية ليست مقصورة على دولة واحدة من دول الغرب وهي شديدة الصلة بتاريخ أوروبا السياسي ومرتبطة بفقدان الإيمان الديني وهي تطوير للرومانتيكية والرمزية والواقعية بل ظهر ما يسمى بما (بعد المودرنزم)

وهذا تختلف تماماً عن طوابع الأدب العربي العميقة الصلة بالقيم الأساسية من الدين والأخلاق ..

* * *

وإذا كانت هذه الدعوة المدعاة قد وجدت من بعض القوى ما يفتح لها الطريق فإن هذا البريق الهلامي سوف لا يثبت تحت ضوء الشمس ، وقد انهزم شواء الحداثة في المواجهة وتراجعوا في أكثر من موقع ، وحاولوا أن تغيروا

خططهم وقالوا إن شعر الحداثة يقرأ ولا يلقى ، وعجز أصحاب الحداثة عن بيان ما في نفوسهم ، فادعوا أنهم طلاب غموض وقد رفضهم المثقفون واتهموهم ، وانقطعت الجسور بينهم وبين الأدب الأصيل ..

إن هذه الدعوة وافدة وليست لها جذور وهي كالنبت الذي يوضع في الأرض فلا ينبت وقد رفض الجسم الإسلامي العضو الغريب في محاولات كثيرة سابقة ، وفي هذه المحاولة يرفض الجسم التغريب ويرفض ما وراءه من أهواء ومن أهداف ومطامع ومطامح ، لم تعد خافية على أحد ..

* * *

روائع الأدب الغربي

هذا مصطلح ذائع شائع ، يوصف به الأدب الغربي عامة والأوربي خاصة ولست أدري مصدر كلمة (الروعة) التي يوصف بها هذا الأدب ، هل هي مستمده من الروع أو من الخوف وكلاهما يشير إلى أن هذا الأدب يثير في النفس الإنسانية عوامل الفزع والجزع والأضطراب من حيث إن الأدب في مفهومه الحقيقي يجب أن يؤدي إلى الأمن والطمأنينة وسشيع في النفس الإنسانية السلامة والحنان والرحمة ، ولكن هكذا يوصف الأدب الأوربي بالروع لأنه في حقيقتة يبدو منذ اللحظة الأولي معارضاً للفطرة ولمطامع النفس السوية وآية روعته أنه يدخل إلى النفس معاني الخوف والجزع والصراع والانتقام ولاحد لذلك لأنه يصدر أساسا من تراث غربي وروماني يقوم على إباحية اليونان، وقسوة الرومان ويتوافق مع مفاهيم أكبرقادة الفكر القديم : (أرسطو وأفلاطون) الذين يمجدان الرق والعبودية ويمضي المفهوم الفني إلى العري وعبادة الأجساد الجميلة ومفاهيم الاغتصاب والجري وراء الشهوات واللذات دون تقدير لأي قيمة أخلاقية أو ضوابط إنسانية من الأساطير والخرافات عن تصارع الآلهة واحقادها في إختطاف زوجات الآخرين .

مفاهيم روائع الأدب العالمي

وتقوم روائع الأدب العالمي على المفاهيم الاتية:

١) يقوم على اللذه والشهوة والإغراق في المتع .

٢) نظرية العبث التي ترى أن هذا الكون كله لا معنى له .

(٣) نظرية الصدفة التي ترى أن كل ماهو موجود قد وجد بالصدفة .

٤) نظرية الانطلاق دون حدود.

ولما كانت هذه المفاهيم تختلف عن مفهوم الإسلام للحياة والكون فقد جاءت هذ الروائع غارقة في الأثم وفي الإباحه لتصور مشاعر الإنسان الغارق في الوحل والذي لا تحدّ وجهته أي ضوابط سواء من دين أو خلق والمندفع وراء الأهواء ، والباحث عن الأساليب الخادعة لا قتناص فرائسه.

ومن هنا تجري روائع الفكر العالمي في مخاضة سوداءمن أحقاد ونجاسات وسمومو وتصدرعن نفوس إباحية حاقدة تؤمن بأن الحياة هي نهاية كل شيء وأن على الإنسان أن يسارع في إقتناص كل لذاتها قبل أن تنتهي ومن هنا فهي تنطلق مدمرة لاتعرف الكرامة ولا العرض ولا السماحة ،

ويجرى هذا كله في إطار خطيرهو إطارالخطيئه التي تصبغ الأدب العالمي كله بروح اليأس والتشاؤم والانهزامية ، وهي روح تغمر كل كتابات الغرب ، حيث تعرض المواقف في ظلام شديد ويأس مطلق.

وتختلف مفهوم الإسلام في النفس الإنسانية عن هذا المفهوم اختلافاً واضحا عميقاً.

اولا : من ناحية اليأس وثانياً من ناحية العبث فالاسلام لا يعرف فكرة الخطيئة ولا يقرها ، ولذلك فهو مطبوعا دائما بطابع الأيجابية المتفائله:

﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا علي انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

ولا يقر الإسلام العبث :

﴿ افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ﴾

إن المراجع لروائع الأدب العالمي يجد أن (معارضة الفطرة) هي

الطابع الأساسي لها فدعوة (نيتشه) إلي العاجز أو تركه يموت دون العمل على شفائه وإبادة الضعفاء ، هي من صميم المعارضة للفطرة التي جاء الإسلام لإقرارها على إساس الرحمة بالفقير والمريض ، وقد لقي نيتشه مصيرا مظلما غاية الظلام نتيجة دعوته التي اعتمدها الاستعمار مبررا لظلمه فقد عاش نحو عشرين عاما وهو في جنون يكاد يكون مطبقا ، كذلك فقد كان أبطال دستوفسكي شواذ ومرضي وجميع أبطال فرويد شواذ ومرضي ، وكذبت التجربة قول فرويد بأن كظم الشهوة الجنسية يؤدي إلى إضطراب الشخصية ، وبين فساد استغلال فروويد للاساطير وبخاصة ما أطلق عليه (مركب أوديب) وهو أن الطفل يحب أمه حبا جنسيا ، ويجد لذة جنسيه في الرضاع ، وكانت كتابات (هافلوك اليس) في الجنس والبغاء وقد روج سلامه موسى لهذه الآراء وعاش حياته كلها ينقل عن فرويد وماركس ما يرضيه لانه على الأقل ليس لديه منهج يهديه عن طريق عقيدته .

وفي عشرات من هذه الروائع التي ترجمت إلى العربيه (أزهار الشر لبودلير) صورة دون جراى لأوسكار وايلدهكذا تكلم زرادشت،عشيقة اللورد شتاربي) نجد صورة الإباحية وأهواء النفس وغليان الشهوات في الأجساد وأحقاد الناس وشهواتهم ونجد قبل ذلك كله وبعده مجتمعا غير مجتمعنا ومفاهيم غير مفاهيمنا ، فالإسلام في جوهره لا يعلي شأن لحظات الضعف البشري ، ولا يدعو للتركيز عليها أو الاستفاضة فيها ، ولا يحتفل بالنفس البشرية وهي تنزلق من عالم الأسوياء إلى عالم الشهوات على النحو الذي نجده في الأدب الروسي) ، وقد يصور البعض هذا الأدب بأنه يفتح أفاقا تختلف اختلافا بينا عن تلك التي عهدناها في أدبنا العربي ، وكلها في الحقيقة ليست أفاقا نقية ولا مشرقة ولا كريمة ولكنها آفاق عفنه مدمرة .

لقد ترجم طه حسين (قصص الجنس الفرنسي) وترجم عبدالله عنان والزيات وفيلكس فارس وترجمت قصص أوسكار وايلد (الذي يطلق اسمه على جائزة أوسكار العالمية) تقديرا لدوره الخطير في الأدب الإباحي والمكشوف وكتب إحسان عبد القدوس وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، مقلدي هذا الأدب فهل أعطت هذه الترجمات أو القصص صورة حقيقية للنفس الإنسانية إلا في أسواء حالاتها ، أو في مرحلة سيطرة نظرية فرويد على الأدب.

لقد استخدمت القصة الجنسية لتكون أداه لترويج مذهبي فرويد وسارتر بدعوي أن الأخلاق ليست قيمة ذاتية ، ولا هي ثابته على وضع معين ، وإنما هي تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه ، وأن المجتمع هوالأصل في كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان ، ولا ريب أن طرح هذه المفاهيم واستمرار بثها عن طريق الصحافة والكتابه والإذاعة وتطعيمها القصص والمسرحيات ولأفلام السينمائيه هي من أخطر المحاولات التي ترمي إلى جعلها من المسلمات في نظر الشباب المسلم وفي نظر الذين لم يحصلوا على ثقافة إسلامية كاملة وأصيلة .

والهدف هو نفي القداسة عن الدين وعن الأخلاق بوصفها جزء من الدين نفسه والتشكيك في قيمها ، ولهذا أثره الواضح في المجتمع ذلك الأثر الهدام للمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي وهو ماقدمته فلسفات دارون ونيتشه وماركس وسارتر وفرويد ودروكايم والتي استمدت مفاهيمها من مفاهيم الإباحية الإغريقية بقوة في محيط المجتمع الإسلامي وهي تختلف تماما عن مفاهيمه وقيمه ، وباسم الواقعيه والتحليل النفسي ظهرت الوان من الأدب العالمي تخوض في أوحال الرزيلة وتعرض خفايا العورات وتجرح

كثيراً من الفضائل ، وتزعم أنها تورث الكبت ، وتبرز كثيرا من الرذائل باسم التنفيس وتسقط التبعية في كثير من الجرائم وتزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية .

وباسم التحرر واستغلال الشخصية شاعت الدعوة إلى إعادة النظر في المواريث الخلقية ومعايير الإجتماع وإلى الخروج علي كل ثابت مقرر فيما يقره الأخلاق ويقدسه الدين.

والدعوة إلى أن يبني كل فرد لنفسه عالما مستقلاً من القيم تصبح معه مقاييس الخير والشر فرديه ، فلا يكون هناك خيرهو خير عند كل الناس ، ولا شر هو شر عند كل الناس ، وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع لأن الروح الجماعية هي أساس كل تماسك اجتماعي.

* * *

ويقرر الباحثون أن الأدب العالمي كله يقوم على روح التشاؤم ويري الدكتورالمهدي بن عبود أن التشاؤم طبع وليس بعقل، وهو مزاج وليس تحصيله علم واشهر المتشائمين في الفلسفة الغربية هو (شونهور) أخذ هذا من الفلسفه الهندية ، والفلسفة الهندية تقول بان الإنسان دائما وراء الشهوات ، فإذاما لبي رغبة شهوة ما يسأم منها ثم يخلق ثانية ، ثم يخلق ثالثة ورابعة إلى ما لانهاية ، إذن لابد أن يقطع الطريق ويلغي هذا ، ويدخل في نوع من الفناء الذي يسمي (النرفانا).

أما الإسلام فلا يقر ذلك ؛ الإسلام مزاجه مزدوج ،عالم الغيب وعالم الشهادة وعالم الغيب قبل عالم الشهادة لأنه يضيئه .

والإسلام يقرر قاعدة : لا تيأس ﴿ ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ التفاؤل هو وجه الإسلام لأنه مدرسة الشجاعة واللهم لا تقطع

عنك رجاءنا هذا هو الاعتصام بالله .

وحين نراجع "صمويل بكت" ، "والبيرثومواقيا" "وكافكا" نجد هذا الطابع الأسود المتشائم يغمر الأدب العالمي كله .

" فصمويل بكت " له عالم مأساوي فاجع تملؤه المعاناه أبطاله يعيشون في أرض خراب ، علي تخوم الأبدية ، ويحسون الفناء يملأ عامهم وعلي أفواههم مذاق الرماد ، ورواياته العالمية (الروائع) تصورجهود شاب يتحرر من التزاماته العائلية والاجتماعية ليعيش على النحو الذي يعجبه ، فيرقد كسولا وسلبيا ، أما (البيرثومورافيا) فيري أن العنف موضوع يحبه الناس ويحلمون به ، والسبب أن العنف الحقيقي نادر في حياة الناس ، وأعني بذلك عنف المشاعر والافكار ، ولا يمكن تحقيقه إلا بأيدي ألناس يتسمون بالعنف حقاً ، ولذلك فاناس يريدون أن يحلموا بشيء مختلف في حياتهم.

أما " كافكا " فهو بالرغم من عالمه الموحش (فإن أدبه كله مكتئب) منعزل عدوائي ، ينسج كتاباته من خيوط إحباطاته وعنده ويرجع ذلك إلى تكونيه النفسي المعقد ، إضافة إلى إحساسه المفرط بيهوديته.

وهكذا تطغى أهواء هؤلاء الكتاب على كتاباتهم ، ويصبح ذلك كله أدبا عالميا يتاثر به ملايين الناس في الغرب ويجري ليتسرب إلى أدبنا وعالم فكرنا.

* * *

ومن هنا فإن روائع الأدب العالمي التي يتحدثون عنها لا تمثل إلا شيئا واحداً ، هوالنزوع الجنسي العنيف ، وثورة الجنس ، والدعوة إلي إعطاء

الشهوة منطلقها دون النظر إلى ضابط أو حد محدود أو خلق وإن كل الروايات العالمية الخالدة تمثل مفهوما خطيرا هو أن الجنس عمليه بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق والدين ولا صلةلها بواقع الحياة.

إن قاعدة الأدب العالمي هي تعرية العظماء ، وعبادة الجسد وتقديس الشهوة المأخوذة من الفن اليوناني الإغريقي.

والسؤال هو لماذا انتصرت نظرية الجنس التي أقامها فرويد على نظريات علم النفس الأخرى ؟!

وقد اقترن الانحلال الخلقي في الأدب الغربي بموجة الإلحاد تحت اسم العلم وحرية البحث وهي التي تدفع إلى الفساد والحرام.

والإسلام يقف من هذا التيار موقف واضحاً

أولا: ماكان الإنسان حيوانا جنسياً على هذا النحو الذي تصورة روائع الأدب الأوربي.

ثانيا: لايمكن أن يتخذ من لحظة الضعف صورة بطولة ونهمل الواقع الكبير الممتد الذي يسع جميع تصرفات الإنسان.

ولا يمكن أن تكون لحظات الضعف في حياة الإنسان هي أعظم اللحظات ، ولا هي كل اللحظات ولا هي المطلوبة دائما لتصويرها بالتفاصيل الدقيقة .

(٩٩)

نظرية الخطيئة الأصلية..

إن أخطر ما تتعرض له المفاهيم الغربية الآن : فكرة «الخطيئة الأصلية » . هذه الفكرة التى دخلت إلى الفكر الغربى النصراني من الأساطير التي عرفتها أوربا وأهمها ديانة (مترا) الذي كانوا يسمونه (مثرا إله الخلاص) حتى إن بعض الباحثين أعلن فى وضوح بأن النصرانية هى : المثراوية فى ثوب جديد . والمثراوية تحوى المعمودية والعشاء الربانى كما أن النصرانية نقلت عن ديانة قدماء المصريين التثليث (إيزيس واوزريس وحورس) وهى معروفة فى ديانات الهند .

وتقوم فكرة الخطيئة على مفهوم باطل عماده : أن هناك خطيئة أصلية ورثها الإنسان عن أبيه آدم وأن الله (جل وعلا) قد تجسد فى جسد إنسانى فى افتداء للبشر عن خطاياهم وأن هذا الإنسان مات على الصليب .

ففكرة الخطيئة تحمل فى تضاعيفها « التثليث والصلب والفداء » وتكتمل النظرية الفلسفية المنقولة من الديانة المثروية بما تعتقده النصرانية من أن الإنسان يولد إنسانا مذنبا خاطئا حاملا لما يسمى « الخطيئة الأصلية » التى ورثها عن أبيه آدم وأن الإنسان يولد والخطيئة فى إهابه وملء عروقه ، وأن الناس كلهم فى نظر الكنيسة هم أبناء الخطيئة الكبرى ، وبذرة الثمرة المحرمة التى أكل منها الأب الاكبر «آدم» عاصيا بذلك أمر الله ، وهى بهذا الحكم القاسى تدفع الإنسان إلى التعميد ليتطهر وأن المسيح قدم دمه قربانا لله ليمحو عن أبناء آدم ميراث الخطيئة الذى اقتسموه فيما بينهم ، وأن القدرة على غفران الخطايا انحدرت بالتوارث عن الرسل إلى المطارنة ثم إلى البابوات ، كما جعلت الكنيسة لها حق غفران الذنب وأعطت نفسها حق تجريد الناس من الفضائل وحق الحرمان ، وهو سلاح أساء رجال الدين النصرانى استعماله .

وقد تبين للفكر الغربى اليوم عن طريق بعض العلماء المتخصصين المنصفين فساد نظرية الخطيئة بعد أن أعلن القرآن فسادها منذ أربعة عشر قرنا . فقد وقف العلماء اليوم أمام هذه المفاهيم التى قدمتها الكتب المقدسة وعباراتها ونظروا إليها نظرة الشك والارتياب وقالوا إنها ليست حقائق وإنما هى رموز وكتابات تقدم فكرا قديمـا أقدم من النصرانيـة : وصدق الله العظيم إذ يقــول ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ التوبة : بل إن البحث العلمى الحديث فى مجال اللاهوت أثبت أنه ليس فى كتب النصارى ما يدل على أن السيد المسيح عليه السلام قال بهذه الأقانيم الثلاثة . بل فيها ما يدل على إنسانيته وبشريته وعبوديته لله تبارك وتعالى وتقول دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية :

إن تلاميذ المسيح الأولين . الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن الاعتقاد بأنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق .

ولا تزر وازرة وزر اخرى:

اما الاسلام فقد حرر العقل البشري من فكرة الخطيئة الأصلية . وشرورها التى توالت مدى القرون، ونشات من أجلها حروب ومعارك . وقد اعتبر الإسلام أن هذه « المعصية » لا « الخطيئة » قدانتهى أمرها فى حياة أدم نفسه . « فتلقى أدمُ من ربهِ كلماتٍ فتابَ عليه إنهُ هو التوابُ الرحيم » البقرة : ٣٧ . وكانت توبة أدم ماحية لمعصيته فى الدنيا والأخرة وأن الله تبارك وتعالى كتب فى صحف إبراهيم وموسى « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى » النجم : ٣٦ - ٣٨ .

فلا يرث مولود خطيئة والد ﴿ وان ليس للانسان الا ما سعى ﴾ والإسلام لا يرى ما يسمى الخطيئة الأصلية ، وفى مفهومه أن معصية الانسان تعود إلى فعل عوامل خارجية وأن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه « أى محيطه ومجتمعه

والنظام الذى يحيا فى ظله » يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

وفى نظر الإسلام . يولد الإنسان طاهرا نقيا وأنه صفحة بيضاء لم يخط عليها شئ بعد ، والإنسان فى سيره هو الذى يعطي هذه الصفحة البيضاء صفتها بعد ذلك ، ويقرر الإسلام انه ليست هناك خطيئة موروثة وان اعمال الآباء لا يؤخذ بجريرتها الابناء . ولا يجعل الغفران أو الحرمان على يد أحد من الناس حتى النبى (صلى الله عليه وسلم) ، فمغفرة الذنوب لله وحده ، والناس فى شرعة الإسلام سواء أمام الخالق جل وعلا ، وأقربهم اليه وأولاهم بفضله ومغفرته أكثرهم تقوى وإحسانا ، وباب التقوى مفتوح أمام الناس جميعا

ويقول البحث العلمى أن فكرة صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر فكرة فاسدة ، وقد بين الإسلام ذلك فقال إن الله تبارك وتعالى لا يعاقب ذرية آدم بسبب معصية أبيهم وأن القول بأن عيسى ابن الله ووحيده توسط لان يظهر فى شكل إنسان يصلب ظلما للتكفير عن خطيئة البشر قول باطل ، كما يرى الإسلام أن الانسان حر الإرادة وأن إرادته تلزمه التبعية والمسئولية أمام ربه ويقرر عدم وراثة الخطيئة .

ولاشك أن قيام العقيدة النصرانية على تجسيد الله فى جسد إنسان افتداء للبشر من خطاياهم ، وموته على الصليب قد أثار الشكوك فى معظم أصحاب الفكر ، ودفعهم إلى البحث عن الحقيقة خارج نطاق المفهوم اللاهوتى . وقد أعطى القرآن البشرية أول انطلاقة للعقل للتفكير خارج دائرة الأهواء والموروثات الباطلة والمسلمات الزائفة ، ففتح الطريق أمام الكثيرين للوصول إلى الحقيقة .

ثانيا : رفض البحث العلمى فكرة النصرانية عن الرهبانية : حيث تقول : إن الطبيعة البشرية فاسدة أفسدتها (الخطيئة) ولاسبيل إلى صلاحها وأنه علينا أن نقتل فى أنفسنا الرجل القديم بتعذيب الجسم ، أعنى أن نموت لنحيا من جديد ، وان تكون تربية الفرد ليس فى تعهد ميوله بالنماء ، بل فى اقتلاع ميله الأساسى إلى الشهوات .

وقال البحث العلمى : ان هذا تكليف للطبيعة البشرية فوق ما تستطيع بحيث لا يمكن إملاء ذلك على الأغلبية من البشر وقد أعلن القرآن فساد هذه النظرية منذ أربعة عشر قرنا ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾الحديد : ٢٧ .

ذلك ان الرهبانية حين انتشرت وطبقت كعقيدة ، أفسدت الحياة الاجتماعية. وأخلت بكل نظم العمران ، فقد فصلت الإنسان عن الحياة اعتمادا على قول القائل : « لا تهتموا لحياتكم ولا لأجسادكم » حيث أثبت البحث العلمى أن نظرية الغلو فى تحطيم شهوات البدن الطبيعية واحتقار الجسد من شأنه أن يؤدى إلى إفساد أخلاق الأفراد ، وتعليمهم النفاق والكذب ، وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة .

وقد كشف القرآن الكريم ذلك كل منذ نزوله ، ودعا الإنسان إلى العمل فى الحياة بروح العزوف عن الشهوات وإقامة المجتمع الربانى ، وجعل جزاء المؤمن المجاهد فى داخل المجتمع أعم من المؤمن المنعزل عنه ، وألغى الترهب والنسك على ذلك النحو الذى عرفته المسيحية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رهبانية أمتى الجهاد » . وقد كان مفهوم الإسلام هذا هو منطلق التجريب والبحث العلمى الصحيح الذى كشف مناهج العلم فى مجال الفلك والكيمياء والطبيعة والأحياء وصنع المنهج العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة العالمية المعاصرة ولقد كان لهذه الموجة من الرهبنة أثرها البعيد فى الموجة الحالية من التكشف والجنس والاقبال على الحياة فهى ردة فعل عارمة للرهبانية القديمة .

أما الاسلام فقد ربط بين العواطف والمشاعر ، وأحل الروابط الجنسية وحلال المطعم والملبس ، وفتح الأبواب أمام الرغبات النفسية فى إطارها الطبيعى ، وضوابطها الحقة حماية للإنسان من الانهيار ودعا إلى الجمع بين العمل للدنيا

والآخرة ﴿ وابتغِ فيما أتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا وأحسن كما أحسنَ اللهُ اليك ﴾ القصص : ٧٧ . بينما كانت دعوة المسيحية قاصرة على العمل للحياة الأخرى ، حين قررت أن حياة الإنسان ليست في هذه الدنيا وإنما فى العالم الآخر .

ولم تكن الرهبانية من دين عيسى عليه السلام ولكنها دخيلة عليه ، وقد عرفت ومورست فى الهند واقاليم آسيوية أخرى ، وعرفتها البوذية وأديان الشرق الوثنية .

وقال ليكى فى كتابه (تاريخ أخلاق أوربا) لقد ابتدعت المسيحية رهبانية أخطر من إباحية روما الوثنية تقوم على تعذيب الجسد ، فهناك من يقف على قدم واحدة ثلاث سنين ، ومن يحمل قنطار من حديد ، وقد هجروا بيوتهم وأسرهم بدون طعام ، وساروا بشعرهم الطويل يمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام يسكنون مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكلون الكلأ والحشائش ، ويعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل أعضائهم ، وأتقاهم أوغلهم فى النجاسات والدنس ، ومنهم من لم يمس الماء جلده طوال عمره ، ومنهم من لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة[٩] .

هذه هى صورة معارضة الفطرة التى حطمت المجتمع الغربى قبل بزوغ الإسلام الذى كان صاحب الفضل فى دعوة البشرية إلى العمل والعمران .

ثالثا: أنكر البحث العلمى الحديث فكرة النصرانية عن الانشطار بين النفس والجسم حيث يقول : إن الانسان مؤلف من عنصرين : النفس والجسم وإن هناك نزاعا مستمرا بينهما وإن الكمال الروحى الذى ينشده الإنسان لا يتم إلا إذا فارقت الروح الجسد بالموت أو إماتته فى حياته .

ولقد أعلن الإسلام فساد هذا المنهج قبل أربعة عشر قرنا حين قرر أن الإنسان جامع للروح والجسد ، وليس روحا خالصة ولا مادة خالصة وان عمله جامع للدنيا والآخرة .

وقد كان هذا التفريق بين الروح والجسد مصدر أنصراف كثير من الباحثين الغربيين عن النصرانية لمجافاته للفطرة والعلم . يقول ليوبولد فايس (محمد أسد)

لقد كان مفهوم المسيحية عن الله فى نظرى أفضل إلى حد لا نهاية له من مفهوم العهد القديم ، بيد أنه كان هناك عنصر واحد من النظرة الدينية النصرانية كان ينتقص من عالميته هى تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد ، بين عالم المعتقد وعالم الشئون العملية ويسبب من افتراق النصرانية الباكر، هذا عن جميع النزعات والميول التى تهدف الى توكيد الحياة والمساعى الدنيوية ، فقد شعرت أنها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافعة إلى المدنية الغربية ، فقد ألف أتباعها الفكرة القائلة «بأنه لم يكن من شأن الدين أن « يتدخل » فى الحياة العلمية ، لقد اكتفوا ان ينظروا إلى المعتقد الدينى نظرتهم إلى تقليد مسكن لم يقصد به أن يغذى أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ، وخاصة الفضيلة الجنسية فى الرجال والنساء افراديا . وكان يساعدهم على هذا اتجاه قديم جدا اصطنعته الكنيسة لم يحدث اتباعا لمبدأ الفصل بين ما لله وما لقيصر فى حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان نتيجة ذلك السياسة والتجارة فى ظل النصرانية قد تطورت في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى كان المسيح قد دعا إليه .

لقد فشل الدين الذى اعتنقه الغرب بسبب من عدم تزويده اتباعه بارشاد ثابت مقرر فى شئونهم الدنيوية فى ما كان فى رأيى يبدو أنه رسالة المسيح الحقيقية ، وأنه فى الحق المهمة الرئيسية لكل دين : أن يبين للإنسان كيف يحيا حياة صالحة ، وبشعور غريزى فإن دينه قد خيب أمله ، وبطريقة ما فقد الإنسان الغربى خلال القرون كل إيمانه الحقيقى بالنصرانية وبفقده هذا الإيمان ، فقد كان الاقتناع بأن الكون كان تعبيرا لقوة واحدة منظمة ، وأنه لذلك كان يشكل كلا عضويا واحدا ، وبسبب فقد هذا الاقتناع يعيش الآن فى فراغ روحى أخلاقى .

لقد رأيت فى ترك الغرب التدريجى للنصرانية وانصرافه عنها ، ثورة ضد ازدراء الحياة التى بشر بها بولس والتى اتهمت قديما جدا وتماما جدا تعاليم المسيح ، فكيف إذن يستطيع المجتمع الغربى أن يستمر فى ادعائه أنه مجتمع مسيحى وكيف يستطيع أن يرجو دونما إيمان ثابت أن يتغلب على فوضاه الأدبية والأخلاقية الحاضرة .

إن انشطار شرعية الدوافع الجسمانية يتضمن بصورة غير مباشرة انشطارلكل القيم الأخلاقية فى المساعى البشرية ، ذلك لأن وجود الدوافع والإغراءات والتناقضات - أى مكان الاختيار - هو وحده الذى يجعل الإنسان والإنسان وحده كائنا أخلاقيا ، كائنا ذا روح .

وعلى أساس هذا المفهوم يعتبر الإسلام - من دون سائر الاديان السماوية جميعا - روح الإنسان ناحية واحدة من شخصيته ، لا ظاهرة مستقلة وبالتالى فإن نمو الإنسان الروحى فى نظر الاسلام مرتبط ارتباطا لا انفصام له بجميع جوانب طبيعته الأخرى ، وأن الدوافع الجسمانية جزء متمم لطبيعته فهى ليست نتيجة لأى « خطيئة » أولى ، ذلك المفهوم الغريب عن تعاليم الاسلام ، بل هى قوى ايجابية وهبها الله للانسان فيجب ان يتقبلها وان يفيد منها .

ومن هنا فان مشكلة الانسان ليست فى كيف يكبت مطالب جسده بل كيف يوفق بينها وبين مطالب روحه بطريقة تجعل الحياة مترعة وصالحة يعطى للجسد حقه مما أحله والروح نور الله الهادى إلى سواء الصراط .

إن جذور هذا التوكيد الايجابى للحياة الانسانية انما توجد فى النظرة الاسلامية القائلة بأن الانسان مفطور على الخير وبخلاف الفكرة المسيحية القائلة بأن الانسان يولد مكسوا بالخطيئة الأولى ، أو بالعقيدة الهندوسية القائلة بأنه منحط ونجس أصلا ، ويجب أن يتغير عبر سلسلة طويلة من التناسخ نحو الكمال بخلاف ذلك كله يقول الكريم فى القرآن الكريم : ﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾.

أى فى حالة من الطهارة لا يمكن ان تفسد الا من طريق السلوك السئ من بعد ، « ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات » .

رابعا: عقيدة التثليث

لقد كشف البحث العلمى الصحيح فساد فكرة « التثليث » ، وكانت سببا فى تحول بعض المفكرين عن النصرانية لمجافاتها للفطرة والعقل .

يقول الدكتور « خالد شلدريك » الذى أسلم بعد أن عجز عن فهم عقيدة التثليث : إن عقيدة الأب والابن من عقائد الوثنيين القدماء فان البوذيين يعبدون (بوذا) فى طفولته مع أمه (ياما) فى نفس الصورة التى نراها منقوشة فى كل كنيسة للمسيح في طفولته مع أمه مريم .

وقد اتخذ النصارى من عيد الوثنيين للاعتدال الخريفى (٢٥ ديسمبر) موعدا لولادة الشمس عيدا لميلاد المسيح .

وفى الحقيقة ان الشخصية التى يدعيها النصارى للمسيح ليست تاريخية قطعا ، والباحث بالاساليب العلمية ليرى مبلغ ذلك من الواقع يخرج من بحثه صفر اليدين ، واعتبر ذلك البعد عن الواقعية فى أشكال الصور التى يصورون بها المسيح فإنك تجد صورته فى بلاد الشرق غير صورته فى إيطاليا مثلا ، ولا تستطيع بعد التأمل ان تستدل من هذه الصورة الوهمية على تعيين صورة المسيح التى كان عليها حقا .

ولا شك أن عقيدة التوحيد التى امتاز بها الإسلام هى أصح العقائد التى عرفها البشر ، وهى كاملة فى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية والاعتراف بجميع الأنبياء وإعلان صفات الكمال لبارئ الكون جل جلاله .

خامسا: التقيد:

يقول « اللورد هولى » الذى ترك النصرانية إلى الإسلام : إن أعم ما تركه الإسلام فى نفسى ما تجلى لى من البساطة والحقيقة بحيث وجدته يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة أو إبهام ، هذا الدين الذى ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التى لا يسع العقل الا التسليم بها ، بل هو الدين الذى يدعو الانسان الى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته .

كنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ النصرانى القائل (اذا كنت لا تؤمن بألوهية المسيح فلا تنجو من عذاب جهنم الأبدى ، واذا لم تاكل جسد المسيح وتشرب دمه فلن تنجو أبدا) ، لذلك كنت في دخيلة نفسى ثائرا على الديانة النصرانية منذ الصغر ، ان عدم تسامح المتمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب فى خروجى عن جامعتهم ، ان طهارة الاسلام وسهولته وبعده عن الاهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت هذه الاشياء أكبر ما أثر فى نفسى .

ويقول الدكتور عبدالكريم جرمانوس : لقد ارجع الإسلام الدين إلى حالته الطبيعية ولم يأت بشئ من تلك العقائد الفلسفية بل قال بكل وضوح لا إله إلا الله .

وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذى قسم الدول الاوربية فأتى بعقيدة سهلة التناول ملائمة للفطرة ، وأعطى المسلمون الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فتقدمت الفنون والآداب والعلوم باجتهادهم الذى عجز عنه النصارى وقضى الإسلام على عادة النسك ، وجعل الاشتغال بالدينا والآخرة معا هدفا للإنسان ، وكان أهله مستعينين بروح التسامح

وبعد:

فان هذه الوثائق والنصوص كلها من رجال عرفوا أبعاد الأمور وفساد

النظريات البشرية يكشف بوضوح عن عودة حقيقية إلى الفطرة واكتشاف الحقائق التى خفيت زمنا طويلا تحت ضغط الأهواء ، ويعطى هذا التيار الجديد مفهوما واضحاً أن الغرب لن يجد أمامه طريقا إلا طريقا واحدا للخلاص من أزمة الإنسان المعاصر ، والتمزق والقلق والغربة التى جاءت من فكرة واحدة خاطئة هى فكرة الخطيئة الأصلية التى ليس لها أساس حقيقى فى عالم الفكر أو العقيدة الصحيحة .

(١٠٠)

أخطاء دوائر المعارف والموسوعات العالمية

لما كانت دوائر المعارف الإسلامية الغربية المترجمة إلى اللغه العربية من أخطر أعمال التغريب والغزو الثقافى فكان لابد من إلقاء الضوء عليها وتوجيه قدر من الاهتمام بها من خلال الموضوعات الأتيه :

أولا: دوائر المعارف البريطانية والامريكية ودائرة معارف لاروس

التى قدمت مادة (اسلام) ومادة محمد ومادة القرآن على النحو الذى قدمته دوائر التبشير فى القرن الماضى ، ولم تتحول عنه رغم التغيرات الكثيره التى دخلت على الفكر الغربى باقترابه من مفاهيم الإسلام الحقيقية ، وبالرغم من كتابات أساطين كتابه أمثال "برناردشو" و"درابروجوستاف" و"لوبون" .هذه الكتابات التى صححت كثيرا مما وقع فيه المبشرون والمستشرقون عن عمد وتعصب فى فهم الإسلام . وأمامنا نصوص ما أوردته دائرة المعارف البريطانية عن مادة الإسلام ، وهى نصوص تدّعى بأن الإسلام مأخوذ من المسيحية واليهودية ، إلى اخر هذه القصة المفتراة والتى أقل ماتوصف به أنها محرفه ومتحيزة وبعيدة كل البعد عن منطلق الصيحة التى تعالت فى الغرب بالحوار مع الإسلام والاعتراف بأنه دين سماوي ،وأول ما بلغت نظر الباحث المسلم إزاء كتابات الغربين عن الإسلام ، هوتقييم المصادر التى رجع إليها الكتاب فى المادة التى تولوا الكتابة فيها ، هذه المصادر هى التى تكشف فى وضوح مدى رغبة الباحث الحقيقية فى الوصول إلى الصواب . فإذا كانت هذه المصادر قوية ومنصفة ، وكان مؤلفوها من المشهور لهم بالبراعة والسبق والإنصاف وعدم التحيز كان معنى ذلك أن الباحث ينهج نهجا علميا صحيحا وأنه جاد فى الوصول إلى فهم المادة موضوع البحث ، أما إذا كانت المصادر هشه ومتحيزة وبعضها مجهول - كما أوردته دائرة المعارف البريطانيه فى بحثها - فإن ذلك يعطى أول علامة على ضعف

منهجية البحث وعجز صاحبه - او تعمده - عن الوصول إلى بعض الحقائق حول موضوعه .

والاستشراق الغربى له موقف واضح بالنسبة للمواد الخاصة بالإسلام (عقيدة وحضارة) : هذا الموقف هو محاكمة الإسلام إلى مفهوم الدين في الفكر الغربى وكلمه الدين فى الفكر الغربى (Relgon) تعنى النواحى العبادية نحسب ، فالدين فى مفهوم الغرب علاقة بين الله والإنسان وليس كذلك مفهوم الإسلام الجامع للعلاقتين بين الله والإنسان وبين الانسان والإنسان ، وهذا مغمز آخر من مغامز هذا البحث يحول دون استيعاب جوانب الإسلام المختلفة ، وكذلك فقد عرف أن كثيرا من المستشرقين وخاصه العاملين فى دوائر المعارف الغربية يتعصبون لوجهة نظر مزدوجه ، : وجهة نظرهم إلى الدين المسيحى الذى يؤمنون به ، فهم لايقرون بوجود دين غيره أو بعده ومن ناحية المفهوم الاجتماعى والسياسى التى يحكم فلسفة الحضارة الغربية كلها ، والنفوذ الغربى فى بلاد الإسلام ، وكلها عوامل تمنع من الاعتراف بالإسلام أوتقديره تقديرا منصفاً مبرءاً من أهواء السياسة أو الدين ومن هنا جاءت (مادة إسلام) فى دائرة المعارف البريطانية (١٩٨٠) وعليها ظلال كثيرة من الشكوك والأخطاء وسوء الفهم .

ولو كان الباحث كاتب مادة إسلام فى دائرة المعارف البريطانية يستهدف حقا الوصول إلى بعض الحقيقة لكان أولى له الرجوع إلى عدد من المؤلفات الغربية - ولا نقول العربية - التي تتسم ببعض الانصاف وكثير منها مؤلف باللغة الانجليزية أو الفرنسية .

الدعوة الى الإسلام : تُوماس ارنولد

محمد : تولستوى

المنازعة بين العلم والدين : درابر

الابطال وعبادة الابطال   توماس كارليل

حضارة العرب   جوستاف لوبون

تاريخ العرب العام   سيديو

مختصرالتاريخ :ارنولد توينبي

حياة محمد   اميل درمنجم

محمد رسول الله : اتيان دينيه

تاريخ العلم : سارطون

حاضر العالم الإسلامى : لوثروب ستوارد

الإسلام خواطر وسوانح : هنرى دى كاسترى

شمس الله تشرق على الغرب : سجريد هونكه

فهذه المؤلفات مولفة أو مترجمة إلى اللغة الإنجليزية وموجود أغلبها منذ وقت طويل بين أيدى الباحثين فى الغرب ، وكذلك ترجمة معانى القرآن التى قدمها المستشرق مونتيه والتى تتميز بانها قريبة إلى الصحة وبعيدة عن التحريف ، فلو أن الباحث كاتب مادة أسلام فى دائرة المعارف البريطانيه كان يتوخى الحقيقة لرجع إلى هذه المصادر واتخذ منها مادة لبحثه ولاستطاع أن يقدم الإسلام على نحو اكثر إنصافا وفهما ، ولكن مراجعه التى وردت فى ختام البحث توحى بانه اتخذ الطريق الآخر ، وهو طريق التعصب والتحامل الذى عرف به (هاملتون جيب) وغيره فضلا عن أنها مراجع مستحدثه لايتسم أصحابها بشهرة فائقة فى عالم الاستشراق ولا قدر من الإنصاف فى عالم البحث .

أما الأخطاء المتعددة فى فهم الإسلام وفهم سيرة النبى (صلى الله عليه وسلم) فهى نفس الأخطاء التى كان يرددها الاستشراق والتبشير فى القرن

الماضى وأوائل القرن الحاضر مما يثبت صلته الواضحه بمصدريه الخطيرين : الكنيسة ووزارة المستعمرات فى الدول المستعمرة للعالم الإسلامى (بريطانيا وفرنسا وهولندا) ، وهذه الأخطاء رددها الاستشراق الغربى والصهيونى والماركسى على درجات مختلفة وتصدى لها الكتاب المسـلمون منذ وقت بعيد ، ومنـذ كـتب جمال الدين الأفغانى كتابه فى الرد على الدهريين ، وكتب محمد عبده رده على الوزيز الفرنسى هانوتو ، وماتزال هذه الأخطاء تتكرر فى كتابات خصوم الإسلام منذ أوردها "اللورد كرومر" فى كتاباته عن الإسلام ، وهى أخطاء يراد بها انتقاص الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية حتى لاتكون قادرة على إثبات وجودها واستعادة مكانتها الحقة ، وقدتجاوزالفكرالإسلامي في مطالع القرن الخامس عشر هذه الأخطاء والشبهات وأصبحت تعاليمه ومفاهيمه واضحة فى مجال الغربيين أنفسهم ، بعد أن ترجمت كتابات علماء المسلمين إليها ورددها بعض المنصفين من كتاب الغرب الذين شهدوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللحضارة الإسلامية (كارليل) والشريعة الإسلامية (لامبير) والحضاره الإسلامية (لوبون) وللعلم الإسلامى (درابر وسارطون) كذلك فقد كشف فى الاخير الدكتور موريس بو كاى حقائق كثيرة عن القرآن الكريم والكتب المقدسة أصبحت معروفة فى الفكر الغربى كله .

أما دائرة المعارف البريطانية فلا زالت خاضعة للكنيسة الإنجليزية المرتبطة بالنفوذ الصهيونى والمحتواه من التفسيرات اليهودية التى خضعت لها البروتستانتيه فى الغرب كله .

ومن أخطاء دائرة المعارف البريطانيه – وهى من أخطاء الاستشراق الغربى كله – عدم القدرة على التفرقة بين مفهومي التوحيد والنبوة بين الأديان والإسلام والفرق بين الألوهية والنبوة ، والفرق بين الرسل والصحابة ، وكذلك عجزهم عن فهم المعجزات وخطأهم في قضية وحدة الأديان، وكذلك عجزهم عن فهم التكامل

الجامع فى الإسلام ونظرية الانشطارية الغربيه ، وكذلك خطأهم فى إخضاع الإسلام الجامع بين المادة والروح لمنهج التغير المادى للتاريخ القائم على المادية وحدها .

وأهم من ذلك كله أن كتاب الغرب حين يكتبون عن الإسلام إنما يبدأون من فكرة مسبقة يحاولون اقتناص النصوص التى تؤيدهم وتجاوز النصوص التى تخالفهم .

وبالجملة فإننا نتطلع إلى أن يدخل الاستشراق عهداً جديداً فيه شيء من الانصاف والبعد عن التحريف والتعصب. وبالله التوفيق.

هذا وكل ما يقال عن دائرة المعارف البريطانيه يقال عن دائرة المعارف الأمريكية ودائرة لاروس الفرنسية .

ثانيا: دائرة المعارف الإسلامية:

أعتقد أنه من الضرورى التركيز على دائرة المعارف الإسلامية والرد عليها لعدة اسباب : اهمها أنها نشرت باللغه العربية مرتين ، الأولى عام ١٩٣٢ والمرة الثانية خلال السبعينات ، وإن كانت طبعتها الجديدة لم تتغير ، كما أن الأولى لم تكتمل إذ توقفت عندحرف (ع) تقريبا .

ولقد كتبت معظم المواد تحت إشراف المستشرق "فنسنك" وهو من أكبر المتعصبين ضد الإسلام ، وقد هاجمه الدكتور حسين الهراوى عندما رشح لعضوية مجمع اللغه العربية ، وأخطر آرائه : رأيه فى كلمة إبرهيم ورأيه فى كلمة (كعبة) فقد أشار تحت لفظ إبرهيم : إلى أن الآيات المكية ليس فيها ذكر لنسب إسماعيل لإبراهيم ، ويقول : إنه لايعرف شيئا عن شعور محمد نحو الكعبه فى شبابه وبعد الرسالة إلا بعد أن هاجر بعام ونصف ، وإن ماالديه من تاريخ حياته لا يصح أن يؤخذ أساسا تاريخيا ، ونسب"فنسنك" إلى النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه لم يشذ عن الجماعة فى العبادة المكية أى بعباره أخرى ، أنه كان وثنيا قبل البعثه ، ويفترى"فنسنك" حين يصرح أن ملة إبرهيم اخترعت اختراعاً ، ويزعم أن محمداً أراد بهذا الاختراع أن يتصل بيهودية إبرهيم ، والواقع أنه ﴿ما كان إبرهيم يهوديا ولانصرانيها ولكن كان حنيفا مسلما﴾ وقد أشار الباحثون إلى ان دائرة المعارف تحوى مجموعة من الأخطاء والدسائس الناشئة عن التعصب الأوربى ، وأن أغلب كتابها قسيس مبشرون ، يهمهم أن يخنقوا الإسلام لاينصفوه وقد أجمعت آراء الباحثين على أن دائرة المعارف الإسلامية تضم مجموعة من المحاذير التى يجب التنبه لها والتصدى للرد عليها وكشف أهدافها وهى :

أولا - سيطرة البدع الدخيلة فى الدين الإسلامي على مواد الموسوعة

بإستفاضة مثيرة حتى ليظن الباحث أنها من أصول الإسلام وقد أمعن مؤلفوا الدائرة في تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة ، وبينما تسيطر هذه البدع على الموسوعة على أنها من المعارف الإسلامية فإن الإسلام يبرأ منها ، وما جاء إلا لمحاربتها

ثانيا: القصد المتعمد فى الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة .

ثالثا : جمعت دائرة المعارف خلاصة مختلف الكتب التى ألفها المستشرقون فى الهجوم على الإسلام خلال سنوات طويلة ، وكانت متفرقه فى هذه المؤلفات التى ربما لم يكن يقرأها إلا بعض الغربيين الذين يختارون للعمل فى البلاد الإسلامية ، ثم جاءت الدائرة لتضم هذا كله وتجعل منه مصدراً إسلاميا يرجع إليه فى سهولة ويسر بعد أن ترجمت أغلبها إلى العربية (٢) .

رابعا: عندما ترجمت دائرة المعارف سواء فى المرة الأولى ١٩٣٣ أو فى المرة الثانية الأخيرة لم توجه اهمية اساسية إلى كشف الأخطاء والرد عليها والتعليقات التى أوردت فى الهامش ليس لها قوه المادة الأساسية الغلبطة ويرى بعض الباحثين أن تقديم هذه المادة بدون تعليق على مافيها من الأغلاط والمطاعن هو أضر من كتب المبشرين وصحفتهم ، لأن هذه كلها لاتخذع احدا من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الإسلامية المعزو اكثر مانقل فيه إلى كتب المسلمين فإنه يخدع أكثر القارئين له ممن يعدون من خواص المتعلمين لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ، ويقل فيهم من يعلم أن مولف هذه الدائرة من خصوم العرب والإسلام واللغة العربية (٣) .

خامسا : تجاهل المشرفون على هذه الدائرة عددا كبيرا من علماء الإسلام منهم عبدالحميد الكاتب وأحمد بن يوسف الكاتب ، وأحمد بن يوسف ، (ابن الرايه) وعمرو بن معدة ، وعبدالقادر الجرجانى ، وعلى بن عبدالعزيز ، وأبوعبيد القاسم بن سلام ، وأبوهلال العسكرى ، وأبو أحمد العسكرى ، وصالح بن

جنــاح ، وابن الخياط ، الكفيف ، وابن خاتمه الاندلسى ، وابن عنين ، وابن الصوفى ، والوهرانى ، وملك اليمن المولف عمر بن يوسف ، وعمارة بن حمرة وابن طولون الصالحى ، وابن عبدالهادى وغيرهم .

سادسا: بالمراجعة السريعة لدائرة المعارف الإسلامية نجد أن مادتها تتكون من ثلاثة عناصر :

(أولا): بلاد وأقطار وهذه يقل فيها الخطأ .

(ثانيا): شخصيات واعلام وهذه يجرى انتقاص عظمتها وبطولاتها .

(ثالثا): مواد فقهية وتشريعية (كالصلاه والزكاة والبيوع والمعاملات) وفيها يكثر الخلط والتزييف .

كما أن قصة الخلق منقوله من التوراة ، وكل مايتصل بأهل الكتاب (اليهود والنصارى) مقدم من وجهة نظر معارضة للإسلام ، وخاصه مايتعلق بمادة إبرهيم وإسماعيل والعرب وفلسطين .

سابعا: العمل على إبراز المفاهيم التى تعارض مفهوم أهل السنة والجماعة بإجلاء كل مايتعلق بالخوارج والإسماعلية والباطنية والفكر الصوفى الفلسفى المرتبط بوحدة الوجود والحلول والاتحاد ،وابراز مواد مثل الشطح ، ... وأعلام مثل " الحلاج" و "ابن سبعين" و "البسطامي"، والشعر الفارسي والصوفي والمصطلحات المتعلقة بالعشق الرمزي وتجعل مادة الشطح التي كتبها "ماسنيون" بسموم لاحد لها في عرض سيئات هذا الفكر.

وفى مجال العلوم ومصطلحات الجغرافيا تنسب جميعها إلى الإغريق كمادة الشمس والشعري اليمانية، أو المصطلحات الفقهية فينسبيونها إلي الاديان السابقة في محاولة لإعادة ما أوردته الأساطير والكتب القديمة في قصة إبليس وأدم وإحياء التراث الوثني والمسيحي في عرض أي مادة من هذه المواد بحيث يبدو

القرآن وكأنه مستودع لهذا التراث وإضافة شيء ما لم يرد في القرآن عن حواء، بل إن نصوص الموسوعة تحاول أن تجعل حواء هى القضية فى الأساس ونسبه ما يتعلق بآدم وحواء إلى النبى لا إلى الله تبارك وتعالى والتوسع فى أقوال الفرق والمذاهب والنحل ، وإعادة تأجيج الخلاف بين الفرق كما أوردته الدائره فى الحديث عن الخلاف بين الشيعة والصوفيه ، وفى التصوف تورد آراء الغنوص ، والأطلاطونية المحدثه ، والمانوية ، وأصداء النصرانية ، وفى علم العقائد ترد الأخطار إلى البثوصوفيه والأفلوطنيه .

وفى مادة صلاح الدين ابرزوا امتياز الصلبيين ، وفى الصلاة دعوى عريضة بأن النبى اتخذ شعيرة الصلاة من اليهود والنصارى فى بلاد العرب والقدح فى مادة الأصنام والصليب والصابئة .

سابعا: من الأغلاط العجيبة أن الكتاب الأوربيون ترجموا بعض الكلمات العربية ، ثم حرصوا على الكلمة المترجمة فوضعوها بين قوسين ليستعين عارف العربية بها على تحديد المعنى ، فجاء المترجمون إلى العربيه فترجموا العبارة الإنجليزية أو الفرنسية بعبارة عربية وابقوا الكلمة العربية بين قوسين ، ومعنى هذا أن الكلمة العربيه ترجمت الى الانجليزية ، فلما أريد ردها إلى لغتها وضعت كلمة أخرى مكانها لاتؤدى معناها وبقيت هى زائدة .

ثامنا : هذا نموذج للافتراء المنتشر فى الموسوعة كلها فى ترجمه (سيدنا إبراهيم) فى الحديث عن إبراهيم قال : شبرنجر ، وسنوك هرجونيه ، و"فنسنك": إن القرآن لم يحتفل بإبراهيم ولم يذكر أبوته لإسماعيل ولا أبوته للإسلام إلا فى السور المدنية ، وسر هذا الاختلاف أن محمداً اعتمد على اليهود فى مكة ، فلما اتخذوا حياله العداء لم يجد بدا من أن يلتمس عندهم ناصراً ، هناك هداه ذكاءه الشديد إلى شأن جديد لأبى العرب إبراهيم ، وبذلك استطاع أن يتخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبرهيم : تلك اليهودية التى كانت ممهدة للإسلام .

وقد رد على هذا الافتراء فريد وجدى وعبدالوهاب النجار واثبتوا أن صلة النبى برسالة ابرهيم عليه السلام بدأت منذ أول نزول القرآن وأوردا السور المكية فى هذا الصدر .

تاسعا: شكك كتاب دائرة المعارف فى عالمية الإسلام وفى قدسية القرآن .

* * *

ثالثاً: قاموس المنجد:

قاموس المنجد يشتمل على قاموسين : قاموس للألفاظ اللغوية وهذا ليس موضع المناقشة الآن وإن كان عليه مآخذ كثيره ، وقاموس أطلق عليه (معجم الآداب) إعداد فردينان فوتل وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات والذى عرض له عديد من الباحثين ، وكشفوا عن أخطائه ، وفى مقدمتهم العلامة عبدالله كنون الذى نشر فى مجلة دعوة الحق المغربية أكثر من عشرة فصول تضم أكبر من أربعمائة خطأ شائع تاريخى وعلمى (١) (وقد قرات أول تخطئة للمنجد فى مجلة الفتح عام ٩٢٦ و ١٩٢٧) .

وقد احصى الاستاذ عبدالستار فراج فى بحث له بمجلة العربى للمنجد مائة خطأ تاريخى وجغرافى من الاخطاء الصارخة ، مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقة تبرئه من الشك والإيهام ، واشار إلى أن مؤلف المنجد قد اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية أو على كتاب التمدن الإسلامى لجرجى زيدان وعلى كتاب بروكمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) .

وأسوأ ما في القاموس مادة (محمد) صلى الله عليه وسلم فعبارتها تنضح بالتعصب والحقد وفساد المنهج والبعد عن العلمية والإنصاف . يقول : محمد نبى المسلمين من بنى هاشم ، تزوج من خديجة ورزق منها فاطمه ، دعا الأعراب إلى الإسلام وانتصر على المكيين فى بدر ولكنهم غلبوه فى أحد فحاربهم فى حنين ودخل مكة ظافرا ، وهذا كلام مختلط حاقد لاصحة له تاريخيا .

ولاشك أن قاموس المنجد من أخطر القواميس التى فى كل الأيدى والمحملة بالأخطاء وخاصة فيما تحاول أن تدخله إلى الإلفاظ العربية من مصطلحات كنسية وطائفية ولاهوتيه ، وهى ألفاظ ليست عربية أصلا ، فضلا عن أنها يفسرها تفسيراً لايتفق مع مفاهيم الإسلام ويبدو من مراجعة (المنجد) فى جانبيه

اللغوى والتاريخى أن هناك محاولة خطيرة لإدخال تعابير واصطلاحات غير عربية ولا إسلامية وأغلبها كنسية ولاهوتيه وفرضتها على اللغة العربية ، ومن ذلك عبارة (جدف) وهو اصطلاح كهنوتى لم يذكره أهل اللغة ، وكلمة (قدس) وقداس مما يورده الكهان النصارى .

يقول الأستاذ عبدالله كنون : وفى نظرنا أن المسئول عن الأخطاء الكتاب التى يحتويها هذا المعجم هو المصادر التى اعتمد عليها المؤلف ، فهى جميعها مصادر غير أصيله ، لأنها تتراوح بين مصادر أجنبية ومصادر محدثة حيث اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية ومجانى الأدب للأب شيخو اليسوعى ، ومؤلفات جرجى زيدايه وبردكلمان وهذه كلها مراجع غير موثوق بها .

وهانحن نرى أنه ليس من بين هذه المصادر مرجع أصلى من الكتب العربية القديمة المعتمدة فى كثير من المواد التى يشتمل عليها المعجم ، أضف إلى ذلك أن الترجمة من المصادر الأجنبية كثيرا مايغير بها لفظ الشئ المترجم وخاصة إذا كان اسم محل أو شخص غريب لاعلما للمترجم له ، فلا ينفع فى هذه الحالة إلا الرجوع للمصادر الأصيلة التى ترده على وجهه ، ولايقال ان هذه هى أهم المصادر ، ثم مصادر لم يذكرها المؤلف ومن المحتمل أن تكون من الصنف الأصيل لأنه لو كان شئ منها معتمداً عنده لأشار له أو لبعضه على الأقل .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن من أكبر أخطاء المنجد سكوته عن بعض الحقائق كموقفه من (مسيلمه الكذاب) ، حيث يقول عنه : مسيلمة من بنى حنيفة فى اليمامة عاصر محمداً – صلى الله عليه وسلم – وعرض عليه أن يشاركه النبوة فقتل فى موقعة عقرباء ، ولم يذكر أن نبوته كاذبة على سبيل التمويه بأنها صادقة ، أو ما يذكر عن جعفر بن يحى البرمكي ، ويصفه بأنه زوج العباسة أخت الرشيد ، وهذا الزواج لاحقيقة له ، وإنما هو أسطورة ظهرت بعد مقتل البرمكي بعشرات السنين .

وهناك عشرات الأخطاء من هذا النوع المغرض البعيد عن الحقيقة .

رابعا: الموسوعة العربية الميسرة:

هذه الموسوعة التى هى ترجمة حرفية لدائرة معارف جامعة كولومبيا التى وضعت تحت إشراف علماء صهيونيون وترجمها الأستاذ شفيق غربال ، وكوكبة من الباحثين وأضافوا إليها المواد العربية ، وقد ترجمت وأعدت دون تقدير للتاريخ العربى الإسلامى وحقائقه ودون اعتبار لحاجة الباحث العربى فهى لا تحمل مطلقا أى وجهة نظر عربية لما تناولة من موضوعات وهى تنكر أساسا للسنة الهجرية ، والتاريخ الهجرى فى كل ماتورده من مواد ، وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء .

فإذا عرضنا للمواد الإسلامية وجدناها ضعيفة جدا وفاتره ومدرسية إلى أبعد حد ، وليس فيها من السعة أو العمق مانجده فى المواد التى لا حاجة للباحث العربى بها ، هذا بالإضافة إلى غلبة طابع السيطرة الصهيونيه على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان .

وفي المقارنة بين مادة (مسجد) ومادة (مسرح) نجد أن المسجد قد كتب عنه خمسة عشر سطراً ، فى حين كتب عن المسرح ١٧٠ سطراً ، أما تصويرها لمادة شريعة ومادة صلاة ومادة حقوق فهو تصوير بدائى وساذج .

وتضم الموسوعة بعض المواد التى اعتمد فيها على الإسرائليات والروايات التى تضمها الكتب غير العلمية كمادة (إسرائيل) وأسوأ ما فى الموسوعة أنها تحمل وجهة نظر اليهود فى مختلف المسائل فهى تحاول ان تفرض على الباحث العربى المسلم مفهوما خطيرا بالنسبة لفلسطين لايتفق مع حقائق التاريخ .

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قد حرر تحت إشراف أسماء عربية لامعة كالدكتور إبراهيم مدكور ، والدكتور أحمد فواد الأهوانى ، وغيرهما ، وإن

قلة من الكتاب المسلمين والعرب قد ذكرت أسماؤهم فى المقدمة كمحررين لفصول الموسوعة .

وقد أحصى الاستاذ على جواد الطاهر على الموسوعة العربية الميسرة ٣٧٠ خطأ تاريخياً ، وأورد ذلك فى بحث ضاف نشره فى مجلة المجمع العلمى بدمشق عام ١٩٦٩م .

خامسا: الموسوعة الإسلامية الميسرة:

هذه الموسوعه التى أعدها (جب وكريمرز) هى خلاصة دائرة المعارف الإسلامية ، وهى تقع فى الإنجليزيه فى مجلد واحد ، وقد ترجمت أخيرا إلى العربية بمعرفة الدكتور راشد البراوى ، وطبعتها مكتبة الانجلو فى القاهره ، وقد صدرت في مجلدين (١٢٥٦صفحة من القطع الكبير) وقد قدم الدكتور "أحمد عطية"مراجعة واسعة لها تحت اسم (القاموس الإسلامي) وقد توفي رحمه الله قبل ان يتمه، وكان حريصا على تصحيح جميع ما فيها من أخطاء .

وفى العام الماضى قام الدكتور سالم اليافعى بحرق غلاف الموسوعة الإسلامية الميسره فى مهرجان طبى كبير فى تركيا إعلانا منه بأن الأمة الإسلامية قد وصلت - على حد تعبيره - إلى مرحلة(انفطام) العقل العربى الإسلامى عن (لبان) الحضارة النصرانية اليهودية والعقل الاستشراقى الغربى ، وهى فى نفس الوقت دعوة إلى العودة إلى المنابع الإسلامية ممثله فى القرآن الكريم ، وعلومه الانسانيه الكبرى ، وتراثنا الحضارى الشامخ من علم وطب وتاريخ وفقه وسياسة واقتصاد .

ويقول الدكتور اليافعى : إن الموسوعة الإسلامية الميسرة هى خلاصة الفكر الغربى (خلال الأربعة قرون الأخيرة) وقائمة أسماء الذين اشتركوا فى إعدادها يصل إلى أربعمائه اسم ، وبها تتم مناقشة القضايا الإساسية التى تتصل بالعقيدة كالقرآن والسنة والرسول والصلاة وغيرها من فروض وأركان من خلال مستشرقين يهود ونصارى يدسون فيها سموما تهدف إلى تشويه الفكر الإسلامى وإثارة الشبهات حول شخصياته .

فمثلا : السيرة النبوية تحت مادة "محمد" (صلى الله عليه وسلم) قام بكتابتها المستشرق الشهير (بوهل) الذى يعد من أكثر المستشرقين حقدا على

الإسلام وعلى النبى (صلى الله عليه وسلم) حيث ملأ مؤلفاته بالدس اليهودى النصرانى وإثاره الشبهات حول أحداث السيرة بطريقة ممجوجة تفتقر إلى المنهج العلمى السليم ، كذلك أعدت مادة (قرآن) بغرض التشكيك فيه ، وكتبت مقالات عن الشخصيات الإسلامية مثل أبو بكر والعباس بن عبدالمطلب ، وبلال ومصعب بن عمير ، وبعص أمهات المؤمنين ، وبعض أنبياء جزيرة العرب السابقين كصالح وشعيب كلها سموم وشبهات . كما اهتمت الموسوعة بأصنام العرب قبل الإسلام ومأأسمته طقوس الحج .

ويمكن القول بأن هذه الموسوعة تمثل زبدة جهود الاستشراق فى الغض من شأن الإسلام خلال أكثر من اربعمائة عام (وعلى الأقل من خلال ألف كتاب) .

ويرى الدكتور سالم اليافعى - ويرى معه كثيرن - أن أبرز إنتاج فكرى للحضارة الغربية هو دائرة المعارف الإسلامية التى عملت على تشويه المعانى المصرية ، وهى تمثل زبدة تراث المستشرقين اليهود والنصارى خلال الأربعمائة سنه الأخيرة فى محاربة العقيدة الإسلامية ، ومع الأسف فإن كثيرا من أبناء المسلمين من خريجى المدارس الغربية كان مصدر إلهامهم الرئيسي لمعرفة التاريخ الإسلامى والحضارة والإسلامية هذه المصادر المسمومة .

وإننا لكى نبدأ دورتنا الجديدة للحضارة الإسلامية يحب أن نحرر أولا نفسيا وداخليا من الأعماق من عقدة تقديس الغرب والعقل الأوربى بفرعيه (الأمريكى والروسى) ، ولطريقة تشكيلنا لهذه الانطلاقه سابقة فى اوربا ، حيث قام الطبيب الأوربى (بالاسلوس) عام ١٥٢٧ فى مدينة بازل بسويسرا بحرق كتب الطبيب المسلم الفيلسوف ابن سينا في الميدان العام بمدينة بازل مسجلا بداية (انفطام) أوربا عن الحضارة العربية الإسلامية .

واعتقد أن علينا اليوم أن نزيل الهالة الإعلاميه التى تحيط بهذه الموسوعة فى

محاولة الإيهام بأن مافيها هو العلم الوحيد وأنه فوق مستوى الشبهات ويجب أن يكون واضحا أن الموسوعة تخضع للصواب والخطأ .

والنتيجه هو :

اولا : إن أغلب كتاب المسلمين وعلمائهم لا يقدرون مدى خطورة هذه التبعية التى يقع فيها الفكر الإسلامى لدوائر المعارف الغربية ، وخاصة دائرة المعارف الإسلامية ، لأنها نقلت إلى العربية (وهناك دائرة معارف البستاني وغيرها) وكلها مسمومة .

ثانيا : بالرغم من أن عدداً كبيراً من كتاب الصحوة الإسلامية قد واجه كتابات المستشرقين ومتعصبى الغرب ورد عليها أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وشكيب أرسلان وفريد وجدى وحسين الهراوى ومصطفى صادق الرافعى وكرد على ومصطفى السباعى وعائشة عبدالرحمن ومالك بن نبى ومحمد البهى ومحمد الغزالى ومحمد محمد حسين ومحمود محمد شاكر وكاتب هذه السطور ، فإن المجهود المطلوب هو أكبر كثيرا .

ثالثا : لابد من مراجعة كافة مواد الموسوعة : دائرة المعارف ومختصرها (الموسوعه الإسلاميه الميسرة) وإعداد موسوعة أصلية .

وفى هذا المجال يمكن الانتفاع بالتجربة التى قامت بها جامعة البنجاب فى الهند ، حيث قامت برفع جميع المواد المنحرفة والمشبوهة وتقديم بديل إسلامى صحيح عنها بأقلام علماء مسلمين ، ثم ترجمة الدائره بشكلها المصحح إلى اللغه الأوردية ، ويمكن الانتفاع بهذا الجهد وترجمة الدائره الأردية إلى اللغة العربية لتحل محل دائرة المعارف المشبوهه .

رابعا : ضم الجهود المفرقه والموزعة ، فهناك كتاب في مجلدين أصدرته مؤسسة (مكتب التربيه العربى لدول الخليج ضم أكثر من ٣٠ بحثا بالرد على

كتب استشراقيه مسموحة ومشهوره .

وهناك كتابان اشترك فى إعدادهما السيد محب الدين الخطيب والبرفسور ظفر على القرشى مايزالان مخطوطان ،

هذا وبالله التوفيق ،،

ما هي العوامل التي أثرت في تكوينكم وحددت وجهتكم الإسلامية ؟

ـ الاجابة عن السؤال الذى وجه الى الإستاذ (على خواصه) طالب الدكتوراه فى جامعة كالكيوت كيرالا : الهند....

:- « كان جدى لوالدتى قاضيا شرعيا يشتغل بتحقيق التراث وكنت اراه وهو يكتب فى اوراق من الكاغد يجعل لها اطاراً بالحبر الشينى الاحمر ويكتب فى داخلها بالحبر الاسود ماعدا العناوين فيجعلها بالحبر الاحمر أيضاً .

وكان ابى يشتغل بتجارة القطن ولكنه كان حفيا بمتابعة الاحداث الوطنية والعالمية ولذلك كان بيتنا مغموراً بالصحف والمجلات وصور الابطال امثال عبدالكريم الخطابى زعيم حزب الريف فى المغرب وانور باشا القائد التركى الذى اشترك فى حرب طرابلس وبه أسمانى الوالد تيمناً واعجاباً ، وقد ذهبت مع لداتى الى (الكتاب) ثمة ثم راى الوالد ان يستقدم لنا شيخا انا واخوتى يحفظنا القرآن فى البيت ، وكانت بلدنا (ديروط) من أجمل بلاد الصعيد حيث تسقيها ثلاثة روافد من الماء : الإبراهميه وبحر يوسف والدلجاوى ، وكنا نخرج فى المساء جماعة من الشباب تغّذ السير طويلا بجوار الابراهميه نحرجم شجر التوت ، والجميز ، ونقف بجوار القوارب ونقرا عن ظهر قلب (رواية ماجدولين) التى كانت واحده من الروايات التى تترجم عن الفرنسيه ثم يصوغها الشيخ المنفلوطى بقلمه البليغ فى بيان رائع وكنا نتحيز له لأنه من بلده تجاور بلدنا ومن المنفلوطى انتقلنا الى الرافعى والزيات : مدرسة واحده هى مدرسة البيان العربى الحديث وكانت ديروط وهى بلده جديدة فى التاريخ ، تحاول ان تفخر باسماء من ولدوا فيها وكان فخرها شديدا بمولد شاعر النيل حافظ ابراهيم على ضفافها فقد كان والده مهندسا فى بناء قناطر ديروط

ولذلك فانه عندما اعلنت مجلة (ابولو عام ١٩٣٣) وعمرى سبعة عشر عاما عن أصدار عدد خاص عن حافظ بعد وفاته جردت قلمى بكتابه كلمة منتدبا نفسى عن ابناء ديروط ومازلت افخر بانى كتبت فى (ابولو) فى هذا السن وقد فتح لى باب النشر فى جريدتى البلاغ وكوكب الشرق وكانت ديروط قد خرجت من دور تاريخى قامت به فى ثورة ١٩١٩ هو موضع فخارنا ، وكانت بيوت أهلنا الذين استشهدوا تواجهنا كل صباح فنذكرهم ، وكان بيتنا يشرف على باحة واسعه من الحقول الخضراء يحدها شريط القطار القادم من القاهرة الذى كنا ننتظره فى لهفه لنرى وجه القاهرين المسافرين الى الاقصر واسوان ونترقب الصحف مقدمتها جريدة البلاغ والسياسه الاسبوعيه ومجلة الرساله وكان يعجبني الحديث ذو شجون للدكتور زكى مبارك الذى اغرانى بالكتابه اليه منذ بدات اجرب خطواتي في عالم الكتابه بعد ان تجاهلتنا الصحف الكبرى فارسلنا اليه فبعث يقول : ان الصحفيين الذين ننتظر تشجيعهم لا خير منهم على الاطلاق فالصحف قوى كبرى لا تشجع المغامرين وعليك ان تقرأ كل مايقع تحت يدك من الكتب والصحف والجرائد وتصبر حتى تصبح قوة ادبية كبرى عند ذلك تجد الادباء ينصفونك وهم راغمون) .

وقد شاء ظروف والدى ان التحق بالعمل فى بنك مصر وأن أدرس التجاره واعمال المصارف حيث كنت اواصل فى المساء دراسات اخرى فى جامعات اجنبيه بالانتساب لدراسه الاقتصاد وادارة الاعمال وكان مجال الآدب والكتابة فى الصحف غالبا على كل مطامحي ووجهتي وفي مطالع الشباب كانت اوقاتى مقسمه بين مجالس العلم وحلقات الذكر ، اما حلقه العلم بالمسجد الكبير فكانت بعد صلاة العصر الى صلاة المغرب حيث كان هذا الشيخ الجليل يحدثنا عن الفرائض والنوافل ، اما حلقة الذكر فكانت تعقد بين صلاة الفجر حيث كنا نحرج فى الغلس « الي المسجد القريب فندير الساقية التى ترفع الماء من البئر الى

الصنابير ثم نصعد الى المآذنة فنبادر قبل اذان الفجر ، فاذا صلينا الفريضة انتظمنا فى حلقة ذكر الطريقة الشاذليه حتى تطلع الشمس .

وكنا نتطلع الى العلماء فنزورهم فى منازلهم نسأل عن الكتب فاذا اتجهنا شرقا فالى عيادة الدكتور امين ابرهيم نسأل عن مقدمة ابن خلدون واذا اتجهنا جنوباً فالى بيت الشيخ طه نسأل عن الاحياء للغزالى فاذا اتجهنا شرقا حيث بيت الشيخ بكر نسأل عن صحيح البخارى ، ولكنا كنا نقرا فلا نفهم الا قليلا وكانت تغلب علينا هداية الادب والكتابه الذاتيه فنرسل بكلمات الى الصحف الاقليميه ونحاول ان نربط انفسنا بالقاهره فى طموح بالغ الى العمل بالصحافه ، وكان الاستاذ محمد ابرهيم صاحب جريده الامانى القوميه يعمل فى بلدنا (وله دكان بقاله كبير) وبين يوم وليله قيل انه سافر الى مصر ليعمل فى الصحافه مؤيدا لحزب من الاحزاب ثم جاء ثمه عائدا ولقينى واغرانى بالعمل معه ووعدنى باجر يضاعف ما احصل اليه ثلاث مرات فغافلت أهلى ذات مساء لاركب قطار منتصف الليل الى القاهره لالتحق بالعمل معه لولا ان من اودعته حقيقتى وشى بي للوالد الذي اقتنصني قبل أن أهم بركوب القطار وقد وعدني بأن يصطحبني الى القاهرة فى اجازة الصيف وهناك التقينا بالدكتور زكى مبارك في محل (اسديه) الحلوانى حيث حطم مطامحى وردنى الى بنك مصر ومما دار بينى وبينه قولى – انها رغبة اود ان أحصلها فكيف أقتلها ، قال – اقتلها قبل ان تقتلك .

وكان من فضل الله أنى تأخرت فى الريف عشر سنين قبل ان يدعونى الرجل الكريم لاعمل فى اول صحيفه يوميه اسلاميه صدرت عام ١٩٤٦ فى القاهرة وكانت هذه الفتره قد صهرتنى وغيرت وجهتى واعادت تشكيل نفسى وحولتنى من هذف الى هذف فبعد ان كنت اسعى الى اضواء القاهرة اذا بي اسعى الى اضواء الاسلام بعد ان اكتشفت مؤامره التغريب التى رسمها هاملتون جب فى كتابه (وجهه الاسلام) وكنت ابحث عن مواجتهها من خلال وجهه حاسمه .

نعم كانت مجله السياسة الاسبوعيه قد نشرت ملخصا لذلك الكتاب بقلم الدكتور محمد حسين هيكل الذين كان قد انتهى لتوه من نشر فصول كتاب (حياة محمد) فى ملاحق السياسه وكنا نتابعها منذ اليوم الاول انا ولداتي وكانت ينشرهامترجمة عن اميل درمنجم ويعلق عليها الدكتور حسين الهراوى فيصحح وجهه الدكتور هيكل ويكشف مؤامره الاستشراق . وفي هذا الكتاب قال جب ان هناك خطه لتغريب عالم الاسلام وان هذه الخطه قد حققت بعض اهدافها فى التعليم والصحافه والقضاء على الشريعه الاسلاميه واقامة المصرف الربوى وان الاسلام انحسر الى المساجد فاين الخطوة التاليه ، هذا ما يحاول دراسته مع اربعه من المستشرقين .

ولم يكن الدكتور هيكل غريبا عنى فقد كنت ادمن قراءة الهلال والمقتطف وكنت شغوفا بمقالة نشرها تحت عنوان (النور الجديدة آيان يكون مطلعه) تنبا فيها بالصحوة الاسلاميه التى سيشرق نورها على العالمين بعد ان فقدت الحضارة الغربيه هدفها الروحى وغرقت فى المادية وكان ذلك عام ١٩٢٦ وعمرى اذ ذاك عشر سنوات ، وهو بعد قليل من سقوط الخلافه الاسلاميه فى تركيا وتطلع المسلمين الى افق جديد ربما تمثل فى الدعوه الى الى كومنولث اسلامى بدلا للخلافه كما دعا الدكتور السنهوري، أو الانتقال من مرحلة الفكره الإسلامية القائمه على القرآن كما دعا اليها جمال الدين ومحمد عبده الى الدعوه الاسلاميه التى تبنى جيلا من الشباب المهم يحمل لواء العمل وهو ما نادى به شيخنا حسن البنا ، وكان لقائى به نقطه التحول الحقيقه فى وجهتى واجابة على تساولاتى عن فكرة التغريب ولذلك فقد اتجهت منذ اليوم الاول الى دراسه الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى .

كنت احاول تقليد جرأة الكتابة كما يفعل جيلنا المخدر بالبريق الغربي المفرغ من المفهوم الاسلامى ، ولكن الصدمه افاقت فى اعماقى احساسى بمسئولية

كبيره تجاه تراثنا وعقيدتنا ولغتنا حتى كان هذا التحدى ومازال بعد خمسين عاما قائما فى الى اليوم وبالرغم من كل ماكتبت وسطرت ، كانت دعوه الامام حسن البنا الى بناء المجتمع الاسلامى على منهج القرآن هى الطريق الذى اخذته وامنت به حيث وجدت حلا لكل الاسئلة التى كانت غلا على مشاعرى وكان ذلك مقدمة لسفري الى القاهره للعمل فى الصحافه الاسلاميه منذ ذلك اليوم .

انور الجندي

(أبحـاث الكـاتـب ١٩٦٤ - ١٩٨٦)

International Institulagy Islamic Thought

طلب إلى الأستاذ الدكتور عبدالحميد أبو سليمان المدير العام للمعهد العالمي الفكر الإسلامي بواشنطون بالولايات المتحدة :

قائمـة مفصلـة بالإنتاج الـذي قدمـه البـاحث واستجابة لذلك نكتب هـذا الثبـت :

أولا : المؤلفات في دائرة الدراسات الإسلامية :
حسب الترتيب التاريخي :

(١٩٦٤)

المرحلة الأولى:

الإسلام وحركة التاريخ .
خصائص الأدب العربي .
القيم الأساسية للفكر الإسلامي .
الفكر الاسلامي في مواجهة التغريب والغزو الثقافي .
يقظة الفكر الاسلامي في مواجهة التغريب والغزو الثقافي .
يقظة الفكر الاسلامي - ملحقاً به كتاب (قضايا) .
الاسلام والثقافة العربية .
على مشارف القرن الخامس عشر .
العالم الاسلامي (قضاياه السياسية والاجتماعية والفكرية)
معالم الثقافة العربية وانتمائها الاسلامي .
قضايا الفكر ومشاكل العصر

المرحلة الثانية: سقوط العلمانية .
الفصحى لغة القرآن .
التربية وبناء الأجيال .

الآسلام والعالم المعاصر .
الاسلام والدعوات الهدامة .
أخطاء المنهج الغربى الوافد .
الاسلام والفلسفات القديمة .
الاسلام والأيدلوجيات
اليقظة الاسلامية فى مواجهة الاستعمار
« « « « التغريب

المساجلات الادبية

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج : فى عشرة مجلدات (صدر منها من ١ إلى ٦) حتى الآن
(١) الفكر الاسلامى
(٢) تاريخ الاسلام
(٣) العالم الاسلامى
(٤) اللغة والأدب والثقافة
(٥) التبشير والاستشراق
(٦) المجتمع الاسلامى
(٧) العلوم والحضارة
(٨) الإســلام وموقفة من الفلسفات الأخرى
(٩) المنهج الغربى : أخطائه وشبهاته
(١٠) حركة اليقظة الاسلامية

(١٩٧٥)

المرحلة الثالثة :

آفاق جديدة للدعوة الاسلامية فى الغرب
العروبة والاسلام
الاسلام والغرب
« والعلــم
« والحضارة
المجتمع الاسلامى

مقدمات المناهج
تاريخ الاسلام
الشعوبية فى الأدب العربى الحديث
المؤامرة على اللإسلام
من التبعية إلى الأصالة
الأيدلوجية التلمودية
حركة اليقظة الاسلامية
مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق
الاسلام فى وجه التغريب : الاستشراق والتبشير)
الاسلامية : نظام مجتمع ومنهج حياة
هزيمة الشيوعية
طه حسين : حياته وفكره فى ميدان الاسلام
صفحات مضيئة من التراث
الصحافة والأحلام المسمومة
عالمية الاسلام
الامام الشهيد : حسن البنا

(١٩٨٠)

المرحلة الرابعة:

الشبهات والأخطاء الشائعة:

معالم التاريخ الاسلامى المعاصر
المد الاسلامى
الإسلام : حضارة وتاريخ
القرن الخامس عشر : قضاياه ومشاكله
إطار إسلامى للفكر المعاصر
شبهات التغريب

الصحوة الاسلامية:

نوابغ الاسلام
عقبات فى طريق النهضة
المدرسة الإسلامية

العودة إلى المنابع
تصحيح المفاهيم
جيل العمالقة والقمم الشوامخ
إعادة النظر فى كتابات المصرين
محاكمة طه حسين
سموم الاستشراق فى العلوم الإسلامية (٥٩)

دراسات فى مراحل مختلفة

(١) أحاديث إلى الشباب المسلم فى ١ /٢/ ٣
(٤) بماذا انتصر المسلمون
(٥) ونذكرهم بأيام الله (٦) أعلام الإسلام
(٢) الرسائل الجامعة ٤/٢/٣/٤/٥
(٧) الرجل القرآنى
(٣) فى دائرة الضوء (خمسون حلقة)
(٦) تاريخ الصحافة الإسلامية - المنار - الفتح
(٤) معلمة الإسلام (صدر منها ٥٠ حلقة وتستكمل الآن إلى المائة)
(٥) على طريق الأصالة الإسلامية (قضايا معاصرة وبيان وجه الإسلام منها (٢٠ حلقة)
(٦) العلوم الإسلامية (تضم ١/٢/٣) تحت الطبع

التأليف في العمل والتراجم

(موسوعة معالم الأدب العربى المعاصر)

النثر - الشعر - القصة - الترجمة - أدب المرأة - المعارك الأدبية - أدب المقاومة والتجمع - الفكر والثقافة فى شمال أفريقيا - مفكرون وأدباء - آفاق جديدة ، صفحات مجهولة .

تراجم : أعلام وأصحاب أقلام - تراجم الأعلام فى العالم الإسلامى - أعلام القرن الرابع عشر الهجرى .

تراجم مفردة : حسن البنا - عبدالعزيز جاويش - أحمد زكى شيخ العروبة - المراغى - فريد وجدى - زكى مبارك بقلم انورالجندي (محرم ١٤٠٦)

موسوعة القرن الخامس عشر الهجرى

نتطلع بإذن الله وفضله إلى أن تصل موسوعة مقدمات العلوم والمناهج بدراسات جديدة تمثل عدداً من المجلدات من الحادى عشر إلى ما يشاء الله نتناول منها قضايا القرن الخامس عشر الهجرى وحولياته وتحدياته :

المجلد الحادى عشر : القرن الخامس عشر الهجرى

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى

(٢) دراسة تاريخ الغزو الفكرى والتغريب فى ما بين الحربين

(٣) قضايا القرن الخامس عشر الهجرى .

المجلد الثاني عشر : الصحافة والأدب

(١) الصحافة والأقلام المسمومة

(٢) إعادة النظر فى كتابات العصريين .

(٣) جيل العمالقة والقمم الشوامخ .

المجلد الثالث عشر : الصحوة الاسلامية

(١) المد الاسلامى

(٢) الصحوة الاسلامية

(٣) عقبات فى طريق النهضة .

المجلد الرابع عشر : الدعوة الاسلامية

(١) المدرسة الإسلامية

(٢) فى مرحلة الحصار

(٣) العودة إلى المنابع .

المجلد الخامس عشر : التراث الاسلامية

(١) الاسلام تاريخ وحضارة .

(٢) نوابع الاسلام .

(٣) صور مضيئة من التراث .

فهرس

معلمة الإسلام

(٥١ - ١٠٠)

القسم الثاني : القضايا العامة :

رقم الايداع
٢٧٠٢ /٩١
I.S.B.N
977-255-028-8

